وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

غوغول



سيرة نفس ممزقة

تأليف: هنري ترويا
ترجمة: حصة منيف

غوغول

سيرة نفس ممزقة

تأليف: هنري تروبا

ترجمة: حصة منيف

المراجعة اللغوية: بيان الصفدي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٠

غوغول

سيرة نفس ممزقة

العنوان الأصلي للكتاب:

GOGOL

The Biography of a Divided Soul

HENRI TROYAT

غوغول : سيرة نفس ممزقة / تأليف هنري تروبا ؛ ترجمة حصة منيف؛ مراجعة بيان الصفدي .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠ .- ٥٩٢ ص؛ ٢٤ سم .

١- ٩٢٨: غوغول ، نيقولاي ت ٢- ٨٩١,٧٠٠٩ ت ر و غ
٣- العنوان ٤- تروبا ٥- منيف

مكتبة الأسد

١ ــ الطفولة

عندما تبيّن لماريا إيفانوفنا جوجول – يانوفسكي أنها حامل من جديد أفسد الخوف عليها فرحتها بهذا الحمل: إذ بعد ولادتين انتهتا نهاية سيئة وكادتا توديان بحياتها، هل ينتهي هذا الحمل أيضاً بولادة طفل ميّت؟ وبما أن القلق نفسه انتاب زوجها فاسيلي أفاناسييفتش فقد أحاطها بالافتتان الذي يشوبه التخوف. وبهدف استرضاء الأقدار الحاقدة تلك قرر الزوجان أن يسميا طفلهما «نيقولاي»، إن كان ذكراً، وذلك تيمناً بالأيقونة البديعة للقديس الذي يحمل هذا الاسم والذي يتعبّد له سكان قرية ديكانكا المجاورة. كما طلبا من قسّ تلك القرية تأدية صلاة يومياً لعل ذلك يحقق نتيجة مرضية. وما لبثت أن تنامت غابة من الشموع النحيلة حول تلك الأيقونة. وفي حين كانت أيام الصيف القائظة توشك على الأفول أخذ الزوجان يجاهدان في حملة سهر صارمة إلى درجة التعذيب بما يصاحبها من رسم خطط وأداء صلوات.

كان الزوجان المسالمان منكفئين في حياة هادئة في إقطاعتهما «فاسيلييفكا» في مقاطعة «بولتافا»، في قلب أوكرانيا، هنالك بيت خشبي خفيض تنتصب أمامه مجموعة من الأعمدة على شكل نصف دائرة، إضافة إلى حديقة، وبركة ماء، وفناء مزرعة يضج بقوقأة الإوز، وسبحات من شرائح التفاح والإجاص المعلّقة على قمة السياج لكي تجففها أشعة الشمس. هنالك أكواخ للخدم الكسالى المرحين، وحوالي ألفين وسبعمئة فدان من الأرض، وما يقارب مئتين من الأقنان العاملين في حقول الإقطاعة. فماذا يمكن لمن لا تجذبهم أضواء المدينة أن يرغبوا به بعد كل ذلك؟

كان فاسيلي أفاناسييفتش ينحدر من أسرة أوكرانية قديمة ارتفعت إلى مستوى النبلاء إبان الولاء لبولندا في القرن السابع عشر. وفي حوالي عام (١٦٥٥) اكتسب «أوستاب جوجول» أحد أجداده سمعة مرموقة حين قاتل إلى جانب الزعيم القوزاقي «بيتر دوروشينكو» حيث كان برتبة كولونيل في قوات القوزاق. جده لأبيه، «داميان»، كان قسّاً. أما ولده «أفاناسي داميانوفتش» فقد درس العلوم الكنسية في معهد بولتافا اللاهوتي، ثم في الأكاديمية الإكليركية في كييف. غير أنه ما لبث أن هجر مهمته الدينية تلك في النهاية واستقر إلى جانب زوجته التي كانت تدعى قبل الزواج الآنسة «ليزوجوب». كانت تنتمي إلى أسرة سحيقة في القدم ترجع لأصول من النبلاء القوزاق. وقد أقاما في إقطاعة فاسيلييفكا الصغيرة[١] التي كانت الزوجة قد أتت بها كدوطة «بائنة» لدى زواجها.

في هذه المزرعة رأى فاسيلي أفاناسييفتش النور عام ١٧٧٧. كان بدوره ولداً وحيداً انتهج أيضاً تقليد العائلة حيث درس في معهد بولتافا اللاهوتي. غير أنه ما لبث أن فضّل «مهنة مدنية» حيث احتل وظيفة في هيئة البريد لم تكن تستلزم حضوره الشخصي. ولكنه استقال من هذه الوظيفة بعد سنوات قليلة برتبة عضو في مجلس تخمين الضرائب وتقاعد في الريف لكي يساعد والديه في إدارة إقطاعتهم. غير أنه كان أبعد ما يكون عن عقلية الإدارة وكانت مساعدته لوالديه غير مجدية. كان قد حصّل تعليماً لا بأس به حيث يجيد اللاتينية، ويستمتع بسماع الموسيقى، ويكثر من القراءة ويُحسِنُ رواية الحكايات. بل كان يكتب الشعر وبعض المشاهد الكوميدية بالأوكرانية. أظهرت هذه الكتابات معرفته العميقة بالعادات الأوكرانية، كما كانت تبرهن بأن كاتبها ذو شخصية مرحة تميل إلى المزاح والنكات والمداعبة والحفلات. غير أنه كان في الوقت ذاته ذا شخصية حالمة، حسّاسة ولا مبالية. مظهره غير جذّاب وهو متقلّب الإرادة ولذا فقد أفلت الزمام لنفسه سامحاً لها بالاتجاه أنّى تشاء دون أن يفرض أي أسلوب محدد على أفكاره أو أفعاله. كان مغرماً بالطبيعة ولذا بنى أكشاكاً

(١) كانت المزرعة تحمل قبل ذلك اسم «يانوفشينا». غير أنه تم تبديل اسمها إثر ولادة ابن «أفاناسي داميانوفتش».

صغيرة وكهوفاً اصطناعية في حديقته وأطلق أسماء شاعرية على ممراتها، فكان هناك «وادي الهدوء» في فاسيليفكا. الطيور المحلية كانت تلقى معاملة خاصة، إذ لم يكن يسمح للغسالات بالغسل في البركة خشية أن تهرب طيور الحمام والعندليب بسبب ضرباتهن على ألواح الغسيل لتنظيف الثياب.

هذه النبتة الغضة، أي فاسيلي أفاناسييفتش، أينعت وتفتحت تماماً عندما وقع فاسيلي في حب ماريا إيفانوفنا. بدأ ذلك، كما تقول، بحلم من أحلام الطفولة حين تراءت له مريم العذراء في إحدى الليالي، وكان في الثالثة عشرة من عمره، وأشارت له إلى طفلة غير محددة تلعب في مكان قريب. خاطبته العذراء بصوت رخيم قائلة: «ستتزوج، وهذه هي التي ستكون زوجتك». وبعد فترة، وعندما كان يزور أحد الجوار مع والديه لمح طفلة في الشهر السابع من عمرها تشبه تلك التي أعجب بها في حلمه تحملها مربية وتزينها العديد من الشرائط. عرف قدره منذ تلك اللحظة وأدرك بأن ما عليه إلا الانتظار حتى تصل من اختيرت له إلى السن التي يمكن لها فيها أن تستجيب لعواطفه. كانت الطفلة ابنة الملاّك كوسياروفسكي واسمها ماريا، وقد أشرفت على تربيتها عمتها «انا ماتفييفنا تروشيشنسكي».

عاش فاسيلي أفاناسييفتش سعيداً بالسر الذي يخبئه في داخله خلال السنوات القليلة التالية، وأخذ يراقب خطيبته وهي تزداد حسناً وذكاءً. كان كثيراً ما يزورها وينصت بشغف لثرثرتها الطفولية، ويجلب لها الهدايا الصغيرة، ويعلّمها كيف تبني قلاعاً من أوراق اللعب، بل ويلعب معها بالعرائس. عمتها الحنون كانت تستغرب تلك السعادة التي يستمدها ذلك الشاب الجاد الرزين من رفقة تلك الطفلة. وقد كتبت ماريا إيفانوفنا فيما بعد تقول: «كانت لديّ إزاءه مشاعر خاصة، ولكنني ظللت رابطة الجأش. وكان يسألني أحياناً فيما إن كانت صحبته تسرني، وكان بالفعل عطوفاً يراعي شعور الآخرين منذ أيام طفولتي المبكرة».

في أحد الأيام، وبينما كانت ماريا إيفانوفنا تتمشى مع عدد من خادماتها على شاطئ نهر «بسيل» سمعت لحناً عذباً لأوركسترا آلات النفخ ينساب مع مجرى النهر. كان آل جوجول العائلة الوحيدة التي تعيش في الجوار ممن يمكن أن تكون لهم مثل هذه الفرقة. ولكن، كيف يمكن أن يأتي هذا اللحن في اللحظة المناسبة ليرافقها في مشوارها؟ كان أولئك الموسيقيون يعزفون سلسلة من المقطوعات التي تزداد خفوتاً وهم يتخفّون خلف الأشجار، بينما كان قلب ماريا يذوب بهجةً يخالطها لوم خفيّ. لم تستطع انتزاع نفسها وقد تأخر بها الوقت، فسحبتها الخادمات عائدات بها إلى المنزل. ولكن الموسيقيين تبعوهن حتى البيت وهم يختبئون داخل الدغل. كان اللحن يقترب، ثم ينطلق مبتعداً، يتدفق مقترباً، يثب، يتقافز ليلفّها من كل جانب. وعندما أخبرت عمتها بذلك الحدث الرائع قالت لها العمة وهي تبتسم: «يا لحسن الحظ أن صادف أن تكوني هناك في نفس الوقت الذي كان فيه ذلك المغرم بالطبيعة وبالموسيقي ينتهز فرصة هذا الطقس الرائع! غير أن عليك ألا تبتعدي عن البيت إلى هذا الحد في المستقبل».

عشية عيد ميلاد ماريا الرابع عشر، وكان فاسيلي أفاناسييفتش قد بلغ السابعة والعشرين من عمره واستقر بصورة دائمة في فاسيلييفكا، تجرأ ليسألها إن كانت تحبّه! جفلت لسبب لا تدري كنهه وأجابته: «أحبك كما أحب الجميع!» وما لبثت أن ولّت هاربة من غرفة الضيوف تاركة إياه حائراً، ثم اعتراه إحساس بالخزي فأسرّ بغايته وبخيبة أمله للعمة أنا ماتفيفنا، تلك المرأة النشطة، فوعدت على الفور بأن تأخذ الأمر بيدها. قالت إنها متأكدة بأن ماريا تحبّ جارها الساحر، أجل فهي تذبل كلما رحل، ولكنها ما تزال صغيرة جداً وهي تخاف الرجال، ولكنها ستكون بالتأكيد زوجة ممتازة.

ما إن مضى إلى بيته وقد استعاد اطمئنانه حتى أخذت أنا ماتفيفنا تستجوب ابنة أخيها، وكل ما استطاعت الفتاة الصغيرة قوله هو أن رفيقاتها سيضحكن منها إن هي تزوجت – وهو اعتراض لا أهمية له سرعان ما بددته العمة بكلمة واحدة. وبعد أخذ وردّ، وتهانٍ وعناق استفاقت ماريا على واقع وجود خطيب

يسكن قلبها. وعند ذلك تمت استشارة الوالدين فسارعا لمباركة الزواج، ولذا عادت ماريا إلى بيت والديها لتهيئة جهاز العرس. وقد كتبت ماريا تقول: «كثيراً ما كان يأتي خطيبي، وعندما لا يتمكن من المجيء يكتب إلي. كنت أسلم الرسالة دون أن أفضّها لأبي، وما أن يفرغ من قراءتها حتى يبتسم ويقول: «من الواضح أنه قرأ عدداً كبيراً من الروايات». وبالفعل، كانت الرسائل تمتلىء بالتعابير بالغة الرقة. كان والدي يملي عليّ ردّي عليها، وكنت أحمل رسائل خطيبي معي على الدوام».

تمّ حفل الزواج في بيت العمة في «جاريسكي»، غير أنه بعد احتفالات استمرت يوماً كاملاً عاد الزوج وحده إلى بيته، إذ اتفق الجميع أن ماريا إيفانوفنا ما تزال أصغر من أن تشارك رجلاً حياته: على أن يعاد التفكير في الأمر بعد عام واحد. تقبّلت العروس هذا الانفصال بهدوء بينما سيطر على العريس شعور باليأس والإحباط.

بمرور شهر واحد كان كلاهما في حالة من اليأس بحيث وافق الأبوان على إعادة النظر في الأمر، وعلى هذا، ووسط سيل من الدموع والتبريكات والوصايا والنصائح صعدت ماريا إيفانوفنا إلى العربة في طريقها إلى فاسيلييفكا.

وصلت إلى بيتها الجديد بعد ساعة واحدة، وكان والد ووالدة فاسيلي أفاناسييفتش في انتظارهما أمام الدار وهما يحملان الخبز والملح تعبيراً عن حسن الضيافة. كتبت ماريا فيما بعد تقول: «استقبلاني وكأنني ابنتهما. كانت والدة زوجي تختار لي ملابسي حسب ذوقها، أثواباً طويلة قديمة الطراز كانت سائدة في أيام شبابها. أما زوجي فلم يكن راغباً بأن أتابع دراستي. فهو لم يتعلم لغة أجنبية باستثناء اللاتينية، ولم يكن بالتالي يريد لي أن أكون أكثر منه تعليماً. ولذا كنا نقرأ كتباً بالروسية فقط، سوياً دائماً كلما كنا وحدنا ولدينا وقت فراغ، وهو أمر كان نادراً ما يتوفر لنا. ولم أكن أذهب قط لحفلات راقصة أو اجتماعات، بل أجد سعادتي ضمن عائلتي نفسها. لم نكن نفترق قط، ولا ليوم

واحد، وكان حتى حين يذهب لتفقد الأرض يصطحبني بعربة «الكلاش[1]» إذ كنت أخاف ألا أراه ثانية إن بقيت في البيت».

ولكي يجنب زوجته هذا القلق كان فاسيلي أفاناسييفتش يجهد للعودة إلى البيت مبكراً. وعندما تأخر لعدة دقائق في إحدى المرات انتابها المرض، ولزمت الفراش أياماً وهي تتقلب من فرط الحمّى. غير أنه كانت هنالك هموم أخرى تؤرقها إلى جانب هذه الهموم اللاعقلانية. فعلى الرغم من أن أرض الإقطاعة جيدة غير أنها لم تكن تؤمن سبل العيش لساكنيها. الأشجار تنوء تحت ثقل ثمار التفاح والخوخ والكرز، والأبقار الحلوب غزيرة الإنتاج ترعى في المراعي الغنية الخضراء، والحقول تنتج حصاداً وفيراً من الحنطة الذهبية القاسية. غير أنه ما إن يجري فاسيلي أفاناسييفتش حساباته حتى يتبين له أن مصروفاته تتجاوز ما أنتجه من دخل. ولذا فهو يسارع فزعاً لتنظيم سوق موسمية أو إنشاء معمل للتقطير على أمل الحصول على بعض المال ببيع الكحول. وقد يلجأ، ببساطة، للاقتراض من أحد جيرانه المعطائين لكي يتدبر أموره حتى الموسم التالي.

أما ماريا إيفانوفنا التي كانت بالأمس فقط تلعب بعرائسها فقد أصبحت الآن سيدة البيت، توبّخ الخدم، وتدير رأس زوجها زهواً بشبابها وممارستها لسلطاتها. وتحولت من فتاة صغيرة لطيفة وعاطفية إلى شابة بيضاء البشرة، سوداء العينين، ذات حاجبين مقوسين، وملامح كأنها نحتت بإزميل، وفم مرسوم وأسلوب صارم في السلوك. كانت أعصابها قد اهتزت لولادة طفلين ميتين واحداً إثر الآخر في السنة الأولى من الزواج. وهاهي الآن حامل للمرة الثالثة، ولذا فهو يتنصت بهلع لكل ضربة قلب في أحشائها.

لم تكن راغبة في إنجاب الطفل في البيت هذه المرة، لذا قررت العائلة أن تذهب إلى «سوروشنسك»، وهي بلدة صغيرة قريبة فيها عيادة للدكتور تراخيموفسكي، وهو طبيب مشهور في المنطقة برمتها. وهناك، في مهجع صغير

(١) عربة ذات غطاء يطوى.

غير مبلط أنجبت ماريا في (٢٠) آذار/ مارس (١٨٠٩) ولداً هو نيقولاي. ويؤكد البند (٢٥) في سجلات أبرشية سوروشنسك ولادة هذا الطفل وتعميده.

ما إن عادت ماريا إلى البيت حتى تحولت مخاوفها من نتائج الحمل إلى هلع على صحة ابنها. كان الطفل سقيماً شاحباً –تبدو عليه علائم المرض بحيث كانت على قناعة دائمة بأنه يوشك على الموت، وهذا التهديد القائم باستمرار زاد بشدة من قيمته بالنسبة لها وحرصها عليه. فهي تتخيله ميتاً في لحظة ما، ثم ما تلبث أن تصعق العالم بنبوغه الفذ.

ولكي تكسب الأقدار إلى جانبها قررت بناء كنيسة في فاسيلييفكا –مهما بلغت تكاليفها. وافق من سيينيها على إرجاء دفع تكاليف بنائها، وتم بيع فضيات العائلة لشراء الأواني المقدسة. كما تمت التوصية على ستارة مطرزة ثقيلة لمذبح الكنيسة. غير أن هذا كلّه لم يحسّن صحة نيقولاي إذ كان يعاني من الربو، ويصاب بنوبات إغماء، وتعتريه حالات غضب شديد قال الأطباء إنها ناجمة عن إصابته بسل العقد اللمفاوية (خاصة في منطقة العنق). بشرته الشاحبة كانت ترفض أن تتورد حتى إن تعرض لأشعة الشمس أو أثناء اللعب. أذناه تفرزان قيحاً، وتعمد أمه لجسّه مئة مرة في اليوم الواحد لتتبين فيما إن كان يعاني من الحرارة الشديدة أو البرد الشديد. تلفّه، تدثّره، تقبله، ترسم على رأسه شارة الصليب. وهو، في خضم هذا الجو من التقديس الصامت أصبح يعتبر نفسه في نهاية المطاف معبود البيت بصورة أو أخرى. بل لم يتضاءل إحساسه هذا بالتفوق بعد ولادة شقيقته ماريا (عام ١٨١١) وشقيقه إيفان (عام ١٨١٢). إنه الطفل الأول ولذا فإن سلطته تقوم على حق مقدس. لقد كان بؤرة الارتكاز في البيت ولذا فهو بالتالي مركز الكون أيضاً، وهو يقول في إحدى رسائله لأمه فيما بعد: «لم تكن لديّ أية عواطف على الإطلاق، وكنت أعامل الأشياء المحيطة بي على أنها كرّست كلّها لسعادتي وراحتي. لم أكن أحمل عاطفة خاصة إزاء أي أحد غيرك أنت، وحتى عاطفتي هذه كانت الطبيعة وحدها هي التي تمليها».

تبرز أمه على أنها دون شك أكثر أفراد المجموعة البشرية المحيطة به حيوية ونشاطاً وقلقاً ومحرضاً على القلق عليه. كانت تسبغ شاعريتها على كل من في البيت. وعند أول إشارة، مهما كانت ضئيلة، تجثو على ركبتيها أمام الأيقونات. وما لبثت أن بدأت تصطحب نيقولاي إلى الكنيسة قبل أن يتجاوز سني الطفولة الأولى. غير أن ما كان يحسّ به هناك هو الملل وهو يختنق وسط الكبار ويشعر بالغثيان من رائحة البخور، ويصدع أذنيه الضجيج في قاعة الكنيسة. يرسم شارة الصليب على صدره لأن هذا ما يفعله الآخرون، ويطلق العنان لخياله كي ينطلق متنقلاً بين الصور والأيقونات المقدسة. وفي أحد الأيام خطر له أن يسأل أمه عن يوم الحساب، فما كان منها إلا أن رسمت له صورة بلغت من القوة عن الحياة الآخرة في الجنة وفي النار بحيث انتابته الكوابيس طوال الليل وأيقظته وقد بلله العرق البارد وهو يولول رعباً. رافقته صور نار جهنم الدائمة لفترة طويلة من الزمن حتى أن مجرد التفكير بها كان يبعث في جسمه الرعدة. وهو يقول لأمه في نفس الرسالة سالفة الذكر:

«لقد رسمت لي صورة بلغت من الكمال والوضوح حول السعادة العظيمة التي تنتظر الأبرار، وصورة تثير الرعب والصدمة حول أصناف العذاب الدائم الذي ينتظر المذنبين مما هزني من جذوري وأثار كل أحاسيسي وبذر في نفسي بذور أشد الأفكار التي سرعان ما أخذت تتوالد في ذهني فيما بعد». ومنذ ذلك اليوم ظلّ نيقولاي يذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد تغمره حمّى يختلط فيها التعبد بالفزع.

وبالمقابل فإن كل الأشياء تبدو خفيفة باعثة على المرح حين كان والده يصطحبه وشقيقه لتفقد الحقول. فالمناجل تلتمع عبر أمواج سنابل القمح الصفراء، ووجوه الحصّادين التي لوحتها أشعة الشمس، وأغاني الفتيات اللاتي يربطن حزم الحنطة، هي صور ظلّ يتذكرها طوال حياته وبشعور غامر بالعرفان لفصول الصيف البهية لأوكرانيا. ولقد كتب يتحدث عن سوق سوروشينسك يقول: «ليست هناك غيمة في السماء، ولا صوت في الحقول. كل شيء ساكن

سكون الموت. وما يلبث أن تصفق قبّرة بجناحيها مندفعة في كبد السماء، ويتدفق صوتها في أغنية فضية هابطة عبر الهواء باتجاه الأرض المفتونة بهذا الصوت. أعداد لا تحصى من الحشرات الصغيرة كأنها الزمرد، والياقوت، وحجر التوباز من مختلف الأشكال والألوان تتدفق على رقع الأرض المزروعة بالخضار متعددة الألوان والتي تظللها نبتات عبّاد الشمس هائلة الحجم. كتل ضخمة من أكياس التبن الرمادية، وحزم من سنابل القمح الذهبية تقف مصفوفة وكأنها في معسكر يغطي السهل اللامتناهي في امتداده. أغصان أشجار الكرز والخوخ والتفاح والإجاص تنوء بما تحمله من حبات الفاكهة... أي متعة، أي راحة تكمن في فصول الصيف تلك في أوكرانيا. كان يحدث أفراد عائلته الباقين حول ما رأى في مشاويره تلك لدى عودته، وينصت له الجميع فاغرين أفواههم لدقة ملاحظته ورهافة حسّه واكتناز قاموسه اللغوي.

بين آونة وأخرى يعلق والده أو يردد حديثاً بينه وبين بعض الفلاحين. كان فاسيلي أفاناسييفتش قصير القامة ممتلئ الجسم، باسم الوجه، رقيق القلب يتكلم الروسية والأوكرانية بالإتقان ذاته ولكنه يفضل الأولى عندما يتحدث حديثاً جدياً والثانية في الأمور الأقل أهمية.

الشخصية الثالثة في حياة نيقولاي هي جدته تاتيانا سيميونوفنا، واسم عائلتها قبل الزواج هو «ليزوجوب». فقدت زوجها بعد وقت قصير من زواج فاسيلي أفاناسييفتش وهي تسكن في جناح مكون من غرفتين ملحق بالمنزل. كان نيقولاي يحب التردد على المكان الذي تعيش فيه حيث تتراكم كومة من الصناديق والملابس القديمة والتذكارات. وجهها ذابل متندّب وكأنه الإسفنجة. لاشك بأنها كانت تحدث حفيدها عن الأيام المجيدة عندما كان القوزاق «الزابوروج» يشكلّون أخوة مستقلة حين كان الزيتش (Syech) ينتخبون قادتهم بأنفسهم ويقفون في وجه البولنديين. أحد آخر أبطال تلك الفترة هو «أوستاب جوجول» الجد الجبّار الذي أعطى اسمه للعائلة.

بعد خضوع الزابوروج لروسيا، وبعد صدور الأمر العالي عن كاترين الثانية تفرّق الزيتش وتنازل آخر زعماء القوزاق عن منصبه وتحولت الأسطورة إلى تاريخ. . . كانت تاتيانا سيميونوفنا تردد أغاني قديمة وقصصاً شعبية مرعبة لم يكن نيقولاي يتعب من سماعها. هذا الافتتان بكل ماهو غامض وهذا الانجذاب للرعب كان يغمره في لحظة خاطفة في الوقت الذي يحس خلاله بأنه آمن وهادئ. وفي أحد الأيام، بينما كانت أمه وأبوه غائبين جلس الطفل الذي كان في الخامسة من عمره يرقب الظلام وهو يزحف على زجاج النافذة فانتابه فجأة هلع شديد. حدّث السيدة سميرنوف فيما بعد عن ذلك فقال: «انكمشت على نفسي في زاوية الأريكة. وحينذاك، ووسط الصمت المطبق أخذت أنصت لتكتكات رقّاص ساعة الحائط. وفجأة قطع مواء قطة ذلك الهدوء المطبق علي. رأيت القطة وهي تتحرك ببطء مقتربة مني وهي تموء. لن أنسى قط حركتها وهي تمط جسمها، وأقدامها الطرية ومخالبها التي تطقطق فوق الأرضية الخشبية، وعينيها الخضراوين اللتين تتلامعان بضوء شرير. كنت أرتعد فتسلقت ظهر الأريكة وتشبثت بالجدار. تمتمت «بس. . بس» لكي أستمد بعض الشجاعة، ثم قفزت وأمسكت بالقطة التي لم تقاومني، وأسرعت نحو الحديقة وألقيت بالقطة في البركة. أخذت أدفعها بعصاي مرة بعد أخرى وهي تحاول أن تطفو فوق سطح الماء. كنت خائفاً وجسمي برمته يرتعد، ولكنني شعرت في نفس الوقت بالارتياح، ربما لأنني أرد لتلك القطة ما أدخلت في نفسي من رعب. ولكن ما إن غرقت واختفت آخر الموجات عن سطح الماء حتى غمرني شعور بالأسى. سيطر عليّ تأنيب الضمير وأحسست كأنني قتلت إنساناً».

كان يسمع صوت الموتى في وسط الصمت أيضاً في بعض الأحيان. نداءاتهم كانت تبعث القشعريرة في دمه. وقد كتب ذلك في كتابه «ملاّك العالم القديم» يقول: «لابدّ أنك عرفت الشيء ذاته: صوتاً يناديك باسمك. تسمع حديثاً شعبياً بسيطاً، هي روح تتوق إليك وتعلن عن موتك المحتم. أعترف بأنني كثيراً ما ارتعدت لهذه النداءات الغامضة التي كنت أسمعها في طفولتي. شخص من خلفي يلفظ اسمي بوضوح وعلى نحو مفاجئ. يحدث ذلك غالباً في يوم

مشمس جميل، لا ترتجف خلاله ورقة واحدة من أوراق الشجر ويسيطر على الجو برمته صمت مطبق، بل ويتوقف حتى صرصار الليل عن الغناء، ولا ترى فيه مخلوقاً واحداً في الحديقة. حتى أكثر الليالي العاصفة نحساً والتي تنفلت فيها كل عناصر الطبيعة غضباً وتداهمني في غابة متشابكة لا أستطيع منها خروجاً، حتى مثل هذه الليلة لا تبعث في نفسي من الخوف ما يبعثه ذلك الصمت المطبق تحت سماء صافية لا ترى فيها غيمة واحدة. كنت أسارع للفرار عادة وأركض حتى يأخذ مني التعب مأخذه ولا أستعيد رباطة جأشي وقد سيطر عليّ الفزع إلا بعد أن أصادف إنساناً آخر تبدّد رؤيته ذلك الإحساس المعذّب بالفراغ والذي يمسك بتلابيبي».

لحسن الحظ كان ينسى هذا الإحساس الممض بالفراغ بنفس القوة التي يخضع فيها لتلك التجربة.

بعد مثل هذه الهلوسات كانت الرغبة في اللعب تعاود نيقولاي بقوة حيث يشارك أخاه وأخته اللعب دوماً دون أن يفكر قط بما مرّ به. كان يحب العمل في الحديقة بشكل خاص، وقد كتب لأمه (في عام ١٨٢٧) يقول: «الربيع على الابواب وهو أروع أوقات السنة بالنسبة لمن يعرف كيف يستمتع به. إنه يذكرني بطفولتي وبحبي للزراعة. . . كان الربيع يعني بالنسبة إلي تفجراً في النشاط، ألا تتذكرين ذلك؟ كان ذلك هو الجو الذي يلائمني، وما زلت أرى نفسي وأنا أتأمل وأقف عند ممر متعرج والمجرفة في يدي».

البيت حيوي دافىء ومضياف على الدوام. الأقرباء والأصدقاء يملؤون البيت طوال السنة. الغرف صغيرة وسقوفها منخفضة والمدافئ ترتفع حتى السقف. صناديق كثيرة وأبواب تصرّ وقطع أثاث ضخمة. سيل من الفتيات بأثوابهن المقلمة وضجيجهن يعلو في قاعة الخدم، وكل تلك الوفرة والحلاوة والطبيعية في الحياة الريفية في الأيام الخوالي في حياة ملاّك الأراضي. لم يكن أقنان فاسيلييفكا يلقون معاملة سيئة ولا يحلمون بنيل حريتهم. ليس هناك من بين الخدم أو السادة من يفكر بتحدي ضرورة نظام القنانة ذاك، بل يعتبرون أن من

الطبيعي بالنسبة للبعض أن يولدوا أحراراً ولآخرين أن يولدوا عبيداً، مثلما يقدّر للبعض أن يكونوا طوال القامة ولآخرين قصارها. هناك الشقر وهناك السمر، فالله لم يرغب بالمساواة في الطبيعة، ومن الخطأ إذن بالنسبة للإنسان المسيحي أن يتمرد على عدم المساواة في المجتمع.

كانت ماريا إيفانوفنا توجه الخدم وحزمة من المفاتيح معلقة في خصرها - أبواب السرداب تفتح وتغلق باستمرار. الطعام موضوع هام في البيت، وهناك دائماً من يطبخ أو يخلّل أو يجفف الفاكهة والخضار. غرف المؤونة تطفح بالمآكل التي يسيل لها اللعاب، وهي تكفي لفترة حصار قد تمتد لستة أشهر. يقول نيقولاي جوجول في كتابه «ملاّك العالم القديم». «ليس هنالك من رغبة تتطلب تلبيتها ما يتجاوز سياج المزرعة وبستان التفاح والبيوت الخشبية التي تنكفئ معزولة بين أشجار الحور والبيلسان والإجاص. حياة هؤلاء الملاّك تمضي بهدوء ووئام، بحيث أن المرء ينسى نفسه في لحظة ما فيدهشه أنه يشك حتى بوجود العواطف والرغبات، وكل تلك المثيرات غير المجدية التي تولدها الروح الشريرة التي تؤلم هذا العالم البائس. يظن المرء أن كل ذلك قد يصدر عن حلم وكأنه مجرد سلسلة من الأوهام».

كان آل جوجول يغادرون إقطاعة فاسيلييفكا بين آونة وأخرى للقيام بزيارة قصيرة لأحد السادة المزارعين في الجوار. أهم أولئك، وهو من كانوا يذهبون لزيارته في الغالب الأعم كان قريباً من بعيد لماريا إيفانوفنا والذي يعدّ «المحسن» و»الحامي» للعائلة - وهو رجل يدعى «ديمتري بروكوفييفتش تروشنسكي». كان هذا يحكم إقطاعة «كيبنسك» وكأنه ملك صغير. ارتفع هذا الشخص من لا شيء، وارتقى إلى منصب وزير للخارجية في عهد «كاترين الثانية». ولكنه مالبث أن أزيح بسرعة بعد أن اعتلى العرش «بول الأول». ثم استعاد حظوته في ظل حكم «الكسندر الأول» الذي ارتمى بين ذراعي تروشنسكي قائلاً: «أرشدني». جعل منه هذا الإمبراطور الشاب وزيراً حيث خدم في الحكومة لسنوات إلى أن التمس إعفاءه من مهامه بحكم تقدم سنّه وتعبه، وقرر الإقامة في

إقطاعته. ما أن ابتعد عن العاصمة حتى وافق على أن يلعب دور شريف النبلاء في مقاطعة بولتافا. وكشخص غني ومتبطل ويتمتع باحترام كبير لم يكن بإمكانه بالطبع العيش وحيداً. كان بيته، كما يقول معاصروه، يعج بالضيوف باستمرار بحيث يشبه معسكراً للغجر يمتلئ على الدوام بموجات القادمين والمغادرين. مائدة الطعام لا تكتفي قط بمن يؤمها، وسيد البيت يطلب كل يوم أسلوباً جديداً في الترويح عن النفس. كانت لديه فرقة من الممثلين الذين تم انتقاؤهم من بين أقنانه، إضافة إلى فرقة أوركسترا ومهرجين. وتروى حكاية ضابط مدفعية لم يسبق لأحد أن رآه من قبل قدم نفسه لتروشتشنسكي عارضاً إجراء عرض للألعاب النارية أسعد ذلك السيد حيث استبقى هذا الشخص لمدة ثلاث سنوات. وحين أتى آل جوجول لزيارة الإقطاعة اصطحبوا أفراد العائلة جميعاً. ولقد افتتن نيقولاي بهذه الرحلة التي قطعوا فيها مسافة أربعين فرسخاً[١].

في اللحظة التي انعطفت فيها العربة لتدخل الطريق المؤدي إلى «كيبنسك» أخذوا يسمعون ألحان الفرقة الموسيقية المكونة من الأقنان. وما لبث أن ارتفع أمام أنظارهم بيت خشبي من طابقين يظهر بين صفين من الأشجار وينبسط وكأنه القصر. بذخ يبهر الأنفاس في الداخل، لوحات في كل مكان، قطع أثاث فاخرة، تماثيل نصفية من البرونز وأخرى صغيرة من البورسلان، أرائك ملساء، أسلحة قديمة، مجموعات من القطع النقدية المعدنية وعلب السعوط، سجاجيد ناعمة يكاد المرء لا يجرؤ على أن يدوسها، حشد من الخدم يتجمعون في الحجرة المؤدية إلى الردهة الرئيسية. كما تتناثر في الإقطاعة بيوت ضيافة للزوار الاكبر مقاماً. وضع آل جوجول حاجاتهم في أحد هذه البيوت واستبدلوا ملابس السفر بسرعة. خصص لخدمتهم خدم وعربات وخيول وطبيب. وقبل وقت العشاء بوقت لا بأس به تجمع حشد خجول في قاعة الاستقبال وهم ينتظرون بصمت قدوم سيد البيت الذي ظهر في النهاية مرتدياً بزة رسمية تزينها وشاحاته وأوسمته. كان عجوزاً طاعناً في السن، محني الظهر، له أنف عقاب وتقاطيع

(١) يساوي الفرسخ (٣٥٠٠) قدماً تقريباً.

جليدية تعبّر عن الملل والاشمئزاز. أخذ الضيوف يتدعون الألاعيب أثناء فترة تناول الطعام - تمثيليات على شكل حزازير، أحاجي ومسرحيات تنكرية - على أن يجري أداؤها بعد انتهاء وجبة الطعام. أما العروض المسرحية الكاملة، والتي يعبدها تروشنسكي، فهي تحتاج وقتاً أطول. وكان قد بُني مسرح في الإقطاعة لعرض هذه المسرحيات. وأسند إنتاج المسرحيات باللغة الأوكرانية إلى فاسيلي أفاناسييفتش جوجول - يانوفسكي، بل كان هذا يكتب إحدى هذه المسرحيات بين آونة وأخرى حين يُطلب منه ذلك. يتولى الضيوف أو الممثلون من الأقنان الذين يعيشون في الإقطاعة أداء الأدوار. بل إن فاسيلي أفاناسييفتش وزوجته كانا يظهران أحياناً كشخصيات في المسرحية، بينما يتفرج نيقولاي الصغير على «البروفات» بعينين يملؤهما الحماس والسعادة. كم كان يعجب بوالده لأنه يستنبط الكلمات التي يتحدث بها آخرون فوق خشبة المسرح، وكم كان يضج بالضحك لتلك الأقاصيص عن نساء بارعات وفلاحين بلهاء[1].. كان تروشنسكي يجلس في الصف الأمامي ويراقب العرض مستخدماً منظار الأوبرا. وكلما تنازل وابتسم أطلق الجمهور والممثلون تنهيدة ارتياح تنم عن العرفان.

وسيلة أخرى مضمونة النتائج لإدخال السرور على قلب السيد العجوز كانت تتم بمضايقة مهرجيْه، «رومان إيفانوفيتش» و«باثولوميو». كان هذا الأخير قساً جرّد من وظيفته الكنسية، وهو من القذارة بحيث كان عليه أن يأكل وحده خلف حاجز. وما إن ينتهي من طعامه حتى يعمد أحدهم إلى تصميغ لحيته بالشمع بإحكام وتضج القاعة برمتها بالضحك وهو يجفل تارة ويكشّر أخرى ألماً ويجاهد لانتزاع شعيرات لحيته شعرة شعرة. ومن ألاعيب التسلية الشائعة في كيبنسك لعبة البرميل. إذ بعد أن يتم ملء برميل خشبي ضخم بالماء يلقي فيه سيد البيت كمشة من القطع النقدية الذهبية ويدعو ضيوفه للغوص حتى قاع البرميل. وأي شخص ينجح في التقاط القطع جميعاً بغطسة واحدة يسمح له بأخذها. أما إن بقي بعضها في قاع البرميل فعليه أن يلقي بتلك التي التقطها في الماء من

(١) مثل كوميديا وضع لها فاسيلي أفاناسييفتش عنوان «البريء».

جديد ويترك المجال لضيف آخر لكي يجرّب حظه. الكثيرون من الضيوف كانوا يخوضون هذه المنافسة بنفس الشدة التي يقوم بها المهرجون. أما مكافأتهم بعد انتهاء هذه المباراة وهم ينفضون عنهم الماء ويضحكون بصخب فهي مجرد ظل ابتسامة خافتة متعطفة ترتسم على شفتي الوزير السابق وهو يجلس في عليته المفضلة على الشرفة بعد درجات السلم المؤدي إليها.

كان تروشنسكي يبدي بعض الخشونة في تعامله مع ضيوفه، يوجه كلامه إليهم باستعلاء ويعرض عنهم فجأة ليرتب أوراق لعب السوليتير(١). غير أن آل جوجول كانوا يحظون بمعاملة تفضيلية. كان يقدّر لفاسيلي أفاناسييفتش مرحه الصخاب وابتهاجه الحالم وصدقه. وكثيراً ما كان يستعين به في إدارة إقطاعته. وبالمقابل فإن فاسيلي أفاناسييفتش الذي يعتبر خبيراً في أمر اختيار أساليب الترويح عن النفس، والإشراف على الحسابات، كان يستطيع دائماً الاعتماد على تروشنسكي إن ساءت الأحوال. فكلما عانى البيت من ضيق ذات اليد أو احتاج لخطاب توصية للمحافظ فإنه يلجأ إلى كبنسك. وقد كتبت ماريا إيفانوفنا في رسالة إلى أكساكوف فيما بعد (في ٣ نيسان/ إبريل عام ١٨٥٦): «كنت وزوجي نقوم بزيارات مطولة لإقطاعة تروشنسكي، ولم يكن من السهل عليه أن يسمح لنا بالمغادرة. بل إنه كان يغضب لدرجة المرض عندما يبلّغ بأننا نريد العودة إلى بيتنا. كان الضيوف عادة يجدون صعوبة في وداعه دون أن يتعكر مزاجه. يتنكد دائماً عندما يتوجب عليه وداع أي شخص. غير أن بيته نادراً ما كان يخلو من عدد كبير من الناس، إذ ما يلبث أن يصل جمع آخر ليملؤوا المكان، وعند ذاك تفتح بوابات القاعات واحدة بعد أخرى وسرعان ما تبدأ فرقة الأوركسترا أو الرباعية تعزف ألحانها».

بمغادرة إقطاعة ذلك الأرستقراطي العجوز ذي النزوات يحمل نيقولاي معه صورة لعالم سحري يتفجر بالدعابة والألاعيب والموسيقى والضحك والأضواء والانحناءات. لدى عودتهم إلى إقطاعتهم فاسيلييفكا بدت لهم بالية وصغيرة

(١) لعبة ورق يلعبها المرء بمفرده.

أكثر مما كانت تبدو لهم من قبل، غير أنها تظل أكثر حميمية وألفة. وأخذ يحلم وهو يستعيد حياة الطفولة التي اعتادها بمسرح تروشيشنسكي ويلعن القدر لأنه كان أصغر من أن يقف على خشبة المسرح بنفسه. وفي محاولة منه لتقليد الكبار من ذويه أخذ يقرزم الشعر ويقرأ ما يكتب من أبيات لعائلته. كما بدأ يرسم ويصرّ على بروزة هذه الرسومات. وتم توظيف طالب يدرس اللاهوت لكي يدخل ماحصل عليه من معلومات قليلة في ذهن نيقولاي وإيفان. ولكن النتائج كانت مخيبة للآمال بحيث قرر والداهما إرسال الولدين إلى مدرسة بولتافا الداخلية.

في عام (١٨١٩)، وعندما كان في العاشرة من عمره وجد نيقولاي نفسه وسط جمع من الغرباء مختفياً داخل كتلة من التلاميذ، وليس هناك من يقلق على جسمه الرقيق أو يصفق لمواهبه التي تدير الرؤوس، وذلك بعد أن كان الدرّة المدللة المدلعة في عيون الجميع. كيف يمكن له ألا يكون الأول في فصله على الرغم من كل جهوده؟ أيمكن ألا يكون بالتألق الذي افترضه لنفسه أم أن مدرسيه لا يبصرون؟

كتب لوالديه (في عام ١٨٢٠) يقول: «العطلة تقترب ولم أستطع بعد استكمال جميع ما عليّ عمله. لابدّ أن يكون لي معلم رياضيات، وأنا واثق من أنكم إن قررتم القدوم إلى بولتافا في وقت قريب فيمكنكم تدبّر جميع الأمور لما فيه مصلحتي. أقبل أيديكم الكريمة وبكل احترام. ابنكما المطيع: نيقولاي جوجول يانوفسكي».

كان نيقولاي يتطلع لعطلة ممتعة. غير أنه واجه حزناً ممضاً، إذ مات شقيقه إيفان بعد فترة مرض قصيرة مما أغرق والديه في حزن عميق، وسيطر هذا الأسى على نيقولاي مما استدعى سحبه من المدرسة.

بعد عودته ثانية إلى فاسيليفكا كان يأمل في سرّه ألا يفرض عليه الذهاب إلى المدرسة من جديد. غير أن والديه قررا بعد تقليب الأمر، وبقلب متألم أنه لا يمكن له أن يتلقى التعليم المناسب في البيت، وأنه لابد له من أن ينتسب إلى

مؤسسة تعليمية من أعلى المستويات. وصادف أن كانت قد افتتحت لتوها ثانوية للتعليم المتقدم من قبل الأمير «بيزبورودكو» في «نييجن». كان منهجها الدراسي يبدو مستوفياً لما هو مطلوب -بحيث أنها أبعد ما تكون عن المدرسة البائسة في بولتافا. ولكن أقساط المدرسة وتكاليف الإقامة كانت حوالي ألف روبل[1] سنوياً وهو مبلغ يتجاوز إمكانات آل جوجول ولذا لجأوا إلى ولي نعمتهم تروشنسكي الذي وعد بتقديم هذه المنحة.

□ □ □

(١) كان الروبل يساوي دولاراً أميركياً في ذلك الوقت.

٢ ـ مدرسة نييجن

توقفت العربة الصفراء الضخمة التي تجرها ستة خيول أمام درج «المدرسة العليا للدراسات المتقدمة»، واندفع التلاميذ الآخرون راكضين لدى سماعهم رنين أجراس العربة وأخذوا يرقبون «الفتى المستجد» وهو يخرج منها. هل هذا من بني البشر أم هو طائر ليلي؟ كان مرتعداً، هزيلاً، ضئيل الحجم وقد التف بأردية أكثر ما يتطلبه ذلك الوقت من السنة. وجهه الصغير المدبب يبرز من وسط الأغطية التي تلفّحه وكأنه وجه صقر يطل من بين الريش المحيط برأسه. كان يتوسط والده وأحد الخدم. جبان دون شك! تهامس باسمه من حوله. «جوجول -يانوفسكي» أكواع تلمز أضلاعاً وضحكات نصف مكبوتة تتناثر. كان يختلس نظرات هيّابة فيما حوله، وقد كتب أليوبيتش -رومانوفيتش» أحد زملائه التلاميذ فيما بعد يقول: «لم يكن ملفوفاً بشالاته وقبعاته وبطانياته فحسب، بل كان في الواقع مغلفاً بكل إحكام. وعندما بدؤوا بتحريره من أغلفته استغرق الأمر وقتاً طويلاً إلى أن ظهر ولد واهن، شديد البشاعة شوهه داء سل العقد اللمفاوية، تحيط عينيه دوائر حمراء، وتغطي وجنتيه وأنفه بقع وردية وتفرز أذناه قيحاً يسيل ببطء. . . » كان نيقولاي يشعر بأنه تائه كلياً في عالم أكثر عدوانية مما واجهه في مدرسة بولتافا. هل يمكنه أن يبقى وحيداً في وسط هؤلاء الأعداء: التلاميذ والمراقبين والمعلمين؟

اجتاز امتحان القبول بصعوبة وانضم بعد ذلك إلى صفوف التلاميذ الكسالى الذين يتمددون على المقاعد الخلفية في الفصل، لا يكاد ينصت للدرس وهو يرسم رسوماً عبثيّة لتزجية الوقت. وبلا جدال، لم يكن هنالك في نييجن

من يحبه. وما إن غادر والده حتى انتابته، للحظة، حالة من الفزع الكليّ وكأن القدر قد اختاره هو بالذات ليرميه بين براثن الأسود المفترسة. أجل، بقي معه خادمه العجوز سيمون للتخفيف عنه، غير أن أفضل فلاح روسي على وجه الأرض لا يستطيع أن يواسي أرستقراطياً معذّباً. غير أن العطلة الصيفية أخذت تقترب. فقد كان الوقت ربيع عام (١٨٢٠) ولذا قرر نيقولاي جوجول أن يصرّ على أسنانه ويتحمل إلى أن يتحرر من هذا المكان. أسابيع قليلة رائعة في فاسيلييفكا ثم العودة إلى الفصل الدراسي من جديد في شهر آب/ أغسطس حين غمره اليأس ثانية وعلى نحو أسوأ من ذي قبل. كان يتحرق للعودة إلى بيته وعائلته كما يتوق إنسان في الصحراء لرشفة ماء. فماذا يمكن له أن يفعل ليحمل والديه على إعادته؟ إن قال إنه يعاني من الملل في المدرسة وأن دراسته لا تهمه فكل ما قد يأمل به هو توجيه نصائح له بالمزيد من الجد والصبر. السبيل الوحيد لتليين قلبيهما هو أن يدركا بأن صحة ولدهما في حالة يرثى لها وأن هنالك أخطاراً تحدق به وهو بعيد عنهما. كيف لأمه أن تعيش سعيدة مبتهجة بينما هو يعاني من النظام الصارم للمدرسة؟ فإن كان لا يمكنه أن يكون سعيداً فليس لها الحق بأن تكون هي سعيدة. وبمزيج من الصدق والمكر، والعاطفة والتفكير المتروي كتب نيقولاي جوجول لوالديه في (١٤) آب/ أغسطس (١٨٢١)، وكان في الثانية عشرة من عمره، كتب لهما يقول: «آه يا والديّ العزيزين، لو أنكما تأتيان إلى هنا في هذه اللحظة التي أكتب لكما فيها فإنكما ستعرفان ما حلّ بطفلكما!. . . فمنذ انتهاء العطلة وأنا أعاني من حزن يجعل دموعي تسحّ من عينيّ رغماً عني. وكلما فكرت بكما تسيل دموعي على وجهي وكأنها السيل الجارف. صدري يؤلمني بحيث يصعب عليّ متابعة الكتابة لما يزيد عن بضع دقائق في كل مرة. وداعاً يا والديْ العزيزين فالدموع تمنعني من متابعة الكتابة. سيمون الطيب قلق عليّ بحيث أنه لا تمر ليلة إلا ويأتي ليحثني على الكف عن البكاء لأنني بعيد عنكما. وهو كثيراً ما يقضي الليل بطوله إلى جانب فراشي، وكنت أقول له بأن يمضي لينام ولكنني لم أستطع حتى الآن أن أحمله على ذلك. . . ملاحظة هامة: لا يكاد نصف التلاميذ قد عادوا حتى الآن. . .».

الهدف من العبارة الأخيرة كان هو الإيحاء بأن والديه أعاداه إلى المدرسة في وقت مبكر. أجاب الوالدان وقد فزعا لتصويره معاناته بسيل من الأسئلة، وربما كتبا لمدير المدرسة أيضاً طالبين إجراء فحص طبي له. ولكن نيقولاي سرعان ما بدّل موقفه خشية أن يكون قد تجاوز الحدود في خداعه فكتب لهما في (٦) أيلول /سبتمبر يقول: «في اليوم التالي لوصولي إلى المدرسة شعرت بألم في صدري، وكان الألم شديداً بحيث أنني لم أكن قادراً على التنفس. ولكنني تحسنت في الصباح وإن ظللت أعاني من الحساسية في صدري، وهو ما يفسّر قلقي. كما كنت حزيناً لفراقكما. أما الآن فقد تلاشى قلقي بحمد الله وأصبحت أحسن حالاً وأكثر انشراحاً. . .»

استعاد الوالدان طمأنينتهما وهدأت أعصابهما بانتظار الأزمة التالية. كانا يعرفان بأن ابنهما يميل للمبالغة ومع ذلك ظلاّ قلقين للتفكير بأن ابنهما يتعرض لمختلف صنوف المؤثرات والأمراض وهو بعيد عن البيت.

أخذ نيقولاي جوجول في هذه الأثناء يعتاد على حياته الجديدة معزولاً عن العالم. كانت مدرسة الأمير بيزبورودكو – وهي مبنى جديد كل الجدة ذو واجهة بها مجموعة من الأعمدة– تقع في أرض واسعة يعبرها جدول ماء وتعشعش فيها آلاف الطيور في نباتات القصب على طول شاطئ الجدول، وكان التلاميذ الداخليون يستفيقون عند الفجر على أنغام ذلك الكورس. يستيقظون في الساعة الخامسة والنصف صباحاً فيغسلون وهم أنصاف نيام ويتوجهون في طوابير إلى الكنيسة لأداء صلاة الصبح، ومن ثم إلى قاعة الطعام لاحتساء الشاي. تبدأ الدروس وتستمر من التاسعة صباحاً وحتى الظهيرة، ثم تستأنف بعد الغداء حتى الخامسة مساءً. كان التلاميذ يقضون معظم وقت فراغهم في الحديقة. وإذا كان الطقس حسناً فهم كثيراً ما يجلسون تحت الشجر ليدرسوا ويكتبوا واجباتهم.

يتم التعليم بالروسية بالطبع فهي اللغة الرسمية لأوكرانيا شأن جميع الأقاليم في الإمبراطورية. أما الأوكرانية فتعتبر مجرد لهجة حيث يتحدث بها الطلاب في بعض الأحيان، أو على سبيل المزاح. كان نيقولاي مغرماً بالتعابير الممتعة في هذه

اللهجة المحلية وبالعادات والأغنيات والرقصات والأقاصيص، سواء المضحكة منها أو المرعبة والتي تشكل التراث الشعبي لهذه المنطقة. وكان معلموه كثيراً ما يصححون له بعض التعابير الأوكرانية أو البولندية[1] التي ربما تكون قد تسللت إلى مواضيع الإنشاء التي يكتبها نيقولاي أو للنطق المغلوط لكلمات روسية وكأنما لا يمكن للمرء أن يكون روسياً ويظل أوكرانياً أيضاً في الوقت ذاته.

أنشئت «المدرسة العليا للدراسة المتقدمة» على عجل نزولاً عند إرادة الأمير، وكانت مؤسسة طموحة تدرّس منهاجاً مرهقاً، مشوشاً ومفككاً. كانت الفصول تسمى متاحف. والمقرر التعليمي يستغرق تسع سنوات وهو يشمل التربية الدينية واللغة والأدب الروسي، واللغات اللاتينية واليونانية والألمانية والفرنسية بالإضافة إلى الفيزياء، والرياضيات، والعلوم السياسية، والجغرافيا، والتاريخ، والعلوم العسكرية، والرسم، والرقص. أما الهيئة التعليمية فهي من طراز غير مألوف بحيث تجد فيها من يتصفون بالحذلقة البليدة المفرطة، جنباً إلى جنب مع من يتسمون بسعة العقل والحكمة. ويتباين التلاميذ أيضاً فيما بينهم بشدة في طبيعة وخلفية كل منهم. فأولئك الذين ينتمون للطبقة «الأرستقراطية» ينظرون نظرة دونية صارمة إلى من يأتون من أسر أقل شأناً. وقد كتب لوبيش – رومانوفيتش فيما بعد يقول: «كنا نضحك من جوجول خصوصاً وأنه كان يرسم نفسه كديمقراطي في وسطنا نحن أبناء الأرستقراطيين. نادراً ما كان يغسل يديه ووجهه في الصباح. يرتدي ملابس داخلية قذرة، وجميع ملابسه مبقّعة وملوثة. تطفح جيوب بنطاله بمختلف أنواع الحلويات والشوكولاتة وكعك الزنجبيل، وهو يحفر في جيبيه كلما حلا له ذلك ويمضغ ما أخرجه، حتى أثناء الدرس».

كان لوبيش – رومانوفيتش عدواً لدوداً لنيقولاي جوجول. أما الطلاب الداخليون الآخرون في المدرسة الذين كانوا أقل تصلباً فقد كانوا ينظرون نظرة ازدراء لزميلهم التلميذ وكأنه حيوان غريب، ويحاولون أن يكتشفوا كيف

(١) كانت السيطرة البولندية على أوكرانيا والصلات العديدة المطولة بين الأوكرانيين والبولنديين قد أدت إلى إدخال بعض الكلمات البولندية المشوهة بعض الشيء إلى اللغة الأوكرانية.

يمارس عمله، تتنازعهم عواطف الاشمئزاز وعدم الارتياح والسخرية إلى جانب محاولات التودد. وفي الحقيقة فإن نيقولاي جوجول بمظهره المتورم وشخصيته المنطوية لم يوفر مجالاً كبيراً لمصادقته. وإذا ما سأل أحدهم أي سؤال شخصي فإنه يتفادى التصريح عن الحقيقة باللجوء إلى الكذب. وكثيراً ما كان زملاء صفه يكتشفون حقيقة بسيطة صغيرة خلف التلفيقات السخيفة التي يرويها لهم. كان يجهد بكل ما أوتي من قوة لكي يبقي منطقة مظلمة حوله، كما يسمح لنفسه بتضليل الآخرين. فتجريده من أسراره يعني بالنسبة إليه أنه سيفقد قوته الحيوية. كان زملاء صفه يطلقون عليه مسمّى «القزم الغامض»، غير أنهم كانوا يخشونه، لا بسبب انعزاليته فحسب، بل لأن موهبة دقة الملاحظة والسخرية لديه كانت تلجمهم. وبغض النظر عن وجهه الأصفر المهزول، وأنفه الطويل المتدلي وصدره المجوّف فقد كان قادراً على السخرية من المعلمين والتلاميذ على حد سواء، وويل لمن يقع في براثن سخريته. قد يقلّد الحركات اللاإرادية في عضلات وجه فتى ما، ويبتدع لقباً يثير الضحك لثان، ويكتب أبيات هجاء في حق ثالث. أما الأستاذ الألماني زيدلر ذو الساقين الطويلتين النحيلتين اللتين تشبهان ساقي طائر اللقلق والوجه الدهني ذي التعابير التي تنم عن البلادة فهو يسمع أغنية تنطلق فجأة من مقاعد التلاميذ – صادرة عن نيقولاي جوجول بالتأكيد، تشبّه ذلك المعلم بخنزير يمشي على ساقي الطائر «مالك الحزين».

أما الشعر الكثيف المقصوص للطالب «بوروجدين» فقد أكسبه قصيدة قصيرة لاذعة بسخريتها. طالب آخر هو «ريتر» كان يبكي بسخط بالغ لأن نيقولاي جوجول كان يردد على مسامعه يومياً، وبقناعة جدية القول: «أؤكد لك أن لك عينين كعيني عجل صغير!».

هذا الميل للطيش، إلى جانب إهماله المتعمد لدراسته حمل بعض المعلمين على التعامل بقسوة مع هذا «القزم الغامض». كما أن سجل ناظر المدرسة يحمل بعض ملامح العقوبات العديدة التي أنزلت بجوجول –يانوفسكي». ففي (١٣) كانون الأول/ديسمبر: وقوف في زاوية الفصل بسبب سوء التصرف، (١٩)

كانون الأول/ ديسمبر: حرمان من العشاء بسبب الكسل، (٢٠) كانون الأول/ ديسمبر: خبز وماء فقط للعشاء، في نفس اليوم: حرمان من الشاي لأنه كان يضحك أثناء درس التربية الدينية.

كتب المدير لوالديه يقول: «من المؤسف أن ولدكما كسول جداً، وهو يستطيع تحقيق نتائج حسنة مثل أقرانه إن بذل مجهوداً، وهذا يثبت أن لديه القدرات الأساسية».

مرّت الشهور بسرعة بما يرافقها من عبء رتابة الدروس والواجبات الدراسية، أو العقوبات والضحك. كان الطفل يكبر مما يتطلب تطويل أكمامه. أصبح في الرابعة عشرة ثم الخامسة عشرة. تم تهديده في إحدى المرات بضربه بالخيزرانة (علماً بأن الضرب بالعصا كان عقوبة استثنائية)، فتظاهر بالإصابة بنوبة هستيرية. أخذ يصرخ والزبد يخرج من فمه ويضرب الأرض بقدميه مما أرعب المدير بحيث أمر بأن يُنقل نيقولاي إلى غرفة العناية الطبية المدرسية بواسطة الحراس المقعدين الأربعة الذين يعملون في المدرسة منذ مدة طويلة. توقف الكلام عن العقوبة و «تعافى» نيقولاي في غضون أسابيع قليلة. ويمكن القول إن النوبة الهستيرية لم تكن زائفة كلياً إذ إنه كان سريع الاهتياج، وقد اندفع نيقولاي وراء حيلته نفسها، وتحولت ردة فعله من تمثيل مفتعل إلى ثوران عصبي فعليّ. وقد تباهى فيما بعد أمام زملائه كيف أنه نجح في خداعهم جميعاً، علماً بأنه كان يتحول بسرعة من حالة الكآبة إلى الرغبة المفاجئة في التهريج.

كتب لأمه في (٢٦) شباط/ فبراير (١٨٢٧) يقول: «تعرفين أنني أحب المرح وأنت وحدك تعرفين أن وراء ما يظنه البعض بروداً أخفي رغبة جامحة للمزاح (دون أن أبالغ في ذلك بطبيعة الحال)». كما يقول في رسالة إلى صديقه فايسوتسكي (في ٢٦ حزيران/ يونيو ١٨٢٧) «بدأت بالشكاوي ولكنني أشعر بالابتهاج من جديد».

هذه التقلبات السريعة في المزاج، والتحول من الوردي إلى الأسود والعواطف المتناقضة كانت تسم سلوكه: إذ كان يطلق العنان لنفسه في تصرفات

مشعوذة بحيث يتسم سلوكه بحماسة شخص مهووس. لم يكن يحتاج لأي سبب محدد لكي يغيّر وجهته من التفاؤل إلى اليأس، وحين يكون لديه سبب حقيقي للشعور بالتعاسة فإنه يبدو هادئاً بصورة تدعو للاستغراب.

ظلّ أبوه يصرّ طوال أربع سنوات على أنه مريض، علماً بأن فاسليي أفاناسييفتش نفسه كان يميل لتوهم المرض ويتصور دائماً بأنه على وشك الموت. ولكنه سقط فعلاً صريع المرض في بداية عام (١٨٢٥) إذ بدأ يسعل دماً وتوجه إلى «كيبنسك» لاستشارة أطباء حاميهم تروششنسكي. وكانت ماريا إيفانوفنا على وشك الوضع ولذا لم تستطع أن ترافقه وبقيت تنتظره يوماً بعد يوم. ولكنه لم يعد قط، وحين علمت بموته بعيداً عنها كان ذلك بمثابة ضربة ساحقة لها بحيث كادت تفقد رشدها. أخذوا يعطونها الطعام عنوة ولم تكن قادرة على أن تكتب لابنها بنفسها. ولذا رجت المدير أن يبلغ الخبر الحزين لنيقولاي الذي صعقه الخبر، وكان رد فعله المباشر هو محاولة إلقاء نفسه من النافذة.

ألا يكفيه أن يفقد أخاً عزيزاً، وهاهو الله يأخذ منه أباه أيضاً؟ لماذا لا يتعرض بقية الأطفال لما يتعرض له من محن؟ فكرة الموت في حد ذاتها، تلك الحفرة السوداء الباردة تبعث الرعب في نفسه. ولكنه ما لبث أن سيطر على مشاعره إذ إن فكرة أنه، وهو ما يزال في السادسة عشرة من عمره أصبح سيداً لعائلة، أنعشت إحساسه بالمسؤولية وعززت موقعه بصورة تبعث على الرضا. من الواجب أن يكون همه الأول التسرية عن أمه التي قد يضعف الحزن صحتها. قلمه كان سلاحه الوحيد لدفعها للعودة للتمسك بالحياة. عليه إذن أن يبعث لها برسالة مؤثرة مسبوكة بحيث تنفذ كل عبارة فيها إلى أعماق قلبها. كما يمكنه أن يخفف من معاناتها بتحمله هو جانباً من هذه المعاناة. حبذا لو كان كاتباً حقيقياً حيث يستطيع أن يعبر عن كل ما يعتمل في ذهنه بأسلوب رصين. استعاد رباطة جأشه وهو يهيّيء نفسه لهذه المهمة، فالأدب يوسّع الحياة، وحزنه تحوّل تدريجياً إلى بحث عن الكلمات المناسبة لاستخدامها في رسالته، وكان أن كتب لوالدته في (٢٣ نيسان/ إبريل ١٨٢٥) يقول:

«أمي العزيزة، لا تقلقي. لقد تحملت هذه الضربة بجَلَد مسيحي. حزنت بالطبع لهذه الأخبار في البداية بشكل رهيب وإن كنت لمَ أسمح بأن يلاحظ أحد مدى حزني، بل إنني فكرت بأن أنهي حياتي، ولكن الله منعني عن ذلك، وعندما أتى المساء لم أجد في داخلي إلا حزناً صامتاً تحول تدريجياً إلى أسى هادئ لا أكاد أشعر به، يرافقه إحساس بالإجلال لله تعالى. ولائي لك يا رب! منك وحدك أجد السلوان لآلامي وراحة لنفسي. وهكذا فإنني أرى نفسي هادئاً الآن وإن كنت لا أجد السعادة بعد أن فقدت أفضل الآباء، وأكثر الأصدقاء وفاءً وكل ماهو عزيز على قلبي. ولكن، أليس لديّ بعد أكثر الأمهات إحساساً ورقة وطهارة؟ ألا يمكنها أن تحلّ محل الوالد والصديق الأروع والأعز؟ أجل، ما زلتِ لديّ ولذا فإن حسن الحظ لم يتخلّ عني. وما يقلقني أشد القلق هو مايؤلمك. كوني شجاعة، خففي من هذا الألم بقدر الإمكان كما فعلت. سلمي نفسك، شأني، لله تعالى. . . ستبدأ العطلة في غضون ستة أسابيع وسأكون معك. هدئي من حزنك حتى ذلك الحين، ولو قليلاً. لا تنسي أن على حالتك تعتمد حالة ابنك الذي يبجلك ويحبك حباً جماً. . . .»

جاء اليوم التالي (٢٤ نيسان/ إبريل) بتوسل آخر: «أتوسل إليك ألا تيأسي يا أمي العزيزة. ترأفي بنا، نحن الأيتام المساكين الذين تعتمد سعادتهم عليك أنت. أقول لك ثانية، أشفقي علينا. لا تدمري آخر فرصة لنا للسعادة».

لجأ نيقولاي جوجول بعد أسابيع قليلة، ونظراً لأنه لم يتلق أي جواب إلى أسلوبه المعهود في الضغط - باللجوء إلى حل يائس مريع حيث يقول في رسالة لأمه: »إن لم أتلق أي جواب على تلك الرسالة فإن صمتك سيعني بالنسبة لي أن عليّ أن أسلّم نفسي لليأس وأضع نهاية لهذا الشك اللئيم. وكما ترين فإن سعادتي أو تعاستي إنما يعتمدان على إشارة منك. . .».

أتت الإشارة في النهاية وتحسنت معنويات نيقولاي إذ تجددت الاتصالات بينه وبين أمه، وهو ما أنقذه. أما ما يحتاجه الآن فهو أن تقتنع بأنها، بفقدها لزوج كسبت إبناً. وستدهش في العطلة حين ترى كيف أنضجه الحزن وأي

روح حلوة سيأتي بها كهدية لها. وبعد أن اقتنع بأن هذا التحول العميق تم له بالفعل أخذ يتحمل حزنه الآن ويشعر بنوع من العرفان بالجميل.

في رسالة أخرى (في ٣ حزيران/ يونيو ١٨٢٥) يقول لأمه: «سأراك قريباً، وهذا ما يبعث لديّ السرور كل يوم، وإنني أفكر من الآن بنوع الهدية التي سأجلبها لك. ولكنني أدرك أن أفضل ما أقدمه لك هو قلب طيب يشتعل بأرقّ الحب لك. ويمكنني أن أتجرأ على القول بأنني اكتسبت الكثير من الصفات الجيدة التي ستلحظينها لديّ فيما أعتقد. فقد تحسنت نظرتي للأمور وأصبحت أكثر عمقاً ونفاذ رؤية...».

كان هنالك جانب من الحقيقة في هذه الخطب المسهبة البلاغية. فالسنوات، وحزنه، والحياة الجماعية عززت كلها في الواقع من شخصية نيقولاي جوجول.

ابتهج في أشهر الصيف في فاسيلييفكا برؤية أمه وجدته وأخواته، وباتضاح مدى سلطته عليهم. عاد إلى المدرسة التي أصبح يطلق عليها مسمّى ليسيه (Lycee) وقد تضاءل خوفه عما كان عليه من قبل. أما أمه فمن الواضح أنها تغلبت على حزنها وولدت، دون أية مضاعفات، طفلة أسمتها «أولجا». وعلى هذا فقد أصبح الابن الوحيد تحيط به الإناث مما ضاعف من طاقته. كما أنه، وعلى الرغم من كونه من طراز غير اجتماعي فقد رافق عدداً من الأصدقاء: من زملائه الطلبة الذين يشاركونه حب الأدب. كان أقرب أصدقائه هم الكسندر دانيليفسكي الذي كان يعرفه من قبل في مدرسة بولتافا، وجيراسيم فايسكوتسكي الذي كان يسبقه في المدرسة بسنتين، وهو فتى عميق التفكير، ميال للسخرية. ومن أفراد المدرسة أيضاً نستور كوكولينك[١] الذي كان الأول على فصله، ويوجين جرينكا[٢] وكونستاتين بازيلي[٣] وبروكوبوفيتش[٤]،

---

(١) نستور كوكولينك: أصبح فيما بعد كاتب تراجيديات وطنية.
(٢) يوجين جرينكا: أصبح هذا فيما بعد شاعراً يكتب بالأوكرانية.
(٣) قسطنطين بازيلي: أصبح دبلوماسياً وكتب كتباً عن تركيا واليونان.
(٤) بروكوبوفيتش: اصبح بروكوبوفيتش فيما بعد مدرساً وشاعراً.

وليوبيتش - رومانوفيتش[1]. كان هؤلاء الفتيان يقرؤون بنهم، ولا يكتفون بمكتبة المدرسة الفقيرة، وقد وافق المحسن تروشنسكي (قريب ماريا) على أن يعيرهم بعض الكتب من مكتبته الشخصية، وجلها للكتاب الفرنسيين. وكان نيقولاي جوجول يشتري الكتب أحياناً من مصروفه الشخصي.

كتب لأمه (في ٦ نسيان/ إبريل ١٨٢٧) يقول: «أحرم نفسي واكتفي بأقل القليل مما يمكنني من المحافظة على نفسي ولكي ألبي عطشي لرؤية الجمال والإحساس به. ولهذا، وبألم شديد أكرّس مخصصاتي السنوية ولا أترك جانباً إلا جزءاً يسيراً لاحتياجاتي. كتاب «شيلر»[2] الذي طلبته من «ليمبرج» كلفني أربعين روبلاً، وهو مبلغ لا يستهان به لشخص من إمكانياتي. غير أن مكافأتي تتجاوز تضحيتي، وأنا أقضي ساعات قليلة كل يوم وأنا في غاية السعادة. ولكنني لم أتجاهل الكتاب الروس حيث أطلب على الفور أفضل الإصدارات... أقرأ أحياناً في إحدى الدوريات أن عملاً ممتازاً يباع الآن فيبدأ قلبي بالخفقان وألقي بالدورية جانباً وأنا أتذكر بأنه من المستحيل عليّ أن أشتري الكتاب. تحرقي له يقلق نومي! وإذا حصلت على أية نقود يغمرني الفرح وكأنني أكثر المتسولين شراهة».

أخذ الفتيان يجمعون ما لديهم من مال في صندوق مشترك لشراء الكتب والدوريات. وقد نجح المشروع بحيث أنهم سرعان ما احتاجوا لقيّم مكتبة حيث اختاروا بالإجماع نيقولاي جوجول لهذه المهمة، فأخذ ينفذها بصرامة كهنوتية مصرّاً على أن تتم قراءة النصوص بوجوده، وعلى أن يضع الطالب ورقة على إصبع السبابة قبل أن يبدأ بالقراءة لكي لا يلوث الصفحات وهو يقلبها. مثل هذا الحرص الشديد كان أمراً مستغرباً لصدوره عن فتى كان قليل العناية بنفسه، في حين يعتبر أن كل ما يتعلق بأمور الأدب مقدس.... وبينما كان هو قذراً بصورة ظاهرة فإن وجود بقعة على هامش كتاب، أو جلدة بالية إنما يسبب له ألماً حقيقياً..

---

(١) لوبيش رومانوفيتش: أصبح فيما بعد شاعراً ومؤرخاً ومترجماً، ترجم للشاعر الإنجليزي بايرون.
(٢) شيلر: الشاعر وكاتب المسرح الألماني (١٧٥٩- ١٨٠٥).

كان منصبه كقيّم على المكتبة يعطيه الحق الأول في اختيار الكتب، وهو يريد أن يتعرف على نتاج كل الكتاب المعاصرين، وهم ليسوا جميعاً بالطبع يمثلون في المنهاج الدراسي. أما مدرس مادة الأدب في المدرسة، وهو غبي يتمسك بالرسميات اسمه «نيكولسكي» فكان يبجّل كتّاب القرن الماضي غاية التبجيل ولا ينظر إلا نظرة احتقار للأدباء الجدد مثل «بوشكين» و«جوكوفسكي» و«باتيوشكوف» على الرغم من أن هؤلاء محطّ إعجاب هؤلاء الطلبة في ذلك الوقت بالذات. كان بوشكين ينشر حينذاك الفصول الأولى من روايته الشعرية «يوجين أونجين» التي وصلت شهرتها إلى أبعد المناطق. وبحكم إعجابه بتلك الأبيات الغنائية التي تتصف بكمال يستعصي على التحليل عمد جوجول لنسخ قصائد «الغجر» و«بولتافا» و«الإخوة اللصوص»، بالإضافة لمقاطع من «يوجين أونجين» في دفتر مذكرات. ولكي يحدث أثراً لدى المعلم نيكولسكي خطرت له فكرة أن يعرض عليه أجمل قصيدة كتبها معبوده الأول وهي قصيدة «النبي» مدعياً بأنه هو الذي كتبها. وبعد أن قرأها قطب نيكولسكي جبينه وسخر منه وأخذ ينتقد كل بيت فيها إلى أن استشاط جوجول غضباً واعترف له بالحقيقة. وهنا أعلن معلمه من فوق منصته ودون أن يرفّ له جفن: «إنك تتصور إذن أنه لا يمكن لبوشكين أن يكتب قصيدة سيئة؟ حسناً، هناك برهان على ذلك!» وهنا أخذ يصف لغة بوشكين «بالتافهة» معلناً أنها تفتقر «للسمو». غير أن هذا الهجوم لم يزد جوجول إلا هياماً بشاعره المفضل. وتجدر الإشارة إلى أنه كان يتصور في الماضي بأن موهبته إنما هي في الرسم، إلا أنه بدأ يتساءل الآن فيما إن كانت لديه مواهب أدبية أيضاً، وتحوّل الفتى الذي كان يخربش رسوماً وهو يجلس خلف زملائه إلى خربشة أبيات شعرية، وأخذت رسائله لوالدته تقلل من ذكر الرسوم التي يرسمها ويتزايد حديثها عن القصائد التي ينوي كتابتها. ويقول في رسالة لها (في ٢٤ نيسان/ إبريل ١٨٢٥) «كنت أنوي إرسال بعض قصائدي ورسومي لوالدي في عيد الميلاد، غير أن الله لم يشأ له رؤيتها».

وفي (١٥) أيلول/ سبتمبر من السنة التالية كتب يقول: «تطلبين مني أن آتيك ببعض قصائدي في عيد الميلاد. هذا موعد بعيد ولكنني سأحاول إعداد بعضها».

في (٢٦) تشرين الثاني (١٨٢٦) يعلن بفخر «أعتقد أنك ستدهشين لمدى التقدم الذي سأحضر لك ما سيبرهن عليه. لن تتعرفي على عملي الأدبي الذي تحول تحولاً جذرياً. إنه الآن من نمط مختلف تماماً».

أخذ رأسه يعج بالأفكار. كل أسلوب هو أسلوب يناسبه. وعلى هذا، وبتتابع سريع كتب قصيدة ملحمية تحمل عنوان: «روسيا تحت نير التتر»، ودراما رومانتيكية على نسق كتابات شيلر بعنوان «اللصوص»، ومقطوعة هجائية للمقيمين في نييجن: بعنوان «بضع كلمات عن نييجن»: حيث لم يسن القانون من أجل الأغبياء». كان هذا عملاً في خمسة أجزاء:

«١- تكريس لكنيسة صغيرة في المقبرة اليونانية.

٢- انتخاب قاضٍ يوناني.

٣- معرض الشرهين.

٤- عشاء في بيت عمدة الأشراف.

٥- اجتماع طلابي».

إضافة إلى ذلك كانت هنالك قصائد بين آونة وأخرى تسخر من الزملاء والمعلمين. غير أن نيقولاي و«دائرته» كانوا يتحولون شيئاً فشيئاً إلى النمط العاطفي.

يقول جوجول في كتابه «اعترافات كاتب»: «محاولاتي الأدبية المبكرة، ممارساتي الأولى في التعبير والتي اكتسبت من خلالها بعض التفوق خلال سنواتي الأخيرة في المدرسة كانت بطبيعتها غنائية وجادة. ولم أكن أنا أو أي من رفاقي الذين يحاولون الكتابة أيضاً يعتقد بأنني سأصبح كاتباً ساخراً أو هجّاءً. غير

أنني ، وعلى الرغم من أنني ذو طبيعة جادة أساساً فإنني كنت أريد في الكثير من الأحيان أن أمازح ، بل وإنني كنت أزعج جيراني بسخريتي ، وكانوا يقولون إنني «أظهر براعة أقل في السخرية من زملائي مما أنا قادر على تخمين ما قد يقولونه في مناسبة ما ، وعلى تقليد تحولات أفكارهم وأسلوبهم في الكلام» .

اشتعلت بين هؤلاء الفتيان روح المنافسة وأخذوا ينظمون الشعر المقفّى منذ الفجر حتى الغروب ويجتمعون كل يوم أحد للمقارنة بين ما أنتجوا . ولم يكن هناك مجال للاستئناف سواء أكان الحكم هو المديح أو النقد . وعندما جرّب جوجول حظه بالكتابة النثرية وكتب «قصة سلافية» بعنوان «الإخوة تفيردو سلافيتش» دمرته جمعية الأخوة إذ اتخذت في اجتماعها قراراً بوجوب إتلاف هذا العمل . وقد كتب ليويتش – رومانوفيتش فيما بعد يقول: «لم يقاوم جوجول هذا القرار بل إنه أمسك بالمخطوط ومزقه إرباً وألقى به في المدفأة المشتعلة» . ويضيف في كتابه «المراسل التاريخي»: «كانت نصيحة بازيلي الودودة له: «اكتب الشعر فقط وليس النثر ، فهو لا يلائمك على الإطلاق . من الواضح تماماً أنك لن تكون كاتباً قط» .

على الرغم من هذه النبوءة فقد تابع محاولاته[1] مثله مثل زملائه . وكان لابدّ من إيجاد سوق لهذا النتاج . ولذا تم ابتداع مجلات تكتب باليد لنشر نتاج المدرسة الأدبي ومنها «النجمة» و«الفجر الشمالي» ، و «الشهاب الأدبي» و« كومة الروث في بارناسوس»[2] . كان جوجول رئيس تحرير بعض هذه المحاولات (التي اقتصر توزيعها على نسخة واحدة) . كان يغرق هذه المجلات بأشعاره وكتاباته النثرية ويزينها برسوماته . أما قراؤه فهم بقية طلاب صفه حيث كانوا يتبادلونها ويتداولونها ، كما تقرأ بعض مقاطعها بصوت عالٍ .

مثل هذه القراءات كانت أقل نجاحاً من المسرحيات التي كانت تمثلها المجموعة ذاتها من الطلاب . كان جوجول مغرماً بالمسرح منذ أوائل حياته .

(١) لم يبقَ من الأعمال المبكرة هذه أي أثر باستثناء عناوينها التي ذكرت في مذكرات معاصريه .
(٢) جبل في وسط لبنان .

وها هو يتذكر في المدرسة المسرحيات الكوميدية التي كان والده ينتجها في كيينسك. فهنالك في المدرسة جمهور مسحور بالمسرح مستعد للتصفيق وممثلون لكل الأدوار المسرحية. وبعد بعض التردد وافق المدير الودود في النهاية على تمثيل المسرحيات في المدرسة، وبذا تحول جوجول وقد غمره الابتهاج إلى ممثل ومخرج ومصمم للمشاهد. وكان الفتيان أنفسهم هم الذين يصنعون الثياب ويرسمون المناظر اللازمة تحت إشرافه. أخذوا جميعاً يلحّون على عائلاتهم طالبين الأقمشة وكل المستلزمات المطلوبة للمسرح. ويقول جوجول في رسالة لأمه في تلك الفترة: «أرسلي لي قماشاً وأشياء أخرى من مستلزمات المسرح، وإن أمكنك إرسال لباس مسرحي، لباس واحد على الأقل فسيكون ذلك ممتازاً».

وبعد ذلك تعج الصالة الرياضية التي حولت إلى مسرح يحوي خشبة وستارة وصفوفاً من الكراسي والمقاعد بجمهور كبير. إذ بالإضافة إلى الطلبة الذين يجلسون إلى جانب بعضهم البعض ببزاتهم الرمادية يتواجد عدد قليل من ملاك الأراضي في المنطقة، ومن المسؤولين الحكوميين، وآباء الطلاب والجنود العسكريين في البلدة. تم عرض مسرحية «أوديب في أثينا» و«داديس» لفونفيزين، و«درس للشابات» لكرايلوف إلى جانب بعض كوميديات والد جوجول وعدد قليل من المسرحيات المترجمة عن الفرنسية.

كلما كان نيقولاي يظهر على خشبة المسرح «ينفلق» الجمهور من الضحك. كان رائعاً بصورة استثنائية في تجسيد الأدوار النمطية. زملاؤه في الصف كانوا يضجون بالضحك وهم يشاهدونه يمشي مشية رجل عجوز منحن فمه خالٍ من الأسنان، أو امرأة فضولية خشنة الصوت. وقد كتب بازيلي فيما بعد يقول: «رأيت داديس لفونفيزين، في موسكو وفي سانت بطرسبرج ولكنني مازلت مقتنعاً بأن لم يلعب دور السيدة «بروستاكوف» بمثل البراعة التي أدى بها جوجول هذا الدور حين كان في السادسة عشرة من عمره. وقد وافقه الرأي زميل آخر من زملاء صفه هو باشيشنكو حيث يقول: «كنا نعتقد حينذاك بأن جوجول سيصبح ممثلاً إذ كان موهوباً بشكل هائل، سواء فيما يخص قدرته على

التقليد أو فيما يتعلق بماكياجه أو تغيرات صوته أو في تقمصه الشخصية التي يمثل دورها». لعبة تغيير جلده والتخفي بالتنكر في شخصية إنسان آخر كانت تتناسب بشكل ممتاز مع طبيعته الداخلية. إذ إن هذا الفتى الجبان يمتلئ ثقة بالنفس حين يحميه التمثيل المسرحي. فهو لا يخاف أحداً وهو متنكر، وتتضاعف سعادته بالتصفيق لأنه موجه لشبيه زائف له.

انتصاره الأكبر ولاشك كان خلال فترة ما قبل موسم الصوم الكبير عام (١٨٢٧). كان في الثامنة عشرة من عمره، وقد كتب لأمه (في ١ شباط/ فبراير) يقول: «لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذه السعادة من قبل! بل يحزنني أن الوقت يمر بكل هذه السرعة. مسرحنا جاهز. يا له من مصدر للسعادة».

بعد الاحتفالات أرسل هذه الرسالة لصديقه فيسوتسكي (في ١٩ آذار/ مارس ١٨٢٧) يقول فيها: «قدمنا عروضاً مسرحية لأربعة أيام متتالية ولعب الجميع أدوارهم بصورة لافتة للنظر. وأعلن معظم من في جمهورينا، وهم في معظمهم من الخبراء في المسرح، أنهم لم يشهدوا من قبل مثل ما رأوا على خشبة مسرح محلي. رُسِمت مناظر الديكور (التي بدّلناها أربع مرات) بصورة تبعث على الإعجاب. المنظر الخلفي كان بمستوى الكمال، والإضاءة باهرة، وعزف الموسيقى مثالي. شكلنا فرقة أوركسترا من عشرة موسيقيين، ولكنهم وضعوا في أفضل زاوية من الناحية الصوتية بحيث يمكن أن ينافس أداؤهم بكل سهولة فرقة أوركسترا سمفونية. لعبت هذه الأوركسترا أربع مقدمات موسيقية لروسيني، واثنتين لموتزارت، وواحدة لوبير وواحدة لسيفريوجين (وهو أستاذ للموسيقى في المدرسة). وهذه هي المِسرحيات التي قدمناها: مسرحية ديديس لفونفيزين والمسرحية الكوميدية «الحَكَم الأخرق» لكنيازين و «الضفة اليمنى» لكوتزيبو، ومسرحية لفلوريان. ولن ينتهي الأمر عند ذلك بل إننا نعد مجموعة من المسرحيات لعيد الفصح».

هذا الاندفاع الذي لا تحده حدود للمسرح والشعر لم يلقَ قبولاً لدى المعلمين. البعض مثل المدير تشابولينسكي والمفتش الشاب بايلوسوف الذي كان

يدرّس القانون الطبيعي كانا يؤيدانهم، لكن آخرين مثل بيليفتش مدرس العلوم السياسية كانوا ينظرون إليهم باعتبارهم يهددون النظام العام وأسس التنوير الأخلاقي للأطفال. وعندما أخفق بيليفتش في منع العروض اعتبر ذلك الرفض لوجهة نظره على أنه إهانة شخصية له، ونصّب نفسه بالتالي قيّماً على التقاليد في مواجهة مجموعة من المعلمين الضعفاء الذين سحقتهم مطالب طلابهم.

كانت الانتفاضة الديسمبرية التي أثارها بعض الضباط الليبراليين قد تم إخمادها بصورة دموية في ساحة مجلس الدوما في سانت بطرسبرج في الرابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر (١٨٢٥)، وقد أقضّت هذه الانتفاضة مضاجع الروس جميعاً. وفي حين كان زعماء الانتفاضة، وبينهم أسماء كبيرة تنتمي للطبقة الأرستقراطية يعدمون أو يساقون إلى سيبيريا كان القيصر الجديد نيقولاس الأول يعزز سلطته ويطالب باستنكار كل الاتجاهات التآمرية كبرهان على ولاء رعاياه للعرش. وعلى الرغم من أن الطلاب في مدرسة نييجن قلما كانوا يتحدثون عن مثل هذه الأحداث السياسية التي تجري في مكان بعيد فإن المعلمين لم يكن أمامهم إلا أن يتأثروا بها، كل بطريقته الخاصة. فالرجعي المتعصب بيليفتش كان يسم زميله بايلوسوف بأنه ليبرالي. ونظراً لأنه هزم في قضية التمثيل المسرحي فقد أخذ يبحث عن الانتقام في موقع آخر، ولذا أخذ يكتب التقرير تلو التقرير متهماً بعض الطلاب، ومن بينهم جوجول - يانوفسكي بالغطرسة وبكتابة أشعار تحريضية. وقد كتب في (٢٥) تشرين الأول/ أكتوبر (١٨٢٦) يقول: «يعمد بعض الطلاب الداخليين، دون معرفة المدير، إلى كتابة أشعار غير مناسبة على الإطلاق، ويقرؤون كتباً غير مناسبة لأعمارهم، ويحتفظون بأعمال لألكسندر بوشكين وغيره من الكتاب من هذا الوزن». وقال إن هنالك تفسيراً بسيطاً لهذا الشغب، وهو أن توجيهات مدرس مادة «التاريخ الطبيعي» بايلوسوف قد أفسدتهم. وقد اتهم بايلوسوف أمام هيئة المعلمين بأنه يقرأ محاضراته من مذكرات شخصية مستلهماً إياها من آراء الفيلسوف «كانت» الخطرة. ألم يدّع بايلوسوف أن البشر ولدوا أحراراً وأن لهم حقوقاً، تماماً كما

أن عليهم واجبات؟ فإذا كان الأمر كذلك فأين يقف نظام القنانة الذي يمارس منذ أيام الأسلاف؟ أيمكن للمرء أن يتظاهر بأنه يخدم الإمبراطور وهو يبشر في نفس الوقت باستقلالية العقل البشري؟ وماذا ينتظر روسيا، بل والعالم برمته إن لم يمنع الناس من بذر بذور العصيان لدى عقول الناشئة؟.

حاول المدير، شابولينسكي، إخماد هذا الموضوع غير أن بلييفتش الغاضب لم يكن لينثني، إذ بعد عام كامل من الاهتياج والتأخير تم استبدال المدير بمدير جديد هو يارنوفسكي الذي وقف ضد مدرس القانون الطبيعي. صدرت أوامر بإجراء تحقيق إداري في «مسألة التفكير الحر» حيث قام مجلس المعلمين بالتدقيق في كراسات وظائف الطلاب وتبين أن كراسات نيقولاي جوجول وآخرين تحتوي على مقاطع موضع شبهة. ولذا جمعت باعتبارها دلائل إثبات لمتابعة القضية. كما استدعي جوجول وتم استجوابه كشاهد. وقد حاول أن ينقذ بايلوسوف بالتقليل من فعالية دروسه، غير أن تعاطف الطلاب مع معلمهم جعل منه موضع شبهة، واعتبرت لجنة التحقيق أن خلف هؤلاء الطلبة المضللين تكمن نذر تكشر عن أنيابها لثورة على نسق الثورة الفرنسية، وأنه لابدّ أن تكون هناك نشرات معادية للحكومة في أدراج الطلاب، أو على الأقل في رؤوسهم. أجل، بهذا الأسلوب تم تأسيس الجمعيات الروسية السرية، وليس هناك مجال لإضاعة الوقت بل لابدّ من تفكيك هذه المنظمة. تم التنديد كذلك بالمدير السابق «شابولنسكي» وبكل من «لاندراجين» و»زينجر» وهما معلمان دعما بايلوسوف علناً، باعتبارهما يمارسان نفوذاً خبيثاً على الطلبة. أرسل تقرير بهذا المعنى لوزير التعليم، وتم في النهاية إقصاء كل من شابولنسكي ولاندراجين وزينجر بالإضافة إلى بايلوسوف من المدرسة. وما لبث أن صدر أمر عن نيقولاس الأول في (٦) تشرين الأول/ أكتوبر (١٨٣٠) يقضي بأن يتم نقل المعلمين من الجنسية الروسية إلى مسقط رأسهم مع مراقبتهم هناك وإبعاد الأجانب منهم إلى بلادهم الأصلية.

بينما كانت هذه العاصفة تهز المعلمين كان طلابهم يعودون إلى دراستهم بحماس أقل، وأخذ نيقولاي يكتفي بحفظ دروسه بعد أن لجم نشاطه وأصبح

غير مبال، بل حتى دراسة قواعد وإعراب اللغة الروسية أخذت تثير اشمئزازه. وراح يكّتب دون اكتراث ويرتكب أخطاءً لا تغتفر باللغة، ويقلّد الأسلوب الطنّان الذي يكتب به كتّاب العروض المعاصرون، وغدت رسائله مواضيع إنشائية تملؤها سلسلة كاملة من العواطف الوجدانية، وهو الأسلوب الذي أصبح سائداً في تلك الفترة بتأثير كتاب «ليزا المسكينة» لكارامزين. أما حين يحاول التعبير بصدق في كتاباته فإن أسلوبه كان يتسامى بنفس القوة التي يتدفق بها الدم إلى قلبه. هذه المبالغة في عباراته كانت تقترن بشغف في استخدام الكلمة غير المألوفة، والصفة الغريبة غير المتوقعة.

كتب كويجنسكي، مدرس اللغة اللاتينية عنه فيما بعد يقول: «لازلت أذكره، فتى أشقر يرتدي بزة المدرسة الرمادية، طويل الشعر، تنمّ هيئته عن الانطواء على الذات لإنسان يحمل سراً دفيناً في داخله –تعابيره تدل على النعاس ومشيته بعيدة عن الرشاقة. لم يكن يحفظ دروسه قط، علماً بأنه كان تلميذي لثلاث سنوات ولم أعلمه أي شيء إلا ترجمة العبارة الأولى من المقطوعات المختارة لقواعد «كوشانسكي»[1]. كان من دأبه أن يخفي كتاباً على ركبتيه أثناء الدرس دون أن ينتبه للدرس على الإطلاق، وكنت أعطيه علامة «صفر» أو «(١) طوال ثلاث سنوات. لم يتعلم أي شيء من زملائي أيضاً، وطوال سنوات دراسته لم يكتسب إلا قدراً لا يكاد يذكر من المنهاج الدراسي، ومجرد فكرة عامة حول تقييم الثقافة والأفكار. وهو لا يدين لنا بشيء، بل إننا لم نتعرّف على موهبته أثناء وجوده في المدرسة، وهو من جانبه لم يحاول أن يظهرها لنا، ولربما كان من شأن بعض معلميه أن يشجعوه ويغنوا موهبته لو أنه فتح نفسه لهم. كان يُنظر إلى جوجول على أنه فتى موهوب نسبياً –ولكنه كسول، بل بلغ به الكسل إلى حد أنه لم يكن يبدي اهتماماً بكتابة الروسية بالشكل السليم. من المؤسف أننا لم ندرك ما لديه، ولكن من يدري، ربما كان ذلك هو الأفضل له». وفي مكان آخر يقول هذا المعلم: «كان terra rudis et inculta. أما فيما يتعلق بإتقانه

(١) Universus mundus plerumque distributior in duas partes, coelum et terram

للقواعد لدى انتهائه من المدرسة فإنني أستطيع التأكيد دون أن أخشى أن هناك من يناقضني بأنه كان غير قادر على تصريف الأفعال بأي لغة من اللغات».

على أية حالة، وبينما كان جوجول يتابع مساره المدرسي أخذت أفكاره تتحول شيئاً فشيئاً عن التسليات المدرسية وتتجه أكثر فأكثر إلى حياة الكبار التي تنتظره خارج أسوار المدرسة. فمنذ وفاة والده أخذ يعتبر نفسه، وباقتناع، بأنه حامي العائلة وناصحها. وفي كل رسالة إلى البيت كان يحث أمه على إبلاغه بكل صغيرة وكبيرة من شؤونها ويحذرها من حقد أولئك الذين تستخدمهم للدفاع عن مصالحها.

كتب لها في رسالة في (٢٠) آب/ أغسطس ١٨٢٦ يقول: «أتوسل إليك أن تخبريني بكل ما تخططين له وتفعلينه بالنسبة لإدارة الإقطاعة، خاصة عن أي أبنية أو نشاطات تنوين القيام بها. وإذا احتجت إلى تصميمات لواجهة ورسوم الأبنية فعليك أن تبلغيني على الفور، وسنجتهد لوضع مخططات الواجهات والرسوم ونرسلها بالبريد. ستكون الواجهة جميلة بالتأكيد والتكاليف قليلة».

وفي رسالة في نفس الفترة يقول: «أبلغيني متى سيبدأ تقطير الفودكا، وكم يكلف كل دلو طبقاً للأسعار السائدة. هل يجري التقطير بصورة حسَنة لديكم وهل هو مجزٍ؟ «ويقول: «هل ركبت طاحونة الهواء التي كنت ترغبين بتركيبها؟».

لم يكن نيقولاي يجهل الصعوبات المالية التي تواجهها والدته. ويؤلمه دوماً أن يكون عبئاً عليها ويأمل بأن يدهشها بإنجازاته يوماً ما.

في (١٥) كانون الأول/ ديسمبر (١٨٢٧) كتب لها يقول: «إنني مستغرق بدراستي كل الاستغراق بحيث أدرس منذ الصباح حتى الليل دون أن يقطع عليّ تركيزي أي أمر مهما كان ضئيلاً. فلنكف عن التفكير بالماضي، ويجب أن يكون هدفنا هو أن نعوّض ما فاتنا. إنني أنوي أن أبذل من الجهد في الشهور الستة القصيرة القادمة أكثر مما فعلت طوال السنوات الست التي قضيتها هنا. أريد أن

أنجح ولسوف أنجح لأنني حققت دائماً كل ما أريد. لا شك بأن الظروف ظلت معاكسة لي خصوصاً فيما يتعلق بضيق ذات اليد. أرجو أن ترسلي لي ستين روبلاً على الأقل في أول فرصة ممكنة قبل بدء السنة الجديدة لكي أتمكن من شراء الكتب التي أحتاجها لدراستي. حاجتي للمزيد ماسة ولكنني سأتدبر أمري بهذه المجموعة بفضل قدرتي الحديدية على الصبر، وآمل بأن أتمكن من وضع أسس ذلك الصرح الضخم الذي أحلم به والذي لا يمكن أن يهز أركانه أي شيء. إنني أدرس اللغات في الوقت الحاضر وجهودي تمضي بنجاح ولله الحمد. غير أن كل هذا لا يعتبر شيئاً بالقياس إلى ما أنوي عمله، وإنني عازم على إتقان ثلاث لغات إتقاناً تاماً في غضون ستة أشهر».

غداً على الدوام! فكلما كان يدين كسله وجهله الماضي بقسوة كان يقينه يزداد بالظفر مستقبلاً. أخطاؤه ونقاط ضعفه نفسها كانت تبدو كأنها مؤشرات لقدر استثنائي ينتظره. والمرء إن بدأ من موقع منخفض فإنه يستطيع أن يحلّق عالياً في النهاية. وتواضعه إنما كان مظهراً من مظاهر غروره وحياؤه إنما ينمّ عن الكبرياء وهو يمشي متعثراً في الوادي ولكنه يرى نفسه يمتلئ إشعاعاً في القمم. فكيف يمكن لهذا الصعود أن يتحقق؟ لم تكن لديه أدنى فكرة حتى الآن وهذا ما كان يقض مضجعه. ولكن الله لن يقدّر له دون شك أن يبقى في الظل. هذا التناقض في شخصيته سيجعل منه، ولا بد، غير مفهوم لدى زملائه، غير أن من دواعي فخره أن يمثل مشكلة حية في عيونهم، وخاصة في عيني أمه.

كتب لأمه ثانية في (٨) آذار/ مارس (١٨٢٨) يقول: «خسرت ست سنوات، والأمر المدهش هو أنني استطعت أن أتعلم الكثير من هذه المؤسسة المضحكة. . . ولكن كل ما قد أعرفه إنما يعود الفضل فيه لي أنا نفسي. غير أن لديّ الكثير من الوقت مستقبلاً ولديّ القوة والقدرة على أن أنكبّ على العمل. . . عانيت من الحزن والفقر المدقع أكثر مما تتخيلين. . . أشك في أن أحداً أحسّ بالعمق الذي أحسّ به بعقوق بني البشر، وظلمهم، ومطاليبهم البلهاء واحتقارهم الذي يبعث على القشعريرة الخ . . . تحملت كل ذلك دون أن أنبس

بينت شفة ولم يسمعني أحد أشتكي من ذلك. بل إنني امتدحت أولئك الذين كانوا السبب في تعاستي. صحيح أنني أشكل لغزاً محيّراً بالنسبة للجميع بحيث لم يستطيع أحد أن يخمّن مافي داخلي. ففي البيت يعتبرونني مخبولاً متحذلقاً لا يحتمل، يظن نفسه أذكى من كل من هو على وجه البسيطة، مختلف عن الجميع. فهل تصدقينني إن قلت لك، بيني وبينك، بأنني أشاركك الضحك من نفسي؟ أما بالنسبة إلى الناس هنا فأنا مثال للتواضع واللطف والصبر. في مكان ما يعتبرونني أكثر الخلق مسالمةً ودماثة وبعداً عن الأضواء، وفي مكان آخر أكثر الناس مزاجية وانعزالية وهمجية، وفي ثالث أكبر مهذار ثرثار وأكثرهم إثارة للملل. ذكي في نظر البعض، غبي في نظر البعض الآخر. احكمي عليّ ماشئت ولكنك لن تعرفي طبيعتي الحقيقية حتى أبدأ مسيرتي على طريقي الصحيح. غير أن عليك على أية حال أن تثقي بأن قلبي يمتلئ بأنبل العواطف دوماً، وأنني لم أذل في دخيلتي في أي يوم من الأيام وأنني نذرت حياتي كلها للخير. تقولين إنني حالم لا يمكنه الالتزام بأي شيء، وكأنني لست أضحك أنا نفسي من أحلامي! لا، إنني أعرف بني البشر تمام المعرفة بحيث لا يمكن لي أن أكون حالماً: والدروس التي علموني إياها لن تتلاشى قط وليس من شأنها إلا أن تضمن سعادتي. وسترين أنني سأجازيهم بالخير في الوقت المناسب لقاء كل الشر الذي تسببوا لي به، لأن ذلك الشر الذي أحدثوه لي قد تحول في داخلي إلى خير، والحقيقة المؤكدة هي أن من أوجعته الحياة أشد الوجع وتحمل باستمرار نير التعاسة سيكون أسعد الناس».

عندما كتب هذه السطور عشية عيد ميلاده التاسع عشر كان نيقولاي جوجول مقتنعاً كل الاقتناع بأنه عاش حياة عظيمة وعانى في الآن ذاته معاناة شديدة. فنزوعه نحو التطرف إلى جانب استكشافه للغة الشعراء دفعاه إلى المغالاة. لم يكن يخطر بباله أن المدرسة هي مجرد مدخل للعالم وأن محنه المزعومة ليست بذات شأن بالمقارنة مع ما ينتظره في الجانب الآخر من الجدار. كل غدر من بني البشر وكل نزوة عدائية من نزوات القدر أحس بها حتى الآن،

أو ظن أنه أحس بها إنما كانت طعنة في لحمه ، وكل ذلك ليس إلا أدلة على أن الله سبحانه وتعالى مهتم به بشكل خاص . وكلما ازداد أنيناً ازداد ثقة بأن الله قد اختاره .

كان هنالك عنصر من الصدق في نثره الأدبي . فهو شديد الحساسية إلى درجة المرض ، ولا شك بأن تعيير زملائه وتعنيف مدرسيه كانا يؤلمانه . كان يتعذب لليالٍ بعد ليالٍ لمجرد وخزة كان من شأن أي فتى عادي أن ينساها ولا تترك في نفسه أيَّ أثر . إنه يعرف بأن بعض الناس يعتبرونه قبيحاً ، سقيماً ، مهزولاً ، مشوهاً ، أشعث ووسخاً . إدراكه لفقره النسبي جعله يحس بالذل ويتوق لأن يصبح غنياً ولأن يعامل باحترام . كانت له في الوقت ذاته عين نفّاذة بصورة استثنائية تكشف عن كل السمات التي تنم عن التفاهة أو السخافة لدى المحيطين به ، وكأن عدسة مكبرة تنتصب بين عينيه وبين من يوجه إليه أنظاره . وجوه تتدلّى ، أنوف تتضخم ، وثآليل تتحول إلى أجرام كبيرة . وبغمضة عين يصبح المعلّم فنطيسة خنزير ، ويتحول ذلك الفتى إلى حيوان ضخم الأنف والفكين . وما يلبث نيقولاي أن يجد نفسه ، شاء أم أبى ، وسط حديقة حيوانات حيث يضحك في سره فينتقم بذلك من جميع أولئك الذين أغاظوه .

أقرب صديقين له ، وهما دانيلييفسكي وفايسوتسكي كانا قد تركا المدرسة . إذ بعد أن استكمل دراسته في عام (١٨٢٥) عيّن فايسوتسكي في وظيفة بوزارة الداخلية في سانت بطرسبرج . ونيقولاي كان يحلم بدوره بنيل وظيفة في الهرم الوظيفي . فقد أخذ يتوق لأن يصبح سياسياً كبيراً أيضاً دون أن يتخلى كلياً عن طموحه في أن يصبح كاتباً ورساماً كبيراً . أليست هذه أفضل طريقة لخدمة البشرية؟ وهو حين يغلق عينيه فإنه يرى نفسه في قمة المجد – عضواً في مجلس الشيوخ أو وزيراً – شخصاً مثل تروشتشنسكي يحيط به المتوسلون ويشعّ خيراً عميماً على كل من حوله .

قد يكون من في نييجن تافهون ، ولكن هذا لا ينطبق على بقية الناس في روسيا . لابدّ أن يكون هنالك في سانت بطرسبرج تجمع من العظمة . الحياة

هناك حياة مضاعفة. وليعزز من وزن رغبته في الاستقرار في العاصمة استنجد، كالعادة، بالإرادة الإلهية. كانت تدفعه قوة تتجاوز الطبيعة، وروح والده تدله على الطريق. وقد كتب لأمه في (٢٤) آذار/ مارس (١٨٢٧) يقول:

«أبي، ذلك المخلوق النقي النبيل يلهمني ويدعمني وأنا أصعد الطريق الصعب: لقد مكنني من معرفة نفسي. وكثيراً ما يدخل إلى أعماقي في لحظات الشدة وكأنه نار سماوية تضيء الأفكار التي تجتاحني. وعند ذلك أدرك قوتي التي سأستخدمها في عمل عظيم ونبيل لمصلحة بلدي، ولأسعد رفاقي المواطنين. إنني متردد بطبعي وأميل للتشكك بنفسي، ولكنني أعي فجأة وبكل فخر أن قواي قد اشتعلت ويبدو لي وكأن روحي ترى ذلك الملاك يمدّ يداً حازمة عنيدة تدلني على الهدف الذي أبحث عنه. سأدخل في خدمة الدولة في غضون سنة واحدة. شمعتي تكاد تنطفئ والليل يكاد ينتصف».

بعد أن حذّر والدته مسبقاً بأنه سيتركها ويمضي، سعى لتأمين حليف له في شخص خاله بيوتر بيتروفتيش كوسياروفسكي. فماريا إيفانوفنا ستعارض دون شك نيته هذه، ولذا كان من المهم إقناع أكبر عدد ممكن من أفراد العائلة بأن خلاص شاب طموح لا يتحقق في أرض أجداده في فاسيلييفكا، بل في الوزارة، في سانت بطرسبرج.

كتب لخاله كوسياروفسكي في (٣) تشرين الأول/ أكتوبر (١٨٢٧) يقول: «أجل، قد أقضي بقية أيام حياتي في سانت بطرسبرج، هذا على أية حال هو الهدف الذي تبنيته منذ وقت طويل، بل إنني منذ طفولتي، عندما كنت أكاد لا أعي وجودي بعد، كنت أشتعل في الواقع برغبة لا يمكن إخمادها لكي أنذر نفسي لمصلحة الدولة، ولكي أكون مفيداً بصورة أو بأخرى. وفكرة ألاّ أتمكن من تحقيق حلمي هذا بتأثير عوائق توضع في طريقي أو بمنعي بطريقة أو أخرى من أن أنذر نفسي لمصلحة رفاقي من بني البشر -مثل هذا إنما يلقي بي إلى أعمق أعماق اليأس. يغمرني عرق بارد عندما أفكر بأنه قد يقدّر لي أن أفنى وأتحول إلى جثة دون أن يقترن اسمي بإنجاز يثير الإعجاب. أن أدخل العالم ثم أخرج

منه دون أن يترك مروري فيه أثراً، يبدو لي أمراً مريعاً. فكرت بكل المواقع التي يمكنني احتلالها والواجبات التي يمكن لي أداؤها في الدولة واستقر رأيي في النهاية على العمل القانوني. توصلت إلى قناعة بأنني سأجد في الأغلب العمل في هذا الميدان. هنا فقط يمكنني القيام بعمل طيب بحيث أكون مفيداً للبشرية. فالظلم أسوأ ما في الكون، وهو ما يعتصر قلبي دائماً، ولذا فقد أقسمت منذ ذلك الحين ألا أضيّع لحظة واحدة من حياتي القصيرة دون أن أقوم بعمل الخير. كان القانون لدى مختلف الشعوب هو موضوع دراستي الخاص طوال سنتين، خاصة القانون الطبيعي، وهو أساس التشريع. وأنا الآن أدرس قانون بلادنا. فهل تتحقق أهدافي النبيلة، أم تظل حبيسة وأغرق أنا نفسي في المجهول؟ لم يسبق لي أن أفضيت بدخيلة نفسي لأحد، حتى لأصدقائي في المدرسة على الرغم من أن العديدين منهم جديرون بالاحترام، ولست أدري لم أتحدث إليك بكل هذه الصراحة الآن. هل لأنك أبديت اهتماماً بي أكثر مما فعل الآخرون، أم بسبب روابطنا العائلية؟ لست أدري، فهنالك شعور غير مفهوم دفع قلمي، وقوة مجهولة أجبرتني على التصرف. فجأة أدركت بداهة أنك لن تعتبرني إنساناً حالماً غير منطقي ما دمت قد ظللت أسعى إلى نفس الهدف لثلاث سنوات متوالية».

بينما كان يكتب هذه الرسالة كان نيقولاي جوجول يعتقد فعلاً بأنه مهتم بالقانون وإن كانت معلوماته في هذا الميدان معدومة تقريباً، ولم تكن لديه أية نية لتدعيم هذه المعلومات. ولكنه عندما استعرض مختلف المهن الممكنة تراءى له، حين فكّر بمنصب القاضي، بأن هذه المهنة تناسبه بالتمام والكمال، ولذا صمم، بناءً على مساره الفكري المعتاد، أن القدر قد اختار له هذا العمل النبيل إلى الأبد وأنه قد هضم بالفعل كل الكتب التي تهيئه لهذه المهنة. لم يكن يشعر بأنه يكذب على خاله أو على نفسه. وكان يرى نفسه بصدق وهو يحمل قلمه أنه يمارس دور القاضي، ولكن هذا الحلم تلاشى قبل أن يجف الصمغ الذي أقفل به المظروف، ولم يلمّح بعد ذلك قط إلى رغبته في أن ينتظم في سلك القضاء في البلاد، كما أنه لم يصدق عندما ادعى بأنه لم يحدّث أحداً من قبل بأنه يرغب

أن يصبح مسؤولاً حكومياً. فهو لم يذكر ذلك لأمه فحسب بل كان يناقشه يومياً مع زملائه في المدرسة. وكان صديقه فايسوتسكي، المستمع الرئيسي لطموحاته الإدارية.

كتب له في (١٩) آذار/ مارس (١٨٢٧) يقول: «أفكاري تطير باتجاه سانت بطرسبرج. أرى نفسي أجلس إلى جانبك في غرفتك، وأسير معك على الأرصفة أتفرج بشغف على نهر النيفا، وعلى البحر. بكلمة واحدة أصبحت أنا أنت، وما أرجوه من الله هو أن يمنّ عليّ بالاجتماع بك في أقرب وقت. بالمناسبة لم تخبرني الكثير عن الحياة في سانت بطرسبرج. كيف هي الأسعار هناك؟ ماهي أغلى الأشياء فيها؟ وماذا بشأن السكن؟ كم يكلف سكن جيد من غرفتين أو ثلاثة؟ أي مناطق المدينة هي الأغلى، وأيها الأرخص؟ كم تحسب تكاليف التدفئة الخ . . . ؟ آه، كدت أنسى أن أسألك عن الرواتب وكم راتبك؟ كم ساعة تقضيها في المكتب؟ وفي أي وقت تعود إلى البيت؟».

حاول فايسوتسكي عبثاً أن يحدّ من حماس جوجول، حيث شرح له صعوبات الحياة في سانت بطرسبرج. ولكن جوجول صمّ أذنيه عن كل ذلك. وبالمقارنة مع نييجن كانت العاصمة البعيدة تتلألأ في عينيه بأنوار الذكاء والثروة والسلطة. من الواضح، في اعتقاده، أنه سيبهر العالم بفضائله وإنجازاته. لايمكنه أن يرضى بعد بمثل هذا المحيط المحلّي الحقير. وهكذا جلس يحدق بطبق حسائه الخالد المتكرر يحلم بالنار والجليد.

كتب لفايسوتسكي ثانية في (٢٦) حزيران/ يونيو (١٨٢٧) يقول: «أشعر وأنا أعيش هنا في عزلة تامة، لا أجد أحداً يمكنني أن أشاركه أفكاري، أشعر وكأنني يتيم، غريب في بلدة نييجن المهجورة هذه. لا أكاد أستطيع انتظار انتهاء المدرسة والحرية المباركة التي ستأتي بها هذه النهاية! لست أدري كيف يمكن لي احتمال هذه الظروف لسنة أخرى كاملة. . . . ما أشنع أن تدفن هنا محاطاً بالموت والصمت بين هذه المخلوقات الرديئة ممن قدّر لهم أن يبقوا مغمورين! كل أولئك الناس في نييجن، أولئك البؤساء الذين يرضيهم مجرد كونهم على

قيد الحياة. لقد دفنوا مصيرهم الإنساني الرفيع تحت قشرة طبيعتهم الفلاحية ورضاهم الرخيص عن أنفسهم. وها أنا مجبر على الزحف مع هذه المخلوقات، ومن بين هؤلاء بعض مدرسينا المحبوبين. أحس أحياناً بأنهم ينتظرونني هناك (في سانت بطرسبرج)، خاصة وأنني أنتمي بطريقة ما لدائرة الناس المحيطين بك، وأنا واثق بأن اسمي يمر على شفتيك بين وقت وآخر... يمكنني أن أرى نفسي في سانت بطرسبرج فعلاً، في غرفة صغيرة بهيجة تطل على نهر النيفا، فأنا آمل أن أجد شقة هناك. لست أدري فيما إن كانت أحلامي هذه ستتحقق وسأعيش في ذلك المكان الفردوسي أم أن مغزل القدر الذي لا يرحم سيغرقني في لجّة عامة الناس الراضين عن أنفسهم (فكرة تبعث القشعريرة في جسمي) لكي أسقط في أعماق النسيان ويسلمني لعالم كئيب مجهول... لست أدري فيما إن كان هناك أي شيء سيحول بيني وبين القدوم إلى سانت بطرسبرج على الرغم من أنك حذرتني من تكاليف المعيشة هناك، خاصة فيما يتعلق بالطعام...».

أشعلت هذه النظرة للحياة في سانت بطرسبرج جوجول، بحيث أنه اكتشف فجأة أنه في داخله شديد التأنق في ملبسه في الواقع، على الرغم من أن إهماله لخياطة ملابسه جعل منه في السابق أضحوكة للجميع في مدرسة نييجن. كان يختنق وهو يرتدي بزته المدرسية الرمادية. ولكن النجاح الاجتماعي مستحيل دون معطف جيد التفصيل.

يسأل فايسوتسكي في الرسالة ذاتها: «ألا يمكن لك أن توصي لي على معطف «فراك» لدى أفضل خياط في المدينة؟ يمكنك أن تستخدم مقاساتك أنت لهذا الغرض إذ إننا كلينا بنفس الطول والحجم. فإن كان وزنك قد ازداد يمكنك أن تطلب أن يكون المقاس أضيق قليلاً، ولكننا سنبحث في هذا الأمر لاحقاً. يمكنك الآن فقط أن تخبرني كم تكلف خياطة بدلة جيدة من النوع الذي يرتدونه في المساء ومن أحدث طراز، واكتب لي عن ذلك لكي أعرف كم المبلغ الذي يتوجب علي أن أرسله لك. سأشتري القماش من هنا ما دمت تقول إن سعره غالٍ جداً في سانت بطرسبرج. كما أرجو أن تذكر لي أي قماش هو الرائج

بالنسبة للسراويل والصدريات، وكذلك تكلفة القماش والخياطة هناك. أي الألوان هي الرائجة، وأنا من ناحيتي أرغب باللون الأزرق مع أزرار معدنية. لديّ العديد من المعاطف السوداء، ولكنني سئمت رؤيتها».

بعد فترة وجيزة كتب لوالدته يقول:

«تلقيت مؤخراً رسالة من سانت بطرسبرج حول معطف «الفراك» الذي أود أن أوصي عليه. خياطة هذا المعطف باستخدام أفضل قماش، مع البطانة والأزرار والمستلزمات الأخرى يكلف (١٨٠) روبلاً لدى أفضل خياط. وبما أنني لا أجرؤ على طلب مثل هذا المبلغ في الوقت الحاضر حيث أنني أعرف جيداً ظروفك المالية الشديدة فإنني سأنتظر حتى يصبح بإمكانك أن ترسلي لي هذا المبلغ».

انشغالات نيقولاي جوجول التافهة تلك والتي تتعلق بالملابس كانت تتناوب مع انشغالات روحية ترتفع فجأة، وهي من الشدة بحيث يشعر بأنها ستفجر أضلاعه. كان يريد أن يطير، أن يحلق لارتفاعات أعلى وأعلى وأن يصعق العالم كله وأن يبتسم الله له في نهاية صعوده. كان يلمح الإرادة الإلهية في أدق أحداث وجوده: توبيخ في الفصل، علامة متدنية، إصابة بالزكام، رسالة ضائعة، كل هذه ليست إلا أمارات العناية مما وراء الطبيعة. وزملاؤه بمعاملتهم السيئة هذه له إنما كانوا يمتثلون للإرادة الإلهية دون أن يدروا، فهم بسعيهم لإيذائه إنما هم في الواقع يساعدونه في سعيه للكمال، بل من وجهة نظر الأبدية كان من الضروري له أن يفقد أخاه وأباه.

هذا التمسك بأوامر العناية الإلهية لم يمنعه من الطموح لنجاحات ملموسة في أقرب وقت ممكن. إن خدمة الدولة هي في الواقع خدمةٌ لله، وخدمة الله هي حرز يحمي من مخاطر العالم الآخر. أما الخطر الأكبر المتوقع الذي يعذب جوجول فهو أن يمضي دون أن يترك أثراً يذكر، مثل إبرة في كومة قش. فليخلّد اسمه على الأقل! غير أن على المسيحي الحقيقي أن يتأمل أمر القفز إلى المجهول

بذهن هادئ، أو ربما عليه على الأقل ألا يظهر اهتماماً بالاسم الذي يخلّفه بعده. غير أن تدين نيقولاي جوجول في هذه المرحلة كان تقليدياً محضاً. وكان كثيراً ما يستحضر الصورة المرعبة ليوم الحساب الأخير التي رسمتها له أمه قبل سنوات، فيقشعر جسمه لذلك الرعب الطفولي، ولذا فإن حبه لله كان ينبع بشكل أساسي من خوفه من الموت، فيركع ويرسم إشارة الصليب كإجراء احتياطي أكثر مما هو بدافع الحماس الديني. فهو يحوّل الدين إلى وصفات، وبما أن هذا المزيج يرضي ذوقه فقد نصح أمه بتطبيق الأسلوب ذاته على أخته الصغرى، أولجا، إذ إنها كلما حرصت على إدخال الرعب في قلب الصغيرة برسم صورة الجحيم لها فسيكون المسار الذي ستخطو عليه الصغيرة في مقبل حياتها أكثر استقامة.

ولكن رعبه في هذه المرحلة كان محدوداً بامتحاناته بصفة رئيسية. فقد كان يحشو دماغه بأقصى سرعة ممكنة. وقد مكنته ذاكرته المتميزة من تصفح الدروس واستجماع نتف من هنا وهناك. وجد نفسه مجبراً على الإذعان بأنه لا يمكنه تعلم لغة أجنبية في غضون أسابيع قليلة. ألمانيته لم تكن مفهومة، ولم يكن قادراً على قراءة كتاب بالفرنسية دون الرجوع إلى القاموس باستمرار. غير أن ممتحنيه أثبتوا أنهم متساهلون إذ أعطوه علامات حسنة في جميع المواد باستثناء الرياضيات. غير أنه صنّف في الدرجة الرابعة عشرة[1]، مثل هذا التصنيف المتدني، في الوقت الذي كان طلاب أقل منه ذكاءً قد صنفوا في مراتب أعلى، إنما تم بدون شك بسبب تعاطفه المكشوف مع المعلم الليبرالي بايلوسوف. حسناً، المهم أنه أنهى المدرسة ويمكنه أخيراً أن ينزع بزة الطلبة الرمادية. أفاد معلموه أنه كان أول من ظهر بالملابس المدنية، وكتب كوجينسكي فيما بعد في مذكراته يقول: «ما أزال أذكره الآن وهو يرتدي معطف فراك من اللون البني الفاتح وحواشيه مبطنة بقماش من المربعات الحمراء. مثل هذه البطانة كانت تعتبر ذروة الأناقة لدى الشباب في

(١) كانت هنالك أربع عشرة درجة في هذا الجدول الذي دشن في عام (١٧٢٢) لجميع الموظفين وأفراد القوات المسلحة، وكل واحد من رعايا القيصر يترفع ضمن هذه الرتب من سن الرابعة عشرة حتى الوفاة.

تلك الأيام. وكان جوجول يتمشى في المدرسة وهو يفرد البطانة لكي يكشف عنها وكأنما من باب الصدفة».

بعد أن ودّع زملاءه ومعلميه تنفس الصعداء وهو يصعد إلى العربة التي أرسلتها له والدته، وأخذ يفكر بأن هذه العطلة ستستمر إلى الأبد هذه المرة.

لدى نزوله في فاسيلييفكا في صباح يوم حزيراني مضيء في عام (١٨٢٨) ارتمى بين ذراعي أمه. أخذت هي تبكي فرحاً وعيناها لا تستطيع أن تحولهما عن ولدها الذي أصبح رجلاً وهو بعيد عنها. وفي غضون فترة قصيرة أصبح له ظل شارب فوق شفتيه. شعره الأشقر كان مفروقاً بفرق حاد وكأنما بضربة سكين. عيناه المائلتان وقد تورمت قنوات الدمع فيهما كانتا تشعان سخرية. كان أكثر الناس وسامة في عيني ماريا إيفانوفنا وأكثر ولد ولدته امرأة ذكاءً. نجمة النبوغ تلتمع على جبينه. حتى تنهداته تستحق الخلود، ولم تكن تكل ولا تمل من مديح رسوماته وأشعاره، وهاهو يريد أن يتركها ليعيش في سانت بطرسبرج! أليس هذا بمثابة ترمل ثانٍ بالنسبة لها؟ وبفعل يأسها أخذت تشكو آلامها على مسامع أفراد عائلتها والأصدقاء وتتوسل لابنها أن يغيّر قراره.

كان نيقولاي يرى في دخيلة نفسه أن الحياة في فاسيلييفكا لذيذة. تبادل الزيارات مع الجيران، حفلات العشاء المرتجلة، الرحلات القصيرة إلى الأسواق الموسمية في القرية المجاورة، النزهات، العمل في الحديقة والأحاديث الليلية التي لا تنتهي تحت ضوء المصباح - كل هذه الأمور التي تمثل الجانب الساحر في الحياة الريفية هي بمثابة البلسم لروحه بعد تلك الفوضى والضجيج والنظام الصارم عديم المعنى غير الإنساني في المدرسة. كان يحب رفقة أخواته الأربع، أكبرهن في السابعة عشرة والصغرى بلغت لتوها الثالثة من عمرها. وهو ما يزال يستمتع، وباللذة السابقة ذاتها، بأحاديث جدته ليزوجوب والتي تتحدث عن الماضي البعيد عندما كانت أوكرانيا حرة. كان رأسه يدور عرفاناً لكل الاهتمامات الصغيرة التي تبديها والدته. إزاء الطعام الذي تعده في مطبخ البيت والذي يسيل له لعابه. غير أن كل هذه المغريات لم تضعف من تصميمه. فقد أشار له الله إلى طريق

العاصمة وعليه أن يسير في هذه الطريق على الرغم من أنها تعني الخوض في أنهار من الدموع. الأمر المزعج هو أن خاله كوسياروفسكي أعلن مؤخراً بأنه ينوي مغادرة أوكرانيا إلى لوجا. فكيف يمكن لماريا إيفانوفنا أن تحتمل مغادرة الرجلين القويين في العائلة؟

بالوقاحة الباردة لشاب في التاسعة عشرة من عمره كتب نيقولاي لكوسياروفسكي في (٨) أيلول/ سبتمبر (١٨٢٨) طالباً منه تبديل مخططاته: «كيف لك أن تهجر من يحبونك إلى هذه الدرجة؟ أتضرع وأتوسل إليك وأناشدك، باسم صداقتنا والروابط التي تجمع بيننا، وباسم كل ما يمكنه أن يحرك قلبك ألا تهجرنا وأن تعيد النظر في قرارك القاسي. تعال إلى فاسيلييفكا، وكن الملاك الحارس وخفف عن أمنا».

وهو يبلغ (كوسياروفسكي) في الرسالة نفسها بأنه ينوي بنفسه أن يتوجه إلى سانت بطرسبرج وأن شيئاً لن يغيّر قراره هذا، ولذا فإن ما يطلبه من خاله لا يستطيع أن يطلبه هو من نفسه حيث يقول له: «سأغادر إلى سانت بطرسبرج على وجه التأكيد في بداية فصل الشتاء، ولا أدري إلى أين سيحملني القدر من هناك. قد أتوجه إلى الخارج ولن يسمع أي خبر عني لسنوات... وعليّ أن أعترف أيضاً بأنني تمنيت في أكثر من مناسبة ألا آتي إلى البيت قط منذ أن بدأت أشهد يأس وكفاح أمي التي لا أجد مثيلاً لها، والتي تجهد نفسها لكي تتدبر مانحتاج إليه من مال. هذا القلق الدائم يدمر صحتها، ولكنها مع ذلك لاتستسلم وستُقدم على أي أمر لتلبية أي نزوة من نزواتنا مهما كانت تافهة... فمن سيكون هنا لكي يعنى بها ويواسيها في غيابي عندما تواجهها مصادر جديدة للقلق إلى جانب ما يعذبها الآن، وخاصة قلقها على ابنها؟».

قدّر نيقولاي بأنه سيحتاج لألف روبل لرحلته، وهو رقم أرعب ماريا إيفانوفنا التي تعاني باستمرار من ضيق ذات اليد. ولكنه ظل يصرّ بأن عليها أن تتدبر هذا المبلغ. عرض مقابل ذلك أن يتنازل لها عن حصته من إقطاعة والده، فالبيت والحديقة والغابات، والبركة التي كانت تشكل حصته لا تساوي

إلا القليل بالمقارنة مع رغبته في الهرب من الريف. أصرّ على إعداد الوثائق اللازمة والتوقيع عليها، معلناً أنه لن يعود حتى يحصّل ثروة، وعند ذلك سيغرق عائلته بالهدايا. سيساعد على توفير ما تحتاجه أخواته في حياتهن. ولكن ماذا إن فشل في الإدارة الحكومية؟ حسناً، سيلجأ عندئذ إلى اتجاه آخر. وقد كتب لكوسياروفسكي يقول: «لست تعرف كل قدراتي بعد. لقد تعلمت أكثر من مهنة. فأنا خياط لابأس به، وأعرف كيف أرسم لوحات جصية جدارية. أستطيع العمل في مطبخ، ولديّ معلومات يعتد بها في فن الطبخ. أتظنني أمزح؟ اسأل أمي. ولكنني أعتمد بشكل أساسي على صبري ودأبي، وهو ما أحمد الله عليه. لم تكن لديّ هاتان الصفتان من قبل، ولكنني مصمم الآن على ألا أتخلى عما أباشر بعمله إلى أن أصل إلى تحقيق هدفي. لا أقول ذلك من باب التفاخر بل لأبدد أية مخاوف لديك حول مستقبلي. سيتوفر لي دائماً قدر كبير من الخبز لكي آكله . . .».

في قائمة المهن التي جهد لذكرها للحفاظ على جسده وروحه معاً لم يذكر نيقولاي جوجول الكتابة، وإن كان قد كتب في هذه الشهور وهو في فاسيلييفسكا أكثر مما كتب في أي وقت سابق.

كان يود أولاً أن يصقل أنشودة شعرية تحت عنوان «هانز كويشلجارتن» (Hans Kuechelgarten) والتي كان قد بدأها وهو في المدرسة. استقى هذا الموضوع من عمل بعنوان «لويز» (Louise) للكاتب فوز (Vos) ترجمه تيرياييف (Teryaiev) في عام (١٨٢٠). أما بالنسبة للأسلوب فقد اقتفى فيه خطى بوشكين، ولكن أنامله ظلت بليدة مهما بذل من جهد، وظل الإيقاع كأنه الصمغ وبقيت تفوح من العمل رائحة الضجر. فالكاتب يصف من جانب الجنة الأبوية لعائلة ألمانية تنوّرها لويز الملائكية التي كانت تحبّ هانز. ويقدم لنا من الجانب الآخر هانز، وهو حالم معذّب يسبح في خليط رومانتيكي، وهو يعاني من علة غير محددة:

«في عاصفة قلبه

هنالك تساؤل مبهم

ماذا يريد، ما الذي يسعى له

لأي هدف تهفو روحه المقفرة

المليئة بالحب واللهفة

وكأنه يسعى لعناق الكرة الأرضية برمتها».

هانز هو مزيج من بطل جوته، «ويرذر» (Werther) وبطل بوشكين، «لينسكي» (Lensky) وبطل شاتوبريان، رينيه، (Rene). ويتماهى هانز في أمور عدة مع مبدعه، فالأمور الشخصية التي تشغل نيقولاي جوجول تغرق أعماله على الدوام. وكل ما كان يذكره في رسائله لأمه ولخاله كوسياروفسكي ولصديقه فايسوتسكي إنما يكررها شعراً في قصيدته. فشأن نيقولاي جوجول يشعر هانز كويشلجارتن بالحاجة الماسة للتحرر من القيود التي تحدّ حياته ولإنجاز عمل عظيم، وليترك أثراً يدل على مروره على وجه الأرض.

«تقرر الأمر، لماذا يتوجب عليّ

أن أترك روحي لتهلك هنا،

ولا أسعى لهدف آخر

ولا أجهد لتحقيق الأفضل،

وأحكم على نفسي بالظلمة والمجهول

مخلوق نصف حي في نظر الجميع».

الاحتقار الذي كان جوجول يكنّه لسكان نييجن وسّعه هانز كويشلجارتن ليشمل الكون برمته حيث يقول:

«كم تشعّ أنفاسهم حقداً
كم هي زائفة ضربات قلوبهم ،
كم هي غادرة عقولهم ،
وكم فارغة هي كلماتهم» .

سعادة هانز كويشلجارتن لفكرة العودة إلى بيته إنما تعبّر عن سعادة نيقولاي وهو يغادر المدرسة للمرة الأخيرة:

«التلميذ السجين إذن
ينتظر إطلاق سراحه المأمول ،
قريباً سينهي دراسته .
دماغه يعج بالأحلام .
أفكاره تحلّق به عالياً .
هاهو الآن حر ، مستقل ،
يسعد بنفسه وبالعالم .
ولكنه وهو يفارق رفاقه ،
الذين شاركهم جهودهم
وضحكهم ولياليهم الهادئة ،
يتأمل ، والكآبة تجتاحه ،
وعندما يثقله الحزن
يذرف دمعة مختلسة» .

إذا كانت المقاطع الغنائية في قصيدة «هانز هويشلجارتن» تفتقر للبراعة والأصالة فإن بعض المقاطع الوصفية تلفت الانتباه لجرأتها. ولم يتردد جوجول بعد أن ألهمته واقعية بوشكين في الكتابة عن رداء وردي، وعن إبريق قهوة يتصاعد منه البخار، وعن قطعة جبن تغلفها قشرة صفراء تثير الشهية، أو ديك يتبختر في مشيته وسط دجاجات الحقل.

هذه النغمات المباشرة الصريحة كانت عفوية بوضوح، ولكنه كان يعلّق أهمية أقل عليها بالمقارنة مع الخطب العنيفة المسهبة التي تتسم بالتفاخر. فعلى الأدب، في نظره، أن يكون نبيلاً، إذ كان يخلط بين العاطفة وبين الادعاء الفارغ.

كتب قصيدة أخرى بعنوان «إيطاليا» يمجد فيها، عشية توجهه إلى العاصمة الروسية التي يغلفها الضباب ويغطيها الجليد، يمجد الحياة الحلوة (حياة التراخي وإطلاق العنان للأضواء والشهوات) على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ويشير إلى رافاييل (الرسام الإيطالي المعروف) ويتساءل فيما إن كان سيتسنى له أن يزور تلك الواحة «في وسط صحراء العالم». وما لبث أن أعاد كتابة تأملات كان قد كتبها في المدرسة تحت عنوان «امرأة» وهي قصيدة غنائية لإنسانة «تعكس قسماتها المقدسة عالم الخلود». وهو يتحدث عن النساء ببلاغة واثقة من نفسها يحلّق بها خيالٌ مراهق جامح يعززها كون الشاعر لم يقترب من أية امرأة قط. إنه لا يتخيل أي تواصل أو تلامس بين الجنسين بحكم تلك الهوة والتباين بينهما. فهو لا يتخيّل أي تلامس بين تلك البشرتين المختلفتين كل الاختلاف. ولذا وضع النساء على قاعدة ليعبدهن عن بعد وكأنهن مجرد تمثال: «إنها الشعر! الفكرة! بينما نحن مجرد بشر واقعيين عاديين». . أما بالنسبة للحب فهو «رغبة غريزية تدفع الإنسان إلى استعادة ماضيه الخالد» ماضي الحبل بلا دنس، طفولته البريئة. الحب هو البحث عن مكان الولادة الأصلي. روح الرجل تريد الاتحاد بروح المرأة وتصبح واحداً معها لكي يجد أباه ثانية، الله الخالد، وإخوته وأحاسيسه والظواهر غير المعروفة على وجه الأرض. . . . . ».

هاهي بطلة كل هذه التنهدات: «ذراعها المرمرية تتخللها زرقة العروق التي يجري فيها عطر الآلهة المقدسة حيث تنساب بحرية. قدمها العارية التي يزينها شريط أحمر وقد تحررت من القيد الغيور للحذاء تتقدم بكل جلال بحيث يبدو وكأنها لا تلامس الأرض، صدرها العالي يرتفع مع وقع تنهداتها والغطاء الشفاف الذي يغطي صدرها يرتعش ويؤطر تثنياته الفاتنة.... تجعدات شعرها الأسود الفاحم كظلام الليل، وقد ارتمت بفوضى على ظهرها وتساقطت فوق جبينها لتنحدر كشلالات على كتفيها اللامعين وبرق عينيها يلفح الروح»....

استعبده جمال التمثال الذي ابتدعه خياله، بحيث أن نيقولاي لم يملّ التفكير فيه في أحلامه... إعجابه بهذا التمثال حلّ لديه محلّ الشهوة، ولو أنه صادف صاحبته بلحمها ودمها فقد يغمى عليه من الرعب، أو سيفر هارباً. قد يصادف مثل هذه الأنثى في سانت بطرسبرج؟ كان دمه يتجمد لفكرة تلامسات معيّنة يتحدث عنها زملاؤه في المدرسة.

لو أمكنه أن يستجيب للنساء كما يستجيب لطبق طعام! كان أكولاً لدرجة الشراهة والتفكير بكعكة قشدة أو ديك رومي محشو يهزه إلى الأعماق. وهو على استعداد للسير فراسخ عديدة لكي يتناول قطع «الكيك» المزينة ببذور الخشخاش، ولكن لا شهية لديه للجنس اللطيف. والمسار الحكيم بالنسبة له هو أن يترك هذا الأمر بيد الله، وفي اللحظة التي يختارها الله له ستأتي في طريقه الإنسانة التي هيأها القدر له. ستكون هنالك إشارة تنبيء بهذا ولن يخاف من ذلك بعد.

مرت الأسابيع وأخذت ماريا إيفانوفنا تبدي رفضاً أكبر وأكبر للسماح لابنها بالذهاب إلى العاصمة. وحين كان يظهر إصراراً زائداً كانت تجابهه وهي تبكي بالصعوبات المالية التي تعاني منها. وفي (٢٣) أيلول/ سبتمبر (١٨٢٨) كتبت تقول: «صغيري نيقولاي يتعجل البدء بالعمل وأنا واثقة تماماً بأنني لن أستطيع منعه من ذلك بعد شهر تشرين الأول/ أكتوبر». أبقته حتى منتصف كانون الأول/ ديسمبر وجهدت في هذه الأثناء لجمع المبلغ المطلوب وللحصول

على كتاب توصية من تروشتشنسكي الذي كان يشارف على الموت، وجهه إلى كوتوزوف، وهو موظف كبير في وزارة الداخلية. وقّع الرسالة بيد مرتجفة مما رفع بعض الشيء من معنويات ماريا إيفانوفنا. فبهذا الخطاب سيجد ابنها نيقولاي المساعدة والحماية أينما ذهب. كان قد قرر السفر مع زميل صفّه السابق في نييجن «الكسندر دانييلسكي» الذي يقيم على مقربة من فاسيلييفسكا وينوي أيضاً الاستقرار في سانت بطرسبرج حيث سينتظم في مدرسة ضباط الحرس.

أجاب بلهجة وقورة على أصدقائه الذين تمنوا له رحلة طيبة: «وداعاً! قد لا تسمعون من أخباري شيئاً بعد، أو ربما قد لا تسمعون إلا الأخبار الحسنة!». كان يتعجل بدء حياته كإنسان بالغ بحيث أنه لم يشأ أن يبقى يوماً آخر مع عائلته، إذ رفض حتى أن يقضي عطلة عيد الميلاد معهم. كان الطقس بارداً والطرق مختفية تحت ندف الثلج المتسارعة. وفي النهاية ظهر دانييلفسكي في زلاجة قاطعاً الطريق بمشقة وأخذ الخدم يحملون المتاع إلى داخل الزلاجة.

□ □ □

٣ ـ الخطوات الأولى في سانت بطرسبرج

تستغرق الرحلة من فاسيليفكا إلى بطرسبرج ثلاثة أسابيع على الأقل في فصل الشتاء. وقد اختار جوجول السفر عن طريق شيرنيجوف وموجيليف وفايتبسك متجنباً المرور بموسكو قائلاً إنه يريد المحافظة على انطباعاته الأولى عن العاصمة بكل زخمها بتأجيل زيارته للمدينة الأخرى. كان البرد قارصاً ومديرو محطات تبديل الخيول لا يوفرون الخيول البديلة إلا بصعوبة، ولا يقدمون الخدمات للزبائن تبعاً لترتيب وصولهم بل بناءً على طبقة هؤلاء المسافرين ومهماتهم. لم يشعر جوجول قط بالإذلال بالقدر الذي أحس به حينذاك لتصنيفه في الدرجة الرابعة عشرة في «سجل خريجي الكليات» وهو يرى كل تلك الشخصيات تتصدر عليه وتلقى الأسبقية في الخدمة. حاول الشابان أن يتغلبا على ذلك ما وسعهما وتسلية نفسيهما في فترات التأخير والانتظار بالحديث عما ينتظرهما لدى وصولهما إلى سانت بطرسبرج. كانت زلاجتهما المغطاة تترنح وسط الثلج الذي تذروه الرياح حيث كانت الريح تعصف بهبات نشطة حول الخيل المرتعشة، في سهل يغمره بياض لا متناهٍ لا يلبث أن ينفتح على سهل آخر يماثله. وعلى مسافات متباعدة تظهر بعض القرى التي تربض تحت غطاء من الثلج الأبيض المتراكم. محطة بريد تتلوها أخرى وكلها تعبق بروائح الأحذية والقش والقار نفسها. كان يتراءى لنيقولاي بأن لا نهاية لهذه الرحلة عبر روسيا وأنه سيجد نفسه في النهاية وقد عاد إلى حيث انطلق دون أن يرى شيئاً سوى الثلج. غير أن أسماء المحطات الأخرى التي توقفا فيها بعثت في نفسه

الأمل. كانوا يقتربون من هدفهم، وما لبثت سانت بطرسبرج أن ظهرت في الأفق أمام «أنظارهم في إحدى الليالي. كوكبة من النجوم الرائعة تتجمع على الأرض. طلب دانيليفسكي وجوجول من الحوذي أن يتوقف وقد أذهلهما هذا المنظر. نزلا من الزلاجة ووقفا على رؤوس أصابعهما وهما يتملّيان ذلك السراب من الجليد والحجارة والنار وقد غمرهما شعور يختلط فيه الخوف بالانفعال.

برج آمرية البحرية يحلّق فوق مدينة أحلام. كان هناك شخص أعرج يقف حارساً على الحاجز المقلّم بالأسود والأبيض. أخذ «ياكيم»، خادم جوجول الجلف ذو البنية القوية يتوسل إلى سيده كي يعود إلى الزلاجة تجنباً للبرد. أما الصديقان فما إن عادا إلى العربة حتى أخذا يهيئان نفسيهما للمزيد من المفاجآت المدهشة. وما إن ارتفع الحاجز حتى أخذت العربة تخب بهما في طريقها إلى المدينة. هتف جوجول قائلاً: «يا إلهي! أي جلبة وأي صخب، أية أضواء «هتف جوجول في ليلة عيد الميلاد!» واجهات مبانٍ بارتفاع أربعة طوابق ترتفع على جانبي الطريق، أقدام تدب على الشوارع وعجلات تصرّ على الأرض بضجيج يبدو معه وكأن رعداً يتردد صداه من الجدران المحيطة. البيوت تتطاول وتكبر وتبدو وكأنها تبزغ من الأرض عند كل خطوة. الجسور تهتز والعربات تطير، وسائقو العربات يتصايحون. الثلج يصرّ تحت عجلات آلاف راكبي الزلاجات الذين ينزلقون مسرعين في كل اتجاه، المشاة يتجمهرون ويتدافعون في أسفل البيوت التي علّقت عليها الفوانيس، وتتراقص ظلالها المتضخمة على طول الجدران وتتسلل مرتفعة حتى تصل إلى الأسطحة والمداخن».

لم يدم هذا الانبهار طويلاً إذ توقف الصديقان أولاً في منطقة من مناطق الطبقة العاملة في شارع «جوروخوفايا» قرب جسر «كوكوشكين» حيث قيل لهما بأنه يمكن لهما العثور على سكن رخيص. وهكذا، وبدلاً من أن يفتح عينيه في صباح اليوم التالي في غرفة مضيئة تطل على نهر «النيفا» فتحهما نيقولاي جوجول في علّية متجمدة وسخة تطل نافذتها على جدار أصفر قذر يرتفع في الجانب الآخر من الشارع. كان قد أصيب بالزكام أثناء رحلته ولذا كان عليه

أن يلازم الفراش وأخذ ياكيم يمرّضه فيغرقه بكؤوس الشاي الحار وبالحجامة بالعلق. أما دانييلفسكي فقد غاب طوال النهار وعاد ليلاً تملأ حديثه قصص عن الأشخاص الذين التقى بهم.

ما إن تماثل للشفاء حتى صمم على الانتقال. تشارك مع دانييلفسكي أولاً في شقة صغيرة تتكون من غرفتين. ثم ما لبث أن انفصل عنه وانتقل وحده يرافقه ياكيم إلى منشأة أكثر ملاءمة في شارع ميششانسكايا الكبير.

ولكنه ظلّ بعيداً عن الأرصفة المتألقة والساحات المضيئة والقصور الرخامية للعاصمة. معظم سكان شارع مششانسكايا هم أناس متواضعون من الحرفيين الكادحين، وأصحاب الحوانيت والتجار الصغار وصغار الموظفين. حشد ضخم كئيب من البؤساء المتذلّلين، الصامتين القلقين. تنفتح بوابة في الواجهة الصفراء عن ساحة تتراكم فيها النفايات حيث كانت تفرغ جميع الورش نفاياتها فيها. قال في رسالة لأمه في (٣٠) نيسان/إبريل (١٨٢٩) «يعيش في البناية التي أسكنها اثنان من الخياطين، وامرأة تبيع ملابس نسائية، وصانع أحذية، وصانع جوارب، وواحد يصلح البورسلين، ومنظف للثياب، وصانع شوكولاته، وبائع حليب، وفرّاء، وبائع تبغ وقابلة. من الطبيعي إذن أن تغرقه اللافتات اللمّاعة».

كان لابدّ لكل ما في هذه المنطقة الكادحة من أن ينطق بالقيود والبؤس. غير أنه حين كان يتمشى في مركز المدينة فإن رأسه يدور كالبلبل. واجهات المحلات المضاءة تعرض بضائعها الغالية، المقاهي التي تعج بالرواد، مداخل المسارح تتباهى بمظلاتها الملفتة للنظر، إغراءات لا نهاية لها تدير رأس المارة المفلسين. وبالمقارنة فإن المرء يتحمل الفقر بكرامة في الأرياف، في الإقطاعات المعزولة. أما هنا فإن الفقر يبدو وكأنه داء قد يجعل دمك يغلي في عروقك عند كل زاوية وكل شارع. تخيّل هذه الملذات التي تبدو قريبة، ولكنها دون متناول يدك. كل هذا يخلق في العقل هاجساً شيطانياً. هنا يعيش المرء على هامش احتفال دائم ولكن معدته تظل خاوية ولعابه يسيل. قد يستسلم بين آونة وأخرى ولكنه يدفع ثمن هذا الضعف الطارئ على مدى أسابيع عديدة تالية.

لم يكن أمامه خيار إلا أن يتقبل هذا الوضع لدى وصوله إلى سانت بطرسبرج لأول مرة. لا يمكن للمرء أن يتحمل تكاليف الحياة هنا، وهو يقول في رسالة لوالدته في (٣) كانون الثاني/ يناير (١٨٢٩): «كلفني معطف وسروال مائتي روبل، ودفعت مائة روبل ثمناً لقبعة وخف وقفازين ولتبديل طراز معطف شتوي وشراء ياقة من الفراء....» ومع ذلك لم يشعر بأنه مساوٍ لسكان العاصمة على الرغم من ارتدائه ملابس من أحدث طراز. يبدو وكأن كل الناس هنا مصبوبون بالقالب ذاته. ليسوا إلا حشداً من المخلوقات الآلية لا يشغلهم إلا التقدم إلى الأمام. جحيم من القيود البيروقراطية والعواطف المنهكة والحلول الوسط الحذرة.

كتب لأمه في الرسالة السالفة يقول: «يمكنني القول بأن سانت بطرسبرج مختلفة عمّا كنت أتصور. وجدت المدينة أجمل وأكثر إثارة للدهشة، وكل ما يقوله الآخرون كذب بكذب». وبعد أسابيع قليلة كتب لها يقول: «لا تشبه سانت بطرسبرج أياً من العواصم الأوربية الأخرى كما لا تشبه موسكو. فكل عاصمة تتميز بسكانها الذين يعطون كلاً منها طابعها الوطني. أما سانت بطرسبرج فليس لها طابع معين، حتى الأجانب الذين يعيشون هنا تكيفوا مع عاداتنا ولم يعد فيهم أية مظاهر أجنبية بينما أخذ الروس يقلدون الأجانب وأصبحوا لا من هؤلاء ولا من أولئك. صمت مطبق يخيّم على المدينة لا يشم فيه المرء نفحة روح في أي كان منهم مهما كانت هذه النفحة ضئيلة. الكل يعمل في المكاتب ويتحدث بالشؤون الإدارية وعن علاقاته بزملائه ولا شيء غير ذلك. كل شيء مكبوت والكل غارق في مشاغله الصغيرة وفي الأعمال التافهة التي تشكل الحياة العقيمة لهؤلاء الناس. ومن الطريف أن تقابل أحدهم في الشوارع: كل منهم غارق في أفكاره بحيث تسمعه يدمدم ويتجادل مع نفسه، وآخر يدعم دمدمته بإشارات من جسمه ويديه».

سرعان ما أدرك جوجول كنه ذلك الملل الإداري الرهيب حالما وطئت قدماه شوارع المدينة، وقبل أن يدخل أي مكتب فيها. كان يتخيل، وبحق،

أن خلف كل الملامح الجسدية لهؤلاء الأشخاص ومهما كان صنفها قلعة من الأضابير، وأصابع يلطخها الحبر، ومكائد وضيعة، ونوبات سعال خفيضة تنم عن التذلل. فهل هذا هو المصير الذي ينتظره. عليه أن يبدأ من مكان ما إن كان يطمح للوصول إلى منصب يوازي منصب تروششنسكي. كان قد غادر مكان سكناه في الأقاليم حاملاً ثلاث رسائل توصية من شأن كل واحدة منها أن تفتح كل الأبواب أمامه -خاصة الخطاب الموجه إلى كوتوزوف، وأي إشارة من طرف إصبع هذا كان من شأنها أن تؤمن مستقبل نيقولاي جوجول. غير أن كوتوزوف هذا كان مريضاً لسوء الحظ، ولذا فإن الحكمة تقتضي الصبر والانتظار إلى أن يتماثل للشفاء دون إضاعة الوقت باللجوء إلى أشخاص آخرين أقل شأناً. تماثل كوتوزوف للشفاء في النهاية واستقبل الشاب بكل ترحاب وخاطبه بود واعداً أن يفعل ما يمكنه، ثم صرفه دون أن يحدد ما ينوي عمله من أجله. أثبت حماة محتملون آخرون يجلسون خلف مكاتب فخمة من خشب الماهوجوني المصنفر أنهم ليسوا أقل تملصاً. الوظائف المتوفرة ليست إلا وظائف مكتبية في إدارات لم يسمع بها أحد قط. العرض الوحيد الأكثر جدية أثار سخط نيقولاي جوجول حيث يقول في رسالة لأمه في (٢٤) أيار/ مايو (١٨٢٩):

«ما عرض عليّ هو براتب ألف روبل في السنة. هل يتوجب عليّ في هذه الحالة أن أجازف بصحتي وبوقتي الثمين لقاء مبلغ لا يكفي حتى لطعامي ولأجرة غرفتي؟ يا للسخف! لن يتوفر لي وقت فراغ إلا لأقل من ساعتين، وعليّ أن أتسمّر طوال الوقت الباقي خلف طاولة أعيد نسخ أوراق تافهة ووثائق لا تحوي إلا مجرد أوهام لا سبيل لتحقيقها لهذا المدير أو ذاك. أقف على مفترق طرق ولست أريد اتخاذ قرار إلى أن يتقرر مصير واحد أو اثنين من توقعاتي». . . .

لم يشعر نيقولاي بأي وخز للضمير بالنسبة لطلب الدعم المادي من والدته بعد أن رفض ذلك العرض المخزي. وهو يتخذ في رسالة ما هيئة الرزين ويبدي استعداده لتحمل حياة العوز والفاقة من أجل تحقيق مثله العليا، حيث يقول في الرسالة التي أرسلها لوالدته في (٣٠) نيسان/ إبريل (١٨٢٩): «عانيت كثيراً في

الآونة الأخيرة ولكن لا يهم. قد لا يتصور المرء مدى ما يلزمه من قدرة لكي يستطيع النوم دون عشاء لأسبوع بكامله!» ولكنه ما يلبث أن يشتكي بأن من المستحيل بالنسبة له أن يعيش على اقل من (١٢٠) روبلاً في الشهر حيث يقول في الرسالة نفسها: «عليّ أن آكل دون شك، وإن كنت لا أتناول طعاماً فاخراً». ثم يطلب في رسالته في (٢٢) أيار/ مايو إعانة مالية طارئة حيث يقول: «أدرك تماماً بأنه من المستحيل تقريباً بالنسبة لك في هذا الوقت بالذات، ولذا فإنني سأبذل قصارى جهدي لكي لا أجدد طلبي هذا. إنني بحاجة ماسة لثلاثمائة روبل».

فزعت ماريا إيفانوفنا لإمكانية أن يجوع ابنها أو يتجمد حتى الموت في تلك المدينة الكبيرة المعادية، ولذا أخذت تستدين باليمين والشمال، ورهنت الأرض، وباعت الأنبيق النحاسي لجهاز التقطير وأرسلت له المبلغ المطلوب إلى جانب رسالة تأنيب.

تضاءل شعوره بالوحدة والارتباك في سانت بطرسبرج إبان تلك الفترة، إذ عثر على عدد قليل من الأصدقاء القدامى من مدرسة نييجن والذين يعيشون مثله في غرف رديئة، يعوزهم المال ولكنهم يشاركونه آماله السامية. إلى جانب «دانييليفسكي» الذي كان قد دخل مدرسة الحرس وعطلته كل يوم أحد فإنه كثيراً ما كان يلتقي «موكريتسكي» الطالب في أكاديمية الفنون الجميلة، وكذلك الأخوين «بروكوبوفيتش»: نيقولاي وفاسيلي، وإيفان باشيشنكو، وجريبنكا، وكوكولنيك، وليوبيتش –رومانوفيتش. كانوا يجتمعون في مسكن واحد منهم حيث يقوم أحدهم بتحضير طبق أوكراني، ويسترجعون ذكرياتهم الخاصة بمناطقهم البعيدة. وعلى الرغم من أن نيقولاي جوجول لم يكن آسفاً لأنه غادر فاسيلييفكا، غير أنه كان يتذكر بحنين الحياة الهادئة لطبقة مالكي الأرض، والتصرفات البسيطة للفلاحين، وسماء أوكرانيا المضيئة، ويسترجع القصص التي ترويها جدته ووالدته، ويتذكر الخدم في البيت. فلم لا يكتب عن كل ذلك ويكسب بالتالي بعض النقود؟ الناس في العاصمة شغوفون بالأساطير والأغاني الأوكرانية، فأي ضرر في المحاولة؟ كتب لأمه في رسالة في (٢٢) نيسان/ إبريل (١٨٢٩) يقول:

«لديك ذهن حاد ومتبصر. وتعرفين عادات وسلوك الأوكرانيين، ولذا فإنني واثق بأنك لن تبخلي عليّ في رسائلك بتزويدي بكل التفاصيل التي أحتاجها حول هذا الموضوع. أتوقع منك في رسالتك المقبلة أن تصفي لي لباس شمّاس كنيسة القرية من الرداء حتى الحذاء مع ذكر تسمية كل قطعة من هذا اللباس بالتعابير التي كان يستخدمها أقدم مواطنينا وأكثرهم رجعية وتقليدية. كما أريد مسميات جميع أجزاء ملابس الفلاحات الشابات في منطقتنا بالتفصيل، حتى الشرائط، وكذلك ملابس النساء المتزوجات والفلاحين. وثانياً أريد التفاصيل الدقيقة للملابس التي كان يتم ارتداؤها في أيام الهيتمان (الزعماء القوزاق)، ووصفاً دقيقاً لملابس حفلات الزفاف دون إغفال أية تفاصيل مهما صغرت... وبعض المعلومات عن أغاني عيد الميلاد وتلك الخاصة بليلة منتصف فصل الصيف وعن حوريات الماء. وإذا سمعت أحاديث عن الأرواح أو الجن في الفولكلور الروسي أو الدوموفوي (وهو نمط من أنماط الجن في الفولكلور الروسي)، حاولي تقصي أسمائهم وصفاتهم. وهنالك الكثير من المعتقدات والقصص المرعبة والخرافات والقصص المنوعة لدى العامة، وكلها تهمني غاية الأهمية».

لم يكن يعلم بعد بالضبط ماذا سيفعل بهذه المعلومات التي يلحّ في طلبها على نحو عاجل، ربما لكتابة قصة أو مقالة وصفية. ما يشغله في الوقت الراهن بشكل رئيسي هو نشر الأعمال التي أحضرها معه: قصيدته القصيرة «إيطاليا» والقصيدة الأطول «هانز كويشلجارتن».

فما دام لا يستطيع أن يقفز على الفور إلى موقع رجل دولة عظيم وشخصية محسن للبشرية، وما دام لا يتحمل مجرد فكرة أن يسجن منذ الصباح حتى المساء في مكتب تتبعثر فيه الأوراق فلابد له إذن من أن يستغل الوجه الآخر لموهبته. عليه أن يبيع شعره، وهذا ليس خطيئة. ولكن يبقى السؤال: من يستشير؟ كم يود لو يتبناه مثله الأعلى، بوشكين! قادته قدماه بالفعل بكل وقاحة في أحد الأيام إلى بيت الشاعر. ولكنه ما لبث أن جبن وشلت حركته فهرب إلى مقهى قريب. وبعد أن شرب بسرعة كأساً من المشروب لاستجماع شجاعته، عاود الكرة.

قرع الباب ففتحه له خادم. ولكن الخادم بادره بالقول إن سيده لا يستطيع استقباله لأنه يستريح لبعض الوقت. تمتم وهو يحدّق بالخادم فاغراً فاه: «أجل، ألم يكن يعمل الليل بطوله؟» أجاب الرجل: «ولكن كيف! على طاولة الورق!» انسحب جوجول وقد خاب أمله أيما خيبة. لن يجرؤ على المحاولة مرة أخرى. لقد تجاوز حدوده في المحاولة الأولى.

أرسل قصيدته «إيطاليا» إلى دورية «ابن الوطن» طالباً من مديرها «تاديوس بلجارين» أن ينشرها دون ذكر اسم كاتبها. كان بلجارين هذا مخبراً للشرطة يتلقى منها راتباً ويحتقره زملاؤه جميعاً، ولكنه يلقى تأييداً كبيراً من الحكومة. وقد قبل طلب ذلك المراسل المجهول، وفي (٢٣) آذار/ مارس (١٨٢٩) قرأ نيقولاي جوجول، الذي كان قد احتفل لتوه بعيد ميلاده العشرين» قصيدته مطبوعة بخط أسود على صفحة بيضاء في دورية توزع مئات النسخ. وفي ذيل القصيدة كلمة «بدون توقيع». لم يذكر أحد هذا العمل في الصحافة، غير أن الشاب امتلأ فخراً. وبما أن قصيدة «إيطاليا» رأت النور فإن الطريق أصبح مفتوحاً للقصيدة الطويلة «هانز كويشيلجارتن»، ولكنه سيكون هو الناشر هذه المرة. استلم النقود التي أرسلتها والدته وتجول على المطابع وساوم وتوصل في النهاية إلى اتفاق مع مطبعة «بلايوشار». ولكنه، وما إن كان يهم بتسليم المخطوطة للمطبعة حتى سيطر عليه الشك. قرأها من جديد للمرة المئة ليبدل سطراً هنا وآخر هناك وليضيف فاصلة في هذا الموضع وثانية في ذاك والحبور يغمره وهو يفكر بالشهرة التي تنتظره تارة، ويطغى عليه الخوف تارة أخرى خشية الفشل: هل يكشف عن اسمه الذي يعني له الكثير ويعرضه لسخرية فئة قليلة من الصحفيين الحاسدين؟ قد يكون من الأفضل له أن ينتظر قبل التوقيع باسم نيقولاي جوجول حتى ينتج شيئاً لا شائبة فيه. كان له الكثيرون من الأصدقاء ولكنه لن يطلب نصيحة أي منهم. كان قد أبقى موضوع نشر قصيدة هانز كويشيلجارتن طي الكتمان. ولم يكن في نيته أن يسمح لجبنه بأن يتخلّى عن تلك السرية، وهي شيء محبب إلى قلبه. اختار الاسم المستعار «في آلوف» (V.Alov). ثم ما لبث

أن كتب مقدمة تحت عنوان: «مقدمة الناشر» كانت تنمّ عن تبصّر ونظرة لمّاحة، وهي تحمل عنوان «قصيدة قصصية في ثمانية عشر مشهداً». يقول فيها:

«لم يكن هذا العمل ليرى النور لو لم تكن هنالك اعتبارات ملحّة دفعت الكاتب لنشره. والقصيدة التي نقدّمها هي من عمل شاب في الثامنة عشرة من عمره، ولسنا بصدد الحكم على ميزاتها أو مثالبها، بل نترك ذلك للقارئ المتنوّر. غير أنه لابدّ لنا من الإشارة إلى أن مشاهد عديدة فقدت مع الأسف، وكان (من شأنها تلك المقاطع) أن تعطي القصيدة وحدة أكبر وأن تقدم صورة أشمل للبطل الرئيسي. غير أننا نفخر على أية حال بأننا ساعدنا على تعريف جمهور القراء بهذه الموهبة الشابة».

أصدر مكتب الرقيب موافقته على نشر القصيدة في (٧) أيار/ مايو (١٨٢٩)، وبعد ذلك بفترة وجيزة استلم نيقولاي جوجول النسخ الأولى من عمله. أخذ يحدّق بتلك المعجزة: كتاب حقيقي مطبوع فعلاً وليس مجرد مخطوطة –يفوح برائحة حبر وورق جديد واسم المؤلف على غلافه الأزرق، والعنوان والثمن– خمسة روبلات. من يدري؟ قد يوافق مئات، بل وآلاف القراء المجهولين على صرف هذا المبلغ لكي يذرفوا الدموع على قدر ذلك البطل الرومانتيكي. قد يقرأ بوشكين نفسه «هانز كويشيلجارتن» وقد تسحره موسيقى سطوره، وقد يطلب لقاء «ألوف» الغامض ذاك. هذه الفكرة كانت تهزه من فرط الإثارة، بل وكان عليه أن يبذل جهداً لكي ينحّي جانباً فكرة أنه أصبح الصديق المقرب للشاعر. كان يرتعش بنفاد صبر وهو يجول على المكتبات، ولكن الأيام تمر ومازالت النسخ مرصوصة على الرفوف دون أن تتضاءل؛ ولا إشارة تصدر عن بوشكين أو من جانب الصحافة، وبدا وكأن هانز كويشيلجارتن غرقت تحت الماء مثل حجر ثقيل. ولكن النقاد ما لبثوا أن استيقظوا فجأة. كتب أحد هؤلاء، «ن. بوليفوي»، وهو ناقد يلقى احتراماً شديداً، كتب في صحيفة «موسكو تلجراف» يقول: «ينبئنا ناشر هذا الكتاب أن قصيدة السيد آلوف لم تكن لتنشر لولا أن اعتبارات ملحّة هي التي أملت على المؤلف أن يغيّر رأيه.

ولكننا نعتقد بأن اعتبارات أكثر إلحاحاً كان عليها أن تحول دون إقدامه على ذلك. . . . ».

عزفت «النحلة الشمالية» على الوتر ذاته حيث قالت: «تحوي هانز كويشيلجارتن من التفاهات، ومشاهدها من الشذوذ والابتداعات الحمقاء - بما فيها المحسّنات الشعرية والأسلوب والعروض- بحيث أن العالم لن يكون أسوأ حالاً لو أن هذه المحاولة الأولى لكاتب شاب ظلت قيد النسيان».

تلقى نيقولاي جوجول كل كلمة من هذه الكلمات وكأنها صفعة على وجهه. أي وجه للمقارنة يمكن أن يكون بين سخرية زملائه في المدرسة في نيجن وبين الجلْد الذي يتلقاه الآن؟ لقد كان من حسن حظه أنه اختبأ خلف اسم مستعار! فزملاؤه على الأقل لن يعلموا ما حلّ به من خزي. حتى أقرب أصدقائه لم يكونوا يدركون بأنهم يحتكون بآلوف المسكين، هو الذي كان يحلم بأن يثير إعجاب بوشكين. صفعة شديدة، والأدهي أنه غير قادر على الرد عليها والاحتجاج على منتقديه، بل على العكس فقد فكر بأنهم محقّون تماماً. لا يبدو له الآن أن بيتاً واحداً من هانز كويشيلجارتن يستحق الحياة. فكيف له أن يعيش بطريقة تغفر له خزي هذه الخطيئة؟ لابدّ من فعل جذري! كان شهر تموز/ يوليو يقارب نهايته، وسانت بطرسبرج تلتهب من الحرارة والرطوبة والرائحة المقيتة المنبعثة من القنوات وتتسلل عبر النوافذ المفتوحة. في هذا الجو استأجر جوجول عربة وأخذ يمر على المكتبات في المدينة يرافقه خادمه ليشتري كل نسخة باقية من هانز كويشيلجارتن.

حمل كوم الرزم المرصوصة والمربوطة في العربة نصف غاضب ونصف آسف. غير أنه كان من الواضح أنه لم يكن من الممكن له أن يحمل هذا الحمل المذلّ إلى الشقة التي يشاركه الإقامة فيها بروكوبوفيتش، وحيث يجتمع أصدقاؤهما في كثير من الأحيان. لذا لابدّ من العثور على مخبأ بعيد عن كل العيون. استأجر غرفة في فندق في شارع «فوجنيسنسكي»، وهناك، وبالتعاون مع خادمه أشعل ناراً في الموقد وألقى فيها بالمجلدات الجديدة، واحداً بعد الآخر.

لم تحترق الصفحات بل اسودت وتجعدت وعلا دخانها. ولكن اللهيب المطهّر ما لبث أن تصاعد، وكان ما ابتلعه في تلك المناسبة يتجاوز أوهام المؤلف، بل إن روحه تجددت في ذلك الحريق. وقف يحدق بتلك المحرقة المصغرة التي خلبت لبّه. وعندما خمد الحريق شعر بارتياح يخفف منه إحساس بالأسى.

لم يخبر أحداً بما فعل بعد عودته إلى شقته ولكـن حياته بدت له فجأة عبثية وفارغة. ما الذي يمكن له أن يفعله الآن بعد مثل هذه النكسة اللاسعة؟ ظل يحلم لأسابيع بأنه سيقتفي خطى هانز كويشيلجارتن، أي الذهاب إلى الخارج لكي ينشط ويزدهر تحت سماوات أجنبية. كان قد بدأ منذ وقت طويل يهيئ أمه لفكرة مثل هذه الرحلة وذلك منذ (٢٢) أيار/ مايو. وشأن ما يفعل دائماً فقد كان يضع الخطط مسبقاً ويقترح مشروعاً ما يلبث أن يرفضه على الفور مخترعاً ظروفاً استثنائية لتبرير ما ينوي عمله. ولكي يتجنب اتهام أمه له بالأنانية اخترع صديقاً غامضاً لديه الاستعداد لتحمل نفقات الرحلة.

«تكلف هذه الرحلة عادة نفقات باهظة، ولكن كان من المقرر لها ألا تكلفني شيئاً، حيث كانت ستدفع جميع نفقاتي وتلبى جميع رغباتي أثناء تلك السفرة. ولكن لك أن تتخيلي مدى سوء حظي، إذ شاء القدر أن يموت فجأة الصديق الكريم الذي كان قد قدم لي الوعود. ولكن وعوده وخططه تلاشت جميعها، وها أنا الآن أتجرع سمّ المرارة القاسية. ولكن إلغاء الرحلة في حد ذاته يتضاءل أمام فقدان إنسان ارتبطت به طوال عمري، وها هو القدر ينتزعه ثانية. . .».

بعد أن دفن هذا المخلوق الخيالي الذي استولده قال جوجول لنفسه أن فكرة سفره والمصاريف المطلوبة لذلك انطبعت الآن في ذهن أمه. . . . فهي تدرك بأن ابنها منجذب للبلاد الأجنبية وأنه سيحتاج للمال إن قرر السفر. ولذا تركها نهباً للقلق خلال الأيام التالية، وأخذ هو يواصل أحلامه ويتحرق للهرب.

يقول في «اعترافات كاتب»: «الحقيقة الغريبة هي أنني شعرت دائماً، حتى عندما كنت طفلاً، ثم وأنا على مقعد الدراسة، وحين كنت آمل أن أدخل في

الخدمة الحكومية بدلاً من احتراف الأدب ، شعرت بأن تضحية كبرى - لاأدري كنهها - تنتظرني ، وأن عليّ لكي أخدم بلدي أن استكمل استعدادي بعيداً عنه. لم أكن أعرف كيف يمكن أن يتأتى ذلك ، بل ولم أفكر فيه ، ولكنني تخيلت نفسي بكل شفافية وأنا أتوق إلى وطني وأحن له وأنا في بلاد غريبة. سكنتني هذه الصورة باستمرار بحيث ملأتني حزنا».

النثر كان هو السائد في سانت بطرسبرج في تلك الفترة ، أما الشعر فربما كان يزدهر خارج حدودها. لابد أن يكون هنالك في مكان ما ، قد يكون بعيداً ، بلد الحب والعقل والجمال. أميركا ، أرض الرواد والمخترعين ، الأرض العذراء هي ما يحتاجه! ولكنها تقع في النهاية الأخرى للعالم وقد يستطيع المرء الاغتراب بتكاليف أقل. إلى ألمانيا ، مثلاً ، ألمانيا الرقيقة ، الرومانتيكية. غير أن روبلات قليلة تافهة هي التي تحول بينه وبينها. ولكن أمه أرسلت له في تلك المرحلة مبلغاً كبيراً نسبياً لدفع فوائد القرض على فاسيلييفكا. عند ذلك فكر نيقولاي وهو يتحسس هذه الرزمة من الأوراق النقدية بأن الله يقف إلى جانبه. أليس من الغباء إيداع هذا القدر من المال في خزائن الحكومة في الوقت الذي يحتاجه هو من أجل رحلته؟ يمكن للسلطات أن تنتظر ، أما هو فلا يستطيع ذلك. فكر وهو يعدّ حزم الروبلات بـ «لوبيك»(١). ولكن لمَ «لوبيك» بالذات؟ هو نفسه لا يدري. أحبّ الاسم الذي رنّ في أذنه وكأنه الجرس. يريد أن يذهب إلى هناك لكي ينسى ويتأمل. ما يبقى عليه هو إبلاغ أمه بأنه سيغادر لا محالة وسيستخدم المال الذي استأمنته عليه. ولكنه ظلّ يرجئ تلك المهمة يوماً بعد يوم. ولكي يريح ضميره قرر أن يرسل لماريا إيفانوفنا تفويضاً يتنازل بموجبه عن نصيبه من الميراث. اشترى ورقة تفويض رسمي مصدقة وكتب يقول: «أمي الحبيبة تعبيراً عن إخلاصي كابن فإن أفضل ما يمكن لي أن أعبر به عن عواطفي هو أن أضع مصلحتك ورفاهك على أسس متينة خلال فترة غيابي». وهو يعطي بعد ذلك توجيهات مفصلة بحيث تنقل إلى ماريا إيفانوفنا جميع ما يخصه من السلع

(١) لوبيك: بلدة في شمال شرقي مدينة هامبورغ الألمانية.

والممتلكات المنقولة والأقنان. وقد وقع على هذه الوثيقة التي تحمل تاريخ (٢٣) تموز/ يوليو (١٨٢٩) باسم نيقولاي جوجول - يانوفسكي، موظف حكومي من الدرجة الرابعة عشرة. وفي اليوم التالي (٢٤) تموز/ يوليو جلس إلى طاولته في نهاية المطاف لكي يكتب الخطاب الذي يشرح فيه نواياه. فأي حجة يمكن له استخدامها لتبرير حاجته لآفاق جديدة. هنالك أولاً إرادة الله، وهذه لغة لابدّ لماريا إيفانوفنا/ المؤمنة من أن تتفهمها. ولذا فهو يقول لها:

«لقد امتدت إليّ يد الله وأنزلت بي أشد العقوبات عدالة. فما مدى قسوة هذه العقوبة؟ لجنوني أردت مقاومة تطلعات الروح تلك والتي غرسها الله في داخلي وكانت تملؤني بعطش لا تهديء من حدّته حياة لا قيمة لها، حياة أبددها في هذا المجتمع. لقد بيّن لي بأن عليّ أن أوجه خطواتي باتجاه بلدان أجنبية لكي أتعلم هناك، بصمت وعزلة، ومن خلال العمل الدؤوب، كيف أسيطر على عواطفي لكي أتمكن تدريجياً من الارتقاء إلى قمة أستطيع من خلالها أن أقدم سعادة عظيمة وأصبح ذا فائدة للعالم. لقد تجرأت وصممت أذنيّ عن تلك الدعوات الإلهية وفضلت الاستمرار في الزحف في هذه العاصمة وسط كل أولئك الموظفين الذين يعيشون تلك الحياة الفارغة. . . . هل هذه هي قمة السعادة، أن تزحف وأنت في الخمسين إلى رتبة عضو مجلس دولة، براتب لا يكاد يكفي لتأمين مستوى لائق من المعيشة ودون أن تكون هناك أي فرصة لتقديم خدمة للبشرية مهما كانت ضئيلة. . . . ومع ذلك، ولكي أرضيك قررت الالتحاق بالخدمة الحكومية هنا مهما كان هذا الأمر يفوق احتمالي. غير أن الله لم يشأ لي ذلك. لم ألق إلا الفشل في كل مكان، والغريب أنني صادفت الفشل في أقل المواقع التي كنت أتوقع أن أصادفها فيه. بل إن أشخاصاً يفتقرون لأي قدرات أو لأي دعم حصلوا بسهولة على ما لم أفلح في الحصول عليه بمساعدة من يدعمونني. أليس هذا مؤشراً على تدخل سماوي في حياتي؟ أليس من الواضح أن الله يعاقبني لكي يعيدني إلى طريق الصواب؟ غير أنني تابعت الانتظار وبعناد ولشهور عديدة على الأقل للوصول إلى مكافأة ما».

بعد هذا اللف والدوران حول تلك التأملات الغامضة شعر نيقولاي جوجول بأنه يقف على أرض أكثر صلابة. ولكنه حين أعاد قراءة ما كتب بدا له أن حججه ليست مقنعة تماماً. كما أنه يحتاج إلى دوافع مكملة للهرب. ففي رسالته السابقة كان قد اخترع الصديق الكريم الذي «انقصف» في ريعان شبابه. أما الآن فإنه سيعرض مسألة حبه لامرأة بارعة الجمال، ذات منزلة رفيعة بحيث لا يمكن الوصول إليها – الله في المرة الأولى، والآن إحدى ملائكته. لم يكن في الواقع قد خاض مغامرة عاطفية واحدة منذ وصوله إلى سانت بطرسبرج، ولم يكن يشعر بأي دافع للتورط مع أي إنسانة من الجنس اللطيف. كان يصاب بالشلل لمجرد مرأى إحداهن، بشعر طويل وابتسامة مخملية. أما الآن وهو يحمل القلم في يده فقد نسي الدافع لخداعه وشعر بأنه غارق في الحب. وكلما تحدث في تفاصيل العذاب الذي يعاني منه كلما تسارعت ضربات قلبه. وعلى هذا فهو يعلن لأمه في نفس الرسالة بكل اندفاع وشعور باليأس:

«أي عقوبة مريعة! ليس هناك من عقوبة أكثر قسوة وإيلاماً! لاأستطيع . . . وليست لديّ القدرة لقول ذلك . . . أمي، يا أمي الحبيبة . . . أعرف أنك صديقي الصدوق الوحيد! هل تصدقينني؟ تعرفين أنني أحظى دائماً بقوة الشخصية نادرة المثال لشاب في مثل سنّي. من كان يمكنه أن يتنبأ أن لديّ هذا الضعف؟ ولكنني رأيتها . . . لا، لن أسميها . . . إنها أرفع قدراً مني ومن أي شخص آخر. قد أسميها ملاكاً ولكن هذا التعبير لا يلائمها . . . إنها مقدسة لا تمسها العواطف البشرية. وجهها المتألق ينطبع على القلب إلى الأبد، عيناها تنفذان إلى روحك ولا يمكن لرجل أن يحتمل لهيب الشعلة النفاذة لنظرتها! ياإلهي لو أنك رأيتني حينذاك! يا للوضع المريع! أعتقد أنه إن كانت هنالك جهنم للخاطئين فستكون أقل رهبة. لا، لم يكن حباً! لم أسمع على الأقل من يتحدث عن مثل هذا الحب. وبتحركاتي المعتوهة وروحي المعذبة فإن كل ما أحتاجه هو أن أراها، ورجائي الوحيد هو أن أراها لمرة أخرى واحدة، رغبة تزداد يوماً بعد يوم وتصبح أكثر مرارة بحيث يتعذر إطفاؤها. أدركت في النهاية أنني في وضع

يائس وانكمشت على نفسي برعب. فقدت كل الأشياء فتنتها، وبدا لي الموت والحياة لا يطاقان سواء بسواء، ولم تعد روحي قادرة على فهم ما يعتمل في داخلها. رأيت أن عليّ أن أهرب إن كنت أريد الاستمرار في العيش واستعادة ما يشبه السلام في قلبي المحطم. تعرّفت بعد أن عوقبت على اليد الإلهية التي تحميني وباركت الطريق التي أشارت إليها. كلا، ذلك المخلوق الذي أرسله الله لي جاء لكي يسلبني الراحة ولكي يقلب العالم المهتز الذي بنيته. هذا المخلوق لم يكن امرأة. لو كانت كذلك فإن كل قوى الإغواء لديها لم تكن بقادرة على إثارة كل ذلك الافتتان المعذب الذي لا يمكنني التعبير عنه. كانت مخلوقاً مقدساً خلقها الله جزءاً منه، ولكن بحق السماء لا تطلبي مني ذكر اسمها فهي في موقع رفيع جداً».

لابد أن ماريا إيفانوفنا تساءلت بعد أن وصلتها هذه الرسالة الرسمية التي تعلن أن الله وامرأة مغرية فاتنة رصا صفوفهما لدفع نيقولاي جوجول إلى خارج سانت بطرسبرج، تساءلت فيما إن كان ابنها فقد رشده، وتجدر الإشارة إلى أن الرسالة اختتمت بالحديث عن أمور ذات طبيعة اقتصادية بحتة.

«ولذا صممت على الرحيل، ولكن كيف؟ رحلة إلى الخارج صعبة وتتطلب الكثير من الإعداد. وما إن شرعت بذلك حتى بدا، ولدهشتي، أن كل شيء يأخذ مكانه الصحيح من تلقاء ذاته. حصلت على جواز السفر بسهولة. صعوبة وحيدة بقيت: المال. كنت قد بلغت مرحلة اليأس عندما تسلمت منك النقود التي كان عليّ إيداعها. توجهت إلى السلطات على الفور لأستفسر عن الوقت المتبقي الذي يمكن السماح به لدفع الفائدة، وقيل لي بأنهم يسمحون بأربعة شهور مقابل دفع غرامة بمقدار أربع إلى خمس روبلات لكل شهر تأخير لقاء كل ألف روبل تمت استدانتها. . . لا شك بأن ما فعلته كان طيشاً، وربما غير معقول، ولكن هل كان يمكنني أن أفعل غير ذلك؟ لقد احتفظت بكامل مبلغ فائدة الرهن، ويمكنني التأكيد الآن بأنني لن أطلب منك المزيد. لا تحزني يا أماه. لقد كنت بحاجة لمثل هذه الأزمة فهذا الدرس سيكون مفيداً لي. فشخصيتي سيئة (أعترف

بكل صدق بأنها أفسدت). والكسل والحياة المتبطلة التي أعيشها هنا من شأنها أن تزيد من مساوئي. عليّ أن أحدث تحولاً في شخصيتي وأن أجددها، أن أولد ولادة جديدة. لاشك بأن روحي ستتفتح بفعل العمل والنشاط، وإن لم أحقق السعادة. أعرف أنني لن أكون سعيداً شخصياً لأن هذه المخلوقة السماوية قد خلفتني وراءها وأخذت معها سلامي الروحي. سأكرس ما تبقى من حياتي لرفاه وسعادة أقراني من البشر. ولكن لا تخشيْ الفراق فأنا لن أبتعد. لوبيك هي هدف رحلتي وهي مدينة ألمانية على ساحل البحر تشتهر بأنها مركز تجاري عالمي...».

غامت الأسطر الأخيرة عن عيني ماريا إيفانوفنا اللتين اغرورقتا بالدموع. طارت النقود وطار ابنها. ألن يتعرض لآلاف الأخطار على متن السفينة التي ستحمله إلى الشاطئ الألماني؟

البحر هائج والباخرة تصرّ وتعلو وتهبط تحت وقع ضربات الأمواج الطويلة الخضراء، ونيقولاي جوجول يترنح وتعصف به ضربات الرذاذ المتطاير والباخرة تصعد به وتهبط وهو يجاهد ليمنع نفسه من التقيؤ. كان قد ودّع أصدقاءه في الليلة السابقة دون أن يقدم لهم تفسيراً، ولم يفهم أي منهم دوافع هروبه. ومن باب التوفير لم يصطحب خادمه حيث بقي ياكيم متعطلاً في الشقة ينتظر عودته. كان الركاب جميعاً يعانون من الدوار بينما العمال يمضغون التبغ ويبصقون. وما لبث أن بدا ساحل السويد بعد يومين، وجزيرة» بورنهولم بصخورها العارية ومناطقها الخلفية الخضراء. ثم مرت أربعة أيام أخرى والسماء فوقهم والماء تحتهم. وفي النهاية ظهر ميناء لوبيك تحت ضباب الفجر القاتم.

دار رأس جوجول لدى نزوله بفعل الضجيج والنشاط الصاخب على أرصفة الميناء. وسرعان ما قام بجولة مدققة في المدينة معجباً بالبيوت الضيقة العالية المسقوفة بالقرميد الأحمر تحيط بها أفنية صغيرة أنيقة، والحوانيت تمتلئ بالأطعمة والفنادق الصغيرة المليئة بالألمان متوردي الوجوه وهم يحتسون كؤوس البيرة، والفلاحات الشابات بقمصانهن الموردة وهن يتمشين في الشوارع. شمل

إعجابه السياح السويسريين والإنجليز والأميركيين الذين التقى بهم في قاعة الطعام بالفندق. ولكن ما أثار اهتمامه بشكل خاص هو العمر المديد للمباني العامة. فبالمقارنة مع سانت بطرسبرج التي لا يتجاوز عمرها قرناً واحداً تبدو حتى المباني العادية هنا وكأنها تنحني تحت ثقل التاريخ. وبكل انفعال دخل الكاتدرائية الجرمانية. غابة فعلية من الحجارة يضيئها الزجاج الملون بكثافته الخارقة للطبيعة. أليست هذه الهندسة المعمارية المعذبة هي أكمل تعبير عن الإيمان البشري؟ والساعة الضخمة التي تفتح أبوابها عند الظهيرة ليخرج مها الحواريون الاثنا عشر وهم يتحركون في موكب دائري، ورسوم العباقرة الألمان والإيطاليين! أخذ نيقولاي جوجول الذي كان قد هجر فراشيه وألوانه منذ أن غادر نييجن يحلم بالعودة للرسم من جديد.

ولكن فضوله ما لبث أن تلاشى بسرعة وشلّه حتى العظام شعور بالعزلة.

أخذ يتساءل ماالذي أتى يبحث عنه في هذا المكان الذي لا يمكنه حتى أن يتكلم لغته. وبدأت ذاكرته تردد هذه السطور من قصيدته هانز كويشيلجارتن:

حزن لا يقهر

ما يلبث أن يسيطر على المسافر.

تأنيب الضمير يغمر روحه،

والألم والأسف:

لماذا سار في هذه الطريق؟

هكذا جاب العالم إذن، شأن بطله، ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام صورته. لاشك أنه سبب الكثير من الألم لأمه. ومنذ وصوله وهو يريد أن يتوسل غفرانها. نسي تماماً «إرادة الله» والمرأة «ذات الوجه المضيء» التي دفعته قسوتها إلى الذهاب للمنفى. بل أصبح المرض هو سبب مغادرته الآن.

كتب لها في (١٣) آب/ أغسطس (١٨٢٩) يقول: «ربما أكون قد نسيت أن أخبرك بالأمر الرئيسي الذي أتى بي إلى لوبيك. لم أكن بصحة جيدة طوال فصلي الربيع والصيف في سانت بطرسبرج. ولكنني أحسن حالاً الآن فيما عدا الطفح الجلدي الذي يغطي يديّ ووجهي. يؤكد لي الأطباء أن هذا الطفح هو نتيجة لداء سل الغدد، وأن دمي فاسد وعليّ أن أتناول أدوية مطهّرة وأشرب مياه «ترافيميوندي» وهي بلدة صغيرة على بعد (١٨) فرسخاً عن لوبيك».

ذهب فعلاً إلى ترافيموندي وإن لم يبقَ هناك إلا ثلاثة أيام ولم يفكر أبداً بالعلاج الموصوف له. وتابع طريقه إلى هامبورغ ومن ثم عاد إلى لوبيك وهو يشعر بعدم الاستقرار والتشوش أكثر مما كان عليه في أي وقت سابق. كانت تنتظره هناك رسالة مريعة من والدته –إذ لم تكتف بتوجيه أمرٍ له بالعودة إلى سانت بطرسبرج دون أي جدل بل تبدي عدم تفهمها الكلي لقيامه بهذه الرحلة وتربط ما ذكره حول مرضه وبين قصته الغرامية الخيالية – إذ توصلت إلى الاستنتاج بأنه أصيب بمرض تناسلي من المرأة التي تغنّى بجمالها. هذا الافتراض أغرق نيقولاي في لجة مرعبة إذ ارتد عمله السيئ عليه.

كتب لأمه رسالة في (٢٤) أيلول/ سبتمبر (١٨٢٩) يقول: «كيف يمكنك يا أمي العزيزة أن تفكري بأنني وقعت ضحية انغماس في الملذات، وأنني سقطت إلى أدنى درجات الحقارة، وأنني باختصار أعاني من مرض يرتعش ذهني اشمئزازاً لمجرد التفكير فيه. لقد كانت هذه هي المرة الأولى – وأرجو من الله أن تكون الأخيرة – التي أتلقى فيها مثل هذه الرسالة المرعبة. بدا لي وأنا أقرؤها بأنني أستمع إلى لعنات تنصبّ على رأسي. أيمكن لابن ذينك الملاكيْن أن يكون هذا الوحش الذي لا يمتلك أياً من فضائلهما؟ إنني مستعد لأن أقسم أمام الله بأنني لم أرتكب أي فعل شائن وأن أخلاقياتي هنا كانت بريئة من الأخطاء والعيوب أكثر مما كانت عليه خلال إقامتي في المدرسة أو في البيت. لا يمكنني على الإطلاق أن أفهم ما الذي جعلك تفكرين بأنني أصبت بذلك المرض بالذات، ولست أذكر بأنني أشرت أيما إشارة لأمر يتعلق بمثل هذا الانحراف بالصحة».

تابع رسالته ناسياً أنه كان قد برر سفره مؤخراً بالحاجة لمعالجة حالة شديدة من مرض سل الغدد ضاعف من حدته طفح جلدي في الوجه واليدين حيث يقول: «أعتقد أنني ذكرت لك داءً في الصدر يجعل من الصعب عليّ أن أتنفس. ولكنني تماثلت للشفاء من هذه الحالة ولله الحمد. لو تدرين كم كنت تعيساً! لم أقض ليلةً واحدة إلا كان نومي خلالها مضطرباً ولم أرَ حلماً واحداً يبعث على السعادة، ولم أتوقف عن التفكير بالجزع والحزن والقلق الذي سببته لك».

قرر هذه المرة العودة إلى الوطن، علماً بأن ما لديه من النقود كان يوشك على النفاد.

لم يعد لديه ما يفعله في لوبيك بنظافتها وبردها المنفرين، ولذا أبحر من جديد على نفس الباخرة التي أتت به إلى هنا.

بينما كان بروكوبوفيتش في طريق عودته إلى البيت في إحدى الليالي اصطدم في الشارع بياكيم الذي كان يركض مبتهجاً ذاهباً إلى المخبز. لقد عاد سيده! وجد بروكوبوفيتش المسافر جالساً وسط صناديقه وقد علت وجهه علائم الإرهاق. وكانت ردود جوجول على أسئلة صديقه ملتبسة وغامضة. كان من الواضح بأنه لا يريد التحدث عن رحلته إلى ألمانيا. احترم بروكوبوفيتش وأصدقاؤه الآخرون صمته، وبقي حدث رحلة لوبيك حدثاً يلفه الغموض بالنسبة للجميع، بمن فيهم بطل الرحلة نفسه.

□ □ □

الموظف

هاهي سانت بطرسبرج من جديد: ضباب ومطر وبرد وضيق ذات اليد. كيف ستُدفع الفائدة للرهن؟ ستباع إقطاعة فاسيلييفكا بالمزاد العلني إن لم يصل المبلغ في الوقت المحدد. ومازاد الأمور تعقيداً أن محسن العائلة، «ديمتري أندرييفتش تروشِشنسكي» كان قد مات في شهر حزيران/ يونيو الفائت... أما وريثه «أندريه أندرييفتش تروشِشنسكي» فيصعب الاقتراب منه. غير أن ماريا إيفانوفنا قررت، بدافع اليأس، أن تستعطفه بإرسال خطاب له في سانت بطرسبرج حيث كان قد ذهب لبعض أعماله. استدعى أندريه أندرييفتش تروشِشنسكي جوجول وعنفه بقسوة، ولكنه دفع الدين بكامله بعد ذلك. بل إنه قدم لقريبه بعض المساعدة المالية وأهداه معطفاً شتوياً. غير أنه نوّه بأن على جوجول أن يفكر بالمستقبل بصورة أكثر جدية وليس كفنان. كما وعده بمساعدته على الفور في العثور على وظيفة في الإدارة.

على الرغم من هذا الوعد، بل ربما بسببه فقد دفع حافز مفاجئ جوجول لتجربة حظه في المسرح. إذ إن خوفه من أن تصل أيامه ككاتب إلى نهايتها هو ما بعث في نفسه الجرأة. كان ناجحاً جداً كممثل أيام المدرسة، ومن الإجرام ألا يستثمر هذه الموهبة التي منحها الله له، وأخذ يرى نفسه موضع تمجيد شأن «جاريك» و «تالما» و «ديمتريفسكي».

توجه عبر شارع «الرصيف الإنجليزي» في صباح رمادي ماطر إلى بيت الأمير «سيرجي سيرجييفتش جاجارين» مدير المسارح الإمبراطورية. كان قد

ارتدى أفخر ثيابه، غير أن ألماً مفاجئاً في أحد أسنانه دفعه لربط منديل أسود حول خده الذي كان ينبض من الألم. كان يعتقد بأن الأمير من سعة الأفق بحيث أنه لن يكترث لمثل هذا الأمر (المنديل المربوط حول خده). استقبل مونديت سكرتير جاجارين الشخصي الزائر وسأله عما يريد.

أجاب جوجول في نهاية المطاف: «أريد المشاركة في المسرح كممثل».

طلب منه مونديت أن ينتظر لأن الأمير ما يزال يرتدي ملابسه. جلس نيقولاي إلى جانب إحدى النوافذ وأخذ يحدّق من خلالها بنهر النييفا الذي يتدفق تحتها. وبين آونة وأخرى يلوي وجهه ويضع يده على خده.

قال له مونديت: «أعتقد أنك تعاني من ألم في أسنانك. هل تريد بعض ماء الكولونيا؟» أجاب جوجول: «شكراً لك، سيتلاشى الألم من تلقاء ذاته...» بعد فترة وجيزة هبّ مونديت واقفاً وأخذ يتراكض بكل الاتجاهات، يفتح باباً بعد آخر إلى أن أدخل طالب العمل إلى غرفة الإدارة. سيطر على جوجول خوف شديد حين رأى وجهاً بارداً تؤطره لحية على جانبيه. كان الأمير جاجارين مغرماً بالباليه ولكنه، كما يقال عنه، لا يكنّ إلا الاحتقار للمسرحيات الروسية ولا يفرّق بين «وولتر سكوت» و«فولتير». غير أن كلمة منه قد تقرر مساراً وظيفياً. كان من الواضح أن جاجارين مغرم بإدخال الرعب في نفوس زواره، ومونديت كان يرقب المشهد من وراء ظهره.

تساءل الأمير: «ما الذي تريده؟».

أجابه نيقولاي جوجول وهو يمسك بقبعته بإحكام فوق بطنه محاولاً استجماع شجاعته: «أريد أن أصبح ممثلاً في المسرح، في الفرقة الروسية».

«اسمك؟»

«جوجول يانوفسكي».

«منبتك؟»

«نبيل» .

«لماذا تريد التمثيل على خشبة المسرح؟ يمكنك بدل ذلك أن تدخل في خدمة الحكومة» .

أجاب جوجول متلعثماً: «لست غنياً، وأشك بأن وظيفة حكومية يمكن أن تلبي احتياجاتي. ولست أعتقد كذلك أنني أتواءم مع هذا النوع من العمل. كما أنني أشعر بانجذاب فعلي للمسرح» .

«هل تتخيل أن بإمكان أي كان أن يصبح ممثلاً، فذلك يتطلب موهبة خاصة» .

«ربما كنت أمتلك هذه الموهبة» .

«ربما! أية أدوار تنوي تمثيلها؟» .

«لست أعرف بالضبط في الواقع. ولكنني أعتقد بأن الأدوار الجادة ستلائمني بشكل خاص» .

وجه له الأمير نظرة هازئة، ثم قال وقد ارتسمت ابتسامة خافتة على شفتيه: «أعتقد يا سيد جوجول بأنك سترتاح أكثر للكوميديا. غير أن هذا شأنك على أية حال!» .

ما لبث الأمير أن طلب من مونديت ترتيب تجربة أداء بعد أيام قليلة لنيقولاي جوجول مع «خرابوفتسكي» مفتش هيئة التمثيل الروسية .

تمت تجربة أدائه في الصباح في المسرح الكبير. كان خرابوفتسكي يؤمن بالطريقة الخطابية الكلاسيكية في التمثيل. استقبل جوجول في مكتبه بوجود مدير خشبة المسرح وبعض الممثلين. وأمام هذا الجمهور من المحترفين فقد هذا المبتدئ بقايا ثقته بنفسه. وبما أنه لم يكن قد هيأ أي مشهد اقترح خرابوفتسكي عليه قراءة المناجاة الوجدانية لأوريستس (Orestes) في مسرحية راسين (Racine)

«أندروماك» (Andromaque) والتي ترجمها إلى الروسية «خفوستوف». دفن أنفه في النص وردد بسرعة أبيات خفوستوف الثقيلة في قراءة رتيبة كلياً مما أغاظ خرابوفتسكي فطلب منه أن يتوقف بعد دقيقتين.

بعد المشهد التراجيدي أدى دوراً كوميدياً. غير أن هذا الممثل المتدرب لم يكن أحسن حظاً في أداء ذلك الدور وهو من مسرحية «مدرسة الرجال العجائز». غير أنه استطاع قراءة الحكم الصادر ضده في عيون الحكّام. هل يمكن ألا تكون لديه أية موهبة على الإطلاق، أم أن جو سانت بطرسبرج هو الذي ألجمه، وبعبارة جليدية واحدة صرفه خرابوفتسكي. وكان جوجول قد حاول عبثاً قبل عدة أشهر إقناع أحدهم بتقديم اثنتين من المسرحيات الأوكرانية الكوميدية التي كان قد كتبها والده وهما «الكلبة في ثياب الحمل» و «قصة بارسيا الشعرية». لابدّ له إذن من أن يتخلى عن أي تفكير بالمسرح مهما كان شكله. المسموح له هو وظيفة حكومية فقط.

لم تذهب جهود أندريه أندرييفتش تروششنسكي عبثاً، إذ في (١٥) تشرين الثاني/ نوفمبر (١٨٢٩) عُيّن نيقولاي جوجول في وظيفة بمديرية الأشغال العامة في وزارة الداخلية براتب أدنى من راتب متواضع وهو خمسمائة روبل في السنة. سوف يضيع إذن وسط ذلك الحشد الكئيب من صغار الموظفين. ولكنه حين فكر في الأمر على وجه الإجمال فضّل ذلك القيد والفقر على العودة إلى الحياة العائلية في البيت في فاسيلييفكا. وعلى هذا كتب لأمه في ٣ كانون الثاني يناير (١٨٢٩) يقول: «حين أقارن وضعي بالعديد من الموظفين فإنني أتوصل إلى الاستنتاج بأنني لست في وضع خاسر تماماً، بل إن الكثيرين من زملائي يودون لو يحتلون مكاني، وليس عليّ إلا أن أضاعف من صبري على أمل الحصول على ترقية. غير أن أولئك الزملاء الذين أتحدث عنهم يتلقون ما يكفي من المال من عائلاتهم لتغطية احتياجاتهم الأساسية بينما يتوجب عليّ أنا أن أعيش على راتبي فقط. أحكمي على الأمر بنفسك: حتى دون أن أستضيف أي إنسان، وبدون أن أخرج إطلاقاً تقريباً، وعليّ أن أتخلى عن تسليتي المفضلة، أي المسرح. حتى

من دون كل ذلك لا يمكنني على الإطلاق أن أقلّص مصروفي عن مائة روبل في الشهر. أستثني من هذا المبلغ تكاليف أشياء مثل شراء الثياب وحذاء وقبعة وقفازات ومناديل الخ . . . والتي تصل تكاليفها وحدها إلى مبلغ خمسمائة روبل. والآن لنأخذ بعين الاعتبار أنني سأتلقى خمسمائة روبل في العام، بل أقل من ذلك. ولكن كان لديّ حتى الآن محسن كريم هو أندريه أندرييفتش تروشنسكي. لقد عشت حتى الآن على الإعانات المالية. وكبرهان على المجهود الذي أبذله للاقتصاد عليّ أن أذكرك بأنني مازلت أرتدي حتى هذا اليوم البدلة التي أوصيت عليها لدى وصولي إلى سانت بطرسبرج. يمكن لك أن تتخيلي كم هو رثٌ وبالٍ هذا المعطف الذي أرتديه كل يوم. لم يتوفر لديّ المال اللازم لكي أوصي على معطف آخر أو حتى لشراء معطف سميك، وهو ما لا يمكن الاستغناء عنه في فصل الشتاء. غير أنني معتاد على البرد لحسن الحظ وقد قضيت الفصل كله بمعطف صيفي. لم يكن من الممكن لي أن أستخدم النقود التي طلبتها من أندريه أندرييفتش تروشنسكي لشراء الملابس بل كان لابدّ من صرفه على طعامي وسكني. لم أشأ أن أطلب منه المزيد إذ لاحظت أنني كنت بالفعل عبئاً عليه. كما أنه أخبرني مرات عديدة أنه سيساعدني إلى أن يتحسّن وضعك، ولو جزئياً، وأن لديه هو نفسه عائلة وإمكانياته ليست دائماً حسنة تماماً. ولك أن تتفهمي بأنه يصبح من الصعب علي، ضمن هذه الظروف، أن أعرض مشكلاتي عليه. كما أنه يستعد لمغادرة سانت بطرسبرج في شهر أيار/مايو، فماذا سأفعل عندئذ؟ لم يبق أمامي إلا سبيل واحد يا أمي الحبيبة: وهو أن أسألك فيما إن كنت ستستطيعين إمدادي بمائة روبل في الشهر؟».

ما إن قذف جوجول بهذا الرقم حتى توقف عن الكتابة. ألا يبدو بعض الجشع في طلبه هذا؟ فكر بالاحتراس وتخفيض مقدار ما يطلبه. قد يكفيه مبلغ ثمانين روبلاً . . . ولكن بينما كان يمكن لشخص آخر أن يغير كلمة أو اثنتين في رسالته فقد ابتدع هو قصة كاملة لتبرير هذا التغيير: طوعاً أو كرهاً تدفقت الأكاذيب أكثر مما يتدفق الصدق من قلمه حيث تابع يقول:

«بينما كنت أهم بإنهاء هذه الرسالة جاءني رئيس الإدارة وأبلغني أخباراً سارة جداً وهي أن راتبي سيرفع عشرين روبلاً في الشهر، ولذا فإنني أود أن أسألك يا أمي العزيزة فيما إن كان بإمكانك إرسال ثمانين روبلاً في الشهر؟

ولدعم طلبه أرفق بالرسالة جدولاً يبين دخله ومصروفه لشهر كانون الثاني/يناير (١٨٣٠)

الدخل	روبلات	المصروف
راتب كانون الثاني	٣٠ روبل	إيجار ٢٥
باقي المبلغ من أندريه	٥٠ روبل	طاولة ٢٥
أندرييفتش تروشنسكي		
من أرشيف الشمال لقاء ترجمة	٢٠ روبل	حطب وقود ٧
مقال بالفرنسية حول التجارة الروسية في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر	١٠٠ المجموع	سكر، شاي، خبز ٢٠ شموع ٣ موزع الماء ٢ زوج قفازات ٣ اجور غسالة ٥ طعام للخادم ١٠ منديلان ٢ مصروفات نثرية مثل عربة، حلاق، إلخ ٥ حمالة بنطال ٤ المجموع ١١١ حمام عمومي ١,٢٥

ولزيادة الأبعاد التراجيدية لوضعه أضاف بر باطة جأش: «أرجو أن تسامحيني لخطي الرديء وغير المفهوم. فيدي مضمّدة لأنني جرحت بشظية زجاج. ولذا فإن الألم يمنعني من متابعة الكتابة».

استسلمت ماريا إيفانوفنا ثانية هذه المرة وإن بانزعاج لإلحاح «نيكوشا»، ابنها المدلل، الصعب والمزعج.

غيّر وظيفته في تلك الأثناء. ففي ١٠ نيسان/ إبريل (١٨٣٠) بدأ العمل في مديرية القاصرين في وزارة المحكمة براتب سنوي قدره ستمائة روبل. تم تثبيته في ٣ حزيران/ يونيو. وفي ١٠ تموز/ يوليو أصبح نائباً للرئيس وارتفع راتبه عند ذلك إلى (٧٥٠) روبلاً في السنة. لم يكن هذا المبلغ يجعله غنياً أو يعيش عيشة مريحة، وعزاؤه الوحيد هو أن بإمكانه أن يقول لنفسه بأنه لم يعد يتعيّش على حساب الآخرين فقط.

كان يشاركه السكن صديقاه بروكوبوفيتش وباشِشنكو، وهذا ما خفّض من مصروفاته وأدخل الحيوية على أيامه. كانت الشقة مكونة من ثلاث غرف، لكل منهم غرفة واحدة بينما كان على ياكيم أن ينام في الصوان. في التاسعة صباحاً يكون نيقولاي جالساً خلف مكتبه ليقوم بعملٍ ممل حيث يخرز نشرات، وينسخ بيانات حسابات، ويكتب تقارير، ويسطّر تحت العناوين ويراقب زملاءه وهو ينحني فوق مكتبه، جميعهم شيباً وشباناً، بدينين ونحيلين، صلعاً وقساة شعر، كلهم يشتركون بسيماء متماثلة تنمّ عن البلادة المميتة النابعة من عملهم، وعن الفزع من النقد. سنوات من العمل ضمن هذا النظام الصارم فتّتت أرواحهم، وطحنت أية ملامح في شخصياتهم، وخفضت من طموحاتهم. يقتاتون من الحبر والورق ولا يرون إلا طرف أقلامهم. وعندما يسألهم أحد رؤسائهم رأيهم في قضية تتعلق بعملهم لا يخطر لهم أن يدلوا برأي في ذلك، بل يجهدون والقلق يغمرهم لتخمين ما يود هذا الرئيس سماعه. إنها مملكة العبودية، مملكة الفقر القائم على المحاباة، ونصب المكائد من أجل الترقي في المناصب، والنكات الفجّة والمِعَد الفارغة. يذهبون إلى القداس صباح الأحد لكي يرضوا رؤساءهم، ويشربون عصر الأحد، ثم يستأنفون عملهم يوم الإثنين ورؤوسهم ثقيلة، وكل ما يأملون به حدث سارّ غير متوقع، رشوة صغيرة. ولكن فرص هذا النوع من الاغتناء كانت قليلة في مديرية أملاك القاصرين. فالعلاقة المباشرة بالجمهور ضرورية لكي يحصّل المرء روبلاً من هنا وآخر من هناك. وقد كتب نيقولاي لأمه في رسالته في ٣٠ نيسان/ إبريل (١٨٢٩) يقول:

«تقولين لي يا أمي العزيزة أن الكثيرين جاؤوا فقراء إلى سانت بطرسبرج وجمعوا ثروات على الرغم من أنهم عاشوا على رواتبهم، وذلك بفضل حماستهم وانكبابهم على العمل. غير أن عليك أن تتذكري في أي وقت حدث ذلك. في عهد الإمبراطورة كاترين وبول الأول، كان مجلس الشيوخ ووزارات الدولة هي المواقع التي يمكن للأشخاص أن يصبحوا أغنياء فيها. أما في هذه الأيام فإن فرص الحصول على عطايا في هذه المواقع هي فرص أقل بكثير، ولا تذكر في أفضل الأحوال بحيث أنها لا توفر أي مساعدة تقريباً في الحياة المتواضعة لهؤلاء الموظفين.

رئيس جوجول، واسمه فلاديمير ايفانوفيتش بانابيف كان من قبل شاعراً ودوداً - يكتب القصص الشعرية - وكان يتمتع ببعض السمعة الأدبية. أما الآن فقد أصبح موظفاً حكومياً مقدداً، منضبطاً بمواعيد العمل، شديد التدقيق بالأمور التافهة ومعادٍ لكل أنماط الخيال المبدع. هل هذا إذن مصير كل أولئك الذين يخونون مهمتهم الأساسية؟ الفكرة في حد ذاتها تبعث القشعريرة في جسد نيقولاي جوجول. ولكن الغريب أنه، وإن كان يحتقر هذه المخلوقات التافهة التي تحيط به في المكتب، فهو يشعر بأنهم يعلمونه شيئاً ما. ففهمه للمضطهدين يزداد، إذ أخذ يجمع أنماطاً من الرؤوس والارتعاشات والاستجابات والإيماءات بحيث جعلت تسكنه مئة من المخلوقات الذليلة المريعة.

أخيراً، بلغت الساعة الثالثة بعد الظهر! الجباه ترتفع والملفات تغلق والكل يسرع الخطا إلى بوابة الخروج. تناول نيقولاي جوجول عشاءه بسرعة وتوجه إلى أكاديمية الفنون الجميلة. تضاعف أربعة أضعاف عدد المشاة على الأرصفة بعد أن لفظت المكاتب موظفيها الوضيعين وذوي الشأن منهم ليرسموا صورة آسرة حيث يسير الموظف الصغير جنباً إلى جنب مع عضو مجلس الدولة الذي يحمل لقباً رفيعاً بحيث لا يمكن للمرء إلا أن يفكر بأن هنالك هرماً حياً، في قاعدته أناس مثله، أي مثل نيقولاي جوجول، وآخر في قمته وهو نيقولاي القيصر، رأس كل شيء يتنفس في روسيا.

تقع أكاديمية الفنون الجميلة في جزيرة «فاسيلييفكي»، ولذا عبر جوجول جسر «دفور سفوي». ومرّ عبر الواجهات الكالحة لمباني الجامعة، وعبر الماء كان يمكنه أن يرى كاتدرائية القديس اسحق الضخمة ونصب الفارس البرونزي وهو ينتصب على قائمتيه الخلفيتين فوق قاعدته المصنوعة من حجر الجرانيت.

قصر الأكاديمية هو صرح ضخم من طابقين يبتلع زواره عبر بوابة في الوسط. اجتاز جوجول مبنى الشرف وتسلل إلى قاعة تدرّس فيها أساليب رسم الطبيعة هناك. وقف خلف حامل الرسم وأخذ يحاول أن يرسم «الموديل» بالفحم. والموديل كان شخصاً ضخماً نصف عارٍ ينتصب فوق مقعد عالٍ لا ظهر له. أخذ الأستاذان «يجوروف» و«شيبوف» يتنقلان بين الطلبة ليصححوا رسومهم. كانت الدروس تستمر من الخامسة حتى السابعة مساءً، وينسى جوجول أثناء تلك الساعتين واجباته في مكتبه بل وقد يصدّق نفسه بأنه فنان فعلاً.

عند خروجه تكون المصابيح الزيتية مضاءة في تلك المدينة الضبابية. يتوجه عندئذ إلى بيته ليتناول عشاءه أو يذهب للقاء مع بعض زملائه السابقين في مدرسة نييجن. بصحبة هؤلاء وبالجو الأوكراني الذي يحيط به حينذاك تتحول أفكاره شيئاً فشيئاً للتراث الشعبي. ظلّ يلحّ على أمه وأخته الكبرى، ماريا، لتزويده بالمعلومات حول العادات والأساطير والأمثال والأغاني، وتفاصيل عن طراز الملابس. لم يكن يرتوي مما يزودانه به وينقل خلاصة تلك المعلومات إلى كرّاس سماه «الكرّاس الجامع». وبينما كان هذا الكراس يزداد حجماً كان يشعر بأنه يجلس فوق منجم من الذهب. ولكن هل يستطيع هو نفسه أن يستثمر هذا المنجم؟ هل يملك من المهارة والصبر لذلك أم سيدمّر هذه المادة الخام النفيسة؟

بدا أن القراء المثقفين في سانت بطرسبرج مغرمون بالقصص الأوكرانية، سواء أكانت هزلية أم تخيّلية أو مرعبة مثل كوشوبيه لعلاء الدين أو هايداماكي لسوموف، أو «قبعة القوقازي» لكولجنسكي. وكذلك أقاصيص «أولين» و«لوجانسكي» – كلها كانت تقرأ وتلقى المديح، فلم لا تصدر قصة من الطابع ذاته بقلم نيقولاي جوجول؟ صحيح أن تجاربه الأولى في عالم الكتابة لم تكن

مشجعة بشكل خاص. وهو يذكر في رسالة لأمه في تلك الفترة أنه نشر بعض الترجمات، ثم قصة أوكرانية بعنوان «بيسافريك» أو «ليلة القديس يوحنا» حيث نشرها في مجلة «حوليات الوطن». (عدد شباط - آذار ١٨٣٠) دون ذكر اسم الكاتب. وقد قام سفيرين، مدير هذه المجلة، وهو صحفي رديء، بإجراء تغييرات في المخطوطة بحيث أن جوجول أقسم بألا يقدم له بعد سطراً واحداً من كتاباته النثرية. وبعد أشهر قليلة، أي في شهر كانون الاول/ ديسمبر (١٨٣٠) تلقت فصلية «زهور الشمال» فصلاً من روايته التاريخية غير المكتملة «الزعيم القوزاقي[١]» ووقعها برمز (٠٠٠٠). فكرة هذا التوقيع أوحاها له حرف (٠) الموجود في اسمه أربع مرات Nikolai Gogol (Yanovsky). وفي الأول من كانون الثاني/ يناير (١٨٣١) ظهر في المجلة الأدبية (ليترازي جازيت) فصل بعنوان «السيد» من قصة «انتقام رهيب» تحت الاسم المستعار جلي شيك (Glay Chick) ومقال حول تدريس الأطفال مادة الجغرافيا (تحت اسم مستعار هو يانوف).

لم يكن قادراً بعد على نزع القناع عن شخصيته على الرغم من نشره عدة مخطوطات. ولم يتمكن من الكشف عن اسمه الحقيقي إلا «أنطون ديفلنج» مدير كل من المجلة الأدبية «ليترازي جازيت» و «زهور الشمال» الذي أجبره على ذلك. وبيد مرتعشة أعطى الكاتب الشاب مقالته التي كان قد كتبها في المدرسة والتي تحمل عنوان «امرأة» لمجلة «ليترازي جازيت» ووافق للمرة الأولى على نشر اسمه في أسفل المقالة. ولكنه ظل اسماً غريباً على أية حال: فكلمة جوجول هي الاسم الروسي للطائر «الغطاس» وهو طائر مائي ذو ريش كامد وعرف طويل ومنقار مستدق، علماً بأن الطائر متميز بالسباحة ولكنه لا يحسن الطيران وغير قادر على المشي على الإطلاق. وفي واقع الأمر فإن نيقولاي جوجول بدأ يأخذ ملامح هذا الطائر بشكل متزايد.

تخلى في هذه المرحلة عن الجزء الثاني من اسمه. فاسمه الأصلي هو جوجول يانوفسكي ولكنه سينجح باسم جوجول. أخذ ينتظر النتائج وهو يرتعش

(١) كان جوجول قد بدأ هذه الرواية وهو طالب في مدرسة نييجن غير أنه لم يرض عنها وأتلف القسم الأكبر منها.

بعد أن كشف عن هويته الحقيقية لجمهور القراء. مرّ مقال «امرأة» المكتوب بأسلوب صبياني منمق مجهد دون أن يلحظه أحد غير أن كاتبه كان قد اكتسب حظوة لدى مدير المجلة أنطون ديلفج.

وأنطون ديلفج هذا هو صديق لبوشكين وجوكوفسكي، وهو شاعر ويتمتع بذوق رفيع وبثقافة واسعة وشعور إنساني. وهو رجل طويل، ثقيل الوزن جداً، ذو جبهة مقببة ونظارة بإطار أسود تقبع فوق أنفه، يستقبل زواره مرتدياً «روب دوشامبر» ومتمدداً على أريكة تحيط به كومة من الكتب والمخطوطات.... كسله كان مضرباً للمثل ولكنه ذو قلب رقيق وأقل جهد يبذله يرهقه.

أخذ جوجول يفكر وهو يحدّق به بأن هذا الإنسان اللاهث المطبوع على الحب هو صديق لبوشكين، وأن اليد التي لامسها لتوه كانت قد لامست يد بوشكين، والفم الذي يخاطبه إنما تحادث مع بوشكين قبل فترة وجيزة. شعر وهو يجلس في غرفة المكتبة الصغيرة تلك بأنه يقترب من نجم وأنه يرى نور ذلك النجم بالفعل. لاشك بأنهما تحدثا عن بوشكين – بوشكين المحيّر والذي نفاه القيصر ألكسندر الأول إلى منطقة سكن عائلته لأنه كتب عدة أبيات اعتبرها تحريضية. وما لبث أن نال الحظوة من جديد لدى «نيقولاس الأول» ولكنه احتقر الحياة في العاصمة ولم يرغب إلا في الذهاب إلى موسكو. بوشكين الذي نشر روائع فنية الواحدة إثر الأخرى مثل «بولتافا»، «النشيد السابع» من قصيدته المطولة «يوجين إينوجين»، و «بوريس جودونوف»، بوشكين الذي يعمل فيما يبدو وكأنه «ملاك» من مكان بعيد في الريف في مزرعة «بولدينو»، بوشكين الذي يفكر الآن بالزواج من إحدى جميلات موسكو بعد أن لاحق العديد العديد من النساء. أما ديلفج فقد مسّ قلبه هيام هذا الشاب ذو الأنف الطويل ببوشكين خاصة وبالأدب عامة.

لاشك بأن هذا الزائر يستحق أكثر من وظيفة مكتبية غامضة في مديرية أملاك القاصرين. وفي سانت بطرسبرج في الواقع شاعر آخر صديق لبوشكين، عرّاب لجميع الأدباء الشبان المعدمين: إنه «فاسيلي أندريفتش جوكوفسكي».

بمجرد سماع اسمه رقص قلب جوجول طرباً. فلقد كان منذ أيام المدرسة يعتبر جوكوفسكي قدوته الثانية، لا يتفوق عليه أحد سوى بوشكين. وهاهو أنطون ديلفج يعرض عليه أن يقدمه له. كان جوكوفسكي شخصية مشهورة مكرسة لغرض نبيل، وهو المدرس الخاص للوريث الشرعي لالكسندر نيقولايوفيتش ويتمتع باحترام لدى الملك. وهو يعيش في قصر «شيبلفسكي» ويتلقى راتباً سنوياً قدره خمسة وعشرون ألف روبل. توجه أنطون ديلفج إلى هناك يرافقه زميله الشاب. وهناك، وفي حضرة صاحب النشيد الرومانتيكي «سفيتلانا» شعر جوجول بأنه أقل شأناً وأكثر عرضة للانتقاد من أي وقت مضى.

وجد جوكوفسكي ذا وجه شاحب وعينين سوداوين مائلتين وسحنة شرقية وابتسامة تنم عن التسامح. ولمئات المرات كان بوشكين قد هرع إليه، كما فعل آخرون، لتهدئة غضب القيصر أو لانتزاع تساهل من قبل الرقيب. رحب بضيفيه بحرارة، وبدا أنه مهتم بمصير زميله الشاب، ووعد بأن يوصي به لدى «بيوتر الكسندروفيتش بليتنييف» - وهو أيضاً صديق لبوشكين - ويمكن لهذا، كما قال، أن يعثر له على عمل ذي مستقبل أفضل.

ولقد كتب له جوجول بعد سنوات يقول وهو يتذكر اجتماعه الأول بجوكوفسكي: «عندما أتيت لرؤيتك حين كنت ما أزال على أعتاب الشباب كنت أنت قد أنجزت نصف إنجازاتك. كان ذلك في قصر شيبلفسكي. وعلى الرغم من أن الغرفة التي التقينا فيها لم تعد موجودة إلا أنني أذكرها بكل ما فيها من أثاث، وديكورات وكأنني مازلت هناك. مددت يدك لي وأعلنت أنك ترغب بمد يد المساعدة لمن سيحاكيك في المستقبل. كم كان تعبيرك ودوداً ينم عن الكرم! ما الذي وحّدنا على الرغم من الفارق بين عمرينا؟ إنه الفن... منذ يوم لقائنا الأول أصبح الفن بالنسبة إلي العنصر الضروري والأهم في حياتي، وكل ما عداه يظل ثانوياً، وبدا أن عليّ ألا أدخل في أي علاقة أخرى على وجه الأرض، سواء أكانت ذات طبيعة عائلية أو كمواطن. فالأدب خدمة في حد ذاته».

كان جوكوفسكي عند وعده حيث قدم جوجول لبلتنييف الذي كان في ذلك الوقت مفتش المعهد الوطني لشابات الطبقة الأرستقراطية. كان هذا أيضاً شاعراً وناقداً وأستاذاً للأدب، ولكنه كان قبل كل شيء وفياً لأصدقائه ولايستطيع أن يرفض لجوكوفسكي أي طلب، كما أن جوجول هذا ليس خلواً من المؤهلات المطلوبة. فقد نشر لتوه مقالاً عن تدريس الجغرافيا ولذا فإن لديه المقدرة على التدريس. سيجدون له عملاً كمدرس خصوصي وسيحاولون تأمين وظيفة له في المعهد - ولم لا؟ ولكن كل تلك الآمال الوردية ذهبت أدراج الرياح بسبب موت ديلفج المفاجئ في ٤ كانون الثاني/ يناير (١٨٣١) لإصابته بالإنفلونزا. غير أن جوكوفسكي وبليتنييف لم يخذلا من تبنيا رعايته. وبناءً على نصيحتهما نشر في المجلة الأدبية «ليتراري جازيت» مقالاً مليئاً بالحماسة لكتاب بوشكين «بوريس جودونوف» حيث يقول: «ذروة! عندما أقلّب صفحات ماأنتجته عبقريتك، وعندما تقفز وتثب أبياتك أمامي في نغمات موسيقية نارية فإن رعباً مقدساً يجري في عروقي وترتعش روحي خوفاً لأنها اكتشفت الله في أعمق أعماق الخلود».

لابدّ أن بوشكين ابتسم عندما قرأ هذا الهراء الطنان الذي تملؤه علامات التعجب. ولكن جوجول كان صادقاً وإن بالغ فيما يقول.

في ٦ شباط/ فبراير (١٨٣١) كتبت مديرة المعهد الوطني تقريراً موجهاً إلى السلطات تعلمها فيه أن شخصاً اسمه جوجول، وهو موظف في مديرية أملاك القاصرين قد وافق على تدريس مادة التاريخ للصفوف الدنيا لقاء راتب سنوي هو أربعمائة روبل، وأضافت تقول: «بناءً على تزكية المفتش بلتنييف نفسه لهذا الموظف وضمانه لكفاءته وولائه، فقد ترون سيادتكم أن تطلبوا من السلطات العليا الموافقة على اختيار السيد جوجول كأستاذ للتاريخ في المعهد». بعد ثلاثة أيام، أي في ٩ شباط/ فبراير وقعت الإمبراطورة، باعتبارها راعية المعهد، على هذا التعيين، وفي ١٠ شباط كان جوجول يكتب رسالة تعبر عن الانتصار لوالدته... وقد بالغ، شأنه دائماً، في الحديث عن العقبات التي

تغلب عليها والانتصارات التي يتوقعها. فالنكسات التي يواجهها هو والعديد من الكتّاب في بدايات عملهم الادبي إنما تشكل في نظره نوعاً من الاستشهاد الفريد من نوعه في تاريخ العالم. وبالمقابل فإن أقل كلمة تشجيع قد تغشي بصره مثل شعاع من ضوء الشمس يخترق السحب.

لم يكن يفكر في هذا المجال إلا بلغة الكوارث والانتصارات حيث يقول:

«كم أنا مدين لليد المقدسة، للإخفاقات والمتاعب التي تعرضت لها! لست مستعداً لمقايضة هذه الإخفاقات بأثمن كنوز العالم. الكثيرون من الناس لم يكابدوا في حياتهم بطولها ما تعرضت له حتى الآن. وبالمقابل، فأي سلام داخلي يغمر قلبي الآن! وأي قوة وأي شجاعة في روحي! ماتزال تغمرني الرغبة ذاتها: وهي أن أكون مفيداً. وما يسعدني غاية السعادة هو أنني لست من يسعى بعد لاكتساب معارف جدد، بل الآخرون هم الذين يسعون للقائي».

بدأ جوجول عمله في المعهد الوطني في ١٠ آذار/ مارس (١٨٣١) وتم تثبيته في الأول من نيسان/ إبريل. كما تم ترفيعه من الدرجة الرابعة عشرة إلى التاسعة، وعلى هذا الأساس، وفي غضون أسبوع واحد وصل إلى موقع «مستشار تعليمي». دار رأسه، وتراءى لذهنه المستعد دائماً للتوسع في تفسير الحقائق أن من وضعه في ذلك الموقع لم يعد بلتنييف بعد بل الإمبراطورة نفسها هي التي اختارته هو بالذات لهذه الترقية. وكتب لأمه ثانية يقول «كنت أعاني من البواسير وظننت، لغبائي، بأنني أعاني من مرض آخر أكثر خطورة. ولكنني علمت فيما بعد أنه لا يوجد شخص في سانت بطرسبرج إلا ويعاني من هذه الحالة المزعجة. نصحني الأطباء بالراحة قدر إمكاني وهذا ما دفعني لترك منصب طالما اعتبرته قليل الأهمية، وإن كان شخص آخر سيرضى به كل الرضا. طريقي باتجاه آخر وهو طريق مستقيم وها أنا أتحول إليه مصمماً على المضيّ فيه بخطى ثابتة. لو أنني لم أتوظف مع ذلك لربما ما كان لي أن أصبح «معروفاً». لقد أمرتني جلالة الإمبراطورة بالتدريس في معهد الشابات الذي يعمل تحت رعايتها، وعلى هذا وبدلاً من أن أحتجز في مكتب لاثنتين وأربعين ساعة في الأسبوع فإنني سأدرس

لست ساعات فقط وسأجني مبلغاً أكبر من المال. وإلى جانب ذلك فإنني أقوم بجهد في وسط الصمت بغرفتي المعزولة من شأنه أن يحقق لي من الشهرة أكثر مما يحققه عملي الآخر. لديّ في الوقت الحاضر ما يكفيني من الوقت كي أكرّسه لهذا الغرض. إنني أعمل بجد أشد من أي وقت مضى، وأنا سعيد أكثر من أي وقت مضى أيضاً....».

كان من شأنه أن يحظى بشعور أكبر بالظفر لو أنه قرأ رسالة كتبها بليتنييف إلى بوشكين قبل أسابيع قليلة (في ٢٢ شباط/ فبراير (١٨٣١) حيث يقول:

«أود أن أعرّفك على شاب يبشر بالكثير. ربما يكون قد لفت انتباهك مقطع من مقال في دورية «زهور الشمال» من رواية تاريخية موقعة بـ (....)، وفي «ليتراري جازيت» بعنوان: «أفكار حول تدريس الجغرافيا»، وآخر تحت عنوان «امرأة»، وفصل من قصة أوكرانية قصيرة بعنوان «السيد». كاتب هذه المواد هو جوجول - يانوفسكي. بدأ بعمل في الحكومة، ولكن حبه للثقافة أتى به إلى صفوفنا. إنه يعمل مدرساً وجوكوفسكي مبتهج به، وأنا بدوري أتحرق لإحضاره كي ينال مباركتك. إنه محب للمعرفة في حد ذاتها، وهو مستعد للمعاناة من العوز بمختلف أشكاله. وهذا ما يثير مشاعري ودهشتي».

أخذ مدرس التاريخ الجديد في المعهد الوطني عمله الجديد مأخذ الجد الكلي بالفعل في البداية، ولكنه ما لبث أن سئم ترديد المبادئ الأولية في التاريخ لجمهور من فتيات صغيرات يرتدين مرايل بنية اللون. كان يفزع من إلقاء الدروس وينتظر الفسحات بفارغ الصبر شأنه في ذلك شأن طالباته. وبهدف توفير مصدر مكمّل لدخله عثر له بليتنييف على عمل كمدرس خصوصي لعدة عائلات مرموقة مثل عائلة «بالابين» و«لونجينوف» و«فاسيلشيكوف». أغرم أبناء هؤلاء بهذا المدرس الغريب ذي الشكل الذي تشبه سيماه الجانبية (البروفيل) شكل الطير. يتذكره الفتى من عائلة لونجينوف (ميخائيل نيكولايفتش) كرجل نحيل ضئيل الحجم، ذي أنف منحرف وساقين مقوستين، تعلو رأسه خصلة شعر كأنها العرف، وطراز تسريحة أبعد ما تكون عن الأناقة وطريقة متشنجة

في الكلام يقطّعها بنشقات قصيرة في أنفه مع تقلصات لا إرادية في وجهه. . . كان يرتدي ملابس لافتة للنظر بربطة عنق ترفع ذقنه. وكان تلامذته ينفرون من اسمه المزدوج ويريدون أن ينادوه باسم يانوفسكي ولكنه لم يكن يسمح بذلك. وينقل لونجينوف في كتابه «ما أتذكره عن جوجول» عنه قوله: «لماذا تنادونني باسم يانوفسكي». اسم عائلتي هو جوجول «ويانوفسكي ماهو إلا اسم ملحق ألصقه البولنديون باسم عائلتنا».

يدرس طلبته معلومات متناثرة في اللغة الروسية، والعلوم الطبيعية، والتاريخ والجغرافيا معتمداً على ما يتذكره من معلومات من أيام دراسته في مدرسة نيبجن. ولكنه كان يمضي معظم الوقت وهو يروي حكايات أوكرانية تجعل طلابه يقهقهون بالضحك. وعندما يعود إلى شقته يتابع رواية هذه الحكايات مستخدماً قلمه. أصبح واثقاً الآن بأنه يسير في المسار الصحيح، وقد استخرج من «الكراس الجامع» نصف دزينة من القصص القصيرة الساخرة. تساءل: ماالعنوان الذي سيختاره لهذه المجموعة؟ «حكايات روسية صغيرة» أم «أمسيات في مزرعة؟ وهل ينشرها وهي تحمل اسمه الحقيقي؟ نصحه بليتنييف بأن يستخدم اسماً مستعاراً حماية لكرامته المهنية». اختار اسم «روبي بانكو» (Ruby Panko) مربي النحل». غير أن الطبّاعين كانوا في مكان بعيد وكل صفحة من المخطوطة تحتاج، في رأيه، إلى المراجعة والتعديل وإعادة الكتابة بشكل كلي. وعندما كان يعتبر قسماً ما جاهزاً يتولى ياكيم حمله إلى الطابع.

حطّت على سانت بطرسبرج موجة حرفي شهر أيار/ مايو وأخذت السحب الكثيفة تسبح عبر السماء، وأخذ سكان المدينة المرفهون يتوقون للانتقال إلى فللهم المدفونة وسط الخضرة في «تزارسكويي سيلو» أو «بافلوفسك» أو «كراسنويي سيلو» أو «جاشينا»، وكلها تقع على مقربة من العاصمة. وفجأة وصل خبر أثار ما يشبه الصدمة الكهربائية، وهو أن بوشكين وعروسه الشابة قد وصلا إلى المدينة وأنهما يقيمان في فندق «ديموث»، وسيغادران في غضون أيام متوجهين إلى تزارسكويي سيلو حيث كانا قد استأجرا بيت كيتاييف. لابدّ لجوجول من

رؤيتهما قبل أن يغادرا. وفي إحدى الليالي أواخر شهر أيار/ مايو أقام بلتنييف حفل استقبال للشاعر في بيته. روح الحفلة كانت صديقة مشتركة هي «اليكساندرا أوسيبوفنا روسيت» والتي استلطفت جوجول أيضاً. والكساندرا هذه شابة صغيرة في الثانية والعشرين من عمرها، ابنة مهاجر فرنسي، سوداء الشعر، مهذبة، جميلة وذكية إلى درجة استثنائية، وهي وصيفة للإمبراطورة. كانت مغرمة بالفن والسياسة، حادة العينين، طليقة اللسان تشعل نار الرجال، كبيرهم وصغيرهم. بعض أفضل المفكرين المعاصرين في روسيا من دائرة أصدقائها المقربين وهي تستخدم نفوذها في البلاط لمصلحتهم. أطلق عليها جوكوفسكي لقب «العفريتة السماوية» وكان يتم الهمس بأن الدوق الأكبر ميخائيل بافلوفديش والإمبراطور نيقولاس الأول نفسيهما لا يتجاهلان سحرها. ظهرت في تلك الليلة بكل حسنها وفتنتها، غير أن جوجول لم يكن يكاد يراها، بل لم يلحظ حتى تلك الشابة الفتية، الجميلة، الكسلى، ناتاليا نيقولاييفنا بوشكين، إذ إن عينيه كانتا معلقتين برجل ضئيل الحجم، أسمر البشرة، غليظ الشفتين، له عينان هائلتان تلمعان ذكاءً، وتؤطر خديه من جانبيهما لحية كستنائية ويرتدي معطف سهرة وربطة عنق عريضة ينسدل طرفاها على صدر قميصه الأبيض. كان يحمل كأساً في يده، اليد التي كتبت «يوجين إينوجين».

قدم بلتنييف الرجلين لبعضهما، وكان بوشكين ودوداً منذ البداية. كتبت اليكساندرا روزيت فيما بعد في مذكراتها تقول: «ما أعذب بوشكين. لقد روّض على الفور ذلك الأوكراني العنيد حيث لاحظت بأنه كان يتوهج كلما تحدث إليه بوشكين». غير أن الفرصة لم تتح للرجلين كي يبوحا بما في نفسيهما لبعضهما البعض في حفلة الاستقبال الصاخبة تلك. مجرد كلمات تقليدية مؤدبة قليلة، ودعوة غامضة للقاء ثانية، وابتسامة ومصافحة. ولكن جوجول عاد إلى بيته منتشياً. هاهو يدخل جنة عدن الأدب في النهاية، فرجال من قامة جوكوفسكي وبوشكين يعاملونه كصديق. فكيف سيكون عليه الحال بعد أن ينشر «أمسيات في مزرعة؟».

جاء فصل الصيف وأخذ الناس يغادرون سانت بطرسبرج، وحدثت حالات إصابة بالكوليرا. غير أنها كانت قليلة ولم تحدث وفيات عديدة سوى في المناطق الفقيرة، وأخذت مجموعات من النساء والرجال رثي الثياب يتجمعون هنا وهناك يصبون شتائمهم على الأطباء والصيادلة الذين يسممون الناس. أخذت دوريات الشرطة تجوب شوارع المدينة وتم اعتقال عدد قليل من الأشخاص الأكثر فظاظة من باب التحذير. ولم يعد هناك ما يمكن شراؤه في الأسواق إذ أصبحت كل الأطعمة موضع شك وأخذ الأطباء المرهقون ينصحون الناس بشرب الحليب الساخن، أو بياض البيض المخفوق مع الزيت، أو الماء المالح وأن يحترسوا من المرض كما يقول جوجول في رسالة لوالدته في ٢٤ تموز/ يوليو (١٨٣١). كان البلاط قد انتقل إلى تزارسكوبي سيلو، وصدر الأمر بضرب طوق حول سانت بطرسبرج لمنع مغادرتها أو الدخول إليها. وكان أصدقاء جوجول قد وجدوا له عملاً لحسن الحظ في بافلوفسك كمدرس لدى عائلة الأميرة فاسيلشيكوف. أسرع بالذهاب إلى هناك في الوقت الذي تحولت فيه العاصمة إلى معسكر محصّن.

بافلوفسك هي إحدى الأماكن المفضلة للطبقة العليا في سانت بطرسبرج، وهي لا تبتعد إلا مسافة فرسخين عن المقر الإمبراطوري في تزارسكوبي سيلو حيث يقيم كل من بوشكين وجوكوفسكي وأليكساندرا روسيت. كان بيت الأميرة فاسيلشيكوف يعج بالخدم والضيوف والأشخاص الطفيليين. هناك على وجه الخصوص مجموعة من النساء العجائز ضئيلات الحجم ممن كنّ يعشن، ولسنوات، في ظل محسنتهن حيث يسكن ويأكلن ولا يقمن بأي عمل، إذ إن عظمة أية عائلة إنما كانت تقاس على أية حال بعدد الطفيليين الذين تعيلهم تلك العائلة.

يجاهد جوجول كل صباح محاولاً تعليم القراءة لابن الأميرة - صبي متخلف طويل الساقين له عينان مستديرتان. يجلس الطفل على ركبتيه ويشير إلى صور في كتاب وهو يقول: «هذا خروف يا فاسينكا... باع...

وهذا كلب – عو . . . عو . . . » وكان فاسينكا يردد تلك العبارات معكوسة، ومن ثم يبدأ جوجول من جديد (كما تقول الأميرة فاسيلشيكوف في مذكراتها). وما إن ينتهي من الدرس حتى يسرع للعمل على مخطوطته.

كان يذهب في بعض الأحيان لزيارة المرأة الطفيلية المفضلة لدى الأميرة، العجوز اليكساندرا ستيبانوفنا التي تحيط بها صديقاتها وهن يحبكن الجوارب الصوفية في غرفة منخفضة السقف يتكون أثاثها من أريكة طويلة وعدة أرائك صغيرة وطاولة مستديرة يغطيها غطاء من القماش القطني الأحمر، ومصباح كبير تظلله ظلة خضراء. كن يدعين جوجول للجلوس معهن ليقرأ لهنّ ما كتب. وفي إحدى الأمسيات، وبينما كان يستقر في مكانه قبالة جمهوره دخل عليهم ابن أخت الأميرة، الدوق سولوجوب متسائلاً فيما إن كان يسمح له بالاستماع. كان يرتدي بزة طلبة جامعة «دوربات» ويعتبر نفسه ناظماً للشعر وكان يتخذ سيماء الفوقية التي تصطنع المعرفة بالناس.

كتب هذا في مذكراته يقول: «استرخيت في مقعدي وأخذت أستمع، وبدأت العجائز يحركن صنانيرهن من جديد. ما إن بدأ القارئ أولى كلماته حتى انتصبت كالسهم وكلّي آذان صاغية وقد غلبتني الدهشة والعجب. . . » كان يقرأ وصفاً لليلة أوكرانية: «هل تعرفون الليلة الأوكرانية؟ آه، لا تعرفون الليلة الأوكرانية! كان يعطي لوناً واضحاً لنصه وهو يقرؤه بطريقته التلقائية في الكلام وبمضامين النص الهازئة غير القابلة للوصف والتي لا تستطيع إدراكها تماماً إلا من خلال ارتعاشة صوته، سخرية تظلل ملامحه الأصيلة المتيقظة على الدوام. عيناه الرماديتان تبتسمان وهو يهز رأسه قاذفاً إلى الوراء شعره الذي ينزل على جبينه. وما يلبث أن يهتف فجأة: «ولكن ليست هذه هي الطريقة التي تتم بها رقصة الهوباك!» وهنا أعلنت العجائز الطفيليات دونما تفكير: «ماذا تعني بقولك ليست هذه هي الطريقة، وظنهنّ أن جوجول إنما يخاطبهن. ابتسم هو وتابع مونولوج الفلاح الثمل. أعترف بأنني ذهلت وشدهت عندما انتهى من قراءته. وعند ذلك ارتميت على كتفه وبكيت. هذا الشاب هو نيقولاي فاسيليفتش جوجول».

قرأ جوجول أيضاً مقاطع من أقاصيصه في بيت أليكساندرا روسيت وحقق نجاحاً مماثلاً. وقد كتبت هي في مذكراتها تقول: «وجدته غير لبق، خجول وحزين». أما هو فكان مأخوذاً بحسن وعذوبة وعفوية تلك الشابة. لم تكن، في رأيه، من النمط الذي يبعث على الإزعاج أو الخوف شأن الأخريات من بنات جنسها، وهو يشعر بأنه قادر على التخلص بعض الشيء، من التوتر العصبي في حضرتها. بل كان بإمكانه أن يتفهم كيف يمكن لآخرين أن يقعوا في حبها، ليس جسدياً بالتأكيد فهو أمر يبعث على الاشمئزاز، بل بالقلب والعقل في آن واحد. وهي إلى جانب ذلك ستتزوج في وقت قريب من دبلوماسي شاب اسمه «سميرنوف». كان هذا غنياً ولكن مستوى ذكائه دون المتوسط بحيث أن بوشكين يعتقد أن ذلك الزواج غبي، وكان هو نفسه يكنّ في الغالب مشاعر رقيقة إزاء وصيفة الإمبراطورة هذه.

كثيراً ما كان جوجول يتمشى في طرقات بافلوفسك حتى تزارسكويي سيلو. كانت الحديقة التي تحيط بالقصر الإمبراطوري تثير أحلام اليقظة لديه بخضرتها الكثيفة ومروجها الخضراء المخملية، والتماثيل المرمرية، والبحيرة، وطيور البجع، والجسور، والآثار الاصطناعية والبيت الريفي الضخم المزخرف بتزيينات الروكوكو. غير أن هذا الجمال التقليدي المدهش لم يكن يغري عينيه، بل كان يبحث عن أمر وحيد وهو يدور حول كل زاوية، إنه يبحث عن رجل ضئيل الحجم يتسلح بعصا ويرتدي قبعة طويلة ويمشي بخطى نشيطة واسعة.

ما إن رأى بوشكين حتى أدرك جوجول بأنه لم يبدد يومه سدى. وما لبثت أن نمت صداقة منفتحة بين الرجلين. كان جوكوفسكي ينضم إليهما في بعض الأحيان حيث يتحدثون عن عملهم ومخططاتهم. وقد كتبت أليكساندرا روسيت في مذكراتها تقول: «يشعر جوكوفسكي بالظفر بعد أن أسر ذلك الأوكراني العنيد. ولقد وعدت بوشكين بتأنيب هذا الجوجول المسكين إن هو انغمس في الحزن في «باليميرا الشمال» حيث تبدو الشمس شاحبة دائماً. قال بوشكين بأن صيف الشمال إنما هو تكرار كاريكاتوري لشتاء الجنوب.

ظلاّ يسخران بشدة من خجل جوجول وغرابة أطواره إلى أن أمكن تحريره من ارتباكه» .

كان جوجول فخوراً بصداقته الجديدة مع بوشكين بحيث أنه أراد أن يبلغ أصدقاءه جميعاً بهذه الصداقة . غير أنهم ربما يظنون بأنه يتبجح . ولذا فكر بخطة معينة . فبحكم ميله المعروف لأكثر الأمور تعقيداً قال لبوشكين بأنه ليس لديه عنوان ثابت في سانت بطرسبرج ، وتساءل فيما إن كان من الممكن أن يرسل بريده إلى بيت الشاعر . دهش بوشكين لهذا الطلب بعض الشيء ولكنه وافق على ذلك ، وبذا تمكن جوجول من إبلاغ أمه (في ٢١ تموز/ يوليو ١٨٣١) بطريقة حاول أن يسبغ عليها طابعاً عرضياً ، حيث كتب لها ملاحظة ملحقة برسالة – لا يشير فيها إلى علاقته ببوشكين – بأنه يمكنها إرسال رسائلها إليه على عنوان بوشكين في تزارسكويي سيلو . وهو يقول لها بأن عليها ألا تنسى أن تكتب على المظروف: إلى صاحب النبالة الكسندر سيرجييفتش بوشكين ومن فضله إلى السيد «ن . في . جوجول» . كرر توجيهاته بعد ثلاثة أيام قائلاً: «هل أنت متأكدة بأنك لم تنسي العنوان؟ بواسطة بوشكين في تزارسكويي سيلو» .

غادر بافلوفسك آسفاً إلى بطرسبرج حيث تنتظره بروفات المجلد الأول من كتابه «أمسيات في مزرعة» والذي كان قد أودعه لدى مطبعة في شارع «بولشايا مورسكا» وذلك بناءً على نصيحة بلتنييف . ليت صديقه الجديد بوشكين كان إلى جانبه . وبهدف إشراكه في فرحته كتب لتزارسكويي سيلو في (٢١ آب/ أغسطس ١٨٣١) يقول:

أغرب شيء كان زيارتي للمطبعة . فما إن فتحت الباب ورأتني منضدات الحروف المطبعية حتى بدأن يضحكن ضحكات نصف مكبوتة وهن يلتفتن ناحية الجدار . فاجأني ذلك واستفسرت عن السبب من منسق الصفحات ، وبعد محاولته تجنب الإجابة قال في النهاية: «القصص مضحكة جداً وقد اعتبرنها مسلّية . استنتجت من ذلك بأنني ، كمؤلف ، ألبّي ذوق عامة الناس» .

قد تكون قصة المنضدات صحيحة، وقد يكون جوجول قد اخترعها كتمهيد لدخول عالم الأدب. ربما فاجأته ابتسامة عندما دخل المطبعة، واكتملت تلك القصة في رأسه، على الفور. وختم رسالته بالتعبير عن تمنياته بالسعادة للسيدة بوشكين التي سمّاها في الرسالة: «ناديجدا نيقولايفنا». وقد أجابه بوشكين بالقول: «ناديجدا نيقولايفنا بالنسبة إليك، أو ناتانيا نيقولايفنا بالنسبة إلي تشكرك لتمنياتك الحارة. أهنئك على انتصارك الأول: أي ضحكات المنضدات المعبرة عن الاندهاش وتفسير منسق الصفحات لهذه الضحكات».

كانت سانت بطرسبرج نصف فارغة تقريباً، ولكن وباء الكوليرا كان قد خمد. جاء فصل الخريف مبكراً يحمل المطر ويأتي بالريح، بل وجرى حديث عن فيضان إذ اختفت شوارع وممرات منطقة ميشانسكي تحت طبقة ضحلة من الماء، وظل المطر يهطل.

وكما هو معروف فإن الطقس السيئ إنما يحرض على القراءة. ولذا فإن شروط إطلاق «أمسيات في مزرعة» غدت شروطاً مثالية. وما أن اكتملت لديه «بروفات» المخطوطة حتى أرسلها إلى بوشكين لإبداء رأيه بها. قرأها الشاعر بجلسة واحدة وانفجر بعد ذلك حماساً.

كتب بوشكين لفويكوف رئيس تحرير الملحق الثقافي لصحيفة «المحارب الروسي القديم» يقول: «قرأت لتوي «أمسيات في مزرعة» وأجدها مذهلة. فيها بهجة وصدق وعفوية حقيقية. ليس فيها اصطناع أو تحايل. أي شعر أيضاً في بعض مقاطعها، أي إحساس! كل هذا جديد في أدبنا بحيث أكاد لاأصدق عينيْ. وقد قيل لي بأنه حين ذهب الكاتب إلى المطبعة التي كانت تطبع الأمسيات انفجرت المنضدات ضاحكات بوجوده. وقد شرح منسق الصفحات موقفهن قائلاً: لقد انفجرن من الضحك وهن ينضدن النص، ولا شك بأنه كان يسعد موليير وفيلدنج لو أنهما استطاعا تسلية منضدي نصوصهما بنفس الدرجة. إنني أهنىء جمهور القراء على صدور كتاب مبهج بلا ريب، وأرجو من كل قلبي المزيد من النجاح للكاتب، ولكنني أتوسل إليك أن تدافع عنه إذا انتقده الصحفيون، شأنهم

دائماً، لما قد يصفونه بعدم لياقة تعابيره وافتقاره للذوق ومإلى ذلك من التعابير. لقد حان الوقت للهازئين بالأدب الروسي أن ينالوا القصاص الذي يستحقون».

في مطلع أيلول/ سبتمبر (١٨٣١) أصبحت سانت بطرسبرج مدينة حيوية أنيقة من جديد، وخرج الكتاب من المطبعة وكان عنوانه الكامل هو «أمسيات في مزرعة قرب ديكانكا». أقاصيص ينشرها «رودي بانكو[١]» «مربّي النحل». وقد تجول جوجول على المكتبات للتفاوض معهم على العمولة التي يمكن لهم تلقيها لقاء كل نسخة تباع، ووقع على النسخ المخصصة للصحافة، ثم أخذ ينتظر. الأصداء الأولى كانت مليئة بالمديح بحيث أنه كتب على النسخة التي أهداها لأمه في (١٩ أيلول/ سبتمبر ١٨٣١):

«هذه هي ثمرة أوقات فراغي. الجميع هنا أحبوا الكتاب ابتداءً من الإمبراطورة، وآمل أن يسرك أنت أيضاً، وهذا وحده من شأنه أن يسعدني. اعتني بنفسك وابقي مبتهجة وكأن كل يوم من حياتك هو يوم عطلة...».

تابع بعد ذلك راجياً أخته ماريا بأن ترسل إليه المزيد من المواد للمجلد الثاني للأمسيات حيث يقول لها:

«تذكرين يا أختي العزيزة مدى سعادتك عندما بدأت بتجميع الأقاصيص وأغاني العامة من أجلي! ولكنك لم تستمري في ذلك مع الأسف. هل يمكنك أن تبدئي من جديد فأنا أحتاج لذلك حاجة ماسة».

اهتمامه بالتفاصيل دفعه إلى الطلب من ماريا بأن تشتري له ملابس أو كرانية قديمة من الريف: «أتذكر بوضوح بأننا رأينا في كنيستنا فتاة ترتدي رداءً من طراز قديم. إنني واثق بأنه سيسرها أن تبيعه. إذا وجدت قبعة أو أية ملابس غير مألوفة كانت تستخدم منذ فترة بعيدة في كوخ فلاح اشتريها حتى لو كانت مهترئة. ضعيها في حقيبة أو صندوق وأرسليها إلي في أقرب فرصة تحين لك».

(١) الاسم المستعار الذي وقع به جوجول هذا العمل.

أصبح واثقاً الآن بأنه عثر على مهنته، ولم يعد هناك ما يقلقه بالنسبة إلى مستقبله. فالشهرة تأتي بالثروة، فلماذا تبقى أمه قلقة عليه؟ لن يطلب منها أية نقود بعد في وقت قريب، بل سيأتي دوره ليمدّها هو بالمال. وكتعبير عن نواياه أرسل إليها حقيبة نسائية وقفازات، وكذلك سواراً و«إبزيم» حزام لماريا. وقد سأل في رسالة في (١٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٣١) عن الألوان التي تلائمهما أكثر من غيرها، وعن مقاس أحذيتهما قائلاً: «أحتاج لمعرفة ذلك لعل وعسى يتجمع لدي بعض المال». وفي رسالة في (٣٠ تشرين الأول/أكتوبر) يقول لها: «لقد أرسل الله أندريه أندرييفتش تروشنسكي لكي يساعدك، وقد يختارني الله لهذا الامتياز في العام القادم. ولذا فعلينا أن نبتهج ونحافظ على حيويتنا، وأن نعمل ونستمتع بحياتنا قدر ما نستطيع ونحن نعمل».

وصل المجلد الثاني من «أمسيات في مزرعة» إلى المكتبات في (شهر آذار/مارس ١٨٣٢)، وقد عزز ذلك من شهرة الكاتب. وكتب حينذاك إلى صديقه دانييلفسكي في القوقاز يقول: «فليأخذني الشيطان إن لم أكن في السماء السابعة».

انقسم النقاد في آرائهم حول العمل، فبيلنسكي الشاب الذي لم يكن لديه أي ركن مخصص له في الصحافة أعلن عن إعجابه الشديد حيث يقول في صحيفة «الأحلام الأدبية» «أي ظرف، أي مرح، أي شعر، أي إحساس بالناس». أما «ناديجدين» فقد كتب في «التلسكوب» يقول: لم ينجح أحد حتى الآن في تصوير العادات في أوكرانيا بالأسلوب الحيوي الآسر الذي يضاهي مافعله «مربي النحل رودي بانكو». ولكن النقاد الثلاثة الأهم لم يكونوا راضين. ففي صحيفة تلجراف خاطبه «بوليفوي» الذي يدافع عن رومانتيكية «فيكتور هوغو» وولتر سكوت حيث يقول: «قصصك جميعاً مفككة بحيث أنه، باستثناء التفاصيل اللذيذة التي تنبع بوضوح من التقاليد الشعبية، باستثناء هذه التفاصيل فإنه من الصعب على القارئ أن يتابع قراءتها حتى النهاية. فرغبتك بفرض نبرة أوكرانية على كتاباتك أثقلت لسانك بحيث يصعب على القارئ أحياناً إدراك

معنى ما تقول». أما يوشاكوف فقد اشتكى في «النحلة الشمالية» بأن وصف جوجول كان يفتقر إلى الدقة والأصالة والمدى. وفي دورية «مكتبة القراءة» ادعى سينكوفسكي بأن المجلدين كليهما يتسمان بالرتابة، واللغة غير لائقة، بل وغير مصقولة، «وأن هذا النوع من الأدب مصمم لجمهور من مستوى أدنى حتى من مستوى أدب بول دي كوك[1]».

غير أن بوشكين كان قد حذر زميله الشاب بأن هذه القصص العذبة ستصدم بعض أعضاء المجتمع الأكثر تهذيباً. وأضاف أنه كان قد قال له إن على القاص الحقيقي أن ينصت لأصوات أولئك الذين يحبّون قراءة القصص وليس أولئك الذين يحترفون تشريحها. وهكذا فإن جوجول الذي كان قد عاني معاناة شديدة من النقاد بعد نشره القصة الشعرية «هانز كويشيلجارتن» تقبّل الملاحظات الساخرة والوخزات في الصحافة بابتسامة هادئة ساخرة. أعداؤه الأدبيون كانوا، وكأنما من باب الصدفة هم أنفسهم الذين دأبوا على شتم بوشكين. ولكن الازدراء الذي يأتي من المستنقع قد يكون أثمن من المديح. وبينما هو ينتقل من مكتبة إلى مكتبة كان يفكر بذلك الوقت الذي لم يمضِ عليه وقت طويل عندما كان يكتئب عندما يفكر بالصفحات غير المباعة لقصيدته التي تنام فوق الرفوف. فأي تبدل حدث في حياته منذ ذلك الحين! كان أصحاب المكتبات يستقبلونه هذه المرة بابتسامات واسعة وأخذ يرى رزم «الأمسيات» وهي تتضاءل يوماً بعد يوم. نفدت الطبعة الأولى والتي تكونت من ألف ومئتي نسخة في غضون أسابيع قليلة. ومع ذلك ظل يشعر بأن عمله ما يزال بعيداً عن الكمال وان عليه أن يطمح لمستويات أعلى لكي يرضي الله.

□ □ □

(١) روائي ومسرحي فرنسي (١٧٩٣-١٨٧١).

٥ ـ أمسيات في مزرعة قرب ديكانكا

حين عاد جوجول ليتساءل ما الذي دفعه لتأليف كتاب وجد نفسه مجبراً على الاعتراف بأن دافعه كان هو الحاجة إلى المال بشكل رئيسي، وأنه رأى في الكتابة وسيلة لدعم دخله. الأمر ذاته هو ما حثه على اختيار الموضوع والشكل: فبما أن الأدب المحلي الأوكراني كان رائجاً في تلك الفترة، وما دام هو قادراً، بواسطة عائلته، على الحصول على مجموعة المعلومات والتقاليد التي لم تنشر من قبل فإن هذا هو المنجم الذي يتوجب عليه أن ينقب فيه هو بالذات دون سواه. غير أنه، في هذه اللحظة التي بدأ فيها يكتب «أمسيات في مزرعة» فقد جرفت حماسة الفنان لديه الحسابات الباردة لرجل الأعمال. كان يتخيل بأنه سيشق طريقه بصعوبة بالغة في مهمة قد تكون مملة. ولكن تبين له أن الجانب الأفضل من نهاره هو تلك الساعات التي يقضيها مع شخصياته الخيالية. فوسط حياته وحيداً في سانت بطرسبرج الباردة الكئيبة كان يسترسل في إعادة خلق أرض أوكرانيا الغنية التي تستحم بأشعة الشمس، وتصوير الفلاحين الكسالى – أي عالم كامل من الصحة الجيدة، والحياة الرخية، والأسطورة. وقد كتب في «اعترافات مؤلف» يقول:

«المرح الملحوظ في أعمالي المبكرة كان ينسجم مع حاجات روحية معينة. كنت معرضاً لنوبات انقباض لم أكن قادراً على تفسيرها حتى لنفسي والتي ربما كانت ناجمة في الأساس عن سوء حالتي الصحية. ولكي أصرف تفكيري عن هذا الوضع أخذت أتخيل كل أنماط القصص الهزلية التي يمكن تخيلها.

كنت أحلم بشخصيات وأشكال مضحكة لا وجود لها وأتعمد وضعها في أكثر الأوضاع إثارة للضحك دون أن أفكر قط لماذا أفعل ذلك، أو ماذا أستفيد من وراء ذلك. ما كان يدفعني هو الشباب -أجل الشباب الذي لا يطرح على نفسه أية أسئلة كما يعرف الجميع».

تعج القصص الثماني في «أمسيات في مزرعة» بالحوادث المضحكة حقاً وإن كانت تحوي كذلك صفحات مرعبة تغمرها الهلوسات. فليست القصص إذن نتاج كاتب هدفه الوحيد هو تسلية نفسه. قد يدو وكأن الضحك النابع من القلب في مقطع ما لم يكن الهدف منه إلا أن يوازن الألم الممض الذي يدخلنا الكاتب ويدخل نفسه فيه أيضاً في مقطع آخر. فهو يمشي جنباً إلى جنب مع أبطاله شاعراً بالحاجة إلى المزاح، تماماً مثل طفل يحاول استعادة طمأنينته بالضحك وسط الظلام. وكلما تفاقم الخوف علا الضحك. وهذا الخليط من الفزع المبني على الخرافات إلى جانب المرح الفلاحي هو ما يعطي العمل نكهته الخاصة.

يرسم الكاتب جميع أبطال كتابه «أمسيات في مزرعة» بألوان متوهجة وكأنما يستخدم لذلك سكين مزج الألوان. هنالك قوزاق متقدمون في السن، ومشاكسون يكثرون من إلقاء المواعظ، وشبان أقوياء يوجهون نظرات غرامية إلى الفتيات، ونساء تجاوزن منتصف العمر يسيطرن على أزواجهن ويخنَّهم أيضاً، وأبناء بابوات، وحافظو غرف المقدسات في الكنيسة، وساحرات، وسكيرون، وأبرياء، ومهرجون وشياطين. الشيطان أيضاً من مواطني القرية شأنه في ذلك شأن جميع سكانها الآخرين. حجمه في مثل حجمهم، وهو من نسيجهم ذاته. الاختلاف الوحيد هو أنه يتمتع بسلطة أكبر وأفكاره شريرة. قد يكون هناك من يتفوق عليه دهاءً وحيلةً أحياناً بينما تكون أنت الخاسر في أحيان أخرى وحينئذ يتحول السحر إلى كفاح حياة أو موت بين العقيدة المسيحية وقوى الظلام. بعض القصص مثل «السوق الموسمية في سوروشينسك» أو «الرسالة الضائعة» أو «مكان مهجور» ليست أكثر من صور رائعة مسلية. غير أن القوى

السلبية تدخل القائمة في قصص مثل «ليلة في مايس» أو «ليلة عيد الميلاد». خطوة أخرى إلى ما وراء الطبيعة، وتصل إلى أعمال السحر المجنونة في «عشية القديس يوحنا» و «الانتقام الرهيب».

في قصة «عشية القديس يوحنا»: «بيترو» المسكين واقع في حب «بيدوركا» الجميلة لكنه لا يملك المال الكافي للزواج منها. ولذا فهو يعقد حلفاً مع الشيطان يصبح بموجبه كنز ما ملكاً له إن قدم طفلاً كأضحية في يوم عيد السحرة. والطفل الذي تطلبه الساحرة ليس إلا الشقيق الصغير لخطيبته. يحاول بيترو التراجع ولكن بريق الذهب أقوى من أن يقاومه. ولذا، وحباً في بيدوركا يقطع رأس الفتى الصغير. تبدأ وحوش غريبة تتضاحك حوله. أما الساحرة فهي تلعق الدم المسفوك لتوه وكأنها ذئبة ويتزوج القاتل فتاة أحلامه بعد أن أصبح غنياً، غير أنهما لا يعرفان لحظة وئام.

«الانتقام الرهيب» أكثر إثارة للفزع. فالساحر العجوز هو خائن لوطنه وقاتل لزوجته ولزوج ابنته وحفيده وعاشق لابنته التي يقتلها أيضا في النهاية. يذهب ليبحث عن ناسك تقي ويطلب منه أن يصلي طلباً للرحمة لروحه المدانة. غير أن الحروف في الكتاب المقدس تطفر دماً. يفزع الرجل التقي ويرفض أن يتشفع لدى الله ليغفر لهذا الخاطئ الوحش، ولذا يعمد الساحر لذبح الناسك أيضاً. ليست القصة من أولها إلى آخرها إلا معركة وخدعة وأحلام تنذر بالسوء وطقوس سحر وجثث لا دم فيها تخرج من قبورها وهي تنتحب وتصيح قائلة: «إنني أختنق، أختنق!» لا حدود للشر هنا. والطبيعة التي تبدو مرتبة ظاهرياً تتلوى تحتها قوى الفوضى البدائية.

بما أن الكاتب يميل، بحكم الطبيعة، إلى المزج بين ماهو مضحك وماهو مرعب فهو لا يستطيع أن ينطلق إلى عالم الخيال إلا من منطلق الواقع الراسخ. فكلما كانت الحكاية لا عقلانية دعت الحاجة إلى ملئها بالتفاصيل الجديرة بالتصديق. وقبل أن يبدأ العمل قرأ، وبكل وعي، مختلف أنماط الكتب التي تتحدث عن أوكرانيا –كتب كوتيليارفسكي، وكفيتا – أوسنو فايا نينكو،

وأرتيموفسكي- جولياك - واستغرق في قراءة دراسات اللغة والأعراق في المقاطعات الجنوبية. جعل ينقب في التمثيليات الكوميدية المرحة التي كتبها والده من قبل، ويستعرض كل البحوث التي تتناول موضوع السحر. وأخذ يراجع كراسه الجامع لاستخلاص كل التفاصيل التي زودته بها والدته وأخته، ويتفحص الملابس القديمة والقبعات والشالات المهترئة التي أرسلاها له. هذا القدر من المعلومات والمواد الملموسة خففت كلها من قلقه حول إمكانية تصديق أكذوبته الشعرية. فهذه الوثائق كلها تشكل قاعدة صلبة تحت أقدامه حتى ولو لم يستخدمها جميعاً. فتخيل شيء من لا شيء إنما يعادل، في نظره أن يلقي بنفسه من فوق صخرة. كان الخوف يسيطر عليه لمجرد تفكيره بذلك. «أرسلوا مواد بسرعة... بسرعة!!» فهو لا يستطيع الوصول إليها بنفسه ويبدو أنه لم يدرك أمور الحياة بوضوح إلا من خلال الآخرين. وقد كتب في «اعترافات كاتب» يقول: «لم أبتدع شيئاً من خيالي قط، فهذه قدرة لم أمتلكها على الإطلاق. ولم أنجح إلا عندما استقيت ما أكتب من الواقع مستخدماً المعلومات المتوفرة لي».

بل إنه لم يبتدع مواضيع حكاياته إذ استقاها من الموروث الشعبي التقليدي ثم زخرفها بطريقته الخاصة. على الآخرين أن يوفروا له القماشة المطلوبة وليروا بعد ذلك روعة الجمال الذي يمكنه أن يطرزها به.

كانت معالجته لهذه المادة الخام الأولية معقدة إلى درجة مدهشة. فهو يعزل تفصيلاً معيناً مثل أخذ ملامح الوجه، أو اللباس أو الشخصية مستخدماً عدسته المكبرة وبذا يقفز هذا التفصيل إلى مقدمة الصورة. ويمضي من هناك بدقة فوتوجرافية تصل إلى درجة تحريف هذياني. وكلما جاهد لكي يكون أكثر دقة ابتعد أكثر فأكثر عن الصدق. فشغفه بالتشابيه البلاغية يبرز هذه الفجوة ويجعلها أكثر وضوحاً. وهو عندما يمتطي صهوة تشبيه ما فهو يبتعد به مسافة ألف فرسخ. بعض هذه التشابيه طريفة ومؤثرة، بينما يؤثر البعض الآخر على جمال القصة. غير أنه لم يكن يكترث لذلك! فليس هناك ما يأسر جوجول أكثر من تغيير اتجاهه والابتعاد عن الطريق الرئيسي والضياع في الطرق الفرعية.

على الرغم من التحوير المنظم الذي يميّز فن جوجول فإن واقعية «أمسيات في مزرعة» هي ما فاجأ القراء أولاً وأسعدهم. فالاهتمام البالغ بالتفاصيل في الوصف كان بالنسبة لهم بمثابة دليل على أصالة العمل وموثوقيته. إذ شعروا وهم يقرؤون الحكايات التي يرويها «رودي بانكو» أنهم يسمعون قصصاً خيالية لاتصدق، ومع ذلك فهم يتعرفون على العادات الأوكرانية.

أوكرانيا التي يصورها الكاتب مكان يبعث على الاطمئنان التام. فهو يستغرق في رسم الصور الرائعة والمشاهد دائمة التغير متجاهلاً بسرور مشكلة نظام الأقنان. بل إن إساءات السلطة الأوتوقراطية لا تصدمه على الإطلاق ولايبدي اكتراثاً ببؤس طبقة الفلاحين. وعلى هذا فالقارئ يغلق الكتاب دون أن تشغل ذهنه أي مشكلة اجتماعية على الإطلاق.

أما فيما يتعلق بالمقاطع التي وصفها بعض النقاد بالتافهة فيبدو أن جوجول حاول متعمداً أن يوازنها بمقاطع تعبّر عن الشاعرية التي كان قادراً على التعبير عنها. وهنا تتجلّى من جديد ازدواجية الكاتب: فهو لا يمزج بين إثارة الرعب والضحك في آن واحد، وبين ماهو واقعي وماهو خارق للطبيعة فحسب، بل كان يتحوّل مما هو مشاكس وخشن إلى التحليق على حين غرة في عالم الشعر. ينفجر فجأة مقطع متميّز في بداية أحد الفصول، ثم ما تلبث قصيدة نثرية أن تنحرف إلى ملحمة هازئة. وفي «ليلة من مايس» أو «العذراء الغريقة»هذا المقطع:

«ليلة مقدسة! ليلة ساحرة! جامدة، ملهمة. الغابات التي تغمرها الظلمة تلقي بظلال عملاقة أمامها، الصمت والسلام يخيمان فوق برك الماء. مياهها الباردة المظلمة حبيسة بصورة تثير الحزن بين جدران الحدائق الخضراء. الأدغال العذراء لأشجار الكرز والخوخ البري التي تمد جذورها بحذر في الرطوبة الجليدية للربيع حيث يمكن سماع حفيف أوراق تلك الأشجار في مواقع قريبة، ومن ثم أخرى بعيدة وكأنما تعبّر عن غضبها وعن تأنيبها كلما زحف النسيم الليلي ليغازلها ويختلس قبلة منها. . . مساحات لا نهائية، مدهشة تنفتح في السماء،

وفي الروح، ورؤى فضية تبزغ في حشود تنبع من الأعماق. ليلة مقدسة، ليلة ساحرة!».

لنلاحظ أن هذه اللوحة التي يرسمها لليل الأوكراني ليست مقدمة لمشهد غرامي كما قد نتوقع بل لتلعثم وتمايل فلاح ثمل وهو يحاول أن يرقص رقصة الهوباك.

حين يرغب جوجول بالإيحاء بجمال منظر طبيعي فهو يندفع وراء إلهامه وبمبالغة واضحة تنحو نحو الخطابية. فهو حين يكتب مثلاً عن بركة في الليل في «ليلة في مايس» يقول: «ومثل رجل عجوز واهن اشتبكت بالسماء المعتمة البعيدة في عناق بارد وغمرت بقبلاتها الجليدية نجوم النار التي شحب لونها وسط هواء الليل الفاتر وكأنها أحست باقتراب الصعود المدهش لملكة الليل». وهكذا يكتب عن «نهر في السوق الموسمية في سوروشنسك» فيقول: «متقلب في تلك الساعات المسكرة كأنه فتاة حين تعكس المرآة بكل صدق ملامحها التي يشكلها الكبرياء والنور. كتفاها يبضاوان كالزنبق، خصلات شعرها تلقي بظلالها الكستنائية على حنجرتها المرمرية. وشأن الجميلة حين تخلع بازدراء ثوباً مبهرجاً لترتدي ثوباً مبهرجاً آخر متابعة نزواتها التي لا تنتهي، هكذا يبدّل النهر مساره كل سنة تقريباً ويختار قناة أخرى ويحيط نفسه بمناظر جديدة ومتنوعة».

أو وصفه لغليان نهر «الدنيبر» في قصة «انتقام رهيب» حيث يقول: «الأمواج الطويلة تزأر وهي تضرب سفوح الجبال ثم ترتد من جديد، تندفع وتئن، تبكي وتنشج، هكذا تندب الأم القوقازية العجوز وهي ترقب ابنها حين يبدأ رحلته إلى الحرب. شجاع ومتهور يتقدم على صهوة جواده الأسود، قبضته على وركه وقبعته مائلة فوق رأسه بإهمال. أما هي فتركض وراءه وهي تنشج وتحكم قبضتها على ركاب الجواد وتحاول الإمساك باللجام وتلوي يديها بعنف وتذرف دموعاً حارة».

يبدي الكاتب المزيد من الإسهاب والضيق لدى تصويره الشخصيات النسائية. فبراسكا في «السوق الموسمية في سوروشنسك» «طفلة جميلة ذات

وجه مستدير وحاجبين يتقوسان بانتظام فوق عينيها الكستنائيتين، وشفتين ورديتين صغيرتين تنفرجان عن ابتسامة تعبر عن عدم الاكتراث». وفي قصة «ليلة القديس يوحنا» فتاة قوزاقية «لها خدان نقيان يلوحهما لون وردي بالغ الرقة كأنهما زهرتا خشخاش تسبحان في الندى الإلهي وتشتعلان وهما تتشامخان بتويجاتهما لتستقبلا أشعة الشمس لدى بزوغها. حاجباها مثل الرباط الأسود الذي تشتريه الفتيات في هذه الأيام لتعليق الصلبان أو القطع المعدنية. فمها الصغير يبدو وكأنه خلق ليستنشق أغنية طائر القبرة». أما حنّا في «ليلة من مايس» فلها «عينان تشعان من قزحيتين وسط نصف الظلمة وكأنهما نجمتان صغيرتان». وأوكسانا في قصة «عشية عيد الميلاد» تزهو بصورتها التي تراها في المرآة وتتنهّد متسائلة: «هل إن حاجبيّ وعينيّ السوادوين من الجمال بحيث لا يوجد مثيل لها في الدنيا كلها؟».

كل من جميلات القرى اللاتي يصورهن الكاتب هنّ في السابعة عشرة من عمرهنّ، ذوات عيون قزحياتها شديدة السواد، وشفاه مرجانية وأسنان لؤلؤية: إنه يرسم لهن ملامح مثالية وهن بعيدات عن نظره، إذ كان قليل الاحتكاك بالنساء. إنه يصورهن كأشياء باردة، ناعمة، ثمينة، غامضة، يهلك الشبان أنفسهم من أجلهن. حتى كلام هذه اللعب المصقولة هو كلام غير تقليدي. وحدهم المتقدمون في السن في «أمسيات في مزرعة» لهم وجوه نابضة بالحياة ويتكلمون كفلاحين أوكرانيين. هتف أحدهم بالقول متحدثاً عن النساء: «ياإلهنا في السماء، ماذا ارتكبنا بحقك نحن الخاطئون حتى تسلط علينا هذا البلاء؟ ألا تكفينا كل تلك القاذورات المختلفة التي تغطي وجه الأرض لكي تخلق لنا النساء كذلك؟».

هذه الجملة القاسية قد تصلح عنواناً فرعياً للقصة قبل الأخيرة والتي تحمل عنوان «إيفون فيدوروفيتش شيونكا وعمته». فهذه القصة، على العكس من القصص الأخرى ليست فولكلورية ولا هي خيالية، بل فيها حدة في الأسلوب وسخرية تلقائية في الملاحظة بحيث تقدم للعالم برمته الناس الحقيرين والأحداث

التافهة والوضعيات الشاذة. يبيّن لنا الكاتب في هذه القصة، ولربما لأول مرة، كم هي تافهة حياة بعض الناس مهما كانت الصورة التي خلقهم الله عليها. الشخص الذي يضعه تحت المجهر في هذه القصة هو رجل كئيب، ضئيل الحجم لا لون له، شخصية في رواية تكشف ما في الداخل: فبدلاً من أن يبرز بوضوح فهو يرتد إلى الوراء. إنه أقل من رجل - نقيض بطل. تروي القصة عذابات جندي أصبح ملاّكاً بعد تقاعده، تريد عمته تزويجه بالقوة من شقراء بدينة، بل هي كتلة شحم، تعيش في المنطقة. إيفان فيدوروفيتش إنسان ضعيف حالم. أما عمته فاسيلييفكا كاربوفنا فهي عانس قوية مصممة، تدخل الرعب في نفسه: «يبدو أن الطبيعة ارتكبت خطأ لا يغتفر بأن ألبستها فستاناً من اللون البني الغامق ذا كشاكش صغيرة. . بينما هي في الواقع مخلوقة ليكون لها شارب جندي وحذاء من أحذية سلاح الفرسان». يساق إيفان فيدروفيتش من قبل تلك الشخصية المريعة ليقابل مخطوبته، ويقع بالتالي في براثن كابوس يكتم أنفاسه في تلك الليلة.

«حلم بأنه تزوج فعلاً وأن كل شيء في البيت الصغير غريب وغير مألوف. فبدلاً من السرير المفرد في غرفته هنالك سرير مزدوج، وزوجته تجلس على كرسي. يشعر بأنه غريب بحيث لا يستطيع حتى أن يتبادل الكلام معها. ماذا يقول لها؟ ثم رأى أن لها رأس إوزة. استدار بالصدفة فرأى امرأة أخرى لها أيضاً رأس إوزة. نظر باتجاه آخر ورأى ثالثة. نظر خلفه فرأى رابعة. اعتراه رعب مفاجئ فركض إلى الحديقة وكان الطقس حاراً لدرجة مريعة. رفع قبعته فماذا رأى، امرأة داخل القبعة. تدفق العرق على وجهه فأراد أن يسحب منديلاً من جيبه فوجد فيها امرأة أيضاً. أخرج سدادة من القطن من أذنه فكانت هناك امرأة خلفها. أخذ يثب صعوداً وهبوطاً فنظرت إليه عمته وأعلنت بلهجة حازمة: «أجل، عليك أن تثب الآن لأنك رجل متزوج». ركض باتجاهها، ولكن الوقت كان قد فات فقد تحولت إلى برج كنيسة وشعر بأن حبلاً يسحبه إلى أعلى البرج. أخذ يئن صائحاً: من الذي يسحبني؟! «أنا زوجتك، أسحبك إلى الأعلى لأنك

مغفّل» ، «لا ، أنا لست جرساً بل إيفان فيدوروفيتش» . قال الكولونيل «بي» من فوج مشاة كان يسير هناك: «أجل أنت جرس!» ثم حلم بأن زوجته ليست بشراً على الإطلاق بل نوعاً من مادة صوفية . توجه إلى حانوت في «موجليف» . سأل البائع أي نوع من القماش ترغب به؟ جرّب زوجة ، هذا هو النسيج الرائج الآن . إنه متين والجميع يستخدمون معاطف مصنوعة منه هذه الأيام» . قاس البائع الزوجة وقطعها . أخذها إيفان فيدوروفيتش ووضعها تحت إبطه وتوجه إلى خياط يهودي . قال له اليهودي: «لا . . . لا . . . هذا قماش سيئ جداً ولم يعد هناك من يستعمله بعد لصنع معاطف . . . . » .

هل كان كابوس إيفان فيدوروفيتش هو ترجمة ساخرة لخوف الكاتب المرضي نفسه من الجنس اللطيف؟ قد يكون هذا تأكيداً افتراضياً ، غير أنه كان ، بدون شك ، مشلولاً أمام الظاهرة الأنثوية . فإذا كانت المرأة شابة وجميلة فهو يبدي عجزاً عن وصفها في قصة أو الاقتراب منها في الواقع . غير أن قراءه في ذلك الحين لم يلحظوا تكلف المحبين الشبان في «أمسيات في مزرعة» . فالشخصيات الأخرى ، ومنهم الثرثارون ، وشماسو الكنيسة ، والمشعوذون ، والشياطين ، والمقطرون ، ورقباء الفوج – كلها تضفي حيوية على ذلك المزيج الخالي من الطعم والنكهة للقصص الشعرية الريفية . إذ استمتع القراء أيما استمتاع ووجدوا متعة في الرعب الذي أثارته فيهم تلك الأوبرا الساخرة بثيابها مشرقة الألوان . هنالك وفرة في اللون المحلي . اسم كل شخصية يمثل نكتة ، روائح الطبخ الأوكراني ، كعكات بذور الخشخاش ، فطائر الجبن –كلها تداعب الأنف . اللغة الخشنة التي تتبّلها اللهجة العامية ، المهرجون صغار القامة ، أقوال أوكرانية عامية ، كلها ضمنت النجاح لهذه القصص . لاشك بأن هناك جملاً شديدة الطول ، وحوادث خرقاء ، وإفراط في استخدام النعوت ، وشاعرية وتقلب سايكولوجي . غير أن كل هذه العيوب إنما تضيف ، وإن بطريقة لا يمكن تفسيرها ، إلى سحر الكتاب .

ربما كان من شأن جوجول أن يصبح كاتباً ذا طابع محلي بعد أن شجعته استجابة القراء لحكاياته بحيث يمضي في طحن «أمسيات في مزرعة» إلى أن يستنزف الموروث الشعبي الأوكراني. كان هذا إغراءً قوياً، غير أن بوشكين أصدر رائعته «حكايات بايلكين» والتي تتميز بالإيجاز والانسيابية وذلك بعد شهرين من صدور «الأمسيات».

كانت جمل بوشكين قصيرة ومفعمة بالحيوية وتعابيره بالغة الإيجاز. ليس هناك استعارات بلاغية، بل إن القصة تثب من فعل إلى فعل آخر دون أن يظهر الكاتب نفسه أو يحاول تفسير شخصياته. فهذه الشخصيات وهي ترى من الخارج تكشف عن نفسها من خلال أعمالها. أما لدى جوجول فكل شيء ذاتي ووهمي، في حين تسود الواقعية والموضوعية لدى بوشكين.

خيبت «حكايا بايلكين» توقعات القراء الذي أغرموا بأمسيات جوجول، ظناً منهم بأن بساطة حكايا بوشكين إنما تنبع من فقر محتواها. غير أن جوجول نفسه ركع أمامها وتعبّد في محرابها وقال لنفسه إن بوشكين قد دلّه على الطريق من جديد. ولكنه لم يكن ليبدل نمطه الأدبي بالطبع نظراً لأن أسلوبه في رواية القصص إنما ينسجم مع نبض قلبه ودرجة حرارة دمه. قد يجدر به فقط أن يصور شخصيات أقرب إلى الشخصيات المألوفة من أولئك الفلاحين الفظين أو النساء الأوكرانيات سليطات اللسان الذين صورهم.

بينما كان يحاور نفسه حول مستقبله الأدبي فقد كان يحسّ بمتعة بالغة من شهرته حديثة العهد، والجميع يعرف الآن أن الاسم المستعار «رودي بانكو» إنما يخفي شخصاً معيناً هو جوجول.

كتب لأمه في (٦ شباط/ فبراير ١٨٣٢) يقول: «عنوني رسائلك إليّ في المستقبل باسم جوجول فقط، إذ إن الجزء الثاني من اسم عائلتنا ضاع في مكان ما على الطريق، وربما التقطه شخص ما وهو يستخدمه الآن معتبراً إياه أنه له. لهذا فإن أحداً لا يعرفني باسم يانوفسكي بعد».

في (١٩ شباط/ فبراير ١٨٣٢) حضر جوجول وجميع الأدباء في العاصمة مأدبة عشاء أقامها «سميردين» بائع الكتب احتفاءً بافتتاح مكتبته الجديدة في منطقة «نيفسكي بروسبيكت». نصبت المائدة في الغرفة الكبيرة التي تمتلئ جدرانها برفوف الكتب وكانت المائدة تتسع لثمانية عشر شخصاً. وأقيمت المأدبة في الساعة السادسة وكان هناك بوشكين وكذلك جوكوفسكي، وكاتب القصص الخرافية كريلوف، ودمترييف وباتيوشكوف، وبلجارين وجريش. شربوا أولاً نخب الإمبراطور تلاه هتاف عال، وتلت ذلك أنخاب أخرى لصحة كريلوف وجوكوفسكي وبوشكين وآخرين. وفي لحظة ما وجه بوشكين نظره صوب جريش وبولجارين وهما يجلسان على جانبي الرقيب سميونوف وهتف قائلاً: «أنت يا سيميونوف، إنك مثل المسيح في موضع صلبه». ضحك عدد من المدعوين ولكن جريش وبلجارين قطبا جبينيهما، ثم مرت الحادثة بسرعة. لابد أن جوجول قرص نفسه وهو يأكل ويشرب في وسط هذه الشخصيات المرموقة ليتأكد من أنه صاح وليس يحلم. وعاد إلى البيت متأخراً جداً مشوش الفكر وإن كان قلبه يمتلئ حبوراً.

على الرغم من المال الذي كسبه من كتابه «أمسيات في مزرعة» - حيث أعطاه أصحاب المكتبات عدداً قليلاً من الروبلات لكل نسخة- فإنه يصعب القول إن ظروفه المادية تحسنت كثيراً. كان يسكن قرب جسر «كوكوشكين» في عليّه متجلدة غير مريحة. وقد دأب، شأن ما كان يفعل من قبل، على جمع أصدقائه في بعض الأحيان للمشاركة في عشاء أوكراني يعده (خادمه) ياكيم. وكتب أحدهم، وهو «نيكيتنكو» في مذكراته يقول: «ذهبت لأتناول العشاء لدى جوجول - يانوفسكي، وهو مؤلف القصص المرحة باسم رودي بانكو - مربي النحل، وهو شاب لطيف في الثالثة والعشرين من عمره. غير أن هنالك شيئاً مخادعاً في ملامح وجهه وأساريره يجعل المرء يحترس منه. قابلت هناك حوالي عشرة من الأوكرانيين كانوا جميعاً طلاباً في مدرسة نييجين».

وجود «دانييلفسكي» أقرب أصدقاء جوجول كان من شأنه أن يضمن نجاح تلك اللقاءات الأخوية. ولكن دانييلفسكي كان ما يزال في القوقاز (حيث كان قد ذهب للعلاج). وقد تحدثت رسائله عن افتتانه بالجميلة «إميلي الكسندروفنا كلنجنبرج» حيث كان يعبّر عن حبه هذا بوصف لعواطفه النارية بحيث أن جوجول الذي يميل بطبعه إلى المبالغة حثه على الاعتدال والتخفيف من حماسه. بل إنه، هو الذي لم يدخل في أي تجربة من هذا النوع يتبرع بتحديد سمات الحب الصادق لصديقه حيث يقول في رسالة له في (٢٢ آذار/ مارس ١٨٣٢):

«الحب قبل الزواج أمر رائع، مثير للخيال، وغير قابل للتفسير. غير أن من لم يعرف غير هذا الشكل من العاطفة فهو لم يعرف إلا شرارة، مجرد محاولة لتجربة الحب... أما الجزء الثاني من الكتاب (أو بالأحرى الكتاب نفسه باعتبار الجزء الأول هو مجرد مقدمة لهذا الكتاب فحسب) فهو مثل بحرٍ من البهجة الهادئة، تفهمه بوضوح أكبر، وتستمتع به وتعطيه حقه يوماً بعد يوم. وما يدهش أن تفكر بأن وقتاً طويلاً قد انقضى وهو يتدفق دون أن تلحظه. الحب قبل الزواج هو مثل شعر «ياسكوف[1]». فهو يحرك المشاعر ويشتعل حرارة وبذا فهو يخضع الأحاسيس. أما الحب بعد الزواج فهو مثل شعر بوشكين: لا يأسرك على الفور ولكنك كلما أعدت قراءته كلما ازداد عمقاً حيث يزداد اتساعاً ليصبح باتساع المحيط...».

في رسالة لاحقة يعترف لدانيلفسكي حيث يقول: «أتفهّم، بل أحس بما أنت فيه وإن كنت شخصياً لم أمر بمثل هذه التجربة ولله الحمد. أقول، ولله الحمد لأن مثل هذه النار كان من شأنها أن تحولني إلى رماد بلمح البصر. غير أن إرادتي القوية أقنعتني بألا ألقي نظرة عجلى على بؤرة تلك الهاوية».

شهدت بداية سنة (١٨٣٢) زواجين في محيط جوجول، زواج صديقته الكساندرا روسيت «العفريتة السماوية» التي تزوجت من «سميرنوف»، ذلك

(١) ياسكوف: شاعر روسي موهوب (١٨٠٣-١٨٤٦) كان بوشكين معجباً به جداً.

الثري غير المثير للاهتمام، وكذلك زواج أخته ماريا من «تروشكوفسكي»، وهو من اصل بولوني ويعمل مسّاحاً للأراضي وإمكانياته متواضعة جداً. أحزنه الزواج الأول بعض الشيء إذ كان يضمر عاطفة أفلاطونية عميقة لتلك الوصيفة المتألقة. أما الزواج الثاني فقد أثار قلقه، أو على الأقل أقلق الإحساس الأبوي الكامن في داخله.

لم تخفِ ماريا إيفانوفنا خيبة أملها إذ كانت تأمل لابنتها أن تقترن بزوج كفء. أما جوجول فهو يعتبر الثروة الحقيقية للرجل إنما هي في دماغه. واعتماداً على تجربته الواسعة فقد قدم لوالدته وللخطيب الشاب دروساً في الاقتصاد المنزلي. فيجب أولاً أن تختصر الحفلة نفسها إلى أدنى الحدود. وهو يقول في رسالة في (١٤ آذار/مارس ١٨٣٢):

«كنت دائماً أمقت هذه الاحتفالات المهيبة وحفلات الزفاف. لو قررت الزواج فعلى زوجتي ألا تكون قد رأت أحداً لمدة أسبوعين على الأقل». وقد طلبوا منه شراء قماش ومناديل لجهاز العرس. مصاريف لا معنى لها حيث يقول: «تقولين إن الخطيب ليس غبياً، ولذا فإنه لن يعلق اهتماماً على هذه الأمور التافهة. ذكّري شقيقتي بأن عليها أن تكون اقتصادية جداً في الإنفاق وأن تغض النظر عن العديد من الأمور التي تستهدف مجرد إرضاء النفس. لقد اختارت هذا المصير بناءً على رغبتها المحضة»... وفي النهاية، وبمشقة، وبالكثير من التوفير فيما لديه من نقود قليلة تمكن جوجول من إرسال خمسة روبلات للمساعدة في تغطية مصاريف البيت الجديد. كان هذا مبلغاً كبيراً بالنسبة لشخص له مثل ظروفه، وقد سرّه سروراً كبيراً أن يلوح بهذا المبلغ من المال في وجه عائلته. وقد أجاب على أمه بعجرفة بشأن إلحاحها عليه بمقابلة شخص اسمه بارجييف، وهو شخص متنفذ يمكن أن يكون مفيداً له.

يقول في رسالته لها في (١٢ شباط/ فبراير ١٨٣٢): «تصرّين، فيما يبدو لي على اعتباري متسولاً يمكن أن يفيده أي شخص ذو مكانة متواضعة ولديه

القليل من الصلات . أتوسل إليك ألا تشغلي نفسك بهذا الأمر . فطريقي واضح أمامي ولا أرى أي فائدة يمكن لأي إنسان تقديمها لي . لست أتوكل ولا أعلق آمالي إلا على الله» .

هذا القول كان مجرد تبجح ، فقد كان يتوق لمصاحبة من يحتلون مراكز رفيعة لتعزيز شهرته الغضّة . كما أن هذا العدو للتسلق الاجتماعي والمحسوبية كان قد كتب لأمه قبل شهرين حين اشتكت من تأخر وصول البريد «أخبرني مدير البريد في بولتافا بأنني رأيت الأمير جوليستين قبل أيام واشتكيت له من حالة البريد التعيسة . وقد نقل ملاحظاتي على الفور إلى بولجاكوف المدير العام للبريد . ولكنني طلبت من بولجاكوف ألا يحاسب مكتب بولتافا إلى أن توفري لي أنت المزيد من المعلومات حول هذا الموضوع» .

وهكذا فهو يتفاخر بعلاقاته ويعلن في نفس الوقت عن احتقاره لها . وبتوقه الشديد للشهرة المبتذلة ، ومجاهرته في الوقت ذاته بأنه لا يتوق إلا لمرضاة الله ، فقد كان يدور ضمن دوامة شخصيته المتناقضة ويكذب على الجميع على أمل أن يقتنع هو نفسه في النهاية بتلفيقاته ذاتها .

□ □ □

٦ ـ راوح مكانك

كان الربيع يمضي في سانت بطرسبرج ببطء يبعث على الملل ببرودته وكآبته. وجوجول وهو يعاني من الحرمان من أشعة الشمس كان يحنّ لأوكرانيا ويحلم بها، ولذا قرر فجأة قضاء الصيف في فاسيلييفكا. يمكنه وهو في طريقه إلى هناك أن يتوقف في موسكو حيث لاقى كتابه «أمسيات في مزرعة» نجاحاً كبيراً، كما يمكنه أن يعقد هناك صداقات مفيدة. فلا مجال للتقليل من شأن أي دعم أو أي حليف في المراحل المبكرة لاحتراف الأدب. فوجود نصيرين أو ثلاثة في كل مدينة كبيرة قد يضمن مستقبله. قدم طلباً للحصول على إجازة من المعهد الوطني وسافر هو وياكيم في أواخر (شهر حزيران/ يونيو ١٨٣٢).

أرهقه السفر في العربة تحت وابل الأمطار. رحبت به موسكو بقرقعة الأجراس، وجف حلقه وهو يحدق بالمشاهد المبهرة: الكنائس، القصور، الساحة الحمراء، أسوار الكرملين بشرفاتها المعقوفة. وجدها مسرفة في زينتها من غير ذوق، وكئيبة بالمقارنة مع الهندسة المعمارية الرسمية التي تتسم بالنبل في العاصمة. حتى الناس الذين يمشون في الشوارع بدوا أكثر سعادة وتحرراً، والسيماء الروسية الرائعة بادية في الألوان والضجيج والتنوع. توجه إلى الفندق وهو يترنح من التعب والارتعاش والوهن واستعد لفترة من المرض. غير أن تفكيره بكل أولئك الناس الذين ينتظرون الترحيب به بأذرع مفتوحة تغلب على خوفه من القشعريرة. كان في ذلك، شأنه شأن ممثل يرتعد قبيل اعتلائه خشبة المسرح.

أول شخص التقى به كان المؤرخ والصحفي المرموق «بوجودين» المدير السابق للصحيفة المسكوفية «المراسل». بوجودين هذا ضخم الجثة، غليظ الشفتين، فظ الطباع وقد وضع جوجول تحت جناحه. ناقشا تاريخ أوكرانيا وتحدث جوجول عن ولع الفتيات الصغيرات في المعهد الوطني بالطريقة المفعمة بالحيوية التي أعاد خلق التاريخ بها بدلاً من الطريقة التقليدية حيث تتم روايته حسب التسلسل الزمني المقيت. كان يبدو من حديثه وكأنه ابتدع طريقة جديدة لفهم التاريخ. تحدث عن أساليبه التعليمية بكل ثقة بحيث أن محدثه جلس أمامه فاغراً فاه على الرغم من كونه أكاديمياً. غير أنه عندما طلب بوجودين رؤية كراسات بعض الطالبات ليحكم فيما إن كنّ قد هضمن ما تعلمن تهرب جوجول من الطلب وقد عمّه الحرج.

توجها بعد ذلك لزيارة الشاعر والناقد المسرحي «سيرجي تيموفييفتش أكساكوف» الذي يسكن في شارع «أفانايفسكي». في منطقة «أراباط». وصلا دون موعد مسبق ففاجؤوا «أكساكوف الذي كان متفرّعاً بقميصه يلعب الورق مع بعض أصدقائه. اتجهت الأنظار إليهما وصاح بوجودين بلهجة انتصار: «هذا هو نيقولاي فاسيلييفتش جوجول!» سادت لحظة اضطراب واندفع قسطنطين، ابن أكساكوف والذي كان معجباً أشد الإعجاب «بأمسيات في مزرعة»، اندفع نحو جوجول وصبّ عليه مديحه بينما اعتذر أكساكوف وعاد ليتابع لعب الورق. ولكنه ظل وهو يتابع اللعب يرقب ضيفه بطرف عينه. كتب فيما بعد في كتابه «تاريخ علاقتي بجوجول» يقول: «لم يكن مظهر جوجول الخارجي جذاباً إلى حد كبير في تلك الأيام. له خصلة شعر في قمة رأسه. أما بقية شعره فهو مقصوص عند الصدغين. ليس له لحية أو شاربان، يرتدي قميصاً ذا ياقة قاسية مرتفعة جداً - كل ذلك يعطيه هيئة تشبه إلى حد ما هيئة شخصية أوكرانية ماكرة. ملابسه تنمّ عن تظاهر بالأناقة. أذكر أنه كان يرتدي صدرية مقلمة بلون فاقع إلى حد ما تزينها سلسلة ثقيلة تمتد عرضياً. أجمع الموجودون بعد مغادرته بأنه ترك لديهم انطباعاً سلبياً بغيضاً. بل إن قسطنطين أكساكوف الذي كان قد اندفع نحوه بحماس استهجن «استعلاءه وازدراءه وانطواءه».

بعد أيام قليلة عاد جوجول في الصباح الباكر لرؤية أكساكوف الذي كان قد وعد بأن يعرفه على «زاجوسكين» ، وهو مؤلف روايات تاريخية كانت تلقى شعبية في تلك الفترة بالذات. حاول أكساكوف هذه المرة أن يطمئن الكاتب الشاب فتحدث عن مدى إعجابه بكتابه «أمسيات في مزرعة». غير أن جوجول لم يبدِ اهتماماً. وكتب أكساكوف عن ذلك فقال: «كان هنالك أمر يخيف منه مما منعني من الانفتاح عليه كما هي عادتي». توجها إلى بيت «زاجوسكين». غير أن جوجول تنهد وتباطأ وتخلف في الطريق واشتكى من أنه يعاني من أمراض عديدة غير قابلة للشفاء. ويقول أكساكوف: «نظرت إليه باستغراب حيث أنه بدا لي بصحة جيدة تماماً. تساءلت: مم تشكو بالضبط؟ حاول التملص من الإجابة، وتراءى لي من كلامه أن شكواه تتركز في موضع ما من أمعائه. ثم بدأنا نتحدث عن زاجوسكين. امتدح جوجول رشاقة قلمه ولكنه أشار بأنه لا يكتب ما يتوجب عليه أن يكتبه خاصة فيما يخص المسرح. أجبت بوقاحة بأن من الصعب علينا أن نكتب أي شيء آخر لأن عالمنا كئيب ومقموع وتقليدي وفارغ بحيث أنه حتى حماقاته لا تثير الضحك على الإطلاق. نظر إلي بحدة وقال: غير صحيح، فما هو مضحك يختبئ في كل زاوية ولكننا لم نعد نلحظه بعد لأننا اعتدنا عليه. فلو أن كاتباً ذا موهبة حقيقية أبرزها في كتاباته أو على خشبة المسرح فلاشك بأننا سننفجر من الضحك وسنستغرب أننا لم نلاحظ من قبل كل هذه الأمور التي تبعث على السخرية. وبينما كنا نتحدث لاحظت أنه مهتم بشكل خاص فيما يبدو بالكوميديا الروسية وأن لديه أفكاراً أصيلة في هذا النطاق».

اندفع راجوسكين مرحباً بجوجول بصخب وقبّله ثلاث مرات، وربت على ظهره معلناً إعجابه به وعارضاً صداقته الأبوية عليه. وقبل أن يسترد أنفاسه أخذ يتحدث عن نفسه، عن أبحاثه التاريخية، عن اكتشافاته في سجلات الأرشيف، عن أسفاره وخططه وقراراته، وعن مجموعة علب النشوق التي يقتنيها. لم يبق أمام ضيفيه إلا أن ينسحبا بعد أن أصابهما الدوار. ولكن جوجول لم يشعر بأنه أخذ كفايته من الأنوار الثقافية، ولذا رأى أيضاً «إيفان إيفانوفيتش

ديمتريف»، شيخ الشعر الروسي، وهو عجوز ذابل، أنيق ودمث. وأخيراً لا آخراً رأى الممثل الشهير شيشبكين الذي كان يدعو «لمسرح مضاد للمسرح».

كان ميخائيل سيميونوفيتش شيشبكين قناً لدى عائلة فولكنشتاين، وقد منحه أسياده إذناً للدراسة ومن ثم للتمثيل في مسرحياته في «كورسك» و«بولتافا». ثم يعود لارتداء بزة الخدم بعد كل عرض ويقوم بتقديم الطعام لأسياده. كان ناجحاً جداً كممثل بحيث أنه وهو في الثلاثين من عمره تمكن من شراء حريته بفضل تبرع استهله الحاكم العام لربنين وذلك بمبلغ عشرة آلاف روبل. ومنذ ذلك الحين حقق نجاحاً في جميع المسارح الكبرى في روسيا. كان جوجول قد عبّر عن إعجابه به في سانت بطرسبرج. وأي ضربة حظ ستكون لو أن هذا الرجل الذي يحظى بإعجاب الجميع وافق على تمثيل إحدى مسرحياته. صحيح أنه لم يكتب أي مسرحية بعد ولكن هذا سيحدث في يوم ما، وعليه أن يهيئ السبيل لذلك الآن. ومن باب المصادفة أيضاً أن شيشبكين كان أيضاً أوكرانياً. وفي إحدى الليالي، وبينما كان يقيم مأدبة عشاء لخمسة وعشرين ضيفاً اتجه بنظره إلى أبواب قاعة الطعام التي أبقيت مفتوحة فرأى شاباً لا يعرفه يتجادل مع الخدم في الحجرة المؤدية إلى غرفة الطعام. وفجأة اندفع الغريب إلى داخل الغرفة وهو يترنم بالأبيات الأولى لأغنية أوكرانية، وما لبث أن قدم نفسه: «بلد»: هو نيقولاي جوجول. انفجر شيشبكين الذي كان قد قرأ «أمسيات في مزرعة» بالضحك، وطلب من القادم الجديد أن يجلس. استمرت المناقشة ضاجة مرحة، وبين كؤوس النبيذ نصح سيد البيت ضيفه بأن يكتب للمسرح. لم يرفض جوجول ذلك، ولاشك بأنه ذهل لجرأته – وهو الذي أبدى الجبن دائماً – في اقتحام هذا البيت الذي لم يدع له. ربما كانت شهرته هي التي منحته هذه الثقة. كان يشعر في بعض الأحيان وكأن شخصاً آخر يمثل دوره. لم يبذر وقته على أي حال في موسكو. أي مجموعة من الأصدقاء الجدد استطاع تكوينها، في غضون عشرة أيام فقط!.

تابع طريقه إلى فاسيلييفكا يغمره العرفان لعاصمة القياصرة القديمة التي استقبلته بكل ذلك الدفء. فبالمقارنة مع سانت بطرسبرج – وهي مدينة جديدة، قاسية، باردة، أوروبية الطابع تقسّمها شوارع عريضة إلى أربعة أقسام، ينحشر فيها الموظفون من مختلف الطبقات ويهيمن القيصر على جميع مناحي حياتها – تبقى موسكو بذاكرته المدينة القديمة للتجار الأثرياء والنبلاء الذين يعيشون حياة رخيّة ولعامة الناس الذين ينبضون بالحياة، والتقاليد القائمة على نظام أبوي، علاوة على الطعام الجيد.

رافقه المطر في المرحلة الأولى من رحلته. كان مديرو محطات تزويد المسافرين بالخيول يعلنون بعناد واحداً بعد الآخر: «ليس لدينا خيول، لابد لك من الانتظار» ولتمرير فترات الانتظار الضائعة كان يناكد ياكيم أو يقرأ كتاب «كلاريسا هاركو» لريتشاردسون وهو يجلس على مقعد طويل في الغرفة الرئيسية للنزل. وفي النهاية تأمن له زوج من الخيول فانطلقوا فوق الوحل والعربة تتمايل وصوت الأجراس يتنافر. كان المسافر يطل برأسه من نافذة العربة ويسترق النظر إلى السماء. وقد كتب جوجول لديمتريف في (٢٠ تموز/يوليو ١٨٣٢) يقول: «سئمت السماء الشمالية الرمادية والمائلة للاخضرار، وأشجار الصنوبر بظلالها التي تبعث على الملل والتي تلاحقني على طول الطريق من سانت بطرسبرج إلى موسكو. كانت البلدات الخشبية الخفيضة تتتابع خطفاً على طول الطريق: «بودولسك»، «تولا»، «أوريل»، «كورسك». وما لبث الطقس أن أخذ يزداد اعتدالاً والسماء تكتسب اللون الأزرق مما يعلن عن الاقتراب من أوكرانيا الخضراء».

في (١٧ تموز/ يوليو) توقف جوجول الذي كان يعاني من أوجاع في المعدة في بولتافا للحصول على استشارة من أطباء مختلفين أعطوا آراء متناقضة فيما يخص أسباب هذه الأعراض. ونظراً لاقتناعه بأنهم جميعاً لا يدركون كنه ما يشكو منه فقد قرر أن يبتدع علاجاً لنفسه. كان آخر توقف له في وسط السهوب الواسعة في بلدة صغيرة هي «ميرجورود» بأكواخها المدهونة باللون الأبيض، وطرقها

الترابية غير المعبّدة وأكياس القش المتراكمة والأسيجة الخشبية، وبرك الماء الوحلة المتجمعة من الأمطار وفي اليوم التالي كان في فاسيلييفكا وسط عائلته.

ذرفت الدموع لدى اجتماع شمل العائلة وهو ما كان يتوقعه. كانت أمه قد ازدادت وزناً وسناً ولكنها حافظت تماماً على حيويتها، وقد احتضنته بحنو واشتياق. أما جدته فقد رسمت حوله وابلاً من إشارات الصليب شاكرة ربها لأنه أعاد لها حفيدها سالماً معافى. وتألقت فرحة أخته، التي كانت قد تزوجت في شهر نيسان/ إبريل الفائت، وهي تتعلق بذراع زوجها الشاب تروشكوفسكي، وهو شاب وسيم وإن كان يفتقر لروح المغامرة، وهو يعمل في بولتافا ولكنه يسكن في فاسيلييفكا من باب التوفير. أما أخواته «آنا» (أحد عشر عاماً) و«اليزافيتا» (تسع سنوات) وأولجا (سبع سنوات) فقد كبرن بحيث كاد لا يعرفهن. لم يتغير اي شيء آخر، فأبواب البيت القديمة مازالت تحدث صريراً كما كانت من قبل، والخزائن تنبعث منها رائحة التفاح شديد النضوج، والطاولة تئن تحت ثقل الأطعمة المحفوظة والحلويات، وأسراب الذباب والنحل ذاتها تحوم فوق الأطعمة، والخدم يذهبون ويجيئون دون أن يقوموا بأي عمل، والأشجار نفسها تنوء تحت ثقل فاكهتها في البستان، والدجاج والبط نفسه يتجول ببطء في أرجاء الباحة. .

لم يتماثل جوجول للشفاء على الرغم من كل ذلك السحر في مكان سكناه المحبب. كما أن وجبات الطعام الوفيرة، شأنها دائماً، زادت من حالته تفاقماً. كان مغرماً بالأكل ويفقد كل قدرته على كبح جماح شهيته حين يرى الزلابيا والزبدة، أو فطائر الجبن، أو الفطر الممزوج بالصلصة الغنية. وكان يتنبه لأدنى قرقرة في بطنه ويبلغ عائلته دون خجل بمراحل هضمه، بل ويشير إلى ذلك في رسائله للأصدقاء الذين تعرّف عليهم مؤخراً.

كتب لبوجودين في (٢٠ تموز/ يوليو ١٨٣٢) يقول: «هل تصدقني إن قلت لك إن مجرد رؤيتي لعربة تسير على الطريق يبعث في نفسي الغثيان. فصحتي ما تزال كما كانت عليه بالضبط عندما التقينا، فيما عدا أن الإسهال

قد توقف وتميل أمعائي الآن للإمساك. كما يبدو لي أحياناً بأنني أعاني من ألم في الكبد والظهر، وفي أحيان أخرى من أوجاع في الرأس وكذلك من ألم قليل في الصدر. على هذا النحو تجري آلامي. الأيام جميلة والفاكهة كثيرة ولكنني أخشى تناول أي منها».

وفي وقت لاحق كتب لبوجودين: «إنني أفضل حالاً الآن وإن كان مايزال ينتابني ألم في صدري بالإضافة إلى عسر في الهضم، ربما لأنني غير قادر على اتباع نظام غذائي. أوكرانيا تغريني باستمرار بفاكهتها ومعدتي منشغلة دائماً بهضم الإجاص والتفاح».

وفي نفس الوقت الذي كانت ماريا إيفانوفنا تبدي فيه قلقها على ابنها الذي فقد شهيته في العاصمة فإنها سرعان ما بدأت تحدثه عن مصاعبها المالية. فهي لم تدفع الضرائب المترتبة عليها. كانت مدينة لنصف الناس الذين تعرفهم، وهي لا تدري من أين ستتدبر النقود اللازمة لتعليم بناتها. استمع جوجول لتفجعها بشعور يغمره مزيج من الأسى والغيظ في آن معاً. قد يأتي اليوم الذي سيكسب فيه من النقود ما يكفي للعناية بالعائلة برمتها. ولكن ماذا يمكنه أن يفعل حتى ذلك الحين؟ لا مفر من أن يقنع أصحاب المكتبات بشراء طبعة ثانية من كتاب

«أمسيات في مزرعة».

كتب لبوجودين يقول: «حاول عدد كبير من ملاك الأراضي في الناحية الحصول على كتابي بالكتابة لموسكو وسانت بطرسبرج غير أنهم لم يستطيعوا تحصيل نسخة واحدة في أي مكان! هل أصحاب المكتبات من الغباء بحيث لايدركون أن هنالك طلباً عليه؟ إنني مستعد للتنازل عن الطبعة بكاملها مقابل ثلاثة آلاف روبل إن لم يدفعوا ما يزيد على ذلك. وهذا يعني ما لا يزيد عن ثلاثة روبلات لقاء كل نسخة بينما سيبيعونها هم بمبلغ خمسة عشر روبلاً، وبذلك يكسبون اثني عشر روبلاً من كل نسخة. بل إنني قد أقبل ألفاً وخمسمائة روبل على الفور إذ إنني بحاجة ماسة إليها، على أن يدفع باقي المبلغ في غضون شهرين أو ثلاثة».

على الرغم من أنه كان يتوسل لبيجودين لإجراء هذه المفاوضات نيابة عنه فإنه لم يكن يتوقع أن يحصل على أي شيء من وراء ذلك في المستقبل القريب. حسناً، سيتولى الأمر بنفسه عندما يعود إلى سانت بطرسبرج. أما الآن، فكل ما يريده هو أن يستريح ويستمتع في وسط عائلته. كان يستيقظ متأخراً ويقرأ ويتمشى في الحديقة ببطء، ثم ما يلبث أن يندفع للعمل. يرتدي بزة الشغل البيضاء ويحمل فرشاة وسطل دهان ليعيد طلاء جدران غرفة الطعام وغرفة الجلوس ويزين الأعمدة وإطارات الأبواب بباقات الزهور والأشكال التزيينية اللولبية. كما يرى الجيران حيث يستفسر من الفلاحين بحثاً عن المزيد من الأقاصيص شأن قصة «انتقام مريع» و «إيفان فيدوروفيتش شبونكا وعمته». انتفخت كراسته التي يسجل فيها المتفرقات بالملاحظات والانطباعات والاختصارات والمخططات. كان يمتلئ ثقة ويعتز بقيمته أمام أمه التي كانت تفاخر بشدة بنجاحه. كانت تعرف عن ظهر قلب جميع قصص «أمسيات في مزرعة». ولكنه كان يتسم ابتسامة مترفعة جداً ويقول إنها لا شيء وأن الناس سيرون في وقت قريب ما بإمكانه أن يفعل. . كان يحب الحديث عن علاقاته - عن بوشكين وجوكوفسكي وكريلوف - وهي الأسماء الأعظم في الأدب الروسي- وكذلك عن الأمراء والجنرالات والوصيفات والوزراء. تفاخر مثلاً بأنه يستطيع إدخال أنا وإليزافيتا كطالبتين داخليتين في المعهد الوطني للفتيات دون أن تدفع العائلة أية تكاليف، وبذا تتلقيان أفضل تعليم ممكن وبتكلفة لا تذكر. قفزت ماريا إيفانوفنا فرحاً لهذا الاقتراح وتقرر أن تذهب الفتاتان مع أخيهما إلى سانت بطرسبرج. غير أن من الواجب أن تصحبهما خادمة. المؤسف أن ياكيم غير متزوج! ولكن الوقت لم يفت بعد لمعالجة هذه المسألة. استدعت ياكيم بعد التشاور مع ابنها واقترحت عليه بدون أية مقدمات أن يتزوج إحدى خادماتها وهي «ماتريونا» والتي اختارتها له هو بالذات بالنظر لصفاتها المتميزة: فهي جَلدة في عملها، مرتبة، لطيفة. ليست تنوي إجباره بالطبع على هذا الزواج، وإن كانت قد قالت ذلك بلهجة تنم عن أنها لا تطيق أي اعتراض في هذا الأمر.

احمرّ وجه ياكيم وأخذ يتضاحك ويتأرجح إلى الأمام والخلف وعينا سيدته تحدقان به وتلجلج بالقول: «الأمر سيان بالنسبة لي. افعلي ما يرضيك». وحسب رواية آنا فاسيلييفنا جوجول فيما بعد فقد سرتها موافقته وأمرت باستكمال كل الترتيبات للزواج. . وهكذا وجد ياكيم لديه زوجة لم يكن يريدها وظفرت الفتاتان الصغيرتان بخادمة تذرف الدموع باستمرار.

ما إن وصلت الترتيبات إلى هذه المرحلة حتى أصيبت الفتيات جميعاً بداء الحصبة، ولذا كان لابدّ من تأخير موعد المغادرة. زحف شهر آب بأيامه الحارة الجافة وأزيز أسراب البعوض. كتب جوجول لديمتربيف في (٢٣ أيلول/ سبتمبر) يقول: «أنا سعيد هنا، وأعتقد أن ليس هناك في العالم برمته من يحب الطبيعة بنفس العاطفة التي أملكها. إنني أخاف الابتعاد عن الريف ولو للحظة واحدة، بل أراقب كل وميض صادر عنها وأكتشف نواحي جمال لم أحلم بها من قبل».

في رسالة أخرى في نفس الفترة إلى ديمتربيف يقول: «يبدو لي أن هذه الأراضي لا ينقصها شيء!. صيف رائع. الحنطة، الفاكهة، كل الأشياء تنمو أكواماً وبمقادير وفيرة. ومع ذلك فالناس فقراء والإقطاعات تتهاوى والديون لاتدفع. والسبب في ذلك هو عدم وجود وسائل المواصلات. وعلى هذا أصبح السكان كسالى ومخدّرين والملاك يرون بأم العين أن زراعة الحنطة وصناعة الخمور لا تكفي للحصول على دخلٍ كافٍ، ولذا فعليهم أن ينظروا في أمر إنشاء معامل وفتح حوانيت».

كان هذا بالضبط هو رأي ماريا إيفانوفنا التي حاولت عبثاً الحصول على ثروة بزراعة التبغ. وكان صهرها تروشكوفسكي يحثها على إنشاء مدبغة للجلود قائلاً إن هذا يضمن تحقيق دخل يبلغ ثمانية آلاف روبل في السنة الأولى. غير أن ذلك يستوجب استخدام خمسة وعشرين موظفاً. أما جوجول فكان يفضل بداية أكثر تواضعاً. كان رأي أمه وصهره والخبير النمساوي أنه يبالغ في حذره. ولذا استسلم مرغماً، فما الفائدة من مجادلتهم؟ سيفعلون ما يحلو لهم على أية حال بعد أن يغادر. كانت آنا وإليزافيتا تتماثلان للشفاء على أية حال وإن ظلتا

شاحبتين وهزيلتين بعد التزامهما الفراش لأسابيع. وكانتا تتخمان بالطعام لتعزيز قوتهما.

في النهاية، في ٢٩ أيلول/ سبتمبر صعدتا إلى العربة الصفراء العتيقة للعائلة وهما تبكيان وتنشقان وشقيقهما إلى جانبهما. جلس ياكيم وماتريونا إلى جانب السائق، ورافقتهم ماريا إيفانوفنا وابنتها الكبرى في عربة كلاش (عربة ذات غطاء) حتى بولتافا، وهناك كان الوداع النهائي. وبعد قضاء ثمان وأربعين ساعة في نزل اتجه جوجول وشقيقتاه وياكيم وماتريونا باتجاه الشمال في عربة تجرها خيول مستأجرة بينما عادت ماريا وابنتها إلى فاسيلييفكا.

كانت الصناديق تتمايل والدواليب تصرّ وكأنها تكاد تتقصف وجوجول يحاول تسلية الصغيرتين اللتين ظلتا تبكيان باستمرار. ولكن مراحل السفر طويلة، ولم تكن هنالك خيول في المحطات، وتعرضت العربة لأعطال عديدة إلى أن تحطمت في النهاية على الطريق إلى كورسك ولم يعد بالإمكان إصلاحها فكان عليهم البقاء هناك لمدة أسبوع لإجراء الإصلاحات اللازمة. وقد كتب جوجول لبلتنييف وقد نفد صبره في (٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٣٢) يقول: «نجّاك الله من خوض تجربة السفر في رحلة طويلة، وأسوأ ما فيها هو مجادلة الوحوش الكريهة، أي مدراء محطات توفير الخيول الذين يبذلون كل ما في وسعهم لإذلالنا باستمرار ما دمنا مجرد فنانين، ولسنا جنرالات ويجعلوننا، نحن المسالمين ندفع ثمن تعنيف هؤلاء الجنرالات لهم».

جففت الفتاتان الصغيرتان دموعهما في النهاية وأخذتا تظهران اهتماماً أكبر بحياتهما الجديدة. وقد كتب جوجول لأمه في (١٢ تشرين الأول/ أكتوبر) يقول: «لم تعودا تفكران بالبيت بعد على الإطلاق، ويدهشني أنهما استطاعتا النسيان بهذه السرعة. آنا فقط ما تزال تتذكر خصوصاً عندما يتوجب علينا الانتظار فترة طويلة للحصول على خيول جديدة».

ما إن تم إصلاح العربة وتزييتها حتى استؤنفت الرحلة تحت سماء دافئة وعبر منظر طبيعي خريفي.

وصلوا موسكو في (١٨ تشرين الأول/ أكتوبر) وكانت أوراق الشجر الميتة تتكوم فوق الأرصفة، ومئات الغربان تتخذ لها مواقع فوق صلبان وقباب الكنائس، وسماء رمادية قاتمة تضغط على الأسطح. وقد طلب جوجول تثبيت مظلة كبيرة فوق العربة كتتمة لغطائها الذي لم يعد كافياً وأصبح مشوهاً ومليئاً بالثقوب كما يذكر في رسالة في (٢١ تشرين الأول/ أكتوبر). لم يكن ليغادر موسكو دون أن يزور الأصدقاء الذين صادقهم من قبل ودون عقد صداقات جديدة. انزل شقيقتيه مع ياكيم وماتريونا في أحد الفنادق وهرول لرؤية أكساكوف وزاجوسكين، وتعرف على «ميخائيل ماكسيموفيتش» أستاذ علم النبات في الجامعة والذي يجمع الأساطير الأوكرانية، وكذلك »أوسيب بوديانسكي» أستاذ الدراسات السلافية وهو أيضاً من المتحمسين حماساً شديداً لأوكرانيا. مرّت أيام أربعة وهو يهرول من هنا إلى هناك ويقوم بزيارات ويجري أحاديث تثير الخيال، وبعدها تابع طريقه إلى سانت بطرسبرج.

ما إن وصل إلى العاصمة حتى توجه إلى المعهد الوطني لتحرّي إمكانية قبول شقيقتيه كطالبتين داخليتين. غير أن المديرة السيدة «ويستنجهاوس»، وهي امرأة متقدمة في السن، منحنية الظهر تزن كل كلمة تنطق بها، استقبلته ببرود متسائلة لماذا لم يبدِ أي إشارة بأنه حي يرزق خلال الأشهر الأربعة التي تغيّب خلالها. كما قالت إن القبول في المعهد قد استكمل تماماً ولم يقبل المعهد إلا بنات الضباط. غير أنها وافقت على رفع طلبه إلى الإمبراطورة بعد أن استمعت للاعتذارات والتفسيرات التي قدمها. اشترط الالتماس الذي قدم في (١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر) أن يتخلى جوجول عن راتبه المهني البالغ اثني عشر ألف روبل في العام إن أمكن قبول شقيقتيه في المعهد.

أخذ جوجول دوره كأخ أكبر مأخذ الجد التام فبدأ في فترة انتظار صدور القرار الأعلى في اختيار الكتب التي يريد لأنا وأليزافيتا قراءتها، وفي اصطحابهن للنزهة وللمسرح وحديقة الحيوانات، وفي شراء الألعاب والحلويات لهما. كانت ماتريونا ممتازة في تعاملها معهما، أما ياكيم فقد بدأ يشرب فعمد سيده

إلى ضربه بعد أن لاحظ هذا الأمر. وقد اعترف بذلك في رسالة كتبها إلى أمه في (٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٣٢) حيث يقول: «ضربته ضرباً مبرحاً». فقد أصبح جوجول أكثر عصبية مما جعله يضرب خادمه بتكرار أكبر وهو يصرخ به قائلاً: «سأحطم وجهك إن لم تتوقف».

حين كان قد فقد الأمل تقريباً فيما يتعلق بتأمين مكان لأختيه وافقت الإمبراطورة على طلبه. اصطحب الفتاتين الصغيرتين إلى المعهد الذي كان قد بدأ التدريس فيه. كانت ماتروينا قد جعّدت لهما شعرهما وألبستهما لباس المعهد الخاص المصنوع من قماش بلون الشوكولاته. ارتدت هي أيضاً أفضل ما لديها من ثياب وكان عليها، بناءً على العادة المتبعة، أن تخدم الفتاتين وتقيم معهما في المدرسة، ولن ترى ياكيم إلا في مناسبات قليلة. غير أن أياً منهما لم يتذمر كثيراً جراء ذلك: فأوامر السادة مقدسة.

كان من الغريب جداً بالنسبة لآنا وإليزافيتا أنه يكون شقيقهما معلماً لهما. وتفكران وهما تريانه وهو يقف على المنبر ويحاضر بلهجة جدية بأنه إنما يلعب دوراً لا يؤمن به في الواقع. غير أنه، إن جاء لزيارتهما فإن الهمسات والضحكات المكتومة في الصف كانت تشلهما فيمتنعان عادة عن إجابته. كان يبقى معهما بعد انتهاء الدروس حيث يشاركهما شرب الشاي ومسح كل ما في مرطبانات المربى لديهما، فقد كان أكثر الثلاثة شهية للأكل. غير أنه ما لبث أن أخذ يقلل أكثر فأكثر من حضوره إلى المعهد حيث يدّعي المرض كل يومين أو نحو ذلك. فهو لا يتلقى راتباً في الواقع. وقد وافقت المديرة بسماحة نفس على بقاء الفتاتين على الرغم من تقصير شقيقهما في أداء واجباته التدريسية.

انتقل خلال تلك الفترة إلى شقة في شارع «موريسكايا». وقد قام بنفسه بكل أعمال الديكور بمساعدة ياكيم فقط، بما في ذلك دهن الأبواب وتثبيت الرفوف وتفصيل وخياطة الستائر - بهدف التوفير، وكذلك لأنه يريد أن يفعل ذلك. كان للشقة درج مظلم شديد الانحدار، وردهة صغيرة كمدخل وغرفتان تطلان على الباحة. إحدى الغرفتين كانت للنوم والطعام والجلوس، أما الثانية

فهي مكتب يحوي أريكة و كرسياً وطاولة رصت عليها الكتب ، ومكتب مرتفع للكتابة . زينت الجدران بلوحات محفورة مصفحة برقائق الصلب حفرت عليها مناظر من اليونان والهند وبلاد فارس كان جوجول فخوراً بها . وفي هذا المأوى المتواضع كان يستقبل أصدقاءه من طلاب مدرسة «نييجن» كما كان يفعل من قبل . غير أن بوشكين صار يأتي الآن أيضاً إضافة إلى بلتنييف وأصدقاء جدد آخرين بمن فيهم الشاب أنينكوف ذي العين الثاقبة والمغرم بالأدب كذلك . كان يقدم لضيوفه في العادة أكواب الشاي الثقيل والكيك الإسفنجي والبسكويت الهش . وبين آونة وأخرى يقيم وليمة عشاء يتقاسم الحاضرون تكلفتها . كان هو نفسه يقوم في هذه المناسبات بإعداد كعكات الخميرة المحلاة (دونت) والزلابياء والكريما ، أو يحضّر طبقاً أوكرانياً تفوح رائحته العابقة في الغرفة برمتها . كان يبدو وهو يقف بباب المطبخ بشعره المنتصب في قمة راسه والربطة ذات اللون المتوهج حول رقبته والمريول المربوط حول معدته كان يبدو ، كما يقول أصدقاؤه ، وكأنه ديك يقف منتصباً على قائمتيه .

كان يتسلى بإطلاق أسماء كتاب فرنسيين على أصدقائه . هناك مثلاً فيكتور هوغو ، وألكسندر دوماس ، وأتور بلزاك ، هناك شاب صغير خجول أطلق عليه اسم «صوفي جي[١]» . بينما أطلق على أنينكوف ، ولسبب لا يعرفه ، اسم «جوبس جانين[٢]» . ولكنه قلما كان يهتم بالأدب الفرنسي . فالفرنسيون ، في نظره ، يسقطون حكومة بعد حكومة لينصبوا أخرى مكانها . أثبتوا ذلك من جديد عام (١٨٣٠) عندما أسقطوا حكومة شارل العاشر . لا يمكن أن يكون كتّاب مثل هذه الأمة جادين فيما يعتقد . كان يحرص بشكل خاص على التقليل من شأن موليير حيث ينتقد حبكته وابتذال الطريقة التي يحل بها عقدة تلك الحبكة . ولكن بوشكين ردّ ساخطاً حين سمعه ينتقد كتابات مؤلف «مبغض

(١) صوفي جي : روائية وكاتبة مسرحية فرنسية كانت كتاباتها رائجة في ذلك الحين (١٧٧٦-١٨٥٢) .

(٢) جوبس جانين : كاتب فرنسي ناجح ، وهو ناقد مسرحي بشكل أساسي قلما يعرفه أحد حالياً (١٨٠٤-١٨٧٤) .

البشر» معلناً بأن نبوغ كاتب مالا يكمن في الحيل الدرامية التي يستخدمها بل في ما تعبر عنه كتاباته من إنسانية. بعد هذا الحديث أعاد جوجول قراءة موليير وأدرك أهميته بشكل أفضل. كان يؤمن إيماناً كلياً بأحكام بوشكين ويشعر أن بوشكين وحده يمكن أن يسيطر عليه ويوجهه. ومع هذا فهو ينفر من كل مايتصف به هذا الشاعر - إذ يتصف بالعاطفة، والشجاعة، والكرم، وحب النساء، والمقامرة ويعيش على حافة أكثر الأخطار شدة وأكثرها تهوراً - كيف يمكن لشاعر مثل هذا أن يتعلق بكل هذه القوة بمسرات دنيوية؟ لماذا يفهمه كل هؤلاء الناس ويحبونه؟ أما جوجول، وعلى العكس من بوشكين، فهو لا يسمح لنفسه باتباع نزواته الغريزية. لقد ظل متيقظاً دائماً يتفحص كل ما يدور حوله ولا يفرّط بأي شيء من ذاته.

يكتب عنه أنينكوف في مذكراته فيقول: «يمكن القول أنه لم يكن يفتح نفسه لأحد قط ومن المستحيل أن تجده وقد تجرد من سلاحه، وهو عينه النفاذة التي تلاحق الحالة الذهنية للآخرين وردود أفعالهم. إنه يريد أن يرى حتى الأشياء التي كان يمكنه تخمينها بسهولة».

إذا ما روى أحدهم رواية مثيرة للاهتمام في حضوره فإنه يتجمد تماماً وكله آذان صاغية، بل أصبح وجوده كله بمثابة جهاز التقاط. رأى أنينكوف تعبير الجشع الفكري على وجهه حين تحدث أحد ضيوفه، ربما كان طبيباً، عن سلوك المجانين والمنطق المتصلب الذي ينتهجونه في تطوير أفكارهم الشاذة. بعد ذلك روى ضيف آخر قصة موظف صغير وفّر ثم وفّر من المال ما مكّنه من شراء بندقية الصيد الإنجليزية التي كان يحلم بها، وبعد ذلك فقدها في مستنقعات خليج فنلندا في أول مرة يخرج فيها للصيد. حزن الرجل على فقدانها أشد الحزن بحيث أن زملاءه قاموا بجمع تبرعات لكي يشتروا له بندقية أخرى. وقد كتب أنينكوف يقول: «ضحك كل من في الغرفة على هذه الحكاية المبنية على قصة حقيقية. إلا أن جوجول كان الوحيد الذي أنصت وهو يحدق بالأرض ويمعن التفكير فيما يسمع».

بما أنه كان يبحث على الدوام عن أفكار جديدة، أفكار يمكنه «استخدامها» فإنه لم يقنع بتلك التي تصل إليه وهو في بيته، بل كان كثيراً ما يتجول في قاعات الاستقبال وينتقي المزيد من المواد من هنا وهناك ومن كل مكان. من الممكن رؤيته بعينين متلهفتين وأذنين مهتزتين وربطة عنق لافتة للأنظار لدى «آل كارامزين» و«آل جوكوفسكي» و«آل بليتنييف» و«بوشكين»، وفي غرفة تبديل الملابس للمثل «سوسنتسكي»، وإلى جانب سرير الكساندرا سميرنوف التي كانت تتماثل للشفاء من ولادة صعبة. وعندما يعود إلى بيته ليلاً يتوجه إلى مكتبه ويسجل كل الأفكار والانطباعات التي تدور في رأسه مهما كان المصدر الذي استقاها منه. كان يحب أن يكتب على سجلات مكتبية كبيرة الحجم، وبخط أنثوي صغير متقارب ويملأ الصفحة برمتها دون أن يترك أية هوامش أو مساحات فارغة. كانت الأحرف المكتوبة بالحبر الفاتح تتصادم بعضها، والكلمات تختلط، والأسطر تتموّج صعوداً وهبوطاً، وتصحيحات مجهرية تحشر بين السطور الأصلية التي لا تكاد تكون مقروءة. ويشارك مقال بعنوان «النحت والرسم والموسيقى» في صفحة واحدة مع قصة قصيرة تدور حول شارع غامض لا يضيئه إلا مصباح واحد في جزيرة «فاسيلييفسكي». الجملة الأولى في إحدى القصص «ليس هنالك ماهو أجمل من «نيفسكي بروسبكت»، في سانت بطرسبرج على الأقل«. تتبعها دراسة عن «هيردر». تختلط ردود فعله الشخصية بملاحظات من قراءات تاريخية: «الفارنجيون»، و«التحالفات بين الملوك الأوربيين والأباطرة الروس». «قرن لويس الرابع عشر»، و«الفتوحات النورماندية».

هذا التنوع والتشوش في المواضيع إنما يدل على حيرة الكاتب الحادة، فهو لم يكن يعرف في أي اتجاه يتجه. وبعد أن سرّه نجاح كتابه «أمسيات في مزرعة» بدأ هذا النجاح يرعبه. فهو يرى نقائص في مجموعته ولا يحتمل سماع من يمتدحها. بل إنه أخذ يفكر بأن قراءه، إن كانوا يصرون على امتداح إنتاجه العادي هذا فإنهم إنما يقللون، ضمناً، من شأن أي كتابات سيكتبها فيما بعد. فهو يقيّم نفسه في مقام أعلى من أن تكون مهمته مجرد التسلية. لقد خلق لينير

عالم البشرية ، ومن واجبه أن يتقدم مع كل كتاب إلى أن يصل إلى الكمال الذي يرغب به .

كتب إلى بوجودين (في أول شباط/ فبراير ١٨٣٣) يقول: «تتحدث عن «الأمسيات»! فليأخذها الشيطان . لن أصدر لها طبعة أخرى . من المؤكد أنني لا أعارض في كسب بعض المال ، ولكنني لن أكتب لهذا الهدف وحده . لن أراكم قصة فوق قصة ، هذا ما لا أستطيع أن أفعله . كدت أنسى أنني كتبت «الأمسيات» ، وهاأنت تذكرني بها . فلتغرق في النسيان إلى أن يحين اليوم الذي أنتج فيه شيئاً هاماً ، عظيماً وفنياً حقاً . . . . مازلت متعطلاً ، جامداً ، فلست أريد تقديم شيء صغير ، وليس لديّ شيء كبير . باختصار ، إنني أعاني من إمساك فكري» .

بمرور الأسابيع أخذ يزداد قلقاً لعجزه عن إنتاج عمل يستحق المصير الذي نذر نفسه له ، وغدت رسائله إلى أصدقائه عبارة عن نواحٍ متصل . وهو يقول في رسالة إلى بوجودين في (٢٥ تشرين الثاني ١٨٣٢): «ما يغيظني بشكل أساسي هو أن قدراتي الإبداعية ما تزال تراوغني» . وفي رسالة إلى أمه في (٨ شباط/ فبراير ١٨٣٣) يتساءل: «لا أقوم بأي عمل . فهل الكسل الكلي هو ما جلبته معي من البيت؟» وفي رسالة إلى ماكسيموفيتش في (٢٣ تموز/ يوليو ١٨٣٣) يقول: «أصبحت بارداً ، قاسياً ، عادياً بحيث لم أعد أعرف نفسي . عام كامل يكاد يمر دون أن أكتب سطراً واحداً . مهما حاولت فسيكون جهداً ضائعاً» . وفي رسالة إلى أمه في (٩ آب/ أغسطس ١٨٣٣) يقول: «لست أدري فيما إن كان الله سيتلطف وينزل عليّ الإلهام» . غير أنه في آخر عام (١٨٣٣) ظنّ بأنه وجد الجواب ، وسيكون ذلك في مسرحية كوميدية بعنوان «صليب فلا ديمير» . الموضوع كما شرحه لعدد قليل من الأصدقاء هو الهوس بالأوسمة والألقاب . مسؤول حكومي كبير تستحوذ على حياته كلها هلوسات الحصول على وسام معين هو وسام القديس فلاديمير والذي يرفع من يناله إلى مرتبة شخص «نبيل

دمث» (جنتلمان)، إلى أن يصل هذا الهوس في النهاية إلى درجة الجنون حيث يعتبر نفسه حاملاً لوسام «صليب فلاديمير» (من الدرجة الثالثة).

في (٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٣٢) كتب بلتنييف إلى جوكوفسكي يقول: «لدى جوجول فكرة لمسرحية كوميدية، ولكنني لا أدري إن كان سينتجها هذا الشتاء وإن كنت أتوقع منه شيئاً أكثر من عادي، ولطالما أدهشني الحوار في أقاصيصه».

بل إن جوجول نفسه كتب إلى بوجودين في (٢٠ شباط/ فبراير ١٨٣٣) يقول: «لطالما فتنت بالكوميديا، بل وصلت بي هذه الفكرة إلى درجة الهوس في موسكو، وفي سفراتي وعندما وصلت إلى هنا، ولكن شيئاً في هذا الميدان لم يتحقق بعد. عنوان الموضوع بدأ يبرز، بل إن العنوان كتب نفسه على الصفحة الأولى من كراس كبير ما زال فارغاً وهو «صليب فلاديمير». أطنان من سوء الطالع والفلفل والضحكات! غير أنني توقفت عندما رأيت قلمي يتلعثم أمام مقاطع لن يسمح بها الرقيب. ما فائدة مسرحية لن تُمَثَّل على خشبة المسرح! فالدراما لا تعيش إلا على المسرح، وإلا فإنها تصبح روحاً دون جسد. ولذلك فإن ما يمكنني أن أفعله هو أن أبتدع موضوعاً غير ضار بحيث لا يزعج حتى مفوض الشرطة. ولكن أي صنف من الكوميديا هو ذلك الذي لا يحوي صدقاً ولا حقداً؟».

أكد بلتنييف هذا الوضع بعد أيام قليلة في رسالة إلى جوكوفسكي حيث يقول: «لا شيء جديد لدى جوجول ومسرحيته الكوميدية ما تزال في رأسه. أراد أن يضع الكثير من الأمور في المسرحية، وهو يثير باستمرار مشاكل تتعلق بالتعبير ولكنه بالتالي، وبسبب انفعاله لم يكتب شيئاً».

أنجز في الواقع بعض المشاهد[1] من مسرحية «صليب فلاديمير» ودفنها ضمن ركام التجارب. كما وضع الخطوط العريضة لمسرحية كوميدية ذات موضوع

(١) ما لبث أن أعاد كتابة هذه المشاهد ونشرها بعد أن بدّل الأسماء في جميع المشاهد. وهي «صباح مسؤول»، «الدعوى القضائية»، «وقاعة الخدم».

«غير ضار» كما وصفه هو نفسه وأطلق عليها عنوان «الخاطبون»، ولكنه ما لبث أن اعتبرها غير ممتعة ووضعها جانباً بنيّة إعادة كتابتها عندما يعاوده الإلهام. بدأ في النهاية بكتابة قصص قصيرة ومنها: «الأنف»، «مذكرات مجنون» و «النزاع بين الإيفانين». ولكنه كان يكتب على مضض إذ سيطر عليه شعور بغيض بأنه إنما يكرر نفسه ولا يتقدم إلى الأمام. قد يكون من الأفضل له لو يترك المسرح والقصة القصيرة ويتحول إلى كتابة التاريخ. فلطالما كان مغرماً بالماضي. انغمس على الفور في البحث وإن ظل يشعر بوخزة أسف لتخليه عن فكرة التواصل المباشر مع الجمهور.

كتب إلى بوجودين في (٢٠ شباط/فبراير ١٨٣٣) يقول: «عكفت على كتابة دراسة تاريخية ولكنني ما لبثت أن أخذت أرى على الفور المشهد على خشبة المسرح. أسمع تصفيق الجمهور، أرى الوجوه وهي تتكئ على شباك التذاكر وتطل من الشرفات، من المقاعد الأمامية في المسرح، وهي تضحك وتكشف عن أسنانها، فأرمي دراستي التاريخية إلى الشيطان».

ولكن هذه الدراسة التاريخية ما تلبث أن تعود من جديد فهي آمنة، على العكس من جميع الأشكال الأدبية الأخرى التي تظل مشروعاً ذهنياً خطراً. فقد يخرج عن المسار كلياً لدى كتابة مسرحية أو قصة قصيرة. ولكن هذا لا يحدث حين تكتفي بإعادة خلق الماضي مستنداً إلى كتابات موثوقة. وفيما يتعلق بالشهرة والثروة فإن المؤرخ ليس أقل شأناً من الروائي أو الكاتب المسرحي، وبوشكين نفسه التفت إلى التاريخ في كتابه «بوجاشيف».

كان من الطبيعي أن يفكر جوجول في البداية بتاريخ أوكرانيا، جمع المواد ونقب في الأرشيف وأخذ ملاحظات من حواشي المؤرخين المعاصرين. ولكنه سرعان ما سئم بشدة ذلك العمل الشاق المرهق الذي يقوم على تصنيف النصوص والوثائق والصفحات المطبوعة التي تفوح منها رائحة القبور، ولم يستطع حمل نفسه على تطبيق الأساليب البعيدة عن الفكر والعاطفة التي يتّبعها «الأكاديميون المتوحشون» في معالجة الأحداث الماضية. كان هدفه إيقاظ الموتى ومنحهم

دفء الحياة من جديد. وعلى هذا الأساس يصبح تسلسل الأحداث أقل أهمية من إضفاء النشاط على الحياة اليومية للوجود البشري. وعلى هذا فإن على المرء أن يترك جانباً الأدلة الرسمية وينغمس في غمار الأسطورة والتراث الشعبي إذا كان يريد إعادة إحياء الماضي. وكلما أدرك المرء ذلك توفرت أمامه فرصة أكبر لإعادة خلق الماضي كما كان على حقيقته. وقد كتب لمكسيموفيتش في (٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٣٣) يقول:

«سخرت نفسي لتاريخ أوكرانيا، ليس هناك منطقة تضاهيها ولكنها سيئة الحظ، وليس هناك ما يخفف الألم أكثر من التاريخ. أفكاري تأخذ بالانتظام والتدفق وأعتقد أنني سوف أكتب هذا العمل وسأقول فيه بعض الأمور التي لم يتناولها أحد من قبل. سررت جداً عندما علمت بأنك عثرت على بعض الأغنيات، وأرجو أن تعدّ نسخاً عن كل ما لديك وأن ترسلها إلي، فأنا لا أستطيع العيش دون أغنيات، ولا يمكنك أن تتخيل مدى مساعدتها لي في عملي. ليس الأغنيات التاريخية فقط بل حتى الفاحشة منها، فكلها تعطي لمسات تلوّن التاريخ الذي أكتبه وتوضح لي طبيعة الزمن والناس الذين لم يعودوا موجودين مع الأسف».

ردّد هذا أيضاً في رسالة له (في ٦ آذار/ مارس ١٨٣٤) إلى عالم فقه اللغة السلافي «سريجنفسكي» حيث يقول:

«نغمة واحدة في إحدى الأغاني تظهر لي من الماضي أكثر من كل تواريخ العرض الكئيب للأحداث – هذا، إن سميت دراسة كتبت بعد الحدث مباشرة بأنها عرض تاريخي للأحداث أو تعليقات سجلت بعد أن غرقت الذاكرة في النسيان. يذكرني هؤلاء المؤرخون لتسلسل الأحداث بملاّك يغلق باب إسطبله بعد أن سرق حصانه».

على الرغم من أنه اعتبر قراره كتابة تاريخ حي عن أوكرانيا بمثابة قسم مقدس، غير أنه أخذ يتساءل على الفور فيما إن كان قد أخطأ حين حصر نفسه

في منطقة واحدة بالذات. فقد أصبح يخشى، بعد أن نشر «أمسيات في مزرعة» من أن يصنف كمؤلف إقليمي، أما الآن وهو يكتب عملاً يتناول تاريخ أوكرانيا فقد يصنف كمؤرخ قوزاقي في حين يطمح في أن تكون له أهمية عالمية. وعلى هذا فإن عليه، لكي يلبّي متطلبات مصيره، أن يلحق تاريخه عن أوكرانيا بعمل يتناول تاريخ العالم. ولكن ضخامة هذه المهمة أخذت تجعل رأسه يدور، فجَبُن عن تلك المهمة وإن لم يشك في قدرته على إنجازها. فالقضية تنحصر في عملية البناء: ثمانية أو تسعة مجلدات. أطلق متهللاً «خطة لتعليم تاريخ العالم» وجهها لوزير التربية أوفاروف:

«إذا فهمنا التاريخ على نحو صحيح فإننا ندرك بأنه ليس مجموعة من التواريخ غير المترابطة لكل دولة ولكل أمة على حدة ليس يربطها مخطط شامل أو هدف كلي. ليس التاريخ مجرد تراكم لحقائق جامدة هامدة كما يفترض فيه عامة، بل إن نطاقه هائل: عليه أن يشمل بني البشر جميعاً بلمحة واحدة، وأن يظهر كيف كان مسار تطوره وتناميه منذ بداياته الواهنة وحتى هذا اليوم».

في ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٣٣ كتب إلى بوشكين يقول:

«سأنهي تاريخ أوكرانيا وجنوبي روسيا، وبعد ذلك سوف أكتب تاريخ العالم الذي لا توجد له حتى الآن رواية صادقة، لا في روسيا وحدها بل في أوروبا برمتها. أي مخزن للتقاليد والمعتقدات والأغاني التي سأجمعها معاً».

تنامى تصميمه على أن يصبح مؤرخاً كبيراً وغدا هذا التصميم من القوة بحيث قرر، بناءً على نصيحة ماكسيموفيتش، بأن يتقدم لاحتلال كرسي تاريخ العالم في جامعة القديس فلاديمير التي تأسست في الآونة الأخيرة في كييف. ولكنه لا يملك بالتأكيد الشهادات ولا المعرفة الواسعة المكتسبة من الكتب، كما أن تجربته في التعليم شبه معدومة. غير أن هنالك في الواقع نقصاً في عدد الأساتذة في روسيا ووزير التعليم لن يعترض فيما يتعلق بأمور تافهة مثل المؤهلات المطلوبة. وماكسيموفيتش بالذات، والذي كان يدرس علم النبات في موسكو، سيصبح

أستاذاً للأدب في كييف وذلك بناءً على طلبه، وبذلك سيكون هو وجوجول معاً في «أم المدن الروسية». سيقومان بإجراء بحوث في الأرشيف، وسيتغديان ويتعشيان على الأغاني الشعبية والأساطير، وسيعلّمان العالم طريقة جديدة في النظر للتاريخ.

كتب جوجول لماكسيموفيتش (في شهر كانون الأول/ديسمبر ١٨٣٣) يقول:

«إلى كييف... فلنتوجه إلى كييف، كييفنا القديمة الرائعة! إنها لنا وليست لهم، كل تاريخنا القديم بدأ هناك. مللت سانت بطرسبرج، بل أنهكتني بطقسها المريع. سيكون من الرائع بالنسبة إلينا، كلينا، أن نحصل على عمل في كييف وسننتج خيراً كثيراً».

يبقى عائق الوزير. لابدّ أن تقرير جوجول حول تدريس تاريخ العالم جعل الوزير ميّالاً إليه، وللحيلولة دون أي تردد لابدّ لهما ببساطة من تجنيد أصدقائهما في هذا السبيل. يقف على رأس القائمة جوكوفسكي، العجوز الطيب، مدرس ولي العهد. غير أن من الواجب عدم إهمال بوشكين نظراً لأنه على علاقة طيبة مع بعض الشخصيات عظيمة الشأن ويعرف «أوفاروف» شخصياً. ولذا أرسل إليه جوجول رسالة في (٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٣٣) حرص فيها على إطراء الوزير وإرضاء غروره إن اطلع عليها حيث يقول:

«لو أن أوفاروف من ذلك الصنف ممن نجد الكثيرين منهم في الوظائف العليا لدينا لما قررت أن ألجأ إليه أو أعرض أفكاري أمامه، ولقدمت نفس الإجابة التي كنت قد قدمتها منذ ثلاث سنوات عندما عرض عليّ كرسي في جامعة موسكو[1].

ولكن البارون «ليفن»، وهو رجل لا يتمتع بذكاء كبير، كان يتولى وزارة التربية حينذاك، ومن المحزن أن هناك من لا يقدر عملنا. أما أوفاروف فهو يعرف ما يريد. عرفت ذلك بوضوح من وجهات نظره حول جوته، إلى

(١) لم يعرض عليه أي اقتراح من هذا النمط سواء في عام ١٨٣٠ أو ١٨٣١.

جانب عمله حول التفعيلات الشعرية السداسية مما يظهر معرفة فلسفية واسعة باللغة وتيقظاً ذهنياً واضحاً، وأنا على يقين بأنه سينجز هنا أكثر مما فعل «جويزو»[1] في فرنسا. وإنني واثق من أنه، إذا تفضل ونظر في خطتي بإمعان فإنه سيختارني من بين حشد أولئك التافهين الذين يديرون كليات جامعاتنا».

إن كان هذا الإسراف في المديح لن يقنع أوفاروف فلا أمل في الدبلوماسية بعد! غير أن على المرء أن يتحلى بالصبر، فالقرارات لا تنضج إلا بعد مرور وقت طويل في الطبقات العليا من الإدارة. غير أنه باقتراب بداية السنة الجديدة اتخذ حماس جوجول لوناً صوفياً. فما دام لم ينتج شيئاً فائق الجودة في عام (١٨٣٣) فلابدّ أن الله قد حدد له عام (١٨٣٤) كعام مجده. وفي إحدى الليالي شديدة البرودة رسم، وهو ينحني فوق مكتبه بيان ميزانية الأشهر الاثني عشر السالفة. لم ينشر أي شيء ذي قيمة، لا مال وديون وفيرة. وقد اضطرت أمه لإعادة تنظيم مدبغة الجلود وطرد «الخبراء النمساويين» الذين كانوا خبراء في سلبها، ورهنت فاسيلييفكا ثانية: غير أن كل ذلك غرق في طوفان الآمال التي تنبع من داخله.

كتب يقول: «لحظة جليلة عظيمة. الماضي يدمدم عند قدميّ، وفوقي وعبر الضباب يتوهج المستقبل الذي يصعب فك رموزه. أتوسل إليك، يا حياة روحي، يا موهبة نبوغي الحارسة، لا تختبئي عني! احرسيني منذ هذه اللحظة ولا تهجريني طوال هذه السنة التي تبدو لي واعدة. وأنت يا مستقبلي، كيف ستكون؟ أتوسل إليك! كن متألقاً، كن مليئاً بالنشاط، منذوراً للعمل، للهدوء يا عام (١٨٣٤)، الغامض الذي لا يخترق. هل سأخلدك بعمل؟ وفي أي مكان سأنجز ذلك؟ هل سيكون هنا، في وسط هذه البيوت العالية المتراصة، في هذه الشوارع الخشنة، وسط هذه الكتلة عديمة الشكل من «الموضة»، والتفاخر، والموظفين، والليالي الشمالية الموحشة، وسط هذه البهرجة التافهة والضآلة؟ أم في كييف الجميلة، العتيقة، أرضي الموعودة التي تحيط بها الحدائق الخصيبة،

(١) مؤرخ وسياسي فرنسي (١٧٨٧-١٨٧٤).

وتزنرها تلك السماء الجنوبية الرائعة، بلياليها المسكرة، بتلالها المليئة بالأدغال، بممراتها الضيقة التي تشابه الأقداح المتناغمة، ونهري: الدنيبر الذي تغسل مياهه النقية السريعة أقدام الجبال؟ هناك؟ أجل، لا أدري كيف أدعوك يا روحي الحارسة! أنت التي ملأت أذني حتى وأنا ما أزال في المهد بتلك الأغنيات المجنحة الشجية التي ولّدت في داخلي تلك الأفكار الرائعة التي لا تنطفئ وهدهدتني بأحلام فسيحة مذهلة! أرجوك انظري إليّ! دعي نظرتك السماوية تحدق بي. إنني أركع، ألقي بنفسي تحت قدميك، أرجوك لا تهجريني. ابقي إلى جانبي على هذه الأرض، مثل أخ رائع، ولو لساعتين كل يوم. سوف أنجز، أجل سوف أنجز، فالحياة تغلي في داخلي، سوف تلهمني الكلمة. ستحلّق فوقها القداسة التي يصعب الوصول إليها. سوف أنجز! أعطني قبلة واحدة وامنحيني بركتك».

هذا التوسل القدسي الذي صدر عنه ليلة (٣١) كانون الأول/ ديسمبر (١٨٣٣) كان صادقاً على الرغم من كلماته الطنانة، فهو يعجز عن البساطة عندما يكون في قبضة عواطف رفيعة. كان يذرف الكلمات كما يذرف الآخرون الدموع.

كان واثقاً في بداية السنة الجديدة بأنه سيحظى بالكرسي الجامعي الذي يطمح له بحيث أنه كتب لمكسيموفيتش في (١٢) شباط/ فبراير ١٨٣٤ يقول: «تتحدث في رسالتك عن كييف. مازلت أخطط للتوجه إلى هناك والأمر سيتقرر في أي يوم الآن».

على الرغم من أن تاريخ أوكرانيا كان ما يزال مجرد مخطط تمهيدي فقد نشر هذا الإعلان في صحيفة «النحلة الشمالية» في (٣٠) كانون الثاني/ يناير (١٨٣٤): «كتب جديدة»، نشر «تاريخ قوزاق أوكرانيا» بقلم ن. جوجول مؤلف «أمسيات في مزرعة». لم يُكتب حتى الآن تاريخ وافٍ عن أوكرانيا وشعبها ولذا قررت بأن أتحمل مهمة كتابة هذا التاريخ، ودأبتُ طوال خمس سنوات على جمع كل المواد المتعلقة بتاريخ المنطقة. حوالي نصف الكتاب جاهز

تقريباً، ولكنني أرجئ طبع المجلدات الأولى إذ إنني أظن بأن هنالك العديد من المصادر الوثائقية التي مازلت أجهلها وهي بحوزة أشخاص محدَّدين. ولذا فإنني أوجه هذا النداء لكل من يملك أية مواد مهما كانت، على شكل حوادث تاريخية أو مذكرات شخصية، أو أغانٍ أو قصص الباندورا[1] أو كتابات تخص الأعمال الخ... أرجو إرسالها إليّ، إما النصوص الأصلية أو نسخ عنها إلى العنوان الوارد أدناه».

لم يتلق أية أجابات غير أن كبرياءه حظيت بتعويض لا يستهان به إذ نشر الوزير أوفاروف خطته «لتدريس تاريخ العالم» في الصحيفة التعليمية للوزارة، وكافأته الإمبراطورة بخاتم من الماس «لعمله المتميز». كان متأكداً من ظفره هذه المرة وأخذ يهيىء نفسه وياكيم لرحيلهما الوشيك.

غير أن الأخبار جاءت وكأنها الرعد. إذ على الرغم من كل الوعود فإن شخصاً اسمه «فلاديمير زيش»، مرشح مستشار كييف عُيِّن للكرسي الذي تقدم له جوجول. وبعد تضاؤل الصدمة رد الطعنة إلى الجميع بقوة، باللعنات والاستفسارات والتوسلات.

كتب إلى مكسيموفيتش (في ٢٩ آذار/ مارس ١٨٣٤) يقول: «ماذا يمكن أن تقول لي عن زيش؟ هل هنالك تأكيد رسمي لاختياره؟ الوزير نفسه كان قد وعدني بذلك المنصب».

بعد أيام كان يقترح على ماكسيموفيتش أن يكتب «لبرادكي» مستشار كييف لتحري ما إذا كان من الممكن فعل شيء قائلاً: «عندما تكتب لبرادكي مرّر بعض الإيماءات حول هذه الأمور: عليه أن يجلب جوجول إلى جامعته لأنك لا تعرف أي شخص تتوفر له كل تلك المعلومات التاريخية الشاملة أو القدرة على عرض تلك المعلومات بشكل أفضل. أضف بعض الإشارات المماثلة وكأنما تذكر ذلك عرضاً. هذا ضروري جداً لأن الوزير سيفعل كل ما بوسعه إذا منح المستشار موافقته».

---

(١) القصص التي يرويها عازفو آلة الباندورا، وهي آلة تشبه العود.

كما كتب إلى بوشكين (في ١٣ أيار/ مايو ١٨٣٤) يقول: «سأزعجك بهذا الطلب: إذا تحدثت عني لأوفاروف (وزير التعليم) قل له إنك أتيت لرؤيتي ووجدتني على حافة الموت. قل له أيضاً بأنك غاضب جداً لأنني مازلت في سانت بطرسبرج في الوقت الذي أمرني فيه الأطباء بمغادرتها في الحال. وبعد أن توضح بأنني قد أموت خلال الشهر القادم، غيّر الموضوع وتحدث عن الطقس أو أي أمرٍ آخر قد يخطر لك. لا أعتقد بأن ذلك لن يكون دون تأثير».

أجابه بوشكين في نفس اليوم: «اعتمد عليّ! سأذهب وأهزّ إصبعي في وجه أوفاروف هذا اليوم». سأخبره عن موتك الوشيك، ومن ثمّ، وبتحوّل لا يكاد يلحظه سأحدثه عن حياة الخلود التي تنتظره. من يدري؟ قد نستطيع أن نحصل على شيء منه».

لم تؤدِ حمله بوشكين إلى نتائج فورية، إذ قال الوزير إنه سيفكر بالأمر، وسيراجع الملف، وسيعيد النظر إذا توفرت فرصة أخرى. بعد ذلك عرض بوجودين على جوجول منصب أستاذ مساعد في جامعة موسكو. غير أن جوابه كان الرفض المطلق. مساعد لمن؟ مساعد لماذا؟ هل يظنون بأن تاريخ العالم يمكن أن يدرّس في أي مكان إلا من أعلى كرسي أستاذي؟ وإلى جانب ذلك فإن طقس موسكو ليس أفضل من طقس سانت بطرسبرج بالنسبة إليه. ما يحتاجه هو كييف بشمسها وطلابها فلماذا لا يساعده الله في مسعاه؟ كان قد كتب إلى أمه منذ فترة وجيزة «هل فكرت بإقامة قداس رجاء نجاح المدبغة؟ فإن لم تفعلي فلتطلبي من الأب إيفان أن يقيم قداساً عسى أن تنجح مجهوداتك ومجهوداتي كذلك».

لم يؤدِ القداس إلى نتيجة سواء بالنسبة إلى المدبغة التي لم تحقق أية أرباح على الإطلاق، أو فيما يتعلق بحلمه بمنصب الأستاذ والذي أخذ يتضاءل أكثر فأكثر. ربما كان عليه هو نفسه أن يقيم القداس بدلاً من أن يكلف أمه بذلك؟ كان متديناً وإن كان نادراً ما تطأ قدماه أرض كنيسته. لا، لا يمكن أن يكون الله يعاقبه لقلة حضوره، فعلاقته مع الله ليست مرتبكة على الإطلاق وهو يلجأ

إلى الله بالنسبة لكل الأمور وفي كل الأوقات وفي أي مكان . عندما قالت له أمه إن عليه أن يذهب إلى الكنيسة بتكرار أكثر أجابها:

«إنني أجلّ رسل الله وكهنته . ولكن المكان الذي يصلي فيه المرء لله ليس مهماً فهو موجود في كل مكان ويسمع بالتالي صلواتنا» .

ظل يستشيط غضباً ولكنه تابع تدريس مبادئ التاريخ ، وإن بصورة متقطعة جداً ، للطالبات في المعهد الوطني ومن بينهن بنات صغيرات بمرايلهن المدرسية بنية اللون: «فتيات قاصرات العقل ، أختاه الصغيرتان في صفوفهن . أي هبوط في مكانته من الجمهور الضخم الذي كان يطمح لاكتسابه في كييف! وبناءً على طلبه أعيد راتبه البالغ ألفاً ومائتي روبل بأثر رجعي اعتباراً من الأول من كانون الثاني/ يناير ، كما سمح لأختيه بالبقاء في المعهد «كمكافأة خاصة» . وفي النهاية عرض عليه الوزير منصب محاضر لتاريخ القرون الوسطى في جامعة سانت بطرسبرج . غير أنه صنف أيضاً كمساعد وليس كأستاذ كامل . فهل كانوا يشاركون جميعاً في خطة هدفها التقليل من شأنه؟ من حسن حظهم أنه كان بحاجة إلى المال ، ولذا ابتلع حنقه ووافق وتم تأكيد تعيينه في مرسوم بتاريخ (٢٤) تموز/ يوليو ١٨٣٤ . غير أنه لم يكشف لأصدقائه عن مسمى وظيفته ، إذ عندما أعلن عن عمله الجديد بقي لقب مساعد داخل محبرته بينما ظل مسمى بكرسي يتدفق أتوماتيكياً من قلمه .

كتب إلى بوجودين (في ٢٣ تموز/ يوليو ١٨٣٤) يقول: «قررت أن أقبل مؤقتاً كرسياً في سانت بطرسبرج وسأحاضر عن العصور الوسطى» .

وكتب إلى أمه (في الأول من آب/ أغسطس): «وضعت جانباً كل المعيقات التافهة وتخليت عن كل أعمالي الأخرى واكتفيت الآن بمنصب أستاذ في جامعة سانت بطرسبرج ولا شيء غير ذلك . ليس لدى الوقت ولا الرغبة لعمل أي شيء آخر» .

لكنه لم يتخل عن الكفاح من أجل كييف ، إذ يجب ألا يكون هناك عائق يحول دون نقله إلى هناك . فما إن يتعرف الوزير على نجاحه في العاصمة فإنه لن يرفض منحه كرسياً في أي جامعة قد يختارها . ولذا كتب إلى ماكسيموفيتش (في ١٤ آب/ أغسطس ١٨٣٤) يقول: «قررت قبول كرسي هنا مما يجعلني في وضع أفضل لكي أتعين في كييف» .

بل إنه طلب من صديقه الذي كان هو نفسه قد وصل لتوه إلى هناك أن يبحث له عن منزل «مع حديقة إن أمكن ، في موقع ما على تلة له إطلالة ما على نهر الدنيبر» . ولكن ماكسيموفيتش كان يشعر بالضياع في مدينة جديدة ووظيفة جديدة ، وهو يتساءل فيما إن كان قادراً على تدريس مادة تاريخ الأدب ، وهي مادة أثارت اهتمامه عرضاً ومن باب استمتاعه الشخصي فحسب ، أيجوز له أن يقدم نفسه كمرجع أمام جمهور من الشبان الذين يثقون بقدراته؟ ألم يكن من الأفضل له أن يبقى ضمن ميدان خبرته الحقيقية ، أي علم النبات؟ تأنيب الضمير الذي كان يفصّل في الحديث عنه في كل رسالة من رسائله حيّر جوجول الذي لم يكن ينتابه مثل هذا الشعور قط .

كتب إلى ماكسيموفيتش (في ٢٧ حزيران/ يونيو ١٨٣٤) يقول: «أرجوك باسم صداقتنا ، وباسم أوكرانيانا ، باسم قبور أجدادنا ، لا تجلس هناك لتدفن بين الكتب . فليأخذني الشيطان إن كنت ستجني منها شيئاً سوى تشويش دماغك . ابق كما أنت وعبّر عن أفكارك أنت نفسك ، وبأقل قدر ممكن . فالطلاب هم من الغباء في البداية على الأقل ، بحيث أن من الإجرام ببساطة أن يرهق المرء نفسه من أجلهم . أفضل الأمور هو الدخول في حديث معهم حول القضايا الجمالية . هذا ما يفعله بلتنييف ، فقد قرر ، وبحق ، أن جميع النظريات سخيفة ولا تؤدي إلى نتيجة . توقف عن إلقاء المحاضرات كلياً وهو يكتفي بالتفسيرات والمناقشات مع طلبته . وبتعبير آخر ، إنه يفتح عيونهم على نواحي الجمال . إنك تتمتع بذوق رفيع وتعرف عن الأدب الروسي أكثر من أولئك الشرّاحين . فماذا يلزمك بعد؟ أستحلفك بحق السماء أن لا تصرف إلا وقتاً قصيراً على هذه الترهات» .

غير أنه كان هو نفسه على وشك صرف بعض الوقت على هذه «الترهات». إذ إن السنة الأكاديمية في الجامعة بدأت في شهر أيلول/ سبتمبر. وبغض النظر عن احتقاره الشديد لطلابه المقبلين فإن صدره كان يضيق فزعاً مثلما كان يحدث لماكسيموفيتش تماماً إزاء المحنة التي تنتظره. من المثير جداً له أن يقتطع حزماً من غابة الحوادث التاريخية، ومن المضجر الاهتمام بالتفاصيل التافهة المتعلقة بالزمان والمكان. كان يشعر بأنه مثل ملك لدى وضعه للخطط والمشاريع. ولكنه مثل عبد عندما يتوجب عليه أن يضع هذه الخطط موضع التطبيق. تاريخه عن أوكرانيا أو عن العالم لم يكد يخرج إلى النور، ويتعين عليه الآن أن يجهد لجمع المعلومات حول تاريخ القرون الوسطى.

ألا يتعلق الأمر إذن بحظه في الوقت الذي كان قد أخذ يميل فيه إلى الكتابة القصصية! وقد أنهى في فصل الربيع عدداً من القصص ومنها «الصورة» و«فاي»، و«تاراس بولبا». واختمرت في رأسه أفكار لقصص أخرى. غير أن عليه الآن أن يخنق هذه الإبداعات التي تدور في ذهنه وأن يلتفت إلى القليل من الشخصيات التاريخية الغبية مثل «جنكيز خان» و«فريدريك بارباروسا» و«الكسندر نيفسكي».

□ □ □

٧ ـ الأستاذ المساعد

كانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما دخل جوجول قاعة المحاضرات التي كانت ممتلئة عن آخرها. فقد انضم إلى طلبة فقه تاريخ اللغة طلاب من الأقسام الأخرى عندما علموا أن المحاضر الجديد لمادة تاريخ العصور الوسطى هو مؤلف «أمسيات في مزرعة»، ولذا جاؤوا لسماع محاضرته الأولى. هبوا جميعاً وقوفاً محدثين ضجة، فانحنى جوجول بارتباك وتقدم نحو المنصة بوجه شاحب. كان يلوى حاشية قبعته بين يديه وقد غارت معدته فزعاً من الوقوف أمام الجمهور. صعد ببطء إلى المنصة ودخل العميد ليرحب بالأستاذ المساعد الجديد وجلس في مقعده بتثاقل.

وقف جوجول وحيداً أمام بحر من الوجوه غير المألوفة. أفزعه شباب هذا الجمهور. مئات أزواج العيون تركزت عليه وقد علت الوجوه سيماء حب الاستطلاع الملحاح. توقف السعال وجرّ الأقدام على الأرض وتعمّق الصمت. كان جوجول قد حفظ محاضرته الأولى عن ظهر قلب من باب الاحتياط، وبدأ يدمدم في سرّه بصلاة خاصة. وما إن شرع في إلقاء المحاضرة وأخذ صوته يرن عالياً وواضحاً حتى أعاد له ذلك الثقة بنفسه. وتغلب على الطلبة ذلك الشخص الشاحب، ضئيل الجسم الذي تبدو عليه دلائل المرض، وإن تميزت عيناه بسرعة حركتهما. ليس هذا أستاذاً يحاضر فيهم بل هو إنسان حالم، شاعر. كان يعيد على مسامعهم خلق الأيام المظلمة للقرون الوسطى، الجيوش المدججة للحملات الصليبية، الغرور الملائكي لطبقة الفرسان، رعب محاكم التفتيش، النشاطات

الغامضة للمشتغلين بالكيمياء القديمة. لم يذكر اسماً واحداً، ولا تاريخاً بل حزمة من الأفكار العامة. نوع من السراب الذي يتلألأ في بعض مواضعه، ويكتنفه الضباب في مواضع أخرى[1]. وبعد خمس وأربعين دقيقة سكت الخطيب أمام جمهوره المسحور الذي انفجر بالتصفيق. وما إن نزل عن المنبر حتى أحاط به جمهور من الطلبة المتحمسين. قال لهم وقد سرّه النجاح الذي حققه: «لقد حاولت في محاضرتي هذه أن أقدم لكم الجو العام للعصور الوسطى. أما في المرة القادمة فسنشرع في الغوص بالتفاصيل وعلينا أن نتسلح بالتالي بمشارط التشريح».

أخذ الطلبة وقد فتحت شهيتهم ينتظرون المحاضرة التالية بفارغ الصبر. وصل جوجول متأخراً وصعد إلى المنبر وبدأ يتحدث عن حركات الهجرة الكبرى. ولكنه لم يكن قد حفظ محاضرته هذه المرة فأخذ يتعثر في الكلام، ويتوقف ويتلعثم، وبدا وكأنه تائه يسير في منامه. وقد كتب أحد طلبته يقول: «كان يتكلم بتردد، وبلهجة رتيبة مشوشة بحيث أننا أخذنا نملّ الإنصات له، ونحن لا نصدق أن هذا هو جوجول نفسه الذي ألقى تلك المحاضرة الشيقة في الأسبوع السابق». وبعد أن تحدث لثلاثين دقيقة بدا عليه الانزعاج الشديد على نحو مفاجئ وكأنه لا يستطيع التفكير بالمزيد مما يمكن له قوله، ولذا أعلن أنه سيختصر محاضرته لأن البعض من أقاربه قد عادوا لتوهم من السفر وأنهم في انتظاره في البيت. كما وجّه من يريد الاستزادة من التفاصيل بأن يراجع كتباً معينة ذكر لهم عناوينها. وفي المحاضرة الثالثة طلب منه الطلبة تحديد تواريخ محددة ولكنه عجز عن ذلك ووعد بتزويدهم بتسلسل تاريخي في المحاضرة التالية. نسخ هذا التسلسل التاريخي من أحد الكتب، وقد أدرك طلبته ذلك. أخذ افتتانهم بالأستاذ الجديد يتضاءل أسبوعاً بعد أسبوع، وبدأ عدد الطلبة الذين يحضرون محاضراته يتضاءل شيئاً فشيئاً، وجعل يتضاءل بالتالي أيضاً ميل جوجول للإعداد لهذه المحاضرات بصورة جدية. فقد استهلك كل ما لديه من علم وحماس في المحاضرة الأولى وأصبح يكتفي بإعادة صياغة ما كان قد كتبه

(١) نشر نص محاضرته فيما بعد في مجلة «أرابيسكس».

مؤرخون آخرون، وبتكرار وتوسيع ما سبق له أن قاله. وكعادته كان كثيراً ما يدعي سوء حالته الصحية كمبرر لتغيبه أو لاختصار محاضراته. وقد كتب طالب آخر من طلابه يقول: «كثيراً ما كنّا نراه وقد ربط منديلاً أبيض حول رأسه لأنه يشكو من ألم في أسنانه أو لأي سبب آخر. كان مظهره يوحي بالمرض ويثير الشفقة. يا للأنف الذي له، أنف طويل حاد، مستدق الطرف كأنه المنقار. وما كنت لأنظر في وجهه عن قرب إلا ويتراءى لي أنه سينقرني ويقتلع عيني».

ولكنه استعاد إخلاصه للعمل لفترة وجيزة في شهر تشرين الأول/ أكتوبر (١٨٣٤) نظراً لأن بوشكين وجوجوفسكي وعدا بحضور إحدى محاضراته. ومن أجلهما كتب دراسة متألقة حول الخليفة المأمون والحقبة التي عاش فيها. عندما وصل إلى الجامعة وجد الشاعرين يختلطان بالطلاب في القاعة الخارجية. توجهوا معاً إلى المدرج، وقد جلس الضيفان البارزان في جانب واحد وتفرق الطلبة وجلسوا بتثاقل على مقاعدهم بينما صعد الأستاذ المساعد، وقد أمضّه الرعب والتوتر العصبي، إلى المنبر وكأنه يصعد إلى المشنقة.

كان الانضباط بين الطلبة قد تراخى وأخذوا يظهرون ميلاً واضحاً للثرثرة والضحك المكتوم أثناء المحاضرة. «أتوسل إليك يا إلهي أن يبقوا هادئين ولو لمرة واحدة! وإلا فأي إذلال سيكون أمام بوشكين وجوكوفسكي!». سارت الأمور سيراً حسناً لسبب ما، وتدفق النص من فم جوجول بيسر مدعماً بالحقائق وقدمه بأسلوب شاعري. وقد جذبت شخصية المأمون النابضة بالحيوية انتباه الطلبة الشبان. وفي ختام المحاضرة هنأ بوشكين وجوكوفسكي المحاضر الذي اختفى صوته وضعفت ركبتاه.

غير أن هذه كانت مجرد ومضة خاطفة. ففي المحاضرة التالية مباشرة وجد الطلبة المذهولون جوجول هذا نفسه يتردد ويتلعثم بكلامه. لا يركز على نقطة ما ويصدر إيماءات غامضة ويكرر ويعيد على وتيرة واحدة الحديث عن «هجرة الشعوب». أما زملاؤه العاملون الآخرون في الكلية فلم يحسوا بأي عاطفة صداقة إزاءه وكانوا ينظرون إليه في الواقع على أنه دخيل على الجامعة حيث لم يحقق هذا الدخول، برأيهم، إلا بحكم علاقاته وحدها.

كتب الأستاذ «نيكيتنكو» عنه يقول: «أديب حقق مكانة متميزة لدى جمهور القراء بأقاصيصه «أمسيات في مزرعة». موهبة شبيهة بموهبة «تينرز[1]». غير أنه عندما ينتقل من الحياة الواقعية إلى المثالية يصبح مزهواً، متحذلقاً. وعندما يتناول الأمور الروحية تفقد أفكاره، وعواطفه ولسانه أصالتها جميعاً. غير أنه لا يدرك هذا الواقع ويتبختر مدعياً النبوغ. يتصور جوجول أن عبقريته المزعومة تعطيه الحق بادعاءات غاية في الغطرسة. ماذا حدث؟ محاضراته من السوء بحيث أنه أصبح مثار سخرية لدى الطلبة. وتخشى السلطات أن تتحايل عليه – أن ينصب له الطلبة فخاً وهو أمر لا مفر منه في هذه الظروف، غير أن النتيجة قد لاتكون محمودة العواقب على الإطلاق. استدعاه العميد وأبلغه بلطف بالشائعات غير المواتية التي يتم تداولها حول محاضراته. تخلّى لوهلة عن غروره واعترف بعدم كفاءته وعجزه. جاء أيضاً لرؤيتي واعترف بأنه يفتقر للخبرة اللازمة لهذا الموقع في الجامعة».

تابع جوجول تدريس هذه المادة على مضض متحملاً هذه المهمة كعذاب مؤقت بعد أن أصبح مرفوضاً من قبل الكلية وبعد أن انفض عنه طلابه. كتب إلى بوجودين في (١٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٣٤) يقول: «إنني وحيد، وحيد تماماً في هذه الجامعة. ليس هناك من يستمع إليّ ولم ألتقِ بإنسان واحد أثرت في نفسه الحقائق الواضحة التي أتحدث عنها. ولذا تخليت عن التنقيحات الفنية وكذلك عن الرغبة في إثارة اهتمام طلبتي النيام. ليس هناك حتى شخص واحد استطاع أن يتفهمني. غير أن هذا الجيل هو جيل من الأغبياء، شأن كل شيء حي هنا في سانت بطرسبرج».

صادف أن شمل «جيل الأغبياء» هذا شاباً أو اثنين ممن حققوا تميزاً لايستهان به فيما بعد مثل «جرانوفسكي» الذي أصبح مؤرخاً، وكذلك الروائي

(١) ديفيد تينرز (١٦١٠-١٦٩٠) هو فنان فلامنكي تميز برسومه للاحتفالات القروية، والفولكلور، والأشخاص يجلسون وهم يدخنون ويشربون في الحانات، ومختبرات المشتغلين بالكيمياء القديمة والساحرات في فترات الراحة.

المقبل «تورجنيف». وقد استذكر تورجنيف فيما بعد، وبأسى تخالطه السخرية جهد جوجول لإثارة اهتمام جمهوره حيث يقول في كتابه «ذكريات في الحياة والأدب»: –

«حضرت دروسه في عام (١٨٣٥) عندما كان يدرس التاريخ في جامعة بطرسبرج. ولابدّ من القول أنه كان يلقي دروسه بأسلوب مبتكر. تغيب أولاً عن درسين من ثلاثة دروس كانت تتناول المبادئ العامة. وحين تنازل وظهر من جديد لم يكن يتكلم بطريقة مفهومة بل يدمدم بأصوات غير واضحة. عرض علينا مجموعة من اللوحات المحفورة لمشاهد من فلسطين أو بلدان شرقية أخرى. وبدا عليه الارتباك الشديد. . وقد كنا جميعاً على قناعة بأنه لم تكن لديه أية فكرة عن التاريخ (ولست أعتقد أننا كنا مخطئين). وفي يوم الامتحان جاء وقد وضع عصابة على رأسه وكأنه يعاني من ألم في أسنانه وأنه في أدنى حالات الضعف، ولم يفتح فمه على الإطلاق، بل إن البروفيسور «شولجين» هو الذي تولى توجيه الأسئلة للطلبة. مازلت أرى، في مخيلتي، وجه جوجول النحيل، بأنفه الطويل وطرفي المنديل الأسود اللذين ينتصبان فوق رأسه وكأنهما أذنان».

سرعان ما أدرك الطلبة أنه ما دام هنالك شخص آخر يقوم بفحصهم بدلاً من أستاذهم فإن هذا إنما يعود لأن جوجول كان يخاف بأن يفتضح جهله إن تولى هو توجيه الأسئلة بنفسه. كانوا يتهامسون بأن «شولجين» سيكشفه، ولهذا فهو يدعي بأنه لا يستطيع فتح فمه». لم يكونوا يعرفون فيما إن كان عليهم أن يشفقوا على ذلك الشخص الغريب الذي يعبر وجهه المعصوب عن ألم طويل العهد، أو أن يحتقروا هذا الشخص الذي يبدو وكأنه طالب أكثر من كونه أستاذاً، ويصعب على كل حال أن يعتبر كاتباً. بل فكر البعض منهم بأن الأمر مجرد مصادفة بأن يحمل أستاذهم نفس اسم مؤلف «أمسيات في مزرعة».

كان الأدب، في الواقع، يحتل في حياته موقعاً يزداد اتساعاً. كان يعمل بصورة مكثفة على نفسه فيما بين تدريسه في كل من الجامعة والمعهد الوطني. وفي شهر كانون الثاني/ يناير (١٨٣٥) نشر كتابه «أرابيسكس» في مجلدين

يحويان «نيفسكي بروسبكت»، و «الصورة» و «مفكرة رجل مجنون» ونتفاً من قصص أوكرانية قصيرة، ونصوص محاضراته في التاريخ بالإضافة إلى مقالات عديدة. وبعد أسابيع قليلة، في شهر آذار/ مارس عرضت واجهات المكتبات عملاً آخر لنفس الكاتب، وكان هذا كتابه «ميرجورود» في مجلدين أيضاً يحويان «ملاّك العالم» و«تاراس بولبا» و«فاي» و«صراع الإيفانين». المجموعة الثانية التي ظهرت بعد وقت قصير من المجموعة الأولى لاقت ترحيباً من النقاد غير أن مبيعاتها كانت متدنية: إذ إن أرابيسك، التي كانت عبارة عن خليط من النثريات والبقايا، لم تشجع القراء على شراء «ميرجورود» التي كانت مجموعة غنية ومتنوعة كان من شأنها أن تثير إعجابهم.

في نفس الفترة عرض جوجول قصة «الأنف» على بوجودين لنشرها في صحيفة «موسكوفيت أوبزرفر» وذلك بعد أن راجعها وصقلها. ولكنه ما لبث أن غيّر رأيه وقرر نشرها في صحيفة بوشكين «المعاصر»، وطلب من بوجودين إعادة المخطوطة[1].

كان يتوقع جدلاً حول استرداد القصة ولكنه فوجئ بالخفة التي وافق فيها بوجودين على طلبه. والواقع أن محرري «موسكوفيت أوبزرفر» كانوا قد رفضوا القصة بالفعل واصفينها بأنها «قذرة وتافهة».

أخذ جوجول يتحرق لمغادرة سانت بطرسبرج ثانية نظراً لخيبة أمله لإخفاقه كأستاذ ولضآلة مبيعات كتاب «أرابيسكس». وقد كتب إلى ماكسيموفيتش (في ٢٢ آذار/ مارس ١٨٨٥) يقول: «حدثني عن ربيعنا. إنني ظمآن... ظمآن لذلك الربيع! هل تدرك مدى حسن حظك؟ أنت هناك عندما يتفتح الربيع، يمكنك أن تستنشق عبيره.. وبعد ذلك تجرؤ لأن تقول لي إنك لا تجد من تفضي إليه بدخيلة نفسك».

في (٣ نيسان/ إبريل)، وفي نوبة من نوبات نفاد الصبر قدم طلباً لرئيس الجامعة للحصول على إجازة لمدة أربعة أشهر بسبب سوء حالته الصحية. وفي

(١) لم تنشر القصة حتى عام ١٨٣٦ في صحيفة «المعاصر».

الأول من أيار/ مايو غادر إلى القوقاز بعد تلك الامتحانات التي ظهر فيها بوضع بائس بذلك المنديل الذي كان يربطه حول رأسه. لم يرافقه ياكيم ولا شقيقتاه بالطبع في رحلته الطويلة تلك التي لم يكن من الممكن التخطيط لها مسبقاً. كان ينوي الذهاب في البداية إلى العيون الساخنة من أجل العلاج، ولكنه قرر بعد إقامة قصيرة في موسكو أنه لا يستطيع القيام بهذه الرحلة الطويلة. وبدلاً من جبال القوقاز قرر الذهاب إلى السهوب الأوكرانية ولذا تابع طريقه إلى فاسيلييفكا. غير أنه، نظراً لأنه ظل قلقاً على صحته، فقد تابع طريقه إلى جزيرة القرم للاستشفاء بمياه البحر وحمامات الطين. ثم ما لبث أن عاد إلى البيت ليأخذ جرعة من الهيام العائلي به. كان كتاباه الأخيران قد أكدا لأمه قناعتها الراسخة بأنه «سوبرمان»، علماً بأنه كان قد كتب إلى أمه قبل أسابيع قليلة (في ١٢ نيسان/ إبريل ١٨٣٥) وقد أحرجه مديحها المبالغ فيه حيث يقول: - «تقولين عني إنني نابغة وأنت تتحدثين عن عملي، وهذا يبدو لي غريباً مهما كان قريباً من الحقيقة. هل يمكن لي أن أعتبر نابغة وأنا مجرد إنسان بسيط طيب القلب. قد لا أكون غبياً تماماً ولدي بعض الحس السليم. أتوسل إليك يا أمي العزيزة ألا تستعملي هذا التعبير عندما تتحدثين عني، خصوصاً مع أشخاص آخرين. لا تعطي آراء حول كتبي ولا تذيعي كلمات تمتدحين فيها مزاياي. لو تدرين كم هو كريه وبغيض أن نسمع أمهات وآباء يتغنون بلا كلل أو ملل بمزايا أبنائهم».

لم تصغ ماريا إيفانوفنا لهذه التحذيرات: فقد كانت تعرف تمام المعرفة أن التواضع هو أولى علامات النبوغ. كانت تجاهد بشجاعة بحضور ابنها للجم لسانها. غير أنها، ما إن يدير ظهره، حتى تطلق العنان لعواطفها الفياضة. تدعي، بثقة نابعة من الحب، بأنه مؤلف كل رواية ناجحة تنشر في روسيا. يقول دانيلفسكي: «هيامها به كان يصل بها إلى الذروة. فهي تعزو كل اختراع جديد له (القارب البخاري، سكة الحديد). كانت تتحدث بذلك لكل من تصادفه وفي كل مناسبة مما كان يزعج ابنها إزعاجاً شديداً. ليس هنالك من قوة بشرية يمكنها إزالة هذه الغشاوة عن عينيها».

في فاسيلييفكا عمد للاستراحة والاستغراق في الأحلام. من المستحيل عليه أن يكتب تحت هذه السماء الزرقاء!

كتب لماكسيموفيتش (في ٢٠ تموز/ يوليو ١٨٣٥): «أشعر بأن رأسي، فارغ وغبي بحيث لا أدري ماذا أفعل... كل شيء على ما يرام ما دمت أتكلم. غير أنني ما أن أمسك القلم حتى يصيبني الشلل».

وفي رسالة في نفس الفترة إلى جوكوفسكي يقول: «لديّ أفكار ومواضيع تملأ رأسي ولولا أن الصيف كان حاراً جداً لاستخدمت الكثير من الأقلام والورق. ولكن الحرارة تجعلني كسولاً بصورة مرعبة. عشر ما كان لي أن أكتبه ينتظرك بفارغ الصبر كي تقرأه. سأقرع جرسك في غضون شهر واحد وأنا أنوء تحت ثقل كراساتي».

لم يكن هذا تهديداً لا أساس له، فلقد علم جوجول لتوه أن مديرة المعهد الوطني تفكر في توظيف مدرس آخر ليحلّ محله. وعلى الرغم من احتقاره الشديد لعمله في ذلك المعهد فهو لا يستطيع الاستغناء عن الراتب الذي يحصل عليه منه دون عناء. فإن أخبر جوكوفسكي عن مخططاته الرفيعة فقد يتعزز استعداده للتدخل لدى الإمبراطورة دفاعاً عنه بحيث لا يخسر راتبه في الوقت الذي يحتاج فيه حاجة ماسة إلى هدوء البال لكي يبدع.

وهو يضيف في الرسالة ذاتها: «تلقيت أمس نبأً غريباً، إذ يبدو أن وحشاً سيحتل مكاني في المعهد الوطني، وهو أمر ضايقني لأن هذا هو مورد رزقي أولاً، ولأنني ثانياً استمتعت بالتدريس. اعتدت التفكير بأنني أعيش بين أصدقاء، في كنف عائلة هناك. غير أن بلتنييف كتب لي أن طلب هذا المغتصب لن يقدم حتى بداية شهر آب/ أغسطس، وإن لم توافق الإمبراطورة على تعيين هذا القادم الجديد بديلاً عني فسيبقى المكان لي. ولذا فإنني ألجأ إليك: هل يمكن أن تجد سبيلاً يمكن من خلاله للإمبراطورة أن ترفض ذلك؟ إنها عطوفة ولن ترغب دون شك بأن تتسبب في حزني».

ظل معتمداً على حسن نية الملكة بحيث فكر بأن يأخذ أخته الصغرى أولجا إلى سانت بطرسبرج لكي تنتظم في المعهد الوطني مع شقيقتيها. ولكن البنت كانت تعاني من صعوبة في السمع ومن بعض التخلف ومن المحتمل أن تسبب لها المدرسة الداخلية من الأذى أكثر مما تسببه من الفائدة، وبعد إجراء مناقشة عائلية حول الموضوع تقرر أن من الواجب إبقاءها في الريف لتحصل على أي قدر من التعليم يمكنها تحصيله وأن تعثر على زوج في النهاية.

توجه جوجول إلى سانت بطرسبرج في نهاية شهر تموز/ يونيو وتوقف في كييف لرؤية ماكسيموفيتش حيث أمضى خمسة أيام انقضت في أحاديث ومشاوير في المدينة المقدسة، واستغراق في التأمل أمام كنيسة «أندريه بيرفوز فاني» وعند قمة جبل «أندريفسكي»، ومن ثم غادر إلى موسكو في عربة مستأجرة رافقه فيها صديقاه «دانييلفسكي» و«باشيشنكو». ومن باب المزاح أخذ يقدم نفسه في محطات التوقف في الطريق على أنه أستاذ معاون، وكان هذا يترك تأثيره لدى المسؤولين عن تلك المحطات بحيث كانوا يقدمون لهم أفضل الخيول وبأسرع وقت ممكن.

رحبت به موسكو بحرارة شأنها دائماً. وفي مساء أحد أيام السبت قرأ مسرحيته الكوميدية «زواج» (وهي نسخة معدلة عن مسرحية «الخاطب») لجمهور كبير في دار بوجودين. كان خجله الطبيعي يتلاشى حين يحاول الاختباء في جلد شخصية أخرى، وما يلبث رد فعل الجمهور الإيجابي أن يحفّزه أكثر فأكثر. كان، وهو جالس في كرسيه يتحول من عروس تتورد خجلاً، إلى الماركيز المغرور ومن ثم الخاطب المرتجف.

كتب أكساكوف يقول: «قرأ قراءة متميزة، بل يمكن القول بالأحرى أنه مثّل بصورة ممتازة بحيث أن الكثيرين ممن سمعوه يقرأ يقولون الآن بأن المسرحية قد تكون أقل اكتمالاً ووحدة وإثارة للضحك لدى تمثيلها على خشبة المسرح مما هي كما قرأها الكاتب بمفرده. ضحك الحضور حتى كاد بعضهم يتوجع».

ذكرت السيدة ناشوشكين التي التقت بجوجول لدى أكساكوف أن لهجته تميل إلى اللهجة الأوكرانية وتقول: «شعره طويل يلمّه بعيداً عن صدغيه وكثيراً ما يهز رأسه». .

كان جوجول في سانت بطرسبرج في بداية أيلول/ سبتمبر وتابع محاضراته في الجامعة بكآبة. إلا أنه على الرغم من جهود جوكوفسكي فقد تم الاستغناء عنه في المعهد الوطني وتوقع أن يتم تقليص عمله كأستاذ أيضاً. . . فقد صدرت مذكرة تشترط بأن يحمل الأستاذ شهادة الدكتوراه حتى يسمح له أن يحتل كرسي أستاذ للتاريخ. نصحه أصدقاؤه بالاستقالة دون انتظار صدور قرار من الجهات العليا، ولكنه لم يرغب في الحكم على نفسه بنفسه وإن كان قد اضطر لأخذ زمام المبادرة بذاته في النهاية.

كتب إلى بوجودين في (٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٣٥) يقول: «بصقت على الجامعة مودعاً، وسأكون قوزاقياً متحرراً من جديد في غضون شهر واحد. أسيء فهمي حين اعتليت المنبر ويساء فهمي وأنا أهبط عن المنبر. ولكنني تعلمت الكثير وأضفت كنوزاً إلى روحي خلال الأشهر الثمانية عشر العجفاء السالفة. إذ كان الرأي السائد أنني أحشر أنفي فيما لا يخصني. لم تعد معلومات مجتزأة وأفكار طفولية تغزو عقلي بل تغرقه أفكار رفيعة وأصبح مليئاً بالحقائق الصادقة وبالضخامة التي تبعث على الرعب. لست أقول ذلك إلا لك وحدك إذ إن أي شخص آخر يعتبر ذلك تفاخراً».

صحيح أن الأشهر الأخيرة من عام (١٨٣٥) كانت غنية بالخطط والإنجازات بالنسبة لجوجول. راجع مسرحية «زواج» وكتب قصة قصيرة هي «العربة» وبدأ يكتب مسرحية تدور أحداثها في إنجلترا في القرون الوسطى تحمل عنوان «الفريد الأكبر»[١]. كما سحره فجأة موضوع كان بوشكين قد ذكره عرضاً في إحدى المرات، وهو يتعلق بقصة حقيقية كان الشاعر يفكر أن يحولها

(١) لم تستكمل هذه المسرحية قط.

إلى مسرحية شعرية. كانت الحادثة قد جرت في مكان لا يبعد كثيراً عن إقطاعته في «ميخايلوفسكوي» في منطقة «بسكوف». غير أن صديقه «دال[1]» الكاتب ومؤلف المعاجم كان قد أبلغه بقضية ثانية مشابهة مما عزز من قناعته بأن أشد أنماط الاحتيال والخداع تمارس في روسيا.

أقل ما يقال في تلك الخطة أنها ساذجة: ففي تلك الأيام كانت تحسب ثروة ملاك الأراضي على أساس عدد الأقنان الذكور المسجلين في بيان الضرائب الإحصائي لعدد الرؤوس من الأقنان لديهم. غير أن العديد من الفلاحين كانوا يموتون بين صدور بيان ما والبيان التالي، ولكن أسماء هؤلاء الموتى لم تكن تحذف دائماً من البيان. وعلى ذلك أقدم أحد المحتالين على ابتياع هذه الأرواح مقابل مبلغ صغير من المال ورهنها لدى بنك الدولة على أساس السعر القائم للأشخاص الأحياء بعد إبرازه صك شراء لإثبات ملكيته.

سرّت هذه القصة جوجول الذي تخيل على الفور هذه السخرية القائمة على التصوير التشخيصي للموت، لهذا البحث عن الموتى في طول البلاد وعرضها، للرحلات «الزجزاجية» للعثور عليها، للحبكات داخل الحبكات القصصية، ولكل وجه ملتوٍ يبعث على السخرية وراء كل باب –هذا هو ما يحتاجه بالضبط. بل إن العنوان المطلوب تم اختياره: «نفوس ميتة». أمام مثل هذه الحماسة قرر بوشكين وهو يبتسم أن يتخلى له عن هذا الموضوع، فهو في النهاية موضوع يتلاءم مع موهبة ذلك الأوكراني الصغير وخططه أكثر مما يلائمه.

كتب جوجول فيما بعد في كتابه «ذكريات كاتب» يقول: «ظل بوشكين يحثني على كتابة عمل أكبر. وفي النهاية، وبعد أن قرأت له مشهداً قصيراً نال إعجابه أكثر من غيره قال لي: ما دامت لديك موهبة كشف دخيلة الإنسان ورسم صورته برمتها بضربات قليلة من فرشاتك بحيث تبرزه وكأنه كائن حي فلماذا لا تبدأ عملاً كبيراً فعلاً؟ هذه خطيئة فعلية، ثم أشار إلى مظهري المنهك

(١) استخدم «دال» الموضوع نفسه في قصة قصيرة نشرت بعد صدور «نفوس ميتة» ولكنها كتبت في الغالب قبلها.

وإلى نواحي الضعف لدي والتي قد تضع حداً لحياتي في وقت مبكر. وضرب لي «سيرفانتس» كمثل حيث كان قد كتب قصصاً قصيرة أثارت الإعجاب ولكنه لم يكن ليحتل موقعه الحالي بين الكتّاب لو أنه لم يكتب «دونكيشوت». وفي النهاية قدم لي موضوعاً من عنده كان في نيته أن يبني عليه قصيدة ما. وقال إنه لم يكن ليعطي هذا الموضوع لأي شخص آخر».

كتبت اليكساندرا سيمرنوف في مذكراتها تقول: «قضى بوشكين أربع ساعات في بيت جوجول وزوده بموضوع لرواية ستقسّم إلى أناشيد (أحد الأقسام الرئيسية في قصيدة طويلة) مثل «دون كيشوت». البطل سيسافر إلى مختلف المناطق وسيستخدم جوجول الملاحظات التي جمعها عن سفراته لهذا الغرض».

وصل به عرفان الجميل إلى درجة الدوار وحمل أغنيته إلى بيته وبدأ العمل. بدأت القصة بعدو سريع، ولكن المشكلات ما لبثت أن بدأت بعد عدة صفحات. فقد تبيّن له أن الرواية أعمق وأكثر تعقيداً مما افترض، وأخذ كل سطر يفتح دروباً جديدة لابد له من استكشافها، ولا يمكن الإسراع في قذف الرواية في أيام معدودة. ولكنه يحتاج للمال، وبسرعة! قد يزوده بوشكين، بما يتصف به من كرم، بفكرة أخرى. لا ضرر في السؤال... وقد كتب إليه (في ٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٣٦) يقول: «بدأت بكتابة «نفوس ميتة» والموضوع يتوسع في رواية طويلة جداً أعتقد أنها ستكون مسلّية. ولكنني توقفت في الفصل الثالث منها. أود أن أصور روسيا برمتها في هذه الرواية، ربما من وجهة نظر واحدة فقط. هل لك أن تسدي لي معروفاً وتزودني بموضوع، أي موضوع سواء أكان ساخراً أم لا على أن يكون أقصوصة روسية. يداي ترتعشان متلهفتين لكتابة قطعة كوميدية للمسرح. فإن لم يتسنّ لي ذلك فسأكون قد بذّرت وقتي سدى، ولست أدري كيف يمكنني أن أحسّن وضعي، وكل مالديّ هو الستمائة روبل التعسة التي أتقاضاها من الجامعة. هل يمكن لي أن أطلب منك معروفاً بأن تعطيني موضوعاً وسأكتب على الفور مسرحية كوميدية من خمسة فصول. أعدك بأن

تكون مضحكة إلى درجة وحشية. أتوسل إليك بحق السماء، فذهني ومعدتي كلاهما جائع. «ارابيسكس» و«ميرجورود» لا تحققان أية مبيعات على الإطلاق، والشيطان وحده يعرف ماذا يعني ذلك. أصحاب المكتبات مخلوقات كريهة بحيث يجب أن يشنقوا على أقرب شجرة دون أن ينتابنا أي تأنيب للضمير».

عوّض عن الإخفاق التجاري لكتابيْ جوجول «أرابيسكس» و«ميروجورود» المديح الذي أسبغه عليهما الناقد الشاب «بيلينسكي» والذي كتبه في صحيفة «موسكو تلجراف». فبينما كان الناقدان الأدبيان الرسميان «بلجارين» و«سينكوفسكي» يتعاملان معه بفوقية ويقلّلان من شأن صوره واصفين إياها بالتفاهة وأسلوبها بالثقيل تجرأ بيلنسكي على أن يقول: «يقف السيد جوجول الآن على ذروة أدبنا وهو يأخذ المكان الذي يخليه بوشكين». كان بيلنسكي - وهو يتبنى موقف احتجاج ليبرالي - يبشر بالطبع بسقوط بوشكين نظراً لأن الشاعر استعاد حظوته لدى القيصر بعد سنوات طويلة من التمرد والنفي. ولكن جوجول، مع أخذه بعين الاعتبار تحامل هذا الناقد من وجهة نظر سياسية، غير أنه تضايق بشدة وهو يرى نفسه وقد وضعه ناقد ذو ذائقة في موضع أعلى من ذلك الإنسان الذي يعتبره سنداً له، ويتوسل إليه في نفس الوقت بأن يساعده. ألن يهتاج بوشكين حين يجد النقاد وهم يضعونه في موضع أدنى من كاتب زوده لتوه بموضوع لرواية، وهو يطالبه الآن بتزويده بفكرة لمسرحية؟ كل شيء إلا إثارة غضب ذلك الملاك الذي يختزن ذهنه كل تلك الأفكار! ولكن لا، فبوشكين أكبر وأكثر كرماً من أن ينحني أمام الغيرة المهنية. سيصمّ أذنيه عن زقزقة العصافير الادبية، وعليه هو أيضاً، أي جوجول، أن يفعل الشيء ذاته إن كان يريد متابعة مسار عمله بكرامة. عليه أن يحافظ على رباطة جأشه، أن يركز نظره علي غايته النهائية. لاشك بأنه سيكون في المستقبل جديراً بالمديح الذي يقال له الآن. أما حالياً فهو لا يملك الحق بأن ينعم بذلك، فمهما قرأ أو سمع عن نفسه فهو لا يستطيع أن ينسى بأنه كتب «أمسيات في مزرعة» و «أرابيسكس» و «ميرجورود» وهذا هو كل ما حققه.

□ □ □

٨ ـ أرابيسكس وميرجورود

كان جوجول يعشق كتابة المقدمات والاستهلالات والحواشي، فهي بمثابة دروع متعددة يمكن للكاتب الاختباء خلفها ليتّقي الضربات. فلدى قراءة «الملحوظة» في مستهل كتابه «أرابيسكس» نظن أننا مازلنا في أيام «هانز كويشلجارتن» التي كانت قد طبعت على نفقة الكاتب. حيث يقول:

«تحوي هذه المجموعة (أرابيسكس) نصوصاً كتبتها في أوقات مختلفة من حياتي. ولا شك بأن القارئ سيجد العديد من العيوب التي تعزى لسن الشباب. ولابد من أن أضيف أنني حين أقرأ «البروفات» الطباعية في المطبعة كثيراً ما أفزع للأخطاء في بناء الجملة وللمقاطع المملة وللدلائل الأخرى على الإهمال. فضيق الوقت والظروف غير المواتية على الإطلاق كانت تمنعني أحياناً من مراجعة مخطوطتي وأنا صافي الذهن. ولكنني أطمع بأن يكون القراء متسامحين معي ويغفروا ما يجدونه من أخطاء».

كما أرسل نسخة إلى بوجودين مع هذا الاعتراف (في رسالة في ٢٢ كانون الثاني/ يناير ١٨٣٥): -

أرفق طرفي العتيقة. فيها أشياء طفولية، وقد أسرعت إلى طباعتها كي أنظف أدراجي من كل ما فيها من مواد وأبدأ حياة جديدة».

كانت أرابيسكس في الواقع مجموعة متنوعة الألوان، تحوي قصصاً ونتفاً من دراسات تاريخية، وآراء في الفن والأدب. ويشيد جوجول عرضاً

ببوشكين باعتباره «الشاعر الروسي الأعظم والذي يعتبر أن حقيقة الأمة هي في روح الشعب؟» . وكتب أيضاً أن «بوشكين» إنما هو الروسي في ذروة تطوره، الروسي كما قد يكون بعد مائتي عام من الآن» . كما دافع عن الواقعية الملهمة مقابل الشعر التقليدي قائلاً: «مما لاشك فيه أن جبلياً غير متمدن، حر كالهواء يملك من الخيال أخصب من قاضي صلح بردائه البالي الذي تلطخه بقع التبغ، وإن كانا كلاهما ينتميان إلى كوننا هذا ويستحقان اهتمامنا، وإن كان ما يندر لنا رؤيته يلفت نظرنا بصورة أكبر. وهذا إنما يعود لأسباب طبيعية. لقد تعلقت بالرسم باستمرار، وكانت إحدى لوحاتي أثيرة لديّ وهي تمثل منظراً طبيعياً يحوي شجرة ميتة في خلفية اللوحة، كنت أعيش في الريف في تلك الفترة وكان جيراني هم الذين يحكمون على عملي. وقد قال أحد هؤلاء بعد أن رأى اللوحة وهو يهز رأسه: الرسام الجيد يختار شجرة جميلة قوية تغطيها الأوراق الخضراء اللامعة وليس شجرة ميتة!» كنت شاباً حديث السن وأغاظني نقده ولكنني فهمت السبب فيما بعد وعرفت ماذا يحب الجمهور وماذا لا يحب» .

في تظاهره بالدفاع عن بوشكين كان جوجول يدافع في الواقع عن قضيته. كان يحدق من فوق رأس بوشكين ليرد على أولئك النقاد الذين كانوا قد أنّبوه «لتفاهة» «أمسيات في مزرعة» . كان يريد من وراء ذلك إقناع النقاد، والجمهور بالتالي، بأن الأحزان العادية ومظاهر البشاعة المألوفة وحوادث الحياة اليومية المبتذلة قد توفر عناصر لعمل فني. المهم هو تجنب الأنموذج الذليل، تضخيم المادة الخام عن طريق العقل. ليس المطلوب هو تحوير الواقع بل إلقاء الضوء عليه من الداخل. وقد كتب يقول: «على الشاعر أن يرتقي أكثر فأكثر كلما كان موضوعه عادياً، إذ يجب أن يستنبط غير المألوف من هذا الموضوع العادي على أن يسعى لتصوير غير المألوف بكل صدق» .

أسهب في هذا الموضوع في مقال حول لوحة لـ «برولوف» تحمل عنوان «الأيام الأخيرة لبومبي» ، فقد كان تركيب اللوحة البارد والأكاديمي رائعاً في نظره وحاول أن يرى فيها الحقيقة التي حولتها الموهبة. وعلى الرغم من

الرعب الشديد الذي يثيره المشهد في اللوحة فإن من ينظر للمشهد يملؤه إحساس بالجمال. تكمن المعجزة في رأيه في تحويل الرعب إلى جمال، وفي تحويل كارثة مؤقتة إلى تناسق هارموني خالد. كان يحدوه الأمل، كل الأمل، بأن تتسامى رسومه للأشجار الميتة إلى ما فوق موضوعها بحيث تصل إلى درجة الكمال التي بلغتها أعمال رافاييل[1] أو بوشكين. ولاشك بأنه كان يفكر بنفسه حين قال في قصته القصيرة «الصورة»: —

«لماذا تبدو طبيعة بسيطة وضيعة وكأنها مضاءة في عمل رسام ما، لماذا تُحدث لدى من يراها إحساساً من الغبطة البالغة وكأن كل شيء حوله يتحرك بإيقاع أكثر انتظاماً وهدوءاً؟ ولماذا تبدو تلك الطبيعة نفسها خسيسة ووسخة بريشة فنان آخر كان أميناً أيضاً مع الطبيعة؟ العيب هو في الافتقار إلى النور. فأروع منظر في العالم يبدو غير مكتمل عندما لا تكون هناك شمس مشعة».

وفي هذه القصة، وهي الأطول في المجموعة يتقاطع الفن والشر بطريقة فريدة، وكأنما ترابطت الظاهرتان ترابطاً عضوياً وكأنما يقع الإنسان ضحية للشيطان بسهولة أكبر إن مارس موهبة يملكها، مهما كانت هذه الموهبة. فهو معرّض للنقد بحكم كونه ملهماً. ولذا فهو يقاتل في أرض مكشوفة. إحساسه بالجمال هو نقطة مقتله التي تقلب لتصيبها سهام الآخر.

الجزء الأول من القصة يدور حول مغامرات رسام فقير ولكنه موهوب اسمه «شارتكوف» يبتاع من حانوت لبيع الأشياء القديمة صورة لرجل عجوز تلتمع عيناه بقوة الحقد. ولا يستطيع بعد أن يعود إلى عليته أن يتأمل اللوحة من دون أن ينتابه شعور مريع بالخوف والارتباك. يسحره هذا الغريب الذي جلبه إلى تحت سقف بيته. «بدا وكأن الرسام قد وضع في لوحته عينين انتزعتا من راس بشري». تعتري شارتكوف كوابيس عنيفة وواقعية كل ليلة بحيث يصبح عاجزاً عن التفريق بين الحلم والواقع. «رأى قسمات وجه العجوز تتحرك وشفتاه تبرزان إلى الأمام وكأنما تريدان امتصاصه». ويكتشف شارتكوف في النهاية لفة

(١) رسام ومهندس معمار إيطالي يعتبر أحد الفنانين العالميين في مختلف العصور (١٤٨٣-١٥٢٠).

تحوي قطع نقود ذهبية مخبأة في داخل إطار الصورة، ومنذ ذلك اليوم تسمّمه هذه الثروة إذ لا يفكر بعد إلا بالمال وبالنجاح ويصبح فناناً يرسم الصور الشخصية لأشخاص من الطبقة العليا بحيث يستخدم فراشيه بصورة أوتوماتيكية ويدمر نبوغه، بينما يضج الثناء عليه في الأوساط الثقافية الرفيعة. «صار يتناول عشاءه هنا وهناك ويصطحب السيدات إلى المعارض، بل ويتمشى معهن وهو يرتدي ملابس شخص «غندور» ويعلن للجميع بأن الرسام ينتمي إلى المجتمع الراقي وعليه أن يحافظ على منزلته الاجتماعية في الحياة». وعندما تستدعيه أكاديمية الفنون الجميلة لإبداء رأيه في عمل رسام روسي شاب يعيش في إيطاليا يدرك فجأة بحكم المقارنة إلى أي درك كان قد هوى. يعود إلى البيت ويبدأ العمل على الفور باحثاً دون جدوى عن موهبته السابقة. «فمجرد ممارسته للتكنيك في حد ذاته شل حماسته مما وضع حاجزاً لا يمكن تخطيه في وجه قدراته الإبداعية». وعند ذاك يمسه شيطان الغيرة الجنونية فيبحث عن أجمل اللوحات ويشتريها مهما كان ثمنها ويمزقها مزقاً ويدوس عليها «وهو يضحك منتشياً، وبعد ذلك يسقط ميتاً في أثناء نوبة جنون».

يفسر الجزء الثاني من القصة التي عدّلها الكاتب تعديلاً أساسياً في عام (١٨٤١) اللعنة الكامنة في صورة الرجل العجوز، فهي ليست إلا الشيطان نفسه متنكراً في هيئة مراب في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية، وهو يطلب عشية موته من أحد الرسامين أن يسجل قسماته على لوحة، آملاً أن تبقى روحه حبيسة، إذ لابد للشيطان أن تتوفر له وسيلة مادية يمكن له من خلالها أن يقوم بمهماته في العالم، وهو ما لا يستطيع أن ينفذه إلا فنان. لا يقدّر الفنان المسحور إلى أي درك ستهبط به فعلته هذه، وينجح في تجسيد التعبير الملتهب لذلك المرابي. وحين يدرك في النهاية أنه تورط بعقد ميثاق مع الشيطان يتبرأ من فنه ويدخل الدير ليكفّر عن ذنبه من خلال الصلوات. وبعد سنوات قضاها بالصيام والتأمل يشعر في النهاية بأنه نال الغفران وتطهّر فيحمل لوحة ألوانه من جديد ويرسم ميلاد المسيح في لوحة كانت من الجمال بحيث أن الرهبان ركعوا على ركبهم لدى رؤيتهم لها.

تجربة هذا العذاب التي تقود رساماً إلى الانتحار وآخر إلى الدير يخوضها أيضاً بطل قصة «مذكرات رجل مجنون»، بل وربما بصورة أكثر حدة من سابقيه إذ يشعر موظف غامض بأنه يفقد رشده تدريجياً. فهو واقع في غرام ابنة رئيسه غير أنه يدرك دونيته منذ ولادته. ولكنه يملك مزية واحدة يتفوق بها على العالم برمته: وهي أنه يفهم لغة الكلاب، كما أنه الملك فيرديناند ملك إسبانيا. والمرأة التي ستتزوجه ستكون ملكة. ولكن لماذا يتعذب كل هذا العذاب؟ صدره يتفجر وعقله يحترق؟ «أماه! أنقذي ابنك التعس! اذرفي دمعة واحدة على رأسه الذي يؤلمه! اشهدي كيف يعذبونه! ضمي هذا اليتيم المسكين بكل قوة إلى صدرك! لا مكان له على وجه البسيطة! فالجميع يطردونه أينما ذهب! أماه، أشفقي على ابنك المسكين المريض! بالمناسبة، هل تعرفين أن لداي الجزائر ثؤلولاً تحت أنفه تماماً».

عرف جوجول نفسه، ولأكثر من مرة، هذا التوسل اليائس للأم، وذلك التوق العميق للحماية، للاتحاد بالأم، للعودة إلى رحم الأم. فإلى جانب اللوم والغضب والزيف الذي يملأ رسائله فإنها تشع بالحب العنيد للمرأة التي منحته الحياة. وهو يلومها في اللاوعي لكل الأشياء البغيضة التي تقدّر له في هذا العالم الذي أنجبته فيه. غير أنها المرأة الوحيدة في حياته بينما كل الأخريات هنّ مجرد أفخاخ. وفي لحظة من لحظات وضوح الفكر المرعبة يكتب بطل «مذكرات رجل مجنون» فيقول: —

«أي مخلوقة ماكرة هي المرأة! الآن فقط أفهم ماهي المرأة! لم يعرف أحد حتى الآن من تستهدف بحبها، وأنا أول من يكتشفه. إنها واقعة في حب الشيطان، أجل، لست أمزح. أما المثقفون فهم يكتبون كلاماً فارغاً إذ يقولون إنها هذا أو ذاك. ولكنها لا تحب سوى الشيطان. إليك تلك التي تصوّب منظار الأوبرا في المقصورة الأمامية للمسرح. أتظن أنها تركز نظرها على ذلك الشخص ذي الكرش والذي تزينه الأوسمة؟ الأمر بعيد عن ذلك كل البعد، فهي تركز نظرها على الشيطان الذي يقف خلفه. انظر، هاهو يختبئ هناك. إنه يومئ إليها وستتزوجه، أجل ستتزوجه!».

ولاء المرأة للشيطان يتفجر في موضع آخر في المجموعة، في قصة «نيفسكي بروسبكت» وهي تتكون من قصتين نهايتاهما متعاكستان. فبطل القصة الأولى هو، شأن بطل قصة «الصورة»، رسام شاب بريء وذو موهبة فياضه اسمه «بيسكاريف» وفي شارع «نيفسكي بروسبكت» يصادف امرأة ذات جمال أخاذ لا يصدق: «شعر متألق كالعقيق، جبهة بيضاء وضاءة، شفتان تبدوان وكأنهما تضمان سر حشد من الأحلام الفاتنة». بهره جمالها وتقدم منها مندفعاً في افتتان روحي. «وفي تلك اللحظة كان نقياً كأنه مراهقة عذراء، ولكنه يحس توقاً روحياً للحب». تقوده إلى بيت للدعارة مليء بالمومسات فيهرب وقد روّعه ذلك. غير أنه لا يستطيع أن يصدق بأن روحاً فاسقة يمكن أن تختفي خلف هذه التقاسيم التي تبلغ حد الكمال. يراها ثانية في أحلامه ويقنع بأن من واجبه أن يتزوجها وينقذها من حياة الفسق. ولكنه حين يراها ثانية ليتقدم منها خاطباً يجدها مخمورة وترفضه باحتقار، فيذهب إلى بيته، وبحكم يأسه يجز عنقه، فالواقع قتل الحلم، والمرأة قتلت الفنان.

لديه صديق هو الملازم بيروجوف يخوض مغامرة مختلفة تماماً تبدأ أيضاً في نيفسكي بروسبكت حيث يتبع شابة ألمانية مغرية ويدخل معها في حديث وينجح في اقتحام بيتها ويغمرها بالقبلات وهو يتخيل نفسه حبيبها، وحينذاك يدخل زوجها يرافقه صديقان قويان يتوليان ضربه وإلقاءه في الشارع. مثل هذا الضرب من شأنه أن يوقظه من حلمه ويدفع بيروجوف إلى طرح أسئلة على نفسه، شأن بيسكاريف المسكين، حول حال العالم ولكنه يفتقر لحساسية الرسام ولكبريائه. يفكر في البداية بتقديم شكوى إلى رؤسائه ولكنه ما يلبث أن يغيّر رأيه، ويدخل إلى محل للحلويات حيث يأكل قطعتين من الكعك بالكريما ويختم ليلته مع عدد من أصدقائه. . . وهكذا فإن الرجل العملي يهضم إذلاله، آخذاً متع الحياة كما تتوفر له. ولكنه بعمله هذا إنما يضع نفسه، دون أن يدري، بين يدي الشيطان، ويدا الشيطان لا تعملان في مكان ما مثلما تفعل فعلها في نيفسكي بروسبكت حيث يتواجد عدد كبير من النساء.

كتب جوجول يقول: «أوه، لا تثقوا بنيفسكي بروسبكت! فكل ما ترونه هناك زائف. صور مخادعة، لا شيء كما يبدو في الظاهر. قد تتخيل بأن هؤلاء النساء. . . ولكن احرص على أن تكون ثقتك بهن في أدنى الحدود. فليحمك الله أولاً من أن ترى ما تحت قبعاتهن. ومهما تموّج ودوّم معطف جميلة عن بعد فلن يدفعني فضولي لملاحقتها. ابتعد أيضاً ما أمكنك عن مصابيح الشارع وسارع الخطو قدر إمكانك واعتبر نفسك محظوظاً إن لم يصبك سوء من ورائها سوى أن تتمكن إحداهن من إغراق معطفك الأنيق بذلك الزيت ذي الرائحة الكريهة. مصباح الشارع أيضاً كاذب مثل أي شيء آخر يعيش ويتنفس هنا. حي نيفسكي بروسبكت هذا يكذب في كل لحظة، خاصة عندما يلفه الظلام ليريح الجدران ذات اللونين الأبيض والأصفر الفاتح في حين تغرق المدينة بالضجيج والأضواء، وحشود العربات وهي تعبر الجسور، وأصوات الحوذيين يتصايحون ويرتطمون وهم صاعدون هابطون على صهوات خيولهم والشيطان نفسه يضيء المصابيح ليظهر العالم مرتدياً قناعاً».

وضع جوجول لكتابه «ميرجورود» عنواناً فرعياً هو «أمسيات أخرى في مزرعة» على أمل جذب المزيد من القراء للكتاب الجديد بتذكيرهم بعمل لاقى نجاحاً كبيراً. غير أنه، وعلى الرغم من أن أحداث القصص الأربع التي يضمها كتاب ميرجورود تجري في أوكرانيا، فإنها لا تتشابه مع قصص «أمسيات في مزرعة»، لا في الحبكة، ولا في المعنى ولا حتى في الأسلوب.

تبدأ المجموعة بحكاية ناعمة حزينة بعنوان: «ملاّك العالم القديم». تدور القصة حول زوجين متقدمين في السن هما «أفاناسي إيفانوفيتش» و «بولشيريا إيفانوفنا» المعروفان باسم «فيليمون» و «باوسيس» اللذين ينسجان حياتهما المتبطلة في الريف وهما يكرسان نفسيهما لعاطفتهما إزاء بعضهما البعض ولولعهما بالطعام. يحدقان بوله ببعضهما البعض، يأكلان ويدعان ذهنيهما يدوران تبعاً لدوران عجلات ساعات الزمن. وأمام هذا الحنان ينسى جوجول سخريته المعتادة وهو يتأمل هذه الجنة الأرضية المتواضعة. البيت الذي يصفه في هذه القصة هو

بيت طفولته بأبوابه ذات الصرير، وغرف الخزين المليئة بالطعام، والنوافذ المطلة على البستان حيث تنحني الأغصان تحت ثقل الفاكهة الناضجة. وقد استند في رسم صورة أفاناسي إيفانوفيتش وبوليشيريا إيفانوفنا على شخصية جديه لأبيه، ويستعير بقية اللوحة من ملاك الأراضي في الجوار. تبتسم الشمس الأوكرانية فوق الجميع. أما صخب العالم الخارجي فهو يتلاشى عند سياج الحديقة، وتبدو التعاسة أمراً غير وارد في مثل هذا المكان. غير أن بولشيريا إيفانوفنا تموت تاركة زوجها وقد أذهله الحزن. وبروايته لهذه القصة البسيطة يتخلى جوجول عن تحليله بالغ الدقة للعواطف وعن الأسلوب الطنان. ويكشف أبطاله عن دواخلهم بأصغر الإيماءات وتعبيرات الوجه والكلمات. وعندما نراهم من الخارج فإن حياتهم الداخلية تتسلل إلى داخلنا. وللتعبير عن انهيار أفاناسي إيفانوفيتش بعد وفاة زوجته يتجنب الكاتب استكشاف روح شخصيته ويكتفي بوصفه وهو يجلس إلى طاولة الطعام حيث يقول:

«ربطت خادمة فوطة تحت ذقن أفاناسي إيفانوفيتش، وحسناً فعلت، إذ لولا ذلك لسفح الصلصة على «الروب دوشامبر». حاولت إثارة انتباهه برواية مختلف أنماط الأخبار على مسامعه، ولكنه كان ينصت مبتسماً على الدوام وإن كانت تعابيره تبدي أحياناً دلائل عدم الاكتراث وتصبح فارغة تماماً. وقد يرفع ملعقته وهي مليئة بالعصيدة ويضعها على أنفه بدلاً من أن يدخلها في فمه، أو قد تتوجه يده خطأً ويغمس الشوكة بزجاجة الماء، وهنا تعمد الخادمة لتوجيه يده ثانية باتجاه الدجاج المشوي. وحين قدم «الكيك المخثر» قال أفاناسي إيفانوفيتش «هذا طبق. . .» ولاحظت أن صوته ضعف وكادت دمعة تفرّ من عينيه اللتين كانتا بلون الرصاص، وإن حاول أن يردّ الدمعة على أعقابها. «هذا هو الطبق الذي كانت فقـ. . . فقـ. . . فقيدتي. . .» وانفجر بعد ذلك باكياً وسقطت يده فوق الصحن، وسقط الصحن على الأرض وانكسر وانسكبت الصلصة لتغرق ثيابه. ولكنه ظل جالساً، غافلاً عن كل شيء وهو يمسك بملعقته، وتدفقت دموعه مثل نافورة صامتة لا صوت لها، تدفقت في فيضان فوق الفوطة التي تغطي صدره».

يتساءل جوجول وهو يفكر بهذا الرجل العجوز الذي هزه حزن لا يستطيع الفكاك من بين براثنه: «أيهما يسيطر علينا أكثر، أهي العاطفة أم العادة؟» وبعد وقت قصير يسمع أفاناسي إيفانوفيفيتش صوتاً من العالم الآخر يناديه في وضح النهار، ويدرك أن ساعته قد أزفت فيستسلم لهذه الفكرة «بإذعان كأنه طفل» وينطفئ «مثل فتيل لم يبق له من الوقود ما يغذي شعلته الضئيلة».

أبطال قصته: ««شجار بين الإيفانين» هم أيضاً شخصيات لا أهمية لها، غير أن طابع القصة هو طابع كاريكاتوري. يقال إن فكرة القصة أوحت بها الألاعيب المخادعة لاثنين من مواطني ميرجوروود معروفين بشجاراتهما ثم تصالحهما مرة بعد مرة. وربما استلهم جوجول قصته من كتاب لمواطن أوكراني اسمه «ناريجني» وعنوانه «الإيفانان» أو «حب للماحكة» نشر عام (١٨٢٥). غير أن نبرة وأسلوب وأحداث قصة جوجول لا تنتمي لأحد سواه. فهي تتميز بنفس نبرة السخرية والتعبير عن المرارة».

هناك بالطبع بون شاسع من الاختلاف بين إيفانيه إذ إن إيفان إيفانوفيتش يمتلك قدراً استثنائياً من الحديث المتناغم. أما إيفان نيكيفوروفيتش فهو صامت عادة. إيفان إيفانوفيتش طويل ونحيل، وإيفان نيكيفوروفيتش أقصر بعض الشيء ولكنه يتمدد أفقياً. رأس إيفان إيفانوفيتش مثل رأس الملفوف، جذره في الأسفل، أما رأس إيفان نيكيفوروفيتش فهو مثل رأس الملفوف ولكن جذره في الأعلى.

يقوم الشجار بينهما نظراً لأن إيفان نيكيفوروفيتش لن يبادل بندقيته مع إيفان إيفانوفيتش مقابل آلة بذار وكيسين من الشوفان ولأنه ينعت إيفان إيفانوفيتش في لحظة غضب بأنه مغفل. وما تلبث الأمور أن تصل إلى ذروة الحمى مما يؤدي إلى دعاوى قضائية واستعدادات لإجراء جلسات تحقيق جنائية تظل تجرجر لعقود عديدة. يتقدم الخصمان في العمر، وفي اللحظة التي يبدو في النهاية وأن إجراء مصالحة أصبح أمراً ممكناً يشتعل النزاع من جديد ولا يقبل الإيفانان بأقل من حكم قضائي لتسوية الأمر. يتدخل الكاتب باستمرار في هذه المهزلة المطولة مؤكدا

على غرابة شخصياته حيث يستخدم الاستعارات المجازية ويغمز للقارئ كي يشاركه سخريته. فامرأة اسمها «أجافيا فيودوسيفنا» «ترتدي قبعة على رأسها ولديها معطف فضفاض قاتم اللون طبعت عليه زهور صفراء، وثلاث ثؤلولات على أنفها. لها جسم تحول مع الزمن فأصبح كأنه مركب قديم». وأنف القاضي «قريب من فمه بحيث يمكنه أن يشم شفته العليا بيسر. وبذا أصبح يستخدم هذه الشفة كعلبة للسعوط حيث أن التبغ الذي يفترض فيه أن يدخل منخريه كان يقع باستمرار فوق شفته». وكاتب المحكمة الذي «يضع ريشته بين أسنانه» مندهشاً، وتندفع خنزيرة بنية إلى داخل قاعة المحكمة في ذروة جلسات الدعوى وتسحب كل أوراق هذه الدعوى. وإيفان نيكوفوروفيتش سمين لدرجة أنه ينحشر في الباب ولم يستطيعوا زحزحته إلا بعد أن صلّبت ذراعاه أمام جسده ورفعت ركبته لمستوى معدته. وأنفاس كاتب المحكمة والجندي اللذين يحرران نفاذة «بحيث بدا وكأن المحكمة تحولت إلى خمّارة».

غير أن مرارة تظل تكمن وراء هذه الكوكبة من الابتسامات. وعندما يتلاشى الضحك يبدو وكأن جوجول يشعر بالارتباك نظراً لتفاهة العالم الذي يصوره. وعندما يغادر الراوي بلدة ميرجورود والايفانان ما يزالان ينتظران نتيجة الفصل في قضيتهما – وقد كلل الشيب رأسيهما وملأت الغضون جبهتيهما – يرقب الكاتب المنظر الطبيعي وهو يذوب في الجو الرمادي وفي المطر: «تغلغلت الرطوبة إلى أعماقي. وتتابعت أمام عيني ببطء صور الحاجز الموحش ومقصورة الحراسة حيث يقوم جندي بترقيع ملابسه الرمادية. وتتابعت من جديد مشاهد السهول، بعضها سوداء ومثلّمة والبعض الآخر تغطيه الخضرة، والغربان وطيور الزاغ بأجنحتها المشبعة بالماء، والمطر نفسه الذي لا يتغير ولا يتبدل، والسماء الرصاصية الدامعة ذاتها. أجل يا أصدقائي، الحياة هنا في الأسفل مملّة جداً».

هذه الخاتمة المتحررة من الوهم تبطلها عظمة ملحمية واتجاه متهور تجسدهما قصة أخرى في هذه المجموعة، وهي قصة «تاراس بولبا». وقد أعاد جوجول النظر في هذه القصة وراجعها فيما بعد (فيما بين عامي ١٨٣٩ و ١٨٤٠

خاصة) . وهو يستعيد فيها الفترة المضطربة التي تشكل خلالها «قوزاق زابوروج» في منتصف القرن الخامس عشر في الجزر جنوب منحدرات نهر الدنيبر للدفاع عن استقلال المنطقة ضد غارات البارونات البولنديين . فوجود لغتين ودينين وعرقين في منطقة حدودية من شأنه أن يثير الحروب باستمرار .

لا بد أن الكاتب بحث في العديد من المراجع العلمية حول تاريخ أوكرانيا . غير أن الجزء الأكبر من معلوماته استند إلى الأساطير الشعبية وأغاني وموسيقى «الباندورا» التي جمعها كل من تسيرتيليف ومكسيموفيتش وسريجنفسكي ، ولذلك فلم يلتفت ، إلا بشكل محدود ، للدقة التاريخية ، ولم يتقيد بالتسلسل التاريخي تماماً . وعلى كل حال فإن اهتمامه بتجسيد نفسية شخصياته وبروعة البيئة التي تحيط بهم كان يفوق اهتمامه بتقديم الحقائق بصدق .

من الواضح أن جوجول استلهم في هذا العمل روايات الكاتب الإنجليزي «وولتر سكوت» التي كانت رائجة جداً في روسيا في ذلك الوقت . ولكنه تجاوز معلّمه في عنف لمساته أو اندفاع ألوانه . بنيت الأحداث الدرامية بشكل رئيسي على أساس كتل ضخمة وإن كانت بسيطة ، فيها تفاصيل كثيرة جداً تتسم بالجموح ، رصعت ، مثل جواهر في إسمنت سرده . إنها جوهرة وحشية نحتت ورصعت بحجارة متعددة الألوان ، كلها متلألئة . همجية العادات ، والتعذيب ، ونوبات احتساء الخمور ومذابح اليهود ، والقتال وأعمال السلب والنهب ، كل الصور الذهنية مرسومة بحدة . غير أن تلك الحدة لا تبلغ الدرجة التي تجعل الخلفية تطغى على الشخصيات .

شخصية الأب في قصة «تاراس بولبا» هي الشخصية الأكثر اكتمالاً بحيويته وإحساسه الفطري بالولاء ، وشهيته للطعام وعناده . يقف إلى جانبيه ابناه «أوستاب» ، المحارب بما يتصف بصفات التصلب وعدم إمكانية التواصل معه ، وأندريه الأكثر حساسية وتعقيداً والذي يخون المحاربين الزابوروج بعد وقوعه بغرام امرأة بولندية . وهذه ، بالطبع ، مثل كل بطلات جوجول ، «ذات عينين سوداوين وبشرة في بياض الثلج وقد أضاءتها شمس الصباح الوردية!» . وحين

تضحك «تمنح ضحكتها قوة متوهجة لجمالها الذي يبهر الأبصار». تتحدث «بصوت فضي». «وبغمزة من عينيها تحرف أندريه الباسل الذي يصرخ «ماهو أبي، رفاقي، بلدي بالنسبة إلي؟ بلدي. . . هي أنت!» وإزاء ذلك تضمه المرأة البولندية – شيطانة أخرى – «بذراعيها الفاتنتين الثلجيتين».

تضعف هذه المكيدة العاطفية من بنيان القصة ولكن جوجول احتاج إليها لدفع أندريه للتبرؤ من مولده ومن عقيدته. ويعمد يانكل اليهودي على إعلان هذه الأنباء المرعبة للأب بعبارة مريرة حيث يقول له: «حين يقع الرجل في الحب فإن قيمته لا تتجاوز قيمة نعل حذاء ينقع بالماء: فإن لويته انفتل وانثنى على الفور». يحطم هذا الأمر تاراس بولبا وينصرف تفكيره كلياً إلى إنزال العقاب بابنه الخائن المرتد. يعثر عليه في معركة كان يقاتل فيها في صفوف الأعداء ويقتله بيده. ومن ثم يتسلل إلى وراسو متخفياً ليشهد تعذيب ابنه الآخر، أوستاب، والذي كان قد أسر. ولكنه يؤسر هو أيضاً ويثبت بمسامير بشجرة ويتم حرقه حيّاً. غير أن صرخته الأخيرة كانت صرخة تشجيع بعد هلاك الجزء الأعظم من عصابته، ويقول إن قيصر روسيا، الذي يقاتل من أجل العقيدة الأورثودوكسية سيضعهم يوماً ما تحت حمايته.

على الرغم من الرعب الذي يعم القصة والدم الذي يغرقها منذ البداية حتى النهاية فإنها تطلق زفرات فيها نوع من التفاؤل. يستعيد القارئ طمأنينته بالنظر للصحة الحيوية لأبطال القصة، وبساطة عواطفهم وعظمة مآثرهم وكأنهم ينتمون لأساطير هوميروس، وكذلك بفعل جمال المناطق التي يعبرونها مما ينعش طاقاتهم الاستثنائية. ولا يشعر القارىء بأن عذابهم غير مجد بل إن كل تلك التضحيات إنما تمثل ضرورة تاريخية عميقة وكأن هزائمهم في حد ذاتها والتي يضخمها الفن الأدبي إنما هي نوع من التمجيد الإلهي. قصة «تاراس بولبا» هي قصة ترسمها ريشة فنان.

بعد أن هنأ الرسام «برولوف» على براعته الفائقة بتحويل مشهد من العذاب الاجتماعي في لوحة الأيام الأخيرة لبومبي إلى عمل يجسد الجمال فإن جوجول

يطبق مبدأه الخاص بالجمال على نفسه إذ يصعّد الواقع إلى درجة تمنح طعم الحياة للقارئ الذي يرى ذلك الجبل من الجثث. ولقد كتب في قصة «الصورة» يقول: «من أجل التهدئة والمصالحة إنما يهبط الإبداع الفني على ظهر البسيطة».

وفي الواقع فإنه على الرغم من عنف موضوع قصة «تاراس بوليا» فإنها ربما تخلّف لدى القارئ بالفعل إحساساً «بالتهدئة» و»المصالحة». غير أن الكاتب لم يستعد بعد ذلك هذه الثقة الهادئة لكاتب الرواية التاريخية.

في قصة «في» نعود إلى الشيطان الذي يبتزّ ويرهب. ومن خلال شخصية نسائية أخرى يهاجم الشيطان الطالب «توماس بروتس» الذي يدرس الفلسفة ويبدأ رحلة مشياً على الأقدام مع اثنين من أصدقائه من المعهد اللاهوتي ليقضي العطلة الصيفية مع والديه. عند حلول الليل، وقد هدّ الثلاثة التعب نتيجة لمسيرتهم الطويلة، يتوقفون في إحدى القرى ويطلبون من امرأة طاعنة في السن أن تستضيفهم. توافق على ذلك مكرهه وتضع أحدهم في الكوخ، والثاني في السقيفة الفارغة والثالث في حظيرة الأغنام. وفي اللحظة التي يستلقي فيها توماس بروتس لينام يرى المرأة العجوز تندفع نحوه وهي تمد ذراعيها. تشلّه قوى جهنم بحيث لا يستطيع دفعها عنه. تقفز فوق ظهره فيحملها وهي تباعد بين ساقيها وقد طوقته ضربات مكنستها، يحملها صاعداً إلى السماء. غير أنه، وهو يطير، يحتفظ بقدر من حضور الذهن يمكّنه من تلاوة بعض الصلوات. وهكذا، وبعد أن تلجم الكلمات المقدسة قوتها تبدأ الساحرة بالارتجاف والأنين والهبوط من الأعلى. وعندما يلامس الأرض ثانية يأتي دوره لكي يباعد بين ساقيه ويضربها. يعتقد بأنه ذبح وحشاً، ولكن توماس بروتس يكتشف في ضوء الفجر وهو يشع فوق قباب كنائس كييف البعيدة، ولذهوله، أن هنالك فتاة فاتنة ذات ضفائر جميلة تتدلى على جسمها ورموش طويلة كأنها السهام، تستلقي عند قدميه وهي «تمد ذراعين بيضاوين عاريتين وتئن وتتوجه إلى السماء بعينين تملؤهما الدموع». يملؤه الهلع فيهرب. وفيما بعد يطلب منه القسيس أن يسهر إلى جانب جثمان امرأة في الكنيسة. وعندما يصبح وحده أمام النعش المفتوح يتعرف على الساحرة

التي ضربها وقد ازدادت جمالاً وإثارة للرغبة وللشعور بالقلق. يرسم دائرة بالطباشير حول قدميه ويحاول لثلاثة أيام صدّ قوى الشر. تعود الجثة إلى الحياة من جديد يدفعها الشبق الجنسي فتنهض وتمشي باتجاهه، ثم تعود إلى النعش. ولكن النعش ما يلبث أن يبدأ بالطيران عبر الكنيسة محدثاً صوتاً نفاذاً صافراً. يتكسر زجاج النوافذ وتتساقط الأيقونات على الأرض وتنتزع الأبواب من مفصلاتها بينما يتعرق جسد توماس بروتوس وهو يتلو تعاويذه بصوت واهن. وما يلبث الشياطين أن يستدعوا «في» ويظهر قزم خرافي كريه الشكل هو رئيس أرواح الأرض، وقد غمره الطين، يسير على قدمين شكلهما مثل جذور الأشجار وله جفنان يجرهما على الأرض. يشعر الطالب غريزياً بأن عليه ألا ينظر إلى هذا القزم إن كان يريد أن يظل حياً، ولكن الإغراء لذلك كان قوياً جداً فيوجه نظرة عجلى إليه ويتملكه بالتالي الهلع إلى درجة تصل به إلى الموت. وعند ذلك يتعالى صوت الديك للمرة الثانية وتحاول الأرواح الفرار، غير أن الوقت كان قد فات وينحبس البعض منهم ويبقون ملتصقين بأبواب ونوافذ الكنيسة. «وعندما يأتي القس في ذلك الصباح يرتد إلى الوراء لمرأى هذا التدنيس للكنيسة المقدسة فلم يجرؤ على ترتيل القداس».

غير أن الشيطان اتخذ ثانية شكل امرأة جميلة في أحد أعمال جوجول. كم من رجل، كما فكر، يستسلم أمام الإغراء ويصبح توماس بروتس آخر تعذبه الساحرات! الروح روح شيطان والوجه وجه ملاك. وهم يفعلون فعلهم أثناء الليل ويتألقون صدقاً وإخلاصاً مع طلوع الشمس، وعلى المرء أن يرسم دائرة بالطباشير حول قدميه قبل النظر في وجه النساء.

كتب جوجول في قصة «شجار بين الإيفانين» يقول: «أعترف بأنني لست أفهم كيف يمكن للنساء أن يمسكننا من أطراف أنوفنا بنفس البساطة التي يمسكن فيها بيد إبريق الشاي. ألهذا خلقت أيديهن، ولهذا فقط تصلح أنوفنا؟ وعلى الرغم من أن أنف إيفان نيكيفوروفيتش يبدو وكأنه حبة خوخ فإن أجافيا فيودوسيفنا أمسكت به وقادت بطلنا كما تشاء وكأنه مجرد كلب صغير».

وفي «نيفسكي بروسبكت» يصرخ ألماني ثمل قائلاً: «لست بحاجة إلى أنف! فمن أجل ذلك الأنف استخدم ثلاثة أرطال من التبغ كل شهر. أنفي وحده يكلفني أربعة عشر روبلاً وأربعين كوبيكاً!».

وبطل قصة «مذكرات رجل مجنون» يعلن بكل كآبة: «الأنوف وحدها هي التي تسكن القمر في الوقت الحاضر، ولهذا السبب فإننا لا نستطيع رؤية أنوفنا: فهي جميعاً في القمر».

يمثل الأنف كذلك الفكرة المتكررة المهيمنة في كل من «أرابيسكس» و«ميرجورود» باعتباره المطابق للفكرة المهيمنة المتكررة للمرأة شريكة الشيطان في الجريمة. ولا شك بأن الكاتب نفسه لا ينظر في المرآة إلا ويفاجئه طول، ونحول، وما يمكن أن نسميه بغضروفية ذلك العضو الملحق في وجهه، وهو أنفه. قيل إنه حين قطّب ليمثل في وجهه شكل كسّارة البندق كان قادراً في الواقع على لمس أنفه بشفته السفلى. كان شديد الحساسية للروائح ويعمد لتحليلها ووصفها بصورة تثير الحواس، ويتحرك أبطاله ضمن جو يستند على حاسة الشم بشكل أساسي. فهم يعطسون ويشخرون ويغطون في نومهم. وبعد كل تلك التلميحات الضمنية قرر جوجول في النهاية أن يخصص للأنف معلماً خاصاً به. كتب قصة «الأنف» في عام (١٨٣٤) ولكنه لم ينشرها في مجموعة ميرجورود. وبعد أن رفضتها هيئة تحرير «موسكوفيت أوبزرفر» نشرت في «المعاصر» (كونتمبوراري)، وقدمتها ملاحظة كتبها بوشكين يقول فيها: «أحجم ن. ق. جوجول عن نشر هذه الصورة الوصفية الأدبية لمدة طويلة. غير أننا وجدناها متميزة ومثيرة للخيال، مضحكة وصادقة بحيث أقنعناه بأن يشاركنا الجمهور المتعة التي حصلنا عليها من قراءة هذه المخطوطة».

كان بوشكين يقلل هذه المرة من شأن هذا الكاتب الذي تبنّاه. فهذه «الصورة الوصفية الأدبية» أغرب مما يبدو لأول وهلة. فمستلهماً تخيلات «هوفمان» و«كاميسو» كان دافع جوجول الأولي بالتأكيد لا يزيد عن تصوير

خدعة كبيرة. غير أن هذه المزحة ما لبثت أن اكتسبت معاني إضافية أكثر شؤماً.

ففي صباح أحد الأيام يعثر حلاق في رغيف الخبز الذي يوشك أن يأكله على أنف أحد زبائنه وهو «كوفاليف» مخمّن الضرائب في إحدى الكليات. يفزعه هذا الاكتشاف فيحمل باشمئزاز قطعة اللحم التي عثر عليها ويتوجه إلى نهر النيفا لإلقائها هناك. ولكن هذا الأنف ما يلبث أن يعود للظهور من جديد وهو يرتدي هذه المرة بزة مطرزة بخيوط من الذهب لها ياقة ضخمة عالية وبنطالاً ضيقاً من الجلد ويتمنطق بسيف عند جنبه. أما قبعة الضابط ذات الريشة فهي تحدد رتبته على أنه عضو في مجلس الدولة. يتقدم كوفاليف سيىء الحظ من هذه الحلية الضرورية له ويكلّمه محاولاً إقناعه بالعودة إلى مكانه الطبيعي. غير أن الأنف يبادره قائلاً بترفع: «أنت مخطئ يا سيدي، فأنا لا أتبع إلا نفسي. كما أنه لا يمكن أن تكون هنالك رابطة وثيقة بيننا. وإن أخذنا الأزرار المثبتة على بزتك بعين الاعتبار فإننا ننتمي لدائرتين عسكريتين مختلفتين». وما يلبث أن يختفي بعد ذلك تاركاً كوفاليف في حيرة من أمره.

يعيد له أحد رجال الشرطة أنفه في النهاية. غير أن الطبيب الذي يطلب منه إعادته إلى وجهه يرفض محاولة إجراء العملية، وتبدأ القضية كلها تنتشر كإشاعة في المدينة حيث تستفيض الصحافة في الحديث عنها. وفي صباح أحد الأيام يستيقظ كوفاليف ليجد أنفه في وسط وجهه.

الأمر الأغرب في هذه الحادثة برمتها هو أن أحداً من شخصيات القصة لا يستغربها على الإطلاق، كما يطلب من القارئ أيضاً ألا يندهش جداً منها. وعلى الرغم من أن الحلاق يرتعب عندما يكتشف وجود أنف في داخل رغيف خبزه، غير أن ما يخيف زوجته هو أن الشرطة قد تأتي لزيارتهم. والموظف في الصحيفة التي ينوي كوفاليف نشر إعلان فيها يجد الحادثة مستغربة فحسب ولا شيء غير ذلك ويرفض نشر الإعلان لكي لا تتهم صحيفته بأنها تقوم بنشر الأخبار الطريفة. غير أنه يلحظ فقط وبتعاطف بأن وجه زبونه غير كامل ويقول:

«ما أغرب أن يحدث هذا! فموضعه عارٍ تماماً ومسطح وكأنه كعكة رفعت لتوها من المقلاة». أما مفوض الشرطة الذي يلتجئ إليه كوفاليف بعد ذلك فهو يستقبله ببرود قائلاً إن «رجلاً محترماً لا يقبل بأن يُسحب أنفه»، في حين يعلن رجل الشرطة الذي يعيد الأنف لصاحبه قائلاً بلهجة هادئة: «أنفك سليم تماماً». والطبيب الذي يستدعى لتركيب العضو يكتفي بفحص المريض ويقرر: «يمكنني بالطبع إعادة أنفك إلى موضعه، ولكنني أقسم لك بشرفي بأن وضعك سيكون أكثر سوءاً مما كان. دع الطبيعة تأخذ مجراها، واغسل وجهك تكراراً بالماء البارد، وأؤكد لك بأنك ستكون بصحة جيدة دون أنفك، وكأن لديك أنفاً». ولا يجد سكان المدينة في الأمر إلا شذوذاً يبعث على التسلية في الأنف الذي يرتدي بزة رسمية». أما من يترددون على قاعات الاستقبال في أماكن معينة في المجتمع الراقي فلا يجدون في الأمر إلا كونه قصة مسلية في وقت كانت تلك الأماكن لا تجد قصصاً يمكنها أن تسلي سيدات هذا المجتمع».

يخلص جوجول إلى القول: «الأمر برمته غير مفهوم، ولست أفهمه على الإطلاق. وأغرب ما في الأمر وأبعده عن الفهم هو أن يختار المؤلفون الكتابة عن مثل هذا الموضوع. أعترف حقاً عندما أفكر بالأمر بأنه لا يصدق على الإطلاق. غير أنك حين تفكر فيه من جديد فستجد فيه شيئاً ما في نهاية المطاف. ومهما كان رأيك فإن مثل هذه الأمور تحدث في العالم. أعترف معك بأنها نادرة الحدوث ولكنها تقع».

تعليق آخر: يقول كوفاليف في مكتب الصحيفة تعليقاً على أنفه المفقود: «إنه الشيطان يلعب لعبته عليّ». لاشك بأن الشيطان هو الذي يقلب كل الأمور رأساً على عقب في سانت بطرسبرج، إذ يتكثف الضباب في الشوارع، ويجمّد القلوب ويصيب الناس بالعمى. والأسوأ من تدنيس الكنيسة في قصة «في» هو «هذه العاصمة الشمالية للإمبراطورية»، حيث يتنامى الغموض ويمتد في ظل الأنوار الشريرة لمصابيح الشوارع. لا نشهد هنا نعوشاً تطير بل أنفاً يمشي

على ساقين. ولا نشهد كذلك رعب جنازات بل حماقة تبعث على القهقهة. لاأقزام شنيعة بل مارّة محترمون وموظفون حذرون. يذوب برقة الخط الفاصل بين الواقعي وغير الواقعي في عالم يتوزع فيه الضوء والظلال. يمزق الشيطان الوجوه، ويضع قبعة عليها ريشة على قطعة لحم بشري ويجلس منخرين في عربة تجرها أربعة خيول، يعلي مقام عضو مبتور وبذا يشوش أذهان المواطنين الشرفاء وبحيث لا يحتج أحد قط.

ما إن يستعيد كوفاليف أنفه حتى يستأنف تسليته المحببة وهي «ملاحقة كل امرأة جميلة يراها بالابتسامات». ولذا فهو مجرد محتال وحليف لفارس الهيكل الأكبر. وعندما يرد له الشيطان أنفه فلابدّ أنه، أي الشيطان، اختفى في داخله وسيبقى هناك إلى الأبد.

قد تكون لهذا العضو الأنفي الذي يمنح فجأة وجوداً مستقلاً أهمية جنسية غفل عنها الكاتب. فقد اختار جوجول العاجز جنسياً أن يتخيل عضواً في جسمه مستطيل الشكل ومنفصلاً عن الجسم، يهتز ويطوف العالم بحثاً عن مغامرة كبرى، اختار أن يعرض هذا النتوء الشخصي جداً أمام الملأ بحيث يحتك ذلك الانتفاخ العاري ببزات السادة وتنانير السيدات. إنه يحرر نفسهِ في اللاوعي من هذا الهاجس الذي يستبد به في أحلامه المشوشة.

في النسخة الأولى من القصة يدخل أنف عضو مجلس الدولة إلى كاتدرائية «سيدة قازان». ولكنه نظراً لأنه كان يتوقع رد فعل من جانب الرقيب إزاء هذا الموضوع أعلن جوجول أنه مستعد لإرسال بطله الفضولي إلى كنيسة للروم الكاثوليك بدلاً من مكان عبادة أرثودوكسي. ولكن الرقيب آثر في النهاية أن يتم اللقاء بين كوفاليف والجزء الأثمن من تركيبه البنيوي في سوق (جوستني دفور). كما تم حذف فقرة يقوم خلالها كوفاليف برشوة أحد رجال الشرطة. وكان جوجول قد تعرض للتأنيب نظراً لأنه صوّر في «نيفسكي بروسبكت» قيام اثنين من الألمان بضرب ملازم أول. ولتبرير مثل هذه الجريمة أجبر الكاتب على

الإيضاح بأن بيروجوف لم يكن يرتدي البزة الرسمية بل وصل مرتدياً ملابس مدنية ومعطفاً بسيطاً لا يزينه النسيج المقصب على كتفي السترة العسكرية.

اضطر جوجول لحذف مقطع مطول من رسالة كتبها أحد الكلاب لكلب آخر بشأن هوس سيدهما بأمر الحصول على وسام وذلك لكي يحصل على الموافقة اللازمة لنشر قصة «مذكرات رجل مجنون»، والمقطع هو: «قلما يفتح فمه ولكنه ظل يردد باستمرار في الأسبوع الماضي: «هل سيمنحونني الوسام أم لا؟» والآن تحقق الانتصار وتدفق سادة ببزاتهم الرسمية طوال الصباح لتهنئته. وبعد العشاء رفعني حتى عنقه وقال: «أترين يا مادجي ماذا لديّ هنا؟ رأيت شريطاً فشممته ولم أستطع اكتشاف أي رائحة فيه على الإطلاق. لعقته في النهاية فتبين لي أنه مالح بعض الشيء». التحدث بهذه التعابير حول وسام منحه الإمبراطور يقارب تدنيس المقدسات. وسام دون رائحة، ومالح. ماذا يمكن أن يقال بعد ذلك، بل ويلعقه كلب وقح ويلطخه. المقطع برمته حذفته ريشة الرقيب الغاضب.

ولكن أي تعويذة إدارية لا يمكنها أن تقف أمام قوى معينة في الدماغ. بدا وكأنما الجمل المبتورة تركت جذورها في النص. وعلى الرغم من عملية التنظيف المدققة، ومن الفرك والتطهير ظلت رائحة الكبريت تفوح من قصص جوجول سواء أكانت تتناول أوكرانيا أو سانت بطرسبرج، سواء أكانت تتناول أحداثاً مرعبة أم فاجرة، شيطانية أم عادية ومتواضعة.

□ □ □

٩ ـ المفتش العام

لم يرد بوشكين الذي كان قد توجه إلى مزرعته في ميخاييلوفسكي على رسالة جوجول التي كان قد طلب منه فيها فكرة لكتابة عمل كوميدي. ربما كانت الرسالة قد أزعجته. وما لبثت الأخبار أن وردت (في ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر) بأنه عاد إلى سانت بطرسبرج. وما كاد ينتقل إلى شقته على نهر «النيفا» قرب جسر «براشيشني» حتى بدأ جوجول هجومه. بدا بوشكين قلقاً، ولكن العلاقة بين الرجلين لم تصل قط إلى مستوى الألفة الحقيقية، ولذا لا يمكن أن يخطر لجوجول أن يستفسر من صديقه المتألق عن حياته الخاصة. كان يعرف بالطبع، شأن الجميع، بأن بوشكين يغار على امرأته الشابة فائقة الجمال، وأنه قد استشاط غضباً لتعيينه - وهو في هذا العمر- في منصب تشريفات في القصر، وأنه كان يغتاظ ويهتاج كلما توجب عليه حضور حفلة راقصة في القصر، وأنه يعيش عيشة رخيّة تتجاوز موارده، أو أن أي مبادرة من جانبه، مهما كانت ضئيلة، من شأنها أن تثير اعتراض الحكومة، وأنه المدلل لدى القيصر وسجينه في آن واحد. غير أن كل ذلك كان يختفي خلف قناع غير مرئي يحرص عليه الشاعر بكل وقار. يلتزم الحسم والكياسة ولا يتحدث إلا في أمور الأدب مع زميله الشاب الذي استعاد جرأته بسرعة وكرر طلبه. ضحك بوشكين. موضوع لمسرحية كوميدية؟ أجل! لقد سجل لتوه ملاحظة ما. وفي سطور قليلة من النص السريع: «يصل كريسبين إلى بلدة في الريف حيث يقام سوق ما ويُعتقد خطأً أنه . . . رئيس البلدية مغفل؟ زوجته تغازله، وتتم خطوبة كريسبين لابنة رئيس البلدية». كان هذا ما حصل فعلاً مع «بول سفينين»، محرر إحدى المجلات إذ

ذهب إلى «بيسارابيا» حيث ظنوا أنه مفتش عام يقوم بجولة رسمية. ترحب به عائلة رئيس البلدية، ويتظاهر هذا بأنه ذو مقام رفيع. يغازل السيدات، ويعطى الوعود للرجال ويستقبل المستعطفين. كان بوشكين نفسه قد تعرض لموقف مماثل عندما مرّ ببلدة «نجني نوفجورود» (في شهر آب/ أغسطس ١٨٣٣) وتم إبلاغ الحاكم هناك بأنه آتٍ كمندوب مفوض من العاصمة في مهمة سرية.

أخذ جوجول «ينط» فوق مقعده وهو ينصت لبوشكين. هذا بالضبط هو مايحتاجه. بلدة صغيرة في الأقاليم. محتال مغرور. أغبياء يصدقون مايقول. هزء بالإدارة. أخطاء الجميع تكشف في وضح النهار. عاصفة في فنجان. والآن، لو يوافق بوشكين على إعطائه هذه الجوهرة. استسلم الشاعر أمام توسلاته مرة أخرى، وسمع عنه قوله فيما بعد وهو يتسم ابتسامة ساخرة: «احذر في تعاملك مع ذلك (الأوكراني). فهو يسلخني بدهاء بحيث لا أكاد أجد الفرصة لأطلب النجدة».

كان موضوع اعتبار شخص عادي خطأ على أنه شخصية عظيمة الشأن قد عولج في عمل كوميدي بعنوان «البلدة الألمانية الصغيرة» كتبه «كوتزيبيو» وعمل آخر بقلم كاتب أوكراني اسمه «كفيتكا- أوسنوفيانينكو» بعنوان «زائر من العاصمة» أو «جلبة في البلدة الريفية». بل كان هنالك عمل كوميدي كتبه «بوليفوي» بعنوان «المفتشون العامون» أو «من يأتي من مكان بعيد يمكنه أن يكذب كما يشاء». (١٨٣٢). غير أن أياً من هؤلاء الأسلاف لم يكن جوجول يقبله كملهم له. فهو لا يقبل رعاية من أي مصدر غير بوشكين. كان لابدّ أن تأتي الومضة من القمة.

وضع «نفوس ميتة» إذن على الرف وانغمس في «المفتش العام»، ولم يكن مخطئاً فيما يتعلق بنوعية الموضوع: فالمشاهد كانت تكتب نفسها بنفسها، والشخصيات تبرز، كل بتكشيرته أو تقلص عضلات وجهه، وأخذت السطور تتدافع بمرح. وفي حمى الإبداع لم يعد جوجول يغادر غرفته إلا للذهاب إلى المعهد الوطني لزيارة شقيقتيه بين الفينة والأخرى، أو لزيارة عدد قليل من

الأصدقاء من باب التغيير. كان واثقاً من النجاح هذه المرة. وقد كتب لأمه (في ١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٣٥) يقول: - «جميعنا بخير هنا. أختاي تكبران، وتدرسان وتستمتعان بوقتهما. وأنا شخصياً أتوقع أمراً ساراً جداً. أعتقد بأنني سأتمكن في غضون سنتين على أبعد تقدير من دعوتك للمجيء إلى سانت بطرسبرج مع بناتك، وعلينا في هذه الأثناء ألا نتشكى».

أنهى هذا العمل الكوميدي (في ٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٣٥) وسلمه لناسخ، ولكنه ما لبث أن استرجعه وبدأ يعيد النظر فيه فيحذف ويحسّن النص ويجعله أكثر حدة. وقد كتب لبوجودين (في ١٨ كانون الثاني/ يناير ١٨٣٦) يقول: «أنجزت هذه الكوميديا ونسخت، ولكنني أدركت لتوّي بأنه لابدّ لي من إجراء بعض التعديلات القليلة. لن يستغرق هذا وقتاً طويلاً حيث أنني قررت إنتاج المسرحية في عيد الفصح. ستكون جاهزة تماماً ببداية الصوم الكبير وسيكون أمام الممثلين وقت كافٍ لحفظ أدوارهم».

قرأ «المفتش العام» في اليوم ذاته لمجموعة من الأصدقاء في منزل جوكوفسكي: بوشكين كان حاضراً وكذلك فيازمسكي[1] وكذلك فايلجورسكي. استقبل المشهد الأول منذ بدايته بضحك مجلجل، وأخذ المستمعون يتبادلون بين آونة وأخرى، نظرات تعبّر عن حبور عابث. وفي نهاية المطاف عم المديح وابتهج جوجول.

كتب فيازمسكي لتورجنيف في اليوم التالي يقول: «إنه يقرأ بطريقة مذهلة ويثير موجة إثر موجة من الضحك. غير أنني لست واثقاً فيما إن كانت المسرحية ستفقد بعض ما فيها لدى تمثيلها، إذ إن القلائل من الممثلين يمكنهم أن يلعبوا أدوارهم بنفس الإتقان التي يقرؤونها فيه. فهنالك فيض من المرح لدى جوجول مما يجعله يغالي في بعض الأحيان ويجعل تهكمه في غير محلّه».

جرت قراءات في قاعات استقبال أخرى وكانت ناجحة أيضاً. غير أن الجانب الأصعب ظلّ قائماً. فالمسرحية تسخر من المسؤولين في الأقاليم، ومن

(١) فيازمسكي: شاعر وناقد وصديق لبوشكين، كان شخصية مرموقة في عالم الأدب.

غير المحتمل أن يسمح الرقيب بطباعتها أو بتمثيلها إلا إذا جاء، بالطبع، قرار من الأعلى ليمهد الطريق أو يزيح كل العقبات. وعلى هذا شمّر جميع الأصدقاء عن سواعدهم ووضع كل منهم خطته لخوض المعركة وكأنما هم على وشك مواجهة قتال دموي. اقترح بوشكين أن تكلم الجميلة «إليكساندرا سميرنوف» الإمبراطور مباشرة كما فعلت ونجحت سابقاً لمصلحة «بوريس جودونوف». فالإمبراطور نيقولاس الأول سمح بنشر كتاب «الذكاء يأتي بالمحن» والذي كان قد منع طوال فترة حكم والده. وقد يسمح لنفسه بإبداء دليل جديد على الحرية الأدبية. أما «جوكوفسكي» فقد تعهد بإقناع ولي العهد بينما خطط الكونت «فايلجورسكي» والأمير فيازمسكي للقيام بحملات ترغيب في الحلقة المحيطة بالإمبراطور. وما إن نما إليهم أن رد الفعل الأولي لمكتب الرقيب لم يكن لصالح المسرحية حتى بدأ المتآمرون عملية الهجوم. وكما تم الاتفاق استعطفت السيدة سميرنوف نيقولاس الأول، مشيرة إلى «موليير» الذي ما كان لمسرحية «طرطوف» أن تمثل لولا الحماية التنويرية للويس الرابع عشر. وقد أكدت على المحبة التي يحظى بها الملوك الذين يرعون الأدب والفنون بعد وفاتهم.

استمع الإمبراطور وهو يبتسم. كان رجلاً عسكرياً حتى نخاع العظم، يتمسك بالانضباط وبعلوم الرياضيات والتناسق. أمنيته المثلى هي أن يرى كل امرئ في روسيا يرتدي بزة عسكرية، فعلياً ومعنوياً. أما الأدب فيعتبره تسلية غير مؤذية. أفضل الكتب، في رأيه، هي تلك التي لا تدفع إلى التفكير، و«بول دي كوك» كان يظل كاتبه المفضل. قال إن جميع الكتاب، مع بعض الاستثناءات النادرة، ليسوا إلا محرّضين، ومن الأفضل كبح جماحهم على الدوام. ولكن آه، هنالك ما يبعث على البهجة في عيني السيدة سميرنوف السوداوين بحيث يصعب لأحد أن يرفض إسداء خدمة لها. ونيقولاس الأول كان حسّاساً للجمال الأنثوي، ولذا وافق على النظر في أمر «المفتش العام». قرأ المسرحية له الكونت فايلجورسكي، وربما غفل الإمبراطور عن الخطر الكامن في هذا الهجاء المرير للفساد الإداري، أو فكر بأن جلال الحكومة المركزية لن يتعرض للخطر نتيجة

لتلطيخ سمعة عدد قليل من المسؤولين الإقليميين بعض الشيء، أو اعتبر الأمر مجرد تهريج بسيط - وهذا الافتراض الأخير كان هو السبب في الغالب. وكان نيقولاس الاول مغرماً بالمسرحيات الهزلية الخفيفة، وكل ما رآه في المفتش العام هو سلسلة من الوضعيات المنافية للعقل تستهدف إثارة الضحك المجلجل. وما دام الناس يضحكون فلا خوف منهم. ولذا، وفي بادرة لاهية تعبّر عن فعل الخير أعرب الإمبراطور عن رضاه عن هذه المسرحية الكوميدية.

تتالت الأحداث بعد ذلك بسهولة رائعة، إذ فتحت الأبواب المغلقة وبدأت العجلات تدور، واكتفى الرقيب «أولديكوب» بالأمر بحذف مقاطع هامشية صاغراً أمام التوجيهات الصادرة عن القصر، مع عدم الإشارة إلى الكنيسة، وهي مقاطع بدئ بها ولم يتم استكمالها، أو لوسام فلاديمير الذي كان القاضي يتوق للحصول عليه، أو الجلد زوجة ضابط الصف، الذي تم خطأً. ويختتم الرقيب تقريره بالقول: باستثناء هذه التعديلات فالمسرحية بارعة ومكتوبة بأسلوب يثير الإعجاب. وهي لا تحوي ما يستحق الشجب. وكتب الجنرال «دوبيلت» رئيس شرطة المنطقة على الهامش: «مرخص بها». كما تلقى «جوديونوف» مدير المسارح الإمبراطورية أوامر بالبدء بالتدريبات لمسرحية «المفتش العام» في الحال في مسرح أليكساندرا.

ما إن رأى جوجول نفسه يكافأ على هذا النحو حتى أحسّ بأنه يحلق إلى ما فوق السحاب. وكان البعض من أفضل الممثلين في العاصمة من بين من تم اختيارهم لأداء الأدوار. «فسوسكي» سيلعب دور رئيس البلدية و«دور» سيمثل «خليستاكوف» و«أفانيسييف» سيلعب دور «أوسيب» - مما يعد بالنجاح، ولكنه يدعو إلى القلق في الآن ذاته إذ إن هؤلاء الممثلين واثقون جداً من أنفسهم ومن الصعب التعامل معهم. كما أن المخرج «خرابوفتسكي» لم يكن يخفي استياءه لأنه أجبر على إنتاج مسرحية لم يكن له رأي في اختيارها.

قرئت المسرحية للممثلين لأول مرة في بيت «سوسنتسكي» وشعر جوجول وكأن الثلج يغلفه من كل جانب وهو يواجه المجموعة المتحلقة حوله في المكان.

لم يكن هؤلاء أصدقاء أتوا للاستماع إليه بل قضاة يصطنعون تعابير الاهتمام المؤدب. لقد سمعوا جميعاً بالطبع بمؤلف «أمسيات في مزرعة»، غير أن الشخص الذي دخل الغرفة لتوه ليس فيه ما يوحي بالثقة، فما بالك بالاحترام؟ هل هو من بني البشر أم هو «لقلق» متنكر؟

يصفه كاراتيجين أحد الممثلين بالقول:»قصير أشقر، له خصلة شعر ضخمة تشبه عرف الديك في قمة رأسه، يرتدي نظارة بإطار مذهّب فوق أنف يشبه منقار طير، ويغضّن عينيه ويشد على شفتيه بشدة وكأنه يقضمهما من الداخل. معطفه الأخضر ذو الذيل الطويل وأزراره اللؤلؤية الصغيرة، وسرواله البني، وطريقته في الإمساك بقبعته التي يديريها ويديرها باستمرار بين يديه، ومن ثم يمرر أصابعه بعصبية في العرف الذي يعلو رأسه، كل ذلك كان يحوّله إلى شخصية كاريكاتورية».

بدأت القراءة، وكان جوجول يغيّر كالعادة نبرة صوته، بل ومجمل تعابير وجهه مع كل شخصية من الشخصيات. ولكن كلامه كان طبيعياً على الدوام. يقرأ بنبرة هزلية دون أن يحاول التمثيل ببراعة، وقد لاحظ الممثلون ذلك منذ الجمل الأولى في المسرحية. غير أن المسرحية حيّرتهم. فقد تربوا في ظل التقاليد المسرحية لكل من «كنياجنين» و»شاكوفسكي» و»ماريفوكس» و»دوسيس». ولذا توقفوا عند تفاهة بعض المقاطع، فكيف سيكون رد فعل الجمهور إزاء هذه التفاهة؟» ألن يقرنوا بين الممثلين والمؤلف معاً ويرفضوا المسرحية برمتها؟ أخذوا يتبادلون النظرات تحت بصر الكاتب، معبّرين عن ذلك بالضحك أحياناً وبالاستغراب أحياناً أخرى. وفي الختام كان هنالك تصفيق خفيف من جمع منشغل البال، غير مقتنع بما سمع مع القليل من الإطراء الخجول. سوسنتسكي وحده بدا سعيداً بالمسرحية، وبينما كان هو وجوجول يقفان جانباً ويتبادلان الحديث انتحى الممثلون الآخرون جانباً وأخذوا يتهامسون، كما كتب كاراتيجين فيما بعد، «ما معناها؟ هل هي مسرحية كوميدية؟ إنه يقرأ جيداً دون شك ولكن أية لغة! خادمه يتحدث مثلما يتكلم الخادم تماماً، وبوشليوبكينا، زوجة صانع

الأقفال، تمثل تماماً، وبكل معنى الكلمة امرأة قيّمة على سوق التبن! علام افتتان سوسنتسكي؟ ما الروعة التي يجدها كل من بوشكين وجوكوفسكي فيها؟»

بدأت التدريبات وتزايد العداء. لم يكن الممثلون واثقين بالمسرحية ويؤدون أدوارهم دونما رغبة. بل كانوا يشعرون بالإهانة لهذه الخرقة السوقية التي ألقيت عليهم بعد سنين من خدمة وفيّة لتلك الذخيرة من المسرحيات الكلاسيكية. طالب البعض منهم بحذف بعض المقاطع أو بإجراء تغييرات في الحوار من باب اللياقة. آخرون ممن قد يذهبون أي مذهب لإثارة الضحك بالغوا في الجانب الهزلي من أدوارهم باتخاذ وضعيات تقليدية. نفد صبر جوجول لما أبداه الممثلون من عدم الفهم، وأخذ يجاهد لمنعهم من تحويل المسرحية إلى عمل هزلي ماجن. أخذ يوجه لهم إرشادات مكتوبة يحثهم فيها على أداء أدوارهم بصورة طبيعية تتسم بالبساطة قائلاً: «كلما تجنب الممثل إثارة الضحك كان دوره مسلياً أكثر». غير أن الممثلين كانوا يقطبون جبينهم ويهزون أكتافهم رافضين. رسم الممثل «كاراتجين» صورة كاريكاتورية للمؤلف على نسخته من النص تمثله واقفاً في الجزء الجانبي من خشبة المسرح وهو يحمل قبعته بيديه، تعلو وجهه سيماء خاطب مرفوض. وبمرور الأسابيع ازداد الجو احتداماً وأخذ جوجول يصارع العشرات من المشكلات الصغيرة بحيث كاد يتمنى أن تقع كارثة طبيعية تدمر المسرح برمته. أي فجوة تفصل بين المسرحية التي كتبها

وتلك التي يراها تأخذ شكلها على خشبة المسرح أمام عينيه!.

ينفجر السطر الأول من المسرحية وكأنه مفرقعة نارية: «جمعتكم أيها السادة لأعلن لكم خبراً لا يسر على الإطلاق. مفتش عام سوف يزورنا». تشل الدهشة من سمعوا كلمات رئيس البلدية، ومن هنا يتقدم الحدث. يتابع رئيس البلدية قائلاً: «أجل، مفتش عام... مفتش من سانت بطرسبرج آت متستراً باسم مستعار، حاملاً أيضاً أوامر سرية». وفي مواجهة هذا الخطر الذي وصل أول تلميح له في رسالة سرية من «مصدر موثوق» يشعر كل واحد منهم فجأة بأنه وسخ رث الثياب، ويشرع في البحث عن فرشاة لتنظيف ملابسه. وبجمل

قليلة تخلق الشخصيات بلدة كاملة من بلدات الأقاليم تمثل هذه الشخصيات نتاجاً لها وطفيليات فيها.

منطقة نائية غامضة «قد يعدو بك الفرس منها لثلاث سنوات دون أن تصل إلى الحدود». الشخصيات المرموقة فيها لا تملك شهية أو موارد أقرانهم الأقوياء في سانت بطرسبرج. إنهم يسرقون المال بالطبع، يضطهدون سكان البلدة، يفتحون الرسائل، يهملون واجباتهم، يعبثون مستغلين نفوذهم، ولكنهم يفعلون ذلك بابتهاج وباعتدال. ليس هناك عمليات احتيال أو لصوصية باهرة، كل ما هنالك ينحصر بنمط من الفساد الودي -يتحمله البعض ويشجعه آخرون ويوفر واقع الحياة اليومية للجميع. تتشكل طريقة الحياة الهادئة هذه من بلادة الضحايا ضعاف الشخصية والمكر غير الطموح لمستغليهم الذين يوشكون على مواجهة التحدي بالقدوم المفاجئ للمفتش العام، وكأن حجراً يلقى فجأة في المياه الراكدة. لابدّ إذن من اتخاذ خطوات، وبسرعة، لكي لا يلاحظ هذا الزائر مدى الخراب الذي لحق بأحوال البلدة. يقوم رئيس البلدية، ضخم الجثة، المراوغ، واقعي التفكير بإصدار الأوامر وكأنه أميرال يقف على منصة سفينة تشرف على الغرق، وهو يخاطب كلاً من مرؤوسيه واحداً بعد الآخر.

أسماؤهم في حد ذاتها، بمعانيها الروسية، هي بمثابة أقنعة ثبتت على وجوههم: زميليانيكا (وتعني السيد الفراولة)، وليابكين- تيابكين (السيد زقاق)، وخلوبوف (السيد صلعة) الخ . . . فليعمد السيد زميليانيكا مدير مؤسسة الإغاثة لتزويد مرضاه بقلنسوات نظيفة وتعليق «طبلات» باللاتينية في أسفل أسرّتهم. وليتولى القاضي ليابكين -تيابكين طرد الإوز من غرفة الانتظار وإخراج الملابس المنشورة لتجفيفها في قاعة المحكمة. وليعمد خلوبوف، ناظر المدارس، للعمل على أن يتصرف المعلمون تصرفاً لائقاً، إذ إن لبعضهم عادات غريبة. وعلى شبيكين، مدير البريد، ألا يتولى فتح رسالة أو اثنتين بين آونة وأخرى، بل كل ظرف يصل إلى مكتب البريد ليتبين فيما إن كانت هنالك كشوفات الحساب التي يعدها بعض التجار الساخطين مما يستوجب رفع دعاوى قضائية. ومن الواجب

أن يتم تنظيف الشوارع وجمع القمامة ونزع الأسيجة القديمة المخلخلة. . . . فهل سيتوفر لهم الوقت الكافي للقيام بكل ذلك قبل وصول المفتش العام؟.

فات الوقت، إذ يصل اثنان من ملاك الأراضي، وهما «شوبشنسكي» ودوبشنسكي حاملين أخباراً مقيتة، إذ إن شاباً غامضاً اسمه «خليستاكوف» أقام في نزل، وطبقاً لما ورد في جواز سفره فهو موظف حكومي، قادم من سانت بطرسبرج، وهو في طريقه إلى «ساراتوف». إنه في البلدة منذ أسبوعين يراقب جميع الامور، ويتناول عشاءه بالدين ولا يدفع كوبيكاً واحداً. ليس هناك من شك. لابدّ أنه المفتش العام، يسافر تحت اسم مستعار ولديه أوامر سرّية. ودون حدوث المزيد من اللغط يقرر رئيس البلدية مواجهته، ولذا فهو يدعي القيام بحملة تفتيش للمرافق المتوفرة للمسافرين كحجة لذلك. يحاول تليين موقفه ونقله إلى بيته بالذات، وهو يتظاهر طوال الوقت بأنه لم يخمن هويته -الحقيقية- وهنا الخدعة البارعة.

وبينما هو يهيىء لحملته هذه نلتقي بخلستاكوف وخادمه أوسيب في النزل. وخليستاكوف هذا ليس في الواقع إلا موظفاً صغيراً في العاصمة، وكان في طريقه لزيارة عائلته. والسبب الذي حمله على البقاء في هذا المكان الوسخ الذي يضج بالبراغيث خلال الأسبوعين الفائتين هو أنه خسر كل ما لديه من نقود في لعب الورق ولم يعد يملك كوبيكاً واحداً، وبذا فهو لا يستطيع دفع ما عليه من حساب. ويضنّ عليه صاحب النزل حتى بحصته الضئيلة من الطعام ويهدد بمقاضاته. وهاهو رئيس البلدية يأتي فجأة شخصياً.

يظن خليستاكوف هنا أنه قد قُضي عليه. يتسمّر في مكانه معتقداً بأنه على وشك أن يلقى به في السجن لعدم دفعه حسابه، ويواجه رئيس البلدية الذي يعتقد بدوره بأنه على وشك أن يعفى من منصبه على يدي مفتش عام متخفٍ: مواجهة بين رعبين بحيث يتنامى لدى كل منهما مع كل كلمة يتلفظ بهاالطرف الآخر. يتواجهان وجهاً لوجه وكل منهما يحاول تكوين رأي في الآخر. . . يتقدم. . . يوسّع دائرة الهوائي لاستكشاف الآخر، وما يلبث أن يرتد شأن

الحيوانات وحيدة الخلية في رقصة بالية تقاس بمدى ذبذباتها ونوسانها. وبتنامي سوء الفهم تتدهور دفاعات خليستاكوف إلى مجرد تهديدات غامضة: فليحاول أحد أن يطرده من الغرفة: »لن آتي معك ولو أحضرت لي فوجاً برمته. سأتوجه إلى الوزير مباشرة، والسبب الوحيد الذي دفعني للبقاء في هذا الجحر هو «أنني لا أملك كوبيكاً واحداً في جيبي».

لا تلقى هذه الكلمات آذاناً صماء. «الوزير» من جانب و»الكوبيك من الجانب الآخر». من الواضح، كما يفكر رئيس البلدية، أن المفتش العام ينتظر «إيماءة» ما من جانب أولئك الذين أتى ليفتش عن أمورهم. يا للفرج! فالملاك القادم للانتقام اتخذ شكل البشر: إنه جزء من نظام الفساد العام. وعلى هذا، وبيد مرتجفة وعين قلقة يخرج رئيس البلدية أربعمائة روبل. فيأخذها خليستاكوف، وبعد ذلك يدعو رئيس البلدية الضيف للإقامة في بيته.

يستقر خليستاكوف في بيت رئيس البلدية دون أن تكون لديه أدنى فكرة عما أكسبه هذه المعاملة المتميزة. توجه له الزوجة والابنة نظرات إطراء تنم عن الإعجاب. أما الوجهاء المحليون فهم لا يجرؤون على الجلوس في حضوره. يقدم له غداء ممتع. ويشتعل ذهنه بفعل الطعام الجيد والنبيذ القوي مما يسمح لخياله بالتحليق بحرية فيبدأ الكلام وتسكره كلماته أكثر فأكثر... ليس هناك ما يجبره على الكذب، وهو لا يأخذ في حسابه لا المغامرة ولا الفائدة التي يجنيها من أكاذيبه، بل يكتفي بالانغماس بهذه الأكاذيب، تماماً كما يستسلم ويسترسل فنان في خضم إلهامه لمجرد الاستمتاع بالخداع المجاني وضياع الهوية في العالم غير الحقيقي. وكلما كانت تأكيداته بعيدة الاحتمال ازداد حماساً في تقديمها.

كان جوجول يعرف تمام المعرفة الإغراء الذي يمثله الكذب بهدف الكذب في حد ذاته، وكل رسائله إلى أمه وأصدقائه تنضح بالتعبير عن نزوعه المفرط وشديد الحرارة للكذب والمبالغة. وفي شخصية خليستاكوف يحمل جوجول ميله لخداع زميله الإنسان إلى حدود الجنون. اسم خليستاكوف يعني ضمناً، بالنسبة للقارئ الروسي، معنى السرعة، والتقلب، وصوت انشقاق الهواء،

وهسهسة سوط بسيور جلدية رفيعة[1]، ويضرب خليستاكوف بسياط لسانه يميناً ويساراً ويدوّخ كل أصحاب المراتب العليا إذ يدّعي أنه الشخص الأول في وزارات عديدة، يخاف منه الجنرالات، وترتمي الممثلات تحت قدميه، ويتعشى في سانت بطرسبرج حساءً يأتيه مباشرة من باريس على ظهر سفينة تجارية. كتب جبالاً من الكتب بما في ذلك (Menon lescaut) و«روبنسون كروزو»، وهو صديق حميم لبوشكين، «وكثيراً ما كنت أقول له: «حسناً يا بوشكين، أيها العجوز، كيف تسير الأمور، وهو يجيب في بعض الأحيان: «حسناً، أيها العجوز، لا بأس، ليس جيداً ولا سيئاً. علينا أن نتقبل الأمور يا صديقي العزيز!». وينتفخ أكثر فأكثر وهو يرقب وجوه مستمعيه السابحة في عالم آخر. ومع انسلاخه عن عالم الواقع يحلّق عالياً أكثر فأكثر. بل إنه يقول عن نفسه: «أفكاري مرحه بصورة استثنائية». وهاهي فرصة العمر يوفرها خيط وهم رفيع، قشرة خارجية فارغة ثقلها يساوي صفراً.

«أذهب يومياً إلى حفلة راقصة حيث نلعب الورق، وزير الخارجية، السفير الفرنسي، السفير الإنجليزي، السفير الألماني وأنا. أغرب الأمور هو أن ترى قاعة بيتي قبل أن أستيقظ في الصباح: كونتات وأمراء يتدافعون ويشقون طريقهم ويئزون كأنهم الدبابير. هذا كل ما تسمعه... ازيز... أزيز. يأتي وزير أحياناً. الرزم التي ترسل لي تحمل مسمّى «صاحب السعادة». يرتعش الجميع ويرتعدون عندما أدخل الوزارة. أجل، فهم يعرفون أنني لا أمزح. لقد أدخلت الرعب في قلوب الجميع! حتى مجلس الدولة يخشاني. هذا هو شأني بحق الله، فلست أخشى أحداً بل أقول للجميع: «إنني أعرف قدر نفسي». أنا موجود في كل مكان، كل مكان. أذهب إلى القصر يومياً، وغداً سأصبح مارشالاً إن لم يحدث ذلك هذا اليوم». عند ذلك يترنح خلستاكوف وهو يلوّح بإيماءات تعبر عن الاهتياج ويكاد يقع أرضاً. غير أن المسؤولين المحليين يرفعونه بكل حنان

(١) فعل Khlestat بالروسية يعني أن تجلد أو تضرب بالسياط.

ويهب الهيكل الاجتماعي برمته لنجدة هذا المدّعي. قد يعلن بعد لحظة واحدة أنه القيصر نفسه، تماماً مثل «بوبريششين» المسكين في «مذكرات رجل مجنون» الذي يتخيل أنه ملك إسبانيا.

أغرب مافي الأمر أن جمهور خليستاكوف منوّم مغناطيسياً بتأثير أقواله المتطرفة المغالية - وكأنما كل المستحيل هو القانون في سانت بطرسبرج الساحرة تلك التي قدم فيها، وكأن الضباب الذي يلف العاصمة انتشر إلى الأقاليم وشوّش أذهان الجميع. يصرخ ويهدد فينظر إليه المسؤولون على أنه الممثل الحقيقي للسلطة. فغريزة العبودية سحيقة منذ القدم لديهم تحني رؤوسهم أمام أي شخص يعرف كيف يرفع صوته. يهمس «بوبشنسكي» في أذن دوبشنسكي قائلاً: «ماذا تظنه يا بيوتر إيفانوفتش؟ ما هي رتبته في ظنك؟» يجيبه دوبشنسكي: «يا إلهي! قد يكون برتبة جنرال!» فيصرخ بوبشنسكي وهو يشهق: «حسناً! أعتقد أن رتبته أعلى بأميال عن رتبة جنرال».

يشك رئيس البلدية نفسه بأن خليستاكوف يبالغ بعض الشيء ولكنه يقتنع بأنه يحتل منصباً رفيعاً في الإدارة. ويتتابع المسؤولون المحليون في طابور لرشوة الرجل القادم من المدينة الكبيرة ليضمنوا حسن ظنه. وفي النهاية وقد أدرك أنهم يظنونه ذا منصب حكومي رفيع يضع النقود في جيبه دون أن يرفّ له جفن، وبالقدر نفسه من اللامبالاة يضع نقود بعض أصحاب الحوانيت الذين جاؤوه يشتكون رئيس البلدية. يعد بحماية كل واحد منهم بينما يفزع خادمه أوسيب لهذا التحول في الأحداث وينصح خليستاكوف بالانصراف في أسرع وقت ممكن. ولكن خليستاكوف، برباطة جأشه المعتادة، يأخذ الوقت الكافي ليكتب رسالة لصديقه «ترايابشكين»(١) يخبره فيها بمغامرته.

وما تلبث عيناه أن تقعا على ابنة رئيس البلدية فيقرر الانعطاف نحوها لبعض الوقت، ثم ما يلبث أن ينتقل بسرعة إلى أمها معلناً: «ولكنها، هذه الأم، هي

(١) وتعني بالروسية جامع الخرق والنفايات من الشوارع.

طبق شهي في واقع الأمر. ليست سيئة على الإطلاق!». وعندما تعترض المرأة بصوت واهن قائلة: «أرجو أن تسمح لي بالقول إنني – إلى حد ما – امرأة متزوجة. . .» ولكنه يتغلب عليها بالقول: «لا يهم، فالحب لا يعرف التمييز. ولقد قال «كارامزين» إن حكمت علينا القوانين فسنجد لنا ملجأ وسط نبات السرخس في الغابات». ولذا فهو لا يكترث بأي شكل من الأشكال بالأخلاق مهما كانت، وينوي أن يعيش من يوم إلى اليوم الذي يليه – ليلتقط زهرة السعادة حسب تعبيره. فلم تعقيد أمور الحياة؟ وليس هناك من خط يفصل بين الخير والشر أكثر مما يوجد بين الصدق والكذب، وأي إنسان لديه شهوة معينة لابدّ من مسامحته على إشباعه لها. وعندما يمتلك إنسان ما موهبة الخفة، مثل خليستاكوف فهو لا يتحدى القانون بل يطير فوقه. غير أن الابنة، ماريا، تفاجئه وهو راكع عند قدمي أمها: «يا إلهي، أية صورة هذه!» لا بأس يتحول على الفور ويطلب من الأم التي يخرسها الموقف يد ابنتها التي لا تكاد تصدق ماتسمع.

هنا يدخل رئيس البلدية المثقل بالهموم وقد علم لتوّه بأن أصحاب الحوانيت اكتشفوا كل أموره وجاؤوا ليشتكوا للمفتش العام. ولكن الأمور سارت على ما يرام وليس هنالك مفتش عام في بيته بل صهر المستقبل، وأن يصبح حمو هذا الرجل العظيم يماثل أسطورة قديمة تتحقق على أرض الواقع: الاقتران المجيد بين إله يهبط من جبل أوليمبوس وعذراء من بني البشر.

ولكن الخيل كانت قد أسرجت ويطلب خليستاكوف الإذن بالانصراف على الفور إذ إن عليه أن يقضي يوماً واحداً لدى عمه «وهو رجل عجوز ثري جداً. سيعود في الغد وهو يقسم على ذلك راسماً الصليب على قلبه. تنهدات. . . تقبيل اليد. . . تأكيد الحب. ويستدين خليستاكوف أربعمائة روبل آخر من حمو المستقبل ويستقل العربة ماضياً وسط رنين الأجراس الصغيرة في عربة مجنحة تحمله إلى ميادين زيف جديدة في أماكن أخرى. فقاعة صابون

متلألئة توشك على الاختفاء وتتبخر في الهواء. هكذا يتصرف رجال جبل الأولب على أية حال في واقع الأمر.

يدور رأس رئيس البلدية لحسن الطالع الذي ينتظره: فكأنما أصيب بعدوى من السحر اللفظي لحديث خليستاكوف. فهاهو يغوص إلى قمة رأسه في أحلامه الخاصة، إذ أخذ يرى نفسه جنرالاً يزين صدره شريط أحمر (أو ربما أزرق)، يتقدمه باستمرار سرب من الحجّاب الذين يمتطون صهوة جيادهم التي تعدو بسرعة وكأنها الريح. وهو يستدعي في الوقت ذاته أصحاب الحوانيت أولئك الذين تجرؤوا على التنديد به ويقرّعهم تقريعاً شديداً ويقول لهم: «احذروا! ستظلون تحت نظري! لن أزوّج ابنتي لمالك أراض عجوز، ولتكن هداياكم بمستوى الحدث. لا تظنوا أن بإمكانهم أن تكتفوا بتقديم سمكة كبيرة وبعض القطع المخروطية من السكر!» ووسط موكب الأصدقاء والمتملقين الذين جاؤوا ليهنئوا العائلة صاحبة الحظ السعيد يندفع مدير إدارة البريد وقد شحب وجهه. بحيث بدا كالأموات، وهو يحمل في يده رسالة. لقد فتحها كالعادة وهاهو يقرؤها بصوت عالٍ الآن، وهي موجهة من خليستاكوف وفيها يخبر صديقه «ترايابشكين» بالخطأ الذي وقع» وكيف ضحك من كل قلبه على كل أولئك الأغبياء الذين افترضوا بأنه شخص آخر. وتشير الرسالة إلى أشخاص بعينهم موجهة إهانة أو اثنتين لكل أولئك الحاضرين. تهزأ الرسالة بالبلدة برمتها. وهنا يدرك رئيس البلدية الذي يذهله الأمر عملية الخداع الهائلة التي جردته كليّاً وعرّته تماماً أمام من انتخبوه.

يفأفئ متلعثماً: «لقد تم اغتيالي، ذبحي، سلخي. لست أستطيع أن أرى ما أمامي، بدلاً من الوجوه فإن ما أراه حولي هو فناطيس خنازير». يبدأ فجأة بتعنيف نفسه.وكأنه ينظر في مرآة إذ يقول: «أيها الحيوان العجوز، تابع! حيوان ثلاثي! أيها البدين الغبي، أن تصدق مدعياً، عصفوراً، وتعتبره شخصاً ذا شأن! وهاهو يعدو مسرعاً على الطريق، يدق بأجراسه! سيروي قصته للعالم برمته. لن تصبحوا أضحوكة ومثاراً للسخرية فحسب، بل الأسوأ من ذلك أن مؤلفاً

تافهاً، سافكاً للحبر سيأتي ليحشركم في ملهاة يكتبها! لن يكترث لألقابكم أو رتبكم! هذا هو أشدّ ما في الموضوع مرارة!! عمّ تضحكون؟ إنكم إنما تضحكون على أنفسكم!».

يعلن «زمليانيكا» وقد دار رأسه: «لا يمكنني أن أفسّر كيف حدث ذلك. كنا كمن يمشي في الضباب، ولابدّ أن الشيطان خلب لبنّا». سطر له رنين مألوف. فكلٌ من الشخصيات التي ابتدعها جوجول يؤثر فيه، بطريقة أو أخرى، ذلك «الضباب» القادم من الشمال، إنه الشيطان متنكراً، بثياب بشر، «يسحر» العقول بحيث تصبح غير قادرة على التمييز بين ماهو واضح وملموس، وماهو غير واضح وغير ملموس.

يعتقد رئيس البلدية في تلك اللحظة بأنه وصل إلى الحضيض، غير أنه في وسط أولئك العشرات من فناطيس الخنازير التي تحيط به تنطلق فنطيسة خنزير جديد: رجل شرطة، أداة القدر، ويقول له «لقد أرسل مسؤول مهم من سانت بطرسبرج بأمر من حكومة الإمبراطور، وهو يطلب منك المثول أمامه على الفور، وهو يقيم في النزل». كأنما هو يستدعى الآن ليوم الحساب الأخير، ويتجمد كل من على خشبة المسرح حول رئيس البلدية، ولم يعد هناك على الخشبة إلا مذنبون.

تنزل الستارة على هذه اللوحة. ومسرحية أخرى هي على وشك أن تبدأ، وللمشاهد أن يتخيل هذه المسرحية. «أما تلك التي شهدها لتوّه فهي تمرّ بسرعة وكأنها الحلم. وهي تتدفق وبكل يسر دون أن تتعثر منذ مشهدها الاول وحتى الأخير. وهنالك منطق لا يقاوم هو الذي يملي تسلسل الأحداث بأسلوب مقنع للجمهور الذي ينتقل من مفاجأة إلى التي تليها، منطق مفاده بأنه لا يمكن للأمور أن تسير على غير هذا النحو. هذا المزيج من سلسلة الأوهام الغريبة المتعاقبة (والآلية المتكاملة) هما اللذان يعطيان النص سماته الفريدة والأصيلة. وهذه الآلية التي لا سبيل إلى تغييرها تدفع المسرحية إلى أشباح كابوسية. ليست هنالك كلمة زائدة، ولا لحظة ميتة واحدة من الزمن، ولا شخصية لا لزوم لها – بل حتى

الشخصيات الثانوية الصامتة منحوتة بصورة تنطبع في الذاكرة بصورة كوميدية لا تنسى. كل منهم: زمليانيكا، تايكين – ليابكين، مدير البريد، بوشنسكي، دوبشنسكي – كل واحد منهم، مجرد حضوره إنما يستحضر جانباً من عالمه الخاص. وعائلة رئيس البلدية إنما هي كناية عن جميع العائلات. تنفتح طرق في كل الاتجاهات، تأخذ البيوت أشكالها وتموج الشخصيات لتبدو في الخلفية: أمهات، أزواج، أطفال، مديرو مدارس، ملاّك أراضٍ متخاصمون، كتّاب مسعورون. وعندما تضع هذه الشخصيات جنباً إلى جنب مثل قطع الأحجية المصورة فإننا نعيد خلق البلدة، زريبة هي عبارة عن جهنم صغيرة، راكدة، خانقة، ضئيلة القيمة.

كتب جوجول فيما بعد في اعترافات كاتب يقول: «بالمفتش العام قررت أن أجمع جنباً إلى جنب كل ما عرفته من الأمور الشريرة في روسيا في ذلك الوقت – بكل المظالم التي ترتكب في الأماكن والظروف التي يتوقع فيها من كل إنسان أن يظهر أعلى درجات العدالة – وأن نضحك منها ملء أفواهنا، مرة واحدة وإلى الأبد».

لاشك بأنه كان يضحك وهو يكتب مسرحيته. لكل شخصية طريقتها في الكلام. بعض الجمل تكشف ضعف إحدى الشخصيات أو فساده الأخلاقي أكثر مما تفعل مئة صفحة من الشهادات في المحاكم. فهاهو رئيس البلدية مثلاً يصرخ بشأن جلده، خطأ، زوجة ضابط: «لقد كذبت، أجل، اقسم أنها كذبت، هي التي جلدت نفسها[1]. وهنالك زمليانيكا مدير الخدمة الاجتماعية وهو يتحدث عن مرضاه «بما أنني كنت في المستشفى فقد تحسنت صحتهم وكأنهم الذباب». وهنالك القاضي وهو يتحدث عن موظف تفوح منه رائحة الخمر بشدة: «يقول إن المربية أسقطته في الخمر عندما كان صغيراً وظلت رائحة الفودكا تفوح منه منذ ذلك الحين». أو بوبشنسكي وهو يطلب من خليستاكوف أن يقول للإمبراطور عندما يراه في المرة القادمة: «والآن يا سيدي، هنالك في

(١) كان الرقيب أصلاً قد حذف هذه الجملة.

تلك البلدة يعيش شخص اسمه بيوتر ايفانوفيتش بوبشنسكي». ورئيس البلدية من جديد وهو يتخيل كيف سيستدعي المفتش العام المسؤولين: «من هو القاضي ليابكين– تيابكين؟ أدخلوا ليابكين – تيابكين. ومن هو مدير الخدمة الاجتماعية زمليانيكا؟ أدخلوا زمليانيكا!».

كل المسرحية هي على هذا النحو – شديدة، عنيفة، ريانة. طبق حاد يحرق سقف حلقك عندما تتذوقه. غير أنه، بعد أن يتلاشى الضحك يبقى الحزن، وعدم الارتياح والألم المبرح ما وراء الطبيعي. وخليستاكوف الذي يطير نازلاً الطريق في عربته يخدعنا، تماماً كما خدع رئيس البلدية.

□ □ □

١٠ ـ عرض المسرحية

كان يوم تمثيل المسرحية يقترب ، والممثلون يتدربون على أداء أدوارهم في مسرح الكيساندرا بشكل محموم وهم يحملون النص بأيديهم . وكالعادة ، لم تجد إدارة المسرح ضرورة لتحديد مواعيد لإجراء «بروفات» مع استخدام الملابس وقطع الديكور اللازمة . فالممثلون ذوو خبرة ولن يزعجهم أحد بتفاصيل فنية تافهة ، ولاشك بأنهم سيتدبرون أمورهم بطريقة ما أمام الجمهور .

غير أن جوجول لم يكترث لهذا الجدل الحاد وأصرّ على رؤية طريقة إعداد العرض في اليوم السابق للافتتاح ، وحسناً فعل ، إذ إن ديكوراً مترفاً وغنياً جداً كان قد طلب لبيت رئيس البلدية ، وقد استبدله جوجول بديكور داخلي أقل ادعاءً ، وأضاف قفصاً وعدة طيور من نوع الكناري في إحدى الزوايا ، وزجاجة مشروب أبيض على حافة النافذة . أما خادم خليستاكوف ، أوسيب ، فقد أُلبس بزة خدم فاخرة يزينها شريط من الذهب على الرغم من أن عدم وجود النقود لدى سيده كان أحد المنابع الرئيسية لحبكة المسرحية . رفض جوجول هذه البزة واستولى على الملابس الملطخة بالزيت لعامل إشعال مصابيح المسرح وحوّلها إلى «أفناسييف» الذي سيمثل دور «أوسيب» . كما رفض جوجول بعض لمّات الشعر المستعار التي صمم الممثلون على ارتدائها على أساس أنها أكثر إثارة للضحك ، ولكنه خسر الجدل بالنسبة إلى هذه القضية . فقد كان على كل حال مبتدئاً

في هذا المجال والممثلون يعرفون أكثر مما يفعل ماذا يريد الجمهور .

غير أنه تلقى بعض التشجيع من بوشكين في ذلك الوقت، في شهر نيسان/ إبريل (١٨٣٦)، حيث قدمه لقراء العدد الأول من دورية «المعاصر» بالعبارات التالية: «لاشك بأن قراءنا لم ينسوا الانطباع الذي تركته لديهم «أمسيات في مزرعة». والجميع رحبوا، وبحبور، بهذا التصوير الحيوي لأناس يرقصون ويغنون، هذه المشاهد المفعمة بالنشاط للشخصية الروسية الشابة، هذا الحبور الساذج والعابث في آنٍ معاً. لقد أدهشنا كتاب روسي أمكن له أن يضحكنا، نحن الذين لم نضحك منذ «فونفيزين»! ونحن ممتنون كذلك للكاتب الشاب، بحيث نغفر له المواضع الشاذة والملاحظات غير المدققة في أسلوبه والتركيب المختلط المرقّع، واحتمال عدم صحة بعض قصصه تاركين مثل هذه المثالب للنقاد لكي يخوضوا فيها فيما بينهم. ولقد أكد الكاتب أنه جدير بتساهلنا، إذ إن أسلوبه تحسّن بصورة مضطردة منذ ذلك الحين. فلقد نشر «أرابيسكس» التي تحوي أكثر قصصه مهارة في الصقل وهي «نيفسكي بروسبكت». وما لبثت المكتبات أن قدمت لنا «ميرجورود» التي قرأ الجميع قصة «ملاكو الأراضي بالعالم القديم» وهي قصيدة قصصية رعوية. فيها هجاء ومؤثرات تجعل القارئ يضحك وهو يذرف دموع الحزن والأسى. و«تاراس بولبا» التي لا يقل مطلعها جودة عن كل ما كتبه «وولتر سكوت»، وما يزال جوجول يتقدم بقوة وسرعة متزايدتين. وتعلن حاشية لبوشكين أن المسرحية الكوميدية «المفتش العام» ستعرض في وقت قريب في أحد مسارح سانت بطرسبرج.

وقد نشرت صحيفة «الأخبار» التي تصدر في سانت بطرسبرج الإعلان التالي في عدد الأحد ١٩ نيسان/ إبريل (١٩٣٦): «يتم اليوم، التاسع عشر من إبريل، العرض الأول للمفتش العام، وهي مسرحية مبتكرة من خمسة فصول على مسرح أليكساندرا».

توجه جوجول إلى المسرح في ذلك اليوم وأعصابه تتناحر وحجابه الحاجز يضيق. وقد سرت شائعة بأن القيصر قد يحضر العرض. وهذا ما حصل، يرافقه ولي العهد والحاشية برمتها. وقف الجمهور برمته لدى دخولهم المقصورة

الإمبراطورية. انحنى نيقولاس الأول تحية للجمهور، وكان يرتدي بزة عسكرية وقد ازداد كتفاه عرضاً بفعل الكتفيتين المذهبتين التقليديتين، فأجاب الجمهور بالتصفيق والهتاف. وما لبث أن جلس فجلس الجمهور، وسرت دمدمة كأنها صوت عشب ينحني أمام الريح. أما جوجول فقد اختفى خلف إحدى قطع الديكور، وأخذ يدقق النظر بشدة في الحشد اللامع: أي جمع مذهل من الرؤوس الصلعاء ومعاطف السهرة الطويلة، وعصابات الرأس المزينة بالجواهر أو الزهور، والأكتاف العارية، والأشرطة التي يثبتها مساعدو الضباط على الأكتاف، والياقات البيضاء المنشّاة، والملابس العسكرية التي تزينها الأوسمة، والمراوح التي تتحرك بتكاسل، وباقات الزهور! عالم متألق مزين بالترتر يحدث حفيفاً يضمه حوض ذلك المسرح هائل الحجم. وقد كتبت أليكساندرا سميرنوف تقول: «كان الوزراء في الصف الأول وعليهم أن يصفقوا كلما أعطى الإمبراطور الإشارة لذلك وهو يمد يديه الاثنتين فوق حاجز مقصورته». ويتجمع خلف الوزراء ممثلو الطبقة الأرستقراطية العليا، وكبار المسؤولين، أسود المجتمع: يتبين جوجول هنا وهناك وجه صديق: كاتب القصص الخرافية «كريلوف» موجود ويجلس في المسرح في واحد من المقاعد الأمامية، وهو أشيب، ضخم يغالب النعاس.. ومن الحضور في المقصورات التي تحتجز لهذه العائلات في الموسم: آل فايلجورسكي، آل فايازيمسكي، آل أوديوفسكي، آل نينكوف، وآل سميرنوف – غير أن من المؤسف أن بوشكين لم يكن في سانت بطرسبرج، ولذا لم يتمكن من الحضور.

أما معسكر الأعداء فيمثله النقاد بلجارين، وسنكوفسكي وجريش والعديدون غيرهم! وفجأة تبين لجوجول أن مثل هذه المسرحية البدائية لن تروق للغالبية من هؤلاء الناس. الجالسون في المقاعد الرخيصة في الشرفة العليا قد يضحكون فعلاً. أما النخبة فسيستاؤون. أي شيطان دفعه لكتابة هذه المسرحية؟ كان يجدر به أن يحتفظ بها في درجه. هرب إلى مقصورة المدير حيث يمكنه مشاهدة المسرحية دون أن يراه أحد.

ارتفعت الستارة وصدرت عنها خشخشة القماش الثقيل وظهر الممثلون تحت وهج مصابيح الغاز، بمكياجهم، وأزيائهم وشعرهم المستعار بحيث تخفي كلها هوياتهم الأصلية، وهم يتكلمون بصورة أعلى وتصنُّع أشد مما كانوا يفعلون من قبل. نسوا كل نصائح الكاتب. وتحت أضواء مقدمة المسرح قامت منافسة حامية الوطيس لتحديد من يبالغ أكثر في حركاته وصوته، ويحصل بالتالي على أكبر قدر من التصفيق. بوبشنسكي ودوبشنسكي يلويان تقاسيمهما باستمرار، وخليستاكوف يدوّر حرف «ر» فيلوى بدوره قسمات وجهه لإضحاك الجمهور ويرفرف كأنه الفراشة. أما رئيس البلدية فهو طويل نحيل ويبدو كما لو كان كولونيلاً عجوزاً بارعاً. وأوسيب يلعب دور خادم في قاعة للموسيقى. لم يتعرف جوجول على مسرحيته وهو يشاهد الممثلين ويستمع لهم، جمله المفضلة آذت أذنيه وكأنها نغمات موسيقية نشاز. ضاقت أضلاعه وهو يشعر بالخجل والغضب والامتعاض، وازداد وضعه سوءاً وهو ينظر إلى الجمهور. فقد كان الوضع كما توقع تماماً. كل من في المقاعد الرخيصة مستمتعون جداً بينما تسود حالة ذعر لدى أولئك الذين يجلسون في المقاعد الأمامية والمقصورات.

ظلّ أصحاب المقامات الرفيعة مسمّرين في مقاعدهم وهم يرقبون بعيون نصف مفتوحة التهكم الجامح بإدارات الأقاليم وهو «يطرطش» في وجوههم وكأنه الطين. كان بإمكان جوجول أن يلحظ سخطهم على الرغم من أن عضلة واحدة لم تكن تتحرك في وجوههم. وإذا كانوا قد أحجموا عن إظهار استيائهم فقد لا يعود ذلك إلا من أجل الإمبراطور نظراً لأنه هو الذي أجاز المسرحية، ولابدّ أن الإمبراطور كان يتساءل بينه وبين نفسه فيما إن كان قد أخطأ بذلك. قد يقف ويمشي خارجاً من المسرح أمام أنظار الجميع، ولكن لا، فهذا الرجل الوفي ظلّ يضحك ويصفق بيديه الضخمتين اللتين ترتديان قفازات بيضاء، يشاركه السادة والسيدات في أسفل مقصورته التصفيق طائعين – وإن بقوة متضائلة، هذا صحيح، بينما المسرحية تتابع فصولها.

كتب أنينكوف في مذكراته الأدبية يقول: «كشاهد على العرض يمكنني أن أصف قاعة المسرح خلال تلك الساعات الأربع للمسرحية الأروع التي قدمت على خشبة ذلك المسرح. في نهاية الفصل الأول كانت أمارات الذهول تبدو على كل الوجوه (الجمهور كان جمهوراً مختاراً) وكأن أحداً لا يعرف ماذا يجب عليه أن يفكر. ازداد الذهول والحيرة فصلاً بعد فصل. ارتبك معظم الحضور، حيث أن توقعاتهم كانت بخلاف ما اعتادوا رؤيته في المسرح وتوصلوا إلى قناعة بأن هذه إنما هي مسرحية هزلية ساخرة، وهو استنتاج أعاد لهم طمأنينتهم. غير أن تلك المسرحية الهزلية الساخرة حوت سمات تشبه ما يحدث في الحياة وصوراً أثارت في موضعين، فيما اعتقد، عاصفة عامة من الضحك، في الأجزاء التي تتطابق أشد التطابق مع الفكرة التي تحملها غالبية المشاهدين عن الكوميديا. غير أن الموقف يتبدل كلياً في الفصل الرابع، إذ إن موجة من الضحك تتدحرج عبر المسرح، ولكنه ضحك غير واثق سرعان ما يتلاشى. لم يكن هنالك تقريباً أي تصفيق، غير أن الجمهور برمته تابع كل حركة وسكنة في المسرحية بانتباه شديد وإن كان مشوباً بالتوتر في بعض الأحيان، وبالصمت المطبق في أحيان أخرى مما يظهر مدى استغراب الجمهور مما يحدث على خشبة المسرح. وعند نهاية ذلك الفصل تحول الذهول إلى سخط جماعي ما لبث أن ازداد بشدة في الفصل الخامس. توصلت الطبقة العليا من الجمهور وبصوتٍ واحد إلى الاستنتاج بأن المسرحية «منافية للعقل وتشويه للسمعة! مهزلة ساخرة».

تهامس جمهور الصفوف الأولى بأحكام مشابهة، وأعلن كوكولنيك وهو يتلعثم: «مسرحية هزلية ساخرة لا تستحق اسم الفن». أما خرابوفتسكي فقال: «إساءة لا تحتمل لطبقة النبلاء، لدوائر الحكومة وللتجار». ونقل بعض الشهود عن القيصر قوله: «يا لها من مسرحية! الكل تلقى تقريعاً، وأنا تلقيت الأسوأ!» وعندما ارتفعت الستارة لآخر مرة أخذ الأصدقاء الموزعون وسط مقاعد الجمهور يصرخون: «الكاتب!» وشاركت المقاعد الخلفية في النداء. غير أن جوجول كان قد هرب وقد عصفت به ريح الكراهية إلى خارج البناء. لم

يسبق له أن جرّب بكل تلك الحدّة ذلك الإحساس بالألم، الذي يصل إلى حد الألم الجسدي، وبأنه محط اشمئزاز كل هذا العدد الهائل من بني البشر، ولكنه لم يكن يقصد إحراجهم عامداً متعمداً. ألا يمكن للمرء أن يسخر من عدد من المسؤولين ويظل يحترم الإدارة؟ ألا يسدي معروفاً للحكومة إن استنكر الإساءات التي يرتكبها أولئك الذين يتجاهلون نبل عملهم. أخذ يجول في الشوارع ورأسه يدور، ودقّ في النهاية على باب صديقه بروكوبوفيتش الذي حاول التسرية عنه بأن يريه نسخة من «المفتش العام» والتي كانت قد نزلت إلى المكتبات في ذلك اليوم وقال له: «إليك، تمتع برؤية وليدك!».

غير أن جوجول ألقى بالكتاب على الأرض وانحنى على الطاولة وأخذ يترنم بصوت يملؤه الحزن، كما ذكر أنينكوف في مذكراته الأدبية: «يا إلهي! لو أن واحداً أو اثنين منهم شتموني لتحملت ذلك. أما أن يفعل كل من في المسرح، كل واحد منهم!».

أكدت العروض التالية مخاوفه. أسرع الناس إلى المسرح وأخذت التذاكر تباع في السوق السوداء وحلّقت أسعارها أكثر فأكثر. غير أن الجدل حول المسرحية أخذ يزداد حدة وعنفاً. واتهمت الدوائر المحافظة الكاتب بالسعي لتقويض النظام القائم. قالوا أن لا قداسة لشيء لديه، وهو في أعماقه ثوري يدّعي أن هجاءه اقتصر على المسؤولين في الأقاليم. غير أنه يهاجم من خلالهم أهم الناس في الإمبراطورية. أما في الدوائر الليبرالية فقد لاقى المديح لأنه كشف بجرأة الفساد في النظام القيصري. غير أن مديح الجانب الثاني أدخل الرعب في نفس جوجول أكثر مما فعل الذم القاسي للجانب الأول، إذ إنه مهما كانت حاجته ماسة لاستعادة ثقته بنفسه فإنه لا يستطيع أن يلتزم جانب من يمتدحونه. فما أحبوه في المسرحية لم يخطر بباله هو أن يورده فيها. فهو رجل القيصر جسداً وروحاً. ولا يمكن أن تقوم في روسيا في رأيه إلا حكومة ملكية ونظام الطبقات الاجتماعية ونظام الأقنان. وكل ما يتمناه هو أن يكون الموظفون أكثر استقامة. المؤسسات جيدة ولكن الرجال فقط ليسوا كذلك أحياناً. لا يحتاج المجتمع

إلى إصلاح ولكن الناس يحتاجونه، وبإظهار عيوبهم فإن من شأن مسرحية مثل «المفتش العام» أن تساعد هؤلاء على إصلاح سلوكهم. الهدف من كل الموضوع هدف أخلاقي وليس سياسياً، فكيف يمكن لهم ألا يدركوا ذلك؟.

كل يوم كان يأتي بأصداء جديدة للمشاحنات التي تتم الدمدمة بها حوله. وكان الكونت فيودور إيفانوفيتش تولستوي (الذي يطلق عليه لقب الأميركي) وهو مقامر رديء السمعة منغمس في الملذات يعلن في جميع جلساته بأن الكاتب «عدو لروسيا» وأن من الواجب وضع يديه في الأصفاد وإرساله إلى سيبريا». وقد كتب «فيجل» «لزاجوسكين» يقول: «إنني أعرف مؤلف المفتش العام. إنه روسيا الفتية بكل عجرفتها وسخريتها». وأبلغ «لاجيشنيكوف» «بيلنسكي»: «لم أكن لأعطي كوبيكاً واحداً لكتابة «المفتش العام»، فهي مسرحية لا تناسب سوى رعاع الروس[1]» أما الأمير شيرنيشييف وزير الحرب فقد أعرب عن أسفه علناً لأنه تجشم عناء حضور هذه «الملهاة الغبية».

حلل «فيازمسكي» الشجار القائم حول مسرحية صديقه في رسالة إلى تورجنيف حيث يقول: «الكل يحاول أن يكون ملكياً أكثر من الملك ويعبرون عن استيائهم لأنه سُمِح لهذه المسرحية بأن تمثّل على خشبة المسرح خصوصاً وأنها كانت ناجحة بشكل كبير إن لم يكن شاملاً! لا يمكن لك أن تتصور الأحكام السخيفة التي أثارتها، خاصة لدى الطبقة العليا». حيث يقولون «كأنما يمكن أن توجد مثل هذه البلدة في روسيا»! لماذا لا يصور إنساناً واحداً محترماً، إنساناً واحداً مستقيماً! «أليس لدينا مثل هؤلاء الناس»؟.

فاقم الصحفيون هذا النزاع. ففي صحيفة «نحلة الشمال» اتهم بلجارين جوجول «ببناء مسرحية على أسس غير محتملة بل ومستحيلة بدلاً مما هو محتمل أو مشابه. فهو يصور رئيس البلدية، ومدير البريد، ومدير الخدمة الاجتماعية كأشخاص مختالين أغبياء» ويضيف: «أما ملاك الأراضي والموظفون المتقاعدون

(١) كان كل من نيجل وزاجوسكين ولاجيشنيكوف أعضاء في المشهد الأدبي الروسي في ذلك الحين.

فإن ذكاءهم هو دون مستوى البشر. لا يمكن لمسرحية كوميدية حقيقية أن تبنى على أساس الإساءة للإدارة. فهي لا تصور عادات شعب أو سمات حتى قطاع من المجتمع، بل جرائم أشخاص قلائل معزولين مما يستوجب إثارة السخط وليس الضحك». أما سينكوفسكي فقد قال في دورية «مكتبة القراءة» «ليس هناك حبكة أو عقدة في هذه المسرحية الكوميدية. والقصة قديمة قدم التلال وليست قطعة فنية، وكل الشخصيات إما يستحقون الازدراء أو هم أغبياء. إن إساءة استخدام السلطة الإدارية سائد في جميع أنحاء العالم وليس هنالك من سبب يدفعنا لأن نعزوها لروسيا وحدها بنقل هذه النشاطات إلى بلادنا واستخدام مواطنينا كأبطال لها».

وفي دورية مراجعة أدبية تحمل اسم «الشهرة» ردّ الناقد يلنسكي تحت اسم مستعار على تلك الهجمات قائلاً: «يخطئ من يظنون أن المسرحية هي مجرد مسرحية ساخرة. هي ساخرة فعلاً على السطح فقط، أما تحت ذلك فأي مرارة!» الطبقة العليا، في رأيه، غير قادرة على الاكتراث بقصة أولئك المسؤولين المحليين ضيقي الأفق، بل هم أقل قدرة على فهم النفوذ الاستبدادي الذي يمكن لهؤلاء ممارسته ضد السكان. «أخذنا، ونحن جالسون، نراقب جمهوراً من أعضاء مجلس الدولة - كل منهم يمتلك عدة آلاف من النفوس - وهم يجتمعون في المسرح. وكان لابدّ لنا من التفكير: من غير المحتمل على الإطلاق أن تدخل مسرحية «المفتش العام» البهجة إلى قلوبهم، ومن غير المتوقع على الإطلاق أن يشعروا بالرضا عن هذه الشخصيات التي ترعبنا وقد تضاءلت لتصبح في حجم الناس العاديين». ويضيف يلنسكي أن هذه الشخصيات أصبحت بالفعل ترمز لمثل هؤلاء الأشخاص، فالشوارع تمتلئ بأشباه «خليستاكوف» «وزيمليانيكا» وتايابكين - ليابكين. هو وهذا الكاتب، برأيه، بمثابة «رسّام ساحر عظيم للحياة الواقعية».

ولكن الرسام الساحر العظيم كان يرتعش رعباً في عين العاصفة وهو يرى نفسه وقد تحوّل إلى موضوع للفضائح. آلمه الشعور بأنه أساء، دون أن يقصد،

لأناس محترمين، ولمسؤولين هامين، ومسيحيين مؤمنين. وما آلمه أكثر من ذلك أنه يعلم بأنه أبهج مناصري الفكر الحر دون أن يقصد ذلك أيضاً. المديح واللوم كلاهما سيفقدانه أفضال الإمبراطور سواء بسواء، بل قد يتم وقف عروض المسرحية إن استمرت هذه الحملة. شعبية المسرحية والضجة التي أثيرت حولها بعثت لديه شعوراً بائساً بحيث أخذ يتمنى في النهاية لو يتم وقفها فعلاً. فهو ليس برجل الجماهير ولا يملك أعصاب مقاتل، وهاهو يجبر على الخضوع لضغط الآلاف من الناس الغرباء الذين يتحلقون على هامش حياته. لم يكن يراهم أو يسمعهم ولكنه يستشعر تمتمات وجودهم خلف جدران غرفته. كان يتخيل، وهو قابع في بيته، ملايين لا تحصى من الروس المشغولين به بالذات، يمتدحونه، يشتمونه، يدوسونه، يمجدونه، يلتهمونه، يهضمونه ومن ثم يتقيؤونه. لن يكون وحده بعد الآن، ولقد كتب بعد شهر من العرض الأول في رسالة (يعتقد أنها كانت موجهة لبوشكين ولكنه نشرها عام (١٨٤١) تحت عنوان: «رسالة إلى كاتب») حيث يقول:

- «المفتش العام تعرض الآن، وينتابني شعور غريب بعدم الارتياح! كنت أتوقع ذلك من قبل وأعرف مقدماً كيف ستكون عليه الأمور. ولكنني مع ذلك أصبت بالاكتئاب والتشاؤم والمرارة. أصبح عملي مثار اشمئزاز لدي، بل أجده غير طبيعي وكأنه غريب عني. الدور الرئيسي لم ينجح، وقد كنت أحدس ذلك. فقد أخفق «دور» تماماً في فهم حقيقة دور «خليستاكوف» بحيث حوّله إلى شخصية تجمع سمات كل الأفاقين الذين تشهدهم قاعات الموسيقى والمستوردين من المسارح الباريسية لكي يتبختروا لدينا. خليستاكوف ليس وغداً وليس كاذباً محترفاً: بل إنه ينسى أنه يكذب ويكاد يصدق ما يقول. جلست مبتئساً في المسرح منذ بداية العرض من دون أن أهتم كثيراً لتصفيق الجمهور وحماسه، ومن كنت أخشاه قاضٍ واحد هو أنا نفسي. رأيت في داخلي تأنيباً واستياءً من عملي وهو ما أفسد الأمر برمته. كان الجمهور مبتهجاً على وجه العموم، ورئيس البلدية كان الدور الذي استرضى الحضور وجعله يقبل

المسرحية. غير أن بوبشنسكي ودوبشنسكي كانا أسوأ مما خشيت. كانا مجرد شخصيتين كاريكاتوريتين. معظم الملابس كانت مريعة وتبعث على السخرية. كلمة أخيرة عن المشهد الأخير. أفسدوه تماماً، وأسدلت الستارة بلا نهاية حاسمة وكأن المسرحية لم تنته. وهذا الخطأ ليس من جانبي، فهم لم ينصتوا لما كنت أقول حيث كنت أصر على القول بأن المشهد الأخير لن ينجح إلا إذا فهم الناس أنه مجرد لوحة. غير أنه قيل لي أن الممثلين سيشعرون بالضيق وأن عليهم الاستعانة بأستاذ باليه لكي يرتب وضعية الممثلين وأنه سيكون من الإذلال للممثلين إلخ . . . ليست لدي القدرة على المزيد من الجدل أو على فعل أي شيء آخر بالنسبة للمسرحية. إنني مرهق جسداً وروحاً، وأقسم بأن لا أحد يستشعر مدى تعاستي، ولست أريد منهم شيئاً آخر! مسرحيتي تنفرني وأود الهرب، ولا يعلم أحد إلى أين إلا الله وحده».

والآن، وبعد نجاح «المفتش العام» سيطرت على جوجول الدوافع ذاتها التي كانت قد سيطرت عليه من قبل للارتحال، كما كانت قد سيطرت عليه لدى إخفاق عمله السابق «هانز كويشلجارتن». أحسّ بأن عليه أن يبتعد ويقطع أطول أميال ممكنة وبأسرع وقت ممكن ليبتعد عن الجمهور. عليه أن يستعيد خصوصيته، أن يذهب إلى الخارج إن أمكن. غير أنه كان من المقرر للمسرحية أن تعرض في موسكو، في مسرح «مالي»، وبحيث سيلعب الممثل شيشبكين دور رئيس البلدية. وقد كانوا يصرون على حضوره التدريبات. فليفعلوا. وقد كتب لشيشبكين (في ٢٤ آب/ أغسطس ١٨٣٦) يقول: -

«أصبح لدي مقتٌ شديد للمسرح بحيث أن مجرد التفكير في هذا الأمر الكريه الذي ينتظرني في موسكو يكفي لحملي على تجنب المشاركة في هذا العمل بأي شكل من الأشكال. لا يمكنني أن أخوض بالمزيد. افعلوا بالمسرحية ما شئتم، فالأمر لا يهمني. تعرضت لما يكفيني من المسرحية ومن القلق الذي سببته لي. الكل أصبحوا ضدي: كبار السن والسياسيون الشرفاء يعلنون بأنني لا أحترم أية قدسية لأنني تجرأت على الحديث باستخفاف عن موظفي الإدارة.

الشرطة ضدي، أصحاب الحوانيت ضدي، الكتّاب ضدي. إنهم يشتمونني ولكنهم يحضرون مسرحيتي. لم تكن هنالك أية تذاكر متوفرة للعرض الرابع. وبدون الحماية العليا للإمبراطور ما كان لمسرحيتي أن تمثل على خشبة المسرح قط، وإلى جانب كل ذلك هنالك البعض ممن يبذلون الآن قصارى جهودهم لسحبها من العرض. إنني أرى الآن معنى أن تكون كاتباً ساخراً. فأي ظل للحقيقة من شأنه، مهما كان ضئيلاً، أن يجعل من يتصدى لك جماعات كاملة وليس شخصاً واحداً! من الصعب على شخص مثلي يحب الناس حباً أخوياً حقاً تحمّل مثل هذا العداء».

أحزنت هذه الرسالة شيشبكين وحاول حمل جوجول على تغيير موقفه فكتب له يقول: «من الإجرام حقاً أن تهجر مسرحيتك الكوميدية لتواجه مصيرها. وأين؟ في موسكو التي تنتظرك فاتحة ذراعيها لك. إنك تعلم حق العلم بأن من الواجب أن تُقرأ مسرحيتك بصوت عالٍ من قبل مؤلفها أكثر من أي مسرحية أخرى لهيئة الإنتاج والممثلين. أنت تعرف ذلك ومع هذا ترفض القدوم. غيّر رأيك بحق الله!».

لم يبدّل جوجول رأيه، يمكنهم أن يقدموا المسرحية دون أن يكون هو في موسكو. يمكن لشيشبكين نفسه إخراج هذه المسرحية، ولا يمكن أن تكون النتيجة أسوأ مما كانت عليه في سانت بطرسبرج على أية حال. رد عليه جوجول (برسالة في ١٠ أيار/ مايو ١٨٣٦) يقول: «إن أتيت فسأقرأ المسرحية قراءة سيئة ودون أي تعاطف مع شخصياتي».

كانت «المفتش العام» قد أصبحت بالنسبة إليه شيئاً من الماضي. أما المستقبل فهو على الجانب الآخر من الحدود. هنالك مسلك مغرٍ لرحلته: ألمانيا، سويسرا، إيطاليا. كان يخطط للبقاء في الخارج لفترة طويلة، ربما لسنة أو أكثر، للوقت الذي يلزمه، كما قال، «للنسيان» و«الشفاء».

كتب لبوجودين يقول: «سأسافر إلى الخارج، وهناك سأجترّ الاشمئزاز الذي أطعمني إياه بنو وطني يوماً بعد يوم. على اي كاتب من زماننا، كاتب

ساخر يريد تصوير الناس في زمانه أن يعيش بعيداً عن وطنه. لا نبي في وطنه. لست أهتم كثيراً لأن كل طبقات المجتمع تقف ضدي الآن، ولكن ما يؤلمني ويحزنني أن أرى أبناء بلدي يخطئون بحمل السلاح ضدي بينما أحبهم أنا من كل قلبي، ولأنني أراهم يسيئون فهم كل الأمور. فإن وضعت وغدين أو ثلاثة على خشبة المسرح انبرى ألف من الأشخاص المحترمين يولولون ويحتجون قائلين: «لسنا أوغاداً!» فليحمهم الله، أما أنا فإنني ذاهب إلى الخارج ليس لأنني لست أحتمل الإزعاج بل بسبب صحتي، ولبعض التغيير، وبعد أن أختار مكاناً مستقراً نوعاً ما أعيش فيه سأفكر في أمر عملي في المستقبل. آن الأوان لي لكي أبدع ولكي أكون على دراية بما أفعل حينذاك».

أغاظ ذلك بوجودين فأجابه: «يبدو بأنك انزعجت جراء كل تلك الضجة (بالنسبة إلى المفتش العام)، ولكن عليك أن تخجل أيها العجوز، فأنت نفسك أصبحت شخصية مضحكة. تصور كاتباً يشرع في عض الناس – لا يكتفي بقضمة صغيرة على الحاجب، بل يقضم العين من داخلها – وهذا ما يفعله، فيجفل الناس ويديرون له ظهرهم ويزعجونه ببعض الشتائم ويحتجون قائلين، وهذا أمر طبيعي تماماً. «ليس هناك مثل هؤلاء الناس بيننا؟». عليك أن تكون سعيداً لأنك أصبت الهدف بشكل متميز. ولكنك تتألم، ألا يجعلك هذا مضحكاً أنت نفسك؟».

أظهر جوجول أن كرامته قد خدشت. وفي رسالة جوابية لبوجودين في (١٥ أيار/ مايو ١٨٣٦) يقول:-

«لم تزعجني كل تلك الضجة كما تقول. لم أنزعج لغضب أولئك الذين يتعرفون على سماتهم في الشخصيات التي أبتدعها ويديرون ظهورهم لي، ولم تزعجني كذلك شتائم الكتاب المعادين لي وأصحاب المواهب المتدنية، بل يحزنني الجهل المطبق الذي يخيّم على عاصمتنا، يزعجني الوضع البائس الذي يجد رجل الأدب نفسه فيه في بلادنا. الجميع ضده وهو لا يستطيع استجماع قوة دفاع تعادل ما لدى مهاجميه من قوة. «مثير للفتنة وللقلاقل! ثوري!» ومن

يقول ذلك؟ من يقولون ذلك هم ممن في خدمة الإمبراطورية، أناس في مراكز عليا، أشخاص من ذوي التجربة الطويلة، أناس لابدّ أن يكونوا من الذكاء بحيث يمكنهم أن يدركوا كيف تسير الأمور بالفعل في الوقت الحاضر، أناس من سلك المثقفين، أو على الأقل يعتبرون من المثقفين في المجتمع الروسي. لو أن من يحتجون هم من المغفلين لفهمت ذلك، غير أن أولئك ليسوا من كنت أعتبرهم مغفلين على الإطلاق. العاصمة منزعجة لأنني وصفت سلوك ستة من المسؤولين الريفيين، فماذا يمكن للعاصمة أن تفعل لو أنني وصفت سلوكها هي، مهما كانت كلماتي لطيفة معتدلة؟ وداعاً! إنني راحل للتخلص من أحزاني. كل ما حدث كان مفيداً لي. كل المناكفات والبذاءات إنما أرسلها الله لي لكي ينوّرني، وأنا أشعر الآن بأن إرادة فوق دنيوية إنما تدلني على الطريق التي يتوجّب عليّ سلوكها».

كانت صحيفة «المعاصر» قد نشرت في الشهر السابق مشهداً من مسرحية جوجول «صليب فلاديمير»، وكان هذا المشهد تحت عنوان «صباح رجل مسؤول» بتوقيع جوجول نفسه، إلى جانب «مراجعة للمراجعات» وهي عبارة عن مقال يشجب الطغيان الأدبي لثلاثي النقاد بلجارين –جريش– سينكوفسكي، وقصة قصيرة بعنوان «العربة» (وهي عبارة عن صورة وصفية أدبية خفيفة راقصة للحياة الريفية). نادرة واقعية أعطت جوجول الفكرة[1] التي نسج حولها هذه القصة حيث يعرض ملاّك أراضٍ اسمه «شيرتوكوتسكي» عربته للبيع لجنرال ويدعوه هو وبعض ضباطه للعشاء في اليوم التالي. ولكنه ما يلبث أن يسكر ويصل إلى البيت في وقت متأخر جداً من الليل وينسى أن يبلغ زوجته بالدعوة. وعندما يصل الجنرال وحاشيته لم يكن أي شيء قد حضّر... يفزع شيرتوكوتسكي عندما يتم إيقاظه من نومه العميق فيفقد صوابه ويرسل خادمه لإبلاغهم بأنه غير موجود في البيت ويسرع للاختباء في العربة. يقرر الجنرال الساخط رؤية العربة التي قام

(١) الكونت ميخائيل فايلجورسكي المشهور بحبه للفنون وشرود الذهن، دعا السلك الدبلوماسي برمته إلى بيته ولكنه نسي الدعوة وقضى المساء في ناديه.

من أجلها بهذه الرحلة خصيصاً فيكتشف أن شيرتو كوتسكي يختبىء في داخلها وهو يرتدي «الروب دوشامبر».

بما أن السلطات كانت شديدة الحساسية فقد كان من الممكن لهذه النكتة حول ملاك أراض لا يظهر احتراماً كافياً لجنرال أن تعتبر إساءة للجيش. غير أن الرقيب طلب فقط حذف بعض المقاطع. كما أن القراء أنفسهم لم يلحظوا كثيراً هذه القصص الواقعية المصغرة واضحة المعالم. فالشجار حول «المفتش العام» علا على كل شيء آخر.

بعد تدريبات سريعة وفوضوية بدأ عرض «المفتش العام» في مسرح «مالي» في موسكو في (٢٥ أيار/ مايو ١٨٣٦). وقد لاقى مديحاً كبيراً، أداء كل من ششبكين (في دور رئيس البلدية) ولينسكي (في دور خليستاكوف)، غير أن النزاع حول المسرحية ثار في موسكو أيضاً وللأسباب ذاتها. وكتب ستاسوف يقول: «الشباب أعجبوا أيما إعجاب بالمفتش العام وكنا نلقي مشاهد ومقاطع كاملة منها بعد أن نحفظها عن ظهر قلب ونصحح لبعضنا البعض، ويكمل أحدنا ما ابتدأه الآخر. وكنا ندخل في جدل عنيف في البيت وفي المجتمع عامة مع أشخاص متقدمين في السن (وأحياناً مع غير المتقدمين في السن) ممن كانوا يمتعضون من هذا الذي يعتبره الشباب مثلاً أعلى لهم ويزعمون أنه ليس هناك شيء صادق في كتابات جوجول. كل ما يكتبه، في رأيهم، هو مجرد قصص متخيلة ملفقة أو صور كاريكاتورية وليس هناك من يماثلون شخصياته، وحتى إن وجدوا فإن عدد الموجودين في المدينة برمتها هم أقل من الموجودين في مسرحية كوميدية واحدة. هذه المناوشات كانت ساخنة ومطولة. غير أن كبار السن لم يستطيعوا أن يزحزحونا عن موقفنا على الإطلاق، بل زاد من افتتاننا المتعصب بجوجول».

لم يتوجه جوجول إلى موسكو لحضور المسرحية على الرغم من توسلات شيشبكين، إذ لم يكن مهتماً باستجابة هذا الجمهور الجديد، بل كان يرتعد من ردود فعله سواء أكانت معادية أم مرحبة. كان مستغرقاً تماماً في مسألة التحضير

لمغادرته العظيمة «التي تأتي بمشيئة الله». فعليه أولاً أن يتدبر جمع المال اللازم لها. وكان قد باع «المفتش العام» كلياً لإدارة المسرح الإمبراطوري لقاء (٢٥٠٠) روبل. كما باع مقدماً طبعات المسرحية ككتاب مانحاً المكتبات تخفيضاً كبيراً لكي يحصل على المال بسرعة أكبر. كما يحتمل أن يكون قد استدان من هنا وهناك من أصدقائه أيضاً. وكإجراء أخير طلب من جوكوفسكي أن يطلب له إعانة مالية من الإمبراطور.

بقي لديه (٢٠٠٠) روبل بعد أن سدد ديونه – وهو مبلغ يكفيه لعدة أشهر. وسيرسل له الناشر «سميردين» المزيد من المال في تشرين الأول/ أكتوبر. اشترى هدايا لأمه وأخواته: قماشاً لرداء، قبعات حديثة الطراز، شرائط، شالات، كتب و» كليشيه» لعمله «بلنسكي بروسبكت»، ومجموعة من الحلي، وكل ذلك بهدف التخفيف من الأسى المتوقع لمغادرته. وقد كتب لأمه يقول: «سأبقى في الخارج لفترة تزيد على العام دون شك». وبعد ذلك عالج موضوع خادمه «ياكيم» إذ إن اصطحابه له سيزيد من مصاريفه زيادة كبيرة، ولذا قرر منحه حريته. غير أن ياكيم لم يكن يريد هذه الحرية التي تمنح له فجأة. فالرجل الذي ليس له سيد ليس لديه حماية من مصاعب الحياة. لن يفكر أحد بإطعامه أو العناية به. كان يفضل أن يبقى قناً. قرر جوجول إرسال ياكيم وماتريونا إلى فاسيليفسكا وستتدبر لهما أمه ما يعملانه هناك. أما أنا واليزافيتا فستبقيان في المعهد الوطني خلال العطلة الصيفية. ذهب لرؤيتهما قبل أيام قليلة من سفره وحثهما على الابتهاج والمحافظة على هدوئهما ورباطة جأشهما. سيمر أصدقاؤه عليهما بين آونة وأخرى، أما هو فسيكتب لهما باستمرار.

تخلّص من بعض أثاثه، وأخذ ياكيم يتمشى ذهاباً وإياباً في الغرف نصف الفارغة وقد تلطخ ورق الجدران فيها. وفي اللحظة الأخيرة عثر جوجول على رفيق سفر هو الكسندر دانييلفسكي، أحد زملاء الدراسة في مدرسة نيجين، وهو الذي حطّ قدميه معه لأول مرة منذ ثماني سنوات في العاصمة. كان هذا قد درس لمدة سنة في مدرسة صغار ضباط الحرس ثم تجول في القوقاز لعدة أشهر.

وبعد ذلك وجد هذا الشاب النحيل، الأنيق اللامبالي لنفسه وظيفة في وزارة الداخلية. ولكن هذا العمل أدخل الملل في نفسه، وكان هو أيضاً يتوق للبحث عن آفاق جديدة.

لم تكن السفينة التجارية التي حجز عليها الصديقان أماكن لهما عليها ستغادر سانت بطرسبرج حتى السادس من حزيران/ يونيو (١٨٣٦). كان الطقس قد أصبح حاراً في المدينة والعائلات الثرية فرّت بالفعل من هذا الحر اللاهب لتستقر في فللها في الضواحي. أما جوجول فقد أزعجه النور غير الطبيعي لليالي الشمال الشاحبة: ففي هذا النور الشبحي تتخذ الأشياء العادية شكلاً شبحياً يخطف الأنظار. وفي إحدى الأمسيات، وبينما كان يقوم بتصنيف أوراقه استعداداً للسفر فوجئ بزيارة غير متوقعة من بوشكين. كان الشاعر قد ترك عائلته في «كاميني أوستروف» حيث كان قد استأجر فيلا وأتى مشياً على الأقدام عبر المدينة نصف الفارغة. في (٢٣ أيار/ مايو) كانت زوجته قد أنجبت طفلة، فأظهر بوشكين سروراً متكلفاً، غير أن وجهه لم يعد يعرف الابتسام، ووخطت شاربيه ولحيته الكثة شعيرات فضية قليلة. كان يعض بمرارة على شفتيه الغليظتين وكانت تعابيره غائمة يظللها شعور بالإنهاك والأسى وسرعة الغضب. فالأقاويل في قاعات الاستقبال لم تكن تتركه بسلام، إذ كان يقال إن زوجته الجميلة «ناتاليا» لم تكن عديمة الاكتراث باستلطافات شاب وسيم، هو جندي في حرس الخيالة وهو مهاجر فرنسي اسمه «جورجس دو أنثي»، وهو أيضاً ابن السفير الهولندي بالتبني. كان جوجول قد سمع بهذه الشائعة مرات عدة دون أن يصدقها. وشأنه من قبل، لم يشأ الخوض في الأمور المتعلقة بحياة بوشكين الشخصية في حديثه معه، فقد كانا يعيشان في عالمين مختلفين. ولاشك أن جوجول حدّث ضيفه عن الأسباب التي تدفعه للسفر، ولابدّ أن بوشكين شجعه على ذلك نظراً لأنه كان مشمئزاً غاية الاشمئزاز من سانت بطرسبرج. وكهدية وداعية طلب من جوجول أن يقرأ له مطلع عمله «نفوس ميتة». وبعد سنوات وصف ياكيم كيف أن القراءة استمرت حتى منتصف تلك الليلة. ويقول جوجول

في «اعترافات كاتب» إن «بوشكين كان على استعداد للضحك ولكن قسماته ما تلبث أن تتغير ويقسو وجهه تدريجياً إلى أن يصبح كئيباً تماماً. وعندما انتهيت تكلم بأسى قائلاً: «يا إلهي كم هي حزينة بلدنا روسيا». صعقت لقوله هذا. بوشكين، الذي يعرف روسيا حق المعرفة لم يرَ بأن العمل كله هو عبارة عن مجرد كاريكاتور وشيء مختلق! أدركت عند ذلك كيف يمكن لعمل أن يكون صادقاً إن امتلأ بالروح الصادقة وبأي الأشكال المرعبة يمكن للظلال والظلام أن يتم تصويرهما لنا».

في وقت فجر واهن، وتحت ضوء شمعة أصفر وحقائب مفتوحة كان رجلان يائسان وجهاً لوجه: أحدهما تمضّه بواعث قلقة في حياته الزوجية وديونه، والألسنة الضارية في دائرة حياته، بينما تحزن الثاني الضجة الغبية التي أثارتها مسرحية كتبها. كان بوشكين قد تعب من الحياة ومن الكتابة وهو في السابعة والثلاثين من عمره، ولكنه ما زال قادراً على إثارة الإلهام لدى زميل يصغره بعشر سنوات لكتابة عمل فني عظيم. ماذا قيل في تلك الليلة؟ هل تلفظ بوشكين فعلاً بتلك الكلمات التنبؤية الحاسمة حول حزن روسيا؟ أم هي واحدة من اختراعات جوجول التي استهدف منها تعزيز نظرته هو حول المعنى العميق «لنفوس ميتة»؟

قال ياكيم إنهما افترقا عند طلوع الفجر حيث اختفى بوشكين النحيل في ظلال الدرج وهو يمسك بعصاه ويضع قبعة على رأسه. لم يحاول جوجول رؤيته مرة ثانية قبل مغادرته، كما لم يحاول البحث عن جوكوفسكي «المنقذ» الذي كان مديناً له بشكل هائل. معظم أصدقائه الآخرين لم يكونوا يعلمون أيضاً بأنه سيغادر.

في (السادس من حزيران/ يونيو ١٨٣٦) اصطحب الأمير «فيازمسكي» المسافرَيْن إلى الميناء وسلّم جوجول عدة رسائلِ تحمل توصيات لأصدقائه في

الخارج. عانقه عناقاً حاراً وتمنى له إبحاراً حسناً. كان دانيلفسكي يقف إلى جانبه وهو مهتاج. ويجد متعة وإثارة في كل ما يراه حوله: الرصيف المكتظ، حمّالي المراكب الذين ينوؤون تحت ثقل أحمالهم، السيدات اللائي يلفهن القلق، الدخان الأسود الثقيل، مجموعة الأشخاص الذين يغمرهم الفضول وهم يتطلعون إلى عجلات التجديف.. عمال السفينة بقمصانهم الزرقاء وقبعاتهم المستديرة المزينة بالشرائط وهم يتنقلون على ظهر السفينة. وسط كل ذلك صعد جوجول إلى ظهر السفينة.

□ □ □

الجزء الثاني

١ ـ أثناء الرحلة

السماء ملبّدة بالغيوم، وأمواج البحر تتلاطم. شعر جوجول وهو يقف على ظهر السفينة أنه يعيش مغامرته السابقة نفسها من جديد، خطوة بخطوة. كان في العشرين من عمره حينذاك وقد أحرق لتوّه كل نسخة من نسخ «هانز كويشلجارتن» وهو يبحر باتجاه الساحل الألماني لينسى إخفاق قصيدته تلك وهو بعيد عن أرض أجداده. وجود دانييلفسكي إلى جانبه فقط هو ما يحول بينه وبين أن يصدق هذا الوهم تمام التصديق. كما أن ما يلزمه، على أية حال، أكثر من مسحة من النفاق لكي يحسّ بالأسف على تلك الأيام التي كان فيها مغموراً وفقيراً.

ولكن السنوات الفاصلة بين هاتين الرحلتين لم تمنحه للأسف سيقاناً تمكنه من خوض البحر. فما إن دار دورة واحدة حول السفينة وحيّا قبطانها وتم تقديمه لعدد قليل من الركاب في قاعة الطعام حتى بدأت السفينة تتأرجح وتفغر فاها. أخذت دواليب التجديف تغوص في الأمواج بعناد آلي. غير أن الدولاب الأسفل هو وحده الذي يعمل عندما تدور السفينة إلى الجانب الآخر مما يجعل المركب يترنح بكليته. اشتدت الريح فزادت من كمية الدخان السخامي الوسخ الذي يندفع إلى ظهر السفينة، وصرّ جسم المركب وأخذت المحركات تئز وترتجف واختفى الأفق عن الأنظار.

شهدت الأيام التالية طقساً أشد قسوة وتملك الرعب الركاب وأخذت السيدة «دي بارانت» زوجة السفير الفرنسي تصرخ صرخات حادة لمرأى جبال

المياه الخضراء التي تعلو وتهبط على شكل جدران عمودية تمتد على مد النظر. وفجأة مات أحد الركاب البارزين وهو الكونت موسين - بوشكين، وتعرض للعطب شيء ما في السفينة مما أدى إلى تضاؤل سرعتها ولذا اشتدت ضربات الأمواج عليها قوةً. التجأ جوجول إلى قمرته وتمدد على سريره فيها حيث كان يعاني من الغثيان وملأت منخريه روائح الطلاء وماء البحر والقار والطبخ السيىء. أخذ يحدّق في الأفق الذي يعلو وينخفض باستمرار عبر كوّة القمرة التي تقطر ماءً. وبدلاً من الأيام الأربعة المقدرة للرحلة استغرق عبور خليج فنلندة وبحر البلطيق عشرة أيام، وظن جوجول لمئات المرات على الأقل أن ساعته أزفت وأخذ يشتم الرحلة برمتها. ولكنه ما لبث أن استعاد عافيته وراق مزاجه في اللحظة التي نزل فيها هو ودانييلفسكي على شاطئ «ترافيموندي».

توجها على متن عربة إلى «هامبورج» عبر «لوبيك»، وهناك رسم جوجول موازنة نشاطاته السابقة وقرر أن الله رأف به حين ساقه إلى الخارج. فهمومه فقدت وخزتها وكأنما بلسمة سحرية في هذه المدينة الألمانية. لم يعد الصراع حول «المفتش العام» يهزه على الإطلاق ولم يعد يبالي فيما إن كانت المسرحية ستنجح أم ستفشل وكأنما من كتبها هو شخص آخر، بل بدا له أن إنتاجه الماضي كله لا يستحق إلا النسيان، والآن فقط سيبدأ مسيرته. توجه إلى فندق وجلس ليكتب لجوكوفسكي حيث يقول (في رسالة له في ٢٨ حزيران/ يونيو ١٨٣٦):

«اقسم بأنني سأنجز ما ليس بإمكان الناس العاديين إنجازه. أشعر بأن لديّ من القوة الداخلية ما يوازي قوة أسد. وإذا خضع كل ما كتبت حتى الآن للتمحيص النقدي المدقق فما الذي يبقى منه؟ وعندما أتصفح كراسات طالب المدرسة فما أجده هو قلة في التركيز ولامبالاة في صفحة ما، وتسرّع ونفاد صبر في صفحة أخرى. حان الوقت كي ألتزم جانب الجد في عملي، أجل حان الوقت لذلك. ولكم ساعدني كل ذلك البغض وكل تلك المناكدة! ما يمكنني قوله هو أنني لم أعمد لتقديم أية تضحية ركضاً وراء «الموضة» الرائجة، وليس هناك من مسرّة أو عاطفة يمكن لهما أن يسيطرا على روحي ولو للحظة واحدة

أو أن تصرفني عن أداء واجبي. ليس هناك من حياة لي خارج نطاق حياتي هذه، وابتعادي عن موطني حالياً إنما فرض عليّ من الأعلى، من تلك العناية الإلهية نفسها التي وضعت أمامي كل العراقيل الممكنة سعياً لتهذيب نفسي. سأبتعد لفترة طويلة، طويلة جداً، لأطول فترة ممكنة على أرض أجنبية. ولكن أفكاري واسمي وعملي ستظل جميعاً لروسيا وإن كان جسمي الفاني سيظل بعيداً عنها».

ثقة جوجول بأن مهمة مقدسة تنتظره حررت ذهنه فيما يخص وجهته النهائية، إذ ما دام قدره محتوماً ومقدراً مسبقاً فإن فترة استراحة وجيزة لن تبدل من الأمر شيئاً. أخذ يتفرج على ما في المدينة من مشاهد ودانييلفسكي يرافقه، وأعجب بالشوارع الضيقة التي تحدها البيوت القديمة، وزار الكنائس المبنية على الطراز القوطي، وقضى أمسية في المسرح المفتوح حيث كانت النساء الألمانيات الرصينات يحكن الجوارب وهنّ يتفرجن على المسرحية. بل تاه في وسط كرنفال في أحد الشوارع في الضواحي. وقد كتب لشقيقتيه «أنّا وإليزافيتا» (في ١٧ تموز/يوليو ١٨٣٦): «كانوا يرقصون الفالس ولكنه فالس من نوع لم تروا مثيلاً له من قبل. فراقص يحرّك رفيقته في اتجاه ما بينما يحرك آخر رفيقته في اتجاه آخر وثالث لا يدور على الإطلاق بل يقف ممسكاً بها بيديه الاثنتين وهو يحدق بتركيز في عينيها ويقفز إلى الأعلى ثم يهبط من جديد وكأنه عنز دون أن يلقي بالاً لنغم الموسيقى».

بما أن الطقس كان حاراً جداً فقد قرر، ولفزع دانييلفسكي، أن يوصي لنفسه على بزّة من نسيج قطني متين أصبح يبدو فيها وكأنه فزاعة ملفوفة ببيت مرتبة. ولكنه أخذ يتساءل: «ماذا يضحكك؟ إنها رخيصة ويمكن غسلها ويسهل ارتداؤها».

توجها من «هامبروج» إلى «بريمن» حيث تفرجا على الكاتدرائية وهبطا إلى أحد الأقبية حيث فاجآ صفاً طويلاً من الجثث التي تغفو إغفاءتها الأخيرة وهي تحتفظ بحالتها الأصلية بصورة تلفت النظر، وإلى قبو آخر حيث وجّها نظرة

تعظيم وإجلال إلى براميل «نبيذ الراين» المعتّق منذ قرن كامل. وقد كتب لأمه (في ١٩ تموز/ يوليو ١٨٣٦) يقول: «هذا النبيذ ليس للبيع بل يحفظ لأولئك الذين يعانون من مرض شديد، أو للزوار المرموقين. وبما أنني لست أنتمي لأي من هاتين الفئتين فقد تذرعت بالصبر لكي لا أزعج سكان بريمن الذين يحلّون مثل هذه المشكلات بإجراء استفتاء شعبي عام بتقديم طلب لاستهلاك بعض هذا النبيذ». ولكنه طلب في الفندق زجاجة من نبيذ الراين المعتّق جداً في بادرة تكريم لنفسه، حيث أنه لم يسبق له أن تذوق سوى أخشن أنواع النبيذ. ولكن العملية لم تكن ناجحة إذ كان النبيذ مسكراً جداً بالنسبة إليه. وعندما حان وقت دفع ثمن هذا النبيذ تبادل هو ودانييلفسكي نظرة فزع، إذ طلب صاحب الفندق «جنيه نابوليون الذهبي» ثمناً لتلك الزجاجة. وعلى هذا فلن يتمكنا من السفر بعيداً ولفترة طويلة. أقسما على كبح جماح مطالبهما فيما بعد، وتابعا سفرهما إلى «آخن».

جرّا قدميهما في الشوارع المغبّرة هناك وأبديا إعجابهما بكنيستها وبدار البلدية، وتفرجا على الحمامات وأبديا دهشتهما لذلك العدد من كبار السن الذين يؤمّون المنتجع، وقررا الافتراق: كان دانييلفسكي ينوي الذهاب إلى باريس بينما كان جوجول حريصاً على اكتشاف منطقة الراين حيث نقلته عربة ثقيلة الحمولة إلى «كولون».

وجد نفسه وحيداً. ليس هناك أحد من بني وطنه يمكنه أن يشاركه انطباعاته. كان من الأجدر به أن يقتفي أثر دانييلفسكي. لم يجد أمامه إلا درباً مستقيماً يمتد عبر حقول القمح، ثم نُزْلاً بعد آخر تعلّق في كل منها حبال السجق ذاتها وتقدم البيرة في كؤوس الفخار نفسها، وقرى مرتبة مملة ومدخنين لا يكفون عن التدخين وأصوات اللغة الألمانية الخشنة: أي رتابة مملة! ركب سفينة في كولون دون أن يخشى هذه المرة هبوب عاصفة أو انهيار السفينة. بدأت الرحلة بطيئة وسط مناظر مائية وتاريخية.

كتب لأمه (في ٢٦ تموز/ يوليو ١٨٣٦) يقول: «مضت السفينة في رحلتها على مدى يومين، وضقت ذرعاً في النهاية ولأقصى حد بذلك المشهد، إذ تتعب العينان كما لو أنك تشهدين بانوراما. بلدات، صخوراً، جبالاً، خرائب قلاع إقطاعية، كلها تمر أمامك عبر كوة السفينة. نزلت إلى الشاطئ في «مينز» وهي بلدة كبيرة وقديمة. ولكنني لم أتلكأ على الرغم من أن المدينة تستحق الزيارة، وعثرت على مقعد في عربة متجهة إلى فرانكفورت».

من فرانكفورت مضى في طريقه ببطء إلى «بادن بادن». وفي رسالة لأمه (في ١٤ آب/أغسطس ١٨٣٦) يقول: «ليس هنالك أشخاص مرضى هنا في الواقع بل إن الناس يأتون لمجرد الاستمتاع. موقع البلدة مثير للإعجاب فهي تقع على طرف عرف جبل تحيط به الجبال من كل جانب. الحوانيت، وقاعه الاحتفالات والمسرح وكل الأماكن الأخرى هي في الحديقة. ليس هناك من يبقى في غرفته قط، بل إن الجميع يقضون نهارهم كله جالسين إلى طاولات تحت الشجر، والجبال كلها، حتى القريبة منها ذات لون بنفسجي».

جمال المكان نفسه والمتع التي يوفرها لم يكن من شأنهما في حد ذاتهما أن يُبقيا جوجول في هذه البلدة الصغيرة التي سماها فيلا أوروبا، بل إن ما أبقاه هو العائلات القادمة من بطرسبرج والتي كان على علاقة بها من قبل وسحرته بلطفها وودها. كان هناك آل رينين، وآل بالابين وابنتهما ماريا بتروفنا التي كانت تلميذته. كانت هذه قد كبرت الآن وأصبحت صبية رشيقة بريئة، طبيعية ومرحة. أما أمها «فارفارا أوسيبوفنا» (وهي فرنسية الأصل) فقد كانت تميل دائماً لذلك المدرس ضئيل الحجم، غريب الأطوار الذي أوصى به بليتنييف.

توثقت علاقته بالسيدات وبناتهن في بادن بادن وأصبحن يلتقين به كل يوم في الحديقة العامة والمطعم، أو وهو يمشي في الخلاء. وقد قالت عنه الأميرة «رينين»: «إنه مسلٍ جداً، عطوف إلى أقصى حد، وهو يضحكنا باستمرار». كما أثارت شهرته حديثة العهد فضول السياح الأرستقراطيين في البلدة الصغيرة، وأخذ يشعر براحة كبيرة بصحبتهم. كما توافقت آراؤه المحافظة توافقاً تاماً مع

أولئك المتواجدين هناك. كان يسعد سعادة صادقة بصحبة النساء عندما تكون لمجرد الصداقة لا غير، وإن كان يرتعد بشدة لأي تلامس جسدي مهما كان ضئيلاً يحس به من جانب أية امرأة. كان يعتقد بأن الصداقة تنزع عن الجمال الأنثوي أثره الشرير وتساهم في خلق المتعة في الحديث. وما إن يتبدد خوفه من ألاعيبهن فإن النساء يمنحنه شعوراً بالكبرياء بحكم إعجابهن بموهبته وطلبهن نصيحته. وما إن يجد نفسه وسط حلقة من النساء أنيسات المعشر حتى تبرز ميوله المهنية إلى السطح: فقد كان يتوق لتغذية العقول الشابة وليفوز بالقلوب الواثقة وليكون مثالاً يحتذى. كان ينوي قضاء ثلاثة أيام في بادن بادن، ولكن ثلاثة أسابيع مرت وهو ما يزال هناك. غير أن تشوقه للتجوال ما لبث أن سيطر عليه من جديد وأراد أن يتابع المسير. لماذا؟ وإلى أين؟ ربما كان يهرب من نفسه في الواقع. ولذا حزم حقائبه وودع آل ريبينين وآل بالابين اللذين أزعجتهما مغادرته المفاجئة، وصعد إلى عربة أخرى للركاب.

توجه هذه المرة إلى سويسرا، غير أن انطباعاته عن كل من بيرن وبازل ولوزان لم تكن تتسم بالكثير من الحرارة، وبدت مشاهدته الأولية للجبال وكأنها تمثل ضربة بدنية توجه له: تلك الكتل البيضاء التي ترصعها سماء ياقوتية أنيقة والتي تتحول إلى اللون الوردي وتبدو عليها علائم الحياء حين تنحو الشمس نحو الغروب. توقف في جنيف وأقام في غرفة في أحد النُزل. تمشّى على طول ساحل بحيرة جنيف، وفي أحياء المدينة القديمة، وأخذ يتفرج على صانعي الساعات، وقرأ بعض أعمال موليير وشكسبير وولتر سكوت، ولكنه لم يجد الإلهام لكي يمسك بالقلم ويكتب هو نفسه. ولم يبذل إلا القليل من الجهد لتحسين مستوى لغته الفرنسية الركيكة بمحادثة جواره في النزل أثناء تناول الوجبات في قاعة الطعام. وقام بالحجيج إلى «فيرني» حيث كان ينتظره شبح فولتير. كتب حول ذلك رسالة إلى بروكوبوفيتش (في ٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٨٣٦) يقول فيها: «كان هذا العجوز يعيش عيشة رخيّة. هنالك شارع طويل جميل يؤدي إلى المنزل، وهو عبارة عن بيت من ثلاثة طوابق مبني بالحجر الرمادي. غرفة الاستقبال

مجاورة لغرفة نومه التي كانت بمثابة مكتب له أيضاً. السرير مرتب وغطاؤه من قماش الموسلين على وشك التمزق. وتراءى لي كأن الباب سيُفتح في أية لحظة ليدخل ذلك العجوز ضئيل الحجم بشعره المستعار المشهور وشريطه التائه وهو يقول: «ماذا تريد؟». تنهدت وخربشت اسمي بالأحرف الروسية لا لسبب».

أقل مايقال إنه من الغريب أن يقوم أكثر الكتاب الروس تعبيراً عن الأفكار السرية غير العقلية، كاتب يعيش وسط الضباب والظلام، رفيق الشياطين والساحرات، من الغريب أن يقوم هذا الكاتب بزيارة للكاتب الفرنسي الساحر العظيم، العدو اللدود للخرافات والمدافع عن العلم والعدالة والوضوح. فلو أنهما التقيا فعلاً لما وجدا موضوعاً واحداً يتفقان حوله. ومع ذلك لم يشعر جوجول بغربة روحية في «فيرني» - ربما لأن هدفه كان، شأن فولتير، هو إثارة معاصريه وإنهاضهم عن طريق الضحك. ولكن أي فارق بين ضحكة «كانديد» الخفيفة المكتومة الواخزة وبين الضحكات الهازئة لنفوس ميتة! بعد زيارة تقديم واجبات الولاء والطاعة تلك لشيخ الأدباء الفرنسيين شعر جوجول بأن عليه أن يطأطئ الرأس احتراماً أمام قمة أخرى: وهو جبل «مونت بلانك». استأجر دليلاً وغامر بصعود السفوح الدنيا حتى وصل إلى خط الثلج وتمشى عند صفوف الكتل الثلجية ثم عاد أدراجه إلى النزل وقد نهكه التعب. وكتب لأمه (في ٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٣٦) يقول: -

«يستغرق الوصول إلى قمة جبل «مونت بلانك» أربعة أيام ويبدأ الثلج فجأة فيجد المرء نفسه في قلب الشتاء. الثلج فوقك وتحتك وفي كل مكان حولك بحيث لا تعود قادرا على رؤية الوادي في الأسفل، بل تحجبك عنه طبقات من الغيوم. جبال من الجليد تحيط بك تخترقها خيوط من شعاع الشمس. تسمع حيناً تكسّراً ضاجاً وكأنه قصفة رعد عندما تنهال كتلة ثلجية وتندفع إلى الأسفل وتسمع الجلجلة التي تحدثها وهي تتدحرج باتجاه الوادي. كان الجو بارداً والثلج يدور وكأنه رشّ بشعلات مضيئة. استبدلت معطفي الخفيف بمعطف شتوي ثقيل وعندما كنت أهبط أخذت أشعر بالدفء شيئاً فشيئاً. كنت في وسط الغمام، وما لبثت أن أصبحت وسط المطر ففتحت مظلتي ووصلت إلى الوادي من جديد».

لابدّ أن ماريا إيفانوفنا ارتعشت هلعاً وهي تتخيل ابنها الجريء يتسلق جبال الألب. يسير على شفير الكتل الجليدية ويقفز من فوق الهاويات السحيقة وينزلق من بين صخرتين هائلتين ليبتعد عن الكتل الجليدية بينما كان هذا الابن ذاته يحدق من الأعلى بذلك المشهد المريع ويحلم بالشتاء الروسي الذي يمضي على وتيرة واحدة. وجوده كله تحوّل إلى حنين شفاف للمستويات الأفقية. وأخذت البلاد التي هرب منها مرتعداً تشتعل عن بعد بشوق يخلب الألباب وهو يقول لبروكوبوفيتش (في ٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٨٣٦): «ماذا يمكنني أن أقول عن سويسرا؟ مشاهد هائلة، مناظر بعد مناظر ولكنني بدأت أحس بالسأم، ولو حدث أن وقع نظري على أحد مشاهدنا الروسية العادية المنبسطة، ببيوتها الخشبية وسمائها الرمادية لانتابتني الدهشة لهذه المشاهد وكأنني لم أرَ مثيلاً لها من قبل».

• ولكنه كان حتى ذلك الحين قادراً على التمييز بين ذلك المشهد الذي لا يتغير والمحبب لقلبه وبين الناس الذين يعيشون في العاصمة، وجميعهم متهمون بدرجة أو أخرى بإساءة فهم مسرحيته. روسيا بلا روس، ستكون جنة! على الأقل من دون بعضهم. غير أنه كان، من ناحية أخرى يفتقد أصدقاءه. كان قد نسي كل ما يتعلق بهم في بداية سفره. أما الآن، وهو محاط بالأغراب، فهو يفكر بهم بلوعة حقيقية: بوشكين، جوكوفسكي، بروكوبوفيتش، بوجودين. وقد كتب للأخير (في ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٨٣٦) يقول: «في روسيا مجموعة من المغفلين القبيحين الذين أصبحت رؤيتهم لا تحتمل بالنسبة إلي، بل أكاد أبصق عندما أفكر بهم. كل ما أراه هنا الآن أجنبي، كل ما حولي أجنبي ولكن روسيا في قلبي – ليست روسيا البشعة التي عرفتها بل روسيا الجميلة، أنت والقليلون من الاقارب وعدد قليل من الأصدقاء الذين يتمتعون بذوق رفيع وقلوب نبيلة».

«روسيا الجميلة» كانت أيضاً أمه وشقيقاته. والرسائل التي كان يتلقاها من ماريا إيفانوفنا على نحو متقطع كانت، شأنها دائماً، نسيجاً خالصاً من التفجع والتأنيب. كانت تنعي ضيقها المالي الذي يصل بها إلى حد اليأس وتتوسل لابنها

للعودة إلى الوطن. والخطر الأكبر الذي يهدده في الخارج هو النساء الإيطاليات. تحذير ماريا إيفانوفنا كان من القوة والإصرار بحيث دفع جوجول إلى الكتابة لها (في ١٧ أيلول/ سبتمبر ١٨٣٦) يقول: «فيما يتعلق بملاحظاتك حول موضوع النساء الإيطاليات لابدّ لي من أن أشير لك بأنني سأبلغ الثلاثين من عمري في وقت قريب». (كان في الواقع في السابعة والعشرين). رسالة أخرى سببت له أسىً أعمق، فقد أعلنت عن وفاة زوج شقيقته الكبرى ترشكوفسكي تاركاً أياها حاملاً. وبمواجهة حدث مثل هذا استعاد جوجول ميله الغريزي للوعظ. رغبته في إصلاح أقرانه من بني البشر خنقت أي ملمح للعفوية لديه. ولذا فإنه، بدلاً من أن يسمح لحزنه بأن يتكلم، فقد ارتدى مسوحاً طنانة كانت هي نفسها تقريباً التي كان قد لجأ إليها قبل إحدى عشرة سنة إثر وفاة والده.

كتب لأمه يقول: «صعقتني الأخبار التي تضمنتها رسالتك الأخيرة، ومن المحزن دائماً أن تري رجلاً يعاجله الموت وهو ما زال في زهرة شبابه، ويصبح الأمر أكثر قسوة إن كان هذا الشخص قريباً. غير أن علينا أن نكون حازمين في كبح آلامنا والتغلب عليها إن كنا سنظل مسيحيين حقيقيين. علينا أن نتذكر بأنه ليس هناك خلود على وجه الأرض، وأن الأفراح والأحزان تتمازج، وأننا إن لم نعرف الأحزان فلن نتعرف على السعادة، وبذا لن تكون لنا أية سعادة».

ختم رسالته بالقول واعظاً وقد نسي شكواه هو نفسه من مشاكله الشخصية شديدة التفاهة: «علينا أن نبقى شجعاناً وهادئين دائماً، وألا نتحدث قط عما نبتلى به. أعرف أن الكثير من المسرات مازالت بانتظارك، وعلى أختي أيضاً ألا تيأس إن كانت تريد أن تستحق مسمّى مسيحية».

لم يظهر أي ظل للقلق على صحة ماريا وعلى صعوبات الحياة بالنسبة إلى طفل يتيم في الثالثة من عمره (كانت ماريا قد أنجبت ولداً من ترشكوفسكي في عام ١٨٣٣)، كما لم يتلفظ بكلمة واحدة تعبر عن عاطفة حب أو عن تشجيع أخوي. وأظهر القدر ذاته من عدم الاكتراث بعد أشهر قليلة لدى ولادة الطفل الجديد حيث يقول (في رسالة في ١٤ كانون الثاني/ يناير ١٨٣٧): «أسعدني أن

أعرف بأن شقيقتي وضعت طفلاً بالسلامة وإن كان أحزنني سوء الحظ بالنسبة للأملاك».

لم يظهر ما يدل على الأسى كذلك لدى وفاة الطفل بعد ستة أسابيع، فمثل هذه الأحداث الصغيرة إنما تأتي بإرادة الله وفي هذا تكمن فائدتها. كل الأمور إنما هي عطايا تمنح للنفوس النبيلة. ومن المؤكد أنه كان أكثر قناعة بذلك عندما تحلّ المصائب بالآخرين أكثر مما يفعل حين يفكر بما يحلّ به. غير أن هذا الفارق البسيط لم يكن لينتقص من قيمة مبدئه ذاته.

الرطوبة والبرد دفعا جوجول إلى خارج جنيف في شهر تشرين الأول/أكتوبر حيث ذهب إلى «فيفي» ونزل في نُزُلٍ عائلي نصحه به جوكوفسكي الذي كان قد حلّ به قبل سنوات قليلة. وكان صاحب النزل، وهو رجل اسمه بلانشيت –يعامل زبائنه (القلائل في ذلك الموسم) بحدب أبوي. وعلى الرغم من أن جوجول غير اجتماعي بطبعه غير أنه أخذ يتبادل بضع كلمات بالفرنسية مع النزلاء الآخرين أو مع صاحب الدار على أمل زيادة قاموسه اللغوي. وأخذ يقرأ الفرنسية ويستطيع التفاهم بها في الأمور البسيطة. ولكنه ظل غير قادر على إجراء حوار مطول. كان برنامجه اليومي يسير بهدوء وعلى وتيرة واحدة، إذ يستيقظ متأخراً ويتمشى في غرفته. وكانت الوجبات غزيرة جداً وتشعره بالتخمة بحيث يقول في إحدى رسائله بأنه يظن أحياناً بأن «هناك قطيعاً كاملاً من الحيوانات ذات القرون تسكن معدته». وبهدف ممارسة بعض الرياضة كان يتمشى في شارع أشجار الكستناء، ثم ما يلبث أن يجلس على مقعد على شاطئ البحيرة شديدة الزرقة، بالغة الهدوء منتظراً المركب الذي قد يحمل إلى الشاطئ واحداً من أبناء وطنه. ولكن كل من كانوا ينزلون من المركب هم من السويسريين الباردين والإنجليز الهزيلين» من ذوي السيقان الطويلة». وما يلبث جوجول أن يعود إلى النزل وهو يحمل شعوراً بالخيبة ويجلس متثائباً حتى موعد العشاء. وبفعل الملل المحض أخذ يفكر بالعودة للكتابة من جديد، وعزم فجأة على إعادة كتابة «نفوس ميتة» حيث كانت الفصول الأولى منها في حقيبة ملابسه.

كتب لجو كوفسكي (في ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر) يقول: «راجعت البداية برمتها ووسعت المخطط، وأنا أعمل عليها بيسر الآن وكأنني أكتب تاريخاً. وعلى هذا أصبحت سويسرا أكثر رحمة بي وغدت جبالها الرمادية الأرجوانية الوردية أقل إطباقاً بعض الشيء على أنفاسي. لو أنني أستطيع أن أجعل الكتاب ما يجب أن يكون عليه! أي موضوع حقيقي، هائل الاتساع! يا لمداه وتنوعه! كل روسيا ستكون فيه، وهذا سيكون كتابي الرئيسي الأول، العمل الذي من شأنه أن ينتشلني من النسيان، وأنا أضيف في كل صباح، كنوع من إفطار ثان، ثلاث صفحات أخرى لقصيدتي وأضحك بشدة بحيث أتغلب على يومي الذي تغمره مشاعر الوحدة».

غير أن الطقس ما لبث أن أخذ يتحول وغطى الأفق ضباب حزين وأخذت غرفته تصبح متجمدة أكثر فأكثر. وبتقدم الشتاء أخذ يبدو وكأن شيئاً غامضاً يحلّ به. رأى طبيباً تولى فحصه وسؤاله وقرر أنه يعاني من «توهم المرض الناجم عن الإصابة بالبواسير»، ونصحه بتغيير الأجواء. كان جوجول يود الذهاب إلى إيطاليا، ليكون تحت ظل تلك السماء المشمسة الزرقاء الحارة التي كان يمتدحها منذ وقت طويل دون أن يكون قد رآها، ولكن الكوليرا كانت تعم في إيطاليا والطرق مطوّقة. كما أن دانييلفسكي أظهر أنه ما يزال على قيد الحياة بعد أسابيع من الصمت. كان في باريس ودعا صديقه للانضمام إليه وسمح جوجول لنفسه بالخضوع لهذا الإغراء.

□ □ □

٢ ـ باريس

ما إن وصل إلى باريس حتى توجه إلى سكن دانييلفسكي في شارع «ماريفو» وألقى بنفسه بين ذراعي هاجره الذي لن يغفر له. تقبل ضيافته بتحفظ، ثم ما لبث أن انتقل إلى فندق. غير أنه كانت هناك مدفأة واحدة فقط ولا يوجد موقد في غرفته. ولذا لم يستطع أن يتحمّل لفترة طويلة البرد والرطوبة التي تنزُّ من الجدران. ولذا انتقل من جديد هو ودانييلفسكي ليتشاركا في شقة صغيرة مفروشة في ساحة البورصة عند زاوية شارع «فيفيان». كانت هناك مواقد بالإضافة للنوافذ حسنة التوجيه بحيث تلتقط كل شعاع للشمس. ما إن حصل على الدفء حتى استعاد جوجول حيويته ونشر أوراقه واسترخى، وقد أحدثت باريس لديه وقعاً حسناً في أول لقاء له معها.

كتب لجوكوفسكي يقول: «ليست باريس بالبشاعة التي تخيلتها – وهو أمر أدهشني، ولقد قمت فيها بجولات ممتعة عديدة. حدائق التويلري والشانزليزيه وحدها تبعث شعوراً بالرضا لدى كل من يريد أن يتمشى طوال النهار». وكتب لأمه في حوالي التاريخ ذاته يقول: «ذهبت إلى اللوفر بالأمس للمرة الثانية ولم أستطع أن أنتزع نفسي. أجمل اللوحات في العالم تجتمع هناك. توجهت في الأسبوع الماضي إلى حديقة النباتات الشهيرة حيث جمعت أندر النباتات من كل أجزاء العالم، وهي معروضة في الهواء الطلق! الفيلة والجمال والنعام والقرود يتجولون وكأنهم في مواطنهم الأصلية. إنه المكان الأول من نوعه في العالم، وباريس الآن مليئة بالموسيقيين والمغنين والرسامين وكل أنواع الفنون الأخرى.

الشوارع كلها مضاءة بمصابيح الغاز، والكثير منها وكأنها دهاليز من الأروقة المقنطرة مضاءة من الأعلى من خلال أسقف زجاجية. الأرضيات من المرمر بحيث يمكنك الرقص عليها.

أعجب كذلك بالمسلة المصرية التي كانت قد نصبت لتوها في ساحة الكونكورد. وذهب إلى قصر فرساي فزار القصر والحدائق المحيطة به، وشهد عرض الألعاب المائية حيث تتقاطع نوافير الماء الطويلة المتلألئة بعضها البعض ثم تتقاطع ثانية. ولكن ما أعجبه بالذات هو الحركة والضجيج في الشوارع. لم يكن يمل من التجوال في المنطقة، وهو يحدق بالناس ويتفرج على المعروضات في واجهات المحلات ويلتقط بين حين وآخر ابتسامة امرأة أو إيماءة رقيقة من بائعة في أحد الحوانيت، أو يتأمل المعروض في دور بيع الكتب، أو يتوقف مسحوراً ليرقب «آلة» أسطوانية ضخمة وهي تطحن الشوكولاتة على طول واجهة أحد المحلات»، أو يبتلع ريقه لمرأى أخطبوط ضخم أو ديك رومي محشو بالكمأة، أو يندفع إلى الشوارع العريضة حيث ترتفع الأشجار الجميلة بجذوعها الطويلة في قلب المدينة كأنها بنايات بسبعة طوابق، وجموع الأجانب وهم يتدافعون على طول الأرصفة الإسفلتية إلى جانب عدد قليل من تلك «الأسود» «والنمور الدارجة» التي لم يتم تصويرها بالشكل الصحيح في الروايات الفرنسية»[١]. النغمة السريعة للغة الفرنسية، والسماء الملونة، والخيول التي تعدو رائحة غادية بألجمتها اللامعة وحوافرها التي ترن، وعبير الياسمين الأحمر، والكستناء الحارة، والجو العابق بالمرح العصبي، والتحديق الوقح، والردود الجلفة: كلها مجتمعة إنما تمثل خلطة غريبة كان يتنشق عبيرها ويتشربها نصف مسرور ونصف مغتاظ. وضمن هذا المشهد من التوقد السريع وانعدام الوزن يشعر بتكاسل وتباطؤ أكثر من أي وقت مضى.

بعد تجواله في الشوارع يدخل أحد المقاهي الضخمة «التي تزين جدرانها رسوم على الجص بالألوان المائية مغطاة بالزجاج» ويسترسل في أحلام اليقظة بعد

(١) قصة جوجول القصيرة «روما» تحوي انطباعاته عن باريس.

أن يسترخي في إحدى الزوايا وسط رنين الصحون الصغيرة وضجيج الأحاديث. أحب اكتشافاته كانت أصناف المثلّجات في مقهى «أنجليز» و«تورتوني»، وإن كان يتوق أيضاً لبضاعة أكثر إشباعاً. أغرم بسرعة بالمطبخ الفرنسي بحيث قلما كان يستطيع مقاومة إغراء وجبة جيدة. كان يسمي المطاعم «معابد» والجرسونات «قسس» ويقول إنه «يقع تحت سحر الرائحة والطعم الرائعين للضحايا الذين تتم التضحية بهم في هذه الأماكن». غير أن معدته كانت كثيراً ما تثور لسوء الحظ بعد مثل هذه الوجبات الثقيلة. والانزعاج المألوف في مثل هذه الأحوال يكتسب في ذهنه أبعاداً هائلة، فيسهب بالحديث عن ذلك لدانييلفسكي بتفاصيل تدفع صاحبه، وقد نفد صبره، إلى أن يشيح بوجهه عنه. استشار طبيباً هو الدكتور «مارجولين» الذي وصف له «حبوباً هندية». ولكنه كان ما يلبث أن يعود ليدخل مع صديقه مطعماً وذلك بمجرد شعوره بأنه أصبح قادراً على احتمال الألم.

كانا يلعبان البلياردو بعد تناول طعامهما وذلك حتى وقت متأخر من الليل، أو يذهبان إلى المسرح. وقد حضر في الأوبرا الإيطالية أوبرا «جريزي» و«ليبلاش» و»تامبوريني» و«روبيني». وفي مسرح «تياتر فرانسيه» صفق لمسرحيات «ترتوف» و«المريض بالوهم» وثلاث مسرحيات أخرى بلغت كلها درجة الكمال في أدائها. وقد وصف ليجبيه «خليفة تالما» بالموهبة البارزة. أما «ميل مارس» فكانت ما تزال تمثل دور فتاة ساذجة وبنجاح كبير على الرغم من بلوغها الستين من عمرها. وقد كتب لبروكوبوفيتش (في ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٨٣٧) يقول: «بدا لي ذلك سخيفاً في البداية، غير أنها في الفصول اللاحقة، حينما تصبح الطفلة امرأة فإن المرء يغفر لها سنوات عمرها. ما زال صوتها رقيقاً، وإذا ضيقت عينيك فإنك تصدق بأنها فتاة مراهقة في الثامنة عشرة من عمرها. كل ما فيها بسيط وحيوي. إنها الطبيعة بأنقى حالاتها. وفي المقاطع الحزينة تبدو الكلمات وكأنها تنطلق من أعماق روحها. ليس هناك صوت لا تستسيغه الأذن، ولا كلمة زائفة أو مصطنعة. لاشك بأن مسرحنا الروسي بحاجة ماسة لمثيلات ميل مارس».

أما ميل جورج التي كانت تؤدي أدوارها في «بورت سانت مارتان» فقد وجدها «تقليدية وتؤدي أدوارها على نحو روتيني ممل». الباليه مرض تماماً بما في ذلك أداء الرقص والمشاهد والملابس، كل شيء على أفضل ما يكون. وهو يقول في الرسالة السابقة «ثروة من القصص الخيالية، وترى على المسرح فيضاً من الذهب وقماش الساتان والمخمل. كل الراقصين هنا، بمن فيهم المجموعة الكاملة يرتدون الملابس التي لا تعطى إلا للراقصين الأساسيين في بلادنا: «لا تاجليوني هي عبارة عن نفحة هواء. لم يرقص أحد من قبل بهذه الخفة اللاأرضية».

غير أن هذه الحياة المشرقة التي تبعث على الدوار ما لبثت أن أثارت شكوك جوجول. فالمظاهر الخارجية، وإن كانت مغرية على هذا الشكل فقد لا يكون وراءها شيء فعلي. لم يكن بعيداً عن التساؤل فيما إن كانت لدى الفرنسيين روح أم أنهم يهملون هذه الروح لصالح ملايين النشاطات السطحية. والسياسة بالتأكيد هي أكثر هذه النشاطات غباءً وهدماً. وكأحد رعايا حكومة أوتوقراطية تربى على احترام النظام وحب القيصر فقد كان يرعبه أن يستمع إلى أمور السياسة وهي تناقش علناً في الأسواق بدلاً من أن تترك للمختصين. الكثيرون في باريس كانوا ما يزالون تحت تأثير ثورة عام (١٨٣٠). وقد جرت محاولات عدة لاغتيال الملك لويس فيليب، في «فييشي» في العام السابق، وفي «أليبود» في حزيران/ يونيو، عام ١٨٣٦. وفي كانون الأول/ ديسمبر في مونييه. ومؤخراً قام الأمير لويس نابوليون بونابرت بمحاولة تمرد «فاشلة في حامية ستراسبورج. كانت الوزارات تتغير لأتفه الأسباب، وقد حلّ اليوم السيد «موليه» محل السيد «ذيرز». فمن يخلف السيد موليه في الغد؟ ويقال إن الناس هتفوا لدى تدشين قوس النصر «يعيش الإمبراطور»! لا يمكن لدولة صحيحة الجسم ومتوازنة أن تتصرف على هذه الشاكلة. لم يحاول جوجول الالتقاء بفرنسي واحد ولكنه وصم الأمة كلها بالزعزعة العاطفية. قد تكون البلاد ملكية الآن، ولكن الجمهورية تتسرب من كل شرخ فيها. لكل شخص آراؤه الخاصة حول كيفية إدارة البلد. الصحف

تمسك بخناق بعضها البعض. كيف يمكن لهذه الجموع من الثرثارين حادي الطبع أن يحكموا؟

يقول جوجول في رسالته نفسها السابقة إلى بروكوبوفيتش: «كل شيء سياسة هنا. وهناك محل لبيع الصحف عند كل زاوية من كل شارع. تقف في الطريق لتلمّع حذاءك فما يلبث أحدهم أن يدس صحيفة في يدك دون أن تدري. وتذهب إلى مكان تقضي فيه حاجتك وهناك تجد أيضاً من يضع جريدة في يدك، والناس هنا يهتمون بما يحدث في إسبانيا أكثر مما يحدث في بيوتهم».

أسهب في عرض وجهة نظره هذه في قصته القصيرة «روما» التي يأتي بطلها الشاب الإيطالي إلى باريس للدراسة، وسرعان ما يتوصل إلى قناعة بأن فرنسا هي «مملكة الكلمات دونما أفعال».

كتب جوجول يقول: «ليس هناك من فرنسي يعمل على الإطلاق إلا في داخل ذهنه المحموم. وهضم تلك الصحف التي لا تنتهي يستهلك يومه كله ولا يترك له من الوقت شيئاً للجانب العملي من الحياة. وكل فرنسي تربى ضمن هذه الدوامة الغريبة من سياسة الكتب والمطبوعات، ودون أن تكون لديه أدنى فكرة عن حقوقه وواجباته أو الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها. ينضم إلى ذلك الحزب أو ذاك ويجعل على الفور مصلحته من مصلحة هذا الحزب، ويهاجم خصومه قبل أن يعرف من هم، أو ماذا يريدون. وعلى هذا فإن كلمة «سياسة» تصبح بغيضة لبطلنا الإيطالي. وفي كل مكان، سواء في مجال الأعمال أو الأمور المتعلقة بالعقل لا يرى شيئاً سوى كفاح تشنجيٍّ وبحث عن الجديد مهما كان الثمن».

وكما يقول الإيطالي الشاب -أي جوجول- فإن الأكاديميين الذين يكافحون من أجل «إضفاء أهمية على الأمور التي لم تكن تُعلّق عليها أية أهمية من قبل وللمبالغة في إبراز نفوذهم على حساب الترتيب الطبيعي للأمور»، هؤلاء إنما يظهرون أسوأ أعراض هذه الفضائحية الفرنسية. غير أن الروائيين «الذين

يكرسون أنفسهم كلياً لدراسة العواطف النابية وغير المألوفة والحالات الشاذة والاستثنائية» هم الأشد ابتلاءً بهذه الحالة.

كان فيكتور هوجو يصدر في ذلك العام كتابه «نوتردام دو باري» ونشر ألفريد فينيي، كتابه (Stello)، و»لا مارتين» كتابه «دوسلين» ويتوفيل جوتييه Les Greoresques، وبلزاك Lys dans la Valee. وكان العام السابق قد شهد Les Chants du crepuscule و Servitude et Grandeur militaires و Mademoiselle de Maupin و Old Goriot. غير أنه لم يخطر ببال جوجول الذي لم ينفذ على الإطلاق لحياة العاصمة الأدبية أن يلتقي بأي من الكتاب الذين ترن أسماؤهم في أذنيه. فهو لم يأت إلى فرنسا للاختلاط بالفرنسيين، بل ليشعر بأنه أكثر روسية في وسطهم. كان شديد التصميم على أن يبقى أجنبياً، سائحاً في بلاد أولئك الذين يتحولون مثل الحرباء. ليس عليك أن ترى الناس لكي تحكم عليهم، بل على العكس فإنك بمراقبتهم عن بعد يمكنك أن تتعرف على سماتهم الحقيقية بصورة أفضل. كما أن الكاتب الحقيقي لا يحتاج للتجربة لأنه يملك موهبة الحدس. وبذا فإنه، باحتفاظه بهدوء ورباطة جأش الجاهل، فقد أدان السطحية الباريسية على لسان طالبه الإيطالي.

«تراءى له في النهاية أن هذه الأمة، على الرغم من كل سمات التألق وفورات النبالة وموجات الفروسية التي تبديها، فإن هذه الأمة الشاحبة القاصرة هي ليست إلا تمثيلية هزلية تمثل في قاعة موسيقى صغيرة تؤلفها هي نفسها. ليست هنالك فكرة جدية أو سامية مغروسة عميقاً في القلب. هنالك تلويح بأفكار في كل الاتجاهات دون وجود أفكار فعلية. نصف عواطف في كل مكان دون وجود أية عواطف حقيقية. كل ما فيها غير مكتمل، يشار إليه ضمنياً، يرسم بحركات سريعة. الأمة كلها عبارة عن رسم حاذق ولكنه ليس تحفة فنية».

هذا الاحتقار للحضارة الغربية ثبط من همة جوجول أكثر فأكثر للاندماج مع الفرنسيين، خصوصاً وأنه عثر على مجموعة صغيرة من الروس في باريس: السيدة سفيشين، آل سميرنوف، آل بالابين الذين قدموا من سويسرا، وبذا

ملأ هؤلاء فراغه كله. وكثيراً ما كان يذهب ليتناول الشاي في بيت أليكساندرا سميرنوف في (٢١) شارع «مونت بلانك»، حيث يستمع لشخص يعزف البيانو أو إلى مناقشة تدور حول الأحداث الاجتماعية أو السياسية في العاصمة، وبعد ذلك يصف مشاويره عبر باريس ووجبات عشائه وأمسياته وجموع الناس الذين يقفون صفوفاً خارج دور المسرح، وكيف أنه اشترى موقعه في الصف من شخص كان قد سبقه في الدور. وتحمله أجنحة الخيال أحياناً فيدّعي زيارة بلدان لم تطأها قدماه قط. فقد ادعى مثلاً بوجود أليكساندرا سميرنوف أنه كان في إسبانيا والبرتغال. وقد كتبت هي تقول: «أجبته بأنه لم يكن يوماً في إسبانيا وأن ذلك غير ممكن لأن هناك قلاقل في ذلك البلد وأنهم يتقاتلون عند كل منعطف، ولدى الكثيرين ممن قدموا من هناك الكثير مما يقولون حول ما رأوا. أما هو فلم يذكر ذلك المكان من قبل. وقد ردّ على ذلك بالقول: «ما الفائدة من ذكر كل تلك الأشياء؟ أمن أجل لفت الأنظار فقط؟ كل من تعرفونهم يتكلمون ويتكلمون دون توقف، يتحدثون عن كل ما يعرفون ومالا يعرفون، وعن شؤونهم الخاصة أيضاً!».

على الرغم من كل ادعاءاته فلم يقنعها قط بأنه اجتاز جبال البيرينيه. كانت تعرف بأنه سريع الكذب ولم تكن تكترث لذلك. كانت تفسّر تخيلاته على أنها دفاعات عن النفس في مواجهة ضغوط الواقع. ولإعجابها بجوجول الكاتب كانت تسبغ عليه صفات الفهم النفسي الثاقب، بل كانت تكشف له بصورة متزايدة عن مكنونات قلبها ولا تتردد في طلب نصيحته. دمامته وهزاله في حد ذاتهما كانا يشجعانها، فقد سئمت انتصاراتها في البلاط وسيطر عليها شعور بالخيبة نتيجة لزواجها من رجل تافه مهذار لم تكن تحبه. كانت تقترب بسرعة من عيد ميلادها الثلاثين وتودع المسرّات الفارغة لسن الشباب وتبدأ في التساؤل عن معنى الحياة. غير أن روحها العالية كانت تتفجر بين حين وآخر من خلف قناع الحزن، وعند ذلك يكتشف مجالسوها وبفرح «الشيطانة السماوية» التي مجّدها بوشكين وجوكوفسكي.

كتب الشاب كارامزين لأمه (في ١١ شباط/ فبراير ١٨٣٧) يقول: «تناولت العشاء قبل ثلاثة أيام لدى آل سميرنوف مع الأميرة «تروبتسكوي» و«سولوجوب» وجوجول. لقد تحسنت لغة جوجول الفرنسية بحيث يستطيع أن يذهب إلى المسرح ويتبادل الحديث بها بشكل ممتاز -حول ما شاهده. غير أن من الصعب على المرء أن يتحدث لدى آل سميرنوف لأن نيقولاي ميخائيلوفيتش (زوج الكساندرا) يقاطعك حالما تفتح فمك لكي يعارض الجميع ويتحدث بأمور سخيفة».

لتحسين لغته كان جوجول كثيراً ما يتوجه إلى سكن شاب فرنسي اسمه «نويل» يسكن في علية في الحي اللاتيني حيث يدرب فرنسيته أيضاً. كما أخذ يتعلم الإيطالية استعداداً لسفره إلى ذلك البلد. ولكنه لم يكن على عجلة من أمره إذ كان يعمل في غرفته الصغيرة المريحة في ميدان البورصة على «نفوس ميتة».

ما إن يتناول قلمه حتى يختفي ضجيج الشارع في الأسفل، كما تختفي باريس ومقاهيها ومسارحها وحوانيتها وأرصفتها التي تعج بالمتبطلين، وشوارعها التي تضج بالعربات، وتضيئها مصابيح الغاز ويبللها المطر، ولا يعود هنالك فرنسي واحد في الوجود. ليس هناك إلا الروس، وفي وسطهم «تشيشيكوف» الذي يجمع النفوس الميتة بكل حذق.

كتب لجوكوفسكي (في ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٣٦) يقول: «امتدت إلي يد الله هنا ووهبتني معجزة بأن قادتني إلى شقة دافئة مشمسة فيها مدفأة بحيث أتقلب فيها في النعمة. استعدت فيها مزاجي الرائق وأنا أكتب النفوس الميتة بعزم وتفاؤل أكبر مما فعلت في «فيفي». أشعر كأنني في روسيا، كل ماأراه روسي: ملاك الأراضي، الموظفون، الضباط، الفلاحون، البيوت الريفية - بكلمة مختصرة، روسيا الأرثوذكسية برمتها. أضحك في الواقع عندما أفكر بأنني أكتب النفوس الميتة في باريس. الرواية ضخمة، عملاقة ولن تنتهي إلا بعد مرور فترة طويلة. ستخلق لي جمهوراً واسعاً من الأعداء، أفراداً ومجموعات اجتماعية. ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ قدري يجعلني على علاقة

سيئة مع بني وطني. صبرا! يد خفية تنقش لي الكلمات أمام عيني بطرف صولجان كلي الوجود. أعرف أن اسمي سيلقى سمعة أحسن لدى الأجيال القادمة أكثر ما سيناله إبان أيام حياتي، والأحفاد الباكون لأبناء وطني هؤلاء أنفسهم قد يتحدون من جديد مع روحي».

وفي ملاحظة ملحقة يتوسل لأصدقائه، كالعادة، بأن يزودوه بمواد للكتابة: «هل يمكنكم أن تفكروا ببعض الأحداث التي قد تسمو فوق شراء النفوس الميتة؟ أتوق لذلك جداً، فخيالكم سيستنبط بالتأكيد أموراً قد تغيب عن مخيلتي. حدثوا بوشكين عن ذلك، فقد يفكر بشيء ما، إذ إنني أود استقصاء الموضوع كلياً ومن كل جوانبه. إنني أملك ثروة من المعلومات لم أحلم بها من قبل، غير أن بإمكانكم أن توفروا لي المزيد، فكل امرئ يرى الأمور من زاوية مختلفة. لا تحدثوا أحداً عن موضوع رواية نفوس ميتة». يمكنكم أن تذكروا العنوان فقط وأما من يعرف عمّ تتحدث الرواية فهم أنت وبوشكين وبلتنييف».

كلما كان عمله الجديد يبدو له استثنائياً ازداد غيظه لأي مديح لأعماله السابقة. لم يكن من اللائق ببروكوبوفيتش أن يذكر له بأن«المفتش العام» ما تزال تعرض في مسارح مكتظة بالحضور في روسيا، ولذا أجابه جوجول بغضب (في ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٨٣٧).

«أتوسل إليك أن تقول لي لماذا تكتب لي عن المفتش العام. فرسالتك ورسالة تلقاها دانييلفسكي بالأمس من باشيشينكو تقولان كلتاهما إن المفتش العام تمثل كل أسبوع وأن المسرح مليء، الخ. . . ما الهدف من هذه الرقة المتكلفة وهذا الرياء؟ لست أفهم إلى ماذا ترمون! إنني أولاً أبصق على المفتش العام، وأعتبر كل ذلك ثانياً مجرد لغو لا فائدة منه. إنني أرتجف عندما أفكر بكل خربشاتي الصبيانية، فهي تقف أمام ناظري وكأنها قضية اتهام. النسيان، النسيان الطويل هو ما تطلبه روحي. ولو أن عثة ابتلعت كل نسخة من المفتش العام بجرعة واحدة، وكذلك «أرابيسكس» و«أمسيات في مزرعة» وإلى جانبها كل تلك التفاهات التي كتبتها. ولو أن أحداً لا يذكر اسمي ثانية ولم يكتب عني شيئاً

لفترة مديدة، مديدة فإنني سأشكر طالعي عند ذاك. الشاعر الحقيقي لا يفكر إلا بالشهرة بعد موته (علماً بأنني لم أقدم أنا شيئاً حتى الآن لأستحق ذلك). إن الشهرة التي يحصل عليها المرء في حياته لا تساوي كوبيكاً واحداً».

كان من شأنه أن يتلذذ بتحقيق طموحاته بالخلود بالارتباط بالشاعرين البولنديين المنفيين آدم ميتسكايافيتش (١٧٩٨-١٨٥٥) وبوجدان زاليسكي. غير أن التوجه السياسي للأول - وهو قومي شديد التعصب، يمقت الاحتلال الروسي لبولندا وثوري في داخله- كان لابد له من أن يصطدم مع ميول جوجول الجازمة في محافظتها. غير أن الرجل كان من النبل والسمو بحيث كان من الممكن له أن يحترم آراء جوجول دون أن يشاركه إياها. كما أنه كان صوفياً متحمساً وكان يخيف جميع أصدقائه. أخذ جوجول من خلاله بالاهتمام بكنيسة روما الكاثوليكية وبدأ يفكر بروما من جديد، وبالفاتيكان بالذات. هل يبقى أم يمضي؟ كانت تلك فترة كارنفالات: أقنعة ورايات وأوراق ملونة تنتشر أثناء الاحتفالات، وطوافات ورقص في الشوارع ومصابيح صينية وفرق موسيقى إيقاعية. المدينة برمتها ترقص رقصة القديس «فيتوس».

وفجأة وصل نبأ من روسيا بأن بوشكين أصيب بالرصاص في مبارزة مع حارس الخيالة «جورج دو أنتيس» وأنه توفي في (٢٩) كانون الثاني/ يناير ١٨٣٧).

ذهل جوجول وكأنما السماء انهارت فوق رأسه ودفنته تحت الركام. تحدث أصدقاؤه عن مكائد غرامية وخطابات مجهولة ومؤامرات أرستقراطية. قيل إن الشاعر توجه إلى ميدان المبارزة دفاعاً عن شرف زوجته. رصاصتان ولم يعد شاعر روسيا حياً. كيف سمح الله لهذا الديك الرومي الفرنسي بأن يكون الأداة التي أحدثت هذا الموت المأساوي؟ هل من العدالة أن يهلك المثل الأعلى للأمة على يد أجنبي كان قد تسلل كأنه الدودة إلى الجيش الإمبراطوري معتمداً على ما لديه من علاقات؟

لم تحرّك هذه الأقاويل جوجول ولم يكن يهمه لم أو كيف اختفى صديقه. كل ما يهمه هو هذه النتيجة المستحيلة: عالم دون بوشكين، هو بدون بوشكين. قال لدانييلفسكي «تعرف كم أحب أمي ولكنني لن أتألم لموتها كما أتألم الآن». وقد كتب الشاب كرامزين لعائلته قائلاً: «التقيت بجوجول على عشاء لدى آل سميرنوف. من المحزن والمثير أن ترى أثر موت بوشكين على هذا الرجل. لقد تحوّل كلياً، إذ هجر عمله وهو يرتعد لفكرة العودة إلى بطرسبرج التي أصبحت فارغة بالنسبة له».

لم يكن في الواقع يفكر إلا قليلاً بسانت بطرسبرج، بل إن رحلة أخرى كانت تومئ له ليهرب من أحزانه. ففي الأيام الأولى من شهر آذار/ مارس بدأ رحلته إلى إيطاليا. وكان الموعد الذي حدده لنفسه هو أن يكون في روما في عيد الفصح، وقد وصل في الوقت المحدد - بعد أن مكث لفترة وجيزة في جنوة وفلورنسا- ليحضر القداس البابوي في كنيسة القديس بطرس. مهابة القدّاس جعلته يفغر فمه دهشة، وقد كتب لأمه (في ٢٨ آذار/ مارس ١٨٣٧) يقول: «البابا في الستين من عمره، وقد حمل إلى داخل الكنيسة على محفة فاخرة تعلوها مظلة. كان على الحمّالين التوقف مرات عدة لأنه كان يشعر بالدوار». ولم يورد كلمة واحدة حول حزنه على بوشكين.

ما لم يذكره لأمه - التي كانت بعيدة كل البعد عن اهتماماته الأدبية والاجتماعية بحيث لا يمكنها فهمها - كتبه لبلتنييف في اليوم نفسه حيث يقول: «ليس هنالك ما يمكنه أن يكون أسوأ من الأنباء التي وصلتني من روسيا. فبموته تختفي السعادة العليا من حياتي. لم أبدأ شيئاً دون نصيحته ولم أكتب سطراً إلا وتخيلته إلى جانبي. ماذا سيقول؟ ما الذي سيلاحظه على وجه الخصوص؟ ما الذي سيضحكه وما الذي سيعجبه أكثر من غيره؟ كان هذا هو ما أتساءله ويشجعني على المتابعة: الغبطة السرية لمتعة أعلى كانت تبعث فيّ الروح. ياإلهي! كتابي الحالي كان من إلهامه - من إبداعه. ليست لديّ القوة لمتابعة العمل

فيه. حاولت مراراً أن أمسك بالقلم ولكنه ظلّ يسقط من يدي. حزن يفوق الكلمات».

كتب لبوجودين بعد يومين يقول: «لن أحدثك عن هول خسارتنا، ولكنها بالنسبة إلي أكثر من الآخرين. إنك تتحدث كروسيّ، ككاتب – وأنا لا أستطيع أن أعبّر عن واحد من المئة عن مدى كمدي. حياتي ذاتها، سعادتي الكبرى ماتت معه. اللحظة السعيدة الوحيدة لديّ هي حين أبدع، وعندما كنت أفعل كان بوشكين هو الوحيد الذي يتجسد أمامي. لم أكن أكترث لكل ماكانوا يقولون عني! إنني أبصق على تلك الغوغاء التي يسمونها العامّة. الأمر الوحيد الذي كان يهمني هو كلمة بوشكين التي لا تخطئ. لم أبدأ شيئاً، لم أكتب شيئاً دون نصيحته. إنني مدينٌ له بكل شيء محترم فعلته، وعملي الحالي هو مخلوقه، لقد جعلني أعده بكتابته ولم أكتب حرفاً واحداً إلا وكنت أراه إلى جانبي. كنت أسعد لفكرة أنه سيسر به، وأحاول تخمين ما يمكنه أن يفضله. كانت تلك هي جائزتي الأثمن التي أتطلع إليها. أما الآن فلن أتلقى هذه الجائزة قط. ماهو عملي الآن؟ وماهي حياتي؟ إنك تدعوني للعودة ولأكون بينكم، لأي هدف؟ ألن تكون النتيجة الوحيدة لذلك هي إتاحة الفرصة لإعادة تمثيل القدر الدائم للشاعر في بلادنا من جديد؟ ألم أرَ ما يكفي من أولئك الرعاع المتنورين الأميين؟ ألست أعرف من هو عضو المجلس سواءً أكان عضواً شرفياً أم خاصاً؟ تكتب أن الجميع، مهما كانوا قساةً، حزنوا لخسارته. ولكن ماذا فعل هؤلاء جميعاً من أجله حينما كان حيّاً؟ ألم أشهد المرارة التي كان يعاني منها بوشكين على الرغم من أن صاحب الجلالة، ليحفظه الله لأجل ذلك، قدّر قدراته؟ يا إلهي، حينما أفكر بقضاتنا، بأولياء نعمتنا، بمفكرينا العارفين، بأفراد طبقة أرستقراطيتنا المعتبرين. قلبي يعتصر لمجرد التفكير بذلك؟ لابدّ أن الأسباب التي دفعتني لاتخاذ قرار يتعارض تماماً مع رغباتي كانت أسباباً إجبارية. هل تظن بأنني لست أعاني لأن سلاسل من الجبال تفصلني عن أصدقائي؟ هل تظن بأنني لا أعشق روسيا التي لا تحدها حدود؟

«سيكون قد انقضى عام في وقت قريب وأنا أعيش على أرض غريبة، أحدق بسماوات جميلة، عوالم غنية بالرجال وبالفن، ولكن هل حاولَ قلمي أن يتناول، ولو لمرة واحدة، هذه الأعاجيب التي لا يمكن لامرئ إلا أن تترك أثرها فيه؟ لم أتمكن من تكريس سطر واحد لهذا العالم الغريب. إنني مرتبط بعالمي بروابط لا يمكن لأحد أن يدمرها. إنني أفضل عالمنا، الفقير الممل بغرفه الخالية من المدافئ وبمساحاته العارية على تلك السماوات الأكثر إشراقاً والتي أحسنت وفادتي. أيمكن أن يقال إن مثل هذا - الشخص لا يحب بلاده؟ ولكن العودة للخضوع لذلك الغرور الصلف لطبقة من الناس الأغبياء الذين ينظرون إليّ نظرة فوقية أو يحاولون الإساءة لي- لا، لن أفعل ذلك، شكراً جزيلاً! يمكنني أن أتحمل أي شيء في الخارج، مستعد لأن أتسول وأن أمدّ يدي سائلاً إن اقتضى الأمر. أما في بلدي فلن أفعل ذلك قط. لا يمكنك أن تدرك مدى عذابي. إنك تحتمي بالميناء وتسمو فوق الإهانات وتسخر منها. أما أنا فلا ميناء لي والأمواج تلطمني وتحطمني، والمرساة الوحيدة التي يمكنني الاتكاء عليها هي الكبرياء التي زرعتها قوة عليا في قلبي».

وكتب لبوكوبوفيتش في اليوم نفسه يقول: «العظيم لم يعد موجوداً، وقد تسممت حياتي منذ ذلك اليوم. اكتب لي بحق الله! ذكرني بأن كل شيء لم يمت بالنسبة إلي في روسيا تلك التي تبدو لي الآن مجرد قبر يطبق دونما رحمة على كل ماهو عزيز على قلبي. إنك تعرف وتدرك مدى أهمية واثر هذه الخسارة بالنسبة إلي».

هذه التفجعات التي تضمنتها رسائله كانت «أدبية» إلى حد كبير. فجوجول، بصبّه لأحزانه لم يستطع أن يمنع نفسه عن اتخاذ هيئة كاتب كبير ينعي، بنثر لا يموت، رحيل كاتب كبير آخر. ومن وراء أكتاف من يراسلهم كان يخاطب الأجيال الأدبية القادمة. غير أن حزنه لم يكن متكلفاً. فقد كانت نفسه تضم في ذلك الحين، شأنها دائماً، مزيجاً من الشعور باليأس والسخرية، من التلقائية والتشدق بالكلام. كان يسكر بسحر كلماته عندما يمسك القلم

بيده. وكلما كان صادقاً في مشاعره تضاءل إيحاؤه بالصدق. ولكنه حين ينظر في الأمر بدقة أكبر كان عليه أن يعترف بأن ما يؤلمه بشكل خاص في موت الشاعر هو خسارة شاعر وناقد لا يمكن تعويضه وليس خسارة صديق. فلم يكن هناك ما يجمعهما: لا السن، ولا التعليم، ولا الوضع الأدبي، ولا الوضعية الاجتماعية ولا الشخصية. لم يكن جوجول قد كتب لبوشكين ولو مرة واحدة خلال رحلته برمتها على الرغم من أنه كثيراً ما كان يراسل جوكوفسكي. فبوشكين إنسان خارج عالمه، نابغة محض، التجسيد الحي لضميره الفني. كان ينظر في لحظات الشك لديه إلى هذا الكبير لكي يستعيد منه الثقة. كان يطلب منه ما يتجاوز الأفكار والنصائح: كان يريد التشجيع الغامض الذي يمنحه إياه مجرد وجود الشخصية التي لا نظير لها في نطاق المهنة التي اختارها مهنة له.

الاعتدال، الانسجام، الهدوء، الوضوح، الكمال في الشكل: بوشكين هو كل ذلك. والأكثر من ذلك أنه على الرغم من أن فن بوشكين الشفاف والمتوازن، كان يقف على النقيض من إبداعات زميله الأصغر والتي تتسم بالغرابة والغموض فهو (أي بوشكين) لم يحاول قط التأثير فيه. كان يقترح عليه كتباً ليقرأها وينتقد ما يكتب ولكنه يترك له الحرية الكاملة. كان يساعده على أن يكون هو نفسه حقاً.

والآن، وبعد أن اعتاد على هذا النوع من المساندة وجد جوجول نفسه في الفراغ: تدفق الفزع في داخله. هل يمكنه أن يكتب بعد من دون بوشكين؟ لم تكن لديه الرغبة في المتابعة في البداية، وكأنما جمهوره كله اختفى من الوجود بضربة واحدة. ولكن اكتئابه لم يدم طويلاً إذ إن الحكمة القديمة تقول إن الإبداع يحمل في طياته متطلبات من داخله يمكنها أن تتغلب على أية تحفظات خارجية. عادت الحاجة للإبداع إلى الكاتب قوية بقوة غريزة حفظ البقاء لدى الحيوان الجريح. لم يكن بوشكين هو الذي يحتاج «النفوس الميتة»، بل هو جوجول. فرأسه يمتلئ بالكتاب بحيث أحس وكأنه سينفجر. لم يعد يستطيع حمل هذا العبء بعد ولذا عاد إلى المخطوطة وبقوة محمومة.

كتب لجوكوفسكي (في ١٨ نيسان/ إبريل ١٨٣٧) يقول: عليّ أن أتابع العمل العظيم الذي بدأته وجعلني بوشكين أتعهد بكتابته. الفكرة له ولذا فإن هذا الكتاب أصبح بالنسبة لي عهداً مقدساً. كل دقيقة ثمينة بالنسبة لي الآن وإن كنت أظن بأنني لا أملك الكثير من الوقت بعد».

وكتب لجوكوفسكي بعد ذلك أيضاً (في ٣٠ نيسان/ إبريل ١٨٣٧) يقول: «آه يا بوشكين، بوشكين! أي حلم جميل رأيته وأي حزن انتابني عندما استيقظت من هذا الحلم! أي حياة يمكن أن تكون لي في سانت بطرسبرج الآن؟ ولكن يد الله القديرة أرسلتني إلى هنا تحت هذه السماء الإيطالية المشعة لكي أنسى حزني والناس والعالم، ولكي يسحرني جمالها الرائع. لقد حلّت إيطاليا محل كل شيء آخر».

كان بوشكين قد أصبح يأخذ بالفعل شكل العذر المنتحل للشعر، وتبريراً أنيقاً، واسماً يكتب على صفحة غلاف الكتاب الجديد لكي يؤكد على الأهمية الاستثنائية لهذا الكتاب.

□ □ □

٣ ــ روما

رحلة جوجول إلى جنوة عن طريق البحر، ومن ثم براً إلى روما لم تؤدِ إلى تحسين حالته الصحية. وقد كتب لبروكوبوفيتش (في ٣٠ آذار/ مارس ١٨٣٧) يقول: «أشعر بالانزعاج في أكثر أعضائي نبلاً، معدتي. فهي وحش لا يكاد يستطيع هضم الطعام بعد! كما أنني أعاني من الإمساك بحيث لم أعد أدري ماذا يمكنني أن أفعل في بعض الأحيان. المشكلة هي في الجو السيِّىء لباريس حيث أن طقسها، على الرغم من أنه ليس هناك فصل شتاء، فإنها قد لا تكون أفضل من سانت بطرسبرج.

افتقاره للمال أجبره على مراقبة مصروفاته بشدة، إذ لم يكن في جيبه أكثر من مائتي فرنك. أقام في سكن أجرته ثلاثون فرنكاً في الشهر في «فيا إزادورو ١٧» في غرفة تملؤها رسوم يؤطرها زجاج مدخن ومنحوتات بيضاء. كان يشرب كل صباح كوب شوكولاته ثمنه أربع «سوس». ولكنه كان يتناول عشاءً وفيراً بـ ستة «سوس» فقط ويسمح لنفسه بعد الوجبة بترف تناول آيس كريم غير حاد المذاق غني بالكريما يذوب بسرعة في الفم بحيث أن آيس كريم «تورتوني» كان، كما وصفه، مجرد «زبالة». على الرغم من هذا النظام الغذائي القائم على نوعية واحدة من الطعام فقد خفت متاعبه الهضمية، وقد عزا تحسن حالته للطقس الإيطالي الساحر. ظل يحلم بهذا البلد لفترة طويلة بحيث كان يمكنه أن يصاب بخيبة الأمل بتماسه الفعلي مع المكان والناس. ولكن الواقع

فاق توقعاته، وما كتبه شعراً في بداية شبابه عندما لم يكن يعرف شيئاً عن روما كرره الآن نثراً في رسائله لأصدقائه.

كتب لبروكوبوفيتش (في ٣٠ آذار / مارس ١٨٣٧) يقول: «ماذا يمكنني أن أقول عن إيطاليا؟ إنها ساحرة، علماً بأن تأثيرها ليس مباشراً بل هو تدريجي. فكلما نظرت تعمقت أكثر فأكثر بجمالها الغامض. للسحب في السماء لمعان فضي غريب. أما الشمس فهي تشعل الأفق البعيد لدى غروبها. الليالي ساحرة، فالنجوم تلتمع هنا أكثر مما تفعل في الوطن، بل تبدو أكبر حجماً كأنها الكواكب. أما الهواء فهو نقي بحيث أن الأشياء البعيدة تبدو قريبة».

وكتب لدانييلفسكي (في ١٥ نيسان/ إبريل ١٨٣٧) حيث يقول: «يقع المرء بحب روما ببطء، شيئاً فشيئاً، ولكنه حبٌّ يستمر مدى الحياة. باختصار بقية أوروبا موجودة لتزورها فحسب، أما إيطاليا فهي لكي تعيش فيها».

وكتب لفارفارا بلابين (في ١٦ تموز/ يوليو ١٨٣٧) يقول: «كل من زار إيطاليا يمكنه أن يقول وداعاً لكل الأقطار الأخرى. فمن يزور الجنة لن يرغب على الإطلاق في العودة إلى الأرض».

ولجوكوفسكي يقول في رسالة (في ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٣٧): «إيطالياي الجميلة!

«إنها لي! لن يأخذها أحد مني. ولدت هنا. أما روسيا، وبطرسبرج، والثلج، والناس الأرذال والوزارات، وأساتذة الجامعات، والمسرح كلها كانت مجرد حلم. لقد استيقظت في وطني».

ولبتنييف كتب (في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٣٧) يقول: «ليس هناك قدر أفضل من الموت في روما. فالإنسان هنا أقرب إلى الله من أي مكان آخر».

وفي رسالة لماريا بلابين (في شهر نيسان/ إبريل ١٨٣٨) يقول: «إنها أرض روحي التي عثرت عليها من جديد، الأرض التي عاشت فيها روحي قبل أن

أولد. أي هواء! تنشّقه عميقاً وسيبدو لك وكأن سبع مئة ملاك على الأقل قد جاؤوا طيراناً إلى منخريك. أؤكد لك بأنني أشعر بدافع لا يقاوم لكي أحوّل نفسي إلى أنف هائل الحجم، دون عينين أو ذراعين أو ساقين. لا شيء باستثناء أنف ضخم، بمنخرين بحجم سطلين كبيرين لكي استنشق كل ما يمكنني من انبعاثات أنسام الربيع العطرة».

هوسه القديم بالأنف - المفصول عن الشخص وقد تحول إلى كيان كامل مستقل بحد ذاته، يتمشى في الشوارع الآن باحثاً عن أشياء جيدة ليشمها! طقس روما تلاءم مع جوجول بصورة كلية، إذ على الرغم من أنه أتى من منطقة طقسها قاسٍ في روسيا في فصل الشتاء فإنه لم يستطع قط أن يعتاد على البرد. أحيت الشمس أطرافه الكسولة ودفعت عنه أفكاره المرضية. وبدا له أن العمل والتفكير يصبحان ممتعين على السواء تحت هذه السماء ذات اللون الياقوتي الأزرق. المشهد في حد ذاته، بكتله المتوازنة بدقة يتمتع بسكون بحيث يبدو وكأنه رسم بريشة أحد الرسامين القدماء. سويسرا برمتها، بجبالها الفوضوية وكتلها المتجمدة وصخورها لا تساوي لمحة واحدة من ريف روما اللطيف، من أرض التوازن والنور هذه فقط يمكن أن ينبع عمل فني شفاف.

جوجول ذو الروح المعذبة، الذي ابتدع وحوشاً تفتح فمها، فغر فمه هو إعجاباً برافاييل. فقد برع رافاييل متجاوزاً كل الرسامين الإيطاليين في القرن الخامس عشر حيث مزج بين فنون عصر النهضة وفن الباروك مجتمعين. كما اعتقد جوجول بأن أي شيء لا يمكنه أن يتفوق على فن العمارة الكلاسيكي الذي بعثت أثاره في نفسه الرغبة في التأمل الهادئ. ذهنه الذي اعتاد على الممرات الظليلة التي تعوزها القياسات الدقيقة، وتعمها التنابذات أدهشته الهندسة النبيلة للآثار الرومانية. وبينما كان ينتقل من موقع أثري إلى آخر كان يتحرى في الحجارة «لقاء عصرين: الوثني والمسيحي واللذين يمثلان أعظم إلهامين في العالم» (كما يقول في رسالته السابقة إلى ماريا بالابين). بل إنه فكر فيما إذا خيّره الله لكي يختار لحياته وطناً له إما «عظمة ونبل» روما القديمة أو روما الحديثة «بآثارها»

لفضل روما الحديثة إذ إنه وجد في تآلفهما ما يبعث على السرور إلى درجة الإدهاش، ليس لأنه يرى في ذلك العمود المقطوع الذي يغطيه نبات اللبلاب وخلفه السماء والشمس منظراً أكثر جمالاً من أي بناء حديث، بل لأنه يحس إحساساً عميقاً بالسلام بين هذه المعالم من حضارة بائدة بحيث ينسى العالم المعاصر تماماً.

كان كلما هزته حركة وضجيج الحياة الواقعية كلما ازداد تعلقه بعدم الحركة والثبات اللذين يتسم بهما الماضي. وهو يقول لنفسه إن كل ما يتحرك ويتغير ويمضي إلى الأمام في عالم الفن أو السياسة إنما هو مظهر من مظاهر الشر. وأولئك الذين يركضون وراء المستقبل لا يملكون سوى الترهات والبشاعة في رؤوسهم. حركاتهم غير المترابطة تثير الضحك، والموسيقى الوحيدة التي يمكن لها أن تسرّي عن الروح إنما تنبع من أعماق العصور البائدة، ومسار الأيام في روما إنما يبتعد عن الواحة المقدسة ولاشك بأن المدينة تستحق لقب «المدينة الخالدة»، فهي تعيش خارج الزمن.

كتب لدانيلفسكي (في ١٥ نيسان/ إبريل ١٨٣٧) يقول: «لم أرَ في كل الأماكن الأخرى غير صور التغيير. أما هنا فقد توقف كل شيء في مكانه وهو لا يمضي إلى الأمام قط».

وبعطش لا يرتوي للاكتشاف أخذ يزور المتاحف والكنائس والقصور والآثار، ويحلم تحت ضوء القمر في الكوليسيوم (مدرج روما القديمة). يشهق لمرأى عمود من الحجر السمّاقي مرميّ في وسط سوق للسمك يعبق بالروائح النتنة، ويرتمي فوق آثار الحمامات والمعابد والأضرحة المبعثرة في أنحاء الريف، ويتعبّد لبانوراما الغروب في أعلى كومونة «فراسكاتي» أو بحيرة «ألبانو». ينحني أمام تماثيل محطمة ويتعبد بخشوع مماثل أمام قوس نصر أو أمام قوصرة[١] تغشاها طبقة من الدخان، أو شجرة غرست جذورها في جدران عتيقة، أو سوق مزخرف على نحو يعوزه الذوق وتحرسه تماثيل صامتة أو خصٌ لبائع شراب

(١) القوصرة: مثلث في أعلى واجهة مبنى.

الليمون خارج معبد «البانتيون»[1]. وفي غمرة نشوته أخذ يؤرخ رسائله بالعام (٢٥٨٨)، مبتدئاً من تاريخ إنشاء المدينة. وحتى مدينة روما الحديثة التي طعّمت على آثار مدن العهود السحيقة والقرون الوسطى ملأته حبوراً وغبطة إذ أخذ يشق طريقه فرحاً في الشوارع الضيقة المتعرجة، يتشمم عبير التوابل في الحوانيت ويبتسم لمرأى قطيع من الماعز يقضم العشب النامي بين الأحجار المرصوفة، أو تجمع لفتيان يرتدون ثياباً رثة ويستلقون تحت أشعة الشمس قرب نافورة يكركر ماؤها، ويرقب بإجلال رئيس دير للرهبان يرتدي قبعة ثلاثية الزوايا وحذاءً وجوارب سوداء وهو يتقدم لينحني أمام راهب «كبوشي» «يتوقد فجأة رداؤه الكهنوتي ذو لون وبر الجمل تحت ضوء أشعة الشمس»، ويتنحى جانباً أمام عربة كاردينال طليت ظلّتها بطلاء مذهب. هنا يبدو الفقر والقذارة وكأنما يلفهما رداء من جمال لا مثيل له. زقاق تغطيه ملابس الغسيل ذات الألوان المزركشة هو في نظره عمل فني خالد. سوق يعرض أكياساً وليموناً وأوراق نباتات وشموعاً يثير لديه الرغبة في أن يمسك بريشة يرسم بها ما يرى. الأحاديث التي تدور في الهواء الطلق، في الساحات والمقاهي ترنّ باعثة البهجة في أذنيْ الأجنبي. ويضيف في قصة روما إن «إفراغ الخزينة من المال والمناقشات في مجالس البرلمانات وشؤون إسبانيا أمور لا أهمية لها هنا». غير أن «المشاعر تصل إلى غاية احتدامها لدى الحديث عن اكتشاف تمثال قديم، وحول براعة الرسامين العظام، وعن مزايا عمل فنان جديد، مزايا تخضع لنقاش محتدم، أو عن الكارنفالات التي تجري في الشوارع. في مثل هذا النمط من الأحاديث الودودة يفصح المرء عن كل ما يعتمل في داخله على الفور، وهو ما استبدل في البلدان الأوروبية الأخرى بالجدل السياسي والهذر الاجتماعي الممل الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، بل إنه يمسح أية مشاعر حقيقية يمكن لوجه الإنسان أن يعبر عنها».

أحب جوجول سكان روما لإحساسهم الفطري بالجمال ولوقارهم الأصيل واحتقارهم للثروة السطحية ولتكاسلهم الذي يضارع كسل الأوكرانيين.

(١) قصة روما.

امتدح أحفاد مؤسسي روما القديمة لأنهم أفلتوا من ذلك «السم الجليدي» للحضارة الحديثة. ومن حسن حظهم، في رأيه، «أنهم عاشوا في ظل السلطة الاستبدادية للبابا جريجوري السادس عشر، وإن كانوا لم يخمنوا ذلك قط. إذ سيطرت عليهم سلطة صعبة الإرضاء تتدخل في شؤونهم، وحرموا من حقوقهم السياسية، وخضعوا لرقابة شديدة من الشرطة وكانت مكافأتهم هي تخليصهم من الهوس الممل بالشؤون العامة. فهل هناك ما يمكن أن يكون موضع حسد في مثل هذا الوقت، ومثل هذا العصر، في رأي جوجول، أكثر من هذه اللامبالاة الطفولية لشعب مضطهد؟

يقول في قصة روما: «ظلت هذه الحكومة الكهنوتية والتي تمثل ذلك الشبح الذي بقي على قيد الحياة للأيام السالفة، ظلت هذه الحكومة لكي تجنب الشعب التأثيرات الأجنبية، ولكي تحول دون أي محاولة يقوم بها جيران طامحون لكسر شخصياتهم المعتزة بنفسها بهدف تحقيق ازدهار لهؤلاء الجوار على حسابهم».

هذا التعظيم لجهود روما هو أمر غريب بالتأكيد، إذ لا يمكن لجوجول أن يكون جاهلاً بالحنق المتزايد الذي يعم البلاد برمتها على السيطرة النمساوية. وكان البابا جريجوري السادس عشر قد وجه نداءه إلى كل القوى الأجنبية أثناء انتفاضة الدويلات البابوية. فقد كان شديد التعصب ضد الأفكار الجمهورية ويمقت الزعيم الوطني «مازيني» الذي كان يبشر بالتحرير والذي أسس في المنفى رابطة «إيطاليا الفتاة». كما أدان كذلك «لامينيه» وصحيفته «المستقبل». وبدا له أن حركة التحرير الأوربية ليست أقل خطراً، في رأيه، من الوطنية الإيطالية. غير أن حركة التمرد كانت قد بدأت وأخذت كل مؤامرة تولّد مؤامرة تالية، وبدأ المنظرون والشعراء والناشطون يتجمعون سراً لمساندة حركة الاستقلال. غير أن جوجول الذي كانت الحقائق تحدق في وجهه قرر تجاهل هذا الجيشان الذي قد يتعارض مع فكرته حول سعادة شعب محميّ من هدير التاريخ. المفكرون فقط، في رأيه، هم الذين أصيبوا بهذا الداء السياسي، شأنهم في ذلك شأن أقرانهم في باريس. أما عامة الناس فكانوا من الحكمة بحيث فضلوا التعايش في

ظل الهدوء البطريركي. وهو يقول في رسالة إلى ماريا بالابين (في نيسان/ أبريل ١٨٣٨): «تملؤني الرغبة في معرفة هذا الشعب بعمق لتحري أعماق شخصيته. أراقب كل ظواهره عن كثب وأقرأ كل ما يعكس هذه الظواهر، ويمكنني القول إنه أول شعب في العالم وهب هذا القدر الرفيع من الإحساس بالجمال».

كان قد انتقل وأصبح يسكن في شارع «سترادا فليس ١٢٦[1]» في شقة وصفها بأنها في «عين الشمس تماماً». ونظراً لإصراره بألا يعيش كسائح أخذ يوسع من مفرداته الإيطالية حيث يتدرب على كتابة الرسائل بالإيطالية، ويدرس الأدب، ويتحدث إلى الناس العاديين الذين يعرفونه جيداً ويسمونه السنيور نيكولو. وباتصاله بهم أخذ يقتنع بأن إيطاليا، ببقائها بعيدة عن بقية أوروبا ستلعب دوراً متألقاً في المستقبل. صحيح أن البلاد منقسمة وضعيفة حالياً ولم يبق شيء من تألقها وسطوتها الماضية إلا أن إخفاقها في الواقع المعيش إنما توازنه رسالتها التبشيرية الحاسمة في الميدان الأخلاقي. إنها متراس حيّ في وجه المادية الباردة التي تهدد الشعوب الأخرى، وديمومتها المتألقة إنما تذكر الفرنسيين والألمان والإنجليز بأنهم أخطؤوا حين سمحوا لأنفسهم بالانغماس في تفاهات السياسة بدلاً من أن يركزوا أنظارهم على الفن والإيمان. ومن وجهة نظره هذه فإن الإيطاليين يتشابهون في أمور عديدة مع الروس الذين أفلتوا، في رأي جوجول، من بلاء التقدم. وقال لنفسه إن الله قد أوكل دونما شك، مهمتين متماثلتين لتحقيق الخلاص لتلك الأمة الشمالية وتلك الجنوبية الصغيرة أيضاً. ولهذا فهو يشعر، ولهذه الدرجة بأنه في وطنه وهو يتمشى في شوارع روما.

من الغريب أنه، كأوكراني، يمثل البولنديون الأعداء المتوارثين له كان يفترض بأنه لا يملك إلا أن يشعر بانعدام الثقة بالكنيسة الكاثوليكية. غير أنه، على الرغم من كونه وطنياً وأرثوذوكسياً، فقد جذبه جلال روما واعتدال ديانتها. كان جمال الأعمال الفنية هو الذي جذبه أولاً للكنائس، وافتتانه بروما

(١) سمي شارع سترادا فيليس فيما بعد باسم فياسيستيا. وهنالك لافتة من الرخام عند المنزل الذي ما يزال يحمل الرقم ١٢٦ تشير إلى أن جوجول عاش هنا».

الكلاسيكية البابوية هيأه للإحساس بعظمة أماكن العبادة. وقد كتب لصديقته الشابة ماريا بالابين (في نيسان/ إبريل ١٨٣٨) يقول: «قررت هذا اليوم دخول إحدى كنائس روما الجميلة التي تعرفينها تمام المعرفة وتغلغلت داخل الظلال المقدسة حيث تشع الشمس من أعلى قبة بيضاوية لتسقط على وسط الكنيسة كأنها الروح القُدُس. شخصان أو ثلاثة راكعون لا يشتتون انتباهك على الإطلاق، بل يضفون أجنحة تحلق بالصلاة والتأمل. صليت من أجلك هناك، إذ في روما يستطيع المرء أن يصلي حقاً. أما في المدن الأخرى فلا يمكن للمرء إلا أن يتظاهر بأنه يصلي. فالصلاة في باريس أو لندن أو سانت بطرسبرج هي صلاة في السوق».

غير أن أفكاره اتضحت رويداً وأدرك ما يفرق بين المسيحية الروسية ومسيحية روما. فالكنيسة الأرثوذكسية هي نوع من الإدارة المهيبة التي تحجرت في طقوس قائمة منذ القدم دون أن تكون لها سلطة مباشرة على أرواح الناس. أما كنيسة روما فهي، بفضل كهنوتها، إنما هي مؤسسة حية محاربة موجودة في كل مكان ويصل نفوذها إلى ما يتجاوز الحوزة المقدسة ليتسلل إلى البيوت ويوجه حياة الأفراد مباشرة. كلتاهما تدعيان بأنهما سليلتا المسيح. وتهدف الأولى للحفاظ على سرّه المغيب بينما تسعى الثانية لجعله مفهوماً من الجميع. فأيهما أكثر قيمةً؟ سؤال سخيف وجوجول يرفض الاختيار . أما أمه القلقة فما إن عرفت عن غزله مع الكنيسة الكاثوليكية حتى أخذت تستحلفه بأن يبقى وفياً لديانة أجداده. وهو يجيبها في رسالة لها (في ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٣٧): «كنت مصيبة تماماً حين أبلغت أولئك الناس بأنني لن أغير دیانتي. هذا صحيح تماماً إذ إن ديننا والديانة الكاثوليكية شيء واحد ولا داعي للتغيير من إحداهما إلى الأخرى، وكلتاهما صادقتان».

غير أنه وهو يراجع «تاراس بولبا» لنشرها في طبعة جديدة أضاف وصفاً لصلاة من أجل شفاعة مقدسة يغنيها البولنديون المحاصرون. وقد تحدث في هذه الفقرة عن نبل المراسم الدينية، وتلاعب نور الصباح عبر النوافذ ذات الزجاج

الملوّن، وعن موسيقى الأوغون الرائعة:»وقف أندريه وهو يفغر فاه وقد ألجمه الإعجاب». وهو يعترف باللاوعي ثانية هنا بأهمية الظواهر الخارجية في إيمانه. فتصوفه مبني على أسس جمالية أساساً، إنه نوع من الميل للاستجابة للأمور الغامضة اللاأرضية ولا علاقة لها بمسائل العقيدة.

هذه الحساسية إزاء الحضور المقدس كانت محلّ تقدير من صديقاته من النساء. كان لفارفارا أسيبوفنا بالابين ابن يتبع الطائفة اليسوعية. أما ابنتها ماريا فعلى الرغم من كونها أرثوذكسية غير أنها كانت تواظب على التردد على الكنائس الكاثوليكية. كما أنه، بعد وصوله إلى روما بوقت قصير التقى جوجول بالأميرة «زينايدا فولكونسكي» التي أطلق عليها المعجبون بها في وقت من الأوقات اسم «كورينا[1] الشمال»: وهذا يعني امرأة تتمتع بالموهبة والثقافة. شاعرة وموسيقية ومغنية حافظت، وهي في الخامسة والأربعين على ملامحها الوسيمة وعلى مزاجها الملتهب. كان الإمبراطور ألكسندر الأول يكن لها معزة خاصة، كما احتفى بها بوشكين في شعره. وبعد أن تألقت في البلاط وفي كل تجمع يتقرر فيه مصير أوروبا انزوت في موسكو واعتنقت العقيدة الكاثوليكية. وما إن اعتلى نيقولاس الأول العرش حتى أوفد رجل دين أرثوذكسي إليها في الحال لكي يعيدها إلى الكنيسة الأرثودكسية. أزعجتها اعتراضاته وسببت لها المرض غير أنها لم تغيّر فكرها. وبعد أن تماثلت للشفاء غادرت روسيا واستقرت في روما على نحو دائم في فيلا بديعة في المرتفعات خلف «القديس جون لاتيران». كان هناك مجرى ماء روماني يعبر حديقتها، وكانت أشجار الكرمة والسرو تحيط بالفيلا التي بنيت مقابل برج قديم. تمتد الإطلالة إلى مسافات بعيدة فوق المدينة الخالدة التي كانت آثارها تطفو، وكأنها لا تستند إلى قاعدة، خلف سحابة تميل إلى اللون الأزرق. وتحت شجرة ينتصب تمثال نصفي يشبه في ملامحه الملامح الصلبة لألكسندر الأول الذي كان قد شرّف الأميرة بصداقته. وفي مكان قريب داخل حوض للزهور «إناء دفن تكريماً لذكرى الشاعر الشاب» فينيفيتيفوف»،

(١) كورينا: شاعرة يونانية قديمة.

وألواح من المرمر تكريماً لكل من بوشكين وكارامزين. كان هذا المدفن الصغير لعظماء الأمة الخاص بسيدة البيت. في بيتها أقام جوجول علاقة ودية مع «ستيفان شيفرييف» أستاذ الأدب الروسي، والناقد المحب للثقافة السلافية وصديق بوجودين. كانت الأميرة تحب جمع أصحاب العقول الكبيرة، لتراقب الشرر المتطاير نتيجة لمواجهتهم ببعضهم بعضاً. وكان أصدقاؤها من أهل روما يطلقون عليها لقب «بيتا» نظراً للحماس الشديد الذي أبدته لاعتناقها عقيدتها الجديدة. وقد وصفت قاعة الاستقبال لديها بأنها تشبه مكتباً فرعياً للفاتيكان. وأعضاء الأرستقراطية الروسية الذين كانوا يترددون عليها كانوا سيلتقون هناك بالتأكيد بعدد من أفراد الكهنوت، الصائدين الصبورين والمتملقين للنفوس. كما حمت الأميرة زينايدا فولكونسكي رجال الدين البولنديين الذين فروا إثر انتفاضة عام (١٨٣٠). وقد أخذ اثنان منهما، وهما «بيتر سيمينينكو» و»جيروم كاجيويش»، أخذا على عاتقهما إقناع جوجول باعتناق الكاثوليكية. كانا يريانه في كثير من الأحيان في حفلات العشاء في فيلا الأميرة. وقد راق لجوجول بشدة الترحيب الحار الذي كان يلقاه لدى الأمير وأطايب الطعام التي تمد على الموائد. كما وجد في حضور هذه الأميرة الكريمة التي تبدي سلطة واضحة أمراً يبعث فيه شعوراً بالراحة خصوصاً أنه كان يعيش في حالة فقر.

يقول سيمينينكو في رسالة «لبوجدان يانسكي» (في١٧ آذار/ مارس ١٨٣٨):

«سرنا حديث جوجول، فله قلب نبيل، وهو علاوة على ذلك شاب. فإن تمكنّا من زيادة تأثيرنا عليه في الوقت المناسب فإنه لن يبقى يصم أذنيه عن الحقيقة وسيستلم أمامها بكل روحه، والأميرة تتعلق بهذا الأمل وقد رأينا بأنفسنا اليوم أن هذا هدف ممكن التحقيق».

أما كاجيويش فهو يقول في مذكراته: «صادفنا جوجول، وهو كاتب روسي موهوب من أصول أوكرانية، وقد أبدى منذ البداية ميلاً قوياً للكاثوليكية».

لم يقنع البولندیان التقيان برؤية جوجول على مائدة الأميرة فولكونسكي فحسب بل تابعا حملتهما حتىٰ عتبة داره. رحب بهما عرفاناً منه وأخذ يتبادل الحديث معهما لساعات حول دور المسيحية في مجتمع المستقبل. غير أن القسين ما لبثا أن غيّرا مخططهما وأخذا يزورانه فرادى، إذ إن الحديث بين اثنين، كما قال سيمينينكو في رسالة له إلى بوجدان يانسكي (في ٢٢ نيسان/ إبريل ١٨٣٨) «من شأنه أن يؤدي إلى بوح أفضل للطرفين». بل إن كاجيويش كتب أغنية على شرف جوجول يقول في آخر شطر فيها: «لا تغلق روحك أمام ندى السماء».

لم يستسلم جوجول على الفور على الرغم من كل الإلحاح. بل إن الأميرة فولكونسكي انزعجت لتسويفه. فقد كانت مغرمة بالهداية إذ كانت تعتقد أن عليها تخليص الأرواح، تماماً كما ترى النساء الأخريات مغرمات بكسب القلوب. كانت قد بدأت بالفعل بالإيقاع بابنها الذي كان ما يزال هنالك خيط رفيع يربطه بالأرثودوكسية. وقد أيد جوجول مسعاها هذا، ويقول سيسينينكو في رسالته سالفة الذكر: «أخبرتنا أنها حين أبلغت جوجول بنواياها إزاء ابنها اهتم بالموضوع وشجعها في مسعاها آملاً أن تنجح في هدايته». لماذا كان يفكر هذا الأوكراني العنيد بأن من الحكمة أن يعتنق أميرٌ شاب العقيدة الكاثوليكية في الوقت الذي يرفض فيه هو نفسه أن يدخل حظيرة هذه العقيدة؟ لم تستطع زينايدا فولكونسكي حلّ هذه المعضلة وأخذت تحث القسيسين على تكثيف حملتهما. غير أنهما أصرا على أن من الواجب ألا يجبر متنصر على مشاعر معينة. أما جوجول فقد كان يتحرك براحة ضمن جو هذه المؤامرة الورعة. ولأنه موضع الرهان في هذه المفاوضات الودية، فقد كان يتلذذ بالتلميحات المستترة والتلويح الخفي والتأمل الجماعي حول الأسفار المقدسة. كان من الصعب عليه أن يتخلى عن طريقة تربيته وماضيه وعقيدته مرة واحدة. غير أن تمسكه بالأرثوذكسية وهو يلعب في الوقت نفسه على نغمة التحول إلى الكاثوليكية ويعبث متسلياً بديانة أخرى دون أن يهجر ديانته، كل ذلك كان يدغدغ ذهناً يبحث باستمرار عن كل ما هو جديد. أجاب على زينايدا فولكونسكي وأولئك الذين يتبعونها بموقف صلب وإن كان يتسم بالرقة.

وكأنما ليوازن هذا الجانب الراقي من حياته الاجتماعية كان جوجول كثيراً ما يتردد على مقهى «جريكو» المليء بالدخان ليلتقي بالرسامين الروس الشبان الذين يدرسون بمنح من أكاديمية الفنون الجميلة في بطرسبرج. كان هذا المقهى بمثابة مكتب بريد لهؤلاء الشبان، تملأ جدرانه أعمال المفلسين منهم، وهم يمثلون الغالبية حيث يرسمون على تلك الجدران لقاء ديونهم. كان البعض من هؤلاء يشربون نبيذ شيانتي[1] والبعض الآخر القهوة السوداء الكثيفة، ويتجادلون بانفعال شديد وهم يسندون أكواعهم على الموائد.

كان هؤلاء الشبان ذوو الذقون والشعر الطويل والذين يعتمرون القبعات العادية أو تلك المصنوعة من الفرو يقدمون التضحيات على مذبح الجمال. بين هؤلاء كان «يودان»، الشاب الهادئ المكافح، و«مولر» الانيق الساحر ابن وزير الأسطول، وقبل كل هؤلاء الكسندر إيفانوف الذي أقام معه جوجول علاقة صداقة. كان الفن يمثل بالنسبة إلى إيفانوف عبادة للزهد. فبمعدة جائعة وعقل محموم يرفض أية عمولات، كما يرفض النجاح السهل ويكرس نفسه لرسم لوحة فريدة ضخمة الحجم عنوانها: «المسيح يظهر امام الملا». كانت هذه اللوحة عبارة عن جهد هائل يمثل بحثاً فلسفياً شاملاً، وتركيباً بالألوان الزيتية. هذا الجهد كان يلتهمه حياً. الفكرة هي إلهام من الله، وتنفيذها مستوحي من كل من «رافاييل» و «فيرونيز» و «تيتيان» و»تنتوريتو». كان يعتبر أنه مكلف بمهمة مقدسة ولم يكن يحسب للوقت حسابه. لا يرضى عن عمله قط ويبدأ العمل عليه من جديد مرة بعد مرة حيث يراكم الرسوم ويحاول الوصول إلى الكمال في آلاف الدراسات التمهيدية التي يمكن لها وحدها أن تملأ معرضاً كبيراً كاملاً. كان يذهب إلى كنيس روما كل يوم جمعة مثلاً لرصد الوجوه اليهودية، ويضع حامل الرسم في مستنقعات بونتين المليئة بالأمراض والتي كان من شأنها أن تستخدم لخلفية المجموعة. وقد رسم نسخاً لا تعد ولا تحصى لرأس تمثال أبولو[2]، ولمسيح بيزنطي عثر عليه في باليرمو آملاً أن يتمكن من خلال تراصف سيماء الوجهين أن يتوصل إلى الملامح التي يريدها ليوحنا المعمدان.

---

(١) الشيانتي: نبيذ أحمر هو الأشهر في إيطاليا.

(٢) أبولو: المصنوع من المرمر المكتشف في القرن الخامس عشر.

كان جوجول يحب زيارة الاستديو الخاص به، وهو عبارة عن غرفة كبيرة يضيئها نور السماء، تغطي جدرانها رسوم بالفحم والباستيل. تملأ أرضيتها أطباق من الورق عليها رسومات تخطيطية، وأنابيب الألوان الفارغة، وفراشٍ وخرق ملطخة بالألوان الزيتية. وفي كل زاوية صناديق مليئة بالورق، وعلى صقالة ضخمة صنعت خصيصاً تتركز اللوحة: بمساحة ¾ ١٧× ½ ٢٤ قدم وفي المقدمة يوحنا المعمدان وهو يرفع يديه بعد أن وُعظ وعُمّد، ويحيط به جمع من الرجال العراة وهم يصعدون من نهر الأردن أو يستعدون للنزول إلى الماء، بينهم عدد قليل ممن يلبسون أردية فضفاضة، هم حواريو المستقبل. وعلى البعد هنالك المسيح وهو يمشي على سهل قاحل. قلائل كانوا قد رأوه وآخرون يستشعرون قدومه. غير أن هنالك آخرين ممن كانوا يتساءلون حول معنى الكلمات الغريبة «للبشير» الذي قال: «انظروا إلى حمل الله الذي ينتزع ذنوب العالم[1]». كانت الأشكال قائمة في اللوحة وقد رسمت خطوطها الخارجية بشكلٍ واضح مع لمسات قليلة من الألوان. كان إيفانوف يرتدي «وزرة» ملطخة بالألوان وشعره المشعث ينسدل على كتفيه ولحيته الكثيفة الملطخة بالألوان. لابدّ أنه لم يحلق منذ أسبوعين. كان يحمل لوحة الألوان باليد اليسرى والفرشاة باليمنى ويحدق بلوحته بنظرة يملؤها اليأس.

كان على جوجول أن ينتظر حتى يخرج إيفانوف من تأمله قبل أن يبدأ بالكلام. إنه يتفهم عذابات روحه، فقد خاض التجربة نفسها وهو يعمل على نفوس ميتة ويبحث عن الكمال في هذا العمل. كان يشير إلى نفسه حين كتب لاحقاً في كتابه «مقاطع مختارة من مراسلاتي مع أصدقائي «حيث يقول: «أي كاتب يتحول كتابه بإرادة الله إلى جهدٍ روحي حقيقي لا يمكنه أن يقوم بأي مهمة أخرى. وهو لا يعرف أي تقطّع في جهده، ولا يمكن لأفكاره أن تشرد لأي موضوع آخر مهما حاول أن يقسرها أو يجبرها على ذلك، مثلما لا تستطيع

(١) الإنجيل وفقاً لإصحاح يوحنا.

زوجة مخلصه حقاً لزوجها أن تحب رجلاً آخر فيما بعد، أو أن تبيع حبها لأحد آخر لقاء المال حتى لو أمكنها من خلال ذلك أن تخلّص نفسها وزوجها من الحاجة».

كان جوجول يناقش مع إيفانوف شكوك كل منهما وحاجتهما لتحضير مطول لأي عمل من أعمال الخلق الفني. غير أنه، وعلى الرغم من أن روح التضحية قوية لدى كل منهما فقد كانا يختلفان حول أمور هامشية، بل من الصعب أن نجد شخصيتين أكثر اختلافاً فيما بينهما مما هو بين ذلك الرسام الصريح صعب الإرضاء، سريع الغضب، وذلك الكاتب المراوغ العليل. بدأ جوجول نفسه يرسم مقتدياً بإيفانوف، ومولر، ويوردان. وكان يطوف بشوارع روما وهو يحمل دفتراً للرسم وألواناً مائية، ولم يكن يشعر حين يرسم نسخة عن منظر طبيعي أو أثر قديم بأنه يسرق وقتاً من نفوس ميتة.

كان الكتاب يتقدم على نحو متقطع حيث يعمل على الكتاب في الصباح وهو يقف أمام منضدته المرتفعة. ولكن أشعة الشمس وهي تضرب عبر شراع النافذة وأصوات الجوار الصاخبة والباعة وهم ينادون على بضائعهم بأصوات مرتفعة، وصوت يُعار الماعز، كلها كانت تغريه بالخروج، فيترك قلمه لأي عذر منتحل. علاوة على ذلك فالسرعة أمر غير قائم بالنسبة إلى عمل بهذه الأهمية. فالتماسك، في رأيه، هو ثمرة التأمل الطويل وهو، شأن إيفانوف، لا يستطيع أن يرى نهاية لمهمته، وشأن إيفانوف أيضاً فهو يرفض أن يسمح لنفسه بالتحول عن قصده الأصلي سعياً للحصول على الربح. فهو يعتقد، كما يفعل إيفانوف، بأن العناية الإلهية هي التي تلهمه. وكان يجيب على أصدقائه في سانت بطرسبرج وموسكو والذين يحثونه على الكتابة لصحفهم بأن من الإثم أن يطلبوا منه مثل هذا الطلب. ولكنه كان يتوسل إليهم في الوقت نفسه بأن يمدوه بالمال. فمتاعبه المالية كانت تزداد حدةً والكتب التي طبعت في روسيا لم تكن تدر عليه شيئاً، وكان قد باع حقوقه بالمسرحية إلى الأبد. وحين ضاقت به السبل كلها تحول إلى أصدقائه في روما يستدين من أحدهم لكي يسدد ديونه لآخر. غير أن علاقته

بالرسامين الشبان الذين يعيشون على منح حكومية ولّدت لديه فجأة فكرة طلب منحة لنفسه. أليس هو فناناً أيضاً يلزمه المناخ الإيطالي بالضرورة لتطوير فكره. وكان قد كتب لجوكوفسكي منذ (١٨) نيسان/ إبريل ١٨٣٧ يقول:

«لو أنني رسام، حتى وإن كنت قليل القيمة، لكانت عيشتي مضمونة علماً بأن بعضهم لا يستطيعون أن يرسموا كما أرسم، وهم يحصلون مع ذلك على ثلاثة آلاف روبل في العام. ولو كنت ممثلاً فلن أقلق على الإطلاق فالممثلون يتلقون عشرة آلاف روبل أو أكثر في العام، وأنت تعرف بأنني لم أكن لأصبح ممثلاً سيئاً. ولكنني كاتب وعليّ بالتالي أن أموت جوعاً. لقد فكرت وفكرت ولم أستطع التوصل إلى حل أفضل من أن أطلب من الإمبراطور، وهو يميل لي ميلاً حسناً، وسأذكر حتى يوم موتي الاهتمام الذي أبداه تجاه «المفتش العام». لقد كتبت رسالة ضمنتها مع رسالتك هذه فإن وجدت نصّها جيداً فأرجو أن تقدمها بنفسك، وأن تتوسط من أجلي. أما إن وجدت النص رديئاً فإنني أعتمد على شهامة نفسه إذ لابدّ له من أن يغفر لشخص متواضع من رعاياه. قل له إنني غير مثقف وإنني لا أعرف كيف يمكنني أن أكتب لإنسان رفيع مثله، ولكنني أمتلىء بالحب الذي لا يمكن إلا لروسي أن يكنّه لمليكه. وإذا كنت أتجرأ على التوسل إليه بطلبي هذا فإنما ينبع هذا من معرفتي بأنه يحدب علينا وكأننا جميعاً أطفاله هو. لو أن لديّ منحة مثلما يحصل عليه طلبة أكاديمية الفنون الذين يعيشون في إيطاليا، أو أولئك الشماسون الذين يخدمون كنيستنا هنا في روما لأمكنني أن أبقى هنا فترة أطول، فتكاليف الحياة في هذه البلاد رخيصة جداً. تحيّن الفرصة والوسيلة اللتين يمكنك خلالهما أن تحدث الإمبراطور حول قصصي: «ملاكو الأراضي في العالم القديم» و»تاراس بولبا» فهما قصتان ممتعتان يحبهما الجميع وتناسبان مختلف الطبقات. أما الأخطاء التي يتضمنها نصاهما فلم يلحظها أحد سواك، أنت وأنا وبوشكين. لو أن القيصر يقرؤهما فهو يتجاوب تجاوباً تاماً مع الأعمال التي تعبر عن دفء في العاطفة وتنبع من الروح! يا إلهي، هنالك ما يقول لي بأنه سيهتم بمصيري. ولكن دع الأمور لله فعليه أولاً، ثم عليك أعلّق آمالي».

لم يتمكن جوكوفسكي من الحصول على المنحة التي يتحرق لها جوجول ولكن استرحامه دفع بالإمبراطور لإرسال خمسة آلاف روبل لجوجول والذي سرعان ما تعالى صوته بالإنشاد حيث كتب لجوكوفسكي (في ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٣٧) يقول: «تسلمت الهبة التي منحني إياها الإمبراطور المعطاء، وصدري يمتلئ عرفاناً ولكنه لن يتدفق بحيث يقطع كل الطريق حتى عرشه. فقيصرنا، شأنه شأن الله تعالى، ينثر جوده على المدى بيديه كلتيهما ولكنه لن يسمع ما نردده من شكر. غير أن عمل شاعر مسكين قد يصل إلى الأجيال القادمة ليضيف مسحة أخرى محببة إلى عظمة مليكنا. ولكن عرفاني يمكن أن يصل إليك، فأنت، أنت بالذات وعيناك المحببتان ترعيانني على الدوام».

مع التراخي المؤقت لضغوطه المالية ألقى بنفسه في أحضان الكسل بحيث تضاءلت هواجسه عما كانت عليه من قبل، وأينع تراخيه الأوكراني تحت شمس إيطاليا وغرقت «نفوس ميتة» في أعماق المستنقع. وعندما جفت موارده المالية من جديد توجه بتوسلاته إلى بوجودين حيث يقول (في رسالة في ٢٠ آب/ أغسطس ١٨٣٨): «إن كان لديك مال فأرجو أن ترسل لي كمبيالة بمبلغ ألفي روبل وسوف أسددها لك في غضون عام أو ثمانية عشر شهراً».

جمع بوجودين وأكساكوف وعدد قليل من أصدقائه في موسكو ما توفر لهم وتمكنوا، بصعوبة، من تأمين هذا المبلغ وإرساله. وقد أثار ذلك مشاعره إلى درجة البكاء، وكتب لبوجودين (في الأول من كانون الأول/ ديسمبر ١٨٣٨) يقول: «أشكرك يا صديقي العزيز، صديقي الوفي! اهتمامك بي مسّني إلى أعماق روحي. يا لهذا الحب، ويا لهذا العطف! لماذا يحبني الله لهذه الدرجة؟ يا إلهي، لست أهلاً لهذا القدر من الحب! ماذا فعلت لأستحق كل هذا؟ موهبتي هشة جداً! لماذا لم أعط الصحة؟ لقد تنامى شيء ما في هذا الرأس وهذا القلب، فهل من الممكن ألا أمنح الوقت الذي يمكنني من التعبير حتى عن نصف ما تولّد من صور في ذهني؟ أعترف بأنني قلق على صحتي».

كان يحنق على رفض جسمه أن يسمح له بنسيانه. . ليته كان روحاً مجردة، غير أن كركرات وأوجاعاً والتواءات مشبوهة كانت تجبره في كل لحظة على الالتفات للحقائق المتعلقة بجسده. لا شك بأنه لم يخلق مثل بقية البشر في هذا العالم. إن أحشاءه وأعصابه وأوعيته الدموية وعظامه رتبت كلها على نحو عجيب وفريد من نوعه - بحيث تمثل كلها تحدياً للمهنة الطبية. الأدوية العادية لا تؤثر فيه وعليه أن يبتدع علاجاً خاصاً به، إذ لا يمضي به يوم دونما آلام، وأكثرها إزعاجاً هو عدم قدرته على التعرق. فجلده يبقى جافاً حتى في حرارة منتصف النهار. أمعاؤه تغلي. أما الأطباء فظلوا يتحدثون عن شكاوى تتعلق بالبواسير. ماذا يعرفون عنه؟

كتب لبروكوبوفيتش (في ١٩ أيلول/ سبتمبر ١٨٣٧) يقول: «أخشى حالة توهم المرض وهي حالة تتربّص بي. معدتي في أسوأ حال وترفض كلياً هضم الطعام على الرغم من أنني آكل باعتدال. عاودني الإمساك الناشئ عن البواسير وإن لم أخرج فإن ذهني يحس بأن هناك غشاوة تغلفه طوال النهار مما يمنعني من التفكير ويلف أفكاري بالضباب. معدتي ثقيلة وجيبي خفيف».

وكتب لدانييلفسكي (في ١٦ أيار/ مايو ١٨٣٨) يقول:»ساعدني في اختيار شعر مستعار أو طلب هذا الشعر، إذ أشعر برغبة في حلق شعري - لا لكي ينمو بل لأن ذلك يساعد في تعرقي، وقد يساعد على إلهامي بعد أن يتحرر رأسي. لقد وهن إلهامي وكثيراً ما أشعر بأن سحابةً ثقيلة تغطي رأسي وأحاول جاهداً وباستمرار أن أبددها. غير أن أمامي الكثير مما يجب عليّ أن أفعله».

أما للأمير «فيازمسكي» فقد كتب (في ٢٥ حزيران/ يونيو ١٨٣٨) يقول: «أفادتني إيطاليا في تمديد أجل حياتي ولكنها لم تستطع أن تحطم الشر الذي يتحكم باستبداد طاغ بجسمي وأصبح وكأنه طبيعة أخرى لي. وماذا إن لم أتمكن من إنهاء عملي؟ يا إلهي! أهلك هذه الفكرة المريعة! إنها تغرقني في عذاب أرجو من الله ألا يعاني أي مخلوق من عذاب مثله».

غير أنه بين كل هجمتين من هجمات هذا الكرب ، يواجه الوضع بإحدى حالتين: فقد يُرى في لحظة ما صامتاً منهوكاً ، عيناه مريعتان ، يضع يده فوق معدته . ثم ما يلبث أن يُرى في لحظة أخرى وهو يشرق تفاؤلاً ، يرتدي ملابس غربية ، يمشي بخطا رشيقة ، يتحدث بنشاط ويرسل ضحكات مجلجلة ويفرط في شهيته . كان من المداومين على مطعم «تراتوري» . أنفه الطويل يستكشف رائحة الطعام الطيب وهو يرتعش ولا يكاد يستطيع انتظار الأطباق التي سيختارها .

كتب لبلتنييف (في ٣١ ديسمبر/ كانون الأول ١٨٣٨) يقول: «أتعشى حالياً في مطعم «فالكوني» قرب «البانثيون» حيث يماثل لحم الخروف المشوي ما نجده في القوفاز ، ولحم العجل هنا ألذ مما نجده في أي مكان آخر . كما أنهم يقدمون «الكروستاتا» (حلوى عصير الفاكهة) مع الكرز والتي يسيل لها لعاب أي خبير بالطعام لثلاثة أيام متتالية» .

وقد يلمح في بعض الأحيان بعد أن ينهي وجبة هادئة وفيرة زبوناً آخر يبدأ بتناول وجبته . وهنا يتدفق اللعاب في فمه من جديد ويطلب نفس الأطباق التي طلبها ذلك الزبون ، ويبدأ من جديد (كما يروي «زولوتاريف» ونقله عنه «أودويوفسكي») . وقد «يدلّل» نفسه ثانية في بعض الأحيان لدى عودته إلى البيت لإدخال الحيوية على مسائه فيتناول حليب الماعز المغلي مع السكر وشراب الروم . غير أن معدته ما تلبث أن يصيبها «التلبّك» إثر هذه الحفلات المهلكة فيقسم على اتباع نظام غذائي صارم منذ ذلك الحين ، إلا أنه ما يلبث أن يعود إلى نهمه حال زوال هذه الأوجاع . وهكذا كانت تمضي به الأمور ممزقاً بين حبه للأفكار العظيمة وغرامه بالأطباق الشهية ، بين إجلاله لإيطاليا الخالدة وحنينه لروسيا التي تعافها نفسه ، بين عبادته لكل ما هو جميل وبين ولعه بتصوير ماهو قبيح . بين ادعائه الصدق وحاجته للشكوى والكذب والتملص من أحكام معاصريه . وأصدقاؤه ، الذين يعتقدون أنهم يعرفونه جيداً لم يكن بإمكانهم أن يتأكدوا من الوجه الذي سيرونه في ذلك اليوم: هل سيرون البطين أم الزاهد ، الواعظ أم الوحش المفترس في لعبة البلياردو .

لم يكن قادراً على احتمال الوحدة، ولذلك، وما إن حلّ في روما حتى أخذ يلحّ على دانييلفسكي لكي ينضم إليه. وما لبث أن شاركه شقته في «سترادا فيليس ١٢٦» ولفترة وجيزة الشاب «زولوتاريف». ولكنه، وإن كان يعتبر «المدينة الخالدة» وطنه الثاني فقد كان كثيراً ما يهرب منها. في شهر تموز/ يوليو ١٨٣٧ التحق بمجموعة من الأصدقاء، بمن فيهم اليكساندرا سميرنوف، في بادن -بادن حيث شرب عدداً لا يحصى من كؤوس الماء المثلج، ومشى متمهلاً في ممرات الحديقة العامة إلى جانب تلك الشابة، ووافق على أن يقرأ لجمهور من المهتمين الفصول الأولى لنفوس ميتة.

كان على وشك القراءة أمام حلقة من معارفه حين انفجرت عاصفة رعدية عنيفة وشق البرق كبد السماء وهطل المطر مدراراً على النوافذ وانهمرت سيول في المنحدرات فوق المنزل. توقف جوجول عن القراءة وقد انتابه القلق، ولكنه ما لبث أن استأنفها. ولكنه تخلّى عن ذلك وطلب من «أندريه كارامزين» أن يرافقه إلى البيت - نظراً لوجود كلاب هائجة تطوف الشوارع كما قال. وقد كتبت السيدة سميرنوف تقول: «لم تكن هناك أية كلاب، غير أنني أعتقد بأن العاصفة أثارت أعصابه الهشة، إذ كان يعاني من حالات قلق لا تحتمل من النمط الذي يبتلى به من يعانون من حالات عصبية».

توجه من بادن بادن إلى ستراسبورج وكارلسروهه ثم فرانكفورت وجنيف حيث التقى بدانييلفسكي وميكيويش وبعد ذلك أخذ زلاجة لتنقله عبر ممر «سمبلون» إلى إيطاليا.

كتب لأمه (في ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٣٧) يقول: «كانت كتل الجبال المقفرة تلك تمر على طول الطريق عبر نوافذ العربة. الشلاّلات المتلألئة تصمّ آذاننا وتغرقنا في ضباب من الرذاذ. صعدنا لنصف يوم أحد الممرات باتجاه ممر سيمبلون عبر طرق متعرجة ضيقة تشرف على سلاسل أخرى من الجبال. وفجأة وجدنا كل شيء تحتنا. وما لبثت أن تقلصت القمم التي كنا لا نستطيع رؤيتها

إلا ونحن نطاول أعناقنا وأصبحت القمم والوهاد والشلالات تحت أقدامنا. كان الطريق يمضي أحياناً عبر الجبل عن طريق ممرات حفرت في الصخر».

خلّفوا الثلج وراءهم وانتقلوا إلى عربة بأربع عجلات، ودار رأس جوجول دهشة للسطح المصقول الذي ينمّ عن العظمة لبحيرة «ماجيوري». أما حيوية «ميلانو» فقد ذكرته بباريس. قام بزيارة خاطفة لفلورنسا التي وصفها في قصته «روما» بأنها «مدينة صغيرة ذات جمال لاذع». ووصل في النهاية إلى روما التي يحسّ بأنه اختارها ليعيش فيها باعتبارها المكان الوحيد على الأرض الذي يشعر سكانه بأنه ليس هناك ما قد يجعلهم يغبطون أحداً آخر على عيشته.

غير أنه ذهب في العام التالي إلى نابولي حيث عبّر بالطبع عن إعجابه بالخليج الهادئ وجباله الضبابية، وبجبل «فيزوف» الذي يعلو منه الدخان وبالريف المحيط. تمشى في الشوارع الضيقة، وتوجه إلى كابري، وقام برحلة بالقارب إلى مغارة «بلو جروتو». وهو يقول في رسالة إلى أمه في (٣٠ تموز/ يوليو ١٨٣٨): «تسللنا إلى داخل المغارة في الزورق وقد طأطأنا رؤوسنا، ومالبثنا أن وجدنا أنفسنا تحت سقف مقبب ضخم يغطينا ظلام دامس كلياً تقريباً. غير أن الماء كان مضيئاً بلون الياقوت الأزرق الغامق بحيث يبدو كأنه مضاء من الأسفل بشعلة زرقاء». أقام في فيلا الأميرة ريبينين في كاستيلامير، ولكنه ما لبث أن سئم الغبار والقذارة والصياح وغلمان نابولي السارقين، وتوجه من هناك إلى ميناء «ليفورنو»، وبعد ذلك، وفي أيلول/ سبتمبر ١٨٣٨، توجه في رحلة قصيرة إلى باريس حيث كان صديقه دانييلفسكي قد استنجد به بعد أن سلبه سمك القرش كل فلس لديه. تدبر أمر ملء جيوب صديقه ببعض المال بالاستعانة ببوجودين وريبنين وأمضيا عدة أيام معاً يتنقلان بين المقاهي والمطاعم.

عاد من باريس إلى روما عبر ليون ومارسيليا وجنوة، وزعم بأن إلهامه يصبح أقوى ما يكون عليه عندما يسافر. فتغيير المشاهد وتبديل عاداته واهتزازات الطريق صعوداً وهبوطاً من شأنها كلها أن تعمل جميعاً على شحذ مخيلته. فحدث مثلاً أن نوبة إبداع إيجابية حلّت به في نُزُل صغير بين «جينزانو» و«ألبانو» حيث

يقول (كما روى عنه بيرج في دورية «روسيا القديمة»، عام ١٨٧٢): «لست أدري السبب، غير أنني في اللحظة التي دخلت فيها ذلك النزل أردت أن أكتب. طلبت طاولة وجلست في زاوية وفتحت محفظة أوراقي. وهناك، وسط ذلك الجو الخانق المليء بالدخان وصخب المسافرين الذي يحيط بي، وصوت كرات البلياردو وهي تصطدم ببعضها البعض، والحركة العجلى الضاجة للنُدُل فصلت نفسي كلياً عن كل ما حولي لأدخل في حالة حلم غريب ولأكتب فصلاً كاملاً دون أن أغادر مقعدي ولو مرة واحدة. وإنني أضع تلك السطور بين أفضل ما كتبت على الإطلاق إذ قلما حظيت بمثل هذا التلذذ بالإبداع».

حيا روما معبراً عن ارتياحه لدى عودته، تماماً كما كان قد حيّاها لدى عودته من رحلته السابقة. وكل ما افتقده هو مطاعم باريس، غير أن إفراطة المبالغ به أزعج معدته من جديد. وقد كتب لدانييلفسكي في رسالة في النصف الثاني من تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٣٨) يقول: «أينما أحوّل نظري أرى المزيد من المعابد (المطاعم). غير أن ذهني لم يستطيع أن ينتزع نفسه كلياً من مونمارتر وشارع «بوليفار، ديز ايتاليان». هنالك مع الأسف نمط من الروح الشيطانية تسكن في معدتي وتمنعني من رؤية الأشياء كما أود رؤيتها وتذكرني دائماً بغداء أو عشاء، أو باختصار، بعمل مشين من نوع ما، على الرغم من قداسة الأماكن التي لم أتردد عليها ومن الشمس المحببة والطقس الجميل».

أتت له نهاية ذلك العام بغبطة عارمة. ففي (١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٣٨) وصل ولي العهد، الدوق الأكبر الكسسندر نيقولايفتش إلى روما يرافقه معلمه جوكوفسكي وحاشية كاملة. أحد أفراد الحاشية، الكونت الشاب «جوزيف فايلجورسكي» الذي ألحقه الإمبراطور كرفيق لابنه في الدراسة كان مصاباً بالسل مما أجبره على الانفصال عن المجموعة في وقت مبكر متجهاً وحده إلى الجنوب متنقلاً من نبع معدني إلى آخر. وصل إلى روما قبل وصول الدوق الأكبر بوقت قصير وذهب ليقيم في قصر الأميرة المحسنة فولكونسكي، وهناك رآه جوجول وهو منهوك ينفث دماً لدى سعاله. كانا قد التقيا من قبل في سانت

بطرسبرج في بداية ذلك العقد من الزمن، ولكن جوجول لم يكتشف حقيقة» فايلجورسكي» إلا أثناء مرضه. سحره وجهه الشفّاف وعيناه اللتان تشتعلان بالحمى. ولكنه، أي جوجول، كان فرحاً برؤية جوكوفسكي ثانية مما لم يترك له مجالاً للانتباه في ذلك الوقت لوصول هذا القادم الجديد.

أبلغ جوكوفسكي جوجول بالطبع بكل الآلام الممضة التي مرّ بها بوشكين وبكيا معاً موته العبثي والذي حرم العالم من أعظم شعرائه كما حرمهما من أفضل أصدقائهما. ثم ما لبثا أن تحدثا عن عمل كل منهما، وعن أصدقائهما المشتركين، وعن آخر الأنباء الأدبية في روسيا، وعن «نفوس ميتة» التي كانت تتقدم بخطا ثابتة، وإن ببطء. وفي خلال الأيام التالية رافق جوجول جوكوفسكي في جولة شاملة في روما. وكدليل لا يكل ولا يملّ من المشي نجح في إيصال حماسه لمرافقه الشاعر حيث جالا في السوق الرومانية العامة (فورام) وفي مدرج روما القديم (كوليسيوم) وهيكل الآلهة (بانتيون)، والكنائس والمتاحف والأزقة البهيجة. شاهداها معاً، وكانا كلاهما يحملان على الدوام ورقاً وألواناً مائية في جولاتهما ويتوقفان بين آونة وأخرى ليرسما منظراً طبيعياً، أو أثراً قديماً، أو غلاماً رث الثياب ذا نظرة ساخرة. كان جوجول يستغرب كيف يمكن لشخص مسؤول من مستوى جوكوفسكي أن يظلّ بسيطاً في سلوكه، دافئاً في مشاعره. كان يسميه «مبعوث الجنة». وعندما غادره مبعوث الجنة هذا عائداً إلى روسيا كتب لدانييلفسكي (في ١٢ شباط/ فبراير ١٨٣٩) يقول: «تركني هنا كاليتيم وها أنا أشعر أول مرة وأنا في روما بأنني حزين».

غير أنه بعد ثلاثة أسابيع من هذا الفراق جاءته مفاجأة ثانية، وكان بوجودين هذه المرة هو الذي يعلن وصوله. . وصل وزوجته إلى روما (في ٨ آذار/ مارس ١٨٣٩) وتعهد بهما جوجول على الفور كما فعل مع جوكوفسكي وأخذ على عاتقه، وبفرح طفولي التجول بهما في عاصمته حيث يسرع بهما عابرين الشوارع المغبرة الضاجة إلى أن رجاه ضيفاه المرهقان والمتخمان الرأفة بهما. كان يصحبهما في الثانية بعد الظهر إلى مطعم قرب «بيازا دي اسبانيا»

ولكنه لم يكن يتناول هو نفسه أي طعام قائلاً إن معدته متعبة وأنها قضت على شهيته، وأنه يكتفي بوجبة خفيفة حوالي الساعة السادسة مساءً. غير أن بوجودين قرر مشاهدة إحدى هذه «الوجبات الخفيفة». ودون أن يدري اجتمع عدد من أصدقائه في روما في غرفة خلفية من مطعم «فالكوني» حيث كان يتناول وجباته دائماً للتجسس عليه. دخل وجلس وسرعان ما أحاط به النُدُل. يقول بوجودين في «مذكراته المختارة: «طلب المعكرونة، والجبن، والزبدة، والخل، والسكر، والخردل، والرافيولي والبروكولي. أخذ الندل يتراكضون من مكان إلى آخر ليحضروا هذا الطلب أو ذاك، في حين أخذ جوجول يتناول المكونات من أيديهم وقد اشتعل وجهه حماساً، ويصدر طلباته بزهوّ واهتياج. أخذت تتكوم أمامه جبال من الخضراوات، والأباريق المليئة بالسوائل شاحبة اللون. يوضع أمامه طبق ضخم من المعكرونة تنبعث منه سحابة سميكة من البخار عندما يرفع عنه الغطاء. يلقي جوجول كتلة من الزبدة فوق المعكرونة ويدهن الكومة بقدر كبير من الجبن، ويتخذ وجهه سيماء قسٍ على وشك تقديم أضحية ويمسك بسكين ويستعد للقطع. عند هذه اللحظة ينفتح بابنا بسرعة ونجري نحوه ضاجّين بالضحك وأصيح: أجل أيها العجوز، معدتك منزعجة وقد قضت على شهيتك؟ فلماذا هيّات كل هذا إذن؟» على الرغم من انزعاجه في البداية غير أنه ما يلبث أن يستعيد رباطة جأشه فيجيب بسرعة: ولم كل هذه الضجة؟ ليس لديّ شهية بالطبع، وما ترونه مصطنع أحاول أن أثير به شهيتي لتناول طعام لائق. ولكن ليأخذني الشيطان إن استطعت تناول هذا الطعام برمته. سوف آكل من دون أن تكون لديّ الرغبة في ذلك، وسآكل كأنني لم آكل شيئاً. تعال واجلس هنا، سأطلب لك شيئاً تحبه. أيها النادل، أحضر الطبق التالي! وهكذا بدأت الوليمة وسط قدر كبير من المرح تناول خلالها جوجول ما يكفي أربعة أشخاص وهو يردد باستمرار بأن كل هذا غير صحيح وأنه يعاني فعلاً من معدة عليلة».

ما لبث بوجودين وزوجته أن توجها إلى باريس حيث كان دانييلفسكي بانتظارهما، وقد كتب له جوجول (في ١٤ نيسان/ إبريل ١٨٣٩) يقول:

«بالمناسبة، سمعت بأن بعض الجواسيس جاؤوا لرؤيتك في باريس، وهذا أمر متوقع نظراً لعدد الروس الذين يعيشون فيها، إما بصورة قانونية أو غير قانونية. احترس، وإنني واثق من أن اسم كل روسي قد سجل في السجل الأسود للشرطة السرية».

بعد أن ودّع ضيفيه عاد إلى فيلا الأميرة «فولكونسكي» التي بدت الآن أقل حرصاً على تحوله إلى المذهب الكاثوليكي. فقد أدركت في النهاية، بلا شك، بأن أحداً لا يمكنه أن يقسره في هذا الأمر. وعلى الرغم من أنها ظلت تستقبله باللطف ذاته غير أنها لم تستطع أن تغفر له أنه ضللها لكل هذه الفترة المطولة. رأى في بيتها الكونت الشاب فايلجورسكي الذي تفاقم مرضه بصورة مرعبة. كان هذا الشاب البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً يضطجع في الحديقة أحياناً ليستنشق الهواء الصافي كما نصحه أطباؤه وقد شحب وجهه وتغضنت ملامحه وغلفتها مسحة من الحزن الشفيف، أو يختفي في كهف صغير يقرأ كتاباً. كان شغوفاً بالتاريخ والأدب وكثيراً ما كان يحدّث جوجول عن ماضي روسيا. ومن خلال حديثهما معاً أسرت الكاتب ملامح الشاب التي وجدها عذبة نبيلة تتسم بالشجاعة الهادئة. وما لبثت قوى فايلجورسكي أن أخذت تنهار ولم يعد قادراً على النهوض، وهنا انتقل جوجول ليقيم إلى جانب سريره ويتأمل بحنان وجهه لساعات لا نهاية لها.

كتب لبوجودين (في ١٥ أيار/ مايو ١٨٣٩) يقول: «أعتقد أن جوزيف فايلجورسكي سيموت ولاشك، جوزيف المسكين، اللطيف النبيل! لا مكان في روسيا للناس الذين يبعثون على الإعجاب ولا يستطيع أن يعيش فيها سوى الخنازير».

وكتب لماريا بالابين (في ٣٠ مايو/ أيار ١٨٣٩) يقول: «أقضي الآن لياليَ من دون أن أنام إلى جانب سرير صديقي العزيز جوزيف فايجلورسكي الذي يشارف على الموت. لست تعرفين هذه الروح التي تبعث على الإعجاب، ولامشاعره الرقيقة وشخصيته واضحة القوة بالنسبة لعمره، أو ذكاءه العميق

اللافت للنظر. ولكنه سيكون فريسة للموت في وقت قريب. إنني أعيش الآن من أجله فقط وأراقب دقائقه الأخيرة. ابتسامة هازئة أو تعبير أكثر مرحاً يمر على وجهه هما الأحداث الوحيدة في أيامي التي تجري على وتيرة واحدة. أقسم أن مصير أي روسي ذي قيمة حقيقية هو مصير غريب يستعصي على الفهم. فما إن يظهر مثل هذا الإنسان حتى يختطفه الموت منا في التوّ واللحظة. لم أعد أؤمن بأي شيء الآن، وإن تراءت لي لمحة من شيء جميل فإنني أغلق عيني وأحاول تحويل نظري، فرائحة القبر تحيط بهذا الشيء. هناك صوت خفيض يهمس بي قائلاً: «لن يعيش هذا طويلاً، وهو لا يقوم أمام ناظريك إلا لكي تتعرف على الكمد الخالد الناجم عن الحسرة، ولكي تتألم روحك وتتعذب».

شعر جوجول أمام هذا الشاب الذي يذوي أمام عينيه، كما لم يشعر من قبل، بالحاجة إلى منح نفسه لإنسان آخر. فهذا السير الحثيث الذي لا يقاوم نحو الموت سهّل على جوجول، بطريقة ما، أن يطلق العنان لأسراره الخفيّة. وكل ما لم يكن يجرؤ على إظهاره أمام أي شخص مقدّر له أن يعيش أصبح قادراً على التفكير فيه والتعبير عنه لإنسان سيختفي إلى الأبد. فالنور البارد للقبر كان من شأنه أن يطهّر ويبرّر كل شيء. وبتحرره من عوامل الإحراج المعتادة بفعل تلك الحالة التي تبعث على الحزن أصبح قادراً على الإحساس بحنان لم تثره فيه أية امرأة حتى الآن. كان يأخذ دائماً جانب الحذر والحيطة إزاء أولئك اللاتي تكون لهنّ أقصى غايات الإعجاب كأنما يخشى أن تتجرد الصداقة بصورة غير ملحوظة وتتحول إلى غزل، بل حتى لنوع من الحب. لم يسبق له قط أن استرسل مع أي منهن بمثل الإخلاص الذي يظهره الآن في غرفة المريض. لم يسبق له أن فتح قلبه لهن قط كما يفعل هنا إذ إنه يعرف أنهن مخلوقات من لحم ودم حريصات على الظفر والمعصية، حتى أكثرهن تقى واللاتي يبدين بعداً كلياً عن المسرات الأرضية. أما مع جوزيف فايلجورسكي فهو يخضع للحاجة الإنسانية للتواصل والتوحد، ويستطيع في نفس الوقت المحافظة على تشدده الأخلاقي والجسدي. سيكون آمناً ومحبّاً في آن معاً، إذ إن الذي تنامى بينهما هو الحب،

وليس الصداقة، بل حب أخوي لا مادي ويائس. وقد سجل جوجول كل ذلك وبصورة محمومة في «ليالٍ في الفيلا» حيث يقول:

«كانت تلك الليالي الساهرة ناعمة ومدمّرة. كان يجلس في أحد المقاعد وقد هدّه المرض. كم هو عذب أن تكون قريباً منه وأن تنظر إليه. كنّا لليلتين متتاليتين يخاطب أحدنا الآخر بالطريقة المهذبة «أنتم»، ولقد أصبح أكثر قرباً مني مما كان من قبل».

ويكتب لاحقاً: «لم أكن معه في تلك الليلة. أسرعت في الصباح التالي وذهبت إليه وأنا أشعر كأنني مجرم. كان في فراشه حين رآني. ابتسم لي تلك الابتسامة الملائكية التي أصبحت ابتسامته، ومدّ لي يده وضغط على يدي بحرارة وقال: «خائن، لقد خنتني!» أجبته: «سامحني يا ملاكي، لقد عانيت أنا نفسي بسبب معاناتك، وكنت متألماً هذه الليلة. غير أن ليلتي كانت مليئة بالقلق. سامحني». يا إلهي، يا لرقته. ضغط على يدي وبدأت أهفهف له بغصن غار. قال: «آه، يا للبرودة! ما أحلاها!» في الساعة العاشرة عدت من جديد لرؤيته. كنت قد تركته قبل ثلاث ساعات لأرتاح قليلاً. كان يجلس وحيداً وعلائم الانكسار الناشئ عن الملل بادية عليه. حين رآني لوح بيده قليلاً وهو يقول: «أنت مخلّصي الشفيع». ما تزال هذه الكلمات ترنّ في أذني. تساءلت: «هل مللت ياملاكي». أجاب: «أجل، مللت جداً!» قبّلت كتفه فأدار لي خده وقبلنا بعضنا وهو ما يزال يمسك بيدي».

وفيما بعد أيضاً يقول حول الليلة الثامنة: «كان الطبيب قد أمر له بأن يرتاح في تلك الليلة. نهض مكرهاً واتجه إلى سريره مستنداً على كتفي. يا حبيبي! نظرته الواهنة، قميص نومه زاهي اللون، خطواته البطيئة. همس في أذني وهو يستند على كتفي ويشير نحو السرير: «أنا الآن رجل منته!» قلت له: «سنبقى في السرير لنصف ساعة فقط، ثم نعود إلى مقعدك». راقبتك يا عزيزي، يا زهرتي الحانية! كنت أتابع حركتك وتغيّر تعبيراتك طوال الوقت وأنت تنام أو تغفو إغفاءات خفيفة في سريرك أو على مقعدك وكأن قوة لا أدري كنهها تشدني

إليك. كانت حياتي جديدة عليّ بشكل غريب حينذاك، ومع ذلك فقد كانت كأنها تكرار لشيء بعيد، حدث منذ عهد سحيق، ولكن يا للصعوبة التي أجدها في بسط هذه الفكرة: عودة تلك اللحظة من لحظات الشباب النضرة التي تمر بسرعة، تلك اللحظة التي يسعى فيها الإنسان الغض لصداقة أخوانه، مع من هم في مثل عمره -الصداقات النقية بين حديثي السن، والمليئة بأمور طفولية صغيرة، تنافس فيمن يمكنه أن يقدم دلائل المودة الحنونة. أوه، يا إلهي! لماذا؟ راقبتك، يا زهرتي الحبيبة الشابة! هل جلّلني نَفَس الشباب الغض ذاك، لا لهدف إلا ليغرقني من جديد في تلك البرودة الهائلة التي تتجمد فيها كل المشاعر، لكي أتقدمٍ في العمر في يوم واحد أربعين عاماً، لكي أرقب بحزن ويأس أكبر اضمحلالاً لوجودي أنا ذاتي. . . ؟».

كتبت أليكساندرا سميرنوف في دفتر ملاحظاتها تقول بعد سماعها عن ذلك التعلق الحنون بين جوجول والشاب المشارف على الموت: «لم أحاول التحري حول متى وكيف نشأت هذه العلاقة، ولكنني أرى فيها علاقة صحيحة كلياً، وطبيعية وبسيطة تماماً». إصرارها على «صحة» العلاقة بين الرجلين ربما تعني بأن مراقبين آخرين كان لهم رأي آخر. غير أن جوجول الذي أعماه الحزن والقلق لم يعلّق أهمية على هذه الاقاويل وذلك لأول مرة في حياته.

في إحدى المراحل التي كانت فيها قوى فايلجورسكي تتهاوى أسرع جوجول لإحضار قسيس أرثوذكسي بناءً على طلب صديقه. اعترف فايلجورسكي وأجري له المسح المقدس (بالزيت) قبل الموت في الحديقة ثم حُمل إلى غرفته وهو لا يكاد يستطيع التنفس. ولكنه كان واعياً بحيث أمكنه أن يشكر أصدقاءه ويبتسم لهم. وبينما كان على وشك الدخول في حالة غيبوبة أرسلت الأميرة فولكونسكي – التي كانت تتصف بالتمسك الشديد بآرائها – تطلب قساً كاثوليكياً وهمست في أذنه بسرعة قائلة: هذا هو الوقت المناسب لتحويله إلى العقيدة الكاثوليكية. غير أن القس رفض بإصرار قائلاً: «الصمت والسلام هو مايجب أن يعم في غرفة رجل يموت». لم تصرّ الأميرة التي خاب مسعاها. غير

أنها لم تستطع أن تمتنع عن الإعلان حين لفظ فايلجورسكي آخر أنفاسه في ٢١ أيار/ مايو ١٨٣٩ «رأيت روحه وهي تفرّ منه. كانت كاثوليكية!» ومنذ ذلك الحين أخذت تتعامل ببرود مع جوجول.

غير أن هذا الموت هزّ جوجول بصورة جعلته لا يكترث لغضب الأميرة. كانت هذه هي المرة الأولى التي يشهد فيها عذاب إنسان عزيز عليه وهو ينظر إليه نظرة العاجز. مات بوشكين وهو بعيد عنه، وفقدانه كان بالنسبة لجوجول أمراً غير محسوس مثل معادلة حسابية. كان تخيل عذابه يتطلب جهداً ذهنياً. أما بالنسبة إلى فايلجورسكي فقد دخل الموت في تجربة جوجول بشكل مباشر. لقد رأى الموت عملياً وذلك الجسد يغالبه. شعر بزمهرير في أوعيته الدموية هو نفسه. أليس النشاط البشري غريباً حيث أن كل ما يؤدي إليه هو الصمت الهائل للقبر. ماهي جدوى تفاهات الشهرة، وكفاح الرسام والشاعر، وحلاوة الحب واحتدامه، ما فائدة نعم الموائد ما دام كل ذلك سينتهي بكل واحد منا في نهاية المطاف في وكر محفور في داخل الأرض؟

يقول في رسالة إلى دانييلفسكي (في ٥ حزيران/ يونيو ١٨٣٩): «دفنت لتوي صديقاً منحني إياه القدر في فترة من حياتي لم يعد المرء فيها قادراً على إقامة صداقات جديدة، وأعني بذلك عزيزي جوزيف فايلجورسكي. لقد عرفنا بعضنا واحترم كل منا الآخر منذ سنوات. غير أن عاطفة أخوية وثيقة لا تنفصم ربطتنا معاً بصورة حاسمة فقط إبان مرضه الأخير».

سرعان ما أقنع جوجول نفسه في غمرة حزنه أن السبيل الأسرع لتماثله للشفاء إنما يكمن في الهرب من مكان آلامه ولذا ركب سفينة «سيفيتافيشيا» إلى مارسيليا حيث كان سيلتقي بوالدة فايلجورسكي. وقد صادف أن كان الكاتب والناقد سانت بوف (١٨٠٤-١٨٦٩) على السفينة نفسها، وكان هذا لا يتكلم الروسية، بينما كانت لغة جوجول الفرنسية محدودة جداً. فكيف يمكن لهما أن يكونا قد تمكنا من التحدث مع بعضهما بعضاً؟ ولكن هذا الناقد كتب بعد سنوات أن حديثهما كان «قوياً ودقيقاً ومليئاً بالملاحظات النيّرة حول المجتمع»، وأن هذا

الحديث قد وفّر له «بادرة مسبقة حول ما يمكن أن يكون صادقاً ومعبراً حقيقياً عن الحياة في أعمال هذا الكاتب» كما قال في رسالة إلى الأمير «أوجستين بيتروفيتش جوليتسين» (في ١٦ آذار/ مارس ١٨٥٧): «وجدت نفسي على ظهر الباخرة بصحبة جوجول. وخلال هذين اليومين استطعت أن أتبين مدى تفرُّده النادر وأصالته وقوته الفنية على الرغم من الصعوبة التي يجدها في التعبير بالفرنسية».

بعد يومين في مرسيليا أدى خلالهما ذلك الواجب المؤلم وهو رواية ماحدث في اليومين الأخيرين لجوزيف فايلجورسكي لأمه انتقل جوجول بعربة ليدفن حزنه في تعب السفر وفي ما يوفره له من جديد. توجه أولاً إلى فيينا ثم إلى هاناو حيث التقى بالشاعر المحب للشعوب السلافية «ياسيكوف»، ثم إلى مارينباد حيث انضم إلى آل بوجودين الذين قدموه لشخص يدعي «دي. إي. بينار داكي» وهو شخصية غريبة كان قد ضارب في أسواق الحنطة وحقق نجاحاً باهراً، واشترى أراضي ومعامل وجمع ثروة هائلة كان يديرها بذكاء كبير، وهو ينتمي للمدرسة الجديدة من ملاّك الأراضي. كان رجل أعمال حاذقاً يحمل أفكاراً واضحة حول الفلاحة، والتطور الصناعي، والنواحي الحسنة والسيئة في نظام الأقنان، وإدارة المناطق المدينية، وأعمال القضاء، والتحكم بالديون، وتطوير التعليم الحكومي. ومن خلال حديثه الذي ينثر فيه حكايات وأقوالاً مأثورة، اكتشف جوجول العالم الذي لا يرحم للتنافس على الربح وللنزاع للسيطرة على السوق. وأصبح بينارداكي الداهية بليغ الكلام يجسد بالنسبة لجوجول شخصية الرجل العملي الذي يجب أن يكون روسي المستقبل على نسقه: بعيد النظر، جريئاً، متكاملاً. أي شخصية في رواية يمكن لمثل هذا المليونير المسيحي أن يكون (وقد كان، إذ صوّره في الجزء الثاني من نفوس ميتة). وكان جوجول وبوجودين يرافقانه حيث يتمشون في الريف كل يوم بعد استحمامهما.

مهما كانت الأحاديث مع بينار داكي مفيدة له فإن مياه مارينباد لم تؤثر على أجهزة جسم جوجول ولذا عاد إلى فيينا وقد خابت آماله.

لم تحرّك فيينا مشاعره في زيارته الثانية لها، شأن الزيارة الأولى وذلك على الرغم من كونها مدينة كبيرة مليئة بالسكان، ومن جمال قصورها وبرودة غاباتها، ومن مرح سكانها. وقد كتب لشفيريف يقول: «روما! أين أنت يا روما! أشعر كأنني غبت عنك خمس سنوات. ليس هناك مكان آخر على وجه الأرض غيرها». كان قلقاً على صحته شأنه دائماً. وحين ينظر في المرآة يتبين له كم أصبح هزيلاً. ربما كان قد شرب أكثر مما يجب من المياه المعدنية. كتب لماريا بالابين (في ٥ أيلول/ سبتمبر ١٨٣٩) يقول: «أبدو كالمومياء، أو بالأحرى مثل أستاذ جامعي ألماني قديم، جواربه تتدلى حول كاحليه الهزيلين وكأنهما نكاشتا أسنان». وبعد المزيد من التفكير قرر بأن الحزن هو الذي ينخره. لم تعد لديه القوة لكي يستمد أملاً بالحياة، أو ليرغب بها، وبذا فهو يتابع في رسالته هذه ليقول: «من المؤلم أن يجد المرء نفسه وقد شاخ وهو ما يزال يعتبر شاباً. ومن المرعب أن يجد أنه مجرد كومة من الرماد بدلاً من أن يكون شعلة متقدة، وأن يدرك عجزه عن الحماس. لم تعد روحي التي حرمت من كل ما كان يهزها من قبل (يا للخسارة الشنيعة) تستطيع الإحساس بشيء سوى بتعاستها. أرجو أن تمزقي هذه الرسالة حالما تنتهي من قراءتها، إذ يجب ألا يقرأها إنسان آخر».

لم يحب النمساويين، أو بالأحرى وضعهم في بوتقة واحدة مع الألمان الذين لم يسامحهم لأنهم أثاروا إعجابه في أوائل شبابه. وهو يقول في الرسالة السابقة نفسها: «كنت أخلط في ذلك العمر بين العلوم والفلسفة والأدب وبين الشعب الألماني». وفي رسالة لشفيريف (في ١٠ أيلول/ سبتمبر ١٨٣٩) يقول: «فيينا في الواقع هي حفلة مستمرة. والألمان يقضون وقتهم كله هنا وهم يتسلّون. غير أن نمط تسلياتهم، كما يعرف الجميع، هو الأكثر إثارة للملل وهو شرب البيرة والجلوس إلى طاولات خشبية تحت أشجار الكستناء، وهذا كل ما هنالك». لو أنه يستطيع فقط أن يكتب! غير أن الوحدة كانت تشلّه، فهو يريد جواً ودوداً. يريد أن يكون هناك ما يشغله وأن يتمتع بالحركة والسفر الدائمين مما يبث الدفء في إلهامه الميال للكسل.

يقول في رسالته السابقة لشفيريف: «من الغريب جداً أنني أصبح غير قادر على العمل على الإطلاق عندما تفرض عليّ الوحدة، حين لا أجد من أكلمه ولا يكون هناك أمر آخر يشغلني، عندما يكون أمامي من الوقت مالا حدود له ولا نهاية. لطالما عجبت من بوشكين الذي كان عليه أن يعزل نفسه وينسحب وحده إلى قرية ما لكي يكتب. أما أنا فعلى العكس منه، لم أكن قادراً على القيام بأي عمل في الريف، وكقاعدة عامة فأنا لا أستطيع القيام بأي عمل إن كنت معزولاً وأعاني من الملل. أعاني من السأم في فيينا. كل آثام الشباب التي نشرتها حتى الآن كتبت في سانت بطرسبرج عندما كنت موظفاً ولا وقت فراغ لديّ، وكانت تحاصرني متطلبات عملي وانشغالاتي المتعددة. أما العمل الذي بدأته فهو لا يتقدم وإن كنت أشعر بأنه سيكون مهماً. السفر هو أملي الوحيد، فأثناء السفر يتجسد لي محتوى ما أكتبه عموماً. إنني أطور كل مواضيعي تقريباً وأنا مسافر على الطرقات».

على الرغم من امتناعه عن مسك قلمه فقد قام خلال الأشهر السابقة بمراجعة «تاراس بولبا» و«الصورة» و«الأنف» و «في» و «المفتش العام». وصقل «الدعوى القضائية» و «قاعة الخدم» (وهي مشاهد من المسرحية غير المكتملة «صليب فلاديمير»)، وبدأ بكتابة «أنونزياتا»، وهي قصة عن روما لم يكملها قط فيما عدا ذلك الجزء منها والذي يحمل عنوان «روما».. كما أعاد كتابة مسرحيته الكوميدية» زواج» للمرة الثالثة، وإن كان لم يستطع التوصل إلى نهاية مرضية لها. وتولّدت لديه فكرة لمسرحية درامية بطولية تتعلق بتاريخ «قوزاق زابوروج». سفره من روما إلى مارينباد ومن ثمّ إلى فيينا حال دون متابعة عمله على «نفوس ميتة». فهل يمكن أن تنجح إيطاليا وحدها في إعادة إحياء رغبته في متابعة تلك المهمة العظيمة؟ كان يعتقد بأنها ستنجح، غير أن مشاكل عائلية منعته من العودة إلى هناك. فرسائل أمه أخذت تعبّر عن اليأس العميق، إذ استهلكت كل مواردها، وأخذ الدائنون يهددون ببيع فاسيلييفكا. وشقيقته الصغرى أولجا كانت تعاني من ضعف في السمع ولم تتلق أي قدر من التعليم في البيت.

والأخت الكبرى ماريا أرملة تروشكوفسكي عنّت لها في العام السابق فكرة الزواج من جديد. غير أن ذلك الزواج لم يكن يبدو مشجعاً، ولذلك كتب لها جوجول رسالة حازمة (في ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٣٧) يقول فيها: «عليك أن تتحلّى بحكمة أكبر. تذكري أنك لم تعودي فتاة صغيرة، وزواج ذو مزايا حقيقية فقط هو ما يستحق أن تغيّري وضعك وتفقدي حريتك من أجله».

وكتب لأمه (في ٥ شباط/ فبراير ١٨٣٨) يقول: «إن كانت الوضعية المالية لهذا الخاطب ليست أفضل من وضعيتها فإنه لا يساوي الكثير. عليها أن تدرك بأنها ستنجب أطفالاً وأنهم سيتسببون لها بقلق لا نهاية له وستكون لهم مطالب لا تعد ولا تحصى. عليها ألا تصل إلى حالة تندم فيها على حالتها السابقة. قد نفهم أن تفضل ابنة ثمانية عشر عاماً الوسامة والطيبة والطبيعة الحسّاسة قبل أي شيء آخر، وأن تحتقر الثروة وما يمكن أن تقدمه من سبل المعيشة. غير أنه لا يمكننا أن نغفر لأرملة في الخامسة والعشرين من عمرها ألا تفكر لأبعد من ذلك».

رفضت ماريا خاطبها في النهاية بعد ذلك التعنيف، ولكنها قد تغير رأيها، فمثل هذه التحولات هي أمر شائع بين المحبين، خاصة في الأرياف حيث لا يتوفر الكثير من سبل التسلية. ولذا فإن من الأفضل له أن يتولى معالجة الأمر بنفسه وأن يهزها لكي تستيقظ من أحلام اليقظة التي تعيش فيها ويبيّن لها بأنه لا يمكن لها أن تجد مكاناً هادئاً أكثر مما يتوفر لها في فاسيلييفكا إلى جانب أمها وابنها وذكريات زوجها المتوفى. غير أن أخطر كل تلك المشكلات هي مشكلة أختيه الأخريين، آنا وإليزافيتا اللتين توشكان على إنهاء دراستهما في المعهد الوطني. وعليهما عند ذلك، وبعد أن تنهيا مرحلتهما الدراسية أن تتدبرا أمورهما. ولذا فإن على جوجول أن يعود إلى روسيا لترتيب شؤون مستقبلهما، سواء أراق له ذلك أم لا.

تكفيه إقامة قصيرة يعود بعدها إلى إيطاليا. ولكنه، وعلى الرغم من اتخاذه قراره بالعودة غير أنه ظل يرجئ تنفيذ هذا القرار مرة بعد مرة. جلس في غرفته رقم (٢٧) في «روميشن كايسر» ينتظر الزوجين بوجودين اللذين وعدا

بالمرور بفيينا في طريقهما إلى موسكو. فقد تراءى له أن عودته ستكون أقل إثارة للاشمئزاز إن كان بصحبة هذين الزوجين الودودين.

كتب لشيفرييف (في ١٠ أيلول/ سبتمبر ١٨٣٩) يقول: «أيعقل أنني في طريقي للعودة إلى روسيا؟ أكاد لا اصدق ذلك. إنني قلق على صحتي، إذ غدوت غير معتاد على البرد على الإطلاق. كيف لي أن أتحمله؟ غير أن ظروفي الخاصة تحتّم علي أن أعود، فشقيقتاي ستتخرجان من المعهد وعليّ أن أتدبر أمرهما، إذ لا يوجد من يمكن لي أن أطلب منه تولي هذا الأمر نيابة عني. ولكني سأعود إلى روما بعد تسوية أموري».

وكتب لأختيه آنا وإليزافيتا (في ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٨٣٩) يقول: «لقد قررت المجيء إلى سانت بطرسبرج من أجلكما. فهل أصبحتا تدركان مدى التضحية التي أقوم بها؟ هل تعرفان بأنني لولاكما لما قمت بهذه الرحلة مهما كان الثمن».

تحفظ فيما يتعلق بإبلاغ أمه بالموعد الدقيق لعودته، ولم يكن قادراً على كبت مشاعر التبرم منها حتى وهو بعيد عنها. كان يحترمها ويشفق عليها ويتهم نفسه بأنه ابن سيىء لأنه لم يكن قادراً على إعالتها، ولكنه ظل يتذمر منها باستمرار في رسائله وكأنه يريد أن يعاقبها لحبها المبالغ به له. فإن أرادت أن تحدثه عن مديحها لموهبته أمام الجيران، فهو يأمرها كما يقول لها في رسالة (في ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٨٣٩) بألا تدخل في مناقشات أدبية معهم، بل أن تقول ببساطة: «لا أستطيع أن أحكم على عمله، إذ إن حكمي سيكون متحيزاً. فأنا أمه، وكل ما يمكنني قوله عنه أنه ابن بار ومحب، وهذا يكفيني».

حاولت أن تثير عاطفته قائلة إنها أعدت بعض القمصان له، ولكنه عبّر عن دهشته لهذه الفكرة الشاذة حيث يقول (في رسالة في حزيران/يونيو ١٨٣٩): «أخطأت بطلب خياطة هذه القمصان لي، إذ إنني متأكد من أنني لن أستطيع ارتداءها لأنها لن تكون من النوع الذي اعتدت عليه. كان من الافضل لك أن تنتظري إلى أن تأخذي أحد قمصاني لاستعماله كنموذج لها».

فإن ألمحت إلى «زواج رائع» تفكر فيه لآنّا لدى عودتها من المعهد فإنه يشن إحدى تهجماته الشديدة، حيث يقول في رسالة لها (في ربيع عام ١٨٣٩): «تتم الزيجات عادة بين أناس من نفسها الطبقة، ولابدّ أن يكون المرء مغفلاً أو شاذاً بالتأكيد لكي يحاول تحدي والديه ومصالحه ووضعه الاجتماعي ويختار فتاة فقيرة غير معروفة زوجة له، إلا أن تكون الفتاة بارعة الجمال والذكاء، وهما أمران لا يتوفران في ابنتنا آنّا على الرغم من أنها فتاة حسنة ويمكن أن تكون زوجة طيبة».

ثم يشير إلى الخجل المرضي لشقيقتيه والذي عزته أمه إلى انتقالهما المفاجئ فيقول: «كيف يمكنك أن تكوني ظالمة، فهذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن له أن يحسّن وضعهما. فقد كانت لهما شخصية بدائية كلياً لدى حضورهما من القرية، ولم يكن ليتسنى لإنسان غريب عنهما أن يظفر منهما بكلمة واحدة. أما الآن فهما تعرفان على الأقل أن تفتحا فميهما وتتلفظا بكلمة أو كلمتين».

كانت ماريا إيفانوفنا، في اعتقاد جوجول، وعلى الرغم من أنها في الثامنة والأربعين من عمرها، مجرد مراهقة متخلفة تملأ رأسها أحلام غير معقولة، ولكنها غير قادرة على أن تضع قدماً أمام أخرى. أما آنا وإليزافيتا وأولجا وماريا فإنهن دونها قدرة على مواجهة عواصف الحياة وضغوطاتها. هو وحده قادر على إنقاذهن من الغرق. خمس نساء عليه أن يتدبر أمرهن. ثم هنالك مسؤولية إبداعه عملاً عظيماً. إنه المنقذ والمبدع في آن معاً. قد تكون المهمة التي وضعها الله على كاهله فوق طاقته. ومهما أعاد حساب نقوده، حتى كل ما يمكنه أن يحصل عليه من إعادة طبع أعماله فإنه لن يستطيع الحصول على مبلغ كافٍ لتغطية نفقات مستقبل شقيقاته.

تلاشت مصادر قلقه جزئياً بوصول بوجودين. إن لديه بعض الأصدقاء الخلّص بحمد الله، وهؤلاء لن يتخلوا عنه مهما حصل. جمعوا ما بحوزتهم من مال لاستئجار عربتين سافرت في إحداهما السيدة بوجودين والسيدة شيفرييف التي كانت موجودة في فيينا أيضاً، بينما استقل بوجودين وجوجول العربة الثانية.

بدأوا رحلتهم في منتصف ليلة الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر ١٨٣٩ . وبعد ستة أيام مروا خلالها «بأولموتز» و «كراكاو» وصلوا إلى وارسو. ومن هناك كتب جوجول لجوكوفسكي (في ٢٨ أيلول/ سبتمبر) حيث قال:

«شقيقتاي ستتخرجان (من المعهد) وهذا يتطلب حضوري بالتأكيد. هناك أمر واحد يعذبني الآن وهو أن أؤمنهما وأدفع لأستاذ الموسيقى الذي كان يعطيهما دروساً في الموسيقى طوال الوقت الذي كانتا فيه في المعهد وما إلى ذلك من أمور. إنني أحتاج لخمسة آلاف روبل وأعترف أن هذا يفوق إمكانياتي. ولذا فإنني مجبر على الاستعانة بك مرة أخرى. قد تتكرم الإمبراطورة التي تعلّمت شقيقتاي على حسابها بأن تنثر عليّ بعض الفتات بوسيلة أو أخرى من يديها السخيتين. أعرف أن من المخجل والمريع أن أتقدم متوسلاً من جديد. لن يتحمل قلبي عبء كرمها بحيث أنه لا يمكنني التعبير عن مدى عرفاني. غير أنني لا أستطيع أن أفكر بأي وسيلة أخرى يمكنها أن تنتزعني من هذا الوضع وأدرك بأنني سأعاني من تأنيب الضمير، هذا إن لم أشعر بالذنب من تطاولي في طلب هذا الأمر.

تابعوا سفرهم في اليوم التالي في عربتين أيضاً حتى بيلاليستوك التي وصلوها في مساء اليوم نفسه ثم تابعوا سفرهم إلى سمولنسك. وبعد ثلاثة أيام وصلت العربتان اللتان يغلفهما الغبار إلى أبواب موسكو. فانوس يضيء بيت حراسة مخطط فيه حارس يحمل سلاحاً من النمط القديم، وحفرة يتجمع فيها ماء كدر. أصوات روسية تحيط بالعربة. أين أنت يا روما بسمائك اللازوردية؟

□ □ □

٤ ـ العودة إلى الوطن

في موسكو أقام جوجول لدى آل بوجودين. كان لديهم منزل أبيض ضخم خلف حديقة واسعة على حدود «فيرجنز فيلد». كانت غرفته في الطابق الثاني، وهي متسعة وأثاثها مريح. فيها خمس نوافذ وتطل على الشارع. كتب لأمه في مساء يوم وصوله لا ليعلمها بوصوله، إذ كان يمتلئ خوفاً من أن تأتي لتلتحق به. كان مغرماً بها ولكنه ليس على عجلة من أمره لرؤيتها من جديد. فهو يدرك أنه سيجد نفسه معها في جوٍ يعج بالمشكلات المالية، والقيل والقال الريفي، والحب الأبله، ومشاريع زواجٍ سخيفة. ولذا لجأ لنمط آخر من التضليل لكي يحول دون حضورها إلى المدينة. بعض الناس يرتاحون للصدق، أما هو فيجد متعة في الكذب، وبدلاً من أن يكتب في رسالته أنها صادرة من موسكو كتب: «تريستا» في (٢٦) «أيلول/سبتمبر (١٨٣٩)». ثم بدأ قلمه يخط كلماته على الصفحة: «لم أتخذ ترتيبات عودتي إلى روسيا بعد. إنني الآن في تريستا حيث بدأت آخذ حمامات في البحر، ويبدو أنها كانت كثيرة الفائدة لي. غير أن عليّ أن أتوقف الآن لأنني بدأت في وقت متأخر وسأعود لمتابعتها في الربيع، وإذا أتيت إلى روسيا فإن هذا لن يكون قبل شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، هذا إن تيسرت الفرصة لي لذلك وإذا لم تكن تكاليف الرحلة باهظة. فعليّ ألا ألجأ للتبذير نظراً لالتزاماتي. عليّ أن أوفر كل ما يمكنني توفيره لمستقبل شقيقتيْ عندما تتخرجان من المعهد وألا أرتكب بالتالي أي تصرف أحمق أو أن أخاطر بصحتي، وهو أمر لا شك بأنك ستؤنبينني عليه كأم عاقلة. ولذا فإنني لا أريدك أن تعلقي آمالاً زائفة. قد نرى بعضنا بعضاً هذا الشتاء، وقد لا يتسنى لنا ذلك. وإن حدث

والتقينا وأرجو ألا تؤاخذيني لذلك، فإنه سيكون لفترة وجيزة. سأغادر غداً إلى فيينا لكي أكون أكثر قرباً منك». بعد أن فعل ذلك واجهته مشكلة دقيقة وهي: أي عنوان يقدمه لماريا إيفانوفنا؟ أجل، عنوان بوجودين بالطبع! الكذبة الأولى هي الأكثر صعوبة، أما الباقيات فهي تتدفق بسهولة شأن فكّ التشابك في شلة من الصوف، إذ يقول لها: «أرسلي رسائلك إلى البروفسور بوجودين، فيرجنز فيلد، موسكو. ولكن عليك ألا تستنتجي بأنني سأكون في موسكو في وقت قريب. كل ما في الأمر أن رسائلك ستصلني بسرعة أكبر إذ ترسل من موسكو بواسطة سعاة بريد رسميين».

ولكي يرش بعض المنكهات على ما كتب كان عليه أن يصف المكان الذي يتظاهر بأنه فيه حيث يقول: «تريستا بلدة تجارية حيوية – نصف سكانها من الإيطاليين والنصف الآخر هم من السلاف الذين يتكلمون لغة قريبة من الروسية، أو من الأوكرانية. بحر الأدرياتيك البهي يمتد أمامي بأمواجه التي تجلب الصحة. لسوء الحظ أنني بدأت علاجي في هذا الوقت المتأخر. وداعاً يا أمي العزيزة. يمكنك أن تكتبي بصورة أكثر اضطراداً لأن رسائلك ستصلني خلال وقت أقصر. ابنك المحب الممتن، نيقولاي».

أرسل رسالة أخرى (في ٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر) بعد عدة أسابيع وهو ما يزال في موسكو، وكأنه الآن في فيينا ليعلن عن مغادرته الوشيكة إلى روسيا. قال إنه لا يتوقع رؤيتها لشهرين آخرين، إذ إن الرحلة ستكون طويلة جداً دون شك. غير أن بإمكانها أن ترسل القمصان التي أعدتها إلى منزل بوجودين، «فإن لم تكن مناسبة فإنني سأستخدمها للنوم».

قد تكون هناك مخاطرة في ثنايا هذه القصة: ملاحظة عابرة قد تنبئ ماريا إيفانوفنا بأن ابنها عاد إلى وطنه منذ وقت بعيد. حسناً، إن كشف أمره فسوف يرتجل قصة أخرى. فأمه سهلة الانخداع، ولديه هو الكثير من الخيال! غير أنه طلب من أصدقائه، وكإجراء احتياطي، أن يبقوا أمر عودته سراً، حيث كتب

لبلتنييف يقول: «إنني في موسكو، غير أن عليك ألا تذكر ذلك أمام أحد في الوقت الحاضر».

وبما أن بلتنييف كان قد فقد زوجته منذ وقت قريب فقد تابع جوجول في رسالته (المؤرخة في ٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٨٣٩) يقول: «علمت بفقدك وحزنت لذلك. أتدري أنه كان لديّ هاجس حول موتها، إذ عندما فارقتك آخر مرة كان هنالك ما يحدثني، وبطريقة غامضة، بأنك ستكون وحدك حين أراك في المرة التالية. لست أستطيع تحديد السبب غير أنني اكتسبت مؤخراً حاسة التنبؤ، غير أنه كان هنالك حادث واحد لم أستطع التنبؤ به: وهو موت بوشكين. فارقته وكأن فراقنا لن يتجاوز يومين. يا للغرابة! يا إلهي يا للغرابة! روسيا بلا بوشكين! سآتي إلى بطرسبرج وبوشكين ليس فيها. سأراك ولكنني لن أرى بوشكين!».

غياب بوشكين سيكون أكثر إثارة للانتباه في المكان الذي عاش فيه مما كان يمكن أن يكون له في إيطاليا التي لم يسمح له قط بالذهاب إليها. كان جوجول يرى باستمرار أشخاصاً على علاقة صداقة بهما كليهما ويشعر بذلك الغياب بصورة حادة. كان الأمر وكأنك تدقق في لوحة ألغاز غابت عنها القطعة الرئيسية. كان معارف جوجول قلقون بشأن مزاجه المتبدل، إذ كان من المستحيل بالنسبة إليهم أن يتنبؤوا مسبقاً فيما إن كان سيبدو منشرحاً مهذاراً أم منعزلاً، صامتاً حاقداً. فهو لا يحب الوجوه الجديدة عادة ويبدو متجهماً في كثير من الأحيان بوجود النساء. غير أن آل بوجودين أولوه كل الرعاية حتى كادوا أن يعمدوا لتنعيم زوايا قطع الأثاث ببردها لكي لا يصاب بكدمات لدى ارتطامه بها.

كان يقضي فترات الصباح في غرفته ليكتب ويقرأ أو يغزل «ملفحاً» بهدف تهدئه أعصابه. ثم ينزل وقت الغداء وهو مرتاح ويقظ ويتساءل عما أعد من طعام للعشاء. فإن كانت المعكرونة على لائحة الطعام فإنه يصر على أن يعدّها بنفسه بينما تراقبه العائلة كلها وهو يؤدي مهمته. وما يلبث أن يصعد إلى غرفته من جديد ليأخذ غفوة قصيرة. يعود للظهور في السابعة مساءً ويفتح أبواب

الغرف في الطابق الأرضي وهي على صفٍ واحدٍ، بما في ذلك غرفة المكتب التي يعمل فيها بوجودين - ويبدأ بالمشي. وعند كل من نهايتي الجناح الذي يتم فيه هذا التمرين يوضع له فوق حامل إبريق من الماء البارد بأمر من سيدة البيت. يتوقف كل عشر دقائق ليشرب كأساً من الماء. لم يكن مشيه هذا ذهاباً وإياباً يزعج بوجودين الذي لم يكن يرفع رأسه عن الورق الذي يكتب عليه. أما ابنهما الذي لم يكد يتجاوز سن الطفولة الأولى فكان يراقب مندهشاً ذلك الشخص الغريب، الظامئ، شديد النحول وهو يمشي إلى لا مكان ونور الشموع يعكس ظله الذي يسبقه لينعكس على خشب الجدران. ويقول هذا فيما بعد في مقال بعنوان «جوجول في بيت أبي («ضمن كتاب» جوجول في عيون معاصريه»): «كان يمشي مشية مهتزة وبأقصى سرعة مثيراً نسمة تجعل الشموع تنقط مما يثير انزعاج جدتي الشديد بحيث تصيح بخادمتها بين حين وآخر قائلة: «جروشا، هاتي شالي يا جروشا فهذا الإيطالي (كما كانت تسميه) يثير ريحاً لا يمكنني احتمالها!» فيجيبها جوجول قائلاً: «لا تغضبي يا جدتي. سأشرب إبريق الماء حتى آخره ثم أذهب»، وهذا ما كان يحدث، إذ ما إن يفرغ الإبريقان حتى يعود إلى غرفته. كان يميل برأسه إلى الجانب أثناء مسيره، بل في كل الأوقات. أما فيما يتعلق بملابسه فقد كان يهتم بالصدريات بشكل أساسي، وتلك التي يرتديها هي دائماً من المخمل الأحمر أو الأزرق. قلما كان يخرج ولا يحب التسليات وإن كان يتمتع بشخصية حسنة التقبل. أعتقد أن الشخصيات المشهورة تزعجه، وهو لا يرتاح لمراقبة الناس لكلامه ومحاولتهم جرّه للحديث معهم».

كان هذا «الإيطالي» في واقع الأمر يخاف المجتمع. كان يتشوق للمديح ولكنه يجيب بلهجة واحدة على كل من يمتدحه. وعلى الرغم من إصراره على السرية فسرعان ما تسرب خبر وصوله. وكان أول من رآه بعد انتقاله إلى بيت بوجودين الممثل شيشبكين الذي كان يكنّ لجولجول كل الإعجاب ويزدهي بالانتصار الذي يحققه منذ أشهر بأداء دوره في «المفتش العام». ذهبا معاً (في ٢ تشرين الثاني/ أكتوبر) لرؤية «سيرجي تيميوفيتيش أكساكوف» الذي كان قد حضر لتوه أيضاً إلى موسكو. كان أكساكوف، الأب والابن، يكادان يعبدان

الرجل الذي كان سيرجي تيميوفيتش يسميه «هوميروس روسيا»، وعندما أعلن عن وصول الضيفين هبّ جميع أفراد العائلة عن مائدة الطعام وقد استطاروا فرحاً. لم يكن وصول جوجول وقت الغداء متوقعاً، غير أنه أفرغ له مكان وألحوّا عليه بأن يتناول أفضل ما تحفل به المائدة. تعلقت جميع الأنظار به تعبيراً عن العرفان، ووسط حماسة أكساكوف رسم له هذه الصورة الزاهية بمديحها في كتابه «تاريخ علاقتي بجوجول»:

«لقد تغيّر جسمياً بصورة كلية بحيث لا تكاد تتعرف عليه. اختفت كل ملامح ذلك الشاب الحليق الأنيق الذي كان يحرص على أن يكون شعره قصيراً باستثناء تلك الخصلة فوق جبينه ويرتدي آخر «الموضات». أما الآن فإن شعره الهائل السميك يكاد يصل إلى كتفيه. ويكمل شاربه الوسيم، واللحية الصغيرة التي تغطي ذقنه ذلك التحول في هيئته. كما اكتسب كل ملمح فيه أهمية مختلفة. عيناه، وهو يتحدث، تعبران عن الغبطة واللطف وحب بني البشر. أما عندما يصمت أو يغرق في أفكاره فإن المرء يكاد يقرأ في سيماه طموحاً وقوراً لشيء سام رفيع المقام. وقد استبدل القفطان الذي لم يعد يرتديه إلا في مناسبات عابرة بمعطف عريض من الأسفل. غدا مظهره كله أكثر وقاراً. أما نكاته –التي يصعب على المرء إعادة روايتها – فهي أصيلة ومضحكة تثير لدى الجميع نوبات من الضحك الصاخب. في حين أنه لا يكاد يبتسم وهو يرويها لهم».

أما عندما سأله قسطنطين، ابن اكساكوف، فيما إن كان قد أحضر بعض ما كتبه من جديد أثناء سفرته إلى إيطاليا فكان جوابه مجرد «نخرة» قاطعة وتبعها بالقول: «لا شيء!».

بعد أول مقابلة لها مع جوجول كتبت زوجة باناييف (وهي كاتبة روائية متواضعة وإن كانت قد كتبت مذكرات مثيرة للاهتمام) تصفه بأنه صاحب مزاج متقلب يهرف في الكلام. كان يأكل كل يوم تقريباً لدى آل أكساكوف حيث كان يلقى ترحيباً وكأنه السيد المسيح. يجلس على كرسي عالي الظهر مترئساً المائدة.

وهي تتابع قائلة: «أمامه كأس من الكريستال وإبريق من النبيذ الأحمر. كانت تقدم له خاصةً فطيرة لحم باردة وقطعة من اللحم المشوي لا يمسهما أحد غيره. تقدم له ربة البيت طبقاً بعد آخر ولكنه يأكل القليل ويكلمها بلهجة تكاد تكون حادة. يجلس محني الظهر صموتاً ينظر إلى الآخرين شزراً. وقد تلمح ظل ابتسامة هازئة على وجهه بين آونة وأخرى. وعندما نغادر المائدة يتوجه وحده إلى المكتب ليأخذ فترة قيلولة بينما نشرب نحن قهوتنا على الشرفة في حين تأمر ربة البيت الخدم بألا يحدثوا ضجة وهم يجمعون الأطباق عن المائدة».

أما زوجها إيفان إيفانوفيتش باناييف (وهو صحفي وعضو في مجموعة «يلنسكي») فهو يقول في مذكراته الأدبية: «تركت ملامح جوجول الجسمانية تأثيرها فيّ. وأول ما لفت نظري هو أنفه النحيل الحاد الذي يشبه منقار طائر جارح. الملابس التي يرتديها تعبّر عن ادعاء الأناقة، أما شعره فمجعّد مع خصلة شعر مستعار تنتفخ فوق جبينه كما كانت «الدُّرْجة» السائدة في ذلك الحين. وقع هيئته كان يزداد انخفاضاً في نظري وأنا أتابع النظر إليه، إذ إنني كنت قد كوّنت صورة ذهنية نموذجية عن مؤلف «ميرجورود»، ولم تكن هذه الصورة تتوافق مع هيئة جوجول في الواقع. بل إن عينيه بعثتا لديّ اشمئزازاً، إذ إنهما صغيرتان ونفاذتان وذكيتان، وإن كانتا تعبران عن مكر وعن نوع من عدم الود».

وهو يتابع قائلاً: «لم يتحدث جوجول إلا قليلاً، وعلى وتيرة واحدة من دون أن تبدو عليه علائم الرغبة في الحديث. كان يبدو حزيناً مشغول البال، علماً بأنه لم يبدُ غافلاً عن الإعجاب والتوقير الذي يعامل به، ويتقبل ذلك على أنه يستحقه محاولاً إخفاء زهوه بهذه المبالغة في مديحة خلف قناع من عدم الاكتراث. هنالك ما يوحي بالتكلف والاصطناع في مسلكه، وهو ما يمقته من ينظرون إليه كرجل عادي، لا كنابغة. كانت عائلة أكساكوف تبدي تقديراً لا تحده حدود لموهبة جوجول، وبصورة تتسم بالسذاجة والعفوية الطفولية التي تصل أحياناً لدرجة السخف».

انتزع أكساكوف في النهاية وعداً من جوجول بقراءة أحد أعماله الأخيرة في بيته وذلك في الرابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر بعد مأدبة غداء حضرها أصدقاؤه. تجمع الضيوف في اليوم الموعود - وبينهم ناشوكين وبانايف وشيشبكين وجلسوا في قاعة الاستقبال في حالة ترقب تتسم بالمحبة. ولكن الدقائق مرت وعم القلق الجميع حتى وصل إلى حدود المطبخ. أخذ وجه ربة البيت يشحب ويحمر وهي تحدق بالباب دون أن يظهر جوجول. وصل في الرابعة بعد الظهر وقدّم، كالعادة، عذراً يتّسم باللامبالاة لتأخره، ثم جلس في غرفة الطعام، كما هي عادته، على المقعد عالي الظهر، في مقعد الشرف. وافق على أن يقدّم له الطعام قبل الآخرين جميعاً وشرب نبيذه الخاص من كأسه الوردي المصنوع من الكريستال دون أن يرفّ له جفن، وأخذ ينصت للحديث وعلائم الملل بادية عليه دون أن ينبس ببنت شفة. وما لبث أن تمدد بعد الغداء على أريكة أكساكوف، وخفّض رأسه وأخذ يغفو. وعند ذلك أومأ صاحب الدار إلى ضيوفه متوسلاً إليهم أن يخفضوا أصواتهم وأن يتوجهوا على رؤوس أصابعهم إلى قاعة الاستقبال. أخذت النسوة يعتصرن مناديلهن تعبيراً عن القلق: هل سيكون مستبشراً أم مكتئباً عندما يستيقظ؟ هل سيوافق على القراءة أم لا؟ أخذ أكساكوف يرقب النائم من شق الباب، وفي النهاية تثاءب جوجول وتمطط ونهض وانضم إليهم.

قال وهو يتثاءب من جديد: «أعتقد أنني كنت نائماً فعلاً!».

وبعد محاولات عدة بادره أكساكوف بالقول: «لقد وعدتنا فيما أعتقد. أنسيت ذلك؟»

أجاب جوجول: «أي وعد؟ أجل، نعم! لا، لست في مزاج مناسب هذا اليوم وستكون قراءتي سيئة. اعفوني من هذا العذاب!».

غير أن أكساكوف كرر رجاءه بصوت متهدج، فلان جوجول. انبعثت الحياة من جديد في وجوه الجميع وهمست النسوة. «سيقرأ، سوف يقرأ!»

ارتمى بطل الساعة على ديوان خلف طاولة بيضاوية، وأتحف الجمع بنظرة خاطفة حزينة، ثم تجشأ بصوت مسموع فجأة، ثم مرة أخرى، وثالثة. أجفلت النسوة بينما حوّل الرجال أنظارهم عنه.

دمدم قائلاً: «ماذا دهاني؟ يبدو كأنني أتجشأ! إنه عشاء الأمس لم أستطع هضمه. ذلك الفطر والحساء البارد مع الكفاس والسمك. أكل بعد أكل. بهذه البساطة. الشيطان وحده يعرف ما الذي لا يأكله المرء!».

ولفزع جمهوره تجشأ من جديد، ثم سحب مخطوطته من جيبه وبسطها أمامه وأخذ يقرأ: «هذه هي تأتي من جديد ثم هذه واحدة أخرى! فلنرَ، ربما إن ألقت نظرة على «نحلة الشمال»...

فهم الحاضرون في النهاية أن تلك التجشؤات والتعليقات إنما هي بداية المشهد في مسرحية جديدة، وعم الوجوه نوع من الارتياح وتجرؤوا على تبادل بعض نظرات الإعجاب. وفي النهاية انطلق وابل من التصفيق الصاخب[1].

ارتاح جوجول للاستقبال الذي لقيه هذا المشهد الساخر والذي يحمل عنوان «الدعوى القضائية»، ولذا أعلن أنه سيقرأ «فصلاً عظيماً» من نفوس ميتة».

سادت الغرفة عندئذ حالة يمكن وصفها بأنها هستيرية، ومع ذلك فإن موهبة المؤلف كانت تتفوق على موهبة القارئ. ومع كل جملة كان ينفتح أمام المستمعين عالم غريب يتجاوز الواقع، فاتر إلى درجة قاتلة، وعالم يصل إلى حد الهلوسة أحياناً أخرى مما أدار رؤوسهم. وقد كتب باناييف يقول: «ما إن انتهت القراءة حتى أخذ سيرجي تيموروفيتش أكساكوف وقد استحوذ عليه الحماس يتمشى بخطوات واسعة في الغرفة جيئة وذهاباً، وتوجه نحو جوجول، وشبك يديه بيدي جوجول ورمانا بنظرات سريعة ذات معنى وأخذ يردد: «هائل! هائل!» كانت عينا قسطنطين أكساكوف الصغيرتان تلتمعان وأخذ يدق على

(١) هذا المشهد هو من وصف باناييف في كتابه «ذكريات أدبية».

الطاولة بقبضة يده: «هنالك قوة هوميروسية، حقاً هوميروسية!» أما النسوة فكنّ في حالة نشوة وأخذن يتنهدن ويطلقن صرخات خافتة».

غير أن أصدقاء جوجول كانوا يريدون له أن يحظى بمديح الجمهور. ولذا أخذوا يحثونه منذ يوم وصوله على حضور عرض «المفتش العام» في مسرح البولشوي في موسكو. قالوا له إن الممثلين مستاؤون لأنه موجود في المدينة دون أن يتنازل لرؤيتهم وهم يمثلون مسرحيته. وقد عرضت الإدارة جدولة عرض للمسرحية في أي يوم يروق له. هل يمكن له أن يتحمل كل هذا الاستدراج دون أن يعدّ جلفاً ومغروراً؟ تغلب على نفوره واستسلم وتوجه إلى المسرح للعرض الذي سيتم في (١٧) تشرين الأول/ أكتوبر (١٨٣٩) آملاً ألا يلحظه أحد.

غير أن موسكو برمتها علمت أن الكاتب سيحضر العرض. وقبل وقت قصير من ارتفاع الستارة كانت القاعة البيضاء والذهبية مكتظة من مقاعد القاعة حتى الشرفات. انسل خلسة إلى شرفة شيرتكوف (وهو عالم آثار مرموق تعرّف عليه جوجول في روما) وهو الأول إلى اليسار، وتكوّم على نفسه في مقعد تظلله مقاعد نظارة آخرين. جلست عائلة أكساكوف في شرفة أخرى قريبة. بدأ العرض وكان الجو مثيراً. ونظراً لأن الممثلين كانوا يعرفون أن جوجول موجود في المسرح فقد بذلوا أقصى جهودهم في أداء أدوارهم. أخذ كل من شيشبكين الذي يلعب دور رئيس البلدية، وسامارين في دور خليستاكوف يبذلان كل ما في وسعهما في كل سطر من المسرحية بينما كان أفراد الجمهور يقهقهون ويصفقون. غير أن كل ذلك الانشراح الضاج أساء إلى جوجول: إذ كان مايشاهده مشهد هزلي ونجاحه إنما هو مبني على سوء فهم للمسرحية. هو نفسه أسيء فهمه، فهو خروف ضال في عالم الأدب في عصره، دخيل على هؤلاء البشر. لماذا أتى؟

طأطأ رأسه في الاستراحة الأولى ثم الثانية هرباً من عيون أفراد الجمهور الذين كانوا يبحثون عنه. ولكن بافلوف، وهو ناقد، اكتشف وجوده في شرفة شيرتكوف فأشار إليه وصاح طالباً التصفيق. ضجت الأصوات جميعاً

كأنها الرعد قائلة: «المؤلف! المؤلف!» أعلى الأصوات كان صوت أكساكوف. يالهؤلاء الرعاع! حماسهم هو مجرد زمجرة رعاع. وفجأة غمره الرعب، إذ إنه لم يكن قادراً قط في أي يوم من الأيام على تحمّل الجموع، بل إنهم يجعلونه يصاب بالدوار وكأنهم المحيط المتلاطم وهو يراهم من فوق صخور الشاطئ. أجل، الإعجاب هو دم الحياة بالنسبة إليه ولكنه كان دائماً النوع الخاطئ من الإعجاب. لم يكن هذا هو نمط المديح الذي يرغب به. فهو يقوم إما على الرياء أو هو واهٍ تماماً، وهو يأتي إما متعجلاً قبل الأوان أو متأخراً، دون أن يوجّه الوجهة الصحيحة. هذا المديح موجه إلى عمل يحتقره حالياً. بل إن هذا النوع من المديح هو تحبب واخز أكثر مما هو باعث على الارتياح لديه. يكفي! يكفي! أخذ الهدير يعلو في المسرح. الأيدي تصفق والأفواه تنفتح في الوجوه الوردية الكسيرة. تسلل جوجول من الشرفة، فرآه أكساكوف وأخذ يتوسل إليه بأن يظهر أمام الجمهور، ولكنه رفض. الأفضل له أن يلقي بنفسه في غياهب البحر. وفيما كان يختفي متستراً بظلمة الليل في الخارج اعتلى أحد الممثلين خشبة المسرح ووقف أمام الستارة ليعلن أن المؤلف ليس موجوداً في المسرح. دبت دمدمة تعبّر عن الاستياء إذ لم يسبق لمؤلف أن أظهر مثل هذا الازدراء لإعجاب جمهوره ولعاطفة ممثليه، فأي إهانة لهما كليهما.

قال بافلوف (كما ينقل عنه يانايف في «ذكريات أدبية» وكذلك أكساكوف في «تاريخ علاقتي بجوجول». موجهاً كلامه لقسطنطين أكساكوف: «جوجول يتصرف باستعلاء وبأس شديدين».

وفي اليوم التالي وبعد أن أدرك جوجول مدى الإهانة التي وجهها لمعجبيه وجه رسالة إلى زاجوسكين مدير المسرح طالباً نشر رسالته المليئة بالأعذار والتبريرات،. وكلها أعذار واهية. قال إنه هرب من المسرح في ليلة العرض لأنه كان قد تلقى أنباءً مزعجة تتعلق بأمه قبل ساعات من حضوره. ولذا فإنه، وعلى الرغم من التصفيق الذي قوبل به لم يكن قادراً على الوقوف أمام الستارة معبراً عن هذا النصر. غير أن بوجودين وأكساكوف حاولا ثنيه عن عزمه تقديم هذا

التفسير بعد أن شرحه لهما قائلين بأن هذا الاعتذار يوهم ظاهرياً بأنه صحيح. ماهو هذا الخبر الغامض المتعلق بأمه والذي لم يمنعه من حضور العرض ولكنه سبب له حزناً يمنعه من الاستجابة لتصفيق وهتاف الجمهور؟ لن يصدق أحد قصته، بل إنه هو نفسه لم يصدقها. ولذا اقلع، على مضض، عن فكرة إرسال الرسالة خصوصاً وأن موسكو كانت قد بدأت تذوي من فكره.

عليه الآن، وفق الخطة التي وضعها لنفسه، أن يتوجه إلى سانت بطرسبرج لإحضار أختيه. لم يكن يملك المال، غير أن أكساكوف كان على وشك التوجه إلى العاصمة لتسجيل ابنه ميخائيل البالغ من العمر أربعة عشر عاماً في سلك مرشحي فرسان صاحب الجلالة. كما سترافقهم الابنة فيرا، وأي مكان يتسع لثلاثة يمكن أن يوسعوا فيه مكاناً لشخص رابع.

بدؤوا رحلتهم في (٢٦) تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٣٩ حيث كان أكساكوف قد استأجر عربة ذات قمرتين. جلس أكساكوف وفيرا في القمرة الخلفية بينما احتل جوجول وميخائيل القمرة الأمامية. كان بإمكانهم التواصل بواسطة نافذة صغيرة جرارة مثبتة في الإطار الخشبي الفاصل بين القمرتين. تكوّم جوجول في الزاوية وقد رفع ياقة معطفه لتغطي أذنيه المتجلدتين، ولبس جوارب صوفية سميكة فوق حذائه وارتدى فوقه حذاءً طويلاً مصنوعاً من جلد الدب. كان يقرأ (شكسبير باللغة الفرنسية) معظم الوقت أو يغفو وهو يستند على كيسه السفري، إذ يحتفظ بهذا الكيس الذي يحوي لوازم زينته إلى جانبه حتى عندما يتوقف في المحطات. وقد كتب أكساكوف يقول: «كان هذا الكيس يحوي مرهماً عطرياً خاصاً يضعه على شعره وشاربه ولحيته، إضافة إلى عدة فراش إحداهما طويلة ومنحنية لتمشيط شعره الطويل، وكذلك مقصاً وقصاصة أظافر. . .» وكان يفتح النافذة الصغيرة التي تفصل قمرته عن تلك الخلفية ليتبادل الحديث مع أكساكوف حول أفضل الأساليب لتمثيل «المفتش العام»، وحول الأهمية المقدسة للفن، أو حول نواحي الجمال في إيطاليا. ولدى توقفهم في محطة تورجوك طلبوا دزينة من قطع اللحم (من اللحم المفروم تدهن بالبيض

وتقلى) للعشاء. وقد اكتشفوا عندما أخذوا يقطعونها وجود شعر أشقر مخلوط مع اللحم. وأثناء انتظار الطباخ الذي طلبوه لبيان الأمر أعلن جوجول بلهجة تنبؤية: «أعرف ماذا سيقول: «شعر؟ أين هو الشعر؟ وكيف يمكن أن يوجد شعر في قطع اللحم؟ ماهي إلا شيء تافه ولا شك، قد تكون ريش دجاج سقط البعض منها سهواً». عندما حضر الطباخ ردد خطبة جوجول القصيرة كلمة كلمة تقريباً فانفجروا جميعاً ضاحكين، بينما انسحب الطباخ غاضباً. بل إن فيرا ضحكت بعنف شديد حتى مرضت.

كان جوجول يبتدع شيئاً مماثلاً عند كل محطة توقف من باب التسلية. يلهو في الكلام مع «الجرسونات» والمسافرين وسائقي العربات. تتابع مسار الرحلة على وتيرة واحدة كان مفيداً له جداً، فالطريق الطويل المستقيم بين موسكو وسانت بطرسبرج هو نفسه الذي كان بوشكين يسلكه ويصفه. الأجراس تدندن، والأعمدة المخططة لقياس الأميال تتوالى بسرعة أمام عيونهم على نحو منتظم، وخلف زجاج النوافذ الذي يعلوه البخار تمتد أمامهم سهول منبسطة رمادية اللون، ثم ما تلبث أن تظهر قرية وقد تلطخت مزارعها الصغيرة بطين الخريف السميك، وأطفال بشعرهم المشعث وثيابهم الرثة يلعبون حول كومة من الروث، وعربة يقودها فلاح ذو لحية سميكة مشعثة، ثم المزيد والمزيد من الحقول على مد النظر وقد علاها الضباب. هكذا ظلت تتتابع الأمور على مدى خمسة أيام.

في الساعة الثامنة تماماً من مساء (٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر) أخذت العربة تتدحرج أخيراً في شوارع العاصمة حيث كانت المصابيح مضاءة هنا وهناك في أعلى الأعمدة. ودع جوجول آل أكساكوف وحمل حقيبة سفره التي ملأتها كتبه وفراشيه وتوجه إلى بيت آل بلتنييف الذين دعوه للإقامة معهم. ولكنه مالبث أن انتقل بعد غدة أيام إلى شقة جوكوفسكي الرسمية في قصر الشتاء.

كان هذا السكن يوحي بالترف الجليدي المهيب للمتاحف. فالمدخل يقوم عند أعلى درج رخامي تزيّن التماثيل جانبيه، ويقف خدم يرتدون بزات

خاصة عند كل بسطة من هذا الدرج على سبيل الحراسة. أما زوار الغرف شاهقة الارتفاع فهم يتحركون فيها بنعومة ويتحدثون بأصوات خفيضة غريزياً.

ثلاثة أرباع وقت جوكوفسكي يصرفه في أداء الأعمال الرسمية. فبوصفه معلم ولي العهد كان عليه أن يحضر مآدب العشاء الرسمية والحفلات الراقصة والاحتفالات جميعها. غير أنه ما يلبث أن يسرع لدى توفر ساعة من الفراغ لينتعل خفّيه ويرتدي ثوبه الصيني ويجلس وراء مكتبه ليكتب على عجل القليل من أبيات الشعر.

كتب في دفتر مذكراته في يوم وصول جوجول يقول: «جوجول يقيم معي»، وذلك إلى جانب ملاحظة حول مقابلة له مع الدوق الأكبر قسطنطين نيقولايفتش، وأخرى حول تناوله كوباً من الشاي مع ولي العهد وحضوره مأدبة عشاء لدى الدوقة الكبرى. غير أن جوجول، وعلى الرغم من ترحيب مضيفه الدافئ به، كان يشعر بالانزعاج في وسط تلك الألواح المذهبة التي تغطي جدران قصر الشتاء. وما إن أفرغ محتويات حقائبه حتى أسرع إلى المعهد الوطني لرؤية شقيقتيه.

وجدهما ترتديان مريلتيهما البنيتين وكأنهما راهبتان متدربتان في أحد الأديرة، وكانت مجرد فكرة خروجهما إلى ما وراء بوابة المدرسة تشلهما. فقد كانتا قد قضتا ست سنوات ونصف السنة دون أن تغادراه حتى لفترات العطل، وبدا وكأنهما تجهلان كل ما يتعلق بالعالم الخارجي جهلاً تاماً. فعالمهما مقصور على غرف الصف وملعب المعهد والمهجع وزميلاتهما الصغيرات والمعلمين والمفتشين. كانت آنّا التي أصبحت في الثامنة عشرة من عمرها أقل نضجاً حتى من أختها الأصغر إليزافيتا ذات السنوات الست عشرة. كلتاهما كانتا تفزعان من الوجوه الجديدة، ومن ضجيج الشارع، ومن الفئران، والظلمة والعواصف. وما أن تلاشى فرحهما برؤية شقيقهما حتى بدأتا تقلقان حول الحياة التي يقترحها عليهما. وبالقليل من المال المتبقي لديه اشترى لهما أثواباً وملابس داخلية وأمشاطاً وأحذية. أخذ يرتاد المحلات مهتدياً بما يحمله من أفكار تتعلق بشؤون «الدُّرْجة».

يرتكب أخطاءً، ويبدل بعض الأشياء بغيرها، ويصب لعناته على تعقيد الحاجات النسائية السائدة، وهو يقف حائراً محاطاً بشلالات الأقمشة والشرائط. وفي النهاية اقتلع شقيقتيه من معتزلهما ووضعهما في بيت صديقته الأميرة إليزافيتا بتروفنا ريبنين، والتي كانت تحمل منذ زواجها اسم بالابين، وذلك إلى أن يأخذهما إلى موسكو.

شعرت إليزافيتا وآنّا بالضياع الكليّ في ذلك البيت الغريب، وظلت الفتاتان ملتصقتين، تقلّبان أعينهما الفزعة، لا تحدثان أحد، ترفضان أن تطلا برأسيهما من الأبواب ولا تكادان تتناولان أي طعام. وقد كتبت إليزافيتا عن ذلك فيما بعد في مذكراتها (في عام ١٨٨١): «سألونا فيما إن كنا نريد غداءً» ولكننا رفضنا ذلك على الرغم من أننا كنا جائعتين جداً. غير أننا حين نكون وحدنا كنّا نزحف إلى الموقد لنسرق قطعة من الفحم ونأخذ بقرضها لأننا كنا نتضوّر جوعاً - كل ذلك بسبب حيائنا المضحك. أما العشاء فكان عبارة عن معاناة أخرى. لم آكل شيئاً خصوصاً أنني كنت أجلس إلى جانب أحد فتيان آل بالابين. كنت أتناول ما في الطبق الرئيسي دون أن أرى ما فيه. وقد أشار لي بالابين في أحد الأيام بأنني أخذت قطعة عظم، فما كان مني إلا أن رميت الشوكة وانفجرت باكية». إليزافيتا هي الأصغر ولكنها تتمتع بحيوية ولها وجه مبهج. أما آنّا، بأنفها الغائر وجبينها الضيق وعينيها الصغيرتين وكأنهما عينا طائر فهي صورة حية لشقيقها. كان الناس يظنونها عندما تدخل عليهم وكأنها جوجول متنكراً. وقد وصف أكساكوف هيئتيهما التي تدعو إلى الأسى وهما ترتديان ملابسهما الجديدة المبهرجة حيث كتب يقول (في كتابه «تاريخ علاقتي مع جوجول»): كانتا لا تدريان كيف ترتديان أثوابهما الطويلة وتدوسان على أطرافها باستمرار، تتعثران وتقفان، وهذا ما كان يزيد من اضطرابهما. لم يكنّ يجبن على الأسئلة الموجهة لهما. من المؤلم أن ترقب جوجول المسكين في هذه الحالة!».

كان جوجول قد جاء إلى بطرسبرج آملاً أن يتمكن جوكوفسكي من الحصول له على مرتب سنوي صغير من الإمبراطورة. غير أن الإمبراطورة

كانت مريضة ولذا لم تكن هنالك إمكانية للتقدم لها في ذلك الوقت. وعندما رأى أكساكوف أن «صديقه المتألق» في محنة لم يتردد في أن يقدم له ألفي روبل كان هو نفسه قد استدانها من المليونير «بلينار داكي». هذا المستوى من الكرم أربك جوجول وأخذ يشد بصمت على يدي أكساكوف حتى كاد يسحقهما وهو يحدق مطولاً وبحنان بعينيه. فكر بأن بإمكانه الآن أن يتوجه إلى موسكو ترافقه شقيقتاه. وبعد أن سدّد ديونه لم يبق لديه ما يكفي لهذه الرحلة. ولذا كان عليه أن ينتظر للاستفادة من عربة أكساكوف، سواء أحبّ ذلك أم لا. غير أنه كان على أكساكوف أن يبقى فترة أطول لقضاء بعض الأعمال في بطرسبرج ولم يكن يتعجّل المغادرة.

نفد صبر جوجول وسئم ذلك التأخير فجلس يلعن الطقس وهو يتمشى في غرفته الواسعة سيئة التدفئة في قصر الشتاء. فاجأه أكساكوف في أحد الأيام فوجده يلتف بالشالات من فكه حتى كاحليه، ومرتدياً طاقية بنفسجية على رأسه. كان مزاجه رديئاً فالإلهام يجافيه وحلقه ملتهب وأنفه يسيل. شقيقتاه غير متعلمتين، وهو يحتاج للمال ويريد أن يموت ويشتاق لروما. وقد كتب لبوجودين (في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٣٩) يقول: «لست أدري ماذا حلّ بي أو ما الذي أفعله في بطرسبرج. لا أستطيع التفكير بأي شيء، وليس هناك ما يخطر في ذهني. أن أفكر بأنني أضعت شهراً كاملاً هنا شيء مرعب! الخطأ خطأ أكساكوف! لقد أخرجني من ورطة ليدخلني في أخرى. كنت أود العودة معه إلى موسكو فقد بدأت أحبه حباً خالصاً، ومن كل قلبي. كما أن شقيقتي ستلقيان كل الرعاية وستنعمان بالرفقة في بيته. باختصار، من الحكمة أن أنتظره. كما أنه بثّ لديّ الأمل بأنه سيغادر في وقت قريب. ولكن أسبوعاً يمر يتلوه أسبوع آخر، وهاقد انقضى شهر وأنا على أهبة الاستعداد تماماً. شقيقتاي ترتديان ملابسهما وحقائبهما جاهزة، ولكن يا لبؤسي، لقد تسنّى لي الوقت لأقع فريسة للمرض إذ أصابني الزكام، وحلقي ملتهب، وأسناني تؤلمني وكذلك وجنتاي. لا يمكنني الجلوس دون حراك. يا إلهي، يا إلهي، متى أغادر سانت بطرسبرج؟».

أخذ يزور بعض رفاقه السابقين على سبيل تمضية الوقت. كما قرأ أربعة فصول من «نفوس ميتة» لدى بروكوبوفيتش، كما اجتمع في مكان آخر بالناقد بيلنسكي الذي كان معجباً به ككاتب. ولكنه حين رآه أبقى على مسافة بينهما وكأنما خابت آماله بجوجول كإنسان، كما حاول بعض أصدقائه إقناعه بحضور عرض «المفتش العام» الذي تؤديه فرقة بطرسبرج ولكنه رفع يديه فزعاً، إذ كفاه ما حدث في موسكو.

بعد أن سجل أكساكوف ابنه في سلك الفرسان المتدربين أعلن أنه على استعداد للمغادرة. ونظراً لوجود المزيد من الركاب هذه المرة فقد استأجر عربتين، إحداهما ذات أربعة مقاعد كان سيستقلها هو وابنته فيرا بالإضافة إلى آنا وإليزافيتا، وعربة ذات مقعدين لجوجول وصديق لعائلة أكساكوف اسمه فاسكوف. كان جوجول يتبادل المكان مع أكساكوف ليكون إلى جانب شقيقتيه في العربة الأكبر. كانتا في الواقع بحاجة للإشراف عليهما إذ كانتا تصابان بالدوار وتعجزان عن ضبط انفعالاتهما بحيث كانتا تصرخان عند كل رجّة، وترتجفان من البرد أو تشتكيان من الحر للمبالغة في لفّهما، وتبكيان من جراء شعورهما بالتعب، وتشعران بانزعاج معدتيهما ولكنهما ما تلبثان أن تنسيا شعورهما بالغثيان وتبدآن في التشاحن بلا سبب. كانتا ترفضان الطعام لدى التوقف في المحطات لأنه يختلف عن الطعام الأنيق الذي اعتادتا تناوله في المعهد الوطني. أما أكساكوف المتسامح فهو يبتلع انزعاجه ويحوّل نظره عن هاتين المخلوقتين اللتين أطلق عليهما، من باب السخرية، لقب «الوطنيات». جوجول من ناحيته كان يجاهد، بمساعدة فيرا، لإقناع الفتاتين الساذجتين بالحجة والمنطق فيما بين نوبات دموعهما. وقد كتب أكساكوف في كتابة سالف الذكر: «كان من المحزن والمضحك في آن معاً أن ترى جوجول. فقد كان غير قادر على التعامل مع تلك الوضعية، وكل جهوده ونصائحه لم تكن لتجدي نفعاً أو تؤدي إلى نتيجة أو تأتي في الوقت المناسب بحيث أن هذا الشاعر المتألق بدا أقل كفاءة في التعامل مع الوضع من أكبر مغفل في العالم».

غادروا سانت بطرسبرج في (١٧ كانون الأول/ ديسمبر) ووصلوا إلى موسكو بعد أربعة أيام. وبعد قضاء ليلة واحدة لدى آل أكساكوف توجه الكاتب وشقيقتاه إلى بيت آل بوجودين. كان جوجول ينوي وضع أنا وأليزافيتا في عهدة من يمكن الاعتماد عليه ويستطيع أن يعلمهما كيفية التصرف مع المجتمع لكي يسرع عائداً إلى إيطاليا مرتاح الضمير. ولكن من يريد أن يتحمل مسؤولية هاتين الفتاتين البدائيتين؟ كانوا يقيمون مرتاحين الآن في غرف في الطابق الثاني في ذلك البيت الضخم في «فيرجنز فيلد»، كان قدره، فيما يبدو، أن يعيش في بيوت الناس الآخرين، ويسافر على نفقة الآخرين ويأكل على موائد أناس آخرين. طفيلي، هذا ماهو عليه! ولكنه، برفضه أن يكتب من أجل الحصول على المال إنما يحافظ على نقاء عبقريته، ولا بدّ من التضحية بكل شيء بما في ذلك احترام النفس على مذبح الفن. لو يمكنه فقط استكمال «نفوس ميتة» بسلام، ولكن الأرواح الحية هي التي تحول بينه وبين تحقيق ذلك.

كان يبدي صبراً منقطع النظير إزاء آنّا وإليزافيتا على الرغم من كونه سريع الغضب في العادة. فقد يضع لهما تدريبات للغة الروسية والحساب ويشجعهما على إنجاز قطع تطريز، ويكافئهما بإعطائهما قطع الحلوى والمكسرات والخوخ المحلّى بالسكر وزجاجات العطر الصغيرة وعلبة للخياطة. وكانتا كثيراً ما تتوجهان إلى غرفته دون علمه وتفتحان أدراجه وتقلبان أوراقه وكراساته. وعلى الرغم من أن طيشهما هذا كان يصدمه غير أنه كان يتركهما تفعلان ذلك، ويختلط لديه في ذلك الحين شعور بالحنق والعطف في آن معاً. وإذا ما سيطر الخوف على إليزافيتا ليلاً بحيث لا تستطيع النوم فهو يجلس إلى جوار سريرها إلى أن تخلد للنوم.

يأخذهما أحياناً إلى غرفة مكتب بوجودين الدائرية الواسعة والتي تنيرها قبة زجاجية في سقفها، وذلك بهدف تنمية مداركهما وذوقهما. صفوف الكتب والمجلدات القديمة النفيسة تملأ الجدران من الأرض إلى السقف. كما تنام على الرفوف وعلى الطاولات مجموعة من المخطوطات سحيقة القدم.

يفسر جوجول لشقيقتيه المغفلتين المشدوهتين بصوت خفيض ماهية هذه الكنوز، أو قد يصطحبهما إلى اجتماعات أدبية في بيوت آل «خومياكوف» و«إيلاجين» «وكيريفسكي» حيث تجلسان يسيطر عليهما الملل إلى حد الخمود وهما ترتديان ثياب الموسلين الأبيض، وهو ما اختاره لهما لترتدياه إلى الأبد. وكان يتساءل بينه وبين نفسه أي رجل يمكنه أن يبدي اهتماماً بهاتين الفتاتين وهو يراهما تفتقران لأي قدر من اللباقة والرشاقة وقد ارتخت أذرعتهما وبدت عليهما أمارات الدوار وهما في وسط هذه النخبة من المفكرين.

كتب جوجول لدانيلفسكي (في ٢١ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٣٩) يقول:

«ستقيمان في موسكو حيث سأتركهما مع أصدقاء في مكان ما. يجب أن تبقيا بعيدتين عن البيت (في فاسيلييفكا) مهما كان الثمن لأن إقامتهما فيه ستعني نهايتهما إلى الأبد. تعرف كيف تتصرف أمي دوماً وعلى نحو يعاكس ما تريد فعله دون أن تدرك ذلك في الواقع. فهي، على أمل تحقيق السعادة لبناتها، إنما تغرقهن في اليأس وتعمد بعد ذلك للوم الله على نتيجة ما فعلت قائلة إن كل ما يحدث إنما يتم بإرادة الله. من العبث التفكير في العثور على زوجين لهما هناك في ظل ظروف الضائقة المالية القائمة في فاسيلييفكا في حين يتوفر لهما بعض الأمل هنا. حيث قد تتوفر لهما هنا أكثر من أي مكان آخر فرصة الالتقاء برجل لائق لا يبحث فقط عن الثروة. لست أدري ماذا أفعل بشأن ممتلكاتنا التي غدت على وشك الانهيار الكامل، علماً بأنه يصعب عليّ تفسير أسباب ذلك، فالإقطاعة جيدة من جميع الوجوه والفلاحون ملائمون، وهنالك أرض فسيحة، ولدينا أربعة أسواق كل عام، أحدها سوق للماشية في شهر آذار (مارس) وهو واحد من أكبر الأسواق في المقاطعة. لاشك بأن تخريب مثل هذه الممتلكات الممتازة تخريباً كلياً يتطلب جهداً كبيراً واضحاً في واقع الأمر».

لم يفكر بأن يذهب ليرى ماذا يمكنه أن يفعل من باب المساعدة بعد أن ألقى بالملامة كاملة على كاهل أمه فيما يخص سوء حظ العائلة. فمهمته هي النقد وليس الفعل. كما أنه لا يمكنه أن يوجد في مختلف الأمكنة في الوقت نفسه!

رسم لنفسه روتيناً معيناً في بيت بوجودين حيث يقيم لدى آل أكساكوف إذ كان يتناول طعام الغداء ثلاث مرات في الأسبوع على الأقل. ويصل فجأة عادة وهو يحمل ربطة من المعكرونة ليعدّها بنفسه - مع الزبدة والملح والفلفل وجبنة بارما - أمام المجموعة التي تبدي إعجابها. وصل في أحد الأيام وأعلن أنه سمح لنفسه باصطحاب الكونت «فلاديمير سولوجوب». ولكن ربّ البيت سمح لنفسه من ناحيته، على الرغم من تعامله الودي مع الآخرين، بأن يقطب جبينه إذ إنه لم يكن يحمل الكثير من الود لسولوجوب ووجد أن ما أقدم عليه جوجول إنما يفتقر للذوق السليم. وقد كتب أكساكوف عن ذلك قائلاً: «لو أن أحداً آخر من أصدقائي فعل ذلك لغضبت. غير أن كل ما يسرّ جوجول يسرّني أيضاً. أعتقد أنه لم يدرك مدى عدم لباقة ما فعل». وبحكم حبه لجوجول رحب بسولوجوب على مائدته - حيث تناولوا المعكرونة على سبيل التغيير.

غير أن المعكرونة حتى الإيطالية منها، لا يمكنها أن تحل محل إيطاليا. كان اشتياق جوجول لإيطاليا يتزايد باستمرار كمكان لا يمكن لأي مكان آخر أن يضاهيه في نظره. وهو يقول في رسالة لبوجودين (في ٢٥ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٠): «دعوني أهرب بسرعة بحق الله وجميع القديسين. دعوني أذهب إلى روما، فروحي سترتاح هناك! أسرعوا! أسرعوا! سوف أموت هنا».

ولكن من أين سيأتي بالمال اللازم للرحلة. الأسلوب الأفضل هو طبع شيء ما. غير أن أدراجه لا تحوي إلا أعمالاً لا يمكنه أن يفرط بها. ولذا اكتفى بمراجعة أعماله المنشورة سابقاً بهدف إصدار طبعة جديدة كاملة لها. «سميردين» وهو ناشر وموزع للكتب في بطرسبرج والذي كان أول من فاوضه، عرض عليه مبلغاً ضئيلاً. وحين تحول إلى موزعي الكتب في موسكو عرضوا عليه بدورهم شروطاً غير مقبولة لإدراكهم بأنه يحتاج للمال حاجة ماسة.

المشكلة بسيطة: عليه أن يستكمل «نفوس ميتة» لكي يوفر ما يلزمه لتأمين مستقبله ومستقبل عائلته. غير أن عليه أن يذهب إلى روما لكي ينهي «نفوس ميتة». ولكي يذهب إلى روما يحتاج للحصول على أربعة آلاف روبل بطريقة

أو أخرى. أما كيف يحصل على هذا المبلغ فلديه أصدقاؤه فقط، وهؤلاء لن يرفضوا، إن كانوا يؤمنون بموهبته، أن يشكلوا جمعية إغاثة تقتصر إغاثتها عليه. أسعدته هذه الفكرة فكتب لجوكوفسكي (في ٤ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٠) مصوراً ظروفه بعبارات بمنتهى السواد حيث يقول:

«كل الأمور تجري بشكل سيىء! فقطعة الأرض التي نملكها، وهي ملاذ أمي الوحيد، هي أرض فقيرة وستباع بالمزاد في وقت قريب، ولست أدري أين ستلقي برأسها حينذاك. كما أخذت تنهار آمالي بتأمين مكان لشقيقتيْ. أما أنا فإنني أعيش حالة رعب، وهو ما يشلّني ويجعلني عاجزاً أكثر من أي وقت مضى. عليّ، أن أعود إلى روما، بأي طريقة أو أخرى وبأسرع وقت ممكن، وبذا ستعود روحي التي تعاني من جرح قاتل إلى الحياة من جديد كما حدث لها من قبل، وعليّ هناك أن أكرس نفسي للعمل لإنهاء روايتي في غضون عام واحد إن أمكن. هذا ما فكرت فيه: أن تحصلوا على المال لي، ويمكن لكل منكم ممن تهتمون بي بالفعل أن تساهموا في جمع مبلغ أربعة آلاف روبل أستدينه منكم لمدة عام، وأنا من ناحيتي أتعهد لكم بأنني سأعيد هذا المبلغ مع الفائدة خلال عام إن لم تخنّي قواي ولم أمت».

أحجم جوكوفسكي لدى تلقيه هذه الاستغاثة عن جمع هذا المبلغ من أصدقائه الذين لم يكونوا هم أنفسهم في وضع أفضل، بل توجه مباشرة إلى تلميذه، ولي العهد الكسندر نيقولايفتش حيث كتب له في مطلع شهر كانون الثاني/ يناير ١٨٤٠ يقول: -

«جوجول معدم. أخرج شقيقتيه اللتين كانتا تقيمان في السكن الداخلي للمعهد الوطني. كما أن إقطاعة عائلته الصغيرة تتدهور وهو يحتاج لأربعة آلاف روبل. كنت أود لو أتدبّر له هذا المبلغ من مصدر آخر ولكنني لم أستطع ذلك. هل يمكن لي استدانة هذا المبلغ منكم؟ سأرسله في هذه الحالة إلى جوجول وسوف أسدده لك في أقرب فرصة، وهذا يعني قبل انقضاء عام أو بعد عام واحد على أبعد تقدير».

بعد أن تغاضى عن ليّ ذراعه قليلاً وافق الدوق الأكبر على دفع هذا المبلغ من مخصصاته الشخصية. نصر يتحقق! وبذا أخذ الضغط يتضاءل على رأس جوجول، وبعد أن تأكد من إمكانية عودته إلى إيطاليا قرر أن يستقدم أمه إلى موسكو في زيارة قصيرة. ويمكنها أن تأخذ آنا معها لدى عودتها إذ قرر بأنها غير قادرة على الإطلاق على التحضر. واستمرارها في الحياة في المدينة سيزيد الأمور سوءاً. ولكنه لم ييأس بشأن إيجاد مكان لاليزافيتا لدى إحدى الأسر المضيافة. وقع الاختيار أولاً على السيدة إيلاجين: ابنة شقيق جوكوفسكي. غير أن هذه المسؤولية أفزعتها فلجأت إلى عمها للحصول على نصيحته فأجابها غاضباً (في رسالة في ٢٦ شباط/ فبراير ١٨٤٠) على الرغم من استعداده المعروف لمساعدة كاتب «نفوس ميتة» حيث قال: «عليك ألا تقبلي هذا الاقتراح على الإطلاق إذ إن ذلك سيمثل ضعفاً غير مقبول من جانبك. فجوجول يتصرف أحياناً تصرف شخص أناني ومتقلّب. فقد عرض كل من بوجودين وأكساكوف استضافة شقيقتيه ولكن صاحبنا يريد للأمور أن تجري حسب مزاجه دون أي قدر، مهما كان ضئيلاً من اللباقة بمحاولته إلقاء مسؤولية فتياته على كاهلك على الرغم من أن لديك عائلة وليس لديك الصحة ولا الإمكانيات التي تمكنك من تحمل هذه المسؤولية».

وعلى هذا الأساس استجمعت السيدة إيلاجين شجاعتها وقد تعززت بهذا التعنيف من جانب عمها لتعلن لجوجول عن رفضها هذا الطلب. غير أنها التمست عطف صديقة لها، هي السيدة رايفسكي، امرأة تقية في الخمسين من عمرها لم ترزق بأطفال، ولذا كانت تتجه بعواطفها باتجاه الشابات المستحقات للرعاية واللاتي كانت تستضيفهن من باب الإحسان. وافقت السيدة رايفسكي على أن تأخذ إليزافيتا تحت جناحها. وهكذا حُلّت هذه المسألة بشكل جيد وأصبح بإمكان الفتاة الانتقال إلى مكان سكناها الجديد متى شاء شقيقها. غير أنه كان لابدّ من الانتظار بالطبع إلى أن ترى والدتها.

وصلت ماريا إيفانوفنا وابنتها الصغرى أولجا التي كانت قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها قبل عيد الفصح بوقت قصير، وانضمت إلى بقية أفراد العائلة في منزل بوجودين . . . أما ابنتها الكبرى ماريا فقد بقيت مع ابنها في فاسيلييفكا.

لاشك بأن جوجول ذكّر أصدقاءه بأن يبقوا تاريخ عودته إلى روسيا سراً، ولم تشك والدته قط بهذه الحيلة. والواقع أن ثقتها به كان من شأنها أن تتغلّب على أي دليل تراه بعينيها نفسها. وقد أدهشت الجميع بشبابها واتزانها. كانت بدينة ذات ملامح متناسقة وتعابير حيوية. وبذا، وعلى الرغم من أنها في الخمسين من عمرها غير أنها بدت «كأنها أخت كبرى لابنها». كانت تمعن النظر به خلسة بنهم المحب، أما هو فيعاملها باحترام وود مع إبداء الحرص عليها. غير أنه لم يكن قادراً على احتمال مديحها له طويلاً، كما لا يحتمل شكاواها أيضاً. أما عندما يخرج في المساء للالتقاء بأصدقائه فقد تبقى جالسة إلى جانب السماور مع والدة بوجودين حيث تشرع كل منهما في تعداد مناقب ولدها إلى أن يبحّ صوتاهما.

أما إن كانت لدى ماريا إيفانوفنا أية شكوك حول نبوغ ابنها فإن جو التزلف الذي يحيط به لدى كلٍ من آل أكساكوف وبوجودين قد بدّد هذه الشكوك بصورة كلية. ولابدّ أنها حضرت واحدة على الأقل من القراءات العديدة التي قام بها بحضور مجموعات من أصدقائه مثل تلك التي قام بها في مكتب بوجودين في ١٧ نيسان/ إبريل، في اليوم السابق لعيد الفصح، حين قرأ الفصل السادس من «نفوس ميتة» عندما يظهر «بايلوشكين» الشحيح أول مرة. كانت القراءة نصراً، وقد هنأ الجميع المؤلف وتنبؤوا بمستقبل باهر لهذا الكتاب الذي يبدأ هذه البداية المتألقة. أشد المتحمسين كان قادم جديد، وهو الكاتب السلافي الشاب «فاسيلي بانوف» الذي بدا وكأن نظره قد زاغ بفعل إلهام سماوي، وما إن سمع بأن جوجول سيتوجه إلى إيطاليا حتى عرض بصورة عفوية أن يرافقه ويتقاسم التكاليف معه.

كان جوجول قد نشر إعلاناً في صحيفة «موسكوفيت نيوز» يقول: «ليس لديه رفيق مرافق ولا عربة ويبحث عن مرافق في السفر يتقاسم معه التكاليف حتى الوصول إلى فيينا: فيرجين فيلدز - منزل البروفسور بوجودين، يُسأل عن نيقولاي فاسيلييفتش جوجول».

جاء اقتراح فاسيلي بانوف في الوقت المناسب تماماً. بدا هذا الشاب الشاحب النحيل، الذي تبدو عليه سيماء المرض وينسدل شعره الطويل المنساب على عنقه وسيماء السذاجة تظهر عليه خلف نظارتيه، بدا مرشحاً مناسباً وقد قبل جوجول مرافقته. وقد أبرم هذا الاتفاق بعد رحلة جماعية قصيرة لمشاهدة مواكب منتصف ليلة عيد الفصح والتي تخرج في وقت واحد من كنائس الكرملين. كانت الجموع الكثيفة والتي تتوزع بينها آلاف الشموع الصغيرة وتتدافع بكثافة وإن بهدوء في الساحة. كل موكب يشق طريقه المتعرج حاملاً راياته المتلألئة، تزينه أردية الكهنة التي يرتدونها أثناء القداس ليمر في الممر المتعرج المخصص له عبر جماهير المؤمنين الذين يستقبلونهم برسم إشارات الصليب على صدورهم. فرق المنشدين تصدح أصوات غنائها بقوة، وفجأة تجلجل الأجراس الضخمة لكنيسة «إيفان «فيليكي» لتعطي الإشارة للمسيحيين جميعاً للتعبير عن ابتهاجهم وأخذ رنينها المتناسق يقتحم الآذان بقوة لا تقاوم. أخذت الأرض تهتز، وبدأت أجراس أخرى تجيب من بعيد تلك الأجراس الأولى مضيفة ألسنتها النحاسية البورونزية ثلاثية الأصوات إلى ذلك الكورس، وأخذ الناس في الجموع يعانق بعضهم بعضاً سواء أكانوا أقرباء أم غرباء عن وهم يقولون:

«المسيح قام»

«حقاً قام».

تناول جوجول قبلة حمل المسيح الثلاثية مع أصدقائه. تهلل قلبه حبوراً، المسيح حقاً قام، وهاهو يعود إلى روما من جديد.

بعد أن ذرفت ماريا إيفانوفنا الكثير من الدموع غادرت موسكو (في ٢٧ نيسان/إبريل) مصطحبة كلاً من آنا وأولجا بينما عهد بإليزافيتا إلى السيدة

رايفسكي. أما جوجول فقد انغمس في استعداداته للمغادرة. وبما أن المسألة المادية لحياته في إيطاليا ظلت تشغله كما كانت من قبل فقد لفت نظره أن شخصاً اسمه كريستوف، وهو قريب لريينين، قد عيّن مديراً لأكاديمية الفنانين الشبان الذين يعيشون في روما. اشتعل ضوء في ذهنه فتحول من جديد إلى جوكوفسكي وسيطه الرسمي مع السلطات الأرضية جميعها حيث يقول في رسالة له في (١٣ أيار/مايو ١٨٤٠) «للمدراء سكرتيرون دائماً فلماذا لا أكون سكرتيراً لكريستوف. سيكون هذا مفيداً لي حيث قد أحصل على حوالي ألف روبل في العام. كم سيدفع ذلك عني تلك الأفكار السوداء الممضة! فما دام معظم الناس يحصلون على دخل ما عن طريق خدمة الدولة فلماذا لا أفعل ذلك أنا المسكين أيضاً؟ يمكنك أن تشرح وضعي لولي العهد وأن تقنعه وأن تكتب أنت نفسك لكريستوف».

لم يكن يعتقد فعلاً بأن هذه الخطة ستكون مجدية بأي شكل من الأشكال. غير أنه ليس هنالك ما يمنع من المحاولة. استرحام آخر لجوجوفسكي لن يضر.

ومن باب تقديم الشكر لأصدقائه ورفاقه الذين أظهروا نحوه كل ودّ خلال وجوده في موسكو فقد قرر دعوتهم جميعاً لحفل في (٩ أيار/ مايو) وهو يوم ظهيرة القديس نيقولا، إذ قرر أن يحتفل بهذه المناسبة برفقة مجموعة متجانسة كما يفعل كل سنة. قرر هو وبوجودين إقامة مأدبة غداء في الحديقة على الرغم من برودة الطقس واحتمال هطول المطر. وبما أنه من الواضح أن طباخهم العجوز سيمون لن يكون قادراً على تلبية المتطلبات فقد كان عليهم اللجوء للطباخ الشهير «بورفايري»، طباخ نادي موسكو التجاري الذي كان على معرفة واسعة بالكثير من الأطباق الأوكرانية الخاصة. رتبت الموائد منذ الصباح الباكر على طول ممر أشجار الزيزفون. أخذ بورفايري يقوم بمهامه في المطبخ – تحت رقابة جوجول الذي أخذ يرفع أغطية القدور، ويتشمم بتلذذ البخار المتصاعد من المقالي، ويشرف بشغف على إعداد الديك المسمّن وطيور السمان، ويتذوق الصلصات بكل اهتمام، ويقضم عيّنة من رقائق الفطائر ويعطي نصائحه بهذا الصدد. وصل

الضيوف في وقت مبكر ووجوههم تطفح وداً وتعبر عن شهية مفتوحة. كان من بينهم شيشيبكين وابنه، والأمير فيازمسكي، وناششوكين، وكيريفسكي، وشيفرييف، وزاجوسكين، والبروفسور آرمفيلد، وبافلوف، وديمتريف، وسادوفسكي، وردكين وكثيرون غيرهم. كما حضر أكساكوف على الرغم من أنه كان يعاني من ألم شديد في أسنانه.

ضابط مشاة شاب «ضئيل الحجم، يرتدي بزة حملة عسكرية ذات ياقة حمراء لا تحمل أي شارات مميزة» برزت هيئته وسط جمع المدنيين الذين يرتدون بزات ذات ألوان داكنة. كان ذلك هو الشاعر والروائي الروسي المعروف ميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤-١٨٤٤)، علماً بأنه كان قد نفي من سانت بطرسبرج للمرة الثانية بعد مبارزة بينه وبين «آرنست دي باربانتي» ابن السفير الفرنسي. وقد توقف في موسكو للالتحاق بفوجه في القوقاز. كان قد نفي أول مرة (عام ١٨٣٧) بسبب القصيدة التي كتبها بعد وفاة بوشكين، وكانت صرخة صادقة ضد الطبقة العليا التي دمرت شاعر الأمة العظيم. كان أصدقاء بوشكين جميعاً ممتنين له لشجاعته. وجوجول معجب به ككاتب للنثر والشعر، وقد قرأ لتوه كتاب ليرمنتوف «بطل من هذا الزمان» واعتبره واحداً من أعظم الأعمال الأدبية الروسية. غير أن ذلك لم يكن الوقت المناسب لتبادل المديح والإطراء. فالضيوف نفد صبرهم. وما إن جلسوا لتناول طعامهم حتى أخذت الضجة والحيوية تتصاعدان مع كل طبق يصل إلى المائدة. وأخذ كل واحد من الضيوف يقترح نخباً خاصاً. شربوا أنخاب بطل المأدبة، وصاحب الدار، والكتاب الروس إجمالاً، خاصة الحاضرين منهم.

تفرقوا في جماعات بعد انتهاء المأدبة. قرأ ليرمنتوف، بناءً على طلب أصدقائه، قسماً من قصيدته «المبتدئ» مما أدخل السرور إلى قلوب جمهوره. وبعد ذلك خلط جوجول مشروباً من الكحول وعصير الليمون والتوابل والشاي والماء تحت إحدى الشجرات. كان مرحاً ومنشغلاً، غير أن حبوره كان يبدو متكلفاً بعض الشيء. وفي المساء حضرت بعض النساء لتناول الشاي داخل

المنزل، وفي النهاية تفرق الجمع قبل منتصف الليل بوقت قصير وشعر جوجول بالسرور، على الرغم من إرهاقه، وذلك لأنه وفى بديْن يعبّر عن عرفانه بالجميل لكل من قدموا له تمنياتهم الطيبة.

كان يوم مغادرته يقترب بسرعة وأخذت السيدة أكساكوف تهيىء مؤونة للمسافرين: فطائر اللحوم الباردة، قطع الغريبة، النقانق، سمك الحفش المدخّن البارد. طلب جوجول من شقيقته إليزافيتا (في رسالة لها في شهر أيار/ مايو ١٨٤٠) أن تشتري له ثلاثة أرطال من السكر الذي كان عليها أن تقسمه إلى قطع، ورطلين من الشموع ورطلاً من القهوة.

في ١٨ أيار/ مايو صعد هو وفاسيلي بانوف إلى العربة التي تثقلها الحقائب والحزم. كما تكدس كل من أكساكوف وابنه، وشيشبكين وابنه وبوجودين وصهره في عربتين أخريين لمرافقة المسافرين حتى المحطة التالية خارج موسكو. ولدى وصولهم قمة مرتفع «بوكلوني» نزلوا جميعاً. كانت موسكو تمتد في أسفل المرتفع على جانبي النهر، ذلك الخليط من الأسطحة والأبراج والقباب. انحنى جوجول وبانوف بكل إجلال للمدينة التي يغادرانها ثم بدؤوا المسير من جديد. وما لبثوا أن توقفوا ثانية في محطة «بيرخوشكوف» لتناول المرطبات. كانت الوجوه حزينة. لم يكن بوجودين قادراً على النظر في وجه جوجول وكأنه غير قادر على أن يسامحه لتفضيله إيطاليا على روسيا. أما أكساكوف فقد تنهد، ونفّ أنفه، بينما ملأت الدموع عيني شيشبكين وحدق الشبان الثلاثة بالأرض. بل إن جوجول نفسه أظهر تأثره ووعد بالعودة في غضون عام واحد بالتأكيد مصطحباً الجزء الأول من «نفوس ميتة» جاهزاً للطباعة. كانت الشمس تغرق في الأفق، ونسيم خفيف يحرّك أشجار البتولا في الشارع وأخذ سائق العربة يبدي حنقه، ولكنهم جلسوا للمرة الأخيرة لدقيقة صمت وتأمل، وهي العادة الروسية المتّبعة قبل أي سفر، ثم هبّوا واقفين راسمين شارة الصليب وتعانقوا. صعد جوجول وبانوف إلى عربتهما التي أخذت تتضاءل مبتعدة في الأفق وهي

تهتز وترتفع وتنخفض في طريقها إلى وارسو. وما إن اختفت عن أنظارهم حتى اتجه الآخرون إلى عربتيهم.

وجه أكساكوف أنظاره إلى الأعلى في طريق عودتهم إلى موسكو: السماء نصف مغطاة بغيوم سوداء كبيرة. وقد كتب في كتابه «تاريخ علاقتي مع جوجول» يقول: «عمت الظلمة وملأنا شعور ينذر بالسوء. كان حديثنا كئيباً، وربطنا مصير جوجول بهذه السحب الجنائزية التي تخيم على قرص الشمس. غير أنه بعد أقل من ثلاثين دقيقة دهمَنا تغير مفاجئ، فقد فرّقت رياح شمالية غربية قوية تلك الغيوم المظلمة وحملتها بعيداً. وفي غضون خمس عشرة دقيقة أصبحت السماء صافية تماماً وأشرقت الشمس بكل عظمتها وأخذت تنعطف بجلال باتجاه الأفق فامتلأت قلوبنا بشعور من الحبور».

□ □ □

٥ ـ الرحلة الثانية إلى روما

كان للرحلة تأثيرها المهدئ على جوجول، شأنه دائماً. وقد أشبع غروره المديح المتدفق من قبل الشاب «بانوف»، فأخذ يطلق النكات ويفتح بتشوق عند كل محطة رزم الأطعمة التي أعدتها له السيدة أكساكوف. لم يكن يبدي تعجلاً زائداً للوصول إلى محطتهم النهائية. وصلت العربة في النهاية إلى وارسو بعد أن قطعت السهول الروسية التي لا تنتهي، تخللتها توقفات على مراحل قصيرة. هناك كتب لأكساكوف طالباً منه بعض الوثائق القانونية التي قال إنها ضرورية للمرحلة التالية من «نفوس ميتة». وبعد قيامهما بجولة في المدينة تابع وبانوف رحلتهما إلى «فيينا» عن طريق «كراكاو».

بعد أن نزلا في فندق في فيينا انغمسا في المشهد الصاخب النابض بالحياة: في المقاهي والمسارح ووسط فرق الموسيقى في حانات شرب البيرة. غير أن الصمت الثقيل لإدارة «مترنيخ»[1] الإمبراطورية كانت تخيم فوق ذلك الوجه السطحي البراق. كان من شأن جوجول، بحكم حبه الشديد لإيطاليا، ألا يشعر بالارتياح كضيف على من يضطهدون الشعب الإيطالي. غير أنه كان مصراً على عدم الخوض في أمور السياسة، ولم يكن يزعجه الحكم الاستبدادي الذي يرتدي قفازات بيضاء، ولا الرقابة التي تفرضها الشرطة، أو كبح جماح التعبير في الصحافة. ففي روسيا هنالك وضع مماثل، وهو من جانبه سيكون راضياً ما دام السلم والنظام قائمين. ذهب إلى دار الأوبرا للاستماع لأفضل

(١) مترنيخ هو السياسي النمساوي المعروف (١٧٧٣ – ١٨٥٩).

مغنيّ الأوبرا الإيطاليين، وشرب المياه المحفوظة في القوارير من مياه «مارينباد» كعلاج لمعدته التي أرهقتها الوجبات الوفيرة التي كان قد تناولها في موسكو.

كتب لأكساكوف (في ٧ تموز/ يوليو ١٨٤٠) يقول: «إنني وحيد هنا وليس هناك من يزعجني. الألمان في نظري هم مثل الحشرات التي يجدها المرء في كل بيت ريفي في روسيا. إنهم يدورون حولي ويزحفون عليّ ولكنهم لايزعجونني، وإن صادف وصعد أحدهم حتى أنفي فإن نقرة واحدة من إصبعي ترميه أرضاً. لقد قدمت لي فيينا استقبالاً إمبراطورياً! لم تغلق دار الأوبرا أبوابها إلا مرتين، ولأسبوعين كاملين كان أبدع المغنين الإيطاليين يحلقون بي ويرتقون بكل أحاسيسي. ما أعظم نعم الله، إنني على وشك أن أعود إلى الحياة من جديد».

في ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٤٠ كتب لبوجودين يقول: «أفادتني مياه «مارينباد» كثيراً، إذ بدأت أشعر بأنني أستعيد قوة الشباب. أعصابي متيقظة، وأفقت من حالة الكسل الفكري الذي ينحدر إلى درجة السبات التي غمرتني خلال السنوات القليلة الماضية... أخذت الأفكار تنطلق في ذهني وكأنها سرب من النحل الضاج. خيالي يشحذ، ولو تدرك مدى الفرح الذي أعيش في ظلّه. الموضوع الذي كنت أختزنه في ذهني بتكاسل طوال الوقت ولا أجرؤ على معالجته أخذ يتسع أمام عيني بدرجة تبعث لديّ رعشة رائعة تجتاح جسمي... وها أنا أبدأ العمل متناسياً أن هذا ما يجب على المرء أن يتجنبه بالضبط وهو يشرب هذا الماء، إذ إن ما يُنصح به هو الراحة التامة».

الموضوع الذي يشير إليه هو دراما أوكرانية بعنوان «الشارب الحليق» والتي لم يستكملها قط. غير أنه أنهى في تلك الفترة المسودة الأولى لقصته «المعطف»، وراجع «تاراس بولبا» من جديد، واستكمل اقتباساً لكوميديا إيطالية «ليجوفاني جيرود» (والذي يقلد كتابات المسرحي الإيطالي جولدوني ١٧٦٧-١٧٩٣) تحمل عنوان: «العم المتورط». ترجمت المسرحية إلى الروسية في روما من قبل فنانين شباب روس كان جوجول على معرفة بهم، وهي مسرحية ساخرة تعالج

آثار تربية متزمتة جداً، وكان جوجول يعتقد أنها تناسب الممثل الروسي المعروف «شيشيكين».

أصبح كذلك مهتماً بمشكلة التعليم بعد أن رأى شقيقتيه ونظراً لشعوره بالمسؤولية إزاءهن. أخذ يكتب رسائل أنيقة مطولة لهن علي أمل ضبط سلوكهن ولو عن بعد. كل رسالة كانت عبارة عن درس في الأخلاق. أخذ يعنّف إليزافيتا مثلاً لميلها للشكوى من أمراض تتخيلها -وكأنما هو لم يكن يطنب في رسائله إلى أمه وأصدقائه في الحديث عن أدق التفاصيل الخاصة بأمراضه، سواء في بطنه أم في ذهنه. فقد كتب لها (في ١٠ آب/أغسطس ١٨٤٠) يقول: «ماذا فعلت يا إليزافيتا؟ أمي تكاد تغصّ بدموعها. لماذا كتبت لها بأنك سقطت من العربة وبأن صدرك يؤلمك منذ ذلك الحين وعن مدى الملل الذي تشعرين به؟ ألا تخجلين من سخافتك؟ عليك أن تحاولي تهدئتها بدلاً من أن تكتبي لها رسائل مثل هذه؟».

أما «آنّا» التي اتبعت عادات الفلاحين في فاسيلييفكا والتي تقوم على الامتناع عن التطريز في الأعياد الدينية فقد تلقت تعنيفاً أكثر قسوة، إذ كتب لها رسالة (في ١٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٤٠) يوبخها فيها لاتباعها تلك العادات الريفية الغبية. وهو يقول إن عليها أن تستمع لصوت الله ولصوت شقيقها بدلاً من الاستسلام لشعوذات ثقافة بائدة، ويضيف: «وعلى هذا فإنني آمرك بالعمل وبأن تظلّي مشغولة، خاصة أثناء العطل، فيما عدا الساعات المكرسة للعبادة بالطبع. وإن قال لك أحد بأنك ترتكبين خطيئة فعليك ألا تقدمي له تفسيراً أو تحاولي أن تثبتي العكس له، بل قولي له ببساطة وباختصار وبحزم: هذه إرادة أخي. وأنا أحب أخي ولذا فإن أصغر رغبة له إنما هي بمثابة قانون بالنسبة إلي. ولن يزعجك أحد بعد ذلك».

ونظراً لأنه اقتنع في بداية شهر آب/أغسطس بأن مياه «مارينباد» تنعشه بالفعل فقد قرر تمديد أجل علاجه بها تاركاً بانوف يغادر وحده على أن يلتقيا في البندقية في شهر أيلول/سبتمبر. غير أنه ما لبث أن شعر بأنه يكاد يختنق وهو في

غرفته الصغيرة في الفندق، وأخذت تملؤه المخاوف. وعلى الرغم من أن الشمس مشرقة في الخارج والمدينة تعج بالحياة غير أن هذا الضياء وهذا النشاط الصاخب لا يصلان إليه، بل إنه فصل نفسه عن الحياة، بحيث أصبح غريباً حتى عن نفسه. أخذ صدره يشتعل بألم غريب وأعصابه تجفل تحت جلده ورأسه يحترق. من المستحيل عليه أن يفكر، وكل خطوة يمشيها تشعره بالدوار. وكلّ ما كان يراه وهم ممدد على سريره هو «فايلجورسكي» وهو يلهث ويبصق، وأخذ يشعر بأن برودة الموت تزحف إلى داخل عروقه. إنه وحيد، وحيد إلى الأبد في بلاد أجنبية، ليس هناك أحد من أصدقائه – أكساكوف، بوجودين، بلتنييف، جوكوفسكي –يمكنه أن يتفهم مدى عذابه. النجدة! طلب طبيباً. ألماني يرتدي نظارة ذات إطار ذهبي. كلمات علمية، ولكن دونما تشخيص قابل للتصديق. هل يفهم من ذلك أن الحكم قد صدر؟ وعمله، عمله العظيم الذي لم يتسنّ له أن يكمله؟ وأمه وشقيقاته؟ لا يمكن لله أن يستدعيه قبل أن يتوفر له الوقت الكافي لكي يرتب بيته. وما لبث أن حضر أطباء آخرون إلى جانب سريره من باب الاستشارة.

كتب لبوجودين (في ١٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٤٠) يقول: «تفاقمت حالة فرط الضغط العصبي لديّ بشكل هائل، والثقل على صدري يزداد ضغطاً، أكثر من أي وقت مضى. قرر الأطباء، لحسن الحظ، بأنني لست مصاباً بالسل، وأن المسألة هي اضطراب في المعدة، إذ إنني لا أهضم الطعام على الإطلاق وأعصابي كانت مرهقة بشدة، وهو ما زاد الأمور سوءاً إذ إن من الخطير إعطائي أي علاج. فما يفيد معدتي سيىء بالنسبة إلى أعصابي التي تترك بدورها تأثيرها العكسي على المعدة. ويضاف إلى ذلك حالة لا منطقية لا يمكن وصفها. لقد كنت في حالة لم أكن قادراً معها على الاستقرار أو التعلق بأي شيء. لم أكن أستطيع البقاء في مكان واحد لمدة عشر دقائق متتالية، سواء في السرير، أو على مقعد أو واقفاً. يا إلهي، كم كان الوضع مريعاً. كان العذاب نفسه الذي شهدته لدى فايلجورسكي في أواخر أيامه. وقد استجمعت كل

شجاعتي و كتبت وصية ما بحيث تدفع كل ديوني على الأقل بعد موتي ، غير أن فكرة موتي وأنا محاط من كل جانب بألمان كانت مفزعة لي» .

وصف «لماريا بالابيين» طبيعة مرضه فيما بعد حيث قال في رسالة لها (في ١٧ شباط/ فبراير عام ١٨٤٢): «تنامى في داخلي إحساس عاطفي حوّل كل الصور في ذهني إلى وحوش هائلة ، وضخّم كل شعور مقبول لديّ مهما كان ضئيلاً إلى غبطة مرعبة إلى درجة مفرطة بحيث لا يمكن للطبيعة البشرية تحملها ، كما تحولت كل فكرة مظلمة إلى حزن مستمر معذّب . وتلت ذلك نوبات إغماء تبعتها في النهاية حالات سير أثناء النوم» .

في اللحظة التي شعر فيها جوجول بأن العالم تخلى عنه حدثت معجزة ، إذ دخل غرفته روسي كان يقوم بزيارة قصيرة لفيينا . كان اسمه «نيقولاي بيتروفيتش بوتكين» وهو صديق لبيجودين وابن تاجر شاي غني . وما إن أدرك هذا مدى المحنة البدنية والعقلية التي حلت بمؤلف «المفتش العام» حتى أشفق عليه وتحوّل إلى ممرض مجاني له . وقد تحمل تقلبات مزاج مريضه وشكاواه وتولى بالإضافة إلى تمريضه محاولة إقناعه بالمنطق والحجة بأنه سيتجاوز المحنة . استعاد جوجول قوته وثقته بنفسه تدريجياً ، ولكنه ظلّ يشعر بأنه لم يعد كما كان من قبل . لقد عرف بنفسه ، وبلحمه وشحمه رعب القبر ، وعلى هذا فهو يعود من الشاطئ الآخر ، أو «أليعازر»[1] معاصر ، ولكنه ظل يشعر بالضعف لدى الوقوف وبالدوار من الضوء وينظر من علٍ إلى بني البشر الآخرين وكأنهم أطفال جهلة . فولادته الجديدة أعطته شعوراً بالتفوق وكأنه مثيل للمسيح . فكر بأن الله إنما أعاده إلى هذا العالم من جديد لأيام معدودة ليتم عمله . وقرر أنه لن يشفى تماماً حتى ينهي رحلته . وقد حاول بوتكين دون جدوى أن يبين له أن هذه فكرة مجنونة . غير أن جوجول كان عنيداً: أن تسمعه يتحدث عن أن ترنّح العربة أثناء السفر من شأنه أن يهدئ أعصابه ، وأن تغيير الأماكن يحسّن عملية الهضم لديه . وقد وافق بوتكين وهو قلق على مرافقته إلى البندقية .

(١) أليغازر: هو الذي أعاد إليه السيد المسيح الحياة بعد موته كما ورد في إصحاح يوحنا (١١) .

كتب لبوجودين (في ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٤٠) يقول: «عندما وصلنا إلى «تريستا» بدأت أشعر بتحسن. السفر، دوائي الحقيقي الوحيد، فعل فعله من جديد. وعلى الرغم من الحر الخانق فإن الهواء رطب دماغي. يا إلهي كم أتشوق للذهاب في رحلة طويلة جداً. شعرت، بل أدركت بأن أي شيء آخر لن يعيد لي صحتي على نحو مستديم. غير أنني لا أملك المال الكافي لذلك».

وصل إلى البندقية في ٢ أيلول/ سبتمبر وتوجه فوراً إلى ساحة «سان ماركو» ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام «بانوف» الذي كان قد وصل لتوّه أيضاً. كما انضم إليهم الرسام الروسي المشهور «أيفازوفسكي» الذي كتب في مذكراته يقول: «قصير نحيل له أنف طويل مستدق عند نهايته وشعر أشقر مجعد كثيراً ما يغطي عينيه شديدتي الصغر. غير أن جوجول يعوّض عن هذه الهيئة غير المغرية بحيويته واندفاعاته السحرية التي تلوّن حديثه حين يكون مع مجموعة من الأصدقاء. غير أن مجيء وجه جديد من شأنه أن يلقي ظلالاً على وجهه الودود وكأنما سحابة تمر من فوق وجهه».

على الرغم من أنه كان ما يزال ضعيفاً جداً فقد استكشف جوجول البندقية مع رفيقه بصورة شاملة مستخدماً القارب. حيث زار المتاحف والكنائس. حدّق بالبيوت المرمرية للنبلاء، جلس في ساحة «سان ماركو» تحت ضوء القمر، وانغمس كلياً في عالم الماء والحجر والانعكاسات، عالم يعمه الصمت وانعدام الوزن بحيث يبدو كأنه غير حقيقي. وبعد مرور عشرة أيام قضاها في التجوال توجه الرجال الأربعة (جوجول، وبوتكين، وبانوف، وإيفازوفسكي) في طريقهم إلى فلورنسا بعد أن توقفوا في «بولونا». أخذ الركاب يلعبون الورق وهم في العربة الفسيحة مستخدمين وسادةً عوضاً عن الطاولة. ومن فلورنسا توجهوا إلى روما عن طريق «ليفورنو» و»سيفيتافيشيا». وقد كتب بانوف الذي كان يراقب جوجول خلسة طوال الرحلة رسالة إلى أكساكوف يقول فيها: «كانت معدته وموضوع شفائه من حالته يشغلانه كلياً، غير أن أياً منا لم يكن يلتهم من المعكرونة ما يتناوله هو في بعض الأيام... وأعتقد، على وجه الإجمال،

بأن جوجول مخطىء في اعتقاده أن قيامه برحلة إلى الخارج هي كل ما يحتاجه ليستعيد قوته وطاقته اللتين يزعم أنه فقدهما. . . متاعبه لا تتأثر بالمناخ أو بالمكان مع الأسف ولا يمكنه الشفاء منها بسهولة. ربما تكون حالة جسمه برمته أخذت تتردى تدريجياً خلال السنوات العشر الماضية بحيث لم يعد علاجه ممكناً».

كان من حسن حظ جوجول في روما أنه استطاع استئجار نفس الشقة التي سبق له أن عاش فيها من قبل في «سترادا فيليس ١٢٦. وجد مكتبه المرتفع المحبب والنافذتين المرتفعتين بمصراعيهما الداخليين، والسرير المحاذي للجدار، والطاولة المستديرة التي تتوسط الغرفة، والمقعد الضيق المصنوع من الخيزران، والخزانة المتداعية، والمصباح الزيتي الروماني ذا الطرف المستدق، والأرضية التي يغطيها بلاط الموازييك والتي تلتمع لمعاناً واضحاً تحت الأقدام. نقل بانوف إلى غرفة في مكان قريب. ولكن هل سيكون سعيداً الآن؟ فكر بأنه سيكون كذلك في البداية وأسرع ليجوب الشوارع ليجدد معرفته بالحجارة وبالوجوه القديمة. لم يتغير شيء، غير أن هناك عالماً آخر، عالماً يعاني من كرب يكمن تحت سطح الأشكال الجميلة والألوان البهيّة. كل الأشياء: السماء الزرقاء، قبة كنيسة القديس بطرس، المواقع الأثرية: السوق الرومانية (الفورم) ومدرج روما القديم (الكوليسيوم) و»لاجو دو ألبانو»، بل حتى رسوم رافاييل، كلها تتحدث عن القبر. بقاء هذه الأماكن واستمرارها في حد ذاته إنما يذكره بقصر حياة الإنسان على وجه هذه الأرض. أصبح يتعب بسرعة وأخذ يقصّر مشاويره. لم يبق الكثير تقريباً من قرض ولي العهد البالغ أربعة آلاف روبل. أرسل إشارة استغاثة أخرى من فيينا مستفسراً فيما إن كانت هنالك أية فرصة له للحصول على وظيفة سكرتير لكريفتسوف في الأكاديمية الروسية في روما. وقد توجه إلى «بلتنييف» مسترحماً بدلاً من جوكوفسكي هذه المرة، حيث يقول له (في رسالة في ٢٥ حزيران/ يونيو ١٨٤٠):-

«كتبت لجوكوفسكي طالباً منه استخدام نفوذه لدى الدوق الأكبر نظراً لأنه هو الذي كان له الفضل في تعيين كريفتسوف في منصبه. . . ومن الواضح

أنه إذا طلب الدوق الأكبر من الإمبراطور فإن الأمر سيسوّى برمته. ولكنني فكرت بأنه يمكنك أنت أيضاً أن تكلم الدوقة الكبرى. فإن أمكن للدوقة «ماريا نيقولا يفنا» أن توصي بي فإن الأمر سيصبح أكثر فعالية».

ربما كان استرحام جوكوفسكي وبلتنييف غير مقنعين بما فيه الكفاية، أو قد يكون الدوق الأكبر والدوقة الكبرى سئما من المطالب التي لا تنتهي لهذا الروسي الذي لا يمكنه أن يعيش في روسيا. لم يصدر أي أمر من الجهات العليا على أية حال. أما آخر ما صدر عن كريفتسوف (في رسالة وجهها إلى بوجودين في ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٤٠) فهو في أن يكون سكرتيره «شخصاً ذا أهمية أوروبية وعالماً بالأمور الفنية». وبعد أن اقتنع جوجول بأنه لن يحصل على هذه الوظيفة روّض نفسه على العودة للاستدانة من معارفه مبالغ صغيرة في كل مرة. ونظراً لفقره وما أخذ يعتريه من قلق فقد فاجأه أنه أُصبح يندم على مغادرته روسيا. كم يحب ذلك البلد –ولكن عن بعد!.

كتب في «نفوس ميتة» (الجزء الأول –الفصل الحادي عشر) يقول: «روسيا، روسيا! إنني أراك عن هذا البعد الكبير، من حيث أقيم. إنك فقيرة، قاسية وغير مضيافة. ليست فيك أعمال فنية عظيمة تمتزج مع ما يوجد في الطبيعة، وتفرح العين وتدهشها. عبثاً يبحث المرء عن بلدات تحوي قصوراً شاهقة ترتفع على أطراف الصخور وتخترقها آلاف الشبابيك، بيوت يكسوها نبات اللبلاب وكأنه السجاد وتظللها الأشجار الرائعة، ويرطبها الضباب المتناثر من الشلالات الهادرة. لست تدفعين المرء لأن يرفع عنقه ليحدّق بالكتل الحجرية التي تتكدس فوق بعضها البعض لارتفاعات هائلة بحيث يصاب بالدوار. ليست فيك تلك المجازات المقنطرة المظلمة حيث تتعانق براعم الكرمة مع اللبلاب والورود البرية، وتلمح في نهاياتها الخطوط التي لا تتبدل لجبال تلتمع على البعد وتتكيء على سماء فضية شفافة. كل شيء فيك مكشوف –منبسط ومتشابه على الدوام. بلداتك خفيضة تبدو وكأنها مجرد نقط، أو إشارات قلما تتبينها وسط تلك السهول اللانهائية. ليس هناك ما يسرّ العين أو يأسرها. ولكن، ماهي تلك القوة

الغامضة غير المفهومة التي تجذبني إليك؟ لماذا ترنّ في أذني إلى ما لا نهاية تلك الأغنية الحزينة التي تتذبذب متنقلة من البحر إلى البحر عبر ذلك المدى الفسيح؟ ما معنى تلك الصيحة التي تنشج وتمسك بروحي؟ ماهي تلك الأصوات التي تزحف وكأنها عناق مؤلم إلى داخل قلبي حيث تسكنني على الدوام؟ ما الذي تريدينه مني يا روسيا؟ أي وثاق يوحّد بيننا؟ لماذا تنظرين إليّ بهذه الطريقة؟ لماذا تتحول نحوي عيون تلك الأشياء جميعاً؟».

حين يفكر جوجول بروسيا الآن فإن حنينه للوطن يتضاعف بحكم شعوره بتأنيب الضمير. أخذ يتهم نفسه بالسذاجة والأنانية والتباعد عن أصدقائه في سانت بطرسبرج وموسكو، وهو يعجب كيف يستطيع أن يعيش بعيداً عنهم.

كتب لبوجودين (في ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٤٠) يقول: «لم يعد لروما ولا للسماء أو لأي شيء آخر مما كان يبعث السرور في نفسي أي تأثير عليّ بعد. لست أراها ولست أحسّ بها، بل أحلم بطريق، طريق يملؤه الطين حين ينزل المطر، في وسط الغابات وعبر السهوب، طريق يقودني إلى نهاية الكرة الأرضية. غادرت موسكو وقد انتعشت قوتي وامتلأت طاقة وتصميماً على العمل، على الإنتاج. والآن، يا إلهي كم ضحّى أصدقائي من أجلي! متى يمكنني أن أعوّضهم؟ أنا الذي اعتقدت بأنني سأنهي هذه السنة الكتاب الذي سيحلّ مشكلاتي ويحررني من العبء الذي يثقل على ضميري المخادع! هاأنذا، يائس، ودون أية موارد تمكنني من استرجاع صحتي، وكثيراً ما أسائل نفسي وأنا بهذه الحالة: لماذا ذهبت إلى روسيا؟ غير أنني حين أتذكر شقيقاتي أقول: لا، لم تكن رحلتي عن عبث. أقسم بأنني فعلت الكثير من أجلهن. يالي من مجنون، حين ذهبت إلى روسيا فكرت أن «من المفيد لي أن أعود إلى هناك. ولكنني أشعر بأن ذلك المخزون من الغضب الضروري للكاتب آخذ في التلاشي، الغضب ضد الأعشاب الطفيلية الضارة التي تجتاح أرض الوطن. وبهذه الطريقة سوف أنعش ذاكرتي وسيصبح كل شيء واضحاً كل الوضوح أمام عيني. ولكن ماالذي جلبته من رحلتي؟ كل الأشياء السيئة تلاشت من ذهني، حتى تلك التي

كنت قد رأيتها من قبل، وكل ما يبقى لدي هو فكرة الجمال والنقاء الناتجين عن لقائي بأصدقائي».

وكتب للسيدة بوجودين في اليوم نفسه يقول: «لا يمكنك أن تتخيلي كم أعذب نفسي وأنا أفكر كم كنت قاسياً وعنيفاً ومملاً في موسكو، كم كنت قاصراً في التعبير عن مشاعري الحقيقية، وبدوت، من دون إرادتي، منطوياً على نفسي، منافقاً، متبدد المشاعر وبارداً. لو تعرفين كم ندمت عندما غادرت موسكو، لأنني تصرفت على هذا النحو السيئ. لست أعلق الكثير من الاهتمام على رأي الناس العاديين. أما أصدقائي فما زالوا يحبونني على الرغم من أنه كان من الواضح أنني لا أطاق».

ولكنه في نفس الوقت الذي كان ينعي فيه حالته الصحية السيئة أو مزاجه الأسوأ فقد أخذ جوجول يعمل -وبانوف يقوم بدور السكرتير حيث يتولى نسخ الصفحات حالما تسقط من يد الكاتب. كانت «نفوس ميتة» تتقدم إلى الأمام وشخصيات جديدة تأخذ شكلها بتقدم الفصول من فصل إلى آخر. ولكي يبقى على مستوى ذهني مرتفع أخذ يقرأ كتابات القديس فرنسيس الأسيسي (١١٨١-١٢٢٦) وهو قديس إيطالي ومؤسس رهبانية الفرنسيسكانية) والشاعر الإيطالي دانتي (صاحب الكوميديا الإلهية ١٢٦٥-١٣٢١) وشاعر اليونان هوميروس. وقبل أن يستكمل الجزء الأول من روايته -التي أراد أن يسميها قصيدة مثل الكوميديا الإلهية- بدأ يضع خطط الجزء الثاني منها. وفكرتها في حد ذاتها جعلته يشعر بالقداسة وعلو المقام. فالله موجود بطريقة ما في الحبر الذي يغمس فيه قلمه.

يقول في رسالة لبوجودين (في ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٠): «لا تخشَ شيئاً بعد، فالبركة السماوية أمر رائع. صحتي عادت وأنا أمتلئ طاقة، وهاأنا أجري تصحيحات وتعديلات على نص «نفوس ميتة»، بل وبدأت أفكر بالأجزاء المكملة لها. أرى الموضوع يزداد عمقاً شيئاً فشيئاً. أنوي نشر الجزء الأول في السنة القادمة إذا سمحت لي بذلك القوة المقدسة التي أنعشتني. تنامى

الكثير في داخلي في غضون فترة قصيرة، ولكنني لا أستطيع الحديث عنه بعد وإن كنت لا أدري ماهو السبب الذي يمنعني من ذلك. عليك أن تتفهم بأن إنساناً ولد ليبدع في أعماق روحه، ليعيش ويتنفس عن طريق أعماله، مثل هذا الشخص لابد له أن يبدو غريباً في عيون المحيطين به. ولكن يكفي أنني في وئام مع نفسي، وئام يجعلني أنسى أنني لا أملك كوبيكاً واحداً. لست أكترث لاي شيء».

أرسل في اليوم نفسه لأكساكوف رسالة أكثر تعبيراً حيث يقول: «أنا الآن منشغل بمراجعة المجلد الأول من «نفوس ميتة» حيث أبدل وأختصر وأعيد كتابة مقاطع عديدة، ويتبين لي أثناء ذلك أنه لا يمكن للكتاب أن يطبع في غيابي. أما الأجزاء التالية فهي تصبح أكثر وضوحاً ومهابة في ذهني، وأعتقد أن شيئاً هائلاً يمكن أن ينتج عنه إن لم تخني صحتي السقيمة. غير أن المؤكد على أية حال هو أن عدداً قليلاً من الناس يدركون ماهية الأفكار الفعالة والصور الذهنية العميقة التي يمكنها أن تتنامى من موضوع قليل الأهمية، وأنت تعرف بالفعل الفصول الافتتاحية لها».

من أجل هذه «الأفكار الفعّالة» و «الصور الذهنية العميقة» دعا أصدقاءه لنجدته من جديد. فالله منحه الإلهام، وعلى البشر أن يمدوه بالوسائل التي تمكنه من وضع هذا الإلهام موضع التنفيذ، فهو بصدد تقديم هدية لهم تجعلهم جميعاً مدينين له منذ الآن.

كتب لأوكساكوف بعد أشهر عدة (٥ آذار/ مارس ١٨٤١) يقول: «عليّ أن أحدثك في أمر هام ولكن بوجودين هو الذي سيخبرك بماهيته. إنني أطلب المساعدة بشكل مباشر وصريح. لي الحق في ذلك، هذا ما أشعر به في قرارة نفسي. أجل يا صديقي، إنني سعيد سعادة عميقة، وعلى الرغم من سوء حالتي الصحية التي ازدادت سوءاً بعض الشيء من جديد، غير أنني أخضع للحظات سماوية. هنالك عمل رائع يتنامى ويكبر في روحي بحيث أن عينيْ كثيراً ما تغرورقان بالدموع عرفاناً وامتناناً. إرادة الله المقدسة واضحة هنا كل

الوضوح. فمثل هذا الإلهام لا يأتي من البشر، ليس هنالك إنسان تخيّل مثل هذا الموضوع. يا إلهي، ليت هذا يستمر لثلاث سنوات بعد. كل ما أطلبه هو فسحة كافية من الحياة لكي أستكمل عملي وليس ساعة واحدة فقط».

سيرد هذا المال، الذي لا يمكن لأصدقائه أن يرفضوا تقديمه له، حالما يصدر المجلد الأول من «نفوس ميتة»، وبعبارة أخرى في غضون سنة واحدة كحد أقصى. بل إنه قرر العودة إلى روسيا لمتابعة مرور الكتاب بمكتب الرقيب وللإشراف على طباعته. غير أن ضعفه الجسماني كان يثير قلقه.

تابع في الرسالة السالفة يقول: «أخشى أن أقوم بهذه الرحلة وحدي. فمن المؤلم، بل ومن المستحيل عليّ أن أتحمل القلق وكل الإزعاجات الصغيرة الخاصة بالسفر. عليّ أن أبقى هادئاً وسعيداً، وأن أحافظ على إطارٍ ذهني مرح، ولابدّ لي من أن أتقي الإزعاجات وأن ألقى الدلال».

اقترح كذلك، وكأمر طبيعي، أن يحضر كل من الممثل شيشيبكين وقسطنطين، ابن أكساكوف إلى روما لكي يأخذاه في طريق العودة حيث يقول في الرسالة نفسها: «عليهما أن يعتنيا بي، ليس من أجلي كشخص، لا بالتأكيد، بل إنهما سيقومان بعمل مجد. ما سيحضرانه ليس سوى مزهرية من الفخار، مليئة بالشقوق، إن أردنا الصِّدق، قديمة لا تكاد أجزاؤها تتماسك. غير أن هناك كنزاً في تلك المزهرية ولابدّ من العناية بها».

كان أكساكوف وبوجودين يتناقشان حول هذا الأمر في موسكو. فطلب جوجول المستمر للمال يضعهما في موقف صعب. فكر بوجودين، الذي كان قد أسس لتوّه دورية جديدة تحمل اسم «الموسكوفي» في عام ١٨٤١ بأنه يمكن «للإيطالي» أن يرسل له صفحات لم تطبع بعد مقابل المال المرسل له. طرح أكساكوف هذه الفكرة في رسالة له ولكن جوجول استشاط غضباً لدى قراءته لها. يبدع بناءً على الطلب؟ من يظنونه؟ من الواضح أن أصدقاءه في موسكو أخفقوا في فهم الطبيعة المقدسة لرسالته. أجاب أكساكوف في رسالة (في ١٣ آذار/ مارس ١٨٤١) حيث يقول:—

«تكتب لي قائلاً: بأن عليّ أن أرسل مادة لبوجودين لدوريته. يا إلهي، لو أنك تدري كم يؤلمني هذا الطلب ويثبط همتي، كيف يعذبني ويملؤني غمّا! أن أنتزع نفسي، ولو للحظة واحدة، من واجبي المقدس. فمثل هذا إنما هو بمثابة كارثة بالنسبة إلي. وكل من يدرك ما سيكلفني ذلك سيحجم عن تقديم هذا الاقتراح من جديد. أقسم بأن انتزاعي من عملي إنما يمثل خطيئة، وخطيئة كبرى. لا يمكن لشخص أن يتصرف بهذه الطريقة إلا إن كان لا يؤمن بما أقول ولا يضمر أفكاراً سامية. عملي عظيم ويمكنه أن يوصل للخلاص، وأنا منذ الآن شخص ميت بالنسبة للأمور الأقل قيمة. عانق بوجودين وقل له إنني أبكي، ولست أنفعه في دوريته. وإذا كان يملك حبّاً روسياً صادقاً لبلاده فعليه أن يطلب مني ألا أرسل اي شيء على الإطلاق».

في عدد آذار/ مارس، ونيسان/ إبريل ١٨٤١ نشر بوجودين مشاهد قليلة من نص جديد «للمفتش العام» وجزءاً من رسالة إلى بوشكين في دورية «المسكوفي» دون تفويض من جانب جوجول. وهو يكتب في دفتر مذكراته: «رسالة من جوجول يطلب فيها نقوداً. أود ألا أرسل له أي مال». ولكنه فعل، وإن كان ما أرسله مبلغاً أقل مما يرغب به مراسله الذي كان يتوقع ضعف ذلك المبلغ.

كتب له (في ١٥ أيار/ مايو ١٨٤١): «أشكرك شكراً جزيلاً لإرسال هذه النقود. استلمتها، ولكنها نصف المبلغ كما تعلم. سددت ديني ولكنني في وضع حرج هنا. فإن كنتم لم ترسلوا لي بقية المبلغ، وهو ألفا روبل لدى وصول هذه الرسالة فيا ويلتاه. يا ويلي! سيتوجب عليّ أن أبقى في روما في أحرّ أيام الصيف».

أمر آخر كان يقلقه، إذ إن أكساكوف كان قد فقد لتوه ابنه ميخائيل، وابنه الآخر، قسطنطين كان حزيناً لوفاة أخيه ولم يكن يريد الابتعاد عن والديه، حتى ولو كان ذلك من أجل مرافقة الكاتب الذي يعجب به أيما إعجاب. كما أعلن شيشيبكين أنه لا يستطيع الذهاب إلى إيطاليا، بينما كان بانوف يستعد

للسفر من روما إلى برلين. شعر جوجول بأن الجميع يهجرونه. لا يمكنه أن يصدق بأنه من المستحيل ألا يكون هناك روسي واحد في مكان ما يمكنه أن يكون من الإخلاص بحيث ينطلق معه في اليوم الذي يختاره للعودة.

وهو يضيف في رسالته إلى بوجودين: «ها أنذا منبوذ، تنتابني المخاوف عندما أفكر بأن عليّ أن أعود وحيداً. فالرحلة بعربة السفر العامة وكل المشكلات المتعلقة بالسفر لم تكن سهلة عليّ من قبل وهي الآن تصبح بمثابة عذاب. إنني أشارك آل أكساكوف شعورهم بكل عمق، لا لأنهم فقدوا ابناً لهم فحسب بل كذلك لأن أي ارتباط شديد لا متناه بأي أمر في هذه الحياة هو مصدر لعذاب ممضّ».

عطلة عيد الفصح التي كان يهيئ نفسه لقضائها وهو في حالة مزرية أتت له بعزاء رائع. إذ عندما رفع رأسه في أحد الأيام رأى بالباب شخصاً قصيراً مليئاً بلحية وشاربين: كان هذا صديقه أنينكوف المعروف باسم «جوليس جانين». كان ماراً بروما في طريقه إلى باريس. وفي الحال أخذ جوجول يبين له بأن باريس هي عبارة عن مجرور عفن بالمقارنة مع «المدينة الخالدة» وحثه على البقاء لعدة أسابيع على أقل تقدير إكراماً للفن وللصداقة، وبما أن بانوف كان قد توجه إلى ألمانيا فقد صادف أن كانت غرفته خالية فانتقل إليها أنينكوف وعرض عليه أن يتولى نسخ «نفوس ميتة» وجوجول يقوم بإملائها عليه. قررا العمل لمدة ساعة واحدة يومياً. أما بقية الوقت فلكل منهما، نظرياً، أن يذهب حيث يشاء. غير أنهما في الواقع كانا يلتقيان في أماكن أخرى، بل إنهما حين يبقيان في البيت فإن الباب الفاصل بينهما يبقى مفتوحاً.

كان جوجول ينهض باكراً لكي يكتب وهو يقف وراء مكتبه. ويضع قلمه بين آونة وأخرى ليشرب كأساً من الماء البارد. وقد يتناول إبريقين أو ثلاثة من الماء في الصباح. فمنذ مرضه في فيينا قرر أن الماء وحده قد يريحه. قال بأن أجهزة جسمه لا تشبه غيره من الناس. فله خصيصة «معدة مشوهة». «لا يمكنك أن تفهم ذلك، ولكن هذا هو الواقع، وأنا أعرف نفسي». غير أن هذا لم يكن

يمنعه بعد إنهاء عدة صفحات من الذهاب إلى مقهى «ديل بون جستو» ليتناول إفطاراً غزيراً هناك. كان شديد العناية بشكل خاص بنوعية «الكريما» التي يتناولها مع القهوة. وبعد أن يأكل ويشرب كان يتمدد على المقعد الطويل. وفي الساعة المحددة كان الصديقان يجتمعان في البيت للقيام بجهدهما المشترك. يعمد جوجول لإغلاق مصراعي النافذة اتقاء للحرّ الحارق الداخل من الشارع ويجلس إلى الطاولة المستديرة، ويفتح كراسه ويبدأ في الإملاء. ويقول أنينكوف في «ذكريات أدبية» وتحت عنوان: «جوجول في روما»: «كان يملي عليّ بهدوء وجدية وبانفعال وقوة بحيث إن الفصول الافتتاحية لنفوس ميتة تبقى أقوى تأثيراً على ذاكرتي مقارنة بالأجزاء الأخرى. كان ينتظرني حتى أنتهي ومن ثم يبدأ جملة أخرى بنفس الصوت المصمم. ويتسلل إلى الغرفة في كثير من الأحيان نهيق حمار إيطالي، وما نلبث أن نسمع صوت عصاً تضرب جنبيه يرافقه صوت امرأة تصيح: «هاك يا بهيمة»، فيتوقف جوجول ويقول وهو يبتسم: «هذا الشيطان، لقد تكاسل!» ثم يتابع الإملاء بالقوة والإيمان السابقين».

كان أنينكوف ينفجر ضاحكاً بحيث ينقلب إلى الخلف على كرسيه في المقاطع الأكثر إثارة للضحك. كان جوجول يعنفه بشدة قائلاً: «حاول ألا تضحك يا جوليس». بل إنه هو لم يكن قادراً على كبح جماح مرحه الصاخب.

ولكنه ما يلبث في لحظات أخرى أن يتخذ مظهراً يكتنفه الجلال محدقاً بالفضاء ويداه المهتاجتان ترسمان منظراً ضبابياً وهو يتكلم. وفي هذه الحالة التي تقارب الهوس يصف حديقة الشحيح «بلايوشكين». وحينذاك، وحين انتهى صاح أنينكوف: «أعتقد أن هذا الفصل عمل عبقري!».

وحينذاك أغلق جوجول كرّاسه ولفه على شكل أنبوب وأجاب بصوت خافت: «تأكد بأن الفصول التالية لن تكون أقلّ شأناً». وبعد ذلك، وقد أسعده أن يترك مثل هذا الأثر في نفس من يملي عليه، فإنه يعمد إلى أخذ أنينكوف في مشوار في المدينة. وقد راق مزاجه في ذلك اليوم بحيث انطلق في أغنية شعبية أوكرانية في أحد الأزقة خلف ساحة «باربيريني»، وأتبع ذلك ببعض الخطوات

الراقصة مع إيماءات بذراعه، بل كسر المظلة التي كان قد أحضرها خشية هطول المطر.

غير أن ذهنه كان يتخذ منحىً تعليمياً في العادة في هذه المشاوير إذ يقود أنينكوف إلى المتاحف والكنائس وإلى مدرج روما القديم (الكوليسيوم) أو إلى السوق القديمة (الفورام) ويعلق بصوت خافت على المعالم الأثرية المحيطة بهم، أو يغرق في تأمل صامت قد يستغرق ساعات في بعض الأحيان. كانا يتناولان طعامهما في مطعم «ليبري» أو «فالكوني» حيث كانا يلتقيان بالرسامين الروسيين «مولر» و «يوردان». كان جوجول ينتقد طريقة إعداد الأطباق، ولكنه يلتهمها مع ذلك بكل نهم. وقد كتب أنينكوف عن ذلك يقول: «كان ينحني فوق طبقه بحيث أن شعره الأشقر ينسدل فوق الطبق ويلتهم ملعقة بعد أخرى (من الرز) بسرعة وتصميم هما من السمات النمطية لمن يعانون، فيما يقول، من حالة توهم المرض (المراق). وبعد ذلك يتناول أفضل أنواع القهوة في مقهى «بيون جستو» في ساحة «دي سبانيا». وفي حوالي الساعة السابعة مساءً يهب نسيم رطب على المدينة ويحلو التجوال في الشوارع. يقابلان حيناً موكباً يتقدمه رئيس دير للرهبان ضخم الجثة، ويتجمع حشد من الناس أمام مذبح ينصب في الشارع، وحينذاك تزين الشمس المائلة للغروب وجوه المتعبّدين بلون ذهبي وتصبغ الرايات المقدسة بلون الدم».

مع قدوم الليل تتلألأ الشوارع بآلاف الأنوار في المقاهي بينما تضيء فوانيس متعددة الألوان أكشاك باعة الفاكهة الطازجة والمشروبات. ويتمشى الشبان في مجموعات وهم مرتدون قمصاناً قصيرة الأكمام وهم يغنون ويضحكون، ويصدح جيتار تحت الشرفات، وتتشاجر نساء في أحد الأفنية. كل النوافذ مفتوحة على مصراعيها ويتيه جوجول ابتهاجاً. غير أنه كان يشعر بالمرض حين تهب الريح الحارقة المحملة بالغبار والقادمة من شمال أوروبا. يقول أنينكوف في مذكراته: «كان جلده يجف وتتورد وجنتاه. ويبحث في المساء عن نسيم رطب في زوايا الشوارع. كان يبدو وهو يتكئ على عصاه ويدفع رأسه إلى

الوراء ويرفع وجهه نحو السماء، وكأنه يبحث عن نسمة ريح تتحرك في هذا الجو الخانق».

وبدلاً من أن يتمشيا في الشوارع أو يجلسا في المقاهي كانا يجتمعان أحياناً مع الرسامين في إحدى الشقق للعب الورق. وبما أن أحداً منهم لم يكن يعرف قواعد هذه اللعبة فقد كان جوجول يوجهها بالطريقة التي تتواءم مع أفكاره حيث يغيّر أحكامها بما يتناسب مع الظرف القائم. ويسجل مجاميع أوراق اللعب على قصاصة من الورق ليعلن ارتيابه بصحتها فيما بعد. أما الفانوس الروماني الذي كان يشعله بنفسه فقد كان نوره خافتاً بحيث يصعب على اللاعبين رؤية أوراق اللعب التي يحملونها في أيديهم. وكل من يشتكي من هذا الفانوس الروماني يتم تذكيره بأنه كان يستخدم في القدم من قبل القناصل وأعضاء مجلس الشيوخ ومحظيات البلاط لدى ممارسة أعمالهم أو أثناء لهوهم. ومن باب تشجيع اللاعبين فهو يرفع قارورة، ويقشد قرص الزيت الذي يغطي سطح المشروب بدلاً من الفلينة -وهي عادة قديمة حسنة أخرى- ويصب النبيذ المخفف في حلوقهم. وشيئاً فشيئاً يزداد الحديث حيوية حيث يتفق الجميع ما دام الحديث يدور حول مواضيع تتعلق بالأدب والفن. . . ولكن ما إن يتحول إلى الأمور السياسية فإن جوجول يأخذ في الجدال مع أنينكوف. فباعتباره مدافعاً عن التقاليد الموروثة فإنه لا يستطيع احتمال وجهة نظر صديقه بأن فرنسا تمثل بلد المستقبل، ومن شأنها أن تنشر في جميع أقطار أوروبا الأخرى مبادئ الحرية والمساواة والعدالة التي نبتت في تربتها في حقبة واضعي الموسوعة الفرنسية. كان جوجول ينظر إلى تلك الأمة نظرة رعب باعتبارها تجسد مبادئ من شأنها أن تدمر «شاعرية الماضي»، وهو يخشى ذلك وكأنه داء زاحف. ويقول أنينكوف إن صوته يصبح «جافاً غير مترابط ومتقطعاً وينم عن الاستبداد برأيه». لم يكن كذلك أكثر حباً لألمانيا التي لا تزيد في نظره عن كونها «نفحة كريهة الرائحة من التبغ السيىء وشراب البيرة الذي تعافه النفس». وما يعجبه في إيطاليا هو الصورة الزائفة التي يحملها عنها بأنها أمة خلو من الهم، مرتاحة البال. وعندما أشار أنينكوف في أحد

الأيام بأن هناك قلة من الناس في روما ممن يتوقون لتغيير الحكومة فقد اكتفى جوجول بإطلاق زفرة حزينة وقال: «أجل، أجل يا عزيزي، مثل هؤلاء الناس موجودون».

مثل هذه الأحاديث كانت تزعجه بحيث يصعب عليه بعدها أن يخلد للنوم حين يغادره أصدقاؤه. وبدلاً من أن يستلقي في سريره يعمد في هذه الحالة إلى التمدد على المقعد الطويل المصنوع من الخيزران حيث يقضي طرفاً من الليل إلى جانب مصباحه الزيتي. أو يجلس إلى جانب سرير أنينكوف ويتابع الحديث إلى أن يأخذ الإنهاك مأخذه من صديقه فيطفئ الشمعة، وحينذاك يعود جوجول إلى غرفته ويستلقي وهو يصارع خوفه من أن يداهمه المرض في وسط الظلام. كانت ذكرى موت فايلجورسكي تسكنه. وكان مهندس ومعماري روسي يعرفه قد أصيب بمرض خطير في روما ولكنه أحجم عن زيارته خوفاً من الأثر الذي يمكن أن يحدثه ذلك فيه. وعندما علم بأن الشاب مات بدا عليه القلق من فكرة أنه يتوجب عليه حضور الجنازة. وفي الليلة التي سبقت ذلك أعلن لأنينكوف بأنه هو نفسه على أبواب الموت. ثم أخذ ينشج وعلت وجهه نظرة موحشة يائسة وأخذ يتوسل له: «خلصني بحق الله! أعرف مابي. إنني أموت، وقد وصلت إلى عتبة الموت ليلة أمس بعد أن أصابتني نوبة عصبية. خذني إلى مكان ما بسرعة. أرجو ألا يكون الوقت قد فات».

أسرع أنينكوف خارجاً لاستئجار عربة لكي يتوجه هو وجوجول إلى «ألبانو». وقد كتب في مذكراته يقول: «بدا هادئاً ولم يشر بكلمة واحدة أثناء الطريق ثم في البلدة الصغيرة إلى العبارات اليائسة التي تفوه بها وكأنها لم تصدر عنه على الإطلاق».

بعد فترة وجيزة أصيب أنينكوف بالزكام بعد أن سبح في نهر «التايبر» ولزم الفراش حيث أخذ يعاني من خناق صدري حاد، ولم تستجب حرارته لاية عقاقير. فذعر جوجول وتمزق بين مشاعر التعاطف مع صديقه والرعب من إصابته بالعدوى. فمن يحمل عملاً مثل «نفوس ميتة» في داخله لا يحق له أن يعرض

نفسه للمرض. ولذا أسرع إلى الريف تاركاً أنينكوف في رعاية خادمة وصاحب البيت والذي كتب له رسالة بالإيطالية يطلب فيها «العناية بمريضنا المسكين».

كتب أنينكوف يقول: «أعتقد أنه كان يصعب عليه احتمال مشهد المرض، تماماً مثل الموت. فعندما لا يغرقه ذلك في حالة كآبة شاعرية كما حدث له في عام ١٨٣٩ إزاء الكونت «جوزيف فايلجورسكي»، فإن مشاهدته للألم البشري تدفعه للهرب. وعلى الرغم من أنه قادر على الشعور بالتعاطف العميق غير أنه لا يتمتع بالقدرة التي تمكن أشخاصاً آخرين من التخفيف من آلام من هم على علاقة وثيقة بهم. كان قادراً على ترجمة أحزان وهموم الآخرين إلى كلمات معقولة كما يفعل ناصح حكيم. ويمكن أن يساعد صديقاً بتقديم النصائح والدعم، أو من خلال ما لديه من علاقات. غير أنه لا يشارك فعلاً على الإطلاق في مرارة عذاب شخص آخر، ولا يدخل في صلات حميمة نشطة معه. يمكن أن يقدم لشخص تعيس أفكاره وصلواته وتمنياته القلبية الحارة، ولكنه لا يقدم نفسه».

ما لبث أنينكوف أن تماثل للشفاء وعاد جوجول إلى البيت بعد أن زالت عنه مخاوفه، ولم ينبس أي منهما ببنت شفة حول هذه الحادثة بعد ذلك. فاحترام أحدهما، وميل الآخر الطبيعي إلى التخفي تحت مظهر كاذب منعهما كليهما من التعبير عما يفكر فيه كل منهما فعلاً.

كثيراً ما كان جوجول يذهب لرؤية «أيفانوف» في الاستديو الذي يعمل فيه، تماماً كما كان يفعل أثناء إقامته في إيطاليا في المرة الأولى. ولوحة «المسيح يظهر أمام الملأ» التي كان قد بدأها قبل اربع سنوات كانت تتقدم ببطء. وكان كل وجه وكل نبتة عشب وكل حصاة تمثل مشكلة بالنسبة إليه. وقد طلب الرسام من الكاتب الوقوف لكي يمثل أحد الشخوص في اللوحة. وضمن مجموعة في الخلفية يقف رجل نحيل ذو ملامح حادة وشعر طويل، يطوق جسمه برمته رداء بني اللون. هذا الشخص هو جوجول وهو يميل برأسه إلى أحد الجانبين وكأنه يشعر بقدوم السيد المسيح من خلفه[1].

(١) بدأ إيفانوف هذه اللوحة في عام ١٨٣٧ ولم يستكملها حتى عام ١٨٥٦ وهي موجودة في صالة تريتياكوف في موسكو.

قال إيفانوف إن هذا الشخص «أقرب الجميع إلى المخلّص»، وقد أعطى هذا الموضع عمداً لصديقه الذي كان ممتناً على حضوره الرمزي في لحظة «الرؤيا». وكان هو في الواقع يشعر، وهو يعمل، بأن نور الله يضيئه ولذا فإنه سيلعب في اللوحة نفس الدور الذي يلعبه في واقع الحياة، ولوحة «المسيح يظهر على الملأ» إنما هي تتمة لـ«نفوس ميتة». فقد كان هدف اللوحة، شأنها شأن الكتاب، هو إحداث أثر معنوي على الناس وتغيير في قدر روسيا. وبتكريسهما نفسيهما لعملهما كان الرسام والكاتب كلاهما إنما ينفذان إرادة الله... ومنعهما من أداء عملهما إنما يمثل سلوكاً قد ينم عن عدم احترام المقدسات. وقد دأب جوجول على القول (كما يقول إيفانوف في رسالة في ٥ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٢): «تذكر بأنك لا تستطيع أن تكون في خدمة الله وشيطان الجشع في آن معاً».

قام إيفانوف برسم جوجول عدة مرات كما رسم له لوحتين زيتيتين، ورسمه كذلك رسام آخر هو «مولر» في الفترة ذاتها. كان جوجول يطلب أن يُرسَم مبتسماً، «إذ على المسيحي ألا يبدو حزيناً». «ويبرز في اللوحة وجه يحيط به شعر حريري طويل ينسدل مائلاً عبر جبينه. الأنف مستدق والشفتان مبتسمتان تحت شاربين أشقرين رفيعين، بينما تحدق العينان المائلتان بالأفق في نظرة حزينة، وربما تخيل جوجول نفسه وسيماً عندما رأى اللوحة التي رسمت برهافة واضحة.

كانت عاطفته إزاء الرسامين صادقة، وكان يزكيهم لدى أصدقائه من أصحاب النفوذ ويسعى لتكليفهم بأعمال. وعندما علم بأن منحة أحدهم، واسمه «شابو فالوف» (وهو صديق لإيفانوف ومولر ويوردان) قد أُلغيت دونما إنذار مسبق بموجب قرار صادر عن جمعية تشجيع الفنون قرر ترتيب قراءة عامة للمفتش العام كعرض إعانة بطالة». وقد أعارتهم الأميرة فولكونسكي فيلتها لهذا الغرض وحدد سعر الدخول بخمسة «سكودي» (وهي عملة فضية إيطالية قديمة). وعندما حان يوم القراءة اجتمع أفراد المجتمع الروسي الراقي كلهمفي قاعة استقبال الأميرة.

شعر جوجول وهو يجلس إلى طاولة ضخمة وضعت في مواجهة هذه النخبة من الجمهور وكأن رماحاً توجّه إليه. وكان عليه أن يجاهد لكي لا يقدم على الفرار من باب القاعة. لا يمكن أن يكون هناك ما نسبته شخص واحد من كل عشرة من هؤلاء الحضور يهتم فعلاً به. أخذ يقرأ بنبرة سيئة مثيرة للشفقة وعلى وتيرة واحدة مما أثار الذعر في نفوس أصدقائه. وحين أنهى الفصل الأول سرت موجة من التصفيق الخفيف ونهض أفراد الجمهور بينما قام الخدم الذين يرتدون بزات خاصة بتقديم المشروبات و«الكيك». ولدى استئناف القراءة كان نصف المقاعد فارغاً، إذ مع كل استراحة كانت القاعة تفرغ شيئاً فشيئاً. ويقول صديقه الرسام يوردان في مذكراته إن الشخصيات الهامة من الحضور كانوا يقولون بلهجة تعوزها الكياسة: «لقد عاملنا بهذا الأسلوب التافه في سانت بطرسبرج، وهاهو يعيد الكرة هنا في روما». وفي النهاية لم يبق إلا عدد ضئيل من الفنانين من أصدقاء الكاتب الذين تجمعوا حوله لتهنئته وشكره نيابة عن شابوفالوف. ويقول يوردان إن جوجول «ظل صامتاً تبدو عليه علائم الاهتياج والغضب الشديد وقد شعر بطعنة في كبريائه خصوصاً أنه شديد الحساسية إلى درجة مبالغ بها».

غير أنه حين أعاد النظر في الأمر وجد في هذه الإهانة تأكيداً لاعتقاده بأنه سابق لعصره. فهؤلاء الأعضاء البارزون في المجتمع، برفضهم فهمه، إنما يثبتون له قدرته الاستثنائية. وعلى الرغم من أن المفتش العام، كما يعتقد، ليست خالية من الهنات، ولكنها «عمل جوجول»، وعلى هذا فهي بمثابة تجلٍّ لقوة نبوية.

أخذ يزداد إيمانه رسوخاً بأنه إنما ولد لينوّر بني البشر. كان قد بدأ بانتقاد أمه وشقيقاته، وهاهو يوسع الدائرة الآن لتشمل أصدقاءه. كان دانييلفسكي قد اعترف له بأنه يشعر بالملل وهو يعيش في إقطاعته في الريف وأنه يفكر بالبحث عن عمل في المدينة. فما كان من جوجول إلا أن هبّ ليعبّر له عن سخطه على ذلك كأخ له. لم يكترث كثيراً لأن دانييلفسكي الذي يعرفه أكثر مما يعرفه

سواه هو إنسان هادئ مرح يحب الاختلاط برفاقه، ومغرم بحضور المسرحيات والحفلات، وأنه بذلك لا يستطيع احتمال نوعية الحياة التي تجري على نحو روتيني في الريف. لم يحاول أن يسبر أغوار هذا الصديق أو أن يحلل دوافعه، فهو لم يكن قادراً قط على النظر في الأمور التي تتجاوز نطاق اهتماماته، بل يحكم على الآخرين حكماً مجرداً ونظرياً، ومواعظه لم تكن موجهة لأشخاص من لحم ودم بل لمخلوقات تعاني من علة أو أخرى لابد من شجبها بقوة. وكلما كان أكثر اهتماماً بمن يراسله كان يتعزز اعتقاده بأنه مفوّض من الله بأن يفيده بتجربته. وهذا الحرص من جانبه على القيام بما يعتبره حسناً لم يكن ليتضاءل أمام إمكانية الإساءة إلى الشخص الذي يقول إنه يستهدف معالجته، وحين أرسل الرسالة التالية (في ٧ آب/ أغسطس ١٨٤١) إلى دانييلفسكي في ذلك اليوم الصيفي القائظ فقد كان يحس بأنه يقوم بواجب رعوي حيث يقول: -

«أيمكن أن تكون قد رأيت مدى سمو جهودك في سيميريرك (إقطاعة دانييلفسكي) بالمقارنة مع أي حياة رسمية مبهرجة بكل ما تحققه من سبل الراحة والتسهيلات وما إليها. اسمعني! انتبه لما أقول إذ إن لكلماتي سلطة مضاعفة عليك، والويل لمن لا ينصت لكلماتي. أترك كل شيء وراءك لبعض الوقت، كل الأشياء التي تعكر ذهنك في أوقات فراغك مهما واجهت من إغراءات مثيرة! استسلم واهتم بإقطاعتك ولو لسنة واحدة، ولن تنسَ ذلك قط! أقسم لك بأن هذا سيكون فجر سعادة لك. نفّذ وصيتي دون امتعاض أو تحفظ. لن تفعل ذلك من أجلك فقط، بل إنك ستقدم خدمة عظيمة لي أيضاً. لا تحاول أن تتحرى ماهية هذه الخدمة، إذ ليس لك أن تعرفها، ولكن عندما يحين الوقت لذلك فإنك ستشكر العناية الربانية لتهيئة الفرص لك لكي تقدم لي هذه الخدمة. صدّق ما أقول، فكلمتي ستكتسب منذ الآن قوة أكثر رفعة. يمكن لكل شيء أن يخدعك ويخونك، أن يضلّك عن الطريق القويم. كل شيء باستثناء كلمتي هذه. لن أخبرك شيئاً عن الحوادث التي وقعت في روما والتي تسأل عنها، إذ لست أرى شيئاً مما يقع أمام نظري، ولم أعد أتطلع للأشياء بالانتباه الذي يصل

لدزجة الارتعاش، وهو ما يبديه شخص مبتدىء. إنني مثل مسافر أغلق حقائبه ويقف الآن بهدوء على الرغم من تعبه، منتظراً العربة التي ستحمله في رحلة طويلة مؤكدة يتشوّق لها. إنني أقف بلا عجلة على استعداد للشروع في رحلة تتسم بالهدوء، وبعد أن اجتزت ما واجهني من تجارب، وبعد أن وطنت نفسي وانعزلت عن العالم برمته».

بعد شهر ونصف الشهر كان الشاعر ياسيكوف هو الذي ينال شرف موعظة جديدة حيث يقول في رسالة له: «أرجو أن تثق بكلامي! لا يمكنني أن أقول لك سوى أن تثق بما أقول لك، وأنا نفسي مضطر للثقة بها إذ إن فيها شيئاً سحرياً وغير قابل للفهم. الدموع التي تملأ روحي الملهمة والشاكرة تحول بيني وبين تفسير ذلك. شفتاي مغلقتان وليس هنالك فكر بشري قادر على تخيل واحد في المئة من حب الله للإنسان. كل شيء موجود في ذلك، وليرتفع نظرك منذ الآن فصاعداً لتحدق في السماء بشجاعة، فإن اعتراك الملل ولم تعد لديك القدرة وأنت تتذكرني فإنك لا تحبني. ولكنني أصلّي، أصلّي من كل قلبي بألا يصيبك ذلك وأن يشرق ذلك النور الذي يلفني من كل جانب في هذه اللحظة على روحك أنت أيضاً بالقدر الممكن».

ولإيفانوف كتب في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤١ يقول: «سر بشجاعة ولا تيأس، وإلا فإن هذا يعني بأنك لا تذكرني ولا تحبني، إذ إن من يذكرني إنما يملك القوة والجلد في روحه».

بعد أن تحرر من هذه الحرارة الروحية الملتهبة تحول جوجول إلى «نفوس ميتة» بحماس واضح للمزاح والسخرية، وكأنما ولوعه بالوعظ يسير على خط موازٍ لرسم الصور الكاريكتورية دونما أي تصادم بينهما. . وفي اللحظة التي يتحوّل فيها عن البشر الفعليين ويتوجه إلى الشخصيات المتخيّلة فإن المضحك هو ما يأخذ قصب السبق لديه. غير أنه كان يؤلمه أحياناً بأنه كُتب عليه، بموجب الموضوع الذي اختاره، بأن يقوم بهذا الدور الموجع والمستمر القائم على السخرية من بني جنسه. كان يغبط إيفانوف الذي يمكنه أن يرسم شخصيات

جميلة لرجال يتوقعون ظهور المسيح. متى يمكنه هو أيضاً أن يغمس فرشاته في ألوانٍ أكثر إشراقاً؟ ما عليه الآن إلا أن يلجأ للسخرية وللكلام الغاضب والملاحظات الشائنة.

بمشاعر مختلطة يتمازج فيها الاشمئزاز بالابتهاج والشعور بالواجب استكمل المجلد الأول من «نفوس ميتة» وبدأ يراجع العمل برمته. أما أنينكوف الذي مكث في روما لفترة أطول مما كان ينوي فقد أنهى مهمته في نسخ ما يمليه عليه جوجول وتوجه إلى باريس. أصبح المخطوط موجوداً بكامله في أحد عشر فصلاً مطولاً، وأخذ يقلِّب الصفحات ومشاعر كآبة تسيطر عليه. فقد حان الوقت ليسلم العالم ثمرة ست سنوات من العمل. فهل يقدِّر معاصروه هديته حق قدرها؟ وفي منتصف شهر آب/ أغسطس توجه إلى روسيا مسافراً على مراحل.

مرّ بكل من البندقية وجنوة ودوسلدورف. ونظراً لأنه علم بأن جوكوفسكي موجود في فرانكفورت في فترة للراحة فقد توجه إلى هناك لرؤيته. كان هذا الشاعر البالغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً قد تزوج من شابة في العشرين من عمرها هي ابنة الرسام «فون رويترن»، وكان يفيض بسعادته واهتماماته الجديدة. أصبح جوكوفسكي بديناً وخفّ شعره غير أن نزعته لعمل الخير ظلت تشع من عينيه السوداوين اللامتساوقتين. وقد حدّث جوجول حتماً عن انزعاج الناس الشديد في روسيا إزاء موت ليرمنتوف(١) الذي قتل مؤخراً في مبارزة حول قضية غبية تتعلق بالشرف، مثلما حدث لبوشكين. كان هذا إذن ثاني شاعر روسي كبير يلقى حتفه عنفاً في غضون أربع سنوات، علماً بأن ليرمنتوف كان قد وطّد مكانته كخليفة لبوشكين ومدافع عنه! وبدا كأن القدر بالمرصاد لكل من تكمن لديه شعلة النبوغ في الأدب الروسي. هذا ما كان يدور بالتأكيد في ذهن جوجول الذي كان يشعر بأنه مهدد دائماً جسماً وروحاً، ولكن من يهدده ليس

(١) قتل ميخائيل ليرمنتوف في القوقاز في شهر تموز / يوليو ١٨١٤ في مبارزة مع زميل سابق له في المدرسة اسمه مارتينوف.

رجلاً واحداً في معركة منفردة، بل البشرية برمتها. يضاف إلى ذلك أن عليه أن يرضي الله كذلك.

على الرغم من أن الانشغال بدا على جوكوفسكي بعض الشيء غير أن جوجول أصرّ على أن يقرأ عليه مسرحيته الأوكرانية «الشارب الحليق». كان الغداء قد انتهى وبدأ موعد القيلولة، وجلس جوكوفسكي متكوّماً في مقعده المريح إلى جانب المدفأة، ولم يسعه إلا أن يجد المسرحية مملّة وتتسم بالإطناب. وما لبث أن غفا وهو جالس، وعندما أفاق من غفوته بادره جوجول بالقول (طبقاً لرواية جوكوفسكي): طلبت منك أن تنتقد عملي ونومك هو أبلغ نقد ممكن لها».

أجابه جوكوفسكي: «اعذرني، فقد غالبتني الإغفاءة فجأة!».

فقال جوجول: «إن وجدت نفسك وقد غالبتك غفوة صغيرة فهذا يعني أن المسرحية تستحق الحرق!». وبحركة واحدة ألقى جوجول بكراسه في الموقد.

اختنق اللهب لبعض الوقت تحت ثقل الأوراق، وما لبث بعد ذلك أن تصاعد يرقص جذلاً.

دمدم جوكوفسكي: «أحسنت صنعاً يا أخي».

الرابطة الودية التي كانت تربط الرجلين إلى بعضهما كانت مفقودة هذه المرة، ومن المحتمل جداً أن صبر جوكوفسكي قد نفد إزاء مناورات جوجول، فهو في سعي دائب للحصول على المال والمساندة الرسمية، أو توصيات له أو لأصدقائه من الرسامين المعدمين في روما. وهاهو الآن يقود حملة لتمديد منحة إيفانوف لثلاث سنوات أخرى. بل إنه كتب مسودة خطاب لولي العهد حول الموضوع: غير أنه حين عرضت عليه وظيفة أمين مكتبة كريفتسوف فقد رفضها باستعلاء قائلاً بأنه يريد تكريس وقته للعمل. كان مستعداً لاحتلال منصب سكرتير لمدير الأكاديمية الروسية في روما، لا منصب أمين المكتبة. كما أن العرض جاء متأخراً جداً على أية حال.

كيف يمكن لإنسان يملك كل هذه الموهبة أن يكون شخصاً لا يحتمل؟ كان العريس جوكوفسكي يتعجل مغادرة ضيفه المرهق للأعصاب، وقد أحسّ جوجول بذلك فحزم أمتعته ورحل.

كتبَ للشاعر فيما بعد (في ٢٦ حزيران/ يونيو ١٨٤١) يقول: «كانت لديك حينذاك الكثير من الأمور التي تقلقك وتشغل بالك، وحياة تستغرقك ولم تكن لتكترث بي عندئذ. وكنت أنا أنوء تحت ثقل مشاعري وليست لديّ القوة للاندفاع نحوك بروح خالية من الهموم. أذكر بأنني كنت أود أن أفضي لك بالبعض من أفكاري شديدة الحساسية والتي كانت تشغلني، ولكنني لم أستطع العثور على الكلمات التي أعبر فيها عن تلك الأفكار أثناء أحاديثنا بحيث لم تخرج من فمي إلا أصوات لا معنى لها قط وكأنها مجرد هلوسات مجنون. ولست أشك بأنك ما زلت تتساءل من يمكن لي أن أكون، وما هو الشيء الغريب الذي سيطر عليّ».

من فرانكفورت توجه إلى «هاناو» حيث كان يعرف أنه سيجد «ياسيكوف»، الشاعر الذي التقى به منذ سنتين وأعجب بشعره الذي يشبه شعر بوشكين أحياناً ويتمتع بالموسيقى والمعاني الغنية. كان ياسيكوف مصاباً بداء السل بعد حياة حافلة بالملذات، وهاهو الآن يجرّ نفسه من منطقة مياه ينابيع إلى أخرى. وكان يعاني من ملل شديد بحيث رحب بجوجول بكل سرور. كان لهما الذوق ذاته في مضمار الأدب والتطلعات الدينية نفسها، كما يحملان وجهات نظر متماثلة حول رسالة روسيا المقدسة إزاء شعوب أوروبا التي انحرفت عن الطريق الصحيح. وقد مرّ الوقت سريعاً وهما يتحادثان ويسعدان بصحبة بعضهما البعض بحيث أنهما قررا أن يعيشا معاً في موسكو. وكانا يبتدعان لعبة أثناء الليل قبل أن يخلدا للنوم بحيث يخترعان شخصيات ويختاران أسماء لها تتلاءم مع نواحي الضعف لديها. كان جوجول لا يقهر في هذه اللعبة. كما أنهما كانا يتحدثان أيضاً عن أمراضهما. وعندما تسمع جوجول يتحدث عن مرضه فقد تظن بأن حالته أكثر إثارة للقلق من حالة ياسيكوف المصاب بالسل.

كتب ياسيكوف (في رسالة له في شهر أيلول/ سبتمبر ١٨٤١) يقول: «حدثني عن أعراض غريبة لمرضه، متخيلة دونما شك. كما وصف لي التركيب الفريد لرأسه والموضع الشاذ لمعدته. وحسب ما قال فقد قام بعض الأطباء المشهورين بفحصه في باريس وتبين لهم أن معدته مقلوبة. هنالك على وجه الإجمال الكثير من الأمور الغريبة العجيبة لدى جوجول بحيث أنني لا أفهمه في بعض الأحيان. ولكنه لطيف جداً على أية حال».

بعد أن قضى ثلاثة أسابيع مع ياسيكوف تابع جوجول سفره مع «بيوتر» الشقيق الأكبر للشاعر والذي كان عائداً إلى روسيا أيضاً.

يكتب في «نفوس ميتة» (الجزء الأول، الفصل الثاني): «أي سحر غريب، آسر فاتن، يكمن في هذه الكلمة البسيطة: «الطريق!» وكم هو جميل هذا الشيء نفسه، الطريق! يوم رائق شاحب، أوراق الخريف، الهواء نقي وبارد. تلفّ نفسك لفّاً جيداً بمعطف السفر الذي ترتديه وتسحب قبعتك لتغطي أذنيك، وتحتمي في زاوية بحثاً عن الدفء والراحة في ركن من العربة. تسري في أطرافك رعشة أخيرة يتلوها فوراً دفءٌ محبب. الخيل تخب ويغزوك نعاس رقيق فتغلق جفنيك وتسمع غناء سائق العربة وكأنك تحلم. «ما يسقط ليس ثلجاً أبيض»، وصهيل الخيل، وضجة العجلات وتبدأ في الشخير وأنت متكئ على من بجوارك. وعندما تستيقظ تكون خمس محطات قد مرّت. ضوء القمر، بلدة غريبة، كنائس تعلوها قباب وأبراج مستدقة مسودّة. بيوت خشبية مسودّة كلياً، وأخرى حجرية بيضاء ناصعة وكأن نور القمر نشر مناديل بيضاء من الكتان على الجدران. والأرصفة والشوارع. ظلال فحمية سوداء مائلة تمر فيما بينها. أسطح تغطيها ألواح خشبية مائلة تشع وكأنها مصنوعة من معدن صقيل. لا ترى بشراً في الخارج. كل الأشياء نائمة، باستثناء ضوء قد يومض في نافذة وحيدة. صاحب حانوت ضئيل الجسم يصلح حذاءه، أو خباز يشتغل أمام فرنه – من يكترث؟ يا إلهي! كم أنت جميل في بعض الأحيان أيها الطريق الذي لاينتهي! كم مرة لجأت إليك قبل أن أفنى وأغرق إلى الأبد، وكنت تنقذني في

كل مرة! وكم من خطط رائعة وأحلام شعرية وانطباعات مدهشة أثرتها في ذهني!».

توقف جوجول ورفيقه في درسدن ليستريحا، ثم في برلين، وبعد ذلك امتطيا عربتهما من جديد لينطلقا على الطريق الخريفية في طريقهما إلى الحدود الروسية.

□ □ □

٦ ـ الصراع حول نفوس ميتة

وصل جوجول إلى سانت بطرسبرج في الأيام الأولى لتشرين الأول/ أكتوبر ١٨٤١ وأقام هناك، كالعادة لدى بلتنييف الذي أطلعه على آخر أخبار القيل والقال في العاصمة. كانت رواية للكاتب «كوكولنيك» تحمل عنوان «الرقيب إيفانوف» قد أغضبت الإمبراطور لأنها قارنت بين طبقة عليا تنتشر بينها الرذيلة وطبقة دنيا مستقيمة أخلاقياً. وقد أنّب قائد الشرطة «بنكندورف» الكاتب بشدة بينما أمر هيئة الرقابة بمضاعفة جهودها في تمحيص المخطوطات. وبدا على وجه العموم بأن التوتر قائم أكثر مما كان في العام السابق. ونظراً لقلقه على المخطوطة التي يحملها في حقيبته فقد لجأ لصديقته «ألكساندرا سميرنوف» طلباً للنصيحة. غير أنه وجدها تتملص فيما يتعلق بالأمور ذات الأهمية، بينما تستفيض في الكلام في أمور القيل والقال في المجتمع. علم منها أن قصة الغرام العنيف بين الإمبراطور نيقولاس الأول ووصيفة اسمها نيليدوف بلغت أوجها، وأن جميع أصدقاء الإمبراطورة مهتاجون جداً إزاء ذلك، وأن الإمبراطورة نفسها تعاني من الهزال المتزايد. أما الكونت العجوز فايلجورسكي فهو يقامر على مبالغ كبيرة في الهويست مع الكونت «نيسلرود» والأمير «لوبانوف»، وأنها هي، أي السيدة سميرنوف ستتوجه ثانية إلى الخارج في وقت قريب. وبسماعه لها أخذت رغبة جوجول تتضاءل شيئاً فشيئاً في البقاء في العاصمة خصوصاً وأن الريح والمطر أخذا يتواطآن لحثه على المغادرة. بقي خمسة أيام اجتمع خلالها ببروكوبوفيتش لمناقشة إمكانية إصدار طبعة جديدة لأعماله الكاملة، وعلم أن «بيلنسكي» ما يزال يحمل عنه فكرة متميزة. وبعد ذلك أسرع في الذهاب إلى موسكو.

كان يجلس إلى جانبه في عربة السفر رجل اسمه «بايكر». وحين رأى هذا القائمة بأسماء الركاب واكتشف من هو الشخص الذي يجلس إلى جواره حاول أن يدخل في حديث معه. غير أن جوجول ادعى أن اسمه هو «جوجيل» وأن لا علاقة له بالكاتب، وأنه فقد والديه لتوه ولذا فهو يرغب بأن يصمت وينفرد بحزنه. وعلى هذا، التفّ بياقة معطفه وأدار وجهه عن ذلك الشخص غير المرغوب به. وبعد عدة أيام التقى بالرجل في بيت أحد الأصدقاء المشتركين وأدرك بايكر الحيلة وعدَّ الأمر إساءة إليه.

بوصوله إلى موسكو بشوارعها النابضة بالحياة، وفوضاها، ومرحها، وسمائها الخريفية اللطيفة التي تتحول باستمرار وأجراسها المجلجلة بدأ يفكر بأن لمجيئه ما يبرره. كانت غرفته لدى آل بوجودين بانتظاره حيث تتسلل أشعة الشمس من النافذة وحقول «فيرجنز فيلد» تمتد أمامه على مد النظر، من دون أن تسمع ضجيج عربة واحدة. لم يتغيّر أي شيء في البيت، ومع ذلك فهناك نوع من التوتر لم يكن قائماً من قبل، وكأنما المضيف لم يكن مسروراً بوجود ضيفه. ربما لم يكن بوجودين قادراً بعد على مسامحة جوجول لأنه رفض الكتابة لصحيفة «موسكوفيت». كلام فارغ: عليه في النهاية أن يفهم ويتقبّل.

في ١٨ تشرين الأول/أكتوبر ذهب جوجول لرؤية آل أكساكوف الذين استقبلوه ببهجة عارمة. شعر بأنه في بيته في ذلك البيت الخشبي الضخم، وإن كان بسيطاً، والذي يعج بالناس بالمقارنة مع بيت بوجودين المتزمت وحيث كل قطعة أثاث فيه كأنها قطعة في متحف. ليس هناك ما ينتظرونه منه لدى آل أكساكوف بل إنهم يدللونه ويراعونه دون أن تكون لديهم أية دوافع خفيّة، وهم يحبّونه لأخطائه بينما يشعر لدى آل بوجودين بأنه مدين. صحيح أنه لم يسدّد كوبيكاً واحداً من الستة آلاف روبل التي استدانها من بوجودين خلال السنوات الماضية، غير أن المسألة مسألة وقت إلى أن يفعل ذلك. أبدى أكساكوف سروره لعودة جوجول ولكنه لاحظ بحزن التغيير الذي حلّ به. وقد كتب عن ذلك يقول:

«لقد جفّ وأصبح شاحباً، وكل كلمة يتفوه بها تعبّر عن محاولة لترويض نفسه للخضوع لإرادة الله. اختفى حبه القديم لأصناف الطعام وميله للعبث».

ما كان يشغل بال جوجول في ذلك الحين هو نشر «نفوس ميتة». قرأ الفصول الخمسة الأخيرة في بيت بوجودين بحضور أكساكوف وابنه قسطنطين. وفي نهاية القراءة صمت أكساكوف وابنه صمتاً مطبقاً تعبيراً عن إعجابهما الذي يصل إلى درجة التقديس. أما بوجودين فقد أشار إلى أن «القصيدة» لم تتقدم، وأن الكاتب «أقام ممراً طويلاً يجر القارئ وبطله تشيشكوف عبره ويفتح أبواباً عن اليمين وعن الشمال ليكشف عن وحشٍ يكمن في كل غرفة». ولكن أكساكوف سخط على هذا الرأي وانبرى للدفاع عن بناء جوجول فقاطعه الكاتب قائلاً: «أنت لا تستطيع ولا تعمد لتقديم أي نقد، وتحاول أن تمنع الآخرين عن تقديم أي نقد»!. وتابع الإصغاء باهتمام لتعنيف مؤنبه.

لم يجر تعديلات رئيسية نتيجة لذلك، غير أنه التزم الدقة فيما يتعلق بالتفاصيل الصغيرة في مراجعته النهائية. وما لبث أن اسودت المخطوطة التي نسخها «بانوف» أولاً وبعده يانكوف بالتشطيبات والإضافات. وكان لابدّ من كتابة نسخة جديدة، ولذا تم استئجار ناسخ وطلب منه أن يعمل ساعات إضافية ثم مضاعفة.

بينما كان ذلك العمل مستمراً عاد مضيف جوجول ليطلب منه كتابات جديدة لكي ينشرها في صحيفته. وبوجودين شخص طويل نحيل له وجه قاس وشفتان سميكتان وحاجبان كثيفان وانفجاراته كانت تخيف جوجول. كان أوتوقراطياً ضيق الأفق ولا يمكن بالنسبة إليه أن تسدي لامرئ خدمة من دون أن تتلقى ما يقابلها. فليس هنالك شيء اسمه هبات بين الأصدقاء بل هناك تبادل. ولأنه سئم هذا الجدل فقد أعطى جوجول لبوجودين قصته الطويلة غير المستكملة والتي تحمل عنوان «روما»، فهدأ بوجودين لفترة ما إلى أن يهضم المخطوطة. ولكن جوجول كان يخشى أن يعود إليه طالباً المزيد. وكان بوجودين قد تغيّر كثيراً منذ أن استلم مسؤولية الصحيفة. فوزير التربية، أوفاروف، أصبح يكن

له احتراماً كبيراً مما أدخل في نفسه الغرور. وأصبح ملتزماً جانب الحكومة ويتخذ مواقف الدفاع عن الكنيسة الأرثودوكسية والنظام الإمبراطوري بحيث أنه حتى أولئك الذين يلتزمون بالمبادئ السلافية أخذوا يجدون تراجعاً كبيراً في مواقفه، علماً بأن مواقفهم لم تكن بعيدة عنه. كان هؤلاء يوجهون أنظارهم إلى الماضي أيضاً ولكن كتهيئة أفضل للمستقبل. ويرون أن خلاص البلد لا يكمن في عدم الحركة بل بصيغة تقدم خاصة بروسيا نابعة من تقاليد الشعب. وهم يرتعشون رعباً من الأفكار الأوروبية والتي يعرفون أنها لن تؤدي إلا إلى الفوضى. ولذلك فهم ليسوا على استعداد للالتزام بالمدرسة الأوروبية والتي ينتمي إليها بيلنسكي[1].

كان كل ما يسمعه جوجول إن ذهب إلى آل بوجودين، أو آل أكساكوف، أو آل شيفرييف هو الهجوم العنيف على ناقد جاء مؤخراً إلى سانت بطرسبرج لكي يكتب في صحيفة ليبرالية هي «حوليات الوطن». وهذا الرجل، واسمه بيلنسكي، برأيهم، «طالب مستديم ترك الدراسة»، وثوري و»مجنون»، ومتهور «يلوّح بسيفه» ولا يعتبر أي شيء مقدساً. وجوجول الذي لم يكن يستطيع مخالفتهم علناً لم يفصح عن احترامه لهذا الرجل الذي يمجّد عمله الأدبي. وعلى هذا، أخذ يتساءل ألا يمقت السياسة عندما تحوّل أناساً مخلصين محترمين إلى أعداء؟ وكلما لوّح أحدهم بمشكلة اجتماعية بحضوره كان يشعر بأن الأرض تكاد تبتلعه. لم يكن يريد إثارة غضب أصدقائه في موسكو ولا قطع علاقاته بأصدقائه في سانت بطرسبرج. ومثلما كان يفعل عندما تعرض للإلحاح من قبل معتنقي المذهب الكاثوليكي لدى الأميرة «فولكونسكي» فقد أخذ يتجنب الالتزام ويتهرب من الموضوع ويتخذ مساراً هادئاً يتسم بجبن مرن ولكنه فعّال.

---

(١) تعتقد المدرسة الأوروبية بأن على روسيا أن تدرس حضارة أوروبا قبل أن تصبح قادرة على أداء رسالتها التاريخية. الهدف من ذلك ليس انتهاج نسخة تستلم كلياً لهذه الحضارة بل أخذ أفضل ما يمكن أن تقدمه أوروبا في ميدان الإدارة والإصلاح الاجتماعي وفصل الدولة عن الكنيسة... أما المتمسكون بالأفكار السافية فهم يصرون أن سبب أوجاع البلد هو إهمال مصادره الروحية. وهم يقولون إن الكنيسة وخضوع الشعب الطوعي لسلطة القيصر من شأنهما أن يومنا فرادة روسيا وتفوقها على بقية القارة.

أُنجز في النهاية نسخ «نفوس ميتة» من بدايتها إلى نهايتها بواسطة شخص محترف، وإن لم يكن اسمه معروفاً، على كراسات من الورق الأبيض القاسي. وحمل جوجول المخطوط بيدين مرتعشتين إلى «سنيجريف» وهو أستاذ في جامعة موسكو ويعمل أيضاً رقيباً، وكان يعدّه أكثر ذكاءً من زملائه. قرأ سنيجريف المخطوط في غضون يومين وأعلن أنه لا يرى هو شخصياً ما يمنع نشره بعد إجراء تعديلات طفيفة عليه.

ظن جوجول بأنه انتصر ولكن سنيجريف ما لبث أن أعاد التفكير بالأمر، وبدّل رأيه مقرراً حماية نفسه واتخذ قراراً بضرورة عرض الكتاب على اللجنة كاملة. ربما خشي مواجهة متاعب جدية من جانب «بنكندورف» أو الإمبراطور نفسه لو أنه رخّص الكتاب على مسؤوليته الخاصة. فلقد تم وقف رقيبين، بل واعتقالهما لترخيصهما نصوصاً أقل تخريباً. يضاف إلى ذلك أن الأعمال السابقة لهذا الكاتب لا تشفع له، إذ من يمكنه أن ينسى الاحتجاجات العنيفة للطبقة العليا على «المفتش العام»؟

اجتمعت اللجنة وقررت تمحيص النص النثري لهذا الكاتب المثير للفضائح بدقة متناهية. وعندما قرىء العنوان الرئيسي بصوت عالٍ اعترت «جولوخفاستوف» رئيس اللجنة رعشة غمرته من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وهبّ قائلاً بلهجة غاضبة متعالية: «لا! لن أسمح بذلك قط! فالنفس خالدة ولا يمكن أن تكون هناك نفس ميتة، وهذا الكاتب يهاجم خلود الروح!» كان من الصعب إقناعه بأن النفوس الميتة هي مجرد أقنان ماتوا في الفترة الفاصلة بين عمليتي إحصاء، وبعد ذلك انفجر «جولوخفاستوف» قائلاً، وأيده معظم زملائه هذه المرة: «وهذا سبب آخر لا يمكن التغاضي عنه! ففي هذا نقد مكشوف لنظام القنانة!» شرح سنيجريف بكل صبر وأناة بأن الكتاب برمته لم يضع نظام القنانة موضع التساؤل وأن ما يتحدث عنه جوجول، وبطريقة هازئة، هو أساليب تعامل محتال اسمه تشيشيكوف مع فئة واسعة من أنماط ملاك الأراضي. صاح بعضهم: «أفعال تشيشيكوف إجرامية إذن!» أعلن سنيجريف: «ولكن الكاتب

لا يحاول تبرير أعماله». ردوا قائلين: «لا يبرر أعماله! إنها فكرته هو إذن، ويمكن لآخرين إذن أن يقلّدوا تشيشيكوف الآن ويحاولوا شراء نفوس ميتة!» فكر أحدهم وهو كريلوف باستعراض تعاطفه مع الأفكار الأوربية وقال ببرود: «يمكنكم أن تقولوا ما تشاؤون، ولكن دفع روبلين ونصف الروبل ثمناً لكل نفس هو أمر مهين، والضمير الإنساني يثور على مثل هذا الثمن. إنه يدفع ثمن اسم على قصاصة ورق، هذا صحيح. ولكن هذا الاسم يمثل نفساً، نفساً بشرية، إنساناً عاش، وهذا أمر لا يمكن لأحد أن يفكر فيه في فرنسا أو إنجلترا أو في أي مكان آخر! وبعد ذلك لن يفكر أي أجنبي بأن تطأ قدماه أرض روسيا!» وفي هذه الأثناء كان أحد أعضاء اللجنة قد فتح المخطوطة وصادف مقطعاً يصوّر كيف أن أحد ملاّك الأراضي أخذ يصرف كل ما لديه بحيث أخذ يدمّر نفسه لكي يبني قصراً على الطراز الحديث في موسكو. وهنا صاح الرقيب «كاشينوفسكي»: «انتبهوا، الإمبراطور يبني لنفسه الآن قصراً في موسكو!» لم يستطع سنيجريف أن يقدم أي إجابة على ذلك وآثر الانسحاب. وكانت هنالك أشكال أخرى من الغباء لا يمكن للمرء إزاءها أن يدافع عنها إلا بالخلود للصمت... وبعد مناقشة قصيرة منع الكتاب(١).

انهار جوجول عندما علم بالخبر. لم يتوقع أي قرار بمثل هذه القسوة. محقته فكرة أن يحكم على الكتاب بألاّ يرى النور قط بعد أن قضى سنوات في كتابته. تساءل: بأي حق يقدم عدد لا يتجاوز عدد أصابع اليد من الأشخاص الذين لا يملكون أية كفاءة على معارضة نشر كتاب يأتي برغبة من الله؟ النقد الذي قدمه هؤلاء الأشخاص، كما نقله إليه سنيجريف أعاد إلى فكره ردود أفعال شخصيات «نفوس ميتة» عندما كانوا يسمعون لأول مرة اقتراح تشيشيكوف... فالوحوش التي ولّدها خيال الكاتب لها نظائر إذن بين هؤلاء القضاة. كان يظن بأنه يرسم شخصيات كاريكاتورية، ولكنه في الحقيقة كان يرسم صوراً مشابهة لما هو في الواقع، وبشكل مأساوي. ماذا يفعل الآن؟ هل

(١) شرح جوجول ذلك كما ورد هنا بالضبط في رسالة له إلى بلتنيف في ٧ كانون الثاني / يناير ١٩٤٢.

يلقي بمخطوطته في أحد الأدراج؟ لا ، بل عليه أن يقاتل . لقد فشل في موسكو ، فليجرب حظه في سانت بطرسبرج . ولكنه قرر هذه المرة أن يتسلّح بكل الدعم الرسمي الذي يمكن له أن يحظى به .

يقول في الرسالة نفسها سالفة الذكر إلى بلتنييف : «هذه مسألة جدية بالنسبة لي ، وأنت تعرف بأن هذه القصيدة إنما تمثل كامل مورد رزقي ومصدر معيشتي . يبدو لي أنهم يريدون نزع آخر لقمة خبز من يدي ، هذه اللقمة التي حصلت عليها بعد سبع سنوات من التضحية ونبذ للعالم ولكل مباهجه . لن يمكنني البدء بشيء آخر لتحصيل معيشتي ، فتدهور حالتي الصحية يجعل من المستحيل عليّ إتمام ما بدأت ، واللحظات التي يصفو فيها ذهني قليلة ، وهذه المأساة التي حلّت بي الآن تجعلني غير قادر على الوقوف على ساقيْ . هذا ما يجب عليكم أن تفعلوه : عليكم أن تتصرفوا ، متضامنين معاً جميعاً ، لإيصال هذه المخطوطة ووضعها بين يدي الإمبراطور . إنني أكتب الشيء ذاته لألكسندرا سميرنوف لكي تحاول السعي لدى الدوقة الكبرى أو للبحث عن أساليب أخرى . وهذه هي مهمتك» .

صادف أن كان في موسكو حينذاك «بيلنسكي» الذي يعتبر «بعبعاً» بالنسبة إلى بوجودين وشيفيريف وكان يقيم لدى «بوتكين» . ولم يكن بإمكان جوجول الاجتماع به من دون أن يثير غضب أصدقائه في صحيفة «موسكوفيت» . ولذا قام بزيارة سرية مختلسة له وأبلغه بفشله وطلب منه أخذ المخطوطة إلى سانت بطرسبرج ليسلمها للأمير «أودويفسكي» الذي يمكن لكلمته أن تعدّل الميزان إزاء الرقابة . وقد وافق بيلنسكي على الفور على القيام بهذه المهمة السرية .

كان قد جاء إلى موسكو سعياً لتأمين من يكتبون لصحيفته «حوليات الوطن» . وقد عنّف جوجول بشدة لتمسكه بتلك المجموعة الصغيرة من الرجعيين في حلقة بوجودين : فمن واجبه ككاتب روسي عظيم الانفصال عن هذه الزمرة السلافية الحكومية والانضمام إلى صفوف مؤيدي الأفكار الأوروبية والفخورين بهذه الأفكار . لماذا لم يقدم لحوليات الوطن بعضاً من نتاجه غير المنشور كدليل على تمسكه بمثل العدالة والحرية؟ ذعر جوجول وارتبك وأقسم بأنه أعطى كل ما

كان جاهزاً لديه إلى صحيفة «موسكوفيت» طبقاً لترتيب تم منذ وقت طويل. وقد أبدى أسفه الشديد قائلاً بأنه قد يقدم له شيئاً فيما بعد، إن كانت هنالك فرصة. وقد تظاهر بيلنسكي بتصديقه.

كتب له بيلنسكي بعد فترة قصيرة (في ٢٠ نيسان/إبريل ١٨٤٢) مستعيداً حديثهما حيث يقول: «يؤسفني أن موسكوفيت» أخذت كل ما لديك وأنه لم يبق لديك شيء لـ»حوليات الوطن». إنني واثق بأن هذا هو من مصادفات الأقدار ولا يعود لميلك لتلك الصحيفة وعدائك لصحيفتنا. ولقد لعب القدر منذ وقت طويل دوراً غريباً في تعامل أصحاب الأسماء الكبيرة في الأدب الروسي: فقد أفقد «باتيوشكوف» عقله، وبتر حياة كل من جروبويدوف وبوشكين وليرمنتوف، وابقى «بلجارين» و»جريش» وسواهم من الحثالة أحياء معافين في كل من موسكو وبطرسبرج، وهاهو يهب عملك للمسكوفيت ويسلبه من الحوليات».

افترق الرجلان على وئام، غير أنه ما إن دخل جوجول بيت بوجودين ثانية، وبعد أن أعلن بدبلوماسية طوال حديثه مع بيلنسكي عن تعاطفه مع القضية الأوروبية، حتى بدّل لبوسه على الفور. عليه هنا إظهار الاحترام لحكم الفرد بكل تصلبه، وهو أمر يسهل عليه فعله على أية حال. ولكن أي ألم ينتج عن الانتظار! لقد ذهب بيلنسكي حاملاً المخطوطة. وأصدقاؤه في بطرسبرج متيقظون، وعلى كل من له علاقة معه، شأن القوى المؤثرة، أن ينشّطوا كل الشخصيات اللامعة هناك. ولكن البريد لم يأتِ من العاصمة بأي خبر يبعث على الأمل. سرت شائعات بأن المخطوطة تنتقل من يد إلي أخرى من دون أن يفعل أحد شيئاً. وبتلهف كتب للأمير أودويفسكي (في أوائل شهر كانون الثاني/ يناير ١٨٤٢) يقول: -

«إنني مريض ولا أكاد أستطيع الحركة، وكل ما أملكه انتزع مني، وعليك أنت وأصدقائك أن تبذلوا كل ما في وسعكم لحمل هذه المخطوطة لجلالته. اقرأها أنت وبلتنييف وألكسندرا سميرنوف وابحثوا عن الطريقة المثلى لتأمين الموضوع دون أن تحدّث أحداً عن هذا الأمر بعد».

بعد عدة أيام أرسل صرخة ذعر ثانية: «ماذا دهاكم جميعاً بحيث لا تقولون شيئاً؟ لماذا لم أتلق أي جواب؟ هل قرأتم مخطوطتي؟ هل قمتم بأي خطوات بشأنها؟ هل تعذبونني بهذا الأسلوب بحق الله؟».

ما لبث أن قرر أن يتصدى للمسألة بنفسه فكتب مسودة لخطابين أحدهما للأمير «دوندوكوف -كورساكوف» رئيس مجلس الرقابة في سانت بطرسبرج والثاني «لأوفاروف» وزير التربية. أرسل الخطابين لبلتنييف طالباً منه تسليمهما للعنوانين الشهيرين في أقرب فرصة، ولكن بلتنييف كان من الحكمة بحيث لم يفعل ذلك.

كان جوجول قد كتب لدوندوكوف -كورساكوف يقول: «أعرف أن لك روحاً نبيلة وأن إحساسك بالعدالة هو الوحيد الذي ستدعه يقودك. لن ترغب في إيذاء رجل ظلّ، وبحكم تدفقٍ صافٍ من قلبه، مقيداً بعمله لسنوات عدة، وضحّى بكل شيء من أجل هذا العمل، وتحمل ذلك بتعاسة وفقر ولم يكن ليسمح لنفسه بأن يكتب شيئاً ضد الحكومة وهو مدين لها كثيراً بالفعل».

أما لأوفاروف فكتب يقول: «لن يهتم أحد قط بوضعي الحالي ويرى أنني بحاجة، وأن الوقت يمر من دون أن يكون كتابي قد طبع وصار يباع. وهذا يحرمني من مورد الرزق الذي أحتاجه لكي أبقى على قيد الحياة وأستكمل عملي، وهو السبب الوحيد لوجودي على وجه البسيطة. هل يمكنك أنت أيضاً أن تبقى غير مبالٍ بوضعي؟ هل يمكن لك أنت أيضاً أن تأبى حمايتي؟ وعلى الرغم من المسار الصعب والشائك الذي يواجهني كالقدر في حياتي فإن اسمي قد ينتقل إلى أجيال المستقبل. فهل سيسرك أن تسمع محكمة أحفادنا تعلن بأنك لم تكترث لأعمال الأدب الروسي بعد أن تكون قد منحت مفخرة عملك للعالم ولم يؤثر فيك وضع كاتب مسكين في حالة صحية سيئة وليس لديه سكن يؤويه في هذا العالم، في الوقت الذي كان يمكنك فيه أن تكون حاميه والمدافع عنه؟ لا، لن تفعل ذلك بالتأكيد، بل ستكون سمحَ الصدر. فشخصية روسية معتبرة رفيعة المقام، شأنك، لابد لها أن تمتلك روحاً روسية».

كما قرر التوسل للإمبراطور للحصول على مساعدة مالية، مهما كانت ضئيلة إلى أن يتسنى حل بقية مشاكله. . . وقد دعم الكونت ستروجانوف، القيّم على المعاهد التعليمية في منطقة موسكو هذا الطلب في خطاب وجهه إلى بنكندوروف مدير الشرطة (في ٢٩ كانون الثاني ١٨٤٢). حيث يقول: —

«بعد أن أبلغني مكتب الرقيب في موسكو بأن نشر العمل «نفوس ميتة» لم يتم إجازته فقد قرر جوجول إرسال المخطوطة إلى بطرسبرج، ولست أعرف ما القرار الذي سيتخذ هناك بالنسبة إلى المخطوطة. ولكن هذا المنحى كان بناءً على نصيحتي. وإلى أن يتم اتخاذ القرار فإن جوجول يتضور جوعاً وهو غارق في أعماق اليأس. ولا يمكنني إلا أن أفكر بأن منحة من جلالته ستكون شيئاً ثميناً بالنسبة إليه».

أرسل بنكندوروف تقريراً إلى الإمبراطور يشير فيه إلى أن جوجول «اشتهر بعدة أعمال، خاصة «المفتش العام». ويختم خطابه بالقول: «أتجرأ على أن أتوسل للكرم العظيم لجلالتكم بأن تأمروا بصرف منحة واحدة من خمس مئة روبل فضي للمذكور أعلاه». وقد كتب الإمبراطور على حاشية التقرير: «تمنح».

انتعشت آمال جوجول بحصوله على المال، إذ لا يمكن أن يكون مكروهاً من السلطات ما دام الإمبراطور قد عمد لنجدته. والأهم من ذلك أن هذه الأنباء السارة تعني أن نبأً آخر قد يكون قادماً: أي السماح بنشر «نفوس ميتة». ولكن بطرسبرج ظلت صامتة. وفي البيت أصبح بوجودين أكثر نزقاً وإلحاحاً. وقد سرّب أحدهم خبر المحادثة السرية بين جوجول وبيلنسكي، ولم يكن بوجودين قادراً على أن يسامحه على هذه «الخيانة». كان يشعر في اللاوعي بأنه، بمساعدته لصديقه في مناسبات عدة فهو قد اشترى حق التصرف بنتاجه. ظل يهاجم جوجول طالباً مواد لينشرها في صحيفته. أما جوجول فقد توقف عن الكلام معه بعد أن بلغت به الأمور مبلغها. وأخذا في النهاية يتجنبان بعضهما بعضاً فيما عدا في أوقات وجبات الطعام. وعندما يضطران للتواصل كانا يكتبان لبعضهما ملحوظات يحملها الخادم من مكتب بوجودين إلى غرفة جوجول ثم يعيد الإجابة

من جديد. وقد تعاملا بهذه الطريقة حول أمور صغيرة لا نهاية لها -مثل دعوات لمآدب عشاء، ودفع أجور الناسخ، وأسئلة حول مراجعة المخطوطات لتصحيح الأخطاء. بل انتهجت هذه الطريقة في التعامل مع أمور أكثر أهمية نسبياً. ففي ٢٤ شباط/ فبراير ١٨٤٢ كتب بوجودين قصاصة ورق تقول: «هل تعرف أن الله منحني ابناً ومنحك ابناً بالمعمودية؟» وعلى ظهر القصاصة كتب جوجول: «تهانيّ القلبية والروحية الخالصة. فليباركه الله». (وكانت هذه المناسبة هي ولادة إيفان، ثالث أبناء بوجودين).

أظهرت بطرسبرج في النهاية دلائل على بعض الحركة، فقد أعلنت رسالة من بيلنسكي إلى شيشيبكين أن القضية تتقدم بصورة مرضية. كان أودويفسكي قد سلّم المخطوطة للكونت «فايلجورسكي» الذي لم يستطع الوصول إلى وزير الداخلية بل توجه مباشرة لإقناع الرقيب «نيكيتنكو». وبعد أن راجع هذا «نفوس ميتة» أعلن أنه مستعد لإصدار موافقة رسمية على النشر شريطة إجراء ثلاثين تعديلاً طفيفاً وحذف مقطع يحمل عنوان: «قصة النقيب كوبيكين». وبعد فترة قصيرة وردت رسالة من «بلتنييف» تؤكد هذه الأنباء السارة. وبعد ذلك وردت رسالة أخرى من «نيكيتنكو» نفسه حيث يقول: -

«يفترض بك أن تكون قد استلمت مخطوطة كتابك: «نفوس ميتة». وكما ترى فقد نجح العمل في التغلب على عقبة حاجز الرقيب. كان الممر الذي سارت عبره ضيقاً وليس من المدهش بالتالي أن خدشاً أو اثنين قد تركا أثرهما فيها وأن جلدها الهش شديد الحساسية قد أصيب بجروح بسيطة هنا وهناك. لقد وجدنا أن من المستحيل كلياً تمرير حادثة «كوبيكين». ليس هناك قوة في الأرض كان يمكنها أن تمنع حذفها، وإنني مقتنع بأنك أنت نفسك ستوافق بأنه لا يمكن القيام بأي شيء آخر إزاء ذلك».

انتشى جوجول فرحاً في البداية وكأن محبوبته نجت من الموت أمام عينيه. غير أنه بدأ يتذمر حول التفاصيل بعد أن استعاد الثقة فيما يتعلق بنشر العمل. فحذف قصة كوبيكين هي أمر يماثل في ألمه بتر جزء من لحمه هو نفسه. وقد

كتب لبلتنييف (في ١٠ نيسان/إبريل ١٨٤٢) يقول: «إنه واحد من أفضل المقاطع في القصيدة ومن دونه ستكون هناك فجوة لا أستطيع ملأها أو تمويهها. لقد قررت إعادة كتابة هذا المقطع بدلاً من الاستغناء عنه، فحذفت كل الجنرالات وضخمت دور كوبيكين بحيث يتوضح أنه هو وحده يتحمل اللوم عن كل شيء وأن معاملته كانت منصفة».

قدم بلتنييف النص الجديد الخاص بكوبيكين إلى نيكيتنكو في ١٢ نيسان/إبريل ١٨٤٢ مع الخطاب التالي: «ساعد جوجول بقدر استطاعتك بحق الله! فهو ليس على ما يرام الآن وأنا متأكد بأنه إن لم يتمكن من نشر «نفوس ميتة» فسوف يموت بسبب ذلك. أرسل المخطوطة إلي بعد اتخاذ القرار النهائي بالسرعة البالغة لكي أستطيع تسليمها إلى شهيدنا، فهو يجثم كالحجر الثقيل فوق قلبي».

كتب نيكيتنكو نفسه في مذكرته الخاصة: «حالة أدبنا تودي للإصابة بالسوداء (الملنخوليا). لسنا نفتقر للمواهب، ولكن كيف لهم أن يكتبوا وهم يمنعون من التفكير».

اختار مجلس الرقابة برئاسة نيكيتنكو أن يتساهل ولم يعد كوبيكين في النسخة الثانية جندياً يحرقه الجحود بل أصبح مجرد خارج عن القانون، خنزيراً وضيعاً -مما يعطي دليلاً على جهود الكاتب الجديرة بالثناء للالتزام بالمتطلبات الأخلاقية الرسمية وأصبح من الممكن لعامة الجمهور أن ترى صفحات الكتاب (علماً بأن النص الأصلي الأول يستخدم في النص المعاصر).

غير أن نيكيتنكو كتب على غلاف المخطوطة وفوق العنوان الذي وضعه جوجول «نفوس ميتة» عنواناً آخر هو «مغامرات تشيشيكوف» أو «نفوس ميتة» من باب التخفيف من وقع كلمات العنوان الذي يتخذ من الموت أو ربما التخريب موضوعاً له.

وافق جوجول على ذلك صاغراً وتولى بنفسه وضع تصميم الغلاف حيث كتب بخط صغير العنوان الذي اقترحه الرقيب «مغامرات تشيشيكوف «ثم أداة

العطف «أو»، ثم عنوانه هو «نفوس ميتة» بخط كبير. وبعد ذلك، وبخط هائل الضخامة وبالأسود والأبيض كلمة مفردة «قصيدة». وكان يأمل أنه، بطريقته هذه يستطيع أن يقود قرّاءه لاستيعاب المعاني الملحمية الواسعة لعمله. إذ يجب أن تمثل حكايته بالنسبة لهم ترنيمة كونية بأسلوب على نسق هوميروس أو دانتي، نوعاً من «الإلياذة» أو «الكوميديا الإلهية» للسهوب الروسية. ولكي يشجع القراء على انتهاج هذا المنحى أحاط العنوان واسم المؤلف والتاريخ (١٨٤٢) بشبكة من الرسوم الدقيقة التي تلمّح ضمناً لمواضيع الكتاب. هنالك كتلة ضخمة من طيور الكركي التي تفغر مناقيرها، وعربة ترويكا تحيط بها سحابة من الغبار، وبيت ريفي ببئره والسطل المعلق فوقه، وزجاجات وكؤوس وبراميل، ولحم خنزير وسمك –وكلها رموز للحياة الجيدة التي تختلط برموز الموت.

بقيت المشكلات المادية المتعلقة بالنشر. لم يكن لديه مال. وقد وافق بوجودين بعد أن زمجر زمجرة فظة على توفير الورق، وتقرر أن يتم صف الكتاب ديْناً من قبل عمال صف الحروف للجامعة. وكان حجم الطبعة الأولى متواضعاً جداً. وقد كتب جوجول على النسخة التي تحمل توقيع لجنة الرقابة: «تطبع ٢٤٠٠ نسخة على ورق سأتولى تقديمه».

ثم بدأ العمل على تصحيح المسودات وهي مهمة غدت مطوّلة ولا نهاية لها بسبب إصرار الكاتب على الكمال. وفكّر بأنه سيحتاج إلى الهدوء الكامل لكي يتم العمل بالطريقة المناسبة في الوقت الذي يضج فيه العالم عند بابه. فقد أخذ بيلنسكي يصرّ من سانت بطرسبرج على أن يخصّ «حوليات الوطن بشيء ما من كتاباته. وكتب لجوجول يقول في (٢٠ نيسان/ إبريل ١٨٤٢): –

«حوليات الوطن هي الدورية الوحيدة في روسيا التي يمكن أن يجد فيها ذهن صادق ونبيل ويتسم بالذكاء ملجأً له. ولا يمكن بأي طريقة مقارنة هذه الدورية النقدية بما ينتجه أولئك الأشخاص قليلو القيمة لقرية «بوريشي»[1]

(١) بوريشي هي الإقطاعة التي يملكها وزير التربية أوفاروف وكان بوجودين وشيفرييف من ضيوفها المداوين.

المشهورة. أنت الوحيد الباقي، وحياتي المعنوية وحبي للفن الإبداعي إنما يرتبطان بمصيرك ارتباطاً وثيقاً. لو أنك لم تكن موجوداً لقلت وداعاً لحاضر ومستقبل الحياة الفنية في بلادنا، ولكان عليّ أن أعيش في الماضي فحسب».

على الرغم من أن هذا المديح أسعده غير أن جوجول لم يكن يجرؤ على إجابته على طلبه بشكل مباشر. لماذا يُطلب منه أن يُمدّد على أداة تعذيب تشده بين دورية «موسكوفيت» من جهة ودورية «حوليات الوطن» من جهة أخرى، بين مؤيدي التيار السلافي وأولئك الذين يؤيدون التيار الأوروبي، بين المحافظين والليبيراليين، بين موسكو وسانت بطرسبرج، بينما جلّ ما يريده هو أن يبقى بعيداً عن الصراع ويتمتع بالهدوء الذي يؤمنه الحياد؟ وبتعقل واضح كتب لبروكوبوفيتش (في ١١ أيار/ مايو ١٨٤٢) يقول: «تلقيت رسالة من بيلنسكي. أشكره. لست أكتب له الآن إذ إن علينا أن نتقابل وجهاً لوجه لنتحدث عن هذا الموضوع، وهذا ما سنفعله لدى مجيئي إلى سانت بطرسبرج في المرة القادمة».

لم يستسلم بوجودين أيضاً. أخذ يصبّ لعناته على بيلنسكي وأعوانه من مؤيدي الأفكار الغربية. وطلب من جوجول أن يعلن ولاءه لدورية موسكوفيت وألا يسمح بالتقليل من شأن اسمه بالنشر في أي دورية أخرى. أخذت نبرة القصاصات الصغيرة التي تتطاير ذاهبة غادية بين الطابق الثاني والمكتبة تزداد حدةً. وفيما يتعلق بنزاع مع بائع الورق كتب له بوجودين (في أوائل نيسان) يقول: «لقد وضعتني خلال الشهر أو الشهرين الماضيين في وضع غير مقبول كشخص مفلس أمام تاجر الورق. أما إن حدث ونسيت الاهتمام بنشر أحد مقالاتك فإن غضبك يشتعل وكأنني بترت ساقيك، أو هذا ما يبدو لي من نظراتك أو نبرة صوتك. لا حدّ لغرورك حقاً!».

أجابه جوجول على نفس القصاصة: «دعني من قصصك عن الغرور بحق الله ولا تزد من تعذيبي في الأسبوعين المقبلين على الأقل. دع روحي تنعم بلحظة راحة»..

غير أن بوجودين لم يدعه وشأنه. كان يريد حينذاك أن ينشر فصلاً من «نفوس ميتة» في دورية موسكوفيت قبل أن يعرض الكتاب للبيع في المكتبات. . . غير أن هذا كان يتجاوز قدرة جوجول على الاحتمال. هل يريد أن يمزّق الزهرة التي أنتجتها حياته إرباً إرباً؟ كلا على الإطلاق! وصلت أعصابه إلى درجة الانهيار وكتب لبوجودين (في النصف الثاني من نيسان/ إبريل ١٨٤٢) وعيناه تغرورقان بالدموع ويده ترتعش: «فيما يتعلق باقتراحك بشأن «نفوس ميتة» دعني أقل لك بأنك وقح، وعنيد، وقاسٍ وغير معقول. لست تكترث لدموعي وللصراع الذي يعتمل في ضميري ولقناعاتي الأساسية التي لا يمكنك أن تفهمها. ولكن أنصت لصلواتي على الأقل بحق المسيح الذي صُلب من أجلنا. ثق بي حتى لو شقّ عليك ذلك، ولو، لخمسة أو ستة أشهر. يا إلهي، كنت آمل بأن أنعم بالاطمئنان إلى أن أغادر على الأقل، ولكنك تتصرف وفق اندفاعاتك المفاجئة. فمرة تبدي منتهى الكرم. وبعد ثلاث دقائق تصبح مستعداً لابتلاع كلماتك. لو كان لديّ أي نقود لدفعت كل كوبيك منها لكي أحول دون نشر أعمالي في الدوريات قبل أن تظهر في كتاب».

غير أن غضبه كان قد خمد حين أبلغ معذّبه بعد يومين أو ثلاثة: «حاول أن تكون هنا في ٩ أيار/ مايو، فذلك اليوم (عيد القديس نيقولاس) هو يوم مهم بالنسبة لي وأود أن تكون إلى جانبي. وداعاً، أعانقك».

وهكذا، ووسط العاصفة والهدوء المتبادلين آلمه أن يمقت بكل تلك الشدّة الرجل الذي يؤويه ويطعمه ويقرضه المال، وأن يكون مع ذلك جباناً بحيث لا يتركه. كان بإمكانه أن يمضي ليقيم مع أصدقاء أكثر تسامحاً. ولكنه استمر في البقاء لدى بوجودين وهو نافد الصبر، ضعيف، متطلب، متردد ويتحرق للاهتمام به وإن كان هو غير قادر على الاهتمام بأي أحد. كان يتوسل للآخرين، وإن بشعور حاقد نوعاً ما ولكنه يشعر بأن العالم مدين له بكل شيء دون أن يؤهله ذلك للقيام بأي شيء بالمقابل. ويقول «بارتنييف» (وهو كاتب ومدير إداري لدورية «الأرشيف الروسي») وكان قد رأى جوجول في بيت

أحد الأصدقاء، لدى «آل خوميكوف»: «كان مزاجياً بصورة استثنائية. يطلب تكراراً كوباً من الشاي ثم يرفضه لأنه لم يعجبه - إما لأنه ساخن جداً، أو ثقيل جداً، أو خفيف جداً، أو لأن الكأس ممتلئ أكثر مما يجب، أو أقل مما يجب. وكان سريع الغضب. باختصار، غدا الجميع في حالة حرج شديد ولا يمكنهم إلا إبداء استغرابهم لصبر المضيفين وفظاظة ضيفهم الشديدة».

حتى أكساكوف الذي استمر على إعجابه بجوجول بدأ يعاني من فظاظته وسرعة غضبه وريائه. وهو يقول في كتابه «تاريخ علاقتي بجوجول»:-

«بدأ بوجودين يشتكي بمرارة من جوجول، من نزواته ونفاقه، بل من كذبه وبروده ومن عدم مراعاته مشاعر بوجودين وزوجته وأمه، ووالدة زوجته، وكلهم لا يمكنهم إرضاؤه (أي جوجول) بأية صورة من الصور. ولابدّ لي من الاعتراف بأن شكاوى بوجودين واتهاماته، وللأسف الشديد، كانت جديرة بالتصديق بحيث أنني وعائلتي وشيفرييف كنا قلقين جداً. كنت أنا من ناحيتي أتفهم سلوك جوجول -وحاولت أن أفسر سلوكه للآخرين على هذا النحو- وهو أنه يلجأ إلى مظهر كاذب وإلى إبداء الترفع التزاماً منه بقاعدة انتهجها منذ طفولته تقوم على ألا يكتفي بتجنب قول الحقيقة بل باختراع أي كلام فارغ لكي يخفي هذه الحقيقة بحيث لا يعرفها الناس قط. وعندما أتحدث عن تصرفات جوجول كنت كثيراً ما أقول لنفسي وللآخرين بأن علينا ألا نحكم على أفعاله بمقاييسنا، وبأننا لسنا قادرين على إدراك مفاهيمه لأن تركيبته تختلف عن تركيبتنا بلا شك. كما أن أعصابه -التي ربما كانت أكثر حساسية من أعصابنا- تدرك الأشياء التي لا ندركها وتستفز لأسباب لا نعرفها. لكن بوجودين ردّ على وصفي هذا بضحكة هازئة وقال: «أجل لابدّ أن الأمر كذلك!» إنني أدرك الآن بأنه لم يكن بإمكان بوجودين، بطبيعته القاسية، الجافة وغير المصقولة أن يتصرف بطريقة مختلفة إزاء جوجول -وهو أساساً شاعري وحساس ورقيق. نوايا بوجودين حسنة دائماً ويمكنه إبداء الكثير من الكرم حتى إزاء رجل لا يمكنه أن يبادله هذا الكرم. ولكنه ما إن رأى أن من دينه مالاً أصبح في وضع يمكنه من الوفاء بهذا

الدين كان لابدّ له أن يحدثه بصراحة دون أي ضجة وأن يجرّه من ياقته ليقول له: «ساعدتك عندما كنت بحاجة لذلك وعليك الآن أن تعمل معي».

ويتابع أكساكوف: «لم يكن جوجول صادقاً تماماً حتى مع أصدقائه. وقبل فترة قصيرة من سفره إلى الخارج ثانية كان أولئك الذين يرونه بتكرار أكثر من غيرهم يقولون إنه بدا لهم مختلفاً تماماً. فهو يتعامل مع أحد الأصدقاء بكل خفّة وبساطة، سواء لدى الكتابة له أو التحدث إليه، بينما لا يتحدث مع آخر إلا حول أمور تتعلق بالفن، ويمتنع عن الحديث مع ثالث، بل يغفو ويتظاهر بالنوم. وعلى هذا فإن الأول يقول عنه إنه ودود، متعاطف وعميق التفكير، بينما يجده الثاني قليل الكلام كئيباً متكبراً، ويقول الثالث إنه لا يكترث بشيء إلا بالأمور الروحية. بكلمة واحدة: لا أحد يعرف جوجول من كل جوانبه».

هل كان هو يعرف نفسه؟ كان يحلل نفسه على أية حال معبراً عن رضاه عنها ويطنب في ذلك إلى حد إثارة الملل. وكلما كان يتأمل وضعه في بيت بوجودين في موسكو بدا له هذا الوضع مأساوياً، بغض النظر عن موضوع نشر «نفوس ميتة». وقد كتب «لماريا بلابين» (في شهر كانون الثاني/ يناير ١٨٤٢) يقول: «أخذ يتراءى لي منذ أن وطئت قدماي أرض وطني بأنني في بلد أجنبي. أرى الناس الذين أعرفهم فيتولّد لديّ انطباع بأنهم لم يولدوا هنا وأنني رأيتهم في مكان آخر. لم تعد في رأسي فكرة واحدة، وإذا كنت تحتاجين إلى دمية من النوع الذي تعرض عليه الملابس تعلقين عليها قبعاتك وقلنسواتك فإنني أضع نفسي في خدمتك. يمكنك أن تضعي قبعتك أو كل ما تريدين وضعه عليّ كما يمكنك أن تنفضي الغبار عني وتنظفي أسفل أنفي بالفرشاة فلن أعطس، بل ولن تتحرك رموشي».

وكتب لياسيكوف (في ١٠ شباط/ فبراير ١٨٤٢): «لم أخلق للنشاط الصاخب والاندفاع، ويتبين لي بوضوح متزايد كل يوم، بل كل ساعة بأن أفضل موقع في العالم هو موضع الناسك».

ويقول في رسالة لبلتنييف (في ١٧ آذار/ مارس ١٨٤٢): «من طبيعتي أنني غير قادر على تصوير العالم الحي لنفسي إلا بانتزاع نفسي من هذا العالم. ولهذا فإنني قادر على الكتابة عن روسيا من روما. وإلى جانب الأحوال الخارجية والتي تعذبني في موسكو فإنني أحس بأنني غير قادر جسمياً على الكتابة هنا. رأسي يسبب لي آلاف أنواع المتاعب المختلفة. فإن كانت غرفتي باردة فإن أعصاب دماغي تتجمد وتؤلمني ولا يمكنك أن تتخيل مدى الألم الذي أعاني منه كلما حاولت، وسط هذه الأحوال، أن أسيطر على نفسي وأجبر رأسي على العمل. أما إن كانت الغرفة دافئة فإن الدفء الاصطناعي يخنقني، وأي جهد ذهني يحدث تخثراً في دماغي بحيث أحس بأنه يكاد ينفجر. أنّى كان يتسنى لي أن أتخيل بأنني سأخضع لمثل هذا العذاب لدى عودتي إلى روسيا؟»

في نفس الوقت الذي كان يشتكي فيه من حالته الصحية ومن مكائد بوجودين البغيضة فقد ظلّ يتردد على «البيوت الودودة» في موسكو حيث يتخذ سيماء الأسى والانفعال التماساً للعطف في بيوت آل أكساكوف، وخومياكوف، وإيلاجين، وشيشيبكين، أو يزور شقيقته التي كانت ما تزال تعيش في بيت السيدة «رايفسكي». بدا له أن إليزافيتا تزداد ذكاءً وتهذيباً. كانت موسكو مفيدة بالنسبة إليها على الأقل. وقد تعرّف عن طريق السيدة رايفسكي على «ناديجدا نيقولايفنا شيريميتييف»، وهي عجوز في السابعة والستين من عمرها، امرأة تقية عطوفة وإن كانت تعاني من ضعف في السمع. وقد أظهرت هذه المرأة ميلاً متحمساً له، وأبهجها أن تجد لديه طموحات روحية فأخذت تحثه على التخلي عن انزوائه واكتئابه والانغماس في الحياة المضيئة للكنيسة. وزاد من رغبته في الاستماع إليها أن براعته ككاتب على الأقل لم ترعبها. فقد كان بالنسبة إليها، مبدئياً، مجرد إنسان معذب ينشد المساندة. وكانت هي فقيرة، شأنه، تعيش على حساب الآخرين ولذا فهي في وضع أفضل للإحساس باتجاه ما يسعى إليه من الناحية الروحية. قال عنها (كما ذكرت أخته أنّا) بأنه يعتبرها «أمه الروحية». ولذا فهو لا يحتاج أن يفسّر لها مشروعه العظيم الذي ألهمه به الله: فهي تعرفه.

أخذ يتضح له بشكل متزايد وهو يصحح «بروفات» نفوس ميتة» أن عليه أن يكتب تكملة مشرقة لهذه المقدمة المغايرة لكل شيء طبيعي. فبعد أن صوّر عيوب معاصريه عليه أن يظهر الفضائل التي يمكن للروس تحقيقها. وبعد أن وجه الأنظار إلى الأعماق عليه الآن أن يدل على الطريق إلى القمة. وفي ذلك كتب لبلتنييف (في ١٧ آذار/ مارس ١٨٤٢) يقول: «عملي هام وهائل الاتساع ولا يمكنك الحكم عليه من الجزء الأول الذي سأنشره لعامة الناس الآن. فهذا ليس إلا الرواق الذي سأدخل منه إلى القصر الذي يرتفع في داخلي».

غير أن عليه أن يطهّر نفسه قبل البدء بذلك العمل الشاق العظيم، يحتاج إلى بركة خاصة يمنحها له رجل دين. صادف أن كان يمر بموسكو رئيس الأساقفة «إينوسنت» المعروف بتقواه واستقامة رأيه وبساطته. زاره جوجول حيث استقبله إينوسنت بلطف وشجع مشروعاته وباركه وأعطاه أيقونة فأسرع جوجول وقد طار فرحاً إلى بيت آل أكساكوف وهو يحمل الأيقونة المقدسة، واصطدم بصديقه الذي كان في طريقه -ويا للباطل- لكي يقضي الأمسية في النادي الذي يتردد عليه. أعلن أمام العائلة المجتمعة وقد اغرورقت عيناه بالدموع وبصوت مرتعش: «لطالما كنت أنتظر من يباركني بأيقونة مقدسة. غير أن أحداً لم يفعل، وهاهو إينوسنت قد منحني بركته في النهاية. ويمكنني الآن أن أخبركم إلى أين أنا ذاهب بعد ذلك: لأزور قبر السيد المسيح».

كتب أكساكوف (في «تاريخ علاقتي بجوجول»): «أعترف بأنني لم أسرّ، سواء من وجه جوجول الذي يغمره إلهام بوحي إلهي في تلك اللحظة، أم من خطته لزيارة الأرض المقدسة. كل هذا كان ينبع، في رأيي، من حالة توتر عصبي يبعث على الرعب، خاصة من وجهة نظر الفنان. وهكذا تابعت طريقي إلى النادي».

ووجه جوجول بسلسلة من الأسئلة بعد أن بقي مع عائلة أكساكوف، حيث أخذت زوجته وابنته وابنه يتناوبون على توجيه أسئلة له طالبين منه أن يشرح ما يقول ويوضح نواياه: هل جاء لروسيا ليبقى فيها أم ليقول لها «وداعاً؟

أعلن بحدة: «لكي أقول لها وداعاً». ماهي المدة التي سيبقى خلالها في الخارج؟ أجاب: «سنتان وربما عشر!» هل سيرسل لأصدقائه وصفاً لفلسطين؟ أجاب وهو يتنهد: «أجل، ولكن عليّ أولاً أن أتطهر وأن أجعل نفسي جديراً بذلك».

كان شاحباً، معذباً منفعلاً جداً، ولم يسبق له أن شعر بكل هذه القوة بأنه يملك الحقيقة ولكن أحداً لا يفهمه. وفيما كان يلح عليه أصدقاؤه حول أمور تافهة تتعلق بالأدب فهو يحمل في داخله الكلمة المقدسة. وقد حلل طبيعة الهوة التي تفصله عنهم في خطاب كتبه لألكسندرا سميرنوف حيث يقول: -

«التقى بي أصدقائي من المشتغلين في ميدان الأدب حين كنت ما أزال صغيراً جداً، ولم يفهموني بشكل جيد حتى في ذلك الحين. وقد توصلوا إلى قناعة في أحاديثي معهم أن كل ما أهتم به هو الأدب وأن لا شيء آخر موجود بالنسبة إلي. ولكن تغييراً أساسياً حدث في دا خلي منذ أن غادرت روسيا إذ أصبحت الروح هي محل اهتمامي الأول. وعندما عدت رحب أصدقائي الأدباء بي بأذرع مفتوحة. كل واحد منهم، ممن يعملون في نمط أو آخر من أنماط الصحافة، ويخدمون باندفاع هذه الفكرة أو تلك، معارضين غيرها في المعسكر المعادي كانوا بانتظاري وكأنني نوع من المسيح المنتظر، وكل منهم مقتنع بأنني سوف أشاركه آراءه ومعتقداته، وأنني سوف أؤيده في وجه خصومه. كان هذا بالنسبة إليهم هو الوضع الأسمى والفصل الأول في الصداقة. وبحكم براءتهم لم يخطر ببالهم قط بأن مثل هذه المطالب غير إنسانية، بل غبية. كان من المستحيل بالنسبة لي أن أضحي بوقتي وجهدي في الدفاع عن الأفكار الأثيرة لديهم، لأنني، في المقام الأول، لا أشاركهم تلك الأفكار، ولأن علي من ناحية أخرى ان أكسب ما يكفيني للبقاء على قيد وجودي المتواضع، وبذا فإنه لايمكنني أن أوزع مقالاتي بين الدوريات المختلفة بل أن أطبعها بكاملها وبطزاجتها وجدّتها وبشكل منفرد لكي أجني نقوداً من ورائها. ولكنهم اعتبروا برودي إزاء مشاريعهم الأدبية بروداً إزاءهم هم، وهكذا تنامى شعورهم بالغيرة وأخذ كل واحد منهم يظن بأنني أخونه لمصلحة شخص آخر. تلقيت رسائل غريبة كان

فيها كل منهم يؤكد لي نقاء عواطفه إزائي، ثم يفتري زوراً وبهتاناً على الآخرين ويقلل من شأنهم مؤكداً بأن تملقهم لي لم يكن نزيهاً وأنهم لا يعرفونني ولا يحبونني إلا من أجل أعمالي وليس من أجلي أنا نفسي. وهم يصبّون اللوم عليّ في الوقت ذاته ويتهمونني اتهامات هي من الدناءة بحيث أنني أقسم بأنني لست أوجهها لأحقر شخص في العالم! مثل سوء الفهم هذا أدى إلى شكوك مؤلمة، والضربات الموجهة إليّ كانت جسيمة بحيث وصلت إلى أنسجة في جسمي هي من الحساسية والهشاشة (لم يتخيل من وجهوا لي هذه الضربات وجودها لديّ) بحيث أن روحي الواهنة والساخطة لم تعد تحتمل المزيد».

على الرغم من مشاعر السخط ضد كل أولئك الأصدقاء المزعجين فقد قرر جوجول ثانية الاحتفال برفقتهم بيوم عيد حاميه القديس نيقولاس في (٩أيار/ مايو). ولم يمنعه البرود السائد بينه وبين بوجودين من تنظيم حفل غداء في الحديقة خلف بيت بوجودين في «فيرجنز فيلد» كما كان قد فعل في عام (١٨٤٠). وقد اتبع البرنامج السابق نفسه، ودعا أمه للقدوم على أن تحضر معها شقيقته أنّا. كانتا ستقيمان معه في بيت بوجودين بالطبع، ولدى مغادرتهما سترافقهما شقيقته إليزافيتا. فبعد أن قضت سنتين تحت رعاية السيدة «رايفسكي» لم يبق أمامها المزيد لتفعله في موسكو.

أما هو فسيعود إلى روما. وهناك، بعيداً عن أصدقائه وأعدائه الذين وجدهم جميعاً يرتكبون الجريمة ذاتها، سيكتب الجزء الثاني من نفوس ميتة. رحلته إلى القدس ستكون المكافأة التي سيحصل عليها بعد ذلك لقاء المخاض الديني الذي خضع له. قد يذهب إلى هناك أولاً، لا للحصول على الإلهام عند قبر السيد المسيح. ولكنه فكر فيما بعد بأن من الأفضل له أن ينتظر إلى أن يكمل مهمته ويذهب بعد ذلك ليحقق الراحة لروحه ودون أن تكون هنالك لديه أهداف خفية. ولطمأنة أمه التي كانت قلقة بسبب رغبته بمغادرة روسيا ثانية فقد قال لها (في رسالة في ٢٢ آذار/ مارس ١٨٤٢) إن القيصر، بكرمه اللامتناهي قرر إلحاقه بالسفارة في روما حيث سيتلقى راتباً محترماً. وقال لنفسه: من يدري

فقد تصبح الكذبة حقيقة في يوم من الأيام؟ فالله قريب بحيث يجب عليه أن يتعلم بألا يعجب لحدوث المعجزات.

بدأت حفلة (٩ أيار) بوقع أقل بهجة مما شهدته تلك التي جرت قبل عامين. كان هناك الكثيرون: آل أكساكوف، وكيرييفسكي، وإيلاجين، وناششوكين، وبافلوف، وسمارين، والبروفسور آرمفيلد، والبروفسور بوتكين، والبروفسور كرانوفسكي من الجامعة. غير أن جوجول وربّ البيت بالكاد يكلم أحدهما الآخر مما أزعج أصدقاءهما بسبب هذا النزاع الواضح وإن لم يكونا يجاهران به. غير أن التوتر خفّ لحسن الحظ بوصول ماريا إيفانوفنا وابنتها حيث دخلت بهما العربة إلى داخل فناء الدار. كانتا قد تأخرتا في الطريق بحيث ظننا بأنهما لن تحضرا الحفل. ما لبث أن بدأ العناق، ودموع الفرح، ورسم شارات الصليب، وتبادل التحيات وطلبات عاجلة لأخبار فاسيليفكا. نيقولاي (ابن شقيقته الكبرى ماريا) بصحة ممتازة ولكن ماريا كانت مريضة طوال السنة الماضية، وهم يخشون أنها مصابة بالسل. أولجا كبرت وأصبحت شابة قوية وإن كانت شبه صماء. أما أنّا فهي تعاني من الملل في الريف. الإقطاعة نفسها في حالة كارثية كما كانت دائماً. حسناً، سيتكلمان في ذلك فيما بعد، أما الآن فيجب رعاية الضيوف الذين يتدفقون تباعاً. دخلت كاترينا خومياكوف» و «إليزافيتا شيرتوكوف» بصورة تلفت الأنظار على صهوتي جواديهما اللذين يغطيهما سرجان جانبيان (من النوع الذي تجعل فيه المرأة ساقيها الاثنتين إلى جانب واحد). تناولتا طعامهما مع بقية النساء في الداخل بينما أكل الرجال في الحديقة. كان يوماً جميلاً وجوجول يشع فرحاً واهتياجاً باعتباره سيد الاحتفال. وبعد الوجبة قام بتحضير شراب «البنش» تحت الشجرة. وعندما وضع شعلة النار تحت خليط شراب الروم والشمبانيا أخذ يتدفق بلغة شاعرية مقارناً بين الشعلة الزرقاء وبين بزة رجل الشرطة قائلاً إن قائد الشرطة بنكندورف نفسه الذي سينزل في معداتهم ويعيد فرض النظام فيها الآن. هذا الخروج غير المؤذي عن الموضوع أثار ضحكات صادرة عن القلب وانتهت الحفلة على وقع أفضل مما بدأت به.

بدأ جوجول في اليوم التالي لهذا اليوم العظيم الإعداد للمغادرة. فنفوس ميتة ستأتي من المطبعة قريباً: وهذا سبب إضافي يدفعه للانصراف! فيكفي مجرد التفكير بالاحتجاج العنيف الذي قوبلت به مسرحيته «المفتش العام» ليدفعه للابتعاد. والمراجعات لكتابه قد تثيره سواء أكانت جيدة أم سيئة، وهو يحتاج للهدوء والسكينة لكي يبدأ كتابة الجزء التالي، ويمكن لأصدقائه في كل من موسكو وبطرسبرج أن يتولوا المشكلات المادية المتعلقة بالطبعات والمبيعات وأن يدافعوا عن مصالحه في غيابه. وكان قد بدأ بالفعل في إصدار التوجيهات الشفهية والكتابية حيث كتب لبروكوبوفيتش (في ١٥ أيار/ مايو ١٨٤٢) يقول: «لم أعمل على أساس البيع أو الإعادة مع باعة الكتب ولذا يمكنك أن تخبرهم بأن عليهم أن يدفعوا لدى استلامهم النسخ، وإلا فلن يستلموا شيئاً».

كما وضع قائمة بديونه وأصدر توجيهاته إلى شيفيريف لكي يدفعها لدى توفر المال، وكتب له يقول: «يجب تخصيص المبالغ الأولى على أساس مايلي: سفيربييف ١٥٠٠، شيفيريف ١٩٠٠، بافلوف ١٥٠٠، خومياكوف ١٥٠٠، بوجودين ١٥٠٠، وبعد ذلك إدفع ديوني الأخرى: بوجودين ٦٠٠٠ روبل وأكساكوف ٢٠٠٠ روبل».

فزع وهو يراجع قائمة الأسماء هذه والمبالغ الواردة في القائمة. هل سيبيع ما يكفي من نسخ «نفوس ميتة» ليتحرر من دائنيه.

كان قد قرر يوم ٢٣ أيار/ مايو موعداً لمغادرته. وفي الحادي والعشرين استلم النسخ الأولى لكتابه وقد وصلت لتوها من مجلّد الكتب. لحظة مهيبة. ما كان يمثل حلمه اليومي لفترة طويلة من الزمن أصبح «مادة تجارية» يمكن لأي شخص أن يشتريه لقاء عدة روبلات. تصفح الأوراق المطبوعة، تنشق رائحة حبر المطبعة، واختلطت لديه مشاعر الفرح والألم المبرح الذي يشلّه. «نفوس ميتة» موجودة إذن خارج ذاته ولم يعد يستطيع أن يفعل شيئاً لصالحها أو ضدها. وسواء أحب ذلك أم لا فإن الكتاب سيواجه قدره الآن لدى القراء بحيث يجتذب البعض ويرفضه البعض الآخر. أحسّ بالفقر والاغتناء في آن معاً. وقد ظهرت

في العدد (٤٢) من «موسكوفيت نيوز» ملاحظة تعلن عن عرض كتاب يحمل عنوان «مغامرات تشيشيكوف» أو «نفوس ميتة»، «قصيدة بقلم ن. جوجول، كتاب بحجم قطع الثُمن، ٤٧٣ صفحة، موسكو ١٨٤٢، الثمن بتجليد جيد عشرة روبلات وخمسون كوبيكاً».

شعر جوجول وهو على عتبة هذه التجربة الكبيرة بالحاجة للاتصال مجدداً بالإنسان الذي وافق على مباركة جهوده، وهو رئيس الأساقفة إينوسنت. وفي لحظة من حماسٍ روحي وصل به الأمر إلى درجة إقدامه على إرسال بركته هو إلى رئيس الأساقفة. ففي (٢٢) أيار/مايو كتب لرئيس الأساقفة يقول: «أصافحك وأهزّ على يدك من كل قلبي وروحي وقد عززتني بركتك. وأنا بدوري أباركك. امض في طريقك الرعوي بكل عزم ودون تردد. فقوة لا حدود لها تحكمنا وليس هناك ما يحدث في العالم دون إرادة من هذه القوة. الإرادة العليا هي التي حتّمت اجتماعنا. إنها وعد بالمشاركة الحميمة أمام قبر السيد المسيح. لا تتخذ أية خطوات، ولا تلقِ بالاً أنت ذاتك لنمط إنجاز هذا الوعد. إنني أشعر في داخلي بأن مقابلة هامة تنتظرنا. وداعاً، وتقبّل قبلة قوية صادرة عن روحي. لست أفارق الأيقونة التي منحتني إياها».

في اليوم التالي (٢٣ أيار/ مايو ١٨٤٢) غادر جوجول بيت بوجودين يسيطر عليه شعور بالضغينة والارتياح المنفعل، وكان بوجودين يتلهف لمغادرته. وقد كتب لجوجول لاحقاً (في شهر أيلول/ سبتمبر) يقول: «عندما غادرت وأغلقت الباب من دونك رسمت شارة الصليب وأطلقت زفرة تحرر وكأن جبلاً سقط عن كاهلي. وكل ما اكتشفته منذ ذلك الحين زاد من تعاستي. وفيما عدا لحظات قليلة رائعة فإنني أعدُّك شخصاً مقيتاً».

بعد خمس سنوات تحدث جوجول أيضاً عن تنافرهما وذلك في رسالة كتبها لبوجودين، وذلك في ٥ تموز/ يوليو ١٨٤٧ حيث يقول: -

«كنت قد كتبت إلى س. ت. أكساكوف من روما حتى قبل وصولي إلى موسكو طالباً منه بأن يحذرك بألا تطلب مني أي مادة لصحيفتك. وحين

وصلت إلى موسكو دخلت بيتك وقد سيطر عليّ الخوف بحيث كنت أشعر بأن متاعب ستحلّ فيما بيننا. في اليوم الأول كررت توسلاتي أمامك حيث أبلغتك بأن عملي سيكون من الأهمية بحيث سيدفعك كما سيدفع الكثيرين في مختلف أنحاء روسيا إلى البكاء. طلبت منك أن تصدقني والدموع تملأ عيني، وقد تحركت عواطفك حينذاك وقلت لي: «أصدقك». ثم طلبت منك ألا تحملني على إعطائك أية مواد لمجلتك. وقد وعدتني، ولكنك بدأت تتردد في اليوم الثالث أو الرابع. ذهلت وغضبت عندما أعلنت بعد أسبوعين بأن عليّ أن أعطيك مقالة وكأن لم يتم بيننا أي اتفاق. وحين ذكرتني بعد ثلاثة أسابيع من ذلك بأن عليّ أن أتصرف وفقاً لما طلبت مني، لأنني أعيش في بيتك، وعائلتك تريد أن تعرف كيف لي أن أعيش معكم دون أن أعمل في مجلتكم- هذا الإنذار كان خسيساً وغير شريف وجدير بالازدراء. أجل، فتذكير إنسان يقيم تحت سقف بيتك بأن عليه أن يظهر امتنانه هو أمر جدير بالازدراء. وتراجعك عن كلمة الشرف التي أعطيتها لي هو تصرف غير شريف. فكرت بأن من غير اللائق بروح نبيلة أن تشك بدموع إنسان استعطفك. والأدهى من ذلك أنك قلت له: «أصدقك»، ومن ثم أخذت تشك فيه بعد ذلك. باختصار، بدا ذلك جباناً وحقيراً بحيث أنني بدأت أشعر نحوك بالاحتقار، ولم أحاول أن أخفي هذا الاحتقار، بل على العكس، أظهرته للعيان كلما سنحت الفرصة لي لذلك. وبما أنك لم تحزر السبب عددت ذلك، ببساطة، دليلاً على تكبّري. وعندما كنت ترى تعابير الاشمئزاز على وجهي في مناسبات مختلفة مهما كانت ضئيلة توصلت إلى قناعة بأنني أحتضن في داخلي شيطان حب الذات في أكثر أشكاله وحشية». ظننت بأن هذه هي طبيعتي الحقيقية وأنني أتصرف على هذه الشاكلة مع الجميع- ولكنني أعترف لك بصدق بأنني لم أتصرف بهذا السوء مع أي أحد كما فعلت معك. ومنذ تلك اللحظة قلت لنفسي: «تابع تخبطك ما دام الأمر كذلك». وهكذا بدأت متعمداً التصرف بطريقة تتناقض مع طبيعتي على أمل أن أسبب لك المزيد من الإزعاج».

خرج جوجول من البيت الواقع في «فيرجنزفيلد» وهو على هذه الحالة النفسية. كان قد ودّع أمه وشقيقتيه، وكن ينوين البقاء في موسكو لعدة أيام أخرى. وكانت ماريا إيفانوفنا قلقة على «نفوس ميتة». كم سيتألم ابنها إن لم يحقق الكتاب النجاح الذي يستحقه دون شك! سيكون بعيداً، ولن تكون هي أو أصدقاؤه إلى جانبه لمساعدته على تحمل الضربة. إنها تشفق عليه وتتألم لأنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً لتساعده. وما إن غادر ابنها حتى توجهت هي وابنتاها والسيدة أكساكوف في ثلاث عربات إلى «دير ترويستا» الذي يبعد مسافة خمسة وستين فرسخاً عن موسكو للصلاة متوسلين إلى الله أن يحمي ولدها الذي يوشك على أن ينفي نفسه إلى نهاية الأرض (ولكن لماذا؟).

لم يكن بوجودين هذه المرة يرافق المجموعة التي اصطحبت جوجول إلى محطة التوقف الأولى كما فعل قبل سنتين. ولكن أكساكوف وشيشبكين يرافقهما أولادهما حافظوا على هذا التقليد. كما رافقتهما السيدة العجوز شيريمتييتييف عند حاجز «تفيرسكايا»، ورسمت علامة الصليب فوق رؤوس المسافرين وعادت إلى بيتها. أما البقية فقد تابعوا طريقهم إلى «خيمكي» التي تبعد مسافة ثلاثة عشر فرسخاً عن موسكو. هناك نزل الجميع، وبينما كانوا بانتظار العربة أخذوا يتمشون على شاطئ النهر في غابة بتولا صغيرة. حمل جوجول أكساكوف على أن يقطع وعداً بأن يرسل له جميع ردود الأفعال الكتابية والشفهية على «نفوس ميتة» -وبصورة خاصة تلك التي تهاجمها. عليه أن يعرف رأي أعدائه بصورة رئيسية. كان ينوي التوقف في سانت بطرسبرج لترتيب أمر طباعة أعماله الكاملة، على أن ينطلق من هناك إلى إيطاليا عن طريق ألمانيا والنمسا.

كان عصبياً لدرجة لم يعتدها هو في نفسه ويشعر بعدم ارتياح واضح إزاء أكساكوف وشيشيبكين، ويسره أن يغادر موسكو، ولكن ما يعكر مزاجه هو أنه يغادر أعز أصدقائه بانطباع غير موات. كان غاضباً من نفسه لأنه خيّب آمالهم، وغاضباً منهم لأنهم أجبروه على أن يخيب آمالهم. كتب أكساكوف

عن ذلك قائلاً: «كان يشعر بأنه خدعنا وأنه يغادرنا بسرعة وبتعجل بعد أن وعد بالبقاء في موسكو إلى الأبد. وقد شعر بأننا، نحن الذين لم نكن ندرك أفكاره الخفية ونجهل الوضعية الصعبة التي كان يعيش في ظلها في بيت بوجودين وحيث كان سلوكه مبرراً من وجهة نظره -فإننا بالتالي لن نكون عادلين إن اتهمناه بالفتور وتقلّب المزاج والتناقض، وأنه يكن عاطفة جياشة لإيطاليا مقابل برود إزاء موسكو وروسيا».

تأخرت عربة المسافرين، ولذلك جلسوا ليأكلوا. وعلى الرغم من الشمبانيا التي كان جوجول قد أحضرها فإن الحديث ظل فاتراً، ولم يجرؤ أحدٌ منهم على الإفصاح عما يدور في ذهنه. وما لبثت العربة أن وصلت وأجراسها ترن مصدرةً أصواتاً بهيجة فقفز جوجول إليها لترتيب متاعه. كان رفيقه في السفر رجلاً عسكرياً ضخم الجثة له اسم ألماني. وقد كتب أكساكوف (في «تاريخ علاقتي مع جوجول») يقول: «على الرغم من أنني كنت غاضباً من جوجول منذ بعض الوقت فقد نسيت كل غضبي في تلك اللحظة وأحسست بأسى عميق لرؤية فنان كبير يهجر بلده ويهجرنا. امتلأت مرارة حينما أُغلقت أبواب العربة فجأة وبعنف. اختفى وجه جوجول وتحركت العربة في طريقها إلى سانت بطرسبرج».

أقام جوجول مع بلتنييف في سانت بطرسبرج، وزار أليكساندرا سميرنوف، واجتمع سراً ببيلنسكي الذي كانت مساندته لا تقدّر بثمن فيما يتعلق بإطلاق «نفوس ميتة». ولكنه قضى معظم وقته مع بروكوبوفيتش وهو يعدّ أعماله الكاملة (باستثناء نفوس ميتة) لطباعتها في أربعة مجلدات. وبينما كان يقوم بذلك راح أصدقاؤه يعربون عن سخطهم لأنه يضع المشروع بين يدي رجل من «الجانب الآخر».

يقول أكساكوف: «لم نكن في الواقع نثق بجوجول. فشخصيته المنافقة ومغادرته غير المتوقعة لموسكو دون أن يستشيرنا، وطبعه لأعماله في سانت بطرسبرج، وإيكاله هذه المسألة الهامة لشخص لا يملك أية خبرة (لبروكوبوفيتش)

بينما يملك «شيفيريف» كل الكفاءات اللازمة لأداء هذه المهمة! -هذا إلى جانب صداقته وولائه له - وختاماً اجتماعات جوجول في سانت بطرسبرج مع أشخاص معادين لنا، ورأيه فيهم ليس أفضل من رأينا (مثل بيلنسكي وبوليفوي وكرايفسكي)، كل هذا عزز من عدم ثقتنا به، حتى من قبل شيفيريف ومن قبلي أنا نفسي. كل هذا أكد رأي بوجودين بأن جوجول شخص مخادع كلياً ولا يمكن تصديقه».

أنهى جوجول ما يريد عمله في سانت بطرسبرج في غضون أسبوع واحد وأوكل المسؤولية الكاملة للنشر إلى بروكوبوفيتش والذي سيقوم حتى بقراءة «البروفات» وتصحيحها، إذ ليس لدى جوجول من الوقت ما يصرفه على هذه المسألة التافهة. كتب رسالتين عشية سفره (في ٤ حزيران/ يونيو ١٨٤٢) إحداهما للسيدة بوجودين (وليس لبوجودين نفسه) مؤكداً لها صداقته المخلصة التي عليها أن تصدقها كما قال «لأن قلب المرأة أقل ميلاً للشك وعدم الثقة مقارنة بقلب الرجل». والرسالة الثانية لأكساكوف يبلغه فيها بنشاطاته الأخيرة في العاصمة، ويؤكد أنه يغادر (روسيا) بروح عالية حيث يقول: «المجلدات الأربعة ستصدر بالتأكيد في شهر تشرين الأول/ أكتوبر. نسخة «نفوس ميتة» لم تقدم للإمبراطور بعد. أعانقك تكراراً. كن قوياً وشجاعاً في روحك، فالقوة والشجاعة هي التي تحكم من يكتب لك هذه السطور. فكل الأشياء تسري فيما بين أولئك الذين يحبون بعضهم بعضاً، ولهذا فإن جانباً من قوتي لابد أن يتغلغل في روحك أيضاً. ومن يؤمنون بالنور سيرون النور. أما الأشباح فهي لا توجد إلا لدى الجاحدين».

حزم جوجول متاعه ثانية في اليوم التالي. لقد انتهى أمره مع روسيا، وها قد صدر الجزء الأول من «نفوس ميتة». سيستعيد وطنه الحقيقي وهو في الخارج، الوطن الذي لا يظهر لأعين بني البشر.

□ □ □

٧ ـ نفوس ميتة

لم يدِ جوجول من الاهتمام ولم يعلّق من الآمال على أي عمل آخر كما فعل فيما يتعلق بنفوس ميتة. فقد ألهبت مخيلته بسرعة تلك الحكاية البسيطة لذلك المخادع الذي اشترى أرواح فلاحين موجيك موتى مقابل أغنية ورهن هذه الأرواح لدى بنك الدولة باعتبارهم أحياء. وقد انكبّ على ذلك العمل بحماس دون أن يقيس المدى أو الاتجاه الذي ستسير فيه خطته.

يقول في «اعترافات كاتب»: «فكر بوشكين بأن موضوع «نفوس ميتة» موضوع مثالي يناسبني لأنه سيمكنني من السفر مع بطلي في أرجاء روسيا طولاً وعرضاً، وابتداع عدد هائل من الشخصيات. وعلى هذا أخذت أعمل دون أن تكون لديّ خطة ثابتة، ولا حتى فكرة واضحة عن شخصية البطل. كل ما كنت أعرفه هو أن نشاطات تشيشيكوف ستقودني إلى أنماط متنوعة من الناس والشخصيات وأنا أمضي في طريقي، وبأن رغبتي الخاصة بالضحك ستوحي لي بقصص هازئة أردت أن أنثر بينها مقاطع جادة».

رأى جوجول في تشيشيكوف أولاً، كما اعترف هو، شخصية مسلّية فقط، وفي بحثه عن نفوس ميتة وسيلة بسيطة لتعريف القارئ بمجموعة من الأفراد المبالغ في غرابتهم من الطبقة العليا في الريف. وكانت هذه بالضبط صورة دقيقة للرواية الغرائبية كما رسمها «لوسيج» (الروائي والمسرحي الفرنسي) في «جيل بلاس» وقلّده عدد من الكتاب الروس – خاصة بلجارين والذي لاقت قصته «إيفان فايجيجين» نجاحاً هائلاً – في بداية ذلك القرن. كما كان جوجول

يفكر أيضاً «بدون كيشوت» لسيرفانتس (الأديب الإسباني) والتي تقوم أيضاً على الترحال، وكذلك «الكوميديا الإلهية» و «الإلياذة» و «الأوديسا». هذه النماذج المتألقة أدارت رأسه. وكلما أطال التفكير في قصته كان يكتشف أعماقاً أكبر فيها. إنه هو أيضاً يريد كتابة قصيدة، على أن تكون قصيدة ملحمية – ملحمة تتناول التفاهة والملل في حياة الريف– فأحداث القصة ستجري في الريف، في تلك المناطق الريفية التي لا يعرف جوجول إلا القليل عنها. فقد عاش منذ أن كان في التاسعة عشرة من عمره في سانت بطرسبرج وموسكو، أو في الخارج. ولم يكن يعرف المدن الصغيرة في روسيا إلا كمسافر يتوقف في النزل فيها لعدة ساعات لتبديل الخيول. وما يعرفه عن المنظر الروسي الذي لا يتغير هو ما يراه عبر نوافذ عربة السفر التي يستقلها. غير أن القصص التي يرويها الآخرون، إلى جانب انطباعاته الشخصية السريعة مكنته من استحضار صورة مقنعة جداً لعالم ملاّك الأراضي والبيروقراطيين الصغار والذين قلما تغلغل جوجول في داخل صفوفهم...

كان قد كتب عن إحدى تلك البلدات الهاجعة التي يملؤها الطين في «المفتش العام». ونجد في «نفوس ميتة» المشهد المألوف ذاته: السماء الممطرة نفسها، والناس ذاتهم الذين كرسوا حياتهم جسداً وروحاً للتفاهة، والزيف والبذاءة والنفاق. وشأن ما فعل في المسرحية (المفتش العام) فإننا نشهد البالوعة الهادئة وقد ثارت فجأة بظهور شخصية غامضة لا يعرفها أحد والتي لا يمكنها إلا أن تأتي من تلك العاصمة الضبابية البعيدة. الرجل الأول كان اسمه «خليستاكوف» (المفتش العام) أما الثاني فهو تشيشيكوف (نفوس ميتة). غير أنه نظراً لأن المتطلبات المسرحية في المفتش العام كانت تقضي بأن يأتي أبطال المسرحية الكوميدية إلى خليستاكوف فإن تشيشيكوف يستطيع في الرواية أن يذهب إلى كل الشخصيات. فمن هو هذا الـ «تشيشيكوف» الذي «ينطّ» من مكان إلى آخر كأنه «الزنبرك»؟

إنه محتال مثل خليستاكوف حيث إنه لا يتوقف عن خداع الناس المحيطين به. غير أن أكاذيب خليستاكوف كانت خفيفة، مضحكة تدير الرأس، بينما

أكاذيب تشيشيكوف ثقيلة، ماكرة وعملية جداً. وسرعان ما أدرك المؤلف أن هذه التجارة بالنفوس الميتة، والتي كان يراها في البداية على أنها وسيلة يقوم من خلالها بعملية استكشاف من بيت لبيت بحثاً عما هو مضحك، إنما تحمل رسالة فلسفية مقلقة. لاشك بأن هنالك شيئاً شاذاً في فكرة شراء أفراد لم يعودوا موجودين على قيد الحياة وإعادة إحيائهم في عملية خداع بيروقراطي. . . ولابد أن يكون الشخص المسؤول عن عملية البعث الغريبة هذه هو شخص أكثر من مجرد محتال عادي. لو أن تشيشيكوف احتال على الملاّك في معاملات تتعلق بأقنان أحياء لما كان إلا مجرماً عادياً مثل غيره من المجرمين في العالم. غير أنه، بشرائه أقناناً موتى إنما أضاف إلى عملية احتياله نغمة تتجاوز الطبيعة. وعلى هذا، وكأنما بما يتعارض مع إرادة الكاتب فإن ما يوجه الحدث لم يعد شخصية البطل بل الحدث نفسه هو الذي يقدم هذه المجموعة الفريدة من الشخصيات لبطل الرواية. وقد اكتشف جوجول رائحة كبريت حول تشيشيكوف. وكتب لشيفيريف (في ٢٧ نيسان/إبريل ١٨٤٧): «ظل هدفي لسنوات هو أن ينفجر من يقرأ عملي من الضحك من هذا الشيطان».

غير أنه إن كان الشيطان هو من فكر فيه جوجول حين ابتدع شخصية تشيشيكوف فإن هذا الشيطان الثقيل ليس شيطاناً شنيعاً من أهل جهنم، بل شيطان أقل شأناً يمثل التفاهة والنزوع للراحة. ليس هو من أبالسة السعير الذين يحملون لواء الرفض والجرائم المأسوية، بل هو الدؤوب الصغير، المثابر، المرتب، شيطان يرتدي بنطالاً رمادياً ويعيش على التسويات المبتذلة والأكاذيب الصريحة. لا يهاجم هذا الشيطان شخصيات عظيمة أو ذات شأن ولا يهتم بالقديسين ولا بالقتلة، بل زبائنه هم من بني البشر العاديين. وهو على قدم المساواة معهم، ومظهره الخارجي يبعث على الطمأنينة ويتحدث مثل الناس العاديين. إنه ظاهرياً «واحد منا» ولذا فهو لا يثير شكوكنا.

وإلى جانب ذلك، وعلى العكس من سيده الأكبر (الشيطان) فهو لا يريد أن يجرّ بني البشر في طريق الغواية لمجرد الزهو بالظفر بأرواحهم بل للحصول على

بعض الربح لنفسه نتيجة لتعامله معهم. وهذا الاهتمام المادي يظهر تشيشيكوف على أنه من الأقارب القريبين لصنف بني البشر. وحين يتنكر بلبوس بني البشر فإنه أيضاً يكتسي بآلام ومسرات الطبيعة البشرية التي ورثها. إنه شيطان وإنسان في آن معاً، شيطان إلى المدى الذي يمثل فيه أحقر ما في الإنسان– «شيطان في إنسان» مثلما المسيح إله – في – إنسان. منذ سنوات وإيفانوف يرسم المسيح وهو يظهر للناس في حين كان جوجول يرسم الشيطان وهو يظهر للناس. شيطان الطريق الوسط. فتشيشيكوف «ليس وسيماً ولا هو قبيح، ليس بديناً ولا هو نحيل، لا يمكن للمرء أن يسميه عجوزاً ولكنه ليس في مقتبل الشباب. . .».

ما إن ينزل في غرفة في نزل ببلدة «ن» الصغيرة حتى يبدأ بالاتصال بأعيان المنطقة ويأسر كل القلوب بأسلوبه الجذاب. ينتقي الكلام ويعدّل مواقفه بما يتناسب مع من يخاطبهم فيتوجه لكل منهم باللغة التي ترضي غرور هذا الشخص وتخفف من شكوكه.

يقول جوجول في الفصل الأول من «نفوس ميتة»: «إن كان من يستهدفه هو صاحب مزارع استيلاد للخيول فهو يتحدث بلغة مزارع الخيول، وإن كان الحديث يدور حول الكلاب فإنه يطلق ملاحظات قليلة صائبة حول الموضوع. وإن تحوّل الحديث إلى تحقيق في محكمة محاسبة فهو يظهر معرفته بنواحي الضعف في محكمة «مالادي». وإن دار الموضوع حول لعبة البلياردو والورق فهو يثبت أنه الخبير فيهما. وإن تعلّق الأمر بالفضيلة فهو يسهب في الحديث عن الموضوع وعيناه تطفحان بالدموع، وإن أثير أمر إجراءات الجمارك فهو يتناوله كأنه كان مسؤولاً في الجمارك. باختصار، كان مطلعاً كل الاطلاع على كل الأمور».

يمضي تشيشيكوف حليقاً، مرتدياً سترة السهرة الحمراء الأنيقة، متجولاً على ملاك الأراضي المحليين، وهذا التحول والتكيف من جانبه يقارب حدود تمرين عضلات ذهنه. وما إن تطأ قدماه إقطاعة ما حتى يتخذ لونها كما يقال. غير أن هذا التحول المستمر الذي يشابه نثر الحيوانات الزاحفة لقشورها الجلدية لا يحول بينه وبين رؤية هدفه الأساسي، وهو شراء النفوس الميتة. فهو يعدل

أسلوبه في تناول الوضع بما يتفق مع الظروف عندما يقترح صفقته المتعلقة بالموتى، والإجابات التي يتلقاها مختلفة وكاشفة بالقدر نفسه. وفي لحظة الدهشة الأولى يكشف كل واحد من ملاك الأراضي، وهو يجثم في عرينه، عن طبيعته الحقيقية. غير أن أياً منهم لا يستنكر الفكرة من الناحية الأخلاقية. ولكن ردود فعل كل منهم تتراوح تبعاً لمزاجه الخاص: فقد يقابلونه بالدهشة، أو الريبة، أو بالضحك أو بالمكر، ويستمهلونه لبعض الوقت لكي يفكروا بالأمر، أو يطلبون ثمناً فادحاً وإن كانوا لا يعبرون قط عن الاستنكار. واحد فقط، هو مانيلوف يخشى أن تكون هذه الصفقة «لا تتوافق مع المؤسسات ووجهات النظر اللاحقة في روسيا». غير أن مهمة تشيشيكوف في محاولة طمأنة مانيلوف تصبح أكثر سهولة بحكم رعب مانيلوف من الأمور المعقدة.

يبدو ثانية وكأن ضباباً قادماً من الشمال يشوش عقول الناس الذين يقابلهم تشيشيكوف. لقد هيأتهم التقاليد القديمة المتوارثة لنظام القنانة لتقبل فكرة بأن أي شيء في بني البشر يمكن بيعه، بما في ذلك جسده وروحه. ليس هناك أمر مفرط أو مثير للرعب في أي عقد من شأنه أن يمدد عبودية القن إلى ما بعد دفنه ومواراته الثرى. إنهم ينتهجون منطقاً معيناً من شأنه أن يقودهم إلى تخوم منافية للطبيعة. وتعلقهم بالحقائق الملموسة يمنعهم من الإدراك أنهم يعيشون في حلم هذياني. يقنعهم تشيشيكوف واحداً بعد آخر، فيضعون قوائم بالفلاحين الموتى ويحددون سعراً لكل رأس. ثمن ضئيل وتافه -غير أنه يبقى كسباً مفاجئاً وغير متوقع، يدفع مقابل جثث لم تعد قادرة على تقديم شيء بأصابعها العشرة.

بزيادة مخزونه من الجثث يزدهر تفاؤل تشيشيكوف كذلك. سيأخذ كل هذه الأشباح التي أصبحت ملكاً له ويدّعي الانتقال بها إلى بقعة في الصحراء يشتريها بمبلغ ضئيل من المال في مقاطعة «توريس»[1] أو «خيرسون»[2] وسيطلق على قريته غير الموجودة في الواقع «تشيشيكوفا»، وهو واثق بأنه لن يواجه

(١) مدينة في شمال غربي إيران.
(٢) مرفأ في جنوب أوكرانيا على نهير الدنيبر.

صعوبة في رهن قطعة الأرض هذه لدى بنك الدولة، وبذلك يحصد ثروة، وما تأتي به الثروة من مسرات - فتشيشيكوف ليس مجرد متكسب، حسب تعبير جوجول، والمال بالنسبة إليه ليس غاية في حد ذاته بل وسيلة لاكتساب موقع مريح في المجتمع.

كتب جوجول (في الفصل الحادي عشر) يقول: «ليس لديه (تشيشيكوف) تعلق بالمال بالمعنى الحرفي للكلمة. فالجشع والبخل غريبان عن طبيعته، إنه يحلم بحياة يعمّها الرضا والراحة: عربات، بيت جميل، مجموعة كبيرة من الخدم، مآدب عشاء رائعة. . . هذا هو ما يسعى له، أن يكون قادراً في النهاية في أحد الأيام على تذوق طعم السعادة حتى الثمالة. كل ما فيه طعم الوفرة والحياة المريحة كان له تأثير قوي عليه بحيث أنه هو نفسه لا يستطيع أن يفسّر ذلك».

وينفي تشيشيكوف، كشخص واثق كل الثقة من نفسه، وجود خير مطلق أو شر مطلق. وهو لا يتردد ولو للحظة واحدة في التفوه بأية كذبة ما دامت تخدم مواصلة سعيه للحصول على المزيد من الثروة وما سينتج عن هذه الثروة، أي المزيد من الراحة. وهو شديد العناية بنظافته الجسمية بنفس القدر الذي يتغاضى فيه عن نظافته الأخلاقية. ويكتب جوجول (في الفصل الحادي عشر): «كان يبدل ملابسه الداخلية كل يومين، وكل يوم في فصل الصيف، وأي رائحة بغيضة تزعج منخريه مهما كانت خفيفة. وكان يضع قرنفلة على أنفه كلما كان خادمه، بيتروشكا (الذي تفوح منه رائحة قوية) يقوم بمساعدته على خلع ملابسه أو حذائه. الصابون المفضل لديه صابون فرنسي «والذي يعطي بياضاً لافتاً للبشرة ومظهراً نظيفاً للوجنتين». وليس يرغب في ارتداء أية قمصان سوى قمصان هولندا الفاخرة، وعندما يحدق في نفسه في المرآة يذوب حباً بوجهه إذ إن كل شيء فيه ناعم، منتظم، غير ناتىء وجدير بالاحترام. وهو يقوم بحركات في وجهه أمام المرآة ويقول لنفسه وهو يحلق ذقنه: «انظر كم هو مستدير ذقنك!» وهو يغني متهللاً لنجاحه العظيم والذي يأتي بعد تلك البداية المشؤومة.

ماضيه برمته هو عبارة عن سلسلة طويلة من الصفقات اللاأخلاقية، وسلب المال، وخيانة الرفاق والرشاوى. بدأ ذلك منذ أيام المدرسة حين كان يسلب رفاقه كل ما لديهم، وتنامى عندما عمل في إدارة الجمارك حين كان يفرض التعرفات على المهربين، ولا يردعه وقوفه في المحاكم مرات عديدة دون أن يؤدي ذلك إلى نتائج جدية. وصل إلى القمة في تحقيق آماله بتوصله إلى الفكرة الملهمة التي تقوم على شراء نفوس ميتة. وسيزيد ثانية من ثروته هذه المرة دون أن يبتدع أي شيء مستخدماً يديه. إنه فنان في الخداع يتلاعب بالفراغ، يضحك في سرّه حين يرى حيله وهي تنجح، ويقف مرتدياً ثوب نومه وهو يواجه صندوق نقوده المفتوح ويثب فرحاً ويقفز حتى يمس كاحلاه ردفيه تعبيراً عن ابتهاجه.

هذا الوثوب الشيطاني الذي يعبّر عن فرح هذا السيد ذي الجسم المتورد الريان يسبق تسجيل قائمته من الموتى. يؤشر على الأسماء، وينغمس في أحلام الزواج والذرية. فكرة الأبوة تشغل تفكيره، لا يمكنه الاعتراف بأن «بذرته» ستندثر ولن تكون له عاقبة. فالإنجاب هو فرصته الوحيدة للبقاء، إذ ليس هناك شيء في العالم الآخر في رأيه، ولذا فإن موته دون أن ينجب يعني أن كشف الحساب النهائي سيكون صفراً. وهو يرى، حسب تعبيره، «مخلوقاً متورداً، فتى لعوباً جميلاً، ابنة صغيرة فاتنة، أو ربما ولدين صغيرين مثلاً وابنتين أو حتى ثلاثاً لكي يعرف الجميع أنه عاش فعلاً ولم يمرّ مرور الكرام على وجه البسيطة، وكأنه مجرد ظل أو شبح». كان يخشى «أن يختفي مثل فقاعة على سطح الماء دون أن يترك وراءه أثراً. هوسه هذا يماثل هوس عجوز إبليسي- وهو البطل الرئيسي في الجزء الثاني من قصته «الصورة الشخصية»- والذي يصر على رسمه للسبب ذاته- لكي لا يموت ويندثر، بل لكي يكون موجوداً في «الكون» حتى بعد وفاته. يقول تشيشيكوف: «أريد أن أجني ما يكفي المال... لكي أترك شيئاً للزوجة والأطفال الذين أود إنجابهم لمصلحة هذا البلد». وعندما كان يبدو أن إحدى حيله تكاد تنهار فإنه يصرخ بأعلى صوته وهو يفكر بزوجته وذريته

المفترضين: «ماذا سيقول أبنائي عني؟ سيقولون أبونا الخنزير لم يترك لنا مالاً قط». (الفصل الحادي عشر).

وهكذا يبرر تشيشيكوف حصوله على النفوس الميتة لمصلحة أرواح لم تولد بعد. فالأشياء التي لم تصبح في حيز الوجود بعد هي الذريعة لشراء أشياء لم تعد على قيد الوجود بعد. إنه يوازن نفسه بين هوتين، بين كذبتين. ولكن ثروته، وإن كانت لا ترتكز على شيء ولا تستهدف أي شيء -هذه الثروة تبدو حقيقية بما فيه الكفاية. مكان صغير دافئ على حافة الهاوية، لا أكثر. تطلعاته هي تطلعات بورجوازي محترم. سكن مريح، خدم مخلصون، ملابس أنيقة، فريق متناغم، احترام من جانب الجوار وصداقة بعض المسؤولين من ذوي المقامات الرفيعة. لن تجد في تشيشيكوف شخصية النابغة المخادع الذي تسكره قدرته الفائقة. قد يغش في لعبة الحياة والموت ولكن في رهانات صغيرة جداً. فهو يستخدم حيلاً بارعة استثنائية. ولكنها لا تستهدف إلا جمع ثروة عادية.

لا تبدو شخصية تشيشيكوف، مع ذلك منفرة للقارئ بفعل حيلة فنية غريبة. فنحن نتبعه في جولاته آملين في لا وعينا بأن ينتصر على مضيفيه الممانعين. نبتهج معه في كل مرة ينجح فيها بنيل سرب جديد من النفوس الميتة، ونرتعش خوفاً من أن يفتضح أمره ويعاقب كلما لاحت عقبة في طريقة. وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نغفر له غير أننا نقف في الواقع إلى جانبه. ولهذا ثلاثة أسباب. -

أولها أن تشيشيكوف يجمع نفوسه الميتة لقاء كوبيكات قليلة تافهة ولايسرقهم من مالكيهم. فهؤلاء الفلاحون «الموجيك» أنفسهم يرقدون في قبورهم ولا يمثلون أية قيمة حقيقية لإقطاعياتهم. بل بتحويل هؤلاء إلى تشيشيكوف لن يتوجب على ملاّك الأراضي دفع ضرائب عنهم. من سيتضرر من هذه الصفقة هو الدولة وحدها عندما يقدم تشيشيكوف قائمة بهذه الأشباح كضمان لقرض كبير. غير أنه ليس للدولة وجه، بل هي عنصر مجرّد، وكل من يُدين بطل جوجول لا يمكنه ذلك باسم ضحية محددة بل باسم هذا العنصر

المجرد. وعندما يشتري هو هذه المخلوقات المجردة فهو إنما يهاجم عنصراً مجرداً.

وثانيها: كيف يمكن لومه لشرائه نفوساً ميتة في بلد يشرّع شراء النفوس الحية؟ أليس ما يستحق الشجب أساساً هو تحويل البشر الأحياء إلى العبودية أكثر من تحويل الموتى منهم من سجل إلى آخر؟

وثالثها: سلسلة الشخصيات التي يفاتحها في سعيه للحصول على الأرواح هي من الحقارة بحيث أن بطل الكتاب يبدو نقياً كالثلج بالمقارنة بهم، وما يحققه من ربح إنما هو من وراء حماقة، وسوقية وكسل من يسكنون هذه البلدة الصغيرة وما يحيط بها.

من الواضح أن هذه البلدة الصغيرة هي عبارة عن رمز: فهي تمثل روسيا في نظر الكاتب، وروسيا تمثل العالم برمته. وقد كتب جوجول في مفكرته حول روايته يقول: «يجب أن تصوّر البلدة والقيل والقال الهادر فيها كحالة فوضى تمثل بني البشر عامة». كيف يمكن تقليص صورة التفاهة في الكون برمّته وبكل أشكالها بحيث يمكن تجسيدها في تفاهة تلك البلدة، و كيف يمكن تضخيم هذه البلدة لكي تقارب صورة التفاهة الكونية.

باصطفاف ضحايا تشيشيكوف جنباً إلى جنب في معرض صور فهم يمثلون شخصيات شاذة. ويجد القارئ نفسه فجأة، شأن رئيس البلدية في «المفتش العام»، محاطاً بأفواه خنازير يحمل كل منهم اسماً يرمز له ويتوّج رأسه وكأنه قبعة من الورق من نوع تلك التي تستخدم في الحفلات. فاسم مالينوف بالروسية مثلاً يعني «محلّى بالعسل» وينمّ عن شيء يثير السرور وعن فتنة مغرية. واسم «نوزدريف»، وهو شخص متبجح ذو مزاج متعجرف وشفة مجعّدة مشتق من الكلمة الروسية «نوزدريا» والتي تعني «ثقب الأنف». «وسوباكيفيتش» ذو المزاج الكلبي اسمه مشتق من الكلمة الروسية «سوباكا» والتي تعني ذلك بالذات: كلب. «كوروبوشكا»، تلك الغبية ذات الذهن المغلق محكم السد

اسمها مأخوذ من الكلمة الروسية «كوروبوشكا» والتي تعني علبة صغيرة. واسم بلايوشكين الشحيح البشع مشتق من كلمة «بلايوشكا» والتي يمكن أن تترجم بكلمة «فطيرة محلاّة».

علاوة على ذلك، وإذا فكرنا بالموضوع على هذا النحو يمكننا القول إن بلايوشكين في الواقع هو «فطيرة محلاّة» تماماً كما أنه رجل، وكوروبوشكا ليست إلا علبة صغيرة ترتدي ثياب امرأة، ونوزدريف هو فتحة أنف ضخمة تجثم فوق ساقين، وسوباكيفيتش هو كلب غليظ ضخم بذيل كثيف الشعر. هذا لا يعني القول بأن كلاً من هذه الشخصيات إنما يمثل تجسيداً لرذيلة ما وحدها -مانيلوف تجسيد لنزعة التأثر بالعاطفة غير المستندة على العقل، ونوزدريف تجسيد للكذب، وسوباكوفيتش للجلافة، وكوروبوشكا للغباء، أو بلايوشكين للجشع، إذ عندما ابتدع جوجول هذه «الأنماط» أوجد سبيلاً لكي يكسوها بقدر كبير من اللحم البشري بحيث تمتلك دفئاً بشرياً وتعقيداً يجعل منها أفراداً حقيقيين وليس مجرد دمى رمزية. فبلايوشكين ليس مجرد «الشحيح» بل هو شحيح من نوع خاص، خاص جداً بحيث يمكن تمييزه وسط جميع البخلاء. ولا يمكن لأحد أن يخلط بين نوزدريف وبين أي مخادع آخر، وكوروبوشكا فريدة من نوعها أيضاً، فهي أنثى غير أنها تمثل البلاهة مجسّدة، وليس هناك مثيل لسوباكيفيتش وإن كان هو التعريف المثالي للتفاخر الذكوري.

غير أن لديهم جميعاً سمة مشتركة: أنهم باعة نفوس ميتة، وهم أنفسهم نفوس ميتة. إنهم يتكلمون، ويتحركون، وينامون، ويأكلون مثل بني البشر الأحياء، غير أنه لا تكمن ذرة واحدة من الضمير وراء هذا المظهر البشري الخارجي. وقد كتب جوجول عن سوباكيفيتش: «بدا أن هذا الجسد خالٍ من الروح». ويمكن لجوجول أن يقول الشيء ذاته عن كل الشخصيات الأخرى في الكتاب، وهذه الحقيقة إنما تبرز أكثر فأكثر التناقض البشع بين البطلان القانوني الأخلاقي لأعمال ملاك الأراضي وبين الموضع المتميز الذي يحظون به باعتبارهم ملاّك أرواح بشرية.

أول من تلقى زيارة تشيشيكوف هو مانيلوف -وهو أشقر الشعر، كريم إلى أقصى درجة، كسول، متناقض مع نفسه بشكل يبعث على الاشمئزاز. يطفح قلبه على الكون برمته، غير أن ضموراً غريباً في إرادته يمنعه من الشروع في أي فعلٍ مهما صغر. وهو يغرق في أحلام يقظة لا تنتهي ويقول لنفسه بأنه سيكون «حسناً إنشاء ممر تحت الأرض من البيت إلى القرية، أو بناء جسر حجري فوق البركة مع إنشاء حوانيت على الجانبين تبيع أشياء يستخدمها عامة الناس في القرية». وهو يحتفظ في مكتبه بكتاب وضع فيه مؤشراً عند الصفحة (١٤)، «وهي الصفحة التي كان يقرؤها طوال سنتين». ليس لديه ما يقوله إلا الأشياء الحسنة عن جميع الأشخاص ويتنهد وهو يستند على كتف تشيشيكوف ويقول، ما أجمل أن تعيش تحت سقف واحد، أو أن تتكلم في الفلسفة في ظل شجرة دردار يانعة!». غير أنه حين يكشف الضيف عن الهدف من زيارته يبادر مانيلوف بالقول: «وكيف ذلك؟ عفواً -سمعي يتضاءل بعض الشيء- يبدو لي وكأنني سمعت أمراً غريباً...».

يكرر تشيشيكوف: «أود شراء نفوس ميتة، أو بتعبير أدق، أولئك الذين مازالوا مسجلين كأحياء، في سجلات الأحياء. يبدو أنك لم تدرك قصدي؟».

يجيب مانيلوف متلعثماً: «أنا؟ كلا، كلا. ليس بالضبط ولكنني لست أفهم تماماً. سامحني، لم أحصل بالطبع على تعليم جيد يمكّنني من التعبير بما يماثل إيماءاتك. لست أمتلك فن الحديث العظيم الحسن. قد يكون هنالك معنى خفي في كلماتك؟ ربما كان التعبير الذي استخدمته هو نوع من الأسلوب المحسّن».

يجيبه تشيشيكوف: «لا، لا... لست أتحدث مجازاً في الواقع بل أعني ذلك بالضبط: نفوساً ميتة. نسميهم أحياء لأنهم مدرجون في قوائم الإحصاء. إنني متعوّد على استخدام تعابير قانونية. أجل القانون، فأنا أصمت أمام القانون».

كانت هذه الكلمات كافية لتبديد شكوك مانيلوف. لن يسمح بأي حديث عن مال وأثمان. «كيف يمكنني أن أقبل نقوداً لقاء أرواح انتهى وجودها كما يقال؟».

أما رد فعل كوروبوشكا الغبية فهو مختلف تماماً. قد يكون مانيلوف حالماً، أما هي فقدماها ثابتتان على الأرض. فهي تهتف: «نفوس ميتة؟ هل تريد نبشهم من قبورهم من جديد؟ لم يسبق لي قط أن بعت نفوساً ميتة من قبل. أخشى أن أخسر في هذه المناسبة الأولى. وربما كنت تحاول أن تخدعني يا أبتي الصغير؟».

«اسمعيني، إنك غريبة الأطوار إلى أقصى حد فعلاً. كم يمكن أن يساووا؟ أعني هل تدركين أنهم ليسوا إلا مجرد غبار! ليسوا إلا غباراً!».

على الرغم من هذه المناقشة التي لا تلقي جواباً فقد ظلت العجوز تصرّ بأنها تفضل أن تبيع عسلاً، أو قنّباً، أو فلاحين أحياء لأنها تعرف على الأقل الثمن السائد لهذه السلع. وهي تقول: «إنني في الواقع أرملة فقيرة لا خبرة لديها. من الأفضل لي أن أنتظر. من يدري، فقد يأتي مشترون آخرون ويمكنني أن أقارن الأسعار حينذاك».

وفي النهاية تقايض كل الموتى في إقطاعتها بخمسة عشر روبلاً. ويضع تشيشيكوف قائمة بهؤلاء.

نرى بعد ذلك نوزدريف، المتبجح الأكمل بأسنانه البيضاء «وسالفيه شديدي السواد»: وحش مخمور، ثرثار، متفاخر، محب للخصام يرسل ضحكات صاخبة، ويمكنه أن يصبح صديقك الأكيد بعد خمس دقائق ولكنه يصرف بقية عمره وهو يروي أشياء بذيئة عنك ويحاول تدميرك. لا يمكنه أن يهدأ، بل يسرع هنا وهناك يجري الرهانات، ويلعب الورق وينغمس في مغامرات ويسعى لمبادلة شيء بشيء آخر. «بنادق، كلاب، خيول، يرى كل شيء من منظور إمكانية مقايضته». تنطلق الأكاذيب من فمه كما ينطلق الدخان

من المدخنة. وبحكم خبرته السابقة في التعامل مع الآخرين يخامره الشك حالما يذكر موضوع النفوس الميتة. ولذا فهو يطلب تفسيراً ويرفض تصديق ما يقال له. ويقول وهو يضحك: «أنت تكذب!» وبعد تقديم عدة مجموعات من الحلول المجنونة يقترح أن يلعبا الشطرنج على النفوس الميتة. يوافق تشيشيكوف على ذلك بعد أن يأخذ منه التعب مأخذه. غير أن خصمه يغش مما يؤدي إلى نزاع بينهما. وهنا يصرخ نوزدريف وهو يلوّح بغليونه وقد احمرّ وجهه ويستدعي خدمه لكي يقوموا بجلد ضيفه. وبالكاد يتمكن تشيشيكوف من تجنب ذلك حين حضر نقيب الشرطة في الوقت الحاسم. وهنا يغادر المكان خالي الوفاض ودون أن تكون هناك نفس ميتة واحدة في حقيبته.

خطوته التالية تضعه وجهاً لوجه إزاء العملاق «سوباكيفتش» الذي يشبه «دباً من قياس متوسط». يقول جوجول «وكأنما ليكمل متطلبات هذا التشبيه فقد كان يرتدي بزة من لون يشبه فروة الدب بحيث لا يمكن تمييزه عن الدب، وأكمامه ورجلاً سرواله طويلة بشكل مبالغ فيه. لم يكن يكترث أين يضع قدميه بحيث كان يدوس باستمرار على أقدام الآخرين. وسوباكيفتش – وهو يمثل نموذجاً معاكساً لمانيلوف– هو شخص نكد المزاج، قوي، وحش شكس، ويشوّه سمعة جيرانه. اهتمامه الوحيد في الحياة هو الطعام، وهو لا يأكل بل يلتهم الطعام التهاماً.

يقول لتشيشيكوف: «تذوق هذه القطعة من لحم الضأن مع عصيدة الجريش، فهي مختلفة تماماً عن ذلك الخليط الذي يطبخ في بيوت سادتك العظام أولئك، مستخدمين بقايا المواد التي ظلت كاسدة في السوق لأربعة أيام! تلك هي بعض اختراعات أولئك الأطباء الفرنسيين والألمان! وإن كان لي أن أقول شيئاً فهو أن من الواجب شنقهم جميعاً! هؤلاء هم الذين ابتدعوا بدعة الأنظمة الغذائية – شفاء بواسطة الجوع! أولئك التافهون الصغار الذين يظنون أن بإمكانهم إملاء آرائهم على المعدات الروسية! كلا، هذا ليس إلا مجرد تحايل. أما في بيتي فالأمور مختلفة، وحين تقدم أوزة أو خروف أو خنزير في بيتي فهي تقدم

كاملة. وإنني أفضل أن يكون هنالك طبقان فقط في وجبتي ولكنني أود أن آكل منهما ما طاب لي».

وعلى هذا فإن ما يقتات في بيت سوباكيفيتش ليس المعدة بل الروح. والقوت الجسدي يحل محل القوت الروحي بالنسبة إليه. لماذا يفاجئه عرض تشيشيكوف الغريب؟ نفوس ميتة؟ أجل، لديه منها، ودون أن يرفّ له جفن يطلب منه مئة روبل لكل واحد منها، وهنا يحملق فيه تشيشيكوف محتجاً.

يتساءل سوباكيفتش: «لماذا تساوم؟ ليس هذا مبلغاً كبيراً. أي شخص آخر سيخدعك ويقدم لك ماهو قديم ويسميه نفساً، أما أنا فسوف أقدم لك أفضل البضاعة نوعية». حتى أولئك الذين لا يتقنون حرفة هم أفراد جيدون وأقوياء. تمعّن بالأمر بنفسك هذا «ميخييف» صانع عربات النقل مثلاً. لكل عربة من عرباته نوابض (زنبركات) وليس مثل تلك التي يصنعونها في موسكو والتي لا تتحمل أكثر من ساعة واحدة. كلا، بل هي من مادة صلبة جيدة! كما أنه كان ينجّدها من الداخل ويدهنها بنفسه أيضاً. والنجار «ستيبان بروبكا». أراهن بذراعيّ كلتيهما بأنك لن تجد مثيلاً له! أية قوة! و»ميلايوشكين» صانع الطوب الذي يمكنه بناء مدخنة في أي مكان. و»مكسيم تلياتنيكوف»! أجل، يمكنه أن يصنع لك «جزمة» بضربة واحدة من مخرزه، وكل زوج منها عنوان للكمال، ولم يقرب قط قطرة واحدة من الخمر!».

«حسناً، ولكن اسمح لي رجاءً»، هذا ما تجرأ تشيشيكوف على قوله معترضاً ومحاولاً وقف ذلك الفيض الذي لا يبدو أنه سيتوقف من الكلمات. ثم أضاف: «لماذا تصرّ على تزويدي بقائمة بحسناتهم؟ فما داموا موتى فلا فائدة من كل هذا لي. والجثة، كما يقال، لا يمكنها أن تسند السياج».

أجابه سوباكيفتش وكأنما نسي ذلك الواقع: «أجل، إنهم موتى». ثم تابع يقول: «وإلى جانب ذلك فما فائدة أولئك الذين ما زالوا مدرجين كأحياء؟ أهم رجال؟ يمكنك أن تسميهم مجرد ذباب!».

ويجيبه تشيشيكوف: «هؤلاء مازالوا موجودين على الأقل، أما الآخرون فهم مجرد ذكرى!».

«آه، لا، ليسوا مجرد ذكرى! دعني أحدثك عن ميخييف فلن تجد من يمكنه أن يمسّه. . ضخم بحيث لا يمكنه الدخول من باب هذه الغرفة».

في النهاية ينجح تشيشيكوف بتخفيض السعر من مئة روبل إلى روبلين ونصف لكل منهم.

بعد سوباكيفتش يتحول إلى بلايوشكين الشحيح فيفاجئه وجهه الذي يشبه وجه امرأة عجوز، وعيناه الحادتان والثوب الفضفاض المتسخ الذي يرتديه فوق ثيابه. ثروة هذا الرجل تبدو كالفاقة، وإدمانه للمال هو من القوة بحيث أنه لا يسمح لنفسه بصرف قرش واحد على إقطاعته. أصبح كتيماً بحيث لا تنفذ إليه أية عواطف إنسانية، وقاطع أصدقاءه وأبناءه وغدا يعيش إلى جانب أكداس المال الذي يملكه. يترك فلاحيه يموتون جوعاً، وعلى خدمه جميعاً أن يتشاركوا في انتعال الجزمات فريدة الطراز الموجودة في الردهة الأمامية. يكتب جوجول: «عندما نودي على أحد الخدم أخذ يحجل حافي القدمين في الفناء وينتعل الجزمة قبل دخوله الغرفة». و»بلايوشكين نسي فعلاً مدى غناه ولكنه يتذكر بكل وضوح بأن الإناء الذي يحوي قطرات قليلة من الشراب موضوع في زاوية خلفية من أحد رفوف «البوفيه» وعليه علامة خفيّة تبيّن له فيما إن كان أحد ممن في البيت قد مسّه».

يبتهج العجوز لإمكانية بيع أرواح ميتة. هذه إذن صفقة تتجاوب تماماً مع ما يحب. نفخة من الهواء لقاء مبالغ نقدية حسنة، رنّانة طنّانة. ومع ذلك فهو يساوم مساومة حادة، وفي النهاية لا يشتري تشيشيكوف منه نفوساً ميتة فحسب بل نفوساً هاربة أيضاً، وبعبارة أخرى فلاحون أحياء اختفوا من الإقطاعة وهم يختبئون في مكان ما حيث لا يمكن لأي سلطة أن تعثر عليهم. والنفوس الميتة والنفوس الهاربة سواء بالنسبة إلى تشيشيكوف ما دام لن يترتب عليه إطعامها وما دامت أسماؤهم ما تزال مدرجة في جداول الإحصاء.

يعود إلى النزل منهكاً ولكنه سعيد بما أنجزه، ويتناول خنزيراً رضيعاً عشاءً له ويتوجه إلى سريره لينام «النوم الرائع للمخلوقات البشرية ممن لا يعرفون البواسير أو البراغيث أو الذكاء المفرط» (الفصل السادس). ويستيقظ في الصباح التالي تغمره حالة معنوية جيدة، فيجلس إلى مكتبه ويعد صكوك المبيع وقوائم الأسماء لكي يتم توثيقها لدى كاتب العدل بأسرع وقت ممكن. ينجز هذا العمل الحقير ببهجة فنان يضع اللمسات الأخيرة للوحته الفنية.

يكتب جوجول: «عندما نظر في قوائمه، أولئك الفلاحين الذين كانوا يوماً فلاحين حقيقيين يعملون، يحرثون الأرض، يسكرون ويسرقون من سادتهم - أو كانوا مجرد أشخاص عاديين شرفاء - اعتراه حينذاك إحساس غريب لا يدرك كنهه هو نفسه، إذ بدت لكل قائمة شخصيتها الخاصة التي تنتقل إلى كل الفلاحين الذين تتكون منهم هذه القائمة. لمعظم فلاحي كوروبوشكا اسم عائلة ولقب يكنّى به كل منهم. أما قائمة بلايوشكين فهي تتميز باختصار الأسماء. قائمة سوباكيفيتش كاملة ومفصلة بشكل استثنائي. لم تحذف أية مزية لأي فلاح. أحدهم «نجار جيد» وآخر «يتقن مهنته ولا يحتسي الخمر». هذه التفاصيل تعطي القوائم وضوحاً عصياً على الوصف، بحيث يمكن للمرء أن يتخيل بأن هؤلاء كانوا أحياء بالأمس فقط. وبعد أن أمعن النظر في أسمائهم مطولاً شعر تشيشيكوف بأن عاطفة طاغية تسيطر عليه، فتنهد وخاطبها قائلاً: «كم عددكم يا أصدقائي الأعزاء. ماذا فعلتم يا أصحابي إبّان حياتكم؟ كيف عشتم؟».

ولكن هذه العاطفة الحنون كانت قصيرة الأجل. فقد أحس بأنه أصبح غنياً وقوياً وهو يرأس هذا الفيلق من الموتى. ليس يعتبر نفسه مذنباً، فأي عمل مؤذٍ ارتكبه؟ لقد تصرف كمواطن صالح والتزم التزاماً كاملاً بكل الأنظمة المنصوص عليها في الوثائق الرسمية. فإذا كانت إدارات الدولة تعتبر الفلاحين الذين اشتراهم أحياءً فهم إذن أحياء بغض النظر عن القداديس التي أقيمت لراحة أرواحهم وعن الصلبان المنصوبة في المقابر. وبالمثل، إن أخطأ أحد الكتبة وأدخل فلاحاً ما في قائمة الموتى على الرغم من أنه سليم معافى فإنه لن يكون

في حيّز الوجود بعد حتى لو رأيته وهو يحرث الحقول. فما يستند عليه في نظر تشيشيكوف في مسألة الحياة والموت ليس في إحصاء الله بل هو في إحصاء الدوائر الحكومية. إذ إن العبور من الحياة إلى الموت ليس حادثاً ناجماً عن إصابة، وليس تجلياً لإرادة الله بل هو لعبة سكرتاريا توجهها يد محاسب. الحدود بين الحضور والغياب أصبحت ضبابية، والوجود وعدم الوجود أصبحا متبادلين، متكافئين. وحين توصل إلى هذا الخلط الوحشي عزز تشيشيكوف انتصاره، ممتلئ الجسم، مبتسماً ومتيقظاً.

غير أن حيلة «المتكسب» الشريف توشك على الانكشاف. فنوزدريف الثرثار يكشف السر عرضاً أثناء ثرثرته، وما تلبث كوروبوشكا أن تصل إلى البلدة فجراً لتستفسر عن السعر الراهن للنفوس الميتة في المنطقة خشية أن تكون قد فرّطت بمن لديها «بثلث قيمتهم». تبدأ الألسن تتحرك بالقيل والقال وتعقد الدهشة ألسن الموظفين الوقورين، وتشرع السيدات المحترمات في الحديث عن شكوكهن بأن تشيشيكوف يحوك خطة سوداء لاختطاف ابنة رئيس البلدية. وعند ذلك تنفض القرية نعاسها الذي امتد لآلاف السنين. وحين يهز هذا الزلزال أفراد الطبقة العليا في الريف والذين ظلوا في سبات في مخابئهم وكأنهم من حيوان المرموط (حيوان قارض) فهم يخرجون أنوفهم من الأبواب وتشرع عيونهم تطرف في ضوء شمس النهار. ويظهر في قاعات الاستقبال في المنطقة أشخاص لم يرهم أحد منذ سنوات وكان يفترض بأنهم ماتوا. تضاعف عدد العربات التي تقعقع في الطرقات وتزايد الخوف في أذهان الرجال وأخذت أوزانهم تتضاءل، وهم يحاولون أن يفهموا ما يجري. ويكتب جوجول: «كل تلك التحقيقات التي يجريها الموظفون لا تدل إلاّ على أنهم لا يعرفون شيئاً عن تشيشيكوف وأنه لابدّ أن يكون شخصاً ذا شأن أو شيئاً من هذا القبيل. ولكن هل هو شخص يجب اعتقاله وإلقاؤه في السجن بسبب نواياه الشريرة، أم أنه هو من يمكنه اعتقالهم ورميهم في السجن كمشبوهين».

كان تشيشيكوف قد أخفى العديد من أوراق اللعب وعرض للخطر العديدين من ملاّك الأراضي وخدع العديدين من الموظفين الحكوميين بحيث أن شخصه الضئيل، المتورد انتفخ وطغى في الجو واتخذ توازناً يتّسم بالخطورة في الأذهان التي يغلفها الضباب. أما أولئك الذين يبدو عليهم أنهم الأكثر منطقية فقد عقدوا استشارات فيما بينهم ليقرروا فيما إن كان (تشيشيكوف) يتصرف لمصلحته هو أم من أجل المصلحة العامة، هل هو عدو للجنس البشري أم أنه مبعوث من قبل الدولة يؤدي مهمة سرية، هل سيحاكم أم تطلب له الرحمة والحماية. مدير البريد مقتنع بأنه ليس إلا قاطع الطريق المشهور الكابتن «كوبييكن»، وهو يقص قصة هذا المجرم في كل مناسبة تتاح له: المشكلة الوحيدة أن الكابتن كوبييكن له ذراع واحدة وساق واحدة، في حين أن لتشيشيكوف ذراعين وساقين. بل إن البعض يذهب إلى أبعد من ذلك إذ يتخيل أن تشيشيكوف هو نابليون الذي هرب من جزيرة سانت هيلانة أو أنه المسيح الدجال. تتنامى القصة الخرافية ويبدأ الأميون والمؤمنون بالخرافات من العامة بالدمدمة. ويبلغ الانزعاج بالنائب العام مبلغه نتيجة لكل هذا اللغط بحيث أنه يسقط ميتاً، وعندما يأتي الطبيب مسرعاً ليفصد دمه يجد أنه أمام جثة هامدة. «وعند ذلك فقط يدركون أن ذلك المحامي كان يملك روحاً بالفعل، وأن التواضع وحده هو الذي منعه من الكشف عن ذلك أثناء حياته».

كانت الأبواب قد بدأت تغلق أمام تشيشيكوف الذي ما إن يشعر بالعاصفة التي تتجمع حوله حتى يحزم حقائبه ويهرب في عربة ترويكا (عربة روسية تجرها ثلاثة جياد)، تماماً كما فعل خليستاكوف في المفتش العام، تاركاً وراءه عالماً صغيراً في حالة اضطراب نشأت عما اخترعته مخيلته.

كان الكاتب قد بقي في المدينة (في المسرحية) لينقل حالة القعقعة التي سادت لدى ضحايا هذا النذل. أما في حالة «نفوس ميتة» فهو يقتفي آثار بطله الذي انطلق على الطرق الروسية. وتنطلق العربة بسرعة مذهلة وكأن ما يجرها هي خيول خارقة للطبيعة تركض على حوافر من نار. يتدفق المشهد على جانبي

الطريق الذي تشقه الريح المتدفقة من مسار العربة إلى نصفين، سرعة أغرقت أسافين الدواليب في الضباب بحيث لم تعد ترى منها إلا دوائر فارغة.

يكتب جوجول: «وأنت يا روسيا، ألا تندفعين أيضاً بسرعة مثل تلك العربات فائقة السرعة والتي لا يوجد ما يمكنه أن يمسك بها؟ الدخان يتصاعد من الطريق تحتك، والجسور ترعد، تتجاوزين كل الأشياء وتتركينها وراءك. يقف المراقب وكأنما صعقته معجزة سماوية. ألم تكن تلك صاعقة تنطلق من السماء بسرعة البرق؟ ما معنى هذا الاندفاع المرعب؟ ما القوة الكامنة في هذه المسارات التي لم تكن مرئية من قبل؟ أيتها الخيل السريعة، الخيل الجليلة! أية عواصف تختفي في الأعراف التي تغطي أعناقك؟ هل هناك أذن تسمع في كل عصب من أعصابك؟ تسمعين أغنية مألوفة تنطلق من الأعلى، وحينذاك تنتفخ صدورك البرونزية وتطيرين، وكأنما يدفعك إلهام من الله لكي تمتزجي بثلاثة خطوط متوترة تشق الهواء. أنت يا روسيا، إلى أين تندفعين؟ أجيبيني! لا جواب. الأجراس الصغيرة تجلجل برنين جميل. الهواء الممزق يئن ويندفع كالإعصار. تتركين كل شيء وراءك، والأمم الأخرى، البلدان الأخرى تشيح بأنظارها جانباً وتبتعد عن الطريق لتدع العربة تمر».

هذا التدفق الشاعري الذي ينتهي به الكتاب هو في الواقع عبارة عن فخ. إذ لم يكن من السهل اقتلاع تشيشيكوف من نار عقوبته المستحقة وإخفاء شناعة هروبه عن أعين القراء. السرعة الجنونية لعربة الترويكا تساعد تشيشيكوف على الهرب، غير أنها تصرف نظرنا كذلك عن دوافع ذلك الهروب. ولكن كيف يمكن لقوانين بني البشر في نهاية المطاف أن تدعي معاقبة مندوب الشيطان؟ كان عليه أن يندفع بسرعة بعيداً عمن يتهمونه في وسط سحابة من الغبار وجلجلة الأجراس ويمضي خفيفاً، مراوغاً، مجهول الهوية ليستعد لمغامرته التالية. ولكن عمله الأهم لا يقوم على تمكنه من إسدال غشاوة على العيون في بلدة «ن» الصغيرة، بل بأن يخدع أعضاء لجنة الرقابة في سانت بطرسبرج! تهدهد النبرة الوطنية للقصيدة في صفحاتها الأخيرة، هؤلاء الأعضاء بحيث أنهم لا ينتبهون

قط بأن الاختفاء السحري لهذا الوغد إنما يقوّض الأسس الأخلاقية التقليدية. والأكثر إثارة للدهشة أن هؤلاء عجزوا عن رؤية أي شيء غريب في التطابق بين روسيا وعربة الترويكا التي تحمل محتالاً! سحر الكلمات يمكّن تشيشيكوف بأن يفرّ سراً ثم يختفي دون أن يدفع ضريبة، كما تمكن الكاتب من الإفلات بهذه المغامرة برمتها.

غير أن الترنيمة الشعرية لعربة الترويكا ليست تحليق الخيال الوحيد في الكتاب. إذ إن جوجول يقطع السرد في مواضع عديدة بانفجارات بلاغية، وتأملات مثيرة للخيال وكأنها فواصل موسيقية تعزف وسط نص مقروء. قدّرت هذه الاستطرادات بأنها تمثل نسبة الثُمْن من الكتاب، علماً بأن عشرة منها شاعرية كلياً. ويمجّد الكاتب، ضمن مغامرات تشيشيكوف، مباهج السفر بالعربة، وعذوبة ذكريات الطفولة، والروابط الغامضة التي تشده لروسيا، وعذابات كاتب يجد نفسه مجبراً على وصف وحوش في الوقت الذي يتوق فيه قلبه لتمجيد البراءة إلى جانب أمور أخرى. وهو ينتظر بفارغ الصبر اللحظة التي ينتهي فيها من الأقنعة التي تحيط به لكي يتمكن في النهاية من أن يرسم فقط الملامح التي ينيرها قدوم المسيح، شأنه في ذلك شأن إيفانوف حيث يكتب:

«سعيد هو الكاتب الذي ينبذ الشخصيات المسطحة والتي تثير الاشمئزاز وتبعث على الذهول لواقعها المؤلم ليتناول من يجسد الفضائل الإنسانية النبيلة، ذلك الكاتب الذي يختار مخلوقاً أو اثنين متميزين في وسط زحمة الصور المبتذلة التي تحيط به في حياته اليومية. مثل هذا الكاتب يحظى بسمعة شاعر عظيم شامل بحيث ينعم بتبجيل يتجاوز ما يحظى به الآخرون، تماماً مثلما يحلّق النسر فوق كل الطيور الأخرى التي تطير في الأعالي. أما الحياة الشاقة والقدر الصعب فهما من نصيب الكاتب الذي يجرؤ على تناول الأمور التي تظهر أمام أعيننا دائماً ولكننا لا نراها نتيجة للامبالاتنا: ذلك الوحل من التفاهات الشنيعة المزعجة التي تعقّد وجودنا، ذلك الرعب الكلي لتلك الشخصيات الباردة، المتفسخة، ضيقة الأفق التي تحتشد في دروب أرضنا. لن يعرف تصفيق الجماهير، لن يرى العيون

التي تغرورق بالدموع عرفاناً، ولن يثير ذلك الإعجاب اللامحدود في نفوس بني البشر. لن تطير إليه ابنة السادسة عشرة التي تدير رأسها عبادة البطل. لن يتجنب نقد أولئك المنافقين متبلّدي الشعور من معاصريه الذين ينعتون إبداعات عقله بالحقارة والدناءة ويحيلونه إلى زاوية مذلّة ويصنفونه ضمن صفوف الكتّاب الذين يهينون بني البشر وينسبون أخلاق أبطاله له وينكرون عليه كل شيء: القلب والروح وشعلة الموهبة السماوية. أما أنا: فقد أجبرتني قوة خارقة للطبيعة قدّرت لي أن أسير أميالاً وراء أميال وذراعي مشبوكة بذراع بطلي، أرقب أحداث الحياة العديدة العاصفة عبر عدسة تبدو للعيان ضاحكة ولكنها في الواقع دمعة لا يراها أحد. ما يزال بعيداً ذلك اليوم الذي أخضع فيه لضغط قوة تتدفق من ينبوع آخر، فينفجر سيل من الإلهام من جبيني الذي يحيط به رعب ونور مقدسان. وعند ذلك سيسمع بنو البشر الذين يرتعدون خوفاً من الرعد المهيب للغة أخرى».

بعد أن أشعر قراءه بالسعادة المعنوية المتناهية التي تنتظرهم في الجزء الثاني من نفوس ميتة إن ملكوا الشجاعة للخوض في وحول الجزء الأول يعود جوجول إلى قصته فيقول: «في الطريق! في الطريق، تلاشي أيتها التجاعيد التي تغضّن جبيني، أيها الظلام الكالح الذي يغشى وجهي، ولننغمس في الحياة من جديد بكل ضجيجها وثرثرتها ولنرَ بماذا ينهمك تشيشيكوف الآن».

غير أن هنالك استطراداً آخر في نهاية الفصل ذاته (الفصل السابع) وهو استطراد عادي بشكل عجيب، إذ يترك الكاتب تشيشيكوف ونفوسه الميتة في منتصف الليل وتسحره فجأة نافذة مضاءة. وهنالك، خلف النافذة، ملازم لانعرف عنه شيئاً، كما أننا لن نلتقي به ثانية بعد، وهو يقيس «جزمةً» كان قد اشتراها لتوّه من «رايازان» حيث يقول: «لاشك بأنها جزمة جيدة الصنع، وظلّ يرفع قدمه ويتأمل قصّة الجزمة الرائعة الأنيقة ووضعية الكعب المتقنة».

وعلى نحو مماثل، وفي الآونة التي توشك فيها «فضيحة تشيشيكوف» على الشيوع تظهر مجموعة من الأشخاص الذين يبدو كأنهم دخلوا مسرح الأحداث خطأ، وهم تائهون كأنهم الأشباح على وشك أن يغيبوا وتدوّم بهم

عصفة ريح ، غير أنهم لا يلبثون أن يظهروا للعيان من جديد بأسلوب آخر في الكلام: «شخص اسمه «سيزوي بافينوتييفتش» و«ماكدونالد كارلوفيتش» اللذين لم يسمع بهما أحد من قبل. شخص طويل، نحيل شوهد في قاعة الاستقبال، طويل لدرجة لا تصدق، وثقب ناجم عن طلقة نارية في يده». يثرثر تشيشيكوف مع ابنة رئيس البلدية حول مئة شخص لا أهمية لهم مطلقاً، تنطلق أسماؤهم من فمه بسرعة وكأنهم حبات لؤلؤ تتساقط من قلادة انفرط عقدها. غير أن قمة التفاهة في الحديث تنطلق على لسان سيدتين مهذارتين -«السيدة الساحرة» و «السيدة التي تسحر من مختلف الوجوه» - تتبادلان وجهتي نظريهما بأسلوب في منتهى الفوضى حول آخر «الموضات» وحول السلوك الذي لا يوصف لتشيشيكوف. وما تلبث أصداء هذه الثرثرة أن تدوي من أول البلد إلى آخرها. وهكذا تأتي شخصيتان هامشيتان تماماً للتأثير على مصائر الشخصيات المركزية، وهنالك سرب من مثل هذه الشخصيات الإضافية في الكتاب، ولدى كل منهم تكشيرته، وتقليصات وجهه ورائحته الخاصة. يتم وصف البعض منهم بكلمات قليلة، مثل رئيس البلدية الذي «يعلق صليب القديسة «آن» حول عنقه، هو شخص جيد، بل كان يقوم أحياناً بأعمال التطريز على الشبكة»، أو المحامي و»له حاجبان سميكان سوداوان وعين واحدة - وهي العين اليسرى- والتي تغمز وكأنها تقول: «تعال إلى الغرفة المجاورة أيها العجوز وسأحدثك بأمور غير عادية».

هذا التشويه الهذياني من جانب جوجول يترك تأثيره على الأشياء، تماماً كما يترك تأثيره على الأشخاص، فالأشياء تشارك الشخصيات حياتها وتساهم في تمييز هويتها. فعلبة نشوق تشيشيكوف الفضية المطلية بالمينا والتي يضع في قاعها زهرتي بنفسج من أجل رائحتهما، والمعطف الأحمر الداكن المنقّط، والفرخة المشوية رفيقته في السفر، ومطرة ماء «كولون» والصندوق متعدد الحجيرات - كل هذه الأشياء تفسّر شخصية الرجل بطريقة يعمها الغمّوض. أما بيت سوباكيفتش الوحش فهو صورة عن صاحبه: جامد، مثقل، صامد

أمام تقلبات الجو، وهناك في قاعة الاستقبال لوحات محفورة لأبطال يونانيين لهم «أفخاذ هي من الغلاظة وشوارب هي من الطول بحيث أنك ترتجف لمجرد رؤيتها». وهناك في قفص طائر أسود مرقش بالأبيض يشبه سوباكيفتش شبهاً شديداً». وكلما أمعن تشيشيكوف النظر في القاعة ازداد قناعة بأن كل شيء فيها «بمظهره العنيف، المكتب السمج إنما يشبه سيد المكان. وفي إحدى الزوايا مكتب ناتئ البطن من خشب الجوز يقوم على أربع قوائم ملتوية بحيث يبدو وكأنه دب لحماً ودماً. والطاولة والمقاعد والكراسي كلها مصنوعة على طراز ثقيل يصعب تحريكه. باختصار، بدا وكأن كل قاع كرسي يقول: أنا أيضاً، أنا أيضاً سوباكيفتش. أنا أشبه سوباكيفتش أيضاً».

أما بيت مانيلوف الكسول، بارد الطبع، الواهن الحالم فهو يكشف من النظرة الأولى عن إهمال مالكه: «فقطعة من الحرير والتي لابدّ أنها كلفت ثروة كانت تغطي أثاث قاعة الاستقبال الجميل. غير أن القطعة لم تكن كافية ولذا فإن اثنين من المقاعد كانا مغطيين بقطعة من القماش المغزول. ولقد ظل سيد البيت يحذّر ضيوفه ولسنوات لدى دخولهم: «لا تجلسوا على هذه الكراسي فهي غير جاهزة بعد». بعض الغرف مازالت فارغة على الرغم من أنه قال لزوجته في شهر العسل «عليّ أن أفكر بتأثيث هذه الغرفة يا حبيبتي، مؤقتاً على الأقل...».

مكتب نوزدريف المتبجح اللعوب يمثل أيضاً تجسيداً لروحه. لا ترى فيه كتاباً، ولا أثراً لصحيفة بل سيوفاً معقوفة وأخرى عادية، وبنادق، ومجموعة من الغلايين، ونرجيلة لها فم من الكهرمان، و»كيس تبغ طرزته له خصيصاً دوقة فتنت به في محطة من المحطات التي تبدل فيها الخيول على طرق السفر.

أراضي بلايوشكين التي تنمو فيها الأعشاب بإفراط وبيوت فلاحيها الخربة، وقصاصات الورق لديه، وريش الكتابة البالية، وبقايا الشموع التي يجمعها، ومحبرته التي يملؤها سائل عكر، وذباب ميت طافٍ إنما تدل كلها على شحّه أكثر من أي إفصاح مباشر عن الشح. أما عربة كوروبوشكا المضحكة والمخلّعة

والمحشوة بالوسائد والمؤن فكان يمكن لهذه المرأة المقتصدة الغبية أن تجعل منها شرنقة ليرقة كريهة.

قد يكون جوجول قاسياً إزاء الأقوياء ولكنه ليس أكثر تساهلاً مع من هم أقل شأناً». «فبتروشكا»، خادم تشيشيكوف إنسان بائس، قليل الكلام كريه الرائحة، وسائق العربة «ساليفان» ليس لديه عقل على الإطلاق، والعم متيايا والعم منيايا يماثلانه غباءً. ثم هناك الفلاحان في الفصل الأول واللذان يحاولان الحكم على مدى صلابة عجلات العربة، وبروشكا خادم بلايوشكين «وهو غبي كأوزة»، وبيلاجيا، الفتاة القن في إقطاعة كوروبوشكا «التي لا تعرف اليمين من اليسار». لا يفلت أي خادم أو فلاح من سخرية الكاتب، علماً بأنه لايكتنف هذا الضحك أي تعاطف، بل هو ينظر نظرة فوقية إلى الآخرين بمختلف طبقاتهم، أو بتعبير آخر فهو غير مغرم بأقرانه من بني البشر. وهو يعتقد أن مهمته هي أن يضع مساوئهم موضع السخرية لكي يحثهم على تصحيح أساليب حياتهم.

وهو يعنف الأشخاص بقسوة باستمرار ولكنه لا يوجه كلمة واحدة ضد المؤسسات. فنظام القنانة نظام مفيد وجدير بالاحترام في نظره. غير أن مشاهد السخرية المتتابعة هذه تشير إلى استنتاج نهائي رهيب، وإن كان هو نفسه لا يعي ذلك وهو أنه، بإظهاره الوحشية البلهاء للفلاحين وتبلد مشاعر سادتهم إنما هو يدين النظام الاجتماعي في روسيا برمته. وأشخاص مثل بروشكا وبيلاجيا وسيليفان إنما هم النتاج الذي يرثى له لنظام القنانة. والصورة المرعبة لوضعهم هذا إنما تبرز بكل وضوحها أمام عيني القارئ من خلال القصة الساخرة «نفوس ميتة».

يتوق جوجول لرسم ملائكة ولكنه لا يستطيع أن يرسم غير الخنازير. وهو يتبنى فكراً محافظاً عنيداً ولكنه غير قادر على تجنب تحول تآمري لكل مايكتب، إنه مهندس معماري ولكن له قلب منفِّذ لعمليات هدم. وهو يدرك ذلك، وهذا ما يحزنه. ولم يسبق لأحد أن حاول تبرير موقفه كما فعل هو

في مقدمات كتبه، وفي رسائله المفتوحة، وملاحظاته والتعليقات المختلفة التي كتبها. وهو يتحدث عن نفوس ميتة في مجموعته «فقرات مختارة من مراسلاتي مع أصدقائي» فيقول: —

«لم يشك أي من قرائي عندما كانوا يضحكون من أبطالي بأنهم إنما يضحكون مني. لم تكن لدي أية نقيصة واضحة تطغى على النقائص الأخرى. كما أنه لم تكن لديّ فضائل متألقة يمكن لها أن تعطي بعداً أكبر لشخصيتي. غير أنه كانت لديّ مجموعة كاملة من السمات البغيضة الممكنة كلها وإن كانت جميعاً بجرعات صغيرة. غير أنها من الكثرة بحيث أنني لم أرَ مثيلاً لها لدى أي مخلوق آخر. لقد منحني الله شخصية فيها القليل من كل شيء. وبينما كنت أتقدم وأستكشف أخطائي جاءني إلهام من العلي يتمثل في الرغبة المتزايدة بالتخلص من هذه الأخطاء، أخذت أسبغ قذاراتي الشخصية على شخصياتي، وذلك علاوة على ما لديهم هم أنفسهم من أعمال شائنة. كان الأمر يسير على هذا النحو: إذ أتناول إحدى نقائصي وأتابعها بعد أن أسبغ عليها شكلاً مختلفاً وأضعها في موضع مختلف في الحياة. كنت أسعى لتصوير هذه النقيصة في ملامح عدو مهلك كان قد وجّه إلي إساءة لئيمة. كنت أمطره بالغضب والسخرية القاسية وأوجه له ضربات مستخدماً كل ما يمكن أن يقع في يدي. لو أن أحداً رأى الوحوش التي استولدها قلمي ليضعها أمام عيني لارتجف رعباً. لا تسألني لماذا كرست الجزء الأول من عملي كلياً للخسّة ولم كل بطل من أبطالي، وبلا استثناء، مخلوقٌ وضيع: الأجزاء التالية ستحمل لك الإجابة، وهذا هو كل ما هنالك! وهذا الكتاب مولود ولد قبل الأوان. ولكن لا تتخيل بعد هذا الاعتراف أنني من ذات نوعية أبطالي من الوحوش. لا، لست أشبههم، فأنا أحب الخير وأسعى له. .ولقد جرّدت نفسي من العديد من أخطائي ونقلتها إلى أبطالي، وسخرت من أخطائهم، ودفعت الآخرين لأن يضحكوا منهم».

لاشك بأن من الواجب أخذ التبريرات التي كتبها بعد صدور الكتاب بقدر من التحفظ، إذ لم تكن لدى الكاتب هذه النوايا التي تخضع لتفسيرات

أخلاقية عندما كان ينكبّ بابتهاج على كتابه «نفوس ميتة». . . ولم تخطر له فكرة هذه العملية الروحية المزدوجة إلا عندما بدأ يتساءل بينه وبين نفسه تدريجياً عن الهدف من عمله، ووجد راحة له في أن يتصور بأنه يعمل في آن معاً لتحقيق انبعاث روحي لمعاصريه بدفعهم للضحك من أنفسهم وله هو نفسه بوضعه كلاً من نقائصه في شخصية خيالية. قد نشك في نجاحه في تحقيق هذا التطهير للنفس بهذا الأسلوب. غير أن من المؤكد أنه صادق في ادعائه بأنه أسقط السمات المختلفة لشخصيته هو نفسه على شخصيات «نفوس ميتة». وبعد أن يضفي ذنوبه الذاتية على أبطاله فإنه يجعل منها كبش فداء له. كل واحد من هذه الشخصيات هو شظية منه. وقد كتب يقول: «تاريخ روحي»، بل بالأحرى جغرافيتها، هي اعتراف رسمي وجداني بالخطأ».

أعطى لأحد شخصياته تبجحه، وحبه للكذب، وميله للخداع وللتخفي تحت مظهر كاذب، ونسب لآخر اشتهاءه لما لدى الغير من أمور مادية، وشراهته، ولثالث ميله للكسل ولأحلام اليقظة. غير أن أياً ممن ابتدعهم لم يحمل ميله المؤسف لوعظ الآخرين. الشخص الوحيد المفقود من هذه الكوكبة من الغيلان هو الأب - المعترف الزائف الذي يعتقد دائماً بأن الله يلهمه. ربما لم يكن يعتبر هذه السمة بمثابة نقطة ضعف؟ لم يكن يعتقد ذلك إذ إن الكلمات التي يقولها في «نفوس ميتة» هي في الواقع درس للأحياء الخاطئين. وقد استعاد كذلك تفاصيل سيكولوجية من أصدقائه ومعارفه في تصويره لهذه الشخصيات ولكنها تفاصيل استوقفته إلى المدى الذي تعزز فيه مواقفه الخاصة. . . وكان يراقب ما يجري حوله بدرجة أدنى كثيراً مما يجري في داخله. وما يبرز في «نفوس ميتة» هو عالمه الداخلي. السمات الأساسية لكل الأبطال وكل الأشخاص الثانويين من بني البشر والحيوانات، وقطع الأثاث، والمشاهد الطبيعية كلها مأخوذة من داخله، وكلها تملك شيئاً مشتركاً، شيء ثقيل، كسول ومتعب.

وهو يؤكد على سمة «العائلة» هذه بحرصه على وحدة الأسلوب بصورة تثير الإعجاب. وسواء أكان يصف وجهاً، أم صندوقاً، أم إيماءة يد، أم محيط

ورقة نبات فهو يفعل ذلك بدقة قاطعة وبنفس الغنى في المفردات بحيث لا يمكن بالطبع أن تتوفر ترجمة تجسّد ضراوة لغته التي تتسم بالكثافة والتموج، والمشحونة بالنعوت والأوصاف. ومهما حاول (المترجم) تكييف اللغة فإنه لن يكون أميناً للنص الأصلي إذ إن الألوان تفقد ألقها وهي تنقل كل الاستعارات من الروسية إلى لغة أخرى.

تتميز كل التعابير المجازية التي ينثرها الكاتب في صفحات كتابه بخصيصة واحدة: فهي تنفتح على صور ليست لها علاقة مباشرة بالقصة. فهي تشابه إلقاء نظرة جانبية على عالم ثان، إنها نوع من الرسوم التخطيطية المختصرة حول جوانب اللوحة الأصليّة. فهو يتحدث في بداية الكتاب عن حفلة رئيس البلدية فيقول في الفصل الأول:

«معاطف الفراك السوداء تنتفض وتضج فرادى أو جماعات وكأنها أسراب الذباب وقد بهرتها كتلة من السكر الأبيض في الوقت الذي تقوم فيه خادم عجوز بتكسير هذه الكتلة وتقسيمها إلى قطع بيضاء متلألئة إلى جانب نافذة مفتوحة في يوم من أيام تموز القائظة، ويتجمع الأطفال حولها وهم يحدقون بكل انتباه بحركات يديها الخشنتين وهي ترفع المطرقة بينما يندفع حشد من الذباب محوّماً في الهواء بكل جرأة وكأنه السيد المطاع في المكان، ومستغلاً قصر نظر الخادم وقد غشّى عينيها نور الشمس أكثر فأكثر، لتنتشر فوق الكسر الغضة فرادى حيناً وجماعات حيناً آخر».

وفجأة يغادر القارئ الحفلة الساهرة لرئيس البلدية ليجد نفسه، ولدهشته، في بيت ريفي غير مألوف في منتصف فصل الصيف ليرقب امرأة عجوزاً تكسّر السكر، أو يرافق تشيشيكوف في العربة التي تندفع متجهة إلى منزل سوباكيفتش حيث يعقد مقارنة غير مألوفة فيطرح موضوع عازف على «البالالايكا»[1] حيث يقول (في الفصل الخامس).

---

(١) آلة موسيقية روسية شبيهة بالجيتار.

«عندما اقتربت العربة من المدخل رأى وجهين ظهرا عند النافذة في وقت واحد تقريباً: أحدهما وجه امرأة ترتدي قبعة من النوع الذي يشدّ تحت الذقن ولها وجه طويل وهزيل كأنه خيارة. أما الوجه الآخر فهو لرجل، وهو وجه مستدير عريض وكأنه نبتة الكوسا من النوع الذي يزرع في منطقة مولدافيا والتي تستخدم في روسيا لصنع آلات البالالايكا الخفيفة ذات الوترين وتعتبر مفخرة الفلاح الفطن ابن العشرين، وهي مصدر لبهجته. إنه ديك القرية الذي يصيح وهو يوجه نظراته الغرامية للفتيات الجميلات بأعناقهن البيضاء كالحليب واللاتي يحتشدن حوله لسماع صوته وهو يجاهد في الحكّ على آلته المتواضعة».

ثم هنالك السيدتان اللتان تتحولان إلى فتاتين صغيرتين في الجملة ذاتها في الفصل التاسع: «شبكت السيدتان أيديهما وتعانقتا وأطلقتا صرخات فرح وكأنهما طالبتان صغيرتان لم يكشف لهما اسماهما بعد بأن والد إحداهما أقل شأناً في طبقته وثروته من والد الأخرى».

ثم إن هناك عينا بلايوشكين حيث يحوّل انتباهنا عنهما فجأة لينقل القارئ إلى فئران (الفصل السادس): «عيناه الصغيرتان ما زالتا حادتين حيث تنتقل نظراتهما تحت شريط شعر حاجبيه المنفوشين وكأنها فئران تجازف بمدّ أنوفها المدببة من أوكارها المظلمة وهي تتشمم الهواء بارتياب وقد انتصبت آذانها وشواربها ترقباً لوجود قط أو ولد وغد يختبئ في مكان قريب».

وهنالك تلك السماء التي تتدرج ألوانها بصورة تعصى على الوصف والتي تقودنا في تحول غريب إلى حامية عسكرية (الفصل الثاني) «الطقس نفسه يتوافق توافقاً لطيفاً مع خلفية المشهد: لم يكن ذلك اليوم متألقاً ولا كئيباً، بل هو بلون رمادي خفيف يماثل لون البزات الرثة لجنود الحامية المعسكرين – جيش لأيام السلم، لا يفعل أفراده شيئاً على وجه الإجمال سوى أن يسكروا أيام الآحاد».

قد تحمل هذه الجبال الجليدية المتساقطة من التعابير المجازية القارئ بعيداً عن عالمه اليومي المألوف وترسم ابتسامة على شفتيه، ولكنها تأتي في لحظات حوار

تتألق فيه ألمعية جوجول إلى أقصى درجاتها. فتشيشيكوف يبدّل نبرة صوته، كما رأينا، بما يتواءم مع الظروف. غير أن لكل واحد من الأشخاص الذين يتحدث إليهم لغته الخاصة. وسواء أكانوا من أبطال القصة الرئيسيين أم مجرد متفرجين فإن كل ما يقولونه إنما هو تعبير عن شخصياتهم. فتعابير سوباكيفتش الفجة القاسية لا تشبه قط لهجة مانيلوف الرنانة التي تنساب برقة. وهذه تختلف بدورها تمام الاختلاف عن نهيق كوروبوشكا الذي يبعث على الدوار أو عن ردود بلايوشكين الذابلة والتي تعبر عن الشك. وللفلاحين أيضاً تعابيرهم القوية، على العكس من تعابير سيدات المدن اللاتي يجد الكاتب ثرثراتهن باعثة على التسلية: (في الفصل التاسع): —

«أرسلت لتوّي قطعة قماش لأختي. قطعة رائعة، مدهشة حقاً، لا يمكنني أن أبدأ بوصفها. تخيلي يا عزيزتي: خطوط رفيعة نحيلة بالقدر الذي يمكن لذهنك أن يتخيّله على أرضية زرقاء، وبين الخطوط عيون ومخالب، عيون ومخالب، عيون ومخالب....».

«تبدو مبهرجة جداً يا عزيزتي!»

«لا، ليست مبهرجة على الإطلاق!»

«أجل، إنها مبهرجة جداً!»

«أوه... بالمناسبة: تحياتي لم تعد الكشاكش رائجة بعد!»

«مستحيل!»

«أجل، فالعُقد هي الدُّرجة الآن بدلاً منها».

«عُقد، ليست جميلة إلى حد كبير».

«أجل، فالعُقد هي الدارج الآن، ليس هناك إلا عقد، عقد على القبعات، على الأكمام، على الأكتاف، عند الذيل، عقد في كل موضع».

من يتخيل من القراء قبل أن يفتح كتاب «نفوس ميتة» بأنه سيجد كل هذه الأنماط من التفاهات؟ فالكاتب يفرد أمام أعيننا، وبكل ابتهاج، كتاباً مصوّراً (كاتالوج) من التفاهة. ولكنه لم يكن واثقاً تماماً عندما وصل إلى النهاية مما كان يريد أن يقوله بالضبط من وراء كل ذلك. كان يفكر بالسخرية من الشيطان، ولكنه قام في الواقع بتمجيده عوضاً عن ذلك. كان يريد تبجيل عظمة روسيا، ولكنه عرض كل دناءاتها بدلاً من ذلك. وكان يدعي لنفسه حق توجيه إرشادات لأخوانه، ولكنه قدم لهم ما يسلّيهم عوضاً عن ذلك، وهاهم يضحكون بدلاً من أن يطأطئوا رؤوسهم خجلاً.

غير أن «نفوس ميتة» تظل، على الرغم من خطها الضبابي وتناقضاتها واستطراداتها، تظل عمله الأكثر اكتمالاً. فهي عالم مكتف بذاته، محكم الإغلاق كلياً ويطفح بالأسرار. وما إن يدخله المرء حتى يصدمه الجو الخانق والإضاءة الاصطناعية. الأشياء والوجوه مشوهة، والأصوات تردد الصدى وكأنها تنطلق في داخل برميل. وهناك فخ قد يفغر فاه عند كل خطوة. وما إن يترك القارئ تشيشيكوف وهو يطير بعربة الترويكا متوجهاً إلى جهنم افتراضية حتى يجد صعوبة في العودة إلى عالم الواقع إذ لا يمكن له، أي للقارئ بعد أن يرى الناس والأشياء كما كان يراها من قبل بالضبط. لقد اكتسب حاسة سادسة تمكّنه من رؤية الفوضى القائمة خلف الستارة. وأصبح معتاداً على ماهو غير عقلاني. ولكن، لماذا أعجبته «نفوس ميتة»؟ سؤال لا معنى له، فتعلقه بها يتجاوز منطق العقل إذ إن هذا الكتاب الكثيف، بأهدافه المتراكبة، الساخر في ظاهره، والتراجيدي في العمق، هو القصيدة الملحمية والكراس الهجائي، الهجاء والكابوس، الاعتراف والتعويذة، كتاب عصي على تحديد هويته وتصنيفه على رف معين في مكتبة ما. فتحت هالته الشريرة يمارس الكتاب سلطته من منزلة عليا في الأدب فيما بين «دون كيشوت» و «الكوميديا الإلهية». هنالك أخوة غريبة توحد بين كل أولئك الناس، في مختلف أنحاء العالم، ممن نالوا من صفحات الكتاب في إحدى الليالي سبباً جيداً يدفعهم إلى الضحك ولكي يتململوا في مقاعدهم متوجسين.

كانت ست سنوات قد مرت منذ العرض الأول «للمفتش العام»، ست سنوات من الصمت إلى أن أتت فجأة «نفوس ميتة». نشر هذا الكتاب جاء كأنه رفسة شديدة على كثيب من الرمل كان قد شكله سرب من النمل وهو يبني مساكن له. ارتعشت جمهرة القراء حتى أخمص أقدامهم وأخذت أكداس الكتاب تتقلّص تباعاً من رفوف المكتبات واشتبك مؤيدو الكتاب ومعادوه في قاعات الاستقبال اشتباكاً حاداً وبعنف ربما تجاوز ما قوبلت به العروض الافتتاحية لمسرحية جوجول (أي المفتش العام)، وأصبح الناس إما مع أو ضد تشيشيكوف، ومع أو ضد جوجول.

كتب «هيرزن» في مفكرته (في ١١ حزيران/ يونيو ١٨٤٢) يقول: «كتاب مدهش»، تأنيب مرير لروسيا المعاصرة، ولكن يبقى هناك أمل. إذ يمكننا أن نتبيّن روحاً جسوراً قوية إن تمكنت عيوننا من اختراق الضباب القذر ورائحة أكوام الروث. صورة ناجحة إلى درجة مدهشة حيث يُظهر الحياة بكل غناها، والحزن يخيّم في عالم تشيشيكوف».

انقسم النقاد على الفور ووجد أعداء جوجول السابقون أنفسهم متراصين في مواجهة المدافعين العنيدين عنه.

فقد اعتبر بولجارين رئيس تحرير دورية «نحلة الشمال» «نفوس ميتة» عملاً سطحياً غير مصقول، «صورة كاريكاتورية للواقع الروسي»، كما اعتبر مؤلفها مجرد كاتب كراسات «أدنى شأناً من «بول دي كوك» (الكاتب الفرنسي). وسخر سينكوفسكي في دورية «مكتبة القراءة» من جوجول لتقديمه هذه الحكاية السوقية المفككة على أنها «قصيدة» وتساءل «قصيدة؟ حقاً، الآن! بول دي كوك كموضوع، بول دي كوك كأسلوب، مسكين وبائس ذلك الكاتب الذي يأخذ تشيشيكوف، خطأ، على أنه يماثل واقع الحياة!» وقد شرّح الناقد الكتاب صفحة صفحة منقباً عن الأخطاء في بناء الجمل وفي النحو، والحشو في الكلام وما فيه من بذاءات.

أما بوليفوي فقد دافع في دورية «المراسل الروسي» عن مفهومه الرومانتيكي والوطني في الأدب وعلى هذا رفض وصف الرواية على أنها «عمل فني» حيث يقول: «نفوس ميتة» هي كاريكاتير فج. الشخصيات كلها وبلا استثناء غير محتملة الوجود ويتسمون بالمبالغة ويشكلون مجموعة من الخسيسين الذين يثيرون الاشمئزاز والمعتوهين كلياً. والكتاب محشو بالوصف بحيث أنك ترميه أرضاً دون إرادة منك».

أما النقاد المؤيدون لجوجول من ذوي الميول الأوروبية أو السلافية على السواء فقد انطلقوا من ناحيتهم في أنشودة مديح للكاتب. ففي مجموعة الاتجاه الأوروبي رحب بيلنسكي بنفوس ميتة باعتبارها عملاً فنياً خالداً. وسخر من الكتاب المستأجرين التافهين الذي تجرؤوا على انتقاد الكاتب على سطحيته في الوصف أو على الأخطاء في أسلوبه. وبطريقته العنيفة المعتادة يقول:

«في ذروة ضيق الأفق والقدرات المتواضعة والتفاهة والعجز لدى أولئك الكتاب المقيتين من ذوي القدرات الأدبية الضئيلة، وفي وسط تلك الخطوط الطفولية والأفكار الصبيانية والمشاعر الزائفة الصادرة عن وطنية أولئك المرائين الذين يتظاهرون بالتقوى والصلاح ممن يدّعون التواضع الفوقي، يظهر كالصاعقة في وسط ذلك الجدب الخانق والمهلك. عمل روسي خالص. عمل قومي، مستخلص من طيات الحياة الخفية للناس، عمل صادق كما هو وطني يكشف الواقع بصورة لا رحمة فيها، ويبعث فيه الحيوية شعور بالحب الغريزي العميق المشبوب بالعاطفة لبذرة الحياة الروسية الخصبة، عمل بمواصفات فنيّة عصية على الوصف في مفاهيمه وفي أسلوب إنجازه، في تركيب شخصياته وفي تفاصيله التي تتناول السلوك الروسي الذي يصفه، وأخيراً في عمق فكره على مختلف المستويات الاجتماعية والعامة والتاريخية».

هنأ بيلنسكي نفسه مخاطباً قراء دوريته «حوليات الوطن» لأنه كان أول من رحّب بالمواهب العظيمة للكاتب. غير أن الجائزة التي أسبغها على نفسه بذلك علناً لم تكن موضع ترحيب لدى أصدقاء جوجول في المعسكر المعاكس.

بدأ شيفرييف مقالاً له في دوريه «موسكوفيت» بالتهجم الشخصي المباشر على يلنسكي حيث شبهه بقزم يصرخ ذعراً ويومئ بيديه ويضيف: «لقد ابتهج للفرصة التي أتيحت له لامتداح نفسه عن طريق امتداح موهبة كبيرة. إنه (أي يلنسكي) قد نصّب نفسه أمام الكتاب ونفخ جسمه الهزيل لكي يحجب هذا الكتاب عن أنظاركم (أي عن أنظار القراء). وبعد ذلك يظهره أمامكم كأنه يريد إقناعكم بأنه هو أول من أخبركم عنه وأنكم لولاه لما لحظتموه». ويتابع شيفرييف مقالة فيمتدح واقعية «نفوس ميتة» ويغفر للكاتب جلافة مقطع أو اثنين مقابل الأهداف الأعمق للروائي والتي كانت أخلاقية وأبوية ووطنية – دون أدنى ريب. وقد استساغ بشكل خاص الاستطرادات الشاعرية. وعلى العكس من بيلنسكي فهو لا يجد هجاءً اجتماعياً في القصيدة بل هي ترنيمة لروسيا الخالدة... وهو يغفر له أشد شخصياته شناعةً نظراً لأنهم روس ولأنه يمكن للمرء أن يلمح وراءهم نهضة روسيا من جديد».

كتب يقول: «وإلى جانب قيمته الفنية فإن من حق عمل من هذا النوع أن يحظى بانتباهنا باعتباره عملاً وطنياً. كما أن الشخصيات السلبية في الجزء الأول سيتلوها بالتأكيد من يظهرون لاحقاً ممن هم أكثر تناسقاً... إننا نعتقد بأن الكاتب قادر على إعطاء مدى أعظم لخياله، وذلك لن يشمل روسيا فحسب بل الأمم جميعاً...

أما بلاتنييف فقد كتب تحت اسم مستعار في دورية «المعاصر» حيث منح جوجول لقب الكاتب الروسي الحي الأهم، واستحسن أن يكون قد «جسّد ظواهر حياته الداخلية في الواقع». كما قال إن هذا الجزء إنما هو بمثابة مقدمة يستهدف الكاتب من ورائها تقديم «سلسلة من الوقائع والأحداث الغريبة التي تمر بحياة البطل».

غير أن الحماس بلغ درجة الحمى لدى آل أكساكوف. قرأ أكساكوف الأب «نفوس ميتة» بكاملها لنفسه ثم قرأها بصوت عالٍ للعائلة. أما ابنه قسطنطين، وبحمية مؤمن مبتدئ بالمبادئ السلافية، كتب مقالاً حماسياً عن الكتاب

حاول عبثاً نشره في صحيفة «موسكوفيت»، وأصدره في النهاية على حسابه الخاص كنشرة منفصلة. وبتطرف وحماقة الشباب أعلن أن «نفوس ميتة» هي بمثابة بعث للملحمة الكلاسيكية، وأن من الواجب أن يقارن جوجول بهوميروس وشكسبير. ربنا احمنا من أصدقائنا! غير أنه في سعيه للترويج لشهرة معبوده لم يفلح هذا الناقد البكر إلا في إثارة السخرية من كل جانب.

رفض حتى أولئك الذين يقدرون إمكانيات جوجول هذا التبجيل واعتبروه تبجيلاً مبالغاً فيه عندما يوجه لمن ما يزال على قيد الحياة. وبيلنسكي ذو الميول الأوروبية بشكل خاص لم يحتمل أن يجد نفسه واقفاً إلى جانب من لديه ميول سلافية فيما يخص رأيه في كتاب ما. كانت لديه أسبابه الخاصة لتبجيل الكاتب ولن يقبل أسباب أي شخص آخر. فالترحيب الصادر من موقع سياسي غير موقعه هو أمر لا يطاق أكثر من النقد. وعلى الرغم من أنه كان قد عبّر وجهات نظره إزاء نفوس ميتة بالفعل فقد كتب مقالين ملحقين ساخرين مفنداً حجج قسطنطين أكساكونف سطراً سطراً.

فليس لنفوس ميتة أي علاقة بالشعر الملحمي الكلاسيكي، أو لجوجول علاقة بهوميروس، وهو يضيف: «كقصيدة تتعارض نفوس ميتة كلياً مع الإلياذة. فالإلياذة هي تمجيد للحياة بينما تحط نفوس ميتة من قدر الحياة وتدور حول فسادها». وبعد أن امتدح جوجول لتشويهه سمعة هذه الحياة، أو بتعبير آخر لتنديده بالتركيبة الاجتماعية الجائرة تابع بيلنسكي متسائلاً فيما إن كان الكاتب قد يخون قضية الليبرالية في الأجزاء التالية حيث يقول: «من يدري ماذا ستكون عليه الأجزاء التالية من «نفوس ميتة»؟ لقد وعدنا بمخلوقات لم توجد بعد قط، ممن سيكون العظماء في بلدان أخرى مجرد دمى بالمقارنة بهم».

وعلى هذا وجد كل شخص ما يريده هو في هذا الكتاب: هجوماً على نظام القنانة، تعظيماً لروسيا ورسالتها، تصويراً واقعياً لطبقة ملاك الأراضي، رؤيا كابوسية لا أساس لها في الواقع، إهانة للوطن ولحكومته، مسرحية هزلية مرحة لا معاني سياسية إضافية لها، قصيدة مسيحية حتى الأعماق، عملاً صادراً عن

الشيطان . . . اختصم حلفاء جوجول - من الليبراليين والمحافظين ، من ذوي الميول الأوروبية وذوي الميول السلافية. اختصموا جميعاً لتقرير من سيكون له شرف اختيار جوجول نصيراً لقضيته. أما خصومه فكانوا يرفضون تسميته كاتباً روسياً عظيماً ، أو حتى أحد الرعايا المحترمين للقيصر . وفي نفس الوقت ، وشأنه شأن تشيشيكوف كان جوجول يسرع مغادراً سانت بطرسبرج مبتعداً عن العاصفة التي أثارها هناك .

كل دورة من دورات عجلات عربته كانت تبعده عن ميدان المعركة . وما أن عبر الحدود حتى كف عن سماع دعوات تلك الأبواق واغتياب أبناء وطنه له . بل قد يصل به الأمر إلى الاعتقاد بأن «نفوس ميتة» قد قوبلت بعدم اكتراث شامل . هل عليه أن يقلق أم يبتهج؟ كانت القرى الصغيرة السعيدة والبلدات الهادئة التي يغطي القرميد سقوف بيوتها تمر تباعاً أمام ناظريه عبر الغبار الذي يدوّم حوله . لم يكن هنالك «بق» في دور النزل وأي سلام يخيّم على طرق بروسيا!» .

□ □ □

الجزء الثالث

١ ـ تربيع الدائرة

أول ما فكر به جوجول عندما وصل إلى برلين (في ٨ حزيران/ يونيو ١٨٤٢) هو متابعة السفر إلى دوسلدورف حيث كان جوكوفسكي، والذي أصبح أباً، يقيم بهدوء مع زوجته الشابة وابنته الوليدة. غير أنه قيل إن أعصاب السيدة جوكوفسكي كانت في حالة سيئة وأن العائلة توجهت إلى أحد المنتجعات الصحية.

أخذ جوجول يتمعّن بالخارطة وهو جالس في غرفة الفندق وقد ثبطت همته المسافة التي تفصل بين برلين ودوسلدورف. لم يكن عليه أن يقوم بهذه الرحلة عبثاً، ولذا قرر أن يرسل للشاعر نسخة من «نفوس ميتة» إلى جانب رسالة من رسائله الملتبسة التي يعبر نصفها عن التواضع والنصف الآخر عن التكبّر، علماً بأن هذا اختصاصه المعهود حيث يقول في رسالته (المؤرخة في ٢٦ حزيران /يونيو ١٨٤٢): -

«المزيد من الوضوح والرزانة يحلاّن بقلبي مع كل يوم جديد، ومع كل ساعة، وأسفاري وانقطاعي عن المجتمع لم يكونا عديمي المعنى ولا دون هدف، بل ساهما في تنوير وجودي. لابدّ أن تكون روحي أصفى من ثلوج الجبال وأنقى من السماء: وحينذاك سأكون قد اكتسبت من القوة ما يمكنني من القيام برحلتي المقدسة، وعندئذ فقط سيتبدد اللغز الذي يغلّف حياتي . . . أرسل لك «نفوس ميتة». هذا هو الجزء الأول وهو، إذا ما قارنته بالأجزاء التي تتلوه، إنما هو بمثابة الرواق الذي يبنيه مهندس معماري في منطقة ريفية عند مدخل قصر ستكون له

أبعاد في منتهى الضخامة تبعاً للمخطط الموضوع له. ابعث لي بتعليقاتك بحق الله، وكن قاسياً لا ترحم قدر إمكانك. أنت تعرف مدى ضرورة ذلك بالنسبة لي... لا تقرأ دون أن يكون بيدك قلم رصاص وقصاصة ورق لكي تسجل ملاحظاتك في الحال، ثم اكتب انطباعاتك في نهاية كل فصل حول ذلك الفصل برمته. وبعد ذلك انظر في العلاقة بين مختلف الفصول. ولدى انتهائك من الكتاب احكم عليه ككل على أن تقوم بجمع كل تلك الآراء العامة والمفردة ووضعها وختمها في رزمة واحدة وإرسالها إلى عنواني. لن أتلقى هدية أثمن من تلك في هذه اللحظة».

بعد يوم واحد ركب جوجول عربة أخرى متجهاً إلى «جاشتاين» في رحلة تستغرق ثلاثة أيام. انتهت الرحلة بجبال شاهقة تغطيها الغابات الكثيفة وبهواء نقي رائع ونهر مزبد وفندق منتجعي مريح، وفي بيت صغير إلى أحد جوانب الفندق حيث يرقد «ياسيكوف» المسكين المحكوم بالاضطجاع على كرسي طويل (شيزلونج) لإصابته بالسل. كانت صحته قد ترديت بشكل ملحوظ في غضون فترة أقل من سنة بحيث أصبح مجرد الحركة المجردة عذاباً شاقاً بالنسبة إليه. شبح يعبّر عن الألم يغشى وجهه الفتي المتورم بين الحين والآخر. وقد استقبل جوجول بفرح ورجاه أن يبقى إلى جانبه.

كان جوجول يتوجه لشرب الماء كل صباح ثم يتمشى بعض الوقت في المتنزه وهو يستنشق أنفاساً عميقة ويستغرق في أحلام اليقظة ويحدق بالسحب المعلقة عند قمة الجبال، ويعود إلى البيت بعد ذلك ليعمل، ويدوّن في نفس الوقت على عجل بعض الملاحظات التي سيستخدمها في الأجزاء التالية من «نفوس ميتة». يعمل على صقل بعض النصوص القليلة التي يحتاجها بروكوبوفيتش «للأعمال الكاملة» وهي نصوص: «المقامرون» ومقتطفات من «صليب فلاديمير» وخاصة كوميديا جديدة كتبها بعنوان «لدى مغادرة المسرح بعد العرض الأول لمسرحية كوميدية جديدة» وهي فكرة أخذها ولا شك من مسرحية «موليير» «نقد لمدرسة النساء». وقد تحدث في هذه السلسلة من المشاهد عن عذابات مؤلف

ساخر يختبئ في دهاليز أحد المسارح وهو يسترق السمع لتعليقات الجمهور على مسرحيته: «ليست هناك شخصية واحدة صادقة! كلها شخصيات كاريكاتورية! هزء قبيح بروسيا!».

لم يكن جوجول يبتدع الكلمات بل سمعها بنفسه أو قرأها في الصحف بعد عرض «المفتش العام». وهو بوضعه لها على لسان أبطاله إنما يكشف عن حقد وحماقة التأنيب الذي وجّه إليه، كما يرد عليه بصوت شخصية سمّاها «السيد ب»، وآخر «رجل ملابسه متواضعة».

يقول هذا: «أجد الراحة حين أفكر بأن الأعمال المخزية التي تجري بين ظهرانينا لا تبقى خافية أو يتم التغاضي عنها، بل هي تدفن احتقاراً هاهنا، أمام أعين الناس الأصلاء، وأن هنالك قلماً لا يخاف كشف ميولنا الوضيعة مهما كانت هذه الميول تجرح كبرياءنا القومي، وأن هنالك حكومة هي من الكرم بحيث تسمح بأن يعرض ذلك أمام كل من يجب أن تعرض أمامهم وفي وضح النهار».

أما «السيد ب» فقد أكد بالدليل والحجة أنه لا يوجد بعد هذه المسرحية ما يهز احترام الموظفين أو واجباتهم فيما عدا أولئك الموظفين الذين يؤدون واجباتهم أداءً سيئاً».

يقرأ المؤلف بعد انصراف الحشد المغزى المستخلص من ردود الفعل المتناقضة على هذه المسرحية فيقول: «كم من المؤسف أن أحداً لم يلحظ الشخصية الصادقة الوحيدة في مسرحيتي. أجل كانت هنالك شخصية صادقة ونبيلة طوال الوقت، وهذه الشخصية الصادقة والنبيلة هي الضحك. لم يتقدم أحد للدفاع عن هذه الشخصية، أما أنا فقد خدمته بكل إخلاص ككاتب ساخر، فالضحك أعمق وأكثر مغزى مما يفترض. لست أعني الضحك الذي تثيره مصادر انزعاج وقتية أو متشائمة، أو الفكاهة غير الصحية، وليس الضحك التافه الذي يستهدف تسلية سطحية، بل ذلك الذي يتدفق من الطبيعة الداخلية المستنيرة للإنسان،

من المكان الذي ينبع منه من جديد وعلى الدوام ، الضحك الذي يتوجه إلى لب الأشياء. والإنسان الذي لم يعد يخاف من أي شيء في العالم يظل يخاف من الضحك. إن الروح الجيدة في أعماقها هي التي تملك القدرة على الضحك النقي الصافي. الشجاعة إذن وإلى الأمام! فمن يدري؟ قد يتضح يوماً للجميع ، وتبعاً لنفس القانون الذي يحوّل إنساناً أبيّاً قوياً إلى شخص ضعيف لا حول له ولا قوة في مواجهة المحن قد يضخّم إنساناً ضعيف الشخصية ويجعل منه عملاقاً في مواجهة أكثر الصعوبات شدة. إن الإنسان الذي يذرف الكثير من الدموع من أعماق روحه هو نفس الإنسان الذي يبدو بأنه قادر على الضحك أكثر من أي شخص آخر على وجه البسيطة».

كان جوجول يشير مداورة لدى كتابة هذه الجمل إلى «نفوس ميتة» كما يشير بنفس القدر إلى «المفتش العام». لقد كان قلقاً جداً على مصير كتابه، وكان يعتقد بأن أصدقاءه مهملون جداً لأنهم لم يكونوا يحوّلون إليه يومياً كل أصداء التجاوب مع الكتاب. فعلى كل من يعتبره كاتباً كبيراً أن يترك شؤونه الخاصة لكي يخدمه. وهو ، كالعادة ، لم يكن مهتماً بالمديح ، بل بالنقد فقط – فالنقد وحده يمكن أن يبيّن «درجة حرارة» البلد ويساعده بالتالي على التخطيط لمساره المستقبلي.

من المؤكد أنه كان من الأسهل له أن يبقى في روسيا إن أراد معرفة ردود أفعال أبناء بلده. غير أن الألم الناجم عن الضربات التي تسدد من مسافة قصيرة ستكون أكثر شدة. وعلى الرغم من أن المسافة لن تنقذه من الإهانة ولكنها تخفف من وقعها. إنه يريد سماع الإهانات حتى آخرها ، ولكنه يفضل أن يتلقاها وقد خفت حدتها بحكم طول منحنى مسارها. وهكذا فإن الألم الذي يصرخ بصوت عالٍ طالباً إياه سيصبح محمولاً وسيكون في نفس الوقت مفيداً. وقد ألح على جوكوفسكي الذي تأخر قراره في الوصول ، فكتب له (في ٢٠ تموز /يوليو ١٨٤٢) يقول: –

«لو أنك كتبت سطراً واحداً عن «نفوس ميتة» لأسديت لي معروفاً كبيراً وبعثت الكثير من السرور في «جاشتاين!» ولكنني لم أسمع شيئاً عن الكتاب على الإطلاق بعد باستثناء بعض كلمات المديح الغامضة والتي أقسم أنها أغضبتني وأغاظتني أكثر من أي وقت سابق. خطيئاتي، بيّن لي خطيئاتي، فروحي تتعطش لمعرفتها. لو أنك تعرف مدى سروري حين أكتشف في قلبي أمراً منكراً فاتتني معرفته حتى الآن! فليس هناك من يقدم لي هدية أفضل. يمكنك أنت وحدك أن تقول لي كل شيء دون أن يمنعك عن ذلك الخجل أو الخوف من الإساءة إلى غرور الكاتب. هاجمني إذن، في أكثر مواقع جهازي العصبي حساسية، فهذا جدّ ضروري بالنسبة إلي! قد تكون قرأت الكتاب وقد تكون انطباعات عديدة تلاشت من ذاكرتك. حسناً، امنحني مزيداً من الوقت واقرأه ثانية، أو تصفح من جديد كل ما يمكنك من أجزائه».

وفي ١٠ أيلول/ سبتمبر ١٨٤٢ كتب لبروكوبوفيتش: «لا شك بأن أشياء تقال عن «نفوس ميتة» فأرجو بحق الصداقة أن تقولها لي مهما كانت، ومهما كان مصدرها، فأنا لا أستغني عنها كلها، ولدرجة لا يمكن أن تتصورها! ومن المفيد أيضاً أن تذكر الفم الذي صدرت عنه».

ولماريا بالابين كتب يقول: - «سجلي كل ما قد تسمعينه عني- سواء أكان ما يقال مبرراً أو غير محق، وثيق الصلة، أو ليس وثيق الصلة بالموضوع - اكتبيها في نفس اللحظة، وهي ما تزال حامية، على قصاصة من الورق وضعي هذه القصاصة داخل رسالتك».

وكتب لشيفريف (في ١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٤٢) يقول: «تكتب بأن عليّ أن أنطلق بقوة وبسرعة متزايدتين وبكل جراة وألا ألتفت إلى النقاد، غير أنه لا يمكنني الانطلاق بجراة إلى أن أعرف ما يقوله هؤلاء النقاد. فالنقد يعطيني أجنحة، وإنني أرى عملي بوضوح أكبر بعد النقد وردود الفعل والآراء المناقضة، بل إن لنقد بلجارين بعض الفائدة لي».

تقبّل بكل تواضع التهجمات العنيفة التي شنّها كل من بلجارين وسنكوفسكي وجريش والذين قالوا إن أسلوبه رديء جداً وأنه أدنى درجة من أسلوب «بول دي كوك». ولكنه، وعلى الرغم من أنه وافقهم بأن في الكتاب الكثير من الشوائب فإن ثقته لم تتزعزع بالمزية الأخلاقية لكتابه. وبتتالي وصول المقالات من موسكو وسانت بطرسبرج، سواء أكانت معادية أم مادحة توضحت لديه الحاجة لتوسيع عمله. لقد رسم جهنم الحياة الروسية بكل جوانب الرعب فيها وعليه الآن أن يرسم «المَطْهر» الذي تتطهّر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذاب محدود الأجل، والذي تحلّ فيه أرواح نيّرة، متوازنة لها تطلعات نبيلة. وفي جزء ثالث وبعد أن يكون قد أصبح أهلاً لموضوعه كليّاً سيقدم لقرائه الحقائق التي لا ريب فيها للجنّة بكل ألقها. خطة بهذه العظمة، في اعتقاده لا يمكن للمفكرين استيعابها. أما آراء النقاد والزملاء من الكتاب فهي لا تهمه بقدر رأي عامة جمهور القراء. فمن أجل خلاص هؤلاء العامة وضع الله القلم في يده.

هاهو يقول في رسالة لشخص غير معروف (ربما كان بينار داكي) (في ٢٠ تموز/يوليو ١٨٤٢): «إن ما يميز أعمالي عن أعمال الكتاب الآخرين هو أن العالم كله سيحكم عليها، كل القراء بلا استثناء لأن هدف كتاباتي هو حياة كل يوم وكل الناس».

كان جوجول كثيراً ما يناقش مشروعه الكبير مع ياسيكوف (وهو من المتحمسين للتيار السلافي) والذي كان يعتقد بأن الوقت قد حان بالنسبة إليه لكي يترك الهجاء جانباً، وبأن من الواجب أن يقدّم الجزء الثاني من «نفوس ميتة» الإنسان الروسي المثالي، روسي الغد من خلال عدد قليل من الشخصيات الإيجابية. الله من عليائه يحرس من يرسم تلك اللوحة الوطنية الهائلة وسيأتي ليشد من أزره عندما يحين الوقت اللازم لذلك، وبطريقة لا يمكن لأحد أن يتنبأ بها. مهمته الآن هي أن يطهر نفسه بانتزاعها من متاع الدنيا. ويقول جوجول في رسالة لأكساكوف (في ٨ آب/ أغسطس ١٨٤٢): «الحب النابع من الأرض والمتعلق بالأرض، الحب الحسي وحده والذي يرتبط بوجوه بني البشر، بوجه وشخص ظاهر للعيان، هذا الحب وحده لا يرى المسيح».

ذهب إلى ميونيخ سعياً وراء الإلهام، غير أن الطقس هناك كان حاراً جداً وخانقاً بحيث أنه أسرع في العودة إلى جوار سرير المريض في جاشتاين الذي كان ينتظره بفارغ الصبر. وما لبث أن بدأ ضباب ومطر الخريف واكفهر المشهد واقتربت الجبال من بعضها البعض واستكانت، وخلا المنتجع من رواده. وقرر جوجول أن المياه لم تكن مفيدة له، بينما غمر ياسيكوف شعور بالملل، فلم البقاء تحت هذه السماء الرمادية الثقيلة في الوقت الذي تشرق فيه السماء في إيطاليا؟

انطلق الرجلان، واصطحب ياسيكوف معه أحد الأقنان وكان يعرج وهو يمشي مستنداً على عكازين ووجهه يتلوّى ألماً، وكان جوجول يمرّض صديقه ويشجعه كمسيحي صادق. وصلا أولاً إلى البندقية ثم روما في (٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٨٤٢). وقد استطاع إيفانوف الذي أنذر سلفاً استئجار شقة في «١٢٦ سترادا فيليس» في الطابق الثالث لجوجول وفي الطابق الثاني لياسيكوف بينما كان يعيش في الطابق الرابع أستاذ رياضيات مساعد في جامعة سانت بطرسبرج وهو «فيودور فاسيليفتش شيجوف»

كان الطقس مشمساً، والهواء عليلاً، والشوارع مليئة بالحياة، والرهبان من ذوي الأردية البنية يشقون طريقهم بين الناس، والنساء الضاجات يتمشين على الأرصفة والحمير تنهق تحت النوافذ. وكانوا يجتمعون كل مساء في شقة ياسيكوف الذي كان يستقبلهم وهو يضطجع مترهلاً على مقعده وقدماه تتدليان ورأسه مدفون بين كتفيه. يصل الرسامان إيفانوف ويوردان وجيوبهما تمتلئ بالكستناء المشوية، ويأتي الخادم بزجاجة نبيذ وبعض الكؤوس. غير أنه ما كان للنبيذ ولا للكستناء أن تحرِّكا جوجول بل كان يأكل ويشرب وكأنه إنسان يستغرق في حلم. وبين آونة وأخرى يستجمع نفسه إذا خاطبه أحدهم فيسرع ليتحدث بحميّة حول أهمية عمله، أو يغير نبرته ويروي حكاية ممتعة. وقد أدهشت أصدقاءه، كما يروي شيجوف في ذكرياته، فجاجة لغته في مثل هذه المناسبات فلم يعودوا يجدون في خطابه ذلك الدفاع الملهم عن الفن والأخلاقيات. ثم ما يلبث أن يغرق في صمت كئيب. يقول له يوردان: «لم

تبخل بالكلام إلى هذه الدرجة؟ جميعنا عمال هنا، نعمل طوال النهار، ونأتي في المساء لنراك متطلعين لبعض اللهو والاسترخاء وأنت لا تتفوه بكلمة واحدة. هل يعقل ألا نظفر بأي شيء منك إلا بشراء كتبك؟» وهنا يبتسم جوجول ويتنهد ويقضم حبة كستناء دون أن يجيب.

كتب يوردان: «عليّ أن أعترف بأن اجتماعاتنا كانت مملة إلى درجة مخيفة، وأعتقد أننا كنا نجتمع لأننا اعتدنا على الاجتماع، ولم نكن قادرين على التفكير بالذهاب إلى أي مكان آخر» وبينما كانوا جالسين بتكاسل في أحد الأيام وأمامهم زجاجة نصف فارغة وهم صامتون، نصف نيام وقد عمتهم الكآبة بادرهم جوجول بالقول: «كأننا لوحة للحراس النائمين خارج قبر المسيح». ثم ما لبث أن أضاف بعد برهة: «حسناً أيها السادة، ألم يحن الوقت للانتهاء من هذا النقاش الأجش؟».

جاء فصل الشتاء وأخذ ياسيكوف يجلس مرتعشاً في غرفته ويشعر بالغضب من جوجول لأنه جرّه كل هذه المسافة إلى اللاشيء.

وقد كتب ياسيكوف لوالديه (في ٩ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٣) يقول: «إنه مغرم بتنظيم الأشياء وترتيب البيت، ولكنه يفعل ذلك بطريقة فوضوية يعوزها الأسلوب السليم. أما أنا فإنني أتجمع على نفسي وأرتجف وأتثاءب من البرد، بينما يتمشى جوجول حول الغرفة وقد ازرق أنفه ومع ذلك فهو يصرّ بأن الغرفة دافئة... وهو يظل مخدوعاً بالإيطاليين ويعتقد أنهم صادقون ويكن لهم أقصى غايات الاحترام. يلقي بنقوده من الشباك وهو ينطلق بسرعة ذاهباً آيباً مقتنعاً كل الاقتناع بأنه أحذق من الجميع، وأنه يشتري الأشياء بسعر أرخص ويغضب بشدة إن أثبت أحدهم أنه مخطئ».

عاد ياسيكوف إلى جاشتاين بعد فترة وجيزة ولكن بعد أن ابتز منه جوجول ألفي روبل كقرض. وما لبث أن نفد هذا المال بسرعة البرق وأخذ جوجول يواجه الهاوية من جديد. كانت تكاليف طباعة «نفوس ميتة» قد تجاوزت التقديرات

بكثير والأرباح الهزيلة للمبيعات أفردت لدفع ديون الكاتب في موسكو وسانت بطرسبرج. أما بالنسبة «للأعمال الكاملة» فقد كان بروكوبوفيتش يفيض بالنوايا الحسنة ولكنه يفتقر للخبرة ولذا فإن الأمور كانت تسير بشكل سيئ. وقد أجرى عليها الكثير من التصحيحات بحيث ضعف النص الأصلي. كما دفع ثمناً باهظاً للورق وتغاضى عن سرقته فيما يتعلق بحجم الطباعة. ونظراً لتكاليف الطباعة كان من غير المحتمل أن تكون العملية مجدية من الناحية التجارية. بل ربما كان على الكاتب وأصدقائه دفع جزء من التكاليف، فمن أين يأتي بهذا المال؟. كما أن الجزء الثاني من «نفوس ميتة» كان ما يزال في طي النسيان. اقتصرت ثروة جوجول على صندوق متاعه إضافة لأوراقه، «بعض البياضات وثلاث ربطات عنق». وكان قد تنازل منذ وقت طويل عن حصته في مزرعة فاسيلييفكا، وأمه وشقيقاته في وضع صعب ويأملن سنة بعد سنة بأن يتمكن من مساعدتهن. وكالعادة، لم يبق أمامه إلا مصدره الوحيد: أصدقاؤه! لقد منّ الله عليهم بنعمة أن يكون جوجول ضمن صفوفهم، ولذا فإن عليهم أن يخففوا عنه أية هموم وأن يؤمنوا معيشته مهما طال الزمن الذي يلزمه لإنتاج عمل فني جديد. فمن أجل أرواحهم عليهم أن يعتنوا بجسده... وكل ما سيفعلونه من أجله على وجه الأرض سيرتد إليهم مئة ضعف في العالم الآخر. وهم بخدمتهم له إنما يخدمون الله، وقد شرح ذلك في رسالة مطولة إلى شيفرييف (في ٢٨ شباط/فبراير ١٨٤٣) حيث يقول له: -

«عملي أهم وأكثر جدوى مما بدا لأول وهلة، وإذا كان الجزء الأول، الذي لا يغطي عشر مادة الجزء الثاني، تطلّب خمس سنوات من العمل - وهو ما لم يأخذه أحد بالطبع في الحسبان - فلك أن تحكم بنفسك كم سيستغرق الجزء الثاني. سأموت جوعاً، إن تطلب الأمر، ولكنني لن أنتج عملاً سطحياً وغير كامل. اقرؤوا هذه الرسالة معاً، أنت (شيفرييف وبوجودين وسيرجي تيموفييفتش (أكساكوف). إنني أطلب منكم تقديم تضحية، وعليكم أن تتحملوا هذه التضحية من أجلي. تحملوا جميع أعبائي المادية لثلاث أو ربما أربع

سنوات، وهنالك ألف سبب - جوهري وعميق - يبرّر لماذا عليّ ألا أهتم بمثل هذه التفاصيل. ثقوا بكلامي وهذا هو كل ما هنالك واتخذوا الترتيبات التي ترونها مناسبة فيما يتعلق بطبعة ثانية واي طبعات لاحقة، ولكن افعلوا ما يؤمن إرسال ستة آلاف روبل في العام ولمدة ثلاثة أعوام، وهذه أضيق ميزانية يمكنني وضعها. يمكنني إنفاق مبلغ أقل إن بقيت في مكان واحد، ولكن السفر وتغيير المشهد ضروريان بالنسبة إلي، مثل خبزي اليومي. فرأسي مركب بطريقة غريبة بحيث يتوجب عليّ أن أسافر لمسافة عدة مئات من الفراسخ قبل استبعاد صورة ما والعثور على بديل لها، أو إضاءة نظرتي الذهنية أو استجماع كل العناصر الضرورية للفكرة. من الواجب إرسال النقود على دفعتين: في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر. وفي الأول من نيسان/ إبريل بمعدل ثلاثة آلاف روبل في كل مرة للعنوان الذي أزودكم به، وأرجو بحق الله ألا تتأخر الدفعات. فالصعوبات المالية تصبح أحياناً غير محتملة في الخارج. فكروا بسبيل آخر إن لم تكن مبيعات كتبي تكفي، وإنني واثق من أنني حققت ما يكفي حتى الآن لكي استحق الفرصة لإنهاء عملي دون ان يتوجب عليّ أن أركض وأخضع للقلق حول الأمور المادية في وقت تصبح فيه كل دقيقة ثمينة بالنسبة إلي. فإن لم تكن لديكم الموارد قوموا بحملة جمع من أجلي، وسأتقبل المال بامتنان، ومهما كانت الطريقة التي يتم فيها تدبيره. وكل كوبيك يرمى لصالحي هو بمثابة صلاة لخلاص روح من يتبرع بها. ولكن لا تتقبل الكوبيك إن كان من يلقي به قد حرم نفسه من أجلي. لن أحرم أحداً من الضروريات لأنني لست أملك الحق في ذلك بعد».

هل يعني ذلك بأنه سينتفع بهذا الحق فيما بعد عندما يصبح تفوقه المعنوي ظاهراً للجميع؟ وحشية ألا يمتثل شيفرييف لهذه الأوامر فقد كرر توجيهها كلمة كلمة تقريباً في رسالة إلى أكساكوف: ستة آلاف روبل سنوياً لثلاثة أعوام، في مواعيد ثابتة حيث يقول له: «اجتمعوا ثلاثتكم، أنت وشيفرييف وبوجودين وتولوا شؤوني لثلاثة أعوام، فهذا موضوع حياة أو موت بالنسبة إلي. فإن لم تعثروا على المال في الوقت اللازم تدبروه عن طريق الصدقة إن استدعى الأمر. إنني متسول، ولست أخجل من ذلك».

لم يكتف بإصدار الأوامر لأصدقائه بالإنفاق عليه بل حضهم على تقديم النصح لامه وشقيقاته. فقد كانت ماريا إيفانوفنا تتخيّل، خطأً، بأن نجاح «نفوس ميتة» جلب مبالغ خيالية وأن بإمكان ابنها بالتالي أن ينقذها من حالة الفقر.

وهو يتابع في رسالته إلى أكساكوف (في ١٨ آذار/ مارس ١٨٤٣): «دعوها تدرك بأن المال لا يتدفق عليّ أنهاراً غزيرة وبأن تكاليف طباعة الكتاب أعلى من أن تسمح لي بأن أصبح غنياً في أي يوم من الأيام. فإن كان قد تبقى أي مال أرسلوه إليها، ولكن عليّ أن أقول لكم بأن أمي، على الرغم من كل صفاتها التي تدعو إلى الإعجاب فإنها سيئة الإدارة وطلباتها قد تتجدد كل عام، ولذا فإن النصيحة الذكية لها من جانبكم ستكون أجدى من المساعدة المالية».

اشمأز بوجودين الذي لم يعد ميالاً لجوجول منذ أن أقام في بيته آخر مرة من هاتين الرسالتين، بينما أحرجتا أكساكوف وشيفرييف إحراجاً عميقاً. إذ على الرغم من أن الكتاب كان يباع بشكل جيد فإن «نفوس ميتة» لم تكن لتحقق أية أرباح في القريب العاجل، وهذا ينطبق على «الأعمال الكاملة» التي كانت قد أقرت لتوها من قبل الرقيب ولكنها كانت ستباع بسعر غال (خمسة وعشرين روبلاً للمجلد الواحد)(١) مما يحول دون شرائها من قبل العدد الكبير من القراء. كما أن أياً من الأصدقاء الموسكوفيين هؤلاء لم يكن غنياً. لم يكن جوجول يرى الأمور إلا من وجهة نظره هو دون أن يفكر بمشكلات الآخرين. غير أنه لا يمكن أن يسمح لرجل له مثل موهبته بأن يموت جوعاً في بلد آجنبي. سحب أكساكوف، وهو يشتكي ويحتج، ألفاً وخمس مئة روبل من مدخراته، واستدان مبلغاً مماثلاً من صديقة هي السيدة ديميدوف وارسل ثلاثة آلاف روبل إلى روما.

ضمت الأعمال الكاملة، التي نشرت في أربعة مجلدات، نصوصاً قليلة لم تكن قد نشرت من قبل، بينها مسرحية كوميدية تحمل عنوان «زواج» وبعض «المشاهد المقتطفة» (المقامرون، القضية، قاعة الخدم، لدى مغادرة المسرح الخ. . .) وقصة قصيرة هي «المعطف».

(١) وهذا يساوي حوالي ثلاثين دولاراً.

جرى العرض الأول لمسرحية «زواج» في سانت بطرسبرج في (٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٣) عندما كان جوجول قد وصل إلى روما. وقد علم، دون أن يحسّ بمرارة شديدة، بأن تمثيلها كان سيئاً وأنها استقبلت استقبالاً سيئاً. وما لبث أن بدأ عرضها في موسكو في (٥ شباط/ فبراير ١٨٤٣)، ولعب شيشبكين وجيبوكيني الدورين الرئيسيين، غير أن المسرحية كانت محبطة للجمهور أيضاً. وعلى نحو مماثل، لم تحظ مسرحية «المقامرون» التي وضعت على الإعلان نفسه مع مسرحية «زواج» بشعبية كبيرة.

كان جوجول قد قضى تسع سنوات في كتابة مسرحية «زواج» (كتب النسخة الأولى في عام ١٨٣٣ والأخيرة في عام ١٨٤٢) ليعدّل مشهداً هنا ويضيف شخصية هناك. وقد بذل جهوداً مضنية لحشو الحكاية (خاطب متردد حاول صديق له أن يجبره على الزواج، ولكنه يهرب في اللحظة الأخيرة لكي لا يسمح لنفسه بأن يُقيّد)، ولكنه لم يعلق إلا القليل من الاهتمام على ما بذله من جهد. فمسرحية «زواج» لم تكن بالنسبة إليه، ولا بالنسبة إلى أصدقائه، أكثر من «مزحة» قد تسلّي الجمهور، ولا يوجد في الحقيقة أي مجال للموازنة بينها وبين عمله الفني الوحيد والقريب والمتألق، أي «المفتش العام». غير أن مسرحية «زواج» تحوي شخصيات مضحكة تعبّر عن ضعف في شخصيتها وعن بيئة اجتماعية معينة وكأنما لا يستطيع جوجول أن يكتب شيئاً عادياً ومبتذلاً.

المجتمع في هذه المسرحية هو مجتمع تجار المدينة، والذي استثمره «أوستروفسكي» بنجاح في النصف الثاني من ذلك القرن... وهنا يظهر جوجول مجدداً حيث فتح الطريق للكوميديا الاجتماعية والتي تستهدف رفع السقوف أكثر مما تستهدف تقديم حبكة حاذقة. وقد كان لخاطبي «أجافيا»، الفتاة التي سيتم تزويجها، أن يجتمعوا ثانية بعد خمسين سنة في البعض من قصص الكاتب «تشيخوف». بطل هذه المسرحية هو «بود كوليوسين» الذي يعتقد أنه ربما كان عليه أن يتزوج ولكنه لا يجرؤ على خوض هذه التجربة ولا يسعده إلا أن يتمدد على مقعده الطويل وهو يرتدي «الروب دوشامبر» ويدخن غليونه – هذا

البطل في كسله وتردده إنما هو سلف «أبولوف» الشهير، بطل «جونشاروف». يقرر صديقه المغامر «كوتشكاريوف» تزويجه دون مساعدة من الخاطبة المحترفة «فيوكلا» التي كانت قد قررت من قبل قبوله كزبون. يجرجر بودوكوليوسين ليرى الفتاة، ويقوم بمناورات إلى أن يقنعها بأنها لن تجد زوجاً أفضل، ويقنع خاطبيها الآخرين في نفس الوقت بأنها لا تصلح كزوجة مناسبة. ومن بين هؤلاء الخاطبين «يايشنيتسا»، موظف المالية وهو إنسان واقعي لا يهمه شيء إلا الحصول على الدوطة (ما تقدمه العروس للزوج)، و»أنيوشكين، ضابط المشاة المتقاعد الذي يريد خطيبة حسنة التعليم تتكلم الفرنسية، وجيفاكين ضابط البحرية السابق الذي يريد زوجة ذات مزايا جسدية. غير أن بودكوليوسين، مدعوماً بقوة من قبل «كوتشكاريوف» يتميز عليهم جميعاً. غير أن الشكوك تداهم العريس السعيد من كل جانب في لحظة انتصاره ذاتها: «حياته كلها، وجوده برمته، مرتبطاً بإنسان آخر، وبعد ذلك لا شيء، لا مزيد من الأسف... لا مهرب بعد، لا شيء، انتهى كل شيء، وقيل كل شيء..» وما يلبث أن يستكشف نافذة مفتوحة، فيقفز إلى الشارع ويصعد إلى داخل عربة - يهاجم سائقها قائلاً امض في طريقك - ويمضي عدواً - شأن خليستاكوف في «المفتش العام» وتشيشيكوف في «نفوس ميتة».

تتمع هذه المسرحية الهزلية الساحرة بحيوية، وهي مرسومة بصورة تجعل من شخصياتها، بمن فيهم العريس المتردد، وصديقه معسول الكلام، والخاطبة مجروحة المشاعر، والخاطبون ذوو الشخصيات المتنافرة، والعروس المضطربة الذاهلة، حيث تجعل منهم جميعاً يشكلون باقة ذات عبير لا ينسى.

«زواج» مسرحية تقوم على تعقيد المواقف دون وجود حبكة، بينما «المقامرون» وهي عبارة عن مسرحية قصيرة تعرض قبل عرض المسرحية الأصلية، فلا شيء فيها إلا الحبكة. فالسرعة في الحركة، والانعكاس المباغت في تتابع الأحداث، والحل المفاجئ للعقدة يجعل منها نموذجاً لهذا النوع من المسرحيات. من المؤكد أن موضوع النكتة ينتسب لقصة «المقامر» لريجنالد» و «ثلاثون سنة»

أو «حياة مقامر» بقلم «دوكانج ودينو»، ولرواية روسية غير معروف عنوانها: «حياة مغامر كما يصفها هو نفسه»، والعديد من القصص الكوميدية التي كانت شائعة في تلك الفترة. غير أن حوار جوجول الحاد يعطي العمل رنّة جمالية لايرقى إليها الشك أو الاتهام. كان الممثل شيشيبكين هو الذي روى الحكاية الأساسية حول شخص غشاش في لعب الورق يعمد لغش بعض اللاعبين، يعتقد أنهم سذج ليتبين له بأنه وقع في وسط مجموعة محتالين يملكون ما يملك من خبرة، ولذا فهو يقترح تحالفاً معهم ليقوموا معاً بعملية كبيرة، ويترك وهو يحمل الحقيبة. من الواضح ان هذه المسرحية التي كتبت لإثارة جمهور يتصف بالبراءة إنما هي مثل آخر على هوس جوجول بشخصية المخادع، فهو يعود، وربما دون وعي، إلى موضوع الكاذب المبتهج بالنصر. شخص يخدع الناس بالادعاء بأنه شخصية مهمة، وآخر يبتاع نفوساً ميتة، وثالث يغش في لعب الورق، وينتهي الأمر كله، شأنه دائماً، بفرار «الوغد». «ذهبوا! كانت العربة في انتظارهم في الأسفل منذ نصف ساعة».

وهنا يعلن «إيخاريف» المخدوع المنهوب المغزى من هذا الحظ العاثر: «هنالك دائماً وغدٌ أكثر قذارة منك! وحش يهدم بضربة واحدة الصرح الذي ظللت تعمل على بنائه لسنوات! يا إلهي، فليأخذني الشيطان! أي مجموعة من الأكاذيب هو هذا العالم!».

قصة «المعطف»، وعلى العكس من هاتين المسرحيتين الكوميديتين المرحتين أعمق قصص جوجول القصيرة وأكثرها إثارة للمشاعر. ففيها لمسة إنسانية، وسخرية تتسم بالحزن وخصيصة غامضة تثير القلق. وقد استلهم منها دستويفسكي تعاطفها مع الضعفاء في روايته «مذلون مهانون» وفي الكثير من رواياته الأخرى. وكتب فيما بعد وهو يتحدث عن نفسه ومعاصريه: «كلنا خرجنا من معطف جوجول». تستند الحكاية على قصة حقيقية رواها عدد من الأصدقاء لجوجول في عام ١٨٣٢، وهي تدور حول سوء حظ موظف صغير يتمكن، بعد الكثير من التضحيات، من شراء بندقية صيد. ولكنه يضيّعها في

أول مرة يخرج فيها للصيد مما يغرقه في حالة من اليأس بحيث أن زملاءه يجمعون ما بحوزتهم من نقود ليشتروا له بندقية أخرى. من الممتع كيف حوّل الكاتب تلك القصة لتتلاءم مع أسلوبه الخاص. وعلى هذا فهو يستبدل البندقية -وهي مجرد ترف- بمعطف، وهو من الضروريات. لا يضيع بطل القصة أثمن ما يملكه بل يسرق منه، ولا يجد أصدقاء عطوفين ليساعدوه في محنته، بل يُواجَه بعدم الاكتراث من كل جانب، وهو لا يتغلب على هذا الفقدان بل يموت. وبذا فإن القصة الأصلية تمر عبر ذهن جوجول لتصبح أكثر حقارة ولؤماً وعدم واقعية. بدأ كتابتها عام ١٨٣٩، وصقلها في عامي ١٨٤٠ و ١٨٤١ حيث يجعل البطل أكاكي أكاكييفتش باشماشكين أكثر حدة.

اسمه المضحك (فكلمة باشماك تعني «الخف» الذي يلبس فوق السجاد)، هي في حد ذاتها رمز لأن الجميع يدوسون على أكاكي أكاكييفتش. إنه كاتب شاحب، ينسخ الأوراق باستمرار، دوماً في مكان عمله، وظل يمارس الشيء ذاته لمدة طويلة وبانتظام بحيث يبدو كأنه كان موجوداً هناك دائماً، وبأنه «ولد وهو أصلع الرأس يرتدي بزة العمل ذاتها». وقد أصبح كبش الفداء لزملائه الذين يضحكون منه ويضايقونه بسخريتهم، وهو يحتج بوهن بين الفينة والفينة قائلاً: «دعوني وشأني! ماذا فعلت لكم؟».

سعادته الوحيدة في الحياة تقوم على نسخ التقارير. وهو يحب بعض الحروف الهجائية أكثر من غيرها ويمتلئ حبوراً عندما يكتبها. «وهكذا كان بإمكانك أن تقرأ على سيماء وجهه الحرف الذي يرسمه على الورق». ولم تعد لديه حتى مجرد الرغبة في الترويح عن نفسه في اجتماعات الأصدقاء المسائية ويظل مستغرقاً كلياً في حالة حالمة لذيذة تتركز على الحبر والورق، غير أن حالة من الفوضى تنتاب هذه الحياة الرتيبة المنطوية على الذات لذلك الشخص غريب الأطوار الذي يتقدم في العمر، حيث يداهمه حادث جلل. إذ إن معطف أكاكي أكاكييفتش أصبح بالياً بحيث صار مجبراً على السعي للحصول على معطف آخر. كان جوجول هنا يستذكر دونما شك فترة فقره الشديد في عام ١٨٣٠

حين كان يرتجف من البرد وأعطاه «حاميه» «تروشسنسكي» معطفه في النهاية. يتخذ شراء معطف جديد أبعاد حدث تاريخي في ذهن أكاكي أكاييفتش، إذ يأخذ بتوفير المال من أجل ذلك اليوم المصيري الموعود. يقلع عن شرب الشاي، ويتوقف عن استخدام الشموع، «ويمشي على رؤوس أصابعه لكي لا يبلى نعل حذائه»، ونادراً ما أخذ يأكل وجبة حتى الشبع. «وبما أنه أخذ يحلم بمعطفه المستقبلي باستمرار أصبح هذا الحلم بمثابة اغتذاء له، وإن كان اغتذاءً روحياً، بل والأكثر من ذلك أن وجوده نفسه (أي المعطف) أصبح موضع اعتبار، إذ يحس المرء بوجود مخلوق آخر إلى جانبه، وكأنه رفيق ودود وافق على أن يجوب طرق الحياة معه. أصبح أكثر نشاطاً وحزماً، بما يتماشى مع إنسان يتبنى هدفاً له في الحياة. كان شعاع صغير يظهر أحياناً يشع من عينيه وتمر أفكار بمنتهى الجرأة، بل وجنونية في رأسه: ماذا لو أن فرو السمور يغطي ياقة المعطف؟».

وفي النهاية أصبح بإمكانه، بعد أن وفر المال كوبيكاً وراء كوبيك، أن يوصي على المعطف الذي كان قد ناقش تكراراً لون وطراز خياطته مع الخياط. هاهو يرتديه والذهول يغمره: بمستوى الكمال! خفة وزن هذا الشيء الذي يحس به بحواسه على كتفيه يثير لديه فوراً شعوراً بالغبطة يجعله ينفجر في ارتعاشات ضحك صغيرة وهو يمشي. غير أن الكارثة تضرب ضربتها فجأة. ففي وسط مساحة فسيحة مهجورة يغلفها الضباب تهاجمه مجموعة من اللصوص ويسرقون معطفه. يعصف به الحزن بحيث يشعر هذا الرجل المسكين وكأنه فقد زوجته. لقد ذهب سبب حياته. يقدم شكوى، ومن ثم يشرح وضعه لشخص مهم، «صاحب سعادة» قيل له إن تدخله من شأنه أن يسرّع في تحقيقات الشرطة.

يستقبله صاحب السعادة ببرود جليدي بحيث يتراءى له بأنه سيغمى عليه فزعاً. وتداهمه نزلة برد في الشارع ويموت بعد أيام قليلة بعد أن هجره الجميع. «حملوا الجثة ودفنوها في التراب وبقيت سانت بطرسبرج دون أكاكي أكاكيفيتش. اختفى ذلك المخلوق الذي لم يتواجد من يدافع عنه ولم يبدِ أحد نحوه أية عاطفة أو اهتمام مهما كانت هذه العاطفة أو كان هذا الاهتمام ضئيلاً.

وقد تم استبداله على الفور في اليوم التالي، والكاتب الجديد الذي حلّ محله كان أطول منه بكثير ويكتب بخط مائل»:

هنا ينتهي عمل جوجول كواقعي، وعلى الخط التالي يبدأ عمل جوجول الشبحي، إذ إن شبح أكاكي أكاكيفيتش يتابع من حيث انتهى الرجل الحي. يأخذ شبح هذا البيروقراطي الصغير في التردد على المنطقة المجاورة لجسر كالينكين ليبحث عن ملكيته المفقودة حيث يسلب المشاة معاطفهم «سواء أكانت هذه المعاطف محشوّة، أو مبطنة أو كانت ياقاتها من فرو القطط أو السمور». وفي إحدى الأمسيات يهاجم «الشخص المهمّ الذي كان قد طرده من قبل وينزع عنه قبعته المبطنة بالفراء فيعود «الشخص المهمّ إلى بيته وقد تاب وعاد إلى الصلاح. وبعد هذه المناوشة يتوقف شبح الموظف عن سلوكه الغريب إذ ربما أرضت رغبته قبعة سعادته المبطنة بالفرو.

هذا التبدل المفاجئ بين الواقعية وبين ماهو فوق الطبيعة ليس بالحدة التي يبدو عليها لأول وهلة، إذ حتى في الجزء الأكثر واقعية يوفر حشد من التفاصيل المتضاربة خلفية من الأمور الغريبة. تحدث قصة أكاكي أكاكيفيتش على مستويين. فنحن نتأمل على السطح صورة مخلوق مضطهد مهان يصطدم بالعجرفة البلهاء لرؤسائه. ويمكن رؤية الحكاية كلها كهجاء للبيروقراطية الروسية، أو بالأحرى كاحتجاج ضد الظلم الاجتماعي. غير أنه تكمن خلف هذه الصورة نصف الساخرة ونصف المتعاطفة مع هذا الإنسان، وهو شبه رجل يلطخ الحبر أصابعه تكمن السلطة الغريبة للقوى غير العاقلة. إن إلغاء أكاكي أكاكييفتش هو من نمط يجعل منه، حتى إبان حياته، شبه إنسان أتوماتيكي، «روحاً ميتة».

فكرة جوجول عن معطف جديد في عالم اللاجدوى هذا، حيث يكافح الرؤساء والمرؤوسون من أجل امتلاك لعبة أحلى من التي سبقتها، فكرة جوجول هذه إنما تلهب فكره بعاطفة غامضة. فنحن الذين كنا لتوّنا نبتسم ابتسامات عريضة ساخرين من هذا التفاوت بين ذلك الشيء العادي المبتذل الذي يرغب فيه بطل القصة وبين افتتانه المبالغ به بهذا الشيء، ما نلبث أن ندرك فجأة بأن

ما نفتتن به نحن ليس أقل تفاهة في الكثير من الأحيان. وإذا ما أمعنّا النظر في حياتنا فإننا نتوصل إلى قناعة بأنها مليئة بالدوافع التي يعوزها التفكير السليم إزاء هذا الهدف أو ذاك، دوافع لا تتوقف... وما إن يتحقق لنا ما كنا نصبو إليه حتى يصيبنا بخيبة أمل. إننا نفترض بأننا نكرّس أنفسنا لمهمات ذات أهمية أساسية بينما نحن ننتقل في الواقع، وباضطراد من «معطف» إلى «معطف» آخر متجهين إلى نهاية مريعة لا نفكر فيها قط. غير أن نفس العالم الآخر الذي يبعث على القشعريرة يمزق نسيج أيامنا بين وقت وآخر. فإن كان هناك ما يغرينا بنسيان ذلك فإن نظرة إلى جوجول تكفي لكي نتذكر. فالعالم الظاهر الذي يصفه بكل تفاصيله هو مجرد تمويه ضعيف للعالم غير المرئي الذي ينبت منه أبطاله. فأكاكي أكاكييفتش، شأنه شأن تشيشيكوف، يتكون نصفه من لحم ودم ونصفه الآخر من الدخان – وهذا يبرهن على التفاهة واللاجدوى اللذين يفسدان كل فعل إنساني.

أحدثت الأعمال الكاملة انقساماً مماثلاً بين النقاد مثلما كانت قد سببته لدى ظهور كل جزء من هذه الأعمال. جدد كل من بلجارين وسينكوفسكي وبوليفوي هجومهم على الكاتب بحقد أشد حيث قارنوا بينه وبين «بول دي كوك» و»بيجول–ليبرون». وبالمقابل أخذ كل من ذوي الميول السلافية وذوي الميول الأوربية – كل بطريقته – ينسجون له أكاليل من الغار.

كتب بيلنسكي في «حوليات الوطن» (عدد شباط ١٨٤٣) يقول: «يشكل هذا العمل في اللحظة الحاضرة مفخرة وشرفاً للأدب الروسي».

مثل هذه التأكيدات كانت تدفع جوجول للابتسام. فكل ما نشره لايساوي شيئاً بالمقارنة مع ما يعده الآن. ولكي يعدّ نفسه لهذا الإبداع الرئيسي أخذ يقرأ الإنجيل و»محاكاة المسيح» و «تأملات» و»ماركوس أوريليوس». وقد قال عن هذا الإمبراطور الروماني كبير القلب «أقسم أمام الله بأن ما ينقصه هو أن يكون مسيحياً».

ادخر له الله الذي كان يصلّي له بكل حماس فرحاً كبيراً في نهاية شهر كانون الثاني/ يناير ١٨٤٣ ، إذ انتقلت إلى روما صديقته الرقيقة التي لاتضاهى ، أليكساندرا أوسيبوفنا سميرنوف حيث استأجرت قصر فالينتيني في ساحة ترايانا. كان جوجول قد تعاون مع أركادي أوسيبوفيتش روزيت ، شقيق السيدة سيمرنوف ، في إنجاز كل الترتيبات اللازمة قبل وصول السيدة الشابة. وعندما نزلت هي وأبناؤها من العربة عند المغيب وجدت نفسها أمام صرح جميل ذي نوافذ تتألق بالأنوار ، وظهر جوجول في منتصف الدرج متألق الوجه باسط الذراعين.

صاح بغبطة[١]: «كل شيء جاهز! العشاء بالانتظار. لقد قمت وأركادي أوسيبوفيتش بكل الترتيبات. أنا عثرت على المنزل. الهواء ممتاز في هذا الجانب من المدينة». «الكورسو» قريب وأفضل ما في الأمر أنك قريبة من الكوليسيوم».

عاد في اليوم التالي وسحب من جيبه جدولاً يحمل عنوان: «رحلة أليكساندرا أوسيبوفنا» ، يحوي جولات يومية على القصور والآثار والمتاحف في روما على أن تنتهي كل جولة بالحج إلى كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان حيث كان هناك الكثير مما يتوجب رؤيته – على الرغم من أن واجهتها تبدو مثل «خزانة ذات أدراج» كما وصفها جوجول. أخذت السيدة سيمرنوف تجاهد بحماس لتلحق بدليلها الذي لا تكل ساقاه ولا تخيب ذاكرته. كان يرتدي دائماً قبعة رمادية وصدرية بلون أصفر فاتح وسروالاً بنفسجياً خفيفاً يذكر بطبق من «الفراولة مع الكريما». كان يعرف المدينة معرفة جيدة بحيث أن مرافقته قالت إن بإمكانه إعطاء دروس لأي أستاذ جامعي. غير أنه كان يطلب إعجاباً لا تحده حدود ، وقد غضب عندما وجد أنها لم تكن متحمسة بما فيه الكفاية للوحات الجصية الجدارية في «الفارنيز» واعتبر ذلك إهانة شخصية له. ولكنه امتدحها لأنها فتحت فمها دهشة لدى رؤية تمثال «موسى» لمايكل أنجلو. وتساءلت وهي

(١) وصف للسيدة سمير نوف كما روته لكوليش والذي أورده في كتابه «ملاحظات حول حياة جولول». .

تجلس إلى جانبه في مدرج الكوليسيوم وأنا، ماذا كان يرتدي بيرون (الإمبراطور الروماني الذي حكم روما فيما بين عامي ٥٤ - ٦٨ ميلادي) حين ظهر أمام الجماهير. أغاظه هذا السؤال فزمجر قائلاً: «لماذا تزعجينني بهذه الحثالة؟» وما لبث أن هدأ من انفعاله وأضاف: «دخل نيرون، الخنزير، الكوليسيوم وتوجه إلى شرفته وهو يضع فوق جبينه تاجاً من الغار ويلقى على كتفيه معطفاً قصيراً على طراز الفرسان الرومان وينتعل صندلاً مذهّباً. كان طويلاً جداً، وسيماً وموهوباً إلى درجة كبيرة. أخذ يغني ويعزف في نفس الوقت على القيثارة، وقد رأينا تمثاله المطابق له في الفاتيكان». كانوا يستأجرون حميراً بالنسبة للرحلات الأطول، وقد ائتمن جوجول نفسه بكل سرور للخطوات المطمئنة لهذه الحيوانات التي أحبها المسيح. وفي الريف المحيط بروما كان يجمع الأعشاب، وينصت لتغريد الطيور أو يستلقي على الأرض وهو يدمدم: «فلننس كل شيء وننظر في السماء!» أو «ما منفعة الكلام؟ علينا أن نتنفس، أن نستنشق هذا الهواء المنعش وأن نشكر الله لوجود هذا الجمال في العالم».

كان كثيراً ما يزور السيدة سميرنوف في قصرها «فالينتيني» في الأمسيات فيجلسان مقابل بعضهما وهما يتناوبان القراءة بصوت عالٍ. وفي أحد الأيام، وبينما كانت السيدة سميرنوف تقرأ بانفعال كتاب «جورج صاند»: «رسائل مسافر» أخذ جوجول يظهر أمارات نفاد الصبر وتنهد وفرقع بمفاصل أصابعه ثم قاطعها ليتساءل فيما إن كانت تحب آلة الكمان. وعندما أجابت بالإيجاب تابع يقول: «وهل تحبين سماعها وهي تعزف على نحو سيئ؟» فجورج صاند، في رأيه، تحشو وصفها للطبيعة بأوصاف زائفة، وليس هنالك ما يمكن له أن يغيّر رأيه في هذا الموضوع. وفي كل تعاملاته مع السيدة سيمرنوف كان يبدي قناعات لا تتحمل أي جدل. عاد في إحدى المرات للحديث عن الرحلة التي ادعى أنه قام بها لإسبانيا. ذكّرته بأنها أثبتت من قبل زيف ما يقول حول هذه النقطة فأجابها: «حسناً، إن كنت تريدين الصدق فأنا لم أذهب إلى إسبانيا قط ولكنني ذهبت للقسطنطينية، وهو ما لم تعرفيه على الإطلاق!» وهنا أخذ يصف

العاصمة التركية بكل دقة وكأنه عاد من هناك بالأمس، ذاكراً أسماء الشوارع، ومعدداً كنوز المساجد، ومتحدثاً بابتهاج غامر عن القهوة التركية، ودمعت عيناه حول الوضع المؤسف للكلاب الشاردة، ممرّراً كلمات حول الأسرار التي يمكن استنباطها وراء النوافذ المشبكة لبيوت المسلمين. وقد تابع هذا الحديث على مدى نصف ساعة بحيث سحر السيدة سيمرنوف وأقنعها فقالت (كما يذكر كولش): «إنني واثقة الآن بأنك ذهبت إلى القسطنطينية»، فأجابها جوجول والتماعة عابثة تظهر في عينيه: «أترين كم من السهل خداعك، فأنا لم أذهب قط إلى القسطنطينية، ولكنني رأيت إسبانيا والبرتغال!» وهنا تساءلت السيدة سيمرنوف في داخلها فيما إن كان لا يقول الحقيقة.

على الرغم من أنه تابع ممارسة ألاعيبه الصغيرة التي تحوي الصدق والكذب في آن معاً فقد ظلت تعتبره معلماً وناصحاً. كان دليلها في أمور الحياة، تماماً كما كان في شوارع روما. كما أنه لم يعد يعذبها بتعليقاته بعد، بل أخذ يتبنّى نبرة أبوية وواعظة في حديثه معها، وهو ما كان مناسباً لها تماماً. أخذ يحثها على أن تصبح مسيحية أفضل، وأن تتخلى عن الارتباطات الاجتماعية التافهة وترعى روحها، تماماً كما تتم رعاية شجرة ورود نفيسة، وعند أقل استفزاز يخرج كتاب «محاكاة المسيح» من جيبه ويقرأ مقتطفاً منه بسرعة.

باقتراب عيد الفصح قرر الالتزام الصارم بالصيام. غير أن الكنيسة الكاثوليكية فقدت إغراءها له. كان افتتانه بالمذهب الكاثوليكي البابوي قد تدّفق من هيامه بالمدينة المقدسة، أما الآن، وبانسحابه من العالم الخارجي فقد أخذ يذوي افتتانه بالديانة الغربية وتحوّل من جديد إلى ديانة بلده. وما دام قد كرّس عمله لعظمة روسيا فعليه العودة إلى الأرثودوكسية، دين أجداده، وإلا فإنه سيكون خائناً لمهمته. أخذ يذهب للصلاة في الكنيسة الأرثودكسية الصغيرة للسفارة الروسية، وقد أدهش السيدة سميرنوف، التي كانت ترافقه في بعض الأحيان، أن تراه يتنحى جانباً عن جميع المصلين ليغرق في تأمل وحده أمام

إحدى الأيقونات. وأخذ يتحدث من جديد عن رحلته إلى القدس. وكان قد كتب لأكساكوف (في ١٨ آب/ أغسطس ١٨٤٢) يقول: -

«كيف يمكنك أن تتصور ألا تتولد في صدر إنسان عرف لحظات من الحياة السماوية ولاحظ عن طريق الحدس ذلك الحب، ألا تتولد في صدره الرغبة في رؤية الأرض التي وقف عليها المسيح - أول إنسان ينطق بكلمة الحب للبشر- الأرض التي انتشر منها ذلك الحب إلى باقي العالم؟ أدرك بأنك دهشت حين كشفت عن نيتي تلك أول مرة. أفلا يبدو غريباً لأقصى درجة أن يعمد إنسان دفع وما يزال يدفع أقرانه من الناس إلى الضحك، ويعتقد بأن من المهم إلقاء الضوء على الأمور غير المهمة، وأن يظهر فراغ الحياة - ألا يبدو غريباً جداً لمثل هذا الإنسان أن يتجشم عناء مثل هذه الرحلة؟ ولكن، ألا يحوي هذا العالم الكثير من الأمور الغريبة؟ تحدس روحي بتلك السعادة البالغة الآتية، وتعرف أننا لا نحتاج إلا لنمد أيدينا إلى تلك السعادة لتتنزل النعمة الإلهية المقدسة على أرواحنا. هذا هو ما يريد أن يقوله لك هذا الإنسان الذي يحمل الناس على الضحك».

ظل جوجول يفكر بهذه الرحلة إلى الأراضي المقدسة، ولكنه لم يكن على عجلة من أمره للقيام بها. ولكنه كان يخطط لرحلات أقصر واقل ورعاً. وكانت السيدة سميرنوف قد هجرت روما وتوجهت إلى نابولي في شهر نيسان/ إبريل ١٨٤٣، ولذا أدركه الملل فجأة وأخذ يشعر وكأنه اليتيم في ستراددا فيليس ١٢٦، فتوجه إلى البندقية في الأول من أيار/ مايو، ثم توجه عن طريق بولونا، ومودينا، ومانتوا، وفيرونا، وترنت، وانزوبوك وسالزبورج شاقاً طريقه بعربة السفر إلى جاشتاين حيث وجد «ياسيكوف». وبعد أن قضى أسبوعين مع هذا الرجل المريض توجه إلى ميونيخ، ومن هناك كتب لبروكوبوفيتش الذي كان قد تجرأ على التساؤل فيما إن كان المجلد الثاني من «نفوس ميتة» سيكون جاهزاً للطباعة قريباً: -

«يبدو كأنك تظن بأن «نفوس ميتة» هي مجرد قالب «بانكيك» يمكنك إعداده بنقرة من رسغ يدك. الجزء الثاني ليس غير جاهز للطباعة فحسب، بل إنه لم يكتب بعد، ولن يرى النور لعامين قادمين، هذا إن لم تخنّي قواي خلال تلك الفترة».

بعد أن أرسل هذه الرسالة توجه إلى فرانكفورت حيث كان جوكوفسكي يعيش مع زوجته الشابة الفاتنة، الحزينة، المريضة. توجهوا ثلاثتهم من هناك إلى «فيسبادن» ثم إلى «إيمز» ليشربوا ماءها. ولكن السيدة سميرنوف ما لبثت أن وصلت إلى بادن - بادن، فأي أهمية لمئة وخمسين ميلاً بالنسبة لقلب يفيض عاطفةً؟ ارتحل جوجول في أشد أيام تموز قيظاً حيث شرب الماء في بادن - بادن، واغتسل بتعابير عيني السيدة سميرنوف الكئيبتين الحانيتين، وقرأ لها بعض مقاطع الإلياذة، واشتكى بأنه غير قادر على أن يكتب شيئاً. ثم قفز إلى «كارلزروهيه» المجاورة ليسلّم على ميكيويش، ومن ثم إلى دوسلدورف مع جوكوفسكي وزوجته. هذا التنقل المستمر لم يكن نابعاً عن رغبة في تغيير المشهد، إذ لم يعد يكترث للنظر إلى المشاهد التي تمر في طريقه.

كتب لدانييلفسكي (في ٢٠ حزيران/ يونيو ١٨٤٣) يقول: «كنت أود لو استمتع بعطر الربيع العذب ومشاهد الأماكن الجديدة. غير أنني لم أعد قادراً على مثل هذه المشاعر. بل إنني، على العكس، أعيش منعزلاً تماماً، مستغرقاً بالتفكير بذكرياتي، وشعبي، وبلدي، وكلها أحملها في داخلي وتصبح أقرب وأقرب إليّ مع كل دقيقة تمر».

كتب فيما بعد لدانييلفسكي (في ١٣ نيسان/ إبريل ١٨٤٤) يقول: «لست أبالي بما يحيط بي، ولست أسافر في أغلب الأحيان إلا للالتقاء بالناس الذين تتطلب روحي الالتقاء بهم».

من المؤكد أن أحد هؤلاء هو جوكوفسكي، واسع الاطلاع، رقيق القلب الذي يجاهد للتغلب على مصادر قلقه حول صحة زوجته، وترجمته

الشعرية للأدويسا. في دوسلدورف أخذ جوجول يحاول تقليده وشرع يعمل على «نفوس ميتة». ولكن رأسه كان ثقيلاً وكأنه الرصاص. كانت همته قد تثبطت بسبب الأعمال الكاملة التي تلقى في النهاية نسخاً قليلة منها. كان الورق رقيقاً جداً والحروف صغيرة أكثر مما يجب والمجلدات صغيرة وخفيفة مقارنة بثمنها. هل هذا هو كل ما كتبه خلال إحدى عشرة سنة؟

مرحلة الكسل الراهنة لديه والتي جاءت بإرادة سماوية لم تمنعه من إصدار أحكام جازمة تتعلق بأصدقائه وأقاربه. وعلى الرغم من أنه لم يكن قادراً على متابعة العمل على قصيدته فإنه لم يكن يفتقر للطاقة التي تمكنه من تعنيف أحدهم في رسائله. كان يحث من يراسلهم على إصلاح أساليبهم وعلى قراءة «آباء الكنيسة» والثقة بكلامه. أنّب دانييلفسكي لخضوعه لإغراءات المجتمع البراقة، بينما كان يطأ الطريق الضيق للاستقامة، وهو يقول له في رسالة (في ٢٠ حزيران/ يونيو ١٨٤٤) «لم تشرع بعد في انتهاج حياة داخلية. لا، لم تحسّ بعد بالأهمية السحرية والمرعبة لكلمة «المسيح».

ولشفرييف كتب (في ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٨٤٣): «ويل لمن يقف حارساً كشعلة الحقيقة ويسمح لنفسه بأن ينجرّ للهياج المحيط به».

ولكن أمه وشقيقاته كنّ من يتلقين أكثر مواعظه حزماً. وهو يقول في رسالة (في شهر نيسان/ إبريل ١٨٤٣): «أتحوّل الآن إلى شقيقاتي: تتصور إحداهنّ بأن لا التزامات عليها ولا عمل لها، وأنها ولدت لغرض وحيد، وهو أن تقعد عاطلة عن العمل، عديمة الجدوى والكفاءة. . . . وواجبها فقط هو أن تحمي نفسها من الأذى. والثانية تستسلم لأحلام اليقظة وتنظر إلى الواقع باحتقار وتفترض بصورة لا عقلانية بأنه ليس بإمكانها أن تجد السعادة إلا في مكان آخر غير ذلك الذي توجد فيه. أما الثالثة فقد دخل في ذهنها أنها غبية ولا فائدة منها إلاّ فيما يخص الأعمال التافهة، وأنها لا تعرف شيئاً بينما يمكنها أن تقوم بعمل من شأنه أن يرضي الله وينقذ العائلة. هل توسلت أي منكنّ لله تعالى لكي يساعدكن على فهم مغزى ومعنى المحن التي ابتلانا بها لكي تدركن ما هو

الحسن والضروري منها؟ عليكن أن تدركن أنه لا توجد محنة في هذا العالم وأن سعادتنا تكمن في قلب كل أنماط التعاسة. أنصحكن بأن تتوسلن لله بحيث لاتكون الأمور كما تشتهين أنتن بل كما يشتهي الله لها أن تكون».

ردت والدة جوجول وشقيقاته على هذه الموعظة بالاحتجاج بأنهنّ بريئات، وبالشكوى من قسوته. وقد وافق برحابة صدر على ألا يتابع الجدل شريطة أن تظلّ رسالته عبارة عن كتاب صلوات للعائلة كلها.

في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٤٤ كتب لهن يقول: «عليكن أن تعدنني بقراءة رسالتي طوال الأسبوع الأول من الصوم الكبير (أود أن تصمن خلال ذلك الأسبوع) وأن تراجعنها مرة كل يوم لكي تتفهمن محتواها، إذ لن تُفهم بمجرد قراءة واحدة. على كل من يحبني أن يعمل بما أطلبه منه، وبعد ذلك، أي بعد الصوم يمكن لأي منكن أن تكتب لي عن الرسالة إن أحسّت بالحاجة الصادقة لذلك وأن تخبرني بكل ما توحي لها روحها به».

مع بداية هطول أمطار الخريف بدا الجو لجوجول في بيت جوكوفسكي المريح والهادئ خانقاً فجأة، وأخذ يحلم ثانية بالسماء الزرقاء والشمس وإيطاليا. قرر التوجه إلى نيس لرؤية الكونتيسة فايلجورسكي والسيدة سميرنوف اللتين قررتا قضاء فصل الشتاء هناك.

كان عليه أن يقطع جزءاً من ألمانيا وفرنسا برمتها. وصل إلى مارسيليا منهكاً وقضى الليلة في أحد الفنادق وشعر بأنه مريض بحيث بات يخشى بأن ساعته قد حانت، فأعد نفسه للموت ثانية بالصلاة. غير أن هذه النوبة انتهت مع نهاية الليل. ولذا أخذ عربة أخرى إذ كان في عجلة من أمره للوصول إلى نيس، البلدة الواقعة عند سفوح الجبال في شمال غربي إيطاليا المحاذي لفرنسا (لم تكن نيس قد أعيدت إلى فرنسا وحيث لم تصبح جزءاً منها إلا في عام ١٨٦٠). كان كثيراً ما يسمع أحاديث مبالغ بها عن جمال هذه البلدة وطبيعتها وهدوئها.

سحر في البداية، السماء اللازوردية فوق الشاطئ الذي تتكسر عليه الأمواج بكل هدوء، عناق مع أيام الربيع في وسط الشتاء، ذلك المزيج اللطيف من اللغتين الفرنسية والإيطالية في الشوارع. وقد كتب لجوكوفسكي لدى وصوله (في ٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٣) يقول: «نيس جنة». تنتشر الشمس فوق كل شيء وكأنها طبقة من الزيت، والفراشات والحشرات تتطاير بأعداد لا تحصى، الهواء صيفي، وسلام كلي...».

أقام مع الكونتيسة لويزا كارلوفنا فايلجورسكي التي كانت قد استأجرت بيت سيدة سمته «بارادايز» (أي الجنة) في وسط البلدة، ليس بعيداً عن البحر. وكانت السيدة فايلجورسكي تقيم هناك مع ابنتيها: صوفيا (الكونتيسة سولوجوب) وأنّا. والسيدة فايلجورسكي هي امرأة مجتمع تتسم بالبرود والتقى، تشغل نفسها بأمور حياة العائلة، وكانت تضمر شعوراً عميقاً بالعرفان لجوجول نظراً لأنه اعتنى بابنها أثناء مرضه وحتى وفاته في روما قبل أربع سنوات. كان بالنسبة إليها أكثر من كاتب يثير الإعجاب: بل هو الإنسان الذي يمكنه أن يفهم حزنها أكثر من أي شخص آخر. غير أنه لم يكن يشعر بالراحة إزاءها، بل يجد تفجعها مثيراً للملل وينتهز أي فرصة للهرب.

كان يجد سعادته في لقاءاته مع اليكساندرا سميرنوف، وإن كانت هذه أيضاً تلفّها الكآبة أحياناً. كانت تسكن في بيت مترف في منطقة (كروا دي لا ماربر) وبدت كأنها تعاني من كل شيء، حتى من غنى طبقتها. فقد سئمت حفلات قاعات الاستقبال لديها، ولكنها لا تجد الراحة في وحدتها. تبحث عن الله، ولكنها تظل تنظر إلى نفسها في المرآة. ظلت هذه المرأة القلقة غير الراضية البالغة الثانية والثلاثين من عمرها غير قادرة على التخلي عن العالم، وغير قادرة في الوقت ذاته على العيش فيه. تردت حالتها في غضون أربعة أشهر بحيث وصلت إلى درجة الإصابة باضطراب عصبي وظيفي، وأصبح من الصعب لدى رؤيتها الآن تذكّر تلك الفتاة اللعوب ذات العينين المتألقتين واللسان الحاد، والتي كانت تجمع بين يديها قلوب رجال السياسة والكتّاب.. . صحيح أنها

مازالت جميلة وعيناها السوداوان تتألقان بحدة، غير أن بشرتها غدت شاحبة، ورموشها مجعدة، وغلظ خط عنقها بعض الشيء واكفهر وجهها بتعبير ينمّ عن الحزن والتردد المرضي في بعض الأحيان. أخذت تكثر من الصلاة وتحتفظ إلى جانب سريرها بنسخة من مواعظ بوسيه (أسقف فرنسي ١٦٢٧-١٧٠٤). ثم ما تلبث أن تغمرها نوبة من الطيش حيث تعمد لارتداء كل ما لديها من ملابس مبهرجة، وللفت الأنظار والتأنق والإغواء. كانت تعمل على أن تدير الرؤوس بكل ما لديها من ذكاء وظرف، بعينيها اللامعتين، وبتألق ابتسامتها الذاوية بعض الشيء. وما يلبث أن ينطفئ كل ذلك التألق ويغلبها الرعب من سطحيتها وتعود إلى أفكارها المرضية ولا تتواصل مع أحد سوى الله.

كانا يلتقيان يومياً ودونما انقطاع إذ بعد أن يقضي جوجول وقته وهو يعمل صباحاً في غرفته في بيت الكونتيسة فايلجورسكي، فإنه يذهب ليتمشى وحده على الشاطئ يتشمم الرذاذ الذي يعزز من قوته، ويشتري بعض الفاكهة المجففة ويصل وهو يحملها ليتناول طعام الغداء لدى السيدة سميرنوف. وما إن تراه الطباخة الفرنسية التي تعرف أنه خبير في اختيار الأطعمة والحكم عليها حتى تعلن بأعلى صوتها عن محتويات قائمة الطعام لذلك اليوم: مسيو جوجو... مسيو جوجو! (كما تسميه): فجل وسلطة فرنسية!

ما يلبث أن يسحب بعد الغداء دفتراً كبيراً كان قد سجل عليه مقاطع من كتاب «آباء الكنيسة» ليقرأها بصوت عال بينما تنصت مضيفته مستغرقة في أفكارها وعيناها تدمعان. كان قد نسخ أيضاً أربعة عشر من مزامير داود التي كانت قد وعدت بحفظها. وبناءً على أوامره تبدأ بإنشادها ورأسها منتصب وعيناها مثبتتان على عينيه. فإن أخطأت عنّفها بحزم: «خطأ!» ويأمرها بحفظ درسها بدقة أكبر لليوم التالي: أرادت في أحد الأيام وقد أقلقها فقره أن تعرف ما لديه من ثياب. هل لديه ما يكفي من القمصان ولفاعات للعنق. أجابها: «أرى أنك بعيدة كل البعد عن الرقة. إنني شديد التأنق فيما يخص اللفاعات والصداري، إذ لديّ ثلاثة من كل منها: واحد للمناسبات الخاصة، وواحد

للاستعمال اليومي وواحد أكثر دفئاً لاستخدامه للسفر. وقد حثها على توزيع أثوابها وحليّها الرخيصة والاكتفاء، شأنه، بأقل القليل. أعطته وعداً تعوزه الحماسة بالتفكير بهذه النصيحة. وكان يقرأ لها في بعض الأحيان، إن أحسنت السلوك، صفحات قليلة من الجزء الثاني من «نفوس ميتة» والذي كان أخيراً قد بدأ بكتابته. روت السيدة سميرنوف ونقله عنها «فيسكوفاتي» أنه في إحدى المرات أخذت عاصفة تتجمع في الخارج، وفجأة أغلق كراسه وعصف الرعد في نفس اللحظة. شحب وجهه وأغلق عينيه وأخذ يرتجف. وما لبثت العاصفة أن مرّت، وهنا طلبت منه السيدة سميرنوف متابعة القراءة فأجاب: «لا، فالله نفسه لم يردني أن أقرأ شيئاً لم يكتمل بعد ولم ينل موافقتي الداخلية. اعترفي بأنك فزعت!» أجابته: «لم أكن أنا التي فزعت يا أوكرانيّ الصغير، بل أنت!» تنهد وقال: «لم تفزعني العاصفة بل حقيقة أنني قرأت شيئاً لم يكن عليّ أن أقرأه لأحد. اترين؟ لقد هدّدني الله كما ترين».

ظل يخربش في كتابة روايته على الرغم من ذلك التأنيب الصادر عن السماء. وقد كتب لياسيكوف (في ٢١ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٤) يقول: «أجدف بإصرار ضد التيار، أقف ضد نفسي، أي ضد كسلي، ضد القلق النابض الذي يجتاحني». وقال لأصدقائه (كما يذكر سولوجوب في مذكراته): «عليكم أن تضعوا قواعد لأنفسكم بحيث تقضون ساعتين كل يوم على مكاتبكم وتأمروا «أنفسكم بأن تكتبوا». فأجابه سولوجوب معترضاً: «ولكن إن لم يأتك الإلهام؟» أجابه: «لا بأس، خذ قلمك واكتب».

على الرغم من هذا الانضباط الذي فرضه على نفسه ظل الجزء الثاني في حالة «فوضى» حسب تعبيره، وسادت حالة فوضى مماثلة في رأسه. لم يكن قادراً على رؤية مستقبل كتابه أو مستقبل حياته بوضوح. سعادته برفقة السيدة سميرنوف كانت تقلقه إذ لم تجذبه امرأة أخرى بهذا الشكل. كان يريد أن يحبها لروحها فقط، غير أنه كان عليه الاعتراف بأنه يستظرف النظر إليها كذلك. ولكنه لا يعتقد بأنه يتعرض لخطر حقيقي، فالأمر يماثل ما كان عليه حين التزم

جانب سرير «جوزيف فايلجورسكي» ، فالطبيعة المقدسة لمهمته كانت هي حمايته من ضعفه البشري . كان واثقاً من ذلك بحيث أنه كان يستمتع ، بكل شعور بالأمن ، بهذه النكهة الضئيلة من الإغراء التي يدرك أنها لن تؤدي إلى شيء . كان يعرّي هذه التائبة معنوياً يوماً بعد يوم وهو يوبّخها ويحملها على الاعتراف . ولكنه يمنع نفسه في نفس الوقت ، وباستمتاع ، عن أي تماس جسدي ، حتى من التحديق المتعمّد مهما كان ضئيلاً . أما هي فقد أطلقت العنان لنفسها بنوع من الحياء المسيحي وهي تزن اعترافاتها وتقتصد في الإدلاء بها مستجدية النصح ونادبة حياة «دونما مستقبل» . كانت دائماً هي الأكثر طيشاً في هذا الحوار الثنائي الذي يعمّه وجد صوفي . وكما يروي أكساكوف في كتابه «تاريخ علاقتي بجوجول» ، فقد أقدمت في أحد الأيام بلهجة نصف عابثة على القول: «اسمع ، أنت تحبني!» وهنا شحب وجهه غضباً وانسحب من الجلسة كالسهم ولم يرها لثلاثة أيام .

عندما ظهر من جديد كان من الواضح أن تلك الجملة قد نسيت تماماً . ولكنه ظلّ يفكر بها دون انقطاع بشعور من الألم يخالطه الحبور . بل أصبحت علاقته بالسيدة سميرنوف أكثر حميمية وإن ظلت علاقة أفلاطونية . وحتى لو أراد تجاوز هذا الحد فلا شك بأن أموراً مفاجئة غير ملائمة ستمنعه من ذلك . فقد كان البعض من المحيطين به يتهامسون بأنه انغمس في تسليات بمفرده في شبابه وأن هذه العادات السيئة جعلته معادياً للنساء ، بينما يصر آخرون بأنه ظلّ متعففاً عن مبدأ . وكان هو نفسه يقدم باستمرار مواعظ تقوم على أسس أخلاقية ودينية تندد بالعبودية للملذات الجسدية . غير أنه كان عليه في مثل هذه الحالة أن يرفض كل الملذات الجسدية الأخرى ، في حين أنه كان شرهاً في تناول الطعام ، كما كان شغوفاً بالألوان البراقة وبالمناظر المتألقة والملابس الشاذة . حاسة الشم لديه كانت من الحدة بحيث أنه كان يتحدث عن الأنف دائماً . كان مغرماً برواية الحكايات البذيئة ، ويسعى لرفقة النساء الجميلات ، غير أنه يتخذ جانب الحذر بحضورهن .

بما أنه لم يكن قادراً على الاتحاد معهن فقد كان يتوسل إلى الله أن يبرر له ذلك، وإن حدث وحاولن إغواءه فإنهن يصبحن الشيطان مجسداً، ووعاءً للرذيلة، ينكمش عندئذ عائداً إلى أسطورة المخلوقة السماوية. قوة خياله تنتقم له من الواقع في هذه الحالة حين يصبح هذا الواقع ملحّاً. فهو يجد الراحة لنفسه في سحابة، والسيدة سميرنوف تعرف كيف تكون هذه السحابة، ومع ذلك فهي تبقى مليئة بالحياة ويمكن الوصول إليها، بعينيه على الأقل. وكلما ازداد معرفة بها ازداد حبه لها. وفي غمرة حماسه كتب لياسيكوف معبراً عن ذلك فيقول (في رسالة في ٢٥ حزيران/ يونيو ١٨٤٥): «هي لؤلؤة بين النساء الروسيات. لم أعرف امرأة أخرى تماثلها، وإن كنت قد عرفت الكثيرات ممن يملكن روحاً نبيلة». أتساءل فيما إن كان هنالك من يملك من القوة الأخلاقية ليجلها بما يجدر بها من إجلال. لقد أصبحت مصدراً لسلواي في وقت لا يوجد فيه من يوفر لي من يريحني بكلماته. روحانا متقاربتان وكأننا شقيقان توأمان».

دهش ياسيكوف لهذا التدفق الشاعري فكتب لشقيقه (في ٢٥ حزيران/ يونيو ١٨٤٥) يقول: «لابدّ أنك لاحظت كيف أن جوجول يمتدح السيدة سميرنوف في رسالته. لقد أدهشتنا هذه الرسالة جميعنا هنا، وخومياكوف الذي كان يكتب واصفاً إياها «بالغريبة» أو «الفتاة الوردية» يعتقد بأنها ليست كما يعتقد جوجول، فمن كل ما سمعته عنها فهي ليست إلا امرأة لعوب تسبح في مياه الإغواء الشفافة».

أما أكساكوف فهو يقول في كتابه: «أحبّ السيدة سميرنوف حباً متقداً، ربما لأنه رأى فيها نموذجاً آخر من نمط ماريا المجدلية ورأى من نفسه مخلصاً لروحها. لم يكن، في رأيي المتواضع، متبلّد الشعور إزاء تألق وحيوية هذه السيدة التي ظلت جذابة، وذلك على الرغم من سمو مبادئه وطهارته».

أثارت هذه الأصداء القادمة من نيس دانييلفسكي فتجرأ على أن يطلب تفسيراً لها من جوجول. غير أن هذا صاغ جوابه بنبرات متعالية جداً حيث يقول في رسالة له (في ١٣ نيسان/ إبريل ١٨٤٤): «تسألني لم أنا في نيس وتختلق

كل أنواع الافتراضات المتعلقة بنقاط ضعفي العاطفية. أعتقد بأنك تمزح، فأنت تعرفني معرفة تامة فيما يتعلق بهذا الأمر. وإلى جانب ذلك، وحتى لو كنت لاتعرفني يمكنك أن تتوصل إلى الإجابة بنفسك إن أنت وضعت كل وجوه المشكلة جنباً إلى جنب».

كانت هنالك شخصية واحدة في موسكو تسعى باهتياج شديد لمعرفة الجواب: «ألا وهي السيدة «شيرميتييف» التي كانت تعتبر نفسها أمه الروحية. وعندما سمعت الأحاديث عن ميله للسيدة سميرنوف قررت بأنه تخلّى عن دينه. رجل من نمطه يقع في شرك امرأة! يا للخسارة! على العالم أن يتدخل. ولكن ماذا يمكنها أن تفعل وهي بعيدة عنه كل هذا المسافة لكي تبعد هذه المنافسة الجذابة؟ وبعد أن قامت بجولة في الكنائس تجرأت للتعبير عن قلقها في رسالة إلى جوجول حيث تقول: –

«تودني أن أخبرك عن مخاوفي بالنسبة إليك: حسناً. سألبي رغبتك بعد أن صليت. اعلم يا صديقي –وأنا أتكلم في هذه اللحظة أمام الله الذي سنقف في حضرته جميعاً يوما ما– أن شائعات، قد تكون بلا أساس، تدور الآن فيما يخصك. فأولئك العائدون من الخارج، وكذلك الذين يكتبون لنا من هناك يقولون جميعاً الشيء ذاته، وهو أنك كرست نفسك لإنسانة عاشت حياتها كسيدة مجتمع وأنها لم تقلع عن هذه الحياة إلا منذ وقت قريب. فهل يمكن لهذه الرفيقة الدائمة أن تكون ذات فائدة لروحك؟ أخشى أن تضلّ ضمن مجتمعها عن الطريق الذي اخترته لنفسك ببركة من الله».

قال جوجول لمراسلته وقد غمره الذهول بأن لديها حب استطلاع مرضي وأمرها بأن تسمّي الشخص الذي يُدّعى بأنه أضله عن الله. لم تزد السيدة شيرميتييف على ذلك وأعلنت أنها اقتنعت بجواب صديقها. ولكنه لم يكن ليلتفت لما تقول لو تابعت تحذيراتها له.

لم تكن السيدة سميرنوف التائبة الوحيدة على يديه، وهذا ما حمله على متابعة مساره بإصرار، إذ إنه ما إن يغادر منزلها حتى يجد وجوهاً أنثوية معجبة

ومحترمة أخرى في بيت آل فايلجورسكي، فحول مائدة الشاي في المساء تجلس الكونتيسة «لويزا كارلوفنا فايلجورسكي»، تقيه متغطرسة ومعذبة تعيش على ذكرى ابنها المتوفى، وابنتها «صوفيا الحزينة اللطيفة التي هجرها زوجها الكونت سولوجوب غير التائب والمنغمس بالملذات، والابنة الصغرى «آنّا» وهي في الثامنة عشرة من عمرها يطلق عليها اسم «أنولين» أو «نوسي» – طفلة ذات وجه عذب جميل قضت فترة طويلة من حياتها وهي مسافرة في الخارج مع أمها بحيث لا تكاد تتكلم كلمة روسية واحدة. وكانت هناك سيدات أخريات ينتمين للكولونة الروسية في نيس ينضممن للمجموعة بين وقت وآخر ويشاركن هذه المجموعة اهتماماتها بأرواحهن وولعهن بالأدب. ولذا فقد كنّ منجذبات بنفس الدرجة لشهرة جوجول ولسمعته كموجّه روحي. وكسيدات مجتثات من أرض الوطن، متبطلات وصوفيات فقد أحطن به بتغريدهن وبقبعاتهن التي تزينها الزهور، وكان يشعر في وسطهن بدوره كمسيحي مخلّص. كن يلتهمنه بعيونهنّ ويتشربن كلماته ويرتعشن هلعاً من غضبه. آنّا، أو نوسي الصغيرة، هي أكثرهن تأثراً وميلاً للتصديق والثقة بالآخرين بحيث كان تحديقها البريء به ينفذ إلى أعمق أعماقه. وكان يقارن براءتها الفتية بالجمال الأكثر نضجاً للسيدة سميرنوف ويجد في كل منهما استكمالاً غامضاً للأخرى.

قد لا تكون رسالته هي كتابة الروايات بل تنوير أبناء عصره بالكلمة والرسالة. كان يقول لنفسه في بعض الأمسيات، وبعد حديث من القلب للقلب مع واحدة أو أخرى من المعجبات به، بأن الله قد وضعه على وجه الأرض لكي يشرح معنى الحياة للآخرين ويساعدهم على التغلب على محنهم. كما كانت لديه وصفة ورعة لمصارعة أي محنة يمكن تخيلها. على كل منهن أن تستخدم الكتاب المقدس وكأنما هو كتاب للطبخ، وأن تهيئ لمستقبلها كما قد تعد طبقاً لذيذاً. بهذه الروح وجه توصياته إلى أكساكوف وشيفرييف وبوجودين في رسالة وجهها لثلاثتهم في أوائل عام ١٨٤٤ حيث يقول:

«أشعر في كثير من الأحيان بأن أرواحكم تتعذب. فإذا كان الحال كذلك فإن الحاجة تستدعي المساعدة الأخوية المتبادلة. أرسل لكم نصيحتي: كرسوا ساعة واحدة كل يوم للتأمل في أموركم. عيشوا تلك الساعة في داخلكم، بتركيز عميق. وهنالك كتاب ذو قيمة روحية عالية يمكنه أن يوصلكم إلى الحالة المرغوب بها، وها أنا أرسل لكم كتاب «محاكاة المسيح» «لتوماس كمبيس» (كاتب وكنسي هولندي ١٣٧٩-١٤٧١). اقرؤوا فصلاً واحداً لا أكثر كل يوم. فإن كان الفصل طويلاً ومعقداً اقرؤوه على مرتين. وبعد قراءته تأملوا فيه وحاولوا التفكير في كيفية تطبيقه في الحياة، وسط ضجيج وهموم العالم. اختاروا ساعة حرة لهذه النشاطات الروحية، في وقت ليس لديكم فيه أي عمل يتوجب عليكم القيام به، ودعوه يشكل أساساً ليومكم، وأفضل وقت هو بعد تناولكم الشاي أو القهوة مباشرة لكي لا تشتت شهيتكم انتباهَكم. خصصوا دائماً الساعة نفسها على ألا تستخدموها لأي غرض آخر وليبارككم الله».

لم يرسل كتاب «محاكاة المسيح» لأصدقائه في الواقع إذ لم يكن يملك المال الكافي لشرائه. غير أنه وجه شيفرييف بأن يشتري أربع نسخ من الكتاب من المكتبة الفرنسية في موسكو - على أن يدفع هو، أي شيفرييف، ثمن الكتاب من جيبه. وكان تعليقه الساذج على ذلك: «سيكون ذلك هو هديتي للعام الجديد».

بعد تردد طويل أجابه أكساكوف وقد عجز عن السيطرة على انزعاجه فقال في رسالة له في شهر نيسان/ إبريل ١٨٤٤: «إنني في الثالثة والخمسين من عمري، وقد قرأت كتاب توماس كمبيس قبل أن تولد انت. ولن أجادل أحداً من ناحيتي في قناعاته شريطة أن يكون صادقاً فيها. وها أنت تأمرني، وكأنني مجرد تلميذ، بأن أقرأ توماس كمبيس دون أن تسعى حتى لمعرفة آرائي، وتخبرني متى يتوجب عليّ أن أفعل ذلك - بعد احتساء قهوتي، وأن أقسّمه إلى فصول وكأنها دروس! وهذا مضحك ومحزن. إنني أخاف من التصوف وكأنه وباء، وانطباعي أنه يتنامى لديك! كما أنني أمقت الوصفات الأخلاقية أو أي

شيء يشبه الإيمان المغلّف بالتعاويذ. إنك تمشي على حد السكين، فأخشى أن يكون الفنان هو الضحية».

غير أن جوجول لم ينثنِ وتابع إصدار وصفاته بسخاء، سواء عن طريق الرسائل أم الكلام المباشر. بل إنه كتب نوعاً من الدليل الروحي الصغير للسيدات في دار فايلجورسكي: «قواعد العيش بسلام: فيما يخص أخطاءنا وحالاتنا الذهنية التي تؤدي إلى اضطرابنا وتمنع عنا الطمأنينة[1]».

أجري عرض للألعاب النارية في رأس السنة الروسية عند «كي دوميدي». جاء الكرنفال ومضى في جو من المرح حيث أُلقيت فيه قصاصات الورق الملوّنة وعمته أصوات الأبواق والأقنعة. وما لبث أن عاد الهدوء ليخيّم من جديد، وأخذ جوجول يتمشى على طول الساحل عند مصب «البيلون» ليستمتع بألوان الجبال البعيدة، وسط الأعداد الغفيرة من السياح، خاصة الإنجليز والروس ممن يتمشون على طول الطريق في أعلى الساحل الرملي. كل شيء يبدو يسيراً في أرض الدفء والاعتدال والوضوح هذه. غير أنه بحلول شهر آذار/ مارس غادرت السيدة سميرنوف إلى باريس بعد أن أرهقتها نيس باعتدالها. وبذا أخذت الشمس تفقد بعض بريقها وهي تشع فوق رأس جوجول. عاودته أمراضه إلى جانب حاجته لتغيير المشهد. قرر العودة إلى جوكوفسكي في فرانكفورت. غير أن على سربه ألا يخاف، إذ سيتابع تسليط أنواره عليهن عن بعد. بل إنه كتب للسيدة فايلجورسكي قبل وصوله إلى المكان الذي يقصده حيث كتب لها من ستراسبورج (في ٢٦ آذار/ مارس ١٨٤٤) يقول: «وعدتني، أنت وابنتاك، بأنكن ستصلين بينكن وبين أنفسكن بحماسة وصدق كلما شعرتن بالمرارة والألم يسيطران عليكن وتقرأن بعد ذلك القواعد التي تركتها لكن (قواعد الحياة سالف الذكر...) وتملأن نفوسكن بمعنى كل كلمة لأن كل كلمة مثقلة بالمعاني، ومن المستحيل فهمها بقراءة واحدة. هل حافظتن على وعدكن؟ ليس من باب المصادفة أنني وضعت هذه القواعد بين أيديكن. فإرادة الله هي التي فعلت ذلك».

(١) لم يكتشف هذا الكراس وينشر إلا في عام ١٩٦٥.

كان عليه أن يكون أكثر تطلّباً مع السيدة سميرنوف، إذ كان يعتبرها أقرب إلى نفسه، نموذجاً من صنعه.

كتب لها (في ٧ نيسان/ إبريل ١٨٤٤) يقول: «ما زلت مستعدة لكي تسمحي لنفسك بالانجرار وراء العاطفة. لا تنسي ذلك. تجنبي كل الأشياء التي تلوثها العاطفة. تفادي إدخالها حتى في الطقوس الدينية. يأمرنا الله بالهدوء ولن يظهر لنا إلا في حالة الصفاء».

وكتب لها ثانية (في ٢٠ نيسان/ إبريل ١٨٤٤) يقول: «تذكري بأننا اكتشفنا منذ وقت قريب جداً اللغة التي تمكننا من فهم بعضنا البعض، وتذكري كم لزمني من الصبر لكي أجعل من علاقاتنا ماهي عليه الآن. ولطالما حدثتني بكل سرية عن أشياء أخذت تكشفينها لأول شخص ترينه ممن ينغمسون في القيل والقال، أو من الناس الذين لا تهمهم إلا أمور الدنيا. هذا ليس إلا توبيخاً لطيفاً فلا تنزعجي منه، إذ سيتبعه ماهو أقسى منه، إذ سيأتي الوقت الذي تتعطش فيه روحك للتأنيب كما تتعطش للماء الزلال، ولا شيء غير التأنيب».

وبعد عدة أيام (في ١٧ أيار/ مايو ١٨٤٤) كتب لها يقول: «أخبريني كيف أنه، كما يعتقد على نطاق واسع، يستحيل الحديث بوجودك حول أمور شهوانية دون أن تشعري بالحاجة للحديث فيها أنت أيضاً؟ دققي بنفسك بانتباه ودونما تساهل. اسألي نفسك فيما إن كنت قد أثرت هذا الحديث أحياناً بدلاً من أن تعمدي لإنهائه. هل بلغ بك الأمر أن حرضت الآخرين على الخوض في هذا النوع من الحديث؟ الم تقولي لهم: «حسناً، تابعوا!» لقد شهدت مرتين كيف صببت الزيت على نار كانت تكاد تنطفئ».

أما هي. فقد كانت من جانبها تكتب له رسائل يغمرها الحنان والعرفان الصوفي حيث تقول له (كما أورد عنها قولها في رسالته بتاريخ ١٦ أيار/ مايو ١٨٤٤): «لا تنفتح روحي لأحد كما تنفتح لك. ولقد رأيت ذلك بكل جلاء، وليعصمني الله عن إظهار مثل ذلك لأي أحد آخر».

أو تقول في رسالة له بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٤٤): «صلِّ لروسيا، صلِّ لكل من يحتاج لصلواتك، صلِّ من أجلي، أنا الخاطئة التي تحبك حباً شديداً، شديداً، وبعرفان يصل إلى حد التضحية بالنفس. لقد أعدت إلي الشعور بالطمأنينة. ولكن هل أخبرتك بكل ذنوبي؟ لقد توقفت عن الصلاة كلياً فيما عدا أيام الآحاد. فهل هذا سيىء جداً في رأيك، إذ إنني أتوجه إلى الله باستمرار بسبل أخرى، بملء إرادتي أحياناً، وبالإكراه في أحيان أخرى؟ أنت تعرف القلب البشري - أنظر إلى أعماق قلبي وأخبرني إن كنت لا تجد بعض الدناءة فيه، يختبئ تحت قناع صنيع حسن أو عاطفة جيدة. مازلت في الدرجة الدنيا ولن تستطيع أن تتخلى عني بهذه السرعة، بل أنت ضروري لي أكثر من أي وقت مضى».

وكتبت له ثانية (في ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٤) تقول: «أنا ضجرة وحزينة. ضجرة لأنه لا يوجد حولي من أستطيع أن أفكر معه أو أعبر عن مشاعري بصوت عالٍ كما يمكنني أن أفعل معك. إنني ضجرة لأنني اعتدت أن يكون نيقولاي فاسيليفتش (جوجول) إلى جانبي، لأنه لا يوجد رجل مثله هنا، ولأنه من غير المحتمل أن يوجد نيقولاي فاسيليفتش آخر في هذه الحياة».

قرأ المتلقي العفيف هذه الرسائل مرة بعد مرة بشعور تمتزج فيه الكبرياء بالوقار والخوف. هذا العرفان من جانب مراسلاته من النساء دفعه لتوسيع جمهوره من المصلين بحيث لم يعد قادراً على الكتابة لأصدقائه دون أن يمرر كلمة تقية ناصحة في كل من هذه الرسائل.

ما إن وصل إلى بيت جوكوفسكي في فرانكفورت حتى جاءته أخبار حزينة: إذ ماتت أخته ماريا بعد مرض طويل. وأخبار مثل هذه تتطلب خطبة جنائزية على نمط «بوسيه» ولذا كتب بلهجة تتسم بالبرود لأمه (في ١٢ حزيران/ يونيو ١٨٤٤) يقول: «دفعت أختي ثمن أخطائها ألماً، إذ سلط الله الألم على حياتها لكي يخفف من عبئها في العالم الآخر. ولذا عليك أن تطردي كل حزن من قلبك وإلا فإنك ترتكبين معصية. صلي من أجلها ولا تحزني، هذا ما أقوله

لك يا أمي. أما أنتن يا شقيقاتي فعليكن أن تحتفظن بالميتة في قلوبكن وأن تصلين من أجلها دوماً. لا تنسين هذه الحادثة المريعة، هذا الموت الذي حدث في وقت الصوم نفسه. فالمحن لا تضرب ضرباتها دونما سبب بل لكي نتمعن في دواخلنا ونتعرف على أنفسنا عن قرب. لذا عليكنّ أن تكنّ أكثر يقظة إزاء أنفسكن، فعدونا الشيطان لا ينام قط».

تمضي الرسالة على هذا النحو صفحة بعد صفحة دون أي ظل لألم صادق يقطع هذا الفيضان من الخطابة. فموت ماريا هو الفرصة الأولى، والأفضل لجوجول لكي يتحدث عن الحياة السيئة التي عاشتها، وكيف أن على شقيقاته الأخريات أن يحترسن من اقتفاء أثرها. أجل! ألم يبلغ بها الأمر أنها طلبت من شقيقها في لحظة من لحظات نفاد الصبر ألا يكتب لها بعد رسائل تحذير ولوم! لقد تصرفت، وعلى مدى عامين، دون اتباع توجيهاته، وإليهن ماذا حدث حينما ابتعد هو عن روحها! وفكر، أجل فالله يعرف معرفة تامة إلى من يوجّه ضربته. وفي غمرة حرصه لتبرير مشيئة الله نسي أن يستفسر عن ابنها اليتيم الصغير نيقولاي تروشكوفسكي الذي كان حينذاك في الحادية عشرة من عمره[1].

أما فيما يتعلق به فقد أظهرت العناية الإلهية رحمتها به. فمعيشته مع الآخرين خفّضت من مصروفاته إلى لا شيء تقريباً. وقد ابتدع مضيفه جوكوفسكي قصة خيالية ودودة مفادها أنه مدين لجوجول بأربعة آلاف روبل – وهو المبلغ الذي كان قد استدانه من ولي العهد والذي كان يرفض الآن استرداد المبلغ. وقد رفض جوجول الهدية بعجرفة في البداية، ولكنه ما لبث أن وافق على إرسالها له على أربعة أقساط.

كان بيت جوكوفسكي الصغير في ضواحي فرانكفورت جيد التدفئة، هادئاً مريحاً غير أنه على الرغم من كل هذه المزايا المتوفرة في معتزله فإن «نفوس ميتة» لم تكن تتقدم، وهو يعزو أسباب ذلك على التوالي: إما إلى شوائبه الأخلاقية،

(١) نيقولاي تروشكوفسكي (١٨٣٣–١٨٦٥) كان أول من حرر أعمال جوجول الكاملة بعد وفاته.

أو حالته الصحية السيئة أو الوضع السياسي حيث تشوش هذه الأسباب تأملاته. وقد كان الناقمون يثيرون الجماهير للتمرد في مختلف أنحاء أوروبا، والعمال يقومون بالإضراب والناس ينسون أن النظام الاجتماعي إنما يقوم بناءً على إرادة الله. وفي شهر حزيران جاء شعاع من نور الشمس، إذ وصلت على نحو غير متوقع السيدة سميرنوف التي جاءت لتقضي أسبوعين مع موجهها الروحي. كانت بلا دفاع، متطلبة وساحرة شأنها دائماً، وقد أمطرها بالنصائح الحسنة وحزن لرؤيتها وهي تغادر.

كانت أعصابه متوفزة، وثقل كبير يجثم على صدره خلال الأيام القليلة الفائتة. وقد نصحه أحد الأطباء بتلقي مغاطس ملحية في «أوستند». أسرع ذاهباً إلى هناك وكانت البلدة نصف فارغة ولا تخرج إلى الشاطئ إلى مجموعات متفرقة من السياح. الأمواج تتدحرج تحت قدمي جوجول وهو يجلس مرتجفاً وركبتاه المكشوفتان نائتتا العظام تصطكان، والريح تعبث بأنفه ويتطاير شعره فوق رأسه. وحين وقف أول مرة فوق الأمواج المتكسرة الغضبى تراءى له أن الصدمة ستقتله.

ولكنه كتب لأكساكوف رسالة في عام ١٨٤٤ يقول فيها: ولكن جلدك كله يلتهب بعد ذلك، وما إن تخرج من الماء حتى تشعر بأنك تقف في حمام بخار. عليك ألا تبقى في الماء لأكثر من خمس دقائق وكلما كان الطقس أسوأ والماء أكثر تجمداً والريح أشد عصفاً والعاصفة أكثر احتداماً كان ذلك أفضل. وكنت أخشى ملامسة الماء البارد ولذلك ارتديت كساءً من نسيج صوفي ناعم ولكنني تحملت الماء بشجاعة».

ادعى لدى عودته إلى فرانكفورت بأن العلاج قد أنعشه. ولكنه حين جلس إلى مكتبه لم يكن ذلك ليشتغل على «نفوس ميتة» بل ليكتب المزيد من الرسائل لأصدقائه، وهي رسائل أخذت تصبح أطول وأطول وأكثر رزانة وأشد خطابية. أخذ يشعر وهو يكتب لأصدقائه بأنه يخاطب البلد بكامله من فوق رؤوس

من يكاتبهم. وكلما كان يمعن التفكير بالموضوع يبدو له بصورة أكثر وضوحاً بأن مقتطفات من هذه الرسائل يمكن أن تؤلف عملاً من أعمال الفن والدروس الأخلاقية ذات الأهمية التي لا تجارى. بدأ يختار مواضيعه، ويصقل أسلوبه ويحتفظ بمسوداته الأولى... وظل يوجه نصائحه بلا كلل لأمه وشقيقاته، لألكساندرا سميرنوف، والكونتيسة فايلجورسكي وابنتيها، ودانييلفسكي، وياسيكوف، والسيدة شيريميتيف، وبلاتنييف، وشيفرييف، وأكساكوف. وعندما صده أكساكوف لهذا الهوس الوعظي نصحه جوجول بالاحتراس من الشيطان حيث يقول في رسالة له (في ١٦ أيار/ مايو ١٨٤٤).

«كل متاعبك ليست إلا من عمل الشيطان. اصفعه على خطمه، هذا الحيوان القذر، ولا تقلق. فهو ليس إلا بيروقراطي من رتبة دنيا تسلل مدعياً أنه مفتش يحاول خداع الجميع بصراخه وتهديداته. إن لحظة تردد واحدة وتراجع خطوة إلى الخلف من شأنهما أن يزيداه جسارة. غير أنك إن واجهته مباشرة فإنه سيدلي ذيله. إننا نضخمه ونجعل منه عملاقاً في حين أنه ليس إلا «ما لا يعرفه إلا الشيطان»، فأساليبه معروفة تماماً، وإن رأى بأنه لا يستطيع إغراءك للإقدام على فعل شرير فإنه يهرب ليأتي تحت قناع آخر، ومن زاوية أخرى محاولاً بهذه الطريقة إضعاف معنوياتك. لم أنحرف في داخلي عن مبادئي الأساسية، وربما منذ أن كنت في الثانية عشرة من عمري اتبعت نفس المسار الذي أتبعه الآن. إنني أسمي الشيطان شيطاناً ولست ألبسه لبوساً «بايرونيا». أعلم أنه يتبختر مرتدياً معطفاً رسمياً مصنوعاً من القذارة، والسبيل المناسب للتصرف هو أن تغمر غروره بالقذارة إلى الأبد».

ندد بأساليب الشيطان الماكرة الدنيئة في رسالة إلى أمه وشقيقاته حيث يقول: «إنه يتسلل دون أن يراه أحد، وهذا ما يجعله مخيفاً أكثر. فهو لن يغريكن مواجهة ولا يقودكن لارتكاب فعل سيئ وإجرامي، فهو يدرك أن روحكن لم تنجرف بعد وأنكن تستطعن التعرف عليه بومضة عين وبالتالي طرده. كلاً، فهو يعرف سبيلاً، أفضل، إذ سيفتح طريقاً إلى قلوبكن باللجوء إلى نواحي الضعف

الضئيلة لديكن – مثل الكسل والتبطل، بحيث أنكن لن تفكرن في محاولة التغير بل تعلن لأنفسكن: «هذه طبيعتنا ولا يمكننا أن نفعل شيئاً إزاء ذلك». أو قد تقلن: «لابدّ أنه أمر غير صحي ولا إرادي يشكل جزءاً منا». أرى فيكن نواحي ضعف قد تعطي الروح الشريرة سبيلاً للتسلل إلى أرواحكن».

في ذات الوقت الذي كان يعظ فيه من في دائرته فإنه كان يدرك شوائبه الشخصية. اعتقد أن هذه الشوائب تساعده على فهم أقرانه من بني البشر، وتمنى أن يعمدوا، مقابل مساعدته لهم بتنبيههم إلى أخطائهم، أن يدلوه على مثالبه. فأفضل طريقة لهم لطرد الشيطان هي بأن يضربوا بعضهم البعض بالسوط –تماماً كما يحدث في حمامات البخار الروسية. غير أن على المرء أن يتابع ذلك بصورة منهجية. وعلى شيفريف وأكساكوف وبوجودين، كما يقول، أن يخصصوا، بحكم الصداقة، نوعاً من دفتر المذكرات الذي يسجلون فيه ذنوبهم.

فقد كتب لشفريف (في ١١ آذار/ مارس ١٨٤٤) يقول: «عليك أن تسجل في كل مرة تفكر بي وبين آونة وأخرى، وبكلمات قليلة الفكرة التي خطرت لك. ببساطة دوّن في دفتر ملاحظات «رأيتك هذا اليوم على هذه الشاكلة». اليوم، التاريخ، الشهر، «كنت حانقاً عليك هذا اليوم، لهذا السبب أو ذاك»، اليوم، التاريخ، الشهر. «هذا ما أجده اليوم غير قابل للتفسير في شخصيتك أو سلوكك»، اليوم، التاريخ، الشهر. «تدور هنا الشائعات التالية حولك ولكنني شككت فيها»، اليوم، التاريخ، الشهر. «أحمل لك في أعماق قلبي شكوى لهذا السبب». أرجو أن ترسل لي مثل هذه الملاحظات ضمن رسالتك عندما تملأ مجرد نصف صفحة من هذه الملاحظات. وبذلك فإنك تؤدي لي خدمة أكبر مما فعلت في أي وقت مضى. ساعدني الآن، وعندما أغدو أكثر قوة وفطنة فسيحين دوري لمساعدتك».

حاول فرض نفس النمط من «الصراحة التي كان قد أوصى بها أصدقاءه في موسكو على بلتنييف، ولكن ما كان يعتبره هو نظافة صحية من شأنها أن

تبث الحيوية في النفس اعتبرها بلتنييف لعبة مريضة. ولذلك أجابه بتلنييف إجابة واخزة وقد نفد صبره لإلحاح جوجول.

يقول بلتنييف في رسالته المؤرخة في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٤٤): «إنك كرجل لست إلا مخلوقاً معوجاً، أنانياً، مغروراً، يفعل أي شيء في سبيل الشهرة. من تكون أنت! ماذا أنت كصديق؟ وهل من الممكن أن يكون لك أصدقاء؟ فإن كان لك أصدقاء في أي يوم من الأيام فلابد لهم أن يكونوا قد أظهروا لك منذ وقت طويل ما ستقرؤه ويخطه قلمي. إن لك نمطين من الأصدقاء: البعض يحبونك بصدق، لموهبتك دون أن يدركوا بعد ما في دخيلة نفسك. بين هؤلاء جوكوفسكي، وآل بالابين، والسيدة سميرنوف، وهكذا كان بوشكين. أما الآخرون - فهم جماعة موسكو (شيفرييف، بوجودين، وأكساكوف، وأنصار المبادئ السلافية الخ. . . .) منشقون يسرهم أن يكسبوا رجلاً عبقرياً إلى جانبهم بأن يسكروه بالإطراء في حانتهم. وهؤلاء ليسوا منشقين يعادون الحقيقة والتنوير فحسب بل هم رجال أعمال منشغلون كلياً بالبيوت التي يبنونها والقرى التي يشترونها والبساتين التي يزرعونها. وأنت الذي تحكم على الأمور وتؤمن بهم بناءً على الأقوال وليس على حياة هؤلاء أو على أفعالهم. لقد خذلتني من أجلهم حين استمعت لهتافاتهم الطنّانة وإشاداتهم العلنية عديمة الطعم وهي ترن في أذنك عوضاً عن تعاطفي الصامت وعاطفتي الصافية. دخلت بيتي وكأنك تدخل نزلاً، بينما دخلت بيوتهم وكأنما هي بيتك.

«لنرَ الآن من أنت كأديب. إنك شخص وهبت قدرة إبداعية متألقة، يستخلص بداهة أسرار اللغة، وأسرار الفن نفسه. تحتل في وقتنا الحاضر المقام الأول ككاتب ساخر بفعل طريقتك في النظر إلى الإنسان والطبيعة وقدرتك على استخلاص أكثر مظاهرهما ووضعيتهما سخرية. ولكنك ككاتب تنتهج أسلوباً رتيباً، لا رغبة لديك لتجشم عناء إتقان كنوز اللغة والفن، وعندما يتحول خيالك من السخرية إلى الجدية يصبح أسلوبك غير لائق إلى درجة الذوق الرديء، ومغروراً إلى درجة السخف. لست إلا عبقرياً علّم نفسه بنفسه، تدير الرؤوس قدرته الخلاقة، غير أن أميته الفنية وجهله لا يثيران إلا الشفقة».

استقبل جوجول هذا التقريع بمزيج من الألم والسرور، وعرفان بالجميل يلامس النقمة. كانت إجابته متواضعة، إذ شكر بلتنييف «لهديته». وعلى الرغم من أنه وافق موافقة تامة على أنه يمتلئ بالأخطاء غير أنه وجّه إلى من حطّ من قدره ردوداً على كل نقطة على حدة. فمن نقطة إلى نقطة تحول اعترافه بالخطأ إلى جواب على كل تهمة وجهت إليه، ناسياً أنه دأب على تقديم النصائح لكل من هبّ ودب. فقد كتب له (في ١٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٤) يقول: «كيف يمكن أن يقال عن شخص مثلي: «إنك ترتكب خطأ؟» الحيوان المريض يبحث عن العشبة التي تشفيه، ويعثر عليها وتتحسّن حالته بأفضل مما لو تناول عشبة وصفها له أكثر الأطباء حكمة. لقد كنت مصيباً يا صديقي حين أبعدت نفسي لأصبح على مسافة، لبعض الوقت، عن مكان لم أكن قادراً على العيش فيه. وها أنت ترى بنفسك بأن إعادة الاتصال مع العالم قبل الأوان من شأنه أن يثير عاصفة. لماذا يطالبني الناس بأن أتصرف مثلما يتصرف الآخرون بعد أن اتفقوا بأنني شخص شاذ، غريب الأطوار؟ لماذا لا يقول القاضي الذي يحاكمني لنفسه، في لحظة شك، وقبل أن يصدر حكمه النهائي عليّ على أساس فعلين أو ثلاثة أفعال: «إنني أرى هذه الإشارة وتلك لدى هذا الرجل، ومثل هذه الإشارات هي دليل على هذا وذاك لدى أشخاص آخرين. غير أن هذا الرجل ليس مثل بني البشر الآخرين، وحياته ليست مثل حياتهم، كما أنه لا يكشف عما في داخله. ربما كان الأطباء الحكماء مخطئين - والعلم عند الله - في التوصل إلى تشخيصهم على أساس هذه الأعراض وأخطؤوا في تشخيص المرض الحقيقي».

وهكذا كان يصر على توجيه الهجوم إليه، ولكنه ما إن يهاجم حتى يتفادى أي ضربة، شأنه في ذلك شأن أولئك المواطنين الساخطين الذين يصرون على تهديم بلدهم باستمرار ولكنهم يرفضون سماع أي كلمة يقولها أجنبي. فجوجول كان على استعداد لأن يشوّه سمعته ولكنه يجد تحفظات أصدقائه غير مقبولة وإن كان يوجه لهم الشكر باستمرار لأنهم يجلدونه بعنف.

تحول جوجول في رسالته إلى بلتنييف بعد أن قدم تبريراته إلى موضوع آخر، إذ بما أنه كان يسبب كل ذلك القلق لأصدقائه فعليه أن يقدّم كفارة، وعلى ذلك فهو يتخلى عن جميع دخله من كتبه، وعلى الفور حيث يتابع قائلاً:

«سأعاقب نفسي برفض أية أموال من مبيعات أعمالي. روحي تتطلب هذه التضحية فهي تضحية عادلة، وأنا وحدي سأحزن إن لم أفعل ذلك. كل روبل وكوبيك يرمز إلى غضب وإهانة أصدقائي. وبما أنه لا يوجد إنسان لم أسبب له أذى فإن المال سيثقل على ضميري بشدة. ولذلك فإنني أحوّل هذا المال في كل من موسكو وسانت بطرسبرج إلى الطلبة الفقراء المستحقين. ويجب ألا يعطى لهم بدون تمييز بل كمكافأة على جهودهم. وعليك أنت وبروكوبوفيتش ألا تعلنا عن ذلك لأحد، سواء أثناء حياتي أو بعد مماتي. كما أنه يجب عليّ ألا أعرف لمن منحتما المال ولأي سبب تم ذلك. يمكنكما أن تقولا إن مصدر المال هو من رجل غني مع إبلاغ الإمبراطور بأن هذا الشخص إنما يرغب بأن يبقى مجهولاً».

أصدر توجيهات مطابقة تقريباً وفي اليوم نفسه لكل من شيفرييف وأكساكوف في موسكو وطالبهما أيضاً بأن يقسما ألا يكشفا عن اسم المتبرع لمتلقي التبرع، أو كشف أسماء من تم التبرع لهم لمن تبرع بالمال.

كتب لهما يقول: «على الرغم من أنكما قد تجدان الإجراءات غريبة، غير أن عليكما أن تدركا بأن وصية الإنسان مقدسة. أعطياني فقط جواباً واحداً لهذا الطلب: نعم».

لم يخطر في ذهنه قط أنه مدين بمبالغ كبيرة لنفس الأشخاص الذين كان يطالبهم بتوزيع مستحقاته للطلبة «الفقراء المستحقين». ولم يفكر كذلك بالمساعدة التي يمكن لهذا المال أن يقدمها لأمه وشقيقاته. أما بالنسبة إلى نفقاته الشخصية فقد كان يعتمد دائماً على رعاية أصدقائه له. وفي تناقض واضح يتّسم بالمبالغة الحمقاء كان يطلب منح هبات في نفس اللحظة التي يطلب فيها

من آخرين أن يعتنوا به. فهو يطالب نفسه بالقيام بصنيع حسن بمد يده في جيب جاره، ويتقرّب من الله دون أن يفك رباط كيسه... براعة في الخداع وبعض خفة اليد يليقان ببطله تشيشيكوف (بطل نفوس ميتة). وبعد عشرة أيام من تخليه عن عائدات كتبه بلهجة تمسّ المشاعر كتب إلى السيدة سميرنوف طالباً مالاً. كانت قد عادت إلى روسيا، وهي غنية، ومدينة جداً لجوجول لنصائحه الحسنة. وبعد صفحات مطولة تحوي خطبة دينية يصل المحسن لطالبته، ودونما حياء، إلى الموضوع الرئيسي حيث يقول في رسالته لها (والمؤرخة في ٢٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٤):

«لطالما حدثتني عن المال، ولذا قررت أن أتحول إليك. وبما أنه يسرك أن تكوني مفيدة وأن تساعديني فإنني أطلب قرضاً منك. إنني أحتاج في العام القادم إلى ما يتراوح بين ثلاثة آلاف وستة آلاف روبل. فإن استطعت «أرسلي ثلاثة آلاف روبل بموجب حوالة إلى فرانكفورت، إما إلى بنك «بتمان» أو إلى جوكوفسكي. أما الآلاف الثلاثة الأخرى فيجب إرسالها إلي في نهاية عام ١٨٤٥».

بعد أن حسم هذه المسألة الصغيرة توقع، وبكل ثقة، أن يتلقى تهاني أصدقائه إزاء مبادرته التي كانت لمصلحة العالم الأكاديمي. غير أنه لم يتلق، ولدهشته، إلا الشتائم من موسكو وسانت بطرسبرج، إذ أعلن شيفرييف أنه لن يفعل شيئاً من هذا القبيل إلى أن يدفع جوجول ديونه لأكساكوف الذي كان يعاني حينذاك من صعوبات مالية. وأضاف أن الفكرة برمتها لا تتوافق مع أدنى معايير العدالة. أما بلتنييف فقد ذكّره بأن عليه أن يفكر بأمه وشقيقاته قبل أن يلعب دور المحسن. وعلاوة على ذلك فإن وكيلي جوجول هذين كليهما أفشيا بالسر على الرغم من توجيهات المسؤول عن الموضوع. وأسوأ ما في الأمر أن بلتنييف أبلغ السيدة سميرنوف بنوايا ناصحها الروحي الذي يطلب منها قرضاً طويل الأجل، ولذا فقد شمّرت عن ساعديها وكتبت له (في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٤) تقول: —

«إنك مسؤول عن أمك العجوز وشقيقاتك. لقد حاولت إعالتهن ولكن ماذا إن بقين معتمدات عليك نتيجة لسوء إدارتهن أو لأي حدث لم يكن في الحسبان. إن من واجبك، لدى تلقيك حسابات من بروكوبوفيتش أن تنجد أمك وألا تفكر بمساعدة الطلبة، وهذا ما قررناه على أن يتصرف بلتنييف على هذا الأساس، هذا على افتراض أن يكون لدى بروكوبوفيتش أية نقود لك».

عندما قرأ جوجول هذه الرسالة شعر بأن جلاله الكهنوتي قد تعرض للازدراء. منذ متى يقدم التائبون على انتقاد كاهن الاعتراف الذي يعترفون أمامه؟ لقد سلكوا الدرب الخاطئ! أجابها إجابة لاذعة (في ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٤) حيث يقول:

«أخطأ بلتنييف حين أخبرك بما يجب، باسم الصداقة، أن يظلّ سراً. وقد أخطأت أنت لأنك أنصت لما لم يكن مقرراً لك أن تسمعيه. بل بلغت بك الجرأة أن تتخذي قرارات بشأن هذه القضية، وبأن تقولي لي بأنني أتصرف بغباء، وأن عليّ أن أفعل هذا ولا أفعل ذاك، وأنك كنت ستبدلين الخطة برمتها دون أن تأخذي موافقتي وستتخذين إجراءات تناسبك أنت. أما تأنيبك وتعليقاتك الخاصة بحقيقة أن لي أماً وشقيقات، وأن عليّ أن أفكر بهن بدلاً من تقديم يد المساعدة لغرباء فهي تعليقات لئيمة، وغير عادلة وتثير لديّ شعوراً حاداً بالمرارة. كان بإمكانهن أن يعشن حياة لائقة بالنقود التي أعطيتها لهن، غير أن أمي، على الرغم من أنها من أفضل النساء، وعاطفتنا إزاء بعضنا بعضاً تتعمق بمرور السنين إلا أنني لا أستطيع الإنكار بأنها سيدة أعمال سيئة. وقد أصبح واضحاً لي بأن ما تحتاجه ليس المساعدة المالية، وأن كل النقود التي يمكنني إعطاؤها لها ستغرق في بئر لا قرار لها. وهذا المال (الناتج عن بيع الكتب) تم تحصيله بكثير من الألم وهو مال مقدس، ومن الإثم أن يستخدم لأي غرض آخر (بدلاً من استخدامه كمنح للطلاب). لو عرفت أمي أي عذاب معنوي يمثل ذلك بالنسبة إلى ابنها فلن تمد يدها لكوبيك واحد من المبلغ الذي سيتجمع منه. بل إنها، على العكس، ستبيع بعض ممتلكاتها لتضيف له المزيد. إنني أطلب مرة أخرى وآمر ثانية، باسم

الصداقة التي بيننا أن تمتثلي لطلبي. ويمكن لبلتنييف أن يأخذ ألفي روبل مما لديه ويرسلها لأمي وسأسوي الأمر معه لاحقاً».

على الرغم من هذه المناشدات ظل أصدقاؤه في كل من موسكو وسانت بطرسبرج على عنادهم ولم يحصل الطلاب الجائعون على منحهم ونسي جوجول نفسه مؤقتاً عاطفة السخاء لديه.

كان هنالك شيء آخر يزعجه. فقد نشر بوجودين صورة مطبوعة بالطريقة الحجرية لكاتب «نفوس ميتة» في عدد شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٤٣) لدوريته «موسكوفيت» مأخوذة من صورة له رسمها إيفانوف. وجوجول الذي كان قد أهدى هذه الصورة لمضيفه في موسكو كتعبير عن الصداقة اختنق غضباً لاستخدامها دون موافقته. فقد كان على هذه الصورة، في ذهنه، أن تظل محتجبة» عن جميع الأعين إلى أن يكتمل عمله الأدبي الرئيسي. أما إلقاؤها أمام الحشد الآن فهو يمثل خيانة وسخرية من الكاتب خصوصاً وأن إيفانوف كان قد رسمه وهو يرتدي «الروب دو شامبر» وشعره في حالة فوضى. تدفقت ريشته بالشتائم وقد أعمته الضغينة حيث كتب لياسيكوف (في ٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٤٤) يقول: -

«لم يتعرض بشر منذ بدء الخليقة في العالم كله، في اعتقادي، لأن يصبح ضحيةً لمثل هذا القدر من عدم اللياقة واللباقة ولهذا الانعدام الكلي للكياسة. تكتب في شبابك قطعة سخيفة تافهة لا تحلم بنشرها، وما إن يراها أحدهم حتى يطلق ضربة مدويّة. يقذف بها (بوجودين) على صفحات صحيفته دونما سبب ودون أن يطلب منه أحد أن يفعل ولا أن يطلب إذناً من أحد، شأنه في ذلك شأن خنزير لا يريد أن يدع إنساناً محترماً بسلام. . . فما إن يراه مقرفصاً في ظل أرجوحة حتى يقحم خيطومه تحت مقعده ليلتقط أول كتلة تسقط منه. وإن التقطت حجراً وقذفته بسرعة على خيطومه فلن يكترث، بل تصدر عنه نخرة صغيرة ويدس خيطومه ثانية تحت مقعدك».

وبعد فترة وجيزة (في ١٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٤) كتب لشيفرييف يقول:

«فكر قليلاً: ما الهدف الذي يتحقق من نشر صورتي للعالم كله بشعر طويل، هائج مشعّث، وشارب مهمل، ومرتدياً «روب دو شامبر»؟ ألم يكن بمقدوركم بالمناسبة، أن تتوقعوا كيف يمكن للناس أن يفهموا ذلك؟ لست حانقاً من أجلي أنا لتصويري كشخص عربيد منغمس في الملذات - لأنني أعرف يا صديقي بأن الناس سينتزعون تلك الصورة من المقال. سن الشباب يتسم بالسخف، صدقني. فلدى الكثير من الشباب تطلعات صافية جمّة ولكنهم جميعاً يشعرون بالحاجة لمن يجعلون منه مثالاً لهم».

لن ترى صورة يحتفظ بها الأحفاد لمن يعتبرونه مثالاً وقدوة لهم تصور هذا الشخص في هيئة ليست جميلة فيما يعتقد جوجول. وبدلاً من أن يضعه بوجودين كتمثال فوق قاعدة هاهو يقذف به في الوحل. وإذا كان لابدّ من نشر أي صورة فهو يفضل بالطبع مثلاً تلك التي رسمها «مولر» على تلك الصورة الفجة التي رسمها إيفانوف محاولاً فيما يظن رسمه على حقيقته.

جاءته الفرصة للتحول عن هذه المشكلات حين دعاه الكونت الكسندر بيتروفيتش تولستوي والكونتيسة فايلجورسكي لقضاء بضعة أيام في باريس مع دفع جميع تكاليف ذلك. استشار الدكتور «كوب» فنصحه بالقيام بهذه الرحلة من أجل صحته، كما نصحه جوكوفسكي بانتهاز الفرصة، ربما لأنه كان قد سئم وجوده في بيته. غادر في الأيام الأولى لكانون الثاني/ يناير ١٨٤٥ وأعصابه متوفزة وجسمه محطم تماماً. كانت تنتظره في باريس غرفة دافئة مريحة في فندق «ويستمنستر»، شارع «دو لا بي» رقم ٩ حيث كانت تنزل أيضاً عائلة تولستوي. شعر باحترام شديد لهذا المسؤول الكبير في الإدارة الإمبراطورية. كان ألكسندر بيتروفيتش تولستوي قد بدأ حياته كضابط حرس لامع، ثم التحق بالسلك الدبلوماسي في سفارات بلاده في باريس والقسطنطينية، بل أصبح عميلاً سرياً في منطقة الشرق الأدنى. وعين حاكماً لـ «تفير» (وهي كالينين حالياً وتقع في غرب روسيا على نهر الفولجا)، ثم حاكماً عسكرياً لأدويسا قبل

أن يتقاعد في عام ١٨٤٠ ليكرس نفسه لدراسة الدين. كانت معرفته بالكتاب المقدس موضع إعجاب على نطاق واسع، وكثيراً ما كان رجال الدين الروس واليونانيون يأتون لرؤيته فيتبادل الأحاديث معهم بأي من اللغتين بالطلاقة ذاتها. كان نحيلاً، أهيف، أنيقاً ذا مشية عسكرية وتعابير رزينة، وهو مدافع عنيد عن الكنيسة والعرش، يمقت الأفكار الليبرالية التي تلهب عقول الشباب في روسيا، وجوجول يوافقه تماماً فيما يتعلق بهذا الموضوع. وقد وجد لدى وصوله إلى باريس الجو الذي يمقته كلياً، جو النزاع والخصام والفوضى وكثرة المطالب والغرور. كانت الأسعار قد ارتفعت والجالسون في المقاهي يطلقون نكاتاً غير مهذبة عن الملك لويس فيليب (حكم فيما بين عامي ١٨٣٥ -١٨٤٨) و«جيزو» السياسي والمؤرخ الفرنسي (١٧٨٨-١٨٧٦)، والصحف تمتلئ بالرسوم الكاريكاتورية وبالجدل العنيف، وفرنسا برمتها ممتعضة، محبة للانتقام، بوهيمية، ويبدو كأنها أصيبت بالحكّة. لاشك بأن هذا الشعب إنما يحمل جرثومة الفوضى السياسية ولابدّ من حجره كلياً.

كتب للسيدة سميرنوف (في ٢٤ شباط/ فبراير ١٨٤٥) يقول: «لم تفدني باريس، أو بالأحرى هواء باريس، أو زفير سكان باريس الذي يحل محل الهواء هنا، بل إنها قضت على أية فوائد للرحلة».

كما كتب لياسيكوف (في ١٢ شباط/ فبراير ١٨٤٥): «ما يمكنني أن أقوله لك عن باريس هو أنني لم أرَ باريس على الإطلاق. بل إنه كان لديّ من قبل بعض الحب المتكلف للمدينة. أما الآن فالوضع أسوأ. أعني بهذا الأمر النواحي المادية، السلع. إنها مكان غير نظيف والهواء ثقيل بحيث يمكنك أن تقسمه بالسكين. لم أرَ أحداً سوى الأشخاص المحببين لقلبي، أي الكونتيسة فايلجورسكي والكونت الكسندر بيتروفيتش تولستوي».

لم تكن هنالك جولات على المطاعم والمسارح، أو المشي في قصر التويلري أو زيارة المتاحف مثلما فعل في رحلته السابقة، كسل كئيب أبقاه خارج مجرى الحياة، ولم يكن يجد سعادته إلا في وعظ السيدة «فايلجورسكي» «ونوسي»

ذات العينين حادتي الذكاء، أو في مناقشة مقطع من الكتاب المقدس مع الكونت تولستوي. كان يقضي معظم وقته في غرفته ليقرأ بحوث القديس «جون كريسوستوم» بطريرك القسطنطينية (١٣٤٧-١٤٠٧) والقديس «باسيليوس» (أسقف قيساريا ٣٢٩-٣٧٩) والأسقف (الفرنسي) «بوسو» (١٦٢٧-١٧٠٤) حول اللاهوت القديم والأعمال التي تتناول الطقوس الدينية الحديثة، وهو يسمع أصوات العربات تقعقع وحوافر الخيل تضرب الرصيف وصيحات الباعة وأنماط الجلبة وكل الأصوات التي لا يحتملها والدالة على البهجة تحت نافذته.

وعندما كان الأمر يستدعي خروجه كان ينظر إلى الفرنسيين في الشوارع بنفور حاد. لم يخطر له قط أن يدخل في حديث مع أي منهم، بل إن أسلوب طبخهم فقد جاذبيته بالنسبة إليه. ولكنه كان يذهب كل يوم لحضور الصلاة في الكنيسة الروسية في باريس في ٤ شارع «نوف دوبيري»، وقد أحبه القس ديمتري ستيبانوفيتش فيرشنسكي» وكان يعيره كتباً دينية ليقرأها. وقد استغرق في تأملاته الرفيعة بحيث أنه لم يتأثر لسماعه خبر انتخابه - هو وبوجودين- للعضوية الشرفية لجامعة موسكو. بل إنه لم يسمع بأن شخصاً اسمه «لويس فياردو»، وهو أديب فرنسي ومدير المسرح الإيطالي في باريس وزوج مغنية السوبرانو الشهيرة «بولين جارسيا - فياردو» كان بصدد ترجمة بعض قصصه لنشرها تحت عنوان أقاصيص روسية (وقد شملت هذه المجموعة في النهاية: «تاراس بولبا» و «مذكرات رجل مجنون» و «العربة» و «ملاك الأراضي في العالم القديم» و «ملك الأقزام» (أي «فاي»)، وقد نشرت في صيف عام ١٨٤٥. ولو أنه عرف ذلك لما كان دافعاً إلى أن يحثه على الالتقاء بمترجمه. فمسألة بقائه مجهولاً كانت مهمة بالنسبة إليه وحلمه هو أن يمضي دون أن يراه أحد أو أن يكون موضع إعجاب.

ما لبث أن سئم باريس فركب عربة مسافرين متجهاً إلى فرانكفورت. قضى أربعة أيام وأربع ليالٍ على الطريق، وعلى مبعدة اثنتي عشرة ساعة واجههم الثلج، وقد كتب للكونتيسة فايلجورسكي (في ٥ آذار/ مارس ١٨٤٥) يقول:

«أنفي فقط وصل إلى فرانكفورت إلى جانب عظمتين أو ثلاث مربوطة ببعضها بعضلات كأنها الخيوط».

فزع آل جوكوفسكي حين رأوا كم فقد من وزنه ولمدى عصبيته. كان عبارة عن هيكل عظمي يسير على قدمين، طويل الشعر، كسيفاً. وقد أعلن بأنه سئم العيش على حساب أصدقائه. وقد كتب جوكوفسكي للسيدة سميرنوف طالباً منها أن تتقدم للإمبراطور لكي يمنح كاتباً يعتبر مفخرة لروسيا إعانة مالية. وبما أنها تعرف القيصر فقد قررت أن ترجئ تقديم استرحامها له إلى أن يتأكد لها بأنه في مزاج حسن. حانت الفرصة أخيراً في حفل استقبال في القصر، فتحدثت السيدة سميرنوف، المتعطرة المبتسمة لنيقولاس الأول وتقدمت له بطلب جوكوفسكي بشأن جوجول. قال الملك: «لجوجول موهبة عظيمة في المسرح، ولكنني لا أستطيع أن أغفر له تعابيره الخشنة السوقية». تساءلت: «هل قرأت «نفوس ميتة؟» «أهي له؟ ظننت أنها من تأليف سولوجوب!» نصحته السيدة سميرنوف بقراءة الكتاب الذي تغمر بعض صفحاته وطنية متّقدة. كان ينظر في وجهها أكثر مما يستمع إليها، ووعد في النهاية بمساعدة المؤلف المفلس إكراماً لمن كانت تدافع عن قضيته بكل تلك الكياسة. توجهت مباشرة إلى قائد الشرطة «اورلوف» وأبلغته بالقرار الإمبراطوري. دمدم هذا بارتياب قائلاً: «من هو هذا الجوجول؟» ردّت بحدة: «عليك أن تخجل من نفسك، روسي ولا تعرف من هو جوجول!» فما كان منه إلا أن قال لها: «أية أفكار غريبة لديك وأنت تهتمين بالشعراء العراة!» أخذت وهي تكاد تختنق بسخطها تبحث عن إجابة مدمرة بما فيه الكفاية حين اقترب الإمبراطور ومد يده الضخمة ليحيط بكتفيها بحميمية وقال لأورلوف: «إنها غلطتي، فقد نسيت أن أخبرك بأن من الواجب أن يحصل جوجول على منحة حكومية[1]».

ما لبث أوفاروف، وزير التعليم أن قدم قراراً لتوقيعه من قِبَل الإمبراطور بصرف منحة مالية بمبلغ ثلاثة آلاف روبل فضي (أو عشرة آلاف روبل عادي)

(١) روت السيدة سمير نوف هذا المشهد في يومياتها (في ١١ آذار/ مارس ١٨٤٥).

على أن تدفع على ثلاثة أقساط سنوية بمقدار ألف روبل فضي كل سنة للكاتب نيقولاي فاسيليفتش جوجول» «الذي تستدعي حالته الصحية، في رأي الأطباء، الإقامة لفترة من الزمن في الخارج في طقس معتدل، والعلاج بالمياه المعدنية».

بدأت السحب تنقشع من سماء جوجول، وأراد أن يعبر عن شكره لأوفاروف وقد مسته العناية الإمبراطورية. ولكنه بالغ في الموضوع، شأنه دائماً فكتب لأوفاروف (في أواخر نيسان/ إبريل ١٨٤٥) يقول: «يمكنني أن أعبّر عن عرفاني (للإمبراطور) بالدعاء له. أما بالنسبة إليك فأكتفي بالقول بأنني حزنت لرسالتك لأن ما أنتجته حتى الآن لا يستحق الاهتمام... فعلى الرغم من أن أفكاراً جديرة بالتبجيل هي التي أملت عليّ ما كتبت، غير أن النتيجة الفعلية ظلت هزيلة، وغير وافية بالغرض، وبأسلوب غير صقيل وقليل الجودة بحيث أن القسم الأكبر من قرائي يجدون في كتبي من الضرر أكثر مما يجدون من الفائدة. أقسم بأنه لم يكن في نيتي أن أطلب أي شيء من الإمبراطور. كنت أعد، بصمت، عملاً كان من شأنه أن يكون أكثر فائدة لأبناء بلدي من كل الكتابات المتعجلة التي كتبتها سابقاً. أود أن أشكرك لكل ما فعلته لتعزيز المعرفة ودراسة ماضي بلادنا، وقبل أي شيء آخر، لتأسيس نظامنا التعليمي على مبادئ روسية راسخة».

عرض أوفاروف هذه الرسالة على العديد من الناس الذين سارعوا لكشف محتوياتها. وقد انتشرت الأقاويل في الدوائر الليبرالية بأن جوجول سيبيع نفسه للسلطات لقاء كتلة من السكر. وكتب الرقيب «نيكيتنكو» في يومياته يقول في ٨ أيار/ مايو ١٨٤٥: -

«يا للإذلال للذات من جانب جوجول - إنسان كان يطمح لشجب مساوئ مجتمعنا وألقى بالفعل الكثير من الضوء عليها، لا بدقة وإحكام بالغين فحسب بل بلباقة أيضاً وبمهارة رسام عظيم. يا للأسف، يا للأسف! ولكن هذا يناسب أوفاروف والقلائل غيره تماماً».

لم يعرف جوجول أي معلومات عن تأثير رسالته وهو في فرانكفورت ومشغول بأمر صحته. كانت النوبات العصبية تنتابه بتكرار متزايد، ورسائله الوعظية تعترضها تفجعات مطولة تتعلق بآلامه الجسدية التي أخذت تحول بينه وبين الإبداع. وقد أبلغ السيدة سميرنوف وهو يشكرها للنقود التي طلبها بأن عليها ألا تقلق بعد على حاجاته المادية بل على صحته.

كتب لها (في ١٥ آذار/ مارس ١٨٤٥) يقول: «جسمي كله يرتعش وأشعر بالتجمد باستمرار، وليس هناك ما يمكنه أن يبعث الدفء في جسدي، إلى جانب أنني أصبحت هزيلاً وكأنني مجرد رقاقة، لا قوة لدي على الإطلاق. وأخشى ما أخشاه أن أموت قبل أن أذهب للأراضي المقدسة».

بعد فترة وجيزة كان دور الكونت تولستوي لتلقّي رسالة استغاثة حيث يقول (في رسالة استغاثة كتبت بين ٢٤ و ٢٨ آذار/ مارس ١٨٤٥): «صحتي تتدهور من سيئ إلى أسوأ، والأعراض تنبئني بأن الوقت قد حان أخيراً لمواجهة قدري ولكي أخلي المكان للأحياء، وأنا أشكر الله لكل شيء».

وخلال فترة خفت فيها حدة المرض شرح علّته للكونت تولستوي في رسالة (في ٢٨ آذار/ مارس ١٨٤٥) حيث يقول: «أصبح وجهي شاحباً ويداي متورمتان ومسودتان وليستا أكثر من كتلتين من الجليد، ومجرد لمسهما يبعث الخوف لدي».

وفي نفس اللحظة تقريباً كان يقول للسيدة سميرنوف (في ٢ نيسان/ إبريل ١٨٤٥) «لقد حرمني الله، ولفترة طويلة من قدراتي الإبداعية. إنني أدرك تمام الإدراك بأنني لن أكون قادراً على قول أي شيء يريح أحداً في روسيا إلى أن أذهب إلى القدس».

حين جاء رد السيدة سميرنوف الحزين سمح لعواطفه الرقيقة بالظهور حيث يقول في رسالته (في ١١ أيار/ مايو ١٨٤٥): «صديقتي، روحي، لا تحزني. سنة واحدة وأكون معك ولن تعاني من الشعور بالوحدة بعد. وعندما

تصبح الحياة شديدة المرارة والقسوة بالنسبة لك فسوف أطير عبر الفضاء وأظهر أمامك، وستجدين الراحة لأنه سيكون بيننا شخص ثالث هو المسيح».

بعد فترة من السكون عاودته الآلام، كما عاوده قلقه وشعوره بموجة باردة تسري عبر أوعيته الدموية وتزحف نحو قلبه. وظناً منه أن ساعته قد أزفت كتب وصيته (التي وضعها فيما بعد في مطلع كتابه «مقاطع مختارة من مراسلاتي مع أصدقائي) ويقول فيها:

«١- أطلب أن تلفّ جثتي بكفن حتى تظهر عليها دلائل مؤكدة على التعفن.

«٢- أطلب ألا يوضع أي نصب فوق قبري».

«٣- أطلب ألا يحزن أحد علي».

«٤- إنني أورّث أفضل ما أنتجه قلمي لأبناء بلدي جميعاً. يا أبناء بلدي، إنني خائف! ترتعد روحي فزعاً لمجرد التفكير بجلال الحياة الآخرة.

«٥- أطلب ألا يسارع أحد لامتداح أو إدانة أعمالي في الصحف والدوريات.

وهو يناشد في الفقرة التالية أمه وشقيقاته بأن يتشاركن مع الفقراء في أي دخل قد يحصلن عليه من كتبه. وبعد أن عبّر عن وصيته الأخيرة كتب ملاحظة للأب «بازاروف»، رأس الكنيسة الأرثودكسية في ألمانيا: «أسرع بالحضور لكي تقدم لي العشاء الأخير. إنني أموت».

أسرج القس خيوله وأسرع إلى جانب الرجل الذي يوشك على الموت ولكنه وجده واقفاً ثابتاً على قدميه. أدهشه ذلك فتساءل عن مرضه. أجابه جوجول وهو يمد يديه: «انظر، إنهما باردتان». وقد أصر على أن يتم مسحه النهائي بالزيت، غير أن بازاروف رفض ذلك. وقد كتب في مذكراته يقول: «أفلحت في إقناعه بأنه ليس مريضاً إلى حد يجعله بحاجة لإجراء طقوس العشاء

الأخير في بيته ونصحته بالتوجه إلى فيسبادن وأن يؤدي هناك صلوات الصوم الكبير».

امتثل لهذه النصيحة وتوجه إلى فيسبادن مع جوكوفسكي لكي يصوم ويستمع لطقوس عيد الفصح في الكنيسة الأرثوذكسية المحلية، وعاد إلى فرانكفورت أشد اضطراباً من أي وقت مضى. نصح الأطباء بعلاج في هامبورج وهي ليست بعيدة. ذهب إلى هناك وهو يترنّح. بلدة صغيرة، أنيقة مليئة بالناس المتبطلين الذين يوزعون وقتهم بين المياه، وعجلة الروليت مع وجود أوركسترا تعزف في سرادق، وشمس، ومعجنات ألمانية وحياة رخيّة - وهو في وسط كل ذلك يتآكل بهواجس الفراغ السوداء. وقد كتب لأكساكوف

الذي كان يفقد قدرته على الإبصار تدريجياً (في ٢ أيار/ مايو ١٨٤٥) حيث ينصحه بالاستسلام لحالته باسم أمراضه هو نفسه حيث يقول: «أنت مريض، أنا مريض. دعنا نضع أنفسنا بين يدي الله الذي يعرف بأفضل مما نفعل ما الذي نحتاجه، وماهو الأفضل بالنسبة إلينا، وهو عندما يفقدنا حاسة البصر فإنه يعطينا حاسة الروح ويجعلنا نرى أشياء تجعل من أهل الأرض مجرد غبار».

كتب للسيدة شيريمييتييف (في ٥ حزيران/ يونيو ١٨٤٥) يقول: «صحتي سيئة جداً وأنا أفقد قواي ولست أتوقع نتيجة من الأطباء أو من الفن لأن هذا مستحيل من الناحية البدنية، ولكن كل شيء ممكن بمشيئة الله».

وكتب لدانييلفسكي في نفس اليوم يقول: «لن تنقذني إلا معجزة ربّانية. حياتي على الأرض ليست طويلة على أية حال. أبي كان ذا بنية ضعيفة، وتوفي شاباً حيث مضى لافتقاره للقوة وليس بسبب داء معيّن. وزني ينخفض وأنا أذوب- كل ساعة وليس من يوم ليوم ويداي لا تجدان الدفء قط وهما متورمتان مع وجود ماء في الأنسجة.

والآن وقد أصبح تعباً بحيث لا يستطيع الكتابة أعاد قراءة الفصول القليلة التي كتبها من الجزء الثاني من «نفوس ميتة» والتي كان قد كافح بمشقة لكتابتها في

السنوات القليلة السابقة، وأذهله أن يجدها متوسطة الجودة. فشخصياته الجديدة – المفكر النبيل «تنتتنيكوف»، «وكوستانجوجلو الذي يعمل في التقطير، وهو ملاك أراضٍ مثالي– كانا كالحين وتقليديين. حتى تشيشيكوف كان غير متميز بعد أن أعيدَ إحياؤه في هذه الفصول. لم تكن هذه الفصول تليق بخطة الكاتب الرفيعة، وهي دفع أبناء بلده وإغراؤهم بتصوير عواطف نبيلة. كان هناك حل واحد، وهو الحل نفسه الذي اتخذه بشأن كتابه «هانز كويشلجارتن». ولذا، وفي أحد الأيام الهادئة من شهر تموز/ يوليو ١٨٤٥ ألقى بمخطوطته في النار وشاهدها وهي تشتعل وكأنه يرى عملية ولادة.

كتب جوجول بعد فترة وجيزة يقول (كما ورد في مجموعته «مقاطع مختارة من مراسلاتي مع أصدقائي في الفصل الثامن عشر: «كان من الصعب عليّ إحراق عمل استغرق خمس سنوات دفعت ثمنه توتراً مرضياً، وكل سطر منه كلفني اضطراباً عصبياً وكان بعضها ثمرة أفضل تأملاتي. غير أن كل ذلك أحرق، وفي ساعة كنت خلالها أرى الموت أمام عيني، وكنت أتحرّق لكي أبقي ورائي شيئاً واحداً يمكن أن يعطي فكرة أفضل عني. أشكر الله لأنه منحني القوة كي أفعل ما فعلت، وفي اللحظة التي التهمت فيها أشعة اللهب آخر صفحة من صفحات كتابي ولدت محتوياته من جديد واضحة نقية وكأنها طائر الفينيق يخرج من تحت الرماد. وفجأة أدركت الفوضى التي تعمّ ما كنت أحسبه مرتباً ومنسجماً. فنشر الجزء الثاني، كما كان في ذلك الوقت، كان سيضر أكثر مما ينفع. ليست بي حاجة للاستعجال، فليسرع الآخرون. إنني أحرق دونما تردد عندما يكون الإحراق ضرورياً، وما أفعله هو الصحيح لأنني لا أفعل شيئاً دون أن أصلي. أما بالنسبة لمخاوفك بالنسبة إلى سوء صحتي فإنها مخاوف لاجدوى من ورائها، فجسمي هو الواهن وليس روحي، بل إن روحي تزداد قوة وصلابة، وسيزداد جسمي قوة أيضاً. إنني مقتنع بأنه، عندما يحين الوقت المناسب، فإن أسابيع قليلة ستكون كافية لإنجاز ما لم أستطع إنجازه خلال خمس سنوات من المرض».

خطة أخرى سهّلت عليه احتمال آلام محنة ذلك الإحراق وكانت قد استغرقت تفكيره في الآونة الأخيرة، وهي خطة فيها فائدة كبيرة لروسيا وإن كان تنفيذها في نظره يتطلب تجاوز مصاعب كبيرة. فهي تقوم على جمع واستكمال وتجليد مجلد يحوي الرسائل التي لا تنقطع والتي كان يكتبها لكل من هبّ ودبّ. فقد قال للسيدة سميرنوف (في ٢ نيسان/ إبريل ١٨٤٥): «صلي لله لكي يمنحني الإمكانية لإعداد ما يتوجب عليّ إعداده قبل مغادرتي (إلى القدس). سيكون كتاباً صغيراً وبعنوان متواضع جداً ولكنه ضروري بالنسبة للكثيرين. كما أنه سيأتيني بالمال اللازم لرحلتي».

هنالك ميزة أخرى لهذه المجموعة «الصغيرة» وهي أنها ستكتب نفسها، فيما قد يوصف بأنه خلق بدون ألم. وهي ستتابع ما كانت نفوس ميتة قد فشلت فيه وتوقفت عنده. أي راحةٍ ستوفرها للكاتب! غير أن مراسلاته نفسها أخذت ترهقه. عليه أن يجرّب منتجعاً مختلفاً. أما الأطباء المحليون فقد عجزوا عن الاتفاق على علاج ينصحونه به. من الأفضل له إذن أن يتوجه إلى برلين لاستشارة الطبيب الشهير الدكتور «شوينلاين». ذهب إلى هناك برفقة الكونت تولستوي وتوقفا في طريقهما في «هاله» للاستنارة برأي الدكتور «كروكينبرج». وقد أعلن هذا بعد فحصه بدقة بأنه يعاني من تشوش عصبي خطير، ونصحه بقضاء ثلاثة أشهر في جزيرة «هلجولاند» التي تتمتع بمناخ منشط إلى أقصى حد. غير أن جوجول تشكك بهذا الرأي وعبّر عن رغبته باستشارة الدكتور «شوينلاين» قبل اتخاذ قراره. ولكنه وصل إلى برلين بعد أن كان هذا الرجل العظيم قد غادرها. وبعد اهتياج شديد استمر عدة أيام قرر رؤية الدكتور «كاروس» في درسدن كخيار ثانٍ. وبعد أن وجّه هذا أسئلته وجسّه وتحسسه أبلغه بأن لا علاقة لأعصابه بما يعاني منه، وأن المشكلة هي في كبده وحده. فقد تضخم وأخذ يضغط على رئتيه، وهذا يؤدي إلى عدم توازن عصبي وتضاؤل وصول الأكسجين إلى الدم. الدواء الوحيد في مثل هذه الحالات هو فترة علاج مطوّلة في «كارلسباد».

امتثل جوجول لهذه الخطة، فكل منتجع يطرد سابقه على مدى حياته بحيث أصبح خبيراً لا يجارى بأمر المياه حيث يتجرع كأساً بعد كأس، يقارن بين ينابيعها، ويتفحص أي ارتعاشة أو طنين في جسمه آملاً تحري أي علامة على التحسّن. غير أن قوته ظلت تتضاءل على الرغم من التزامه الدقيق بأوامر الطبيب. لم تفده كارلسباد، وحبوره الوحيد تركز على رسالة تلقاها من السيدة سميرنوف تبلغه فيها أن زوجها عيّن لتوّه حاكماً لكالوجا. وهنا استيقظ لديه على الفور أستاذ علم الأخلاق وأرسل لتائبته توجيهاته حول التصرف المناسب لزوجة حاكم ذات ضمير حي، حيث يقول في رسالة لها بتاريخ ٢٨ تموز/ يوليو ١٨٤٥»:

«احرصي دائماً على ارتداء ملابس بسيطة، وعلى الاحتفاظ بأقل عدد من الأثواب، وكرري الحديث عن تواضع الإمبراطورة والبلاط فيما يتعلق بالملابس. وكلما سمعت بسيدة في مجتمعك تعاني من مرض أو مسّها حزن، أو تواجه صعوبة ما، أو حدث لها أي شيء ما فأسرعي لتكوني إلى جانبها. انتبهي لعمل زوجك وواجباته لكي تعرفي ماذا يعني بالضبط أن يكون حاكماً، وماهي الإنجازات المتوقعة منه، وماهي حدود سلطته. أعيدي قراءة هذه الرسالة وامعني التفكير بكل ما تحتويه في الوقت المناسب حتى لو بدا هذا الأمر قليل الأهمية بالنسبة إليك».

وبحكم اقتناعه بأنه يملك الحكمة بداهة فلم يكن لديه أدنى شك بأن السيدة سميرنوف ستتمكن، بفضل نصائحه الطيبة، من إلهام زوجها بأداء مهماته الرسمية وفقاً لمبادئ الصالح العام واحترام إرادة الله. وقد يصبح حاكم كالوجا مثلاً يحتذى بالنسبة لجميع الحكام في روسيا، وقد يبدأ الانبعاث الروحي للبلاد في هذا الموقع الريفي، ولن يكون عندئذ عمل جوجول بلا طائل. لو أن الأطباء تمكنوا من العناية بجسمه كما استطاع هو العناية بأرواح أصدقائه! غير أن أياً من هؤلاء الأطباء لم يكن قادراً على فهمه.

كانت مياه كارلسباد الفاترة، الكبريتية المليئة بالصوديوم تثير اشمئزازه ولكنها لم تحسّن حالته فقرر أن يجرّب حظه في «جريفنبرج» في «سيليسيا» حيث يعمل الدكتور «فينسنت بريسنتز» والذي ينصح دائماً بحمامات الماء البارد المنشطة. وقد شاع أن هذا المعالج الذي راجت شهرته حينذاك يستطيع أن يعيد للمرضى قوتهم بحيث يمكنهم الوقوف على قدميهم من جديد بعد عدة جلسات. غير أنه، على الرغم من تلهفه لتجربة تأثير نوع جديد من العلاج فقد قطع رحلته في براغ إذ أدهشته المدينة القديمة بجمالها بحيث نسي تعبه وأسرع لإبداء إعجابه بالقصر الملكي وكاتدرائية القديس فيتوس وكنيسة صعود مريم العذراء إلى السماء، وساعة الفصول، والجسر فوق الفولتافا بتماثيل القديسين التي تزينه، والمتحف الوطني حيث رحّب به «جانكا» القيّم عليه بحماس، وعندما صعد من جديد إلى عربة السفر سيطرت عليه الارتعاشات وتلبّسه القلق من جديد. وفي جريفنبرج تولي العاملون لدى المعالج بريسينتز أمره بكل شدة وإفراط بحيث أن نظام العلاج المائي الذي مارسوه عليه قلما ترك له وقتاً لالتقاط أنفاسه».

كتب لجوكوفسكي (في ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٨٤٥) يقول: «ليست لدي دقيقة واحدة هنا لأفكر بأي أمر على الإطلاق أو بكتابة رسالة من سطرين. إنني أعيش حالة حلم. ألَفّ أحياناً بالملاءات المبلولة، وأحشر أخرى في حوض استحمام ثم أُفرك ثم أُرش وبعد ذلك عليّ أن أركض في دائرة لكي أتدفأ. لا أشعر بشيء إلا بملامسة الماء البارد لجلدي، ولست قادراً على أي شعور أو تفكير آخر على الإطلاق».

بدا أولاً أن العلاج يحدث بعض التأثير إذ أصبحت أطرافه أكثر دفئاً وأخذ ينام بصورة أفضل ويتنفس براحة أكبر غير أنه لم تكن لديه الشجاعة لتحمل العقوبة حتى النهاية. لذا عاد وقد أتخم بالماء إلى برلين حيث قيل له إن الدكتور «شوينلاين» عاد. استقبله الطبيب اللامع وانفجر ضاحكاً حين علم بأن زميله «كاروس» شخص الحالة على أنها تضخم في الكبد، وأعلن أن المريض يعاني من داء عصبي في الجهاز الهضمي وعليه أن يستحم بماء ملحي حالما يسمح

الطقس بذلك. ووصف له حتى ذلك الحين بعض الحبوب ونقط معالجة نظيرة! (معالجة المريض بدواء لو أعطي لشخص سليم لأصيب بالمرض)، وتدليكاً بالماء البارد، وعلى أن تشكل الخضار واللحوم الأساس لغذائه وتناول القهوة بدلاً من الحليب. . . .

توجه جوجول وقد زوّد بهذه التوجيهات إلى روما مدعياً بأن مناخها طالما نشّطه. وبناءً على طلبه استأجر له إيفانوف شقة صغيرة في «فياديلا جروسي ٨١» قرب ساحة «دي إسبانيا». غير أن صحبة الرسامين خيبت آماله. فقد بدا إيفانوف اقل تقى مما كان عليه من قبل. كيف يمكن للرجل متابعة رسم لوحة «المسيح يظهر على الملأ» في حين أنه لا يذهب إلى الكنيسة؟ كان جوجول كثيراً ما يذهب إلى الكنيسة الأرثودكسية الصغيرة لأداء الصلاة، ويلتقي هناك بالبعض من زملائه الروس الذين يبعث ترددهم إلى الكنيسة على الطمأنينة، بمن فيهم الكاتب التقي «ألكسندر ستوردزا» والكونتيسة «صوفيا أبراكسين»، شقيقة الكونت تولستوي. وفي وقت لاحق من تلك السنة تهيج هذا العالم الصغير بشدة نظراً لزيارة القيصر نيقولاس الأول الذي جاء للتفاوض على اتفاقية مع البابا لتنظيم شؤون رجال الدين الكاثوليك في روسيا ولنيل بركته لاحتمال زواج «مختلط بين الدوقة» «أولجا» والأرشيدوق ستيفن، ابن الأرشيدوق الهنغاري «جوزيف». إذ منذ سحق الانتفاضة البولونية التي قامت بين عامي ١٨٣٠و١٨٣١ التي قام خلالها رجال الدين البولنديون الكاثوليك بدور نشط اعتبر القيصر نيقولاس الأول عدواً لدوداً لروما. اعتمدت حاشية الحبر الأعظم وجهة نظر معادية لاقتحام رأس الكنيسة الأرثودكسية الجدران المقدسة للفاتيكان. بل يقال إن الكاردينالات نصحوا البابا جريجوري السادس عشر بالتظاهر بالمرض ليتجنب هذا المسعى المحرج. غير أن البابا لم يفعل أي شيء من هذا القبيل واستقبل نيقولاس بود كبير وناقش بنود الاتفاقية معه. وقد شاع في الكولونة الروسية حينذاك أن القيصر كان حازماً جداً واستنكر انعدام الانضباط لدى رجال الدين الكاثوليك الروس الذين يعمد معظمهم لإهمال الطبيعة الرسولية لمهمتهم ويعظون

داعين للتمرد على السلطات الحاكمة. غير أن دوائر الكنيسة الإيطالية أكدت أن البابا هيمن على الزائر وأقنعه بالخضوع.

رفض نيقولاس الأول إقامة حفل استقبال للسلك الدبلوماسي والطبقة الأرستقراطية في روما وكرّس أوقات فراغه كلها لزيارة الأماكن التذكارية والكنائس القديمة والمناطق الأثرية والمتاحف. كما قام بجولة سريعة على استوديوهات الرسامين الروس، وأعجب بلوحة إيفانوف هائلة الحجم وكلف بشراء نسخ من عدد قليل من المنحوتات الكلاسيكية. كان بإمكان جوجول أن يرتب بسهولة أمر تقديمه للقيصر ولكن جبنه أصابه بالشلل. لم يكن قد كتب شيئاً مهماً لسنوات وكان يخشى أن ينظر إليه متبطلاً أو شخصاً عاقاً تشرف منذ فترة وجيزة بنيل منحة حكومية. أثاره الموقف بعمق فاكتفى بالاختلاط بالجموع التي كانت تراقب العربة الملكية وهي تتحرك عبر شارع «مونت بينيشيو». وقد تبين له أن ملامح نيقولاس الأول توحي «بالإلهام»، وشعر بالفخر لكونه روسياً.

كتب لأمه (في ٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٥) يقول: «شأن كل امرئ هنا رأيت الإمبراطور ثلاث مرات، وللحظة خاطفة في كل مرة. مكث أربعة أيام في روما وكان مشغولاً بحيث لا يمكنه استقبال صغار الناس، وهذا يشملني. سررت لأنني علمت بأن صحته جيدة وروحه عالية وصليت من أجله من كل قلبي».

كما كان القيصر محسنه فقد كان يرغب بشدة بأن يحسن هو للناس الآخرين، وعدم وجود المال لديه ليس عائقاً. وعند الاضطرار يمكن للمرء أن يتبرع بما لا يملكه. عاودته فكرته السابقة والتي تقوم على الإحسان للطلاب الفقراء والمستحقين. وبما أن شيفرييف لن يتصرف كما يطلب منه فيمكن لأكساكوف الذي أصبح نصف كفيف أن يتولى الموضوع. وقد كتب له (في ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٤٥) «لا تسمح بصرف كوبيك واحد لأي غرض آخر، وليوضع المال في مكان واحد ويحفظ كوديعة مقدسة. لقد أقسمت بذلك أمام الله».

أعاد ترديد جميع وصاياه ولكنه لم يكن كبير أمل في أن يتم الامتثال لها أثناء حياته. كان بإمكان أصدقائه أن يبقوا على المال في أدراجهم، أو هذا ما يتراءى له. يا لبؤس إنسان لا يستطيع أن يتدبر أموره دونهم! ضعفه هو الذي يضعه تحت رحمتهم.

كتب لأكساكوف يقول في رسالته سالفة الذكر: «على الرغم من حدوث تحسّن طفيف فإن صحتي ما تزال ترفض العودة لطبيعتها. إنني ضعيف جداً. وما لا أستطيع فهمه هو أنني أشعر بالبرد بحيث لا أستطيع أن أبقى جالساً في غرفتي، بل أجدني مجبراً على الركض باستمرار لكي أتدفأ. وفي اللحظة التي أشعر فيها بالدفء وأدخل إلى غرفتي أحس بالبرد ثانية على الرغم من أن الغرفة دافئة إلى حد كبير، ولذا يتوجب عليّ أن أخرج من جديد وأركض. ينقضي النهار كله في هذا السباق الذي لا ينتهي ولا يعود لديّ من الوقت ما يمكنني من كتابة رسالة واحدة. ولكن لم الحديث عن هذا البؤس الجسدي؟ فمن الإثم أن أفعل ذلك، إذ أن هذا إنما سلّط من أجل صالحنا».

كتب لجوكوفسكي بعد ثلاثة أيام يقول: «ذهني الذي ضعف يدرك فعلاً الفائدة الكبرى التي أجنيها من هذه الأمراض. فهي في النهاية تنضج أفكار المرء. وما يبدو أنه يبطئ في عمل المرء إنما هو يسرّعه في الواقع. إنني أشحذ قلمي. صل لله بقوة من أجلي».

وكتب لبلتنييف في اليوم ذاته يقول: «فلتتبارك إرادة الله، لكل القرون القادمة، لإرادته بإرسال هذه الأمراض. فلولاها لما تسنى لروحي أن تتعلم بالأسلوب المناسب استعداداً للمهمة التي تنتظرني وسيكون ميتاً ومدفوناً كل ما ينبض بالحياة في هذه الحياة نفسها، وكل ما هو جميل وصادق كالحقيقة نفسها».

بدا له الآن أن أعماله السابقة خانت هذه «الحقيقة» والتي كان يجاهد بكل قوته للوصول إليها، وذلك نتيجة لخلل في براعته الفنية ولافتقاره للعزم اللازم.

يقول في رسالة إلى السيدة سميرنوف (في ٢٥ تموز/ يوليو ١٨٤٥): «لست راضياً يا صديقتي عن الأعمال التي نشرتها حتى الآن، خاصة «نفوس ميتة». غير أنه ليس من العدل أن تلومي الكاتب لأنه هزئ من المناطق الريفية وصوّرها بطريقة كاريكاتورية، تماماً كما أنه من غير العادل بالنسبة إليك أن تمجديه بإفراط. لا تجعل نفوس ميتة من الحياة في المناطق الريفية ولا من بعض ملاك الأراضي الشنيعين وما يلصق بهم من تهم موضوعاً لها، بل الموضوع ما يزال سراً سيكشف عنه فجأة في الأجزاء التالية مما سيذهل الجميع (إذ إن أي قارئ لم يخمّن ذلك)، هذا إن أكرمني الله ومدّ في عمري ومنح بركاته لعملي. أكرر لك بأن الموضوع ما يزال سراً ومفتاحه يبقى في روح الكاتب».

كان يفضل في بعض الأحيان ألاّ يتحدث أحد عن كتبه السابقة بحضوره. وأحد الأسباب التي تجعله يفضل أن يعيش في الخارج هو أن أحداً لا يعرفه هناك. غير أن «سان – بوف» في باريس كان سينشر مراجعة يمتدح فيها الترجمة التي قام بها «لويس فياردو» بمساعدة الكاتب الروسي المعروف تورجنيف». لمجموعة جوجول وتحمل عنوان «أقاصيص روسية» في عدد كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٥) من مجلة «ريفيودي دو موند». وقد جاء في المقال:

«باختصار، سيصبح اسم جوجول، وبفضل نشر هذه المجموعة من قبل السيد فياردو، معروفاً في فرنسا كإنسان يملك موهبة حقيقية، ومراقب حصيف وعنيد للطبيعة الإنسانية». وما لبث أن ظهر مقال آخر في دورية «لو إلاستراسيون»، وثالث في «لي ديبا». وظهرت ترجمة ألمانية لنفوس ميتة في لايبزيج. فإلى أين يهرب الرجل من هذه الشهرة الرديئة؟ وكأنما لم تكن لتكفيه سخرية الجمهور الروسي الغبية التي تشبه الهذيان! عليه أن ينتظر الآن صراخ الفرنسيين والألمان، وغداً، من يدري، الإنجليز والإيطاليين! ما يريده هو السلام والهدوء، وليست به رغبة في أن يصبح شخصية عالمية، وأكثر ما يخشاه هو أن يعطي انطباعاً سلبياً عن روسيا في الخارج.

يقول في رسالة إلي ياسيكوف (في ٨ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٦) «لقد أزعجتني أنباء الترجمة الالمانية لنفوس ميتة. فبالإضافة إلى حقيقة أنني لست أتشوق لتعرف الأوروبيين عليّ بعد، فإنني أعتبر ظهور هذا العمل مترجماً قبل أن يستكمل هو أمر مؤسف. لست أريد للأوروبيين أن يقرؤوه ويرتكبوا نفس الخطأ الذي ارتكبته غالبية أبناء وطني الذين أخذوا «نفوس ميتة» على أنها صورة لروسيا. ولقد قرأت بالفرنسية بالفعل شيئاً عن قصصي القصيرة في كل من «ريفيو دي دو موند» وفي «لي ديبا». لا خطر حتى الآن. ستغرق المجموعة في النسيان شأن إعلانات الصحف التي تروّج لآخر حبوب أنتجت، أو مرهم خاص بصباغة الشعر، وهكذا سينتهي أمرها».

باقتراب السنة الجديدة (١٨٤٦) رسم مخططه المعتاد لرصيد مشاريعه، وهالته ضآلة ما أنجز بالمقارنة مع ما يتوجب عليه إنجازه. ولكنه لن يحقق ما يهدف إليه إلا بعون من الله، ولكن الله يسانده وهو يشعر بوجوده إلى جانبه حتى في أوجاعه، بل وحتى في نوبات الدوار التي يعاني منها. اندفعت بقوة صلاة مهتاجة في ذهنه المحموم، فأمسك بدفتر ملاحظاته وأخذ يكتب بيد مرتجفة.

«يا إلهي، باركني في فجر هذه السنة الجديدة، فلأكرسها كلياً لجهد مثمر ومفيد، ولأخصصها برمتها لخدمتك ولخلاص الأرواح، ولتنزل علي الروح المقدسة، ولتتكلم عبر شفتي، ولتقدّس وجودي بمحو بذاءاتي، وآثامي، ووضاعتي وتحولني إلى مذبح يليق بحضورك يا إلهي! يا إلهي، يا إلهي، لاتهجرني! يا إلهي، يا إلهي، تذكر حبّك السابق لي! باركني يا إلهي، أعطني القوة لكي أحبك، وأمجدك، وأعليك، ولأحمل من هم بجواري لتمجيد اسمك المقدس».

اغتسل وجهه بالدموع بعد هذا الدفق وشعر بأنه كفء لمهمة كتابة، إما تكملة لنفوس ميتة أو مجموعة من الرسائل الرائعة حقاً لأصدقائه.

□ □ □

٢ ـ مقاطع مختارة من مراسلاته مع أصدقائه

لم تأت السنة الجديدة بأي تغيير على الرغم من رغبة جوجول القوية في تجديد طاقته كما تبين من الصلاة التي تدفقت منه بقوة (في ليلة ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٥). ظلت روما، وشمس الشتاء الباردة، والارتعاش، والألم المبرح وتقلصات المعدة كلها على حالها، وكذلك الصعوبة في الاستقرار والجلوس لكتابة نفوس ميتة. ولكي يريح ضميره أقنع نفسه بأن الأهم هو المهمة العاجلة التي تنتظره الآن وهي أن ينهي المقاطع المختارة من مراسلاته.

كتب لياسيكوف (في ٢١ نيسان/ إبريل ١٨٤٦) يقول: «بالنسبة إلى رسائلي احتفظ بها، فبعد مراجعة كل ما كتبته مؤخراً لأناس مختلفين، وبصورة خاصة لأولئك الذين يحتاجون مساعدة روحية والذين كانوا يطلبون مني أن أمد يد العون لهم، فإنني أرى أن بالإمكان إنجاز كتاب منها قد يكون فيه بعض العون لأناس يعانون في مختلف دروب الحياة. فالعذابات التي عانيت منها أنا نفسي كانت ذات فائدة لي، وبفضلها استطعت مساندة الآخرين. سوف أحاول إعداد هذه المادة وسأضيف نظرة أخرى إلى الأدب».

بينما كان بصدد تحويل رسائله الشخصية إلى مراسلات عامة وصلته أصداء أدبية عاصفة من روسيا. فهنالك كتّاب شبان يكتسبون شهرة كما فعل هو من قبل... وبدا وكأن الموجة التي رفعته إلى الأعلى آخذة بالانحسار ببطء قبل أن تندفع في موجة تالية. وقد كتب له ياسيكوف (في ١٨ شباط/ فبراير

١٨٤٦) يقول: «عبقري جديد ظهر لتوه في سانت بطرسبرج، شخص اسمه دستويفسكي كما ذكرت «حوليات الوطن».

وأعلن بلتنييف (في ٤ آذار/ مارس ١٨٤٦): «بيلنسكي وكرايسكي مهتاجان حول شخص اسمه ديستويفسكي. وقد رأى البعض في القادم الجديد جوجول آخر». وكان كتابه الأول «الناس الفقراء» بمثابة إجلال للمقهورين مثل «المعطف».

كان على جوجول أن يعرف، وبعد أن رأى الرواية كتب لأنا فايلجورسكي (في ١٤ أيار/ مايو ١٨٤٦) يقول: «يظهر مؤلف «الناس الفقراء» موهبة، واختياره لموضوع روايته يدل على نوعيته الروحية. . . . غير أنه يمكن للمرء أن يدرك بأنه ما زال شاباً. إذ هنالك الكثير من الحشو في الكلام والقليل من التركيز الداخلي. كنت سأجد الكتاب أقوى وأكثر حيوية لو أحكم تضييق النص».

وهو يأمر مراسلته في نفس الرسالة بأن تصلي من أجله فهو يحتاج «في وسط عذاباتي إلى «دقائق من صفاء التفكير» يمكنه أن يقول خلالها كل ما في ذهنه. وبما أن روما، ولأسباب لا يستطيع تفسيرها تمنع عنه «لحظات صفاء التفكير» هذه. فقد قرر فجأة أن يسعى للوصول إلى هذه اللحظات في باريس مع الكونت تولستوي.

عاد إلى غرفته السابقة في فندق ويستمنستر في شارع» رو دو لا بي» ولكنه لم يعر اهتماماً أكبر مما فعل في المرة السابقة للحياة الفكرية والسياسية الفرنسية.

كانت باريس ترتدي أبهى حللها. فقد كان الملك لويس فيليب يستضيف إبراهيم باشا وكان ألكسندر دوماس ينشر رواية «الكونت مونت كريستو»، وجورج صاند تنشر «da Mare au Diable». ولكن لا شيء من كل ذلك يستحق أن يلاحظه. زار أنينكوف جوجول فوجده ضعيفاً وهرماً. وقد كتب أنينكوف في كتابه «جوجول في روما» يقول: «عملية داخلية عميقة طبعت علامات تدل

على الإنهاك والتعب على سيماء وجهه: غير أن مزاجه العام بدا أكثر إشراقاً مما كان عليه من قبل. كان وجه فيلسوف».

وبعد أيام قليلة، وكان أنينكوف نفسه قد غادر باريس إلى «بامبرج» في بافاريا. فقد ذهل غاية الذهول وهو يمشي في أحد الأيام حين رأى شخصاً ذا أنف شديد الطول ومعطف قصير جداً يشبه في كل شيء مؤلف «نفوس ميتة». كان جوجول في طريقه إلى «أوستند»، وقد نزل مع بقية الركاب من عربة السفر لترويض ساقيه. كانت العربة ستتابع طريقها بعد ساعة. زار الصديقان الكنيسة القديمة الشهيرة التي بنيت في القرن الثالث عشر حيث أظهر جوجول خبرته في الفنون المعمارية. ولدى خروجهما من الكنيسة أخبر أنينكوف بأنه ينوي نشر «مقاطعه المختارة» في وقت قريب، وأن الكتاب سيكون مثل هبة من الهواء العذب وسط مزيج من ضباب وأدخنة الحياة الحديثة. وقد التمعت عيناه بنور اليقين العنيد. وفي اندفاعة اللحظة فرض على صديقه قضاء فصل الشتاء في نابولي وأضاف: «سأكون أنا نفسي هناك، وستسمع في نابولي أموراً لا تتوقعها. سأبلغك بأشياء تتعلق بك، أجل، تخصك شخصياً. ولا يمكن للمرء أن يتنبأ من أي مكان سيأتيك العون. أقول لك، إذهب إلى نابولي وسأطلعك هناك على سرٍ ستشكرني عليه»... وبعد ذلك تحوّل إلى الاضطرابات في أوروبا: «لقد بدأ الناس يخافون من أن الاضطراب الأوروبي – البروليتاريا – سيأتي إلينا. إنهم يتساءلون لماذا لا يتم تحويل الموجيك (الفلاحين الروس) إلى مزارعين ألمان. لماذا هذا التساؤل؟ هل يمكن أن ينفصل الموجيك عن الأرض؟ أي نوع من البروليتاريا ترى فيهم؟ فكر كيف يبكي الفلاح الروسي عندما يرى الأرض. البعض منهم يرتمي ليغمرها بالقبل وكأنها المرأة الحبيبة! ألا يعني هذا شيئاً!» كان يتكلم بعاطفة شديدة وقد ثبت عينيه على الأرض، لا ينظر لأحد ولا لشيء.

كتب أنينكوف يقول: «كان جوجول مقتنعاً بأن روسيا بلد فريد، تخضع لقوانين خاصة لا يملك عنها أحد في أوروبا أية فكرة»..

عندما عاد إلى العربة كان الحوذي يطلق صفير بوقه . . . صعد جوجول إلى العربة وحشر نفسه بشكل مائل مستنداً على كتف رجل ألماني عجوز متخم وقال لانينكوف: «وداعاً! تذكر كلماتي. فكر في نابولي». وفي اللحظة التالية كان يتأرجح ، وقد غرق في تأملاته ، على طريق لا يأتي له بجديد.

بعد استشفاء آخر بالماء البارد في «جريفنبرج» علي طريقة الدكتور بريسنيتز انضم لآل جوكوفسكي في «شفالباخ». وفي هذه الأثناء، وإبان وجوده في محطات التوقف وغرف الفنادق كتب المسودات الأولى من «المقاطع المختارة». لم يصادف هذه المرة أية صعوبات في تشكيل هذه النصوص المبنية على الأفكار الأثيرة لديه والتي كان كثيراً ما يسهب في الحديث عنها في رسائله وأحاديثه. والسهولة التي تمكن من خلالها من إنتاج مادته أقنعته بأنها ممتازة ، وبأن الاستحسان الإلهي وحده قد يفسر تدفق قلمه على الورق دونما عوائق. وفي (٣٠ تموز/ يوليو ١٨٤٦) أرسل الفصول الست الأولى إلى بلتنييف في كراس بخط يده إلى جانب اقتراحات قاطعة مهمة في رسالة مؤرخة في اليوم نفسه حيث يقول: -

«وختاماً، هذا ما أطلبه! عليك أن تمتثل لما أقول كما يمتثل الصديق المخلص لصديقه. اترك كل شؤونك الأخرى واهتم بطباعة هذا الكتاب الذي سيحمل عنوان: «مقاطع مختارة من مراسلاتي مع أصدقائي». الكتاب ضروري، ضروري جداً للجميع. هذا ما يمكنني أن أقوله لك الآن ، ولكن الكتاب سيفسّر ما تبقى ، إذ سيتضح كل شيء عندما تنتهي الطباعة ، وسيتلاشى على الفور كل سوء الفهم الذي يعذبك. يجب أن تتم الطباعة بهدوء، وألا يعرف بأمرها أحد سواك أنت والرقيب. اختر نيكيتنكو كرقيب إذ إنه أكثر ميلا لي من الآخرين ، وسأكتب له ملاحظة. هيِّء ورقاً لطباعة ثانية منذ الآن ، فأنا متأكد بأن طبعة ثانية ستتلوها على الفور ، وهذا الكتاب سيسير سيراً أفضل من كل كتبي السابقة لأنه كتابي السليم الوحيد».

بعد يومين كتب للرقيب نيكيتنكو يقول: «لست قلقاً على الإطلاق بشأن هذا الكتاب ، إذ إنني واثق من حسمك الكريم للأمر وكذلك من براءة الكتاب

الذي جعلت من نفسي الرقيب الأكثر حزماً عليه حين كتبته. وحتى لو افترضنا توقفك عند عبارة ما عند النظرة الأولى فإنني متأكد بأن نهاية الكتاب ستفسر معناها بصورة أكبر وأنك ستدرك، باختصار، أنها ضرورية له».

توجه بعد ذلك إلى «أوستند» لبناء قوته بالاستحمام في مياه البحر خلال الفصل الحار. وبعد الارتعاش لدى إلقاء نفسه في الموج كان يبقى في غرفة الفندق حيث يأخذ قلمه ليصدر دروساً لمعاصريه في الأخلاق، والدين، والأدب، والإدارة، والاقتصاد السياسي، والعدالة والوطنية. وما لبثت ثلاثة كراسات أن غادرت أوستند إلى عنوان بلتنييف. أما الكراس الخامس والأخير فقد أرسل من فرانكفورت التي توجه إليها في أوائل تشرين الأول/أكتوبر للإقامة مع جوكوفسكي من جديد. غير أن نيكيتنكو لم يكن في عجلة فيما يبدو لإصدار رأيه.

كتب جوجول لبلتنييف (في ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٤٦) يقول: «استحلفك بحق السماء أن تستخدم كل ما في وسعك وكل ما لديك من وسائل لتسريع طباعة الكتاب. عليك أن تفعل ذلك من أجلي ومن أجل الآخرين. باختصار: من أجل الجميع. وفور نشر الكتاب هيئ كل النسخ الضرورية وقدمها لجميع أفراد العائلة الإمبراطورية بمن فيهم الأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد بعد- ولكل كبار الدوقات، ولكن لا تتقبل أية هدايا. غير أنه إن عرض عليك أحد مالاً للحجاج الذين قد أصادفهم في طريقي إلى الأرض المقدسة فخذه ولا تتردد».

بينما كان ينتظر طبع «مقاطع مختارة» تجذرت فكرة تنويرية أخرى في ذهن جوجول. فبمناسبة إعادة إحياء «المفتش العام» في سانت بطرسبرج وموسكو، فقد فكر بإضافة مشهد آخر بعنوان: «حل عقدة المسرحية في المفتش العام» حيث كان سيضاف للطبعة الرابعة لهذه المسرحية الكوميدية، على أن توزع أرباح مبيعاتها على الفقراء بواسطة لجنة حددها الكاتب في مقدمته الأخيرة: أودويفسكي، الدوقة فايلجورسكي، والدوقة داشكوف وأركادي روسيت

(شقيق السيدة سيمرنوف)، والسيدة أكساكوف، والسيدة إيلاجين، وأليكسيس خومياكوف وبيتر كريفسكي الخ . . . . وموضوع «حل العقدة» في المسرحية كان البساطة مجسّدة . . . فقد كان على جوجول أن يوضح بأن مسرحيته هي مسرحية كوميدية لا تمثل هجاءً نفسياً واجتماعياً فقط. بل إن لها أهمية روحية غير ظاهرة للعيان لم يتنبّه لها أحد إلى الآن، حتى هو نفسه. وعندما ترتفع الستارة يتوّج الممثل الأول الممثل الأكثر إثارة للضحك» شيشيبكين بإكليل من الغار من قبل بقية الممثلين لأنه خدم فنه بشكل متميّز. ولكن الناس، بتعبيرهم عن إعجابهم، إنما يريدون أن يعرفوا المعاني العميقة لهذه المسرحية، المفتش العام، والتي حقق فيها هذا الممثل العظيم انتصاراً آخر: لا شك بأن المؤلف أراد فقط السخرية من معاصريه. وعند ذلك سيوضح شيشيبكين مفتاح المسرحية لجمهوره غير المبصر، حيث سيقول:

«فكروا بإمعان بالبلدة التي رأيتموها في هذه المسرحية. الجميع متفقون بأنه لا توجد مثل هذه البلدة في روسيا. فماذا إن كانت هذه هي بلدة أرواحنا التي تكمن في داخل كل منا؟ فلنتفحص أنفسنا، إن أمكن بعيني الله الذي سيدعو جميع بني البشر يوماً ما للوقوف بين يديه، ولا تنسوا أن الجميع سيخفضون أبصارهم أمامه ولو كانوا أفضل من هم بين ظهرانينا. ومهما يمكنك أن تقول فإن المفتش العام الذي ينتظر أمام باب القبر يظل مرعباً. هل تدّعون بأنكم لا تعرفون من يكون؟ لماذا تتظاهرون؟ هذا المفتش العام هو ضميرنا المستيقظ والذي يجبرنا، فجأة وفي ومضة واحدة، على رؤية أنفسنا كما هي على حقيقتها. لا يمكن إخفاء أي شيء عن هذا المفتش العام فهو يتصرف بموجب توجيهات عليا. يدق على كل باب باسمه ولكنه لا يقدم له بطاقته الشخصية إلى أن يفوت وقت التغيير. ثم تكتشف فجأة أشياء مرعبة في نفسك يقف لها شعر رأسك. علينا عندما ننطلق في الحياة أن نستأجر مفتشاً عاماً ونتفحص معه ماذا في داخلنا - مفتشاً عاماً حقيقياً وليس زائفاً. ليس خلستاكوف فهو لص انتهازي يختطف ويهرب، خليستاكوف هو ضمير المجتمع. أقسم لك أن مدينة روحك تستحق كل المتاعب التي تخوضها من أجلها كما يفعل ملك من أجل مملكته. وكما

يطرد مثل هذا الملك كل المسؤولين غير الشرفاء من أرضه فإن علينا نحن أيضاً، وبكل نبل وحزم، أن نطرد كل الغشاشين والمخادعين الداخليين. هناك وسيلة واحدة، وهي استخدام أداة درس الحنطة لكي نكنسها جميعاً: هذه الأداة هي الضحك يا إخواني المواطنين المخلصين! الضحك الذي ترتعد منه فرائصنا الدنيئة، الضحك الذي خلق ليهزأ من كل ما يحط من قدر الجمال الحقيقي لدى الإنسان!».

من الواضح أن جوجول كان يحاول إقناع نفسه، بعد الحدث، بأن المفتش العام إنما هي تمثيل مشهدي لدراما داخلية. كان يريد أن يرى شخصياته كرموز ساخرة لصراعنا مع عواطفنا وهي تمثل أمام أنظار القاضي (الله). نبعت هذه الفكرة في ذهنه منذ ذلك الإلهام الذي أتاه وهو يكتب «نفوس ميتة». كان اهتمامه بالنواحي الأخلاقية يسيطر عليه بحيث يسعى لتحويل كل أعماله السابقة إلى صراع مجازي بين الفضيلة والرذيلة، كتعابير غير ملموسة لمعادلته الأخلاقية.

أرسل «حل عقدة المسرحية» هذا إلى كل من شيشبكين (في موسكو) وسوسنتسكي (في سانت بطرسبرج) إلى جانب توجيهات بأداء هذا الفصل بعد انتهاء المسرحية، وذلك دون أن يتوقف للحظة واحدة ليفكر فيما إن كان هذا التفسير غير الجسدي للمسرحية قد لا ينسجم مع ذوق الممثل. وتقتضي أوامره للرجلين بأن يتم تتويجهما على خشبة المسرح في نهاية عرض يقام تكريماً لهما، وأن يقوما بعد ذلك بتفسير العمل لجمهور مقرّ بالجميل. وقد صعق أصدقاء

جوجول لهذه الفكرة الحمقاء.

كتب له أكساكوف (في ٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٦) يقول: «أصل إلى حد العقدة الجديد في «المفتش العام» لأقول بأنني لن أشير إلى أنه لا يوجد فيه أي حل للعقدة، علماً بأنه لا حاجة في الواقع لمثل هذا الحل. ولكن هل تصورت فعلاً كيف يمكن لشيشبكين أن يخرج، بعد تمثيله «المفتش العام» في عرض يتم تكريماً له، وقد توّج نفسه بما لا يعلمه إلا الله من أكاليل الغار التي قدمها له باقي أفراد مجموعة الممثلين؟ لقد فقدت كل ملمح من ملامح التواضع

الإنساني، وليس هذا كل شيء. قل لي، بصدق وصراحة، هل يمكن أن يكون تفسيرك للمفتش العام هو تفسير صادق؟ هل يمكن أن تكون الأقوال الغبية للمعتوهين والجهلة قد أخافتك بحيث دفعتك لارتكاب دنس تشويه ما ابتدعته أنت نفسك من شخصيات بحيث تتعامل معها وكأنها شخوص مجازية؟ ألا تدرك أن لاعلاقة بهذا المجاز القائم على أن هناك «مدينة في الداخل» أو مدى حماقة تسمية خليستاكوف بأنه ضمير اجتماعي».

أما جيديونوف، مدير المسارح الإمبراطورية، فقد أعلن بأنه لن يسمح بتمثيل «حل العقدة» لأن اللوائح تمنع تعبير أحد الممثلين عن استحسانه لممثلين آخرين، والأدهى من ذلك تتويج أحدهم فوق خشبة المسرح».

شيشبكين من ناحيته كتب له بعد أشهر قليلة (في ٢٢ أيار/ مايو ١٨٤٧) يقول: «تميزت غيظاً لأقصى درجة لقلة تبصّري بعد أن قرأت «حل العقدة» الذي كتبته، فقد كنت حتى ذلك الحين قد درست كل أدوار أبطال المسرحية على أنهم أشخاص أحياء. كل ما رأيته فيهم مألوف ومحبب إلى قلبي، وتعلقت برئيس البلدية وبوبشنسكي ودوبشنسكي بعد أن ارتبطت بهم على مدى عشر سنوات بحيث أنه سيكون الزيف أن أنتزع نفسي مبتعداً عنهم. ماذا تعطيني بديلاً عنهم؟ دعني أحتفظ بهم كما هم. إنني أحبهم، أحبهم بكل نواحي ضعفهم. لا تأتِ إليّ لتقول إنهم مجرد عواطف وليسوا موظفين حكوميين. لا لست أريد أية مراجعات من هذا النمط. إنهم أشخاص حقيقيون، بشر، أحياء، كبرت في وسطهم، بل وأصبحت عجوزاً. لن أعيدهم إليك. لن أعيدهم مادمت حيّاً. حوّلهم إلى ماعز من بعدي إن أردت، ولكنني لن أتخلى حتى عن ديرجيموردا (الشرطي) لأنه، هو أيضاً، عزيز على قلبي».

تخلى جوجول في وجه هذا التناغم في الاعتراض عن تمثيل «عقدة الحل» هذه (والتي لم تنشر إلا بعد موته). وقد كتب لأنّا فايلجورسكي (في ٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٦) يقول: «لم يحن الوقت بعد!» ولم يعلّق في الواقع اهتماماً حقيقياً على هذه الخطة المسرحية الصغيرة بالمقارنة مع «مقاطع مختارة»

والتي كانت على وشك الخروج من مكتب الرقيب. وفي تلك الأثناء انتقل إلى نيس، ثم فلورنسة ثم روما – غير أن المدينة الخالدة لم تعد كما كانت من قبل. البابا «بيوس التاسع» كان يحمل أفكاراً ليبيرالية. كما تردت حالة الطقس إذ إنه كان بارداً تحت سماء زرقاء. كانت الأنصاب الموقرة قد فقدت روحها، ولذا بحث جوجول عن دفء الشمس والدفء البشري وتوجه إلى نابولي، حيث كانت قد استدعته شقيقة الكونت تولستوي «صوفيا بيتروفنا أبراكسين» التقية، الحزينة والمطواعة.

كان لهب عشرات الأنوار يتذبذب تحت الأيقونات في فيلا أبراكسين في وسط شبه الظلمة، ويمتد في الخارج ذلك المنظر المذهل لخليج نابولي، وجبل فيزوف، والقوارب الراسية، والطرق المنحدرة الملتوية التي ترفرف فيها قطع الغسيل متعددة الألوان.

كتب لجوكوفسكي (في ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٤٦) يقول: «نابولي تثير الإعجاب، ولكنني أشعر بأن المدينة لم تكن لتبدو لي بهذا الجمال لو أن الله لم يهيئ روحي لتلقي الانطباعات التي يطرحها جمالها عليّ».

وفي رسالة في نفس اليوم يقول: «تحسنت صحتي فجأة وها أنا أعود إلى الحياة. روحي وكل شيء فيّ ينتعش. نابولي تمتد أمامي بكل عظمتها! الهواء عليل وملطّف. لقد توقفت هنا وكأنما على مفترق طرق منتظراً نسيم الإرادة الإلهية التي ستحملني إلى الأرض المقدسة».

كان بلتنييف ما يزال يكافح في سانت بطرسبرج من أجل الحصول على إذن لنشر «مقاطع مختارة». وبما أن بعض الرسائل كانت تعالج موضوع الكنيسة الأرثودوكسية فكان لابدّ من عرضها على الرقيب الكنسي، وبالتسلسل حتى المدير الإداري الأعلى للمجمع الكنسي الذي أصدر في النهاية موافقته على النشر. بقي الرقيب العادي الذي ظلّ حروناً على الرغم من أن النص كله كان مشرّباً كلياً باحترام السلطة. وعلى هذا تحول بلتنييف، بعد أن أنهكه جوجول

بإلحاحه إلى ولي العهد، الدوق الأكبر الكسندر نيقولا ييفتش (الذي أصبح فيما بعد القيصر ألكسندر الثاني). وقد وافق على رأي الرقيب نيكيتنكو الذي كان قد اقترح حذف مقاطع كبيرة من الكتاب على الرغم من «الموقف الممتاز» الذي أظهره الكاتب.

صعق جوجول حين علم بأن نصه قد بُتر. حذفت رسائل برمتها بينما أعيدت كتابة نصوص بعض الرسائل الأخرى أو حذفت أجزاء جذرية منها. ألم يتضح مدى نقاء نواياه لهؤلاء هناك؟ لابدّ أن هناك أمراً مريباً في مكان ما، وكان أول ما خطر له أن نيكيتنكو تواطأ مع الليبراليين لتشويه عمل أزعجتهم اتجاهاته الرجعية.

كتب للسيدة سميرنوف (في ٣٠ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٧) يقول ببعض المبالغة: «لم يطبع إلا ثلث الكتاب، وحتى هذا شذّب بحيث أصبح مشوشاً». غدا نوعاً من الطرف الغريب المبتور وليس كتاباً. أهم المقاطع التي كانت ستمثل قلب الكتاب غير موجودة فيه -أي الرسائل التي تستهدف تعريف الناس بالشرور النابعة من داخلنا في روسيا، وتظهر كيفية وضع الكثير من الأمور في مسارها الصحيح، رسائل ظننت بصدق أنني أخدم بها جلالته وجميع مواطنينا! لقد كتبت لتوي للسيد فايلجورسكي طالباً عرض تلك الرسائل على الإمبراطور، وقلبي يحدثني بأنه سيشرفها بالنظر فيها وبالعمل على نشرها».

غير أن بلتنييف رفض أن يطلب من الملك أن يكون حكماً، وشرح قراره لمستخدمه المتهور على النحو التالي: «علينا ألا نفكر حتى بعرض كتابك بعد أن يعاد نسخه بكامله إلى الإمبراطور. كيف يمكنني مواجهة الدوق الأكبر (ألكسندر نيقولا ييفتش) في الوقت الذي كان قد أبلغني بنفسه بألا أنشر المقاطع التي منعها الرقيب. سأكون كمن يحاول إذلاله بتجاوزه».

لم يكن الإمبراطور وحاشيته يثقون بهذا المدافع الذي يبالغ في حماسته. فمن الخطير جداً في بلد تحكمه ملكية مطلقة أن يسمح لكاتب بمناقشة قضايا سياسية

واجتماعية ودينية: فحتى أولئك الذين يعلنون ولاءهم للنظام قد يستقطبون بسهولة العقول التي تتخذ موقفاً عدائياً ويلفتوا أنظارها إلى بعض الخلل في النظام. على المواطن الموالي ألا يشغل نفسه بأمر تسيير الشؤون العامة، حتى لكي يمتدحها. أما جوجول فقد عزّى نفسه بفكرة أن «المقاطع المختارة»، حتى بعد أن شذبت من قبل نيكيتنكو ستوفر للعالم نصاً مطبوعاً قائماً على الصدق ويمكن أن تفعل فعل الخميرة في عجين عديم الشكل لروح العالم. وقد شعر لأول مرة في حياته بأنه يطبع في ذلك الشهر، وهو كانون الثاني/ يناير من عام ١٨٤٧، شيئاً يمكن له أن يفتخر به... وكتب في المقدمة يقول: «لقد رغبت بهذا العمل أن أعوض عن لا جدوى كل ما كنت قد نشرته من قبل، ويقول من كتبت لهم هذه الرسائل بأنها تحوي أكثر بكثير مما تحويه كتبي مما يحتاجه بنو البشر. وإنني أطلب ممن هم أكثر ثراءً أن يشتروا عدة نسخ منه لإعطائها لمن لا تسمح إمكانياتهم بشرائه. إنني أطلب من كل سكان روسيا أن يصلوا من أجلي، بدءاً من أساقفة كنيستنا الذين يقضون حياتهم برمتها بالصلاة».

بعض الرسائل الاثنتين والثلاثين التي ضمتها الطبعة الأصلية من «مقاطع مختارة» كتبت خصيصاً لهذا الكتاب، بينما استندت أخرى إلى مراسلات فعلية تم تعديلها ومراجعتها وإعادة كتابتها. فالفصل الذي يحمل عنوان: «زوجة حاكم» مثلاً يعيد نسخ النصائح التي وجهها جوجول للسيدة سميرنوف كلمة كلمة. أما حديثه مع «شخص ذي منصب رفيع» وذلك الذي يحمل عنوان «الكنيسة ورجال الدين» فقد كانا موجهين أساساً إلى الكونت تولستوي. وعظاته لأمه وشقيقاته وكذلك لدانييلفسكي وجدت طريقها إلى الكتاب حيث جمعها في دراسة تحمل عنوان: «ملاّك الأراضي».

كانت طموحات الكاتب هائلة، إذ يريد إعادة إحياء روحية روسيا ولكن دون تبديل مؤسساتها. وبعد أن أمعن التفكير لفترة طويلة بمشكلة الخير والشر توصل إلى قناعة بأن خلاص العالم إنما هو في أيدي أفراد وليس حكومات. فكلما قام كل فرد بإصلاح طرائق حياته دون أن يسعى لتغيير موقعه فإن البشرية

ستقترب حينذاك من الله. فعلى كل حاكم إذن أن يجاهد لكي يكون قدوة لجميع الحكام الآخرين، وعلى كل امرأة من نساء المجتمع أن تكون قدوة لكل نساء المجتمع، وكل قنّ بأن يكون قدوة لجميع الأقنان الآخرين. والقاعدة لتحسين الأمور على كل مستويات الهرم هي ذاتها: استمع لتعاليم الكنيسة ومارس تأثيراً حسناً على جارك. لو أن كل فرد وافق على خدمة المسيح في الموقع المخصص له لتقدم المجتمع. باختصار، كان الكاتب معارضاً لديانة مسيحية تقوم على التأمل ونكران الذات، بل يعظ بدين اجتماعي متماسك ذي شكل واقعي ومجسّد، دين متواجد في كل لحظة من لحظات الحياة اليومية. كل فعل، في نظره، مهما كان تافهاً يظل من الأهمية بحيث يجب أن تتم ممارسته بإيمان. فالدين يغلي في ماء السماور، ويتطاير في رغوة صابون الحلاقة، ويرنّ في قطع النقود المعدنية التي تلقى على المنضدة في أحد الحوانيت. مملكة السماء تملأ المملكة القائمة على الأرض - وعلى هذا يستند ذلك الخليط من التراتيل الجوجولية التي تشمل تحليقات دينية إلى جانب وصفات دينية جاهزة يمكن استخدامها في حياة المطبخ اليومية. وبعد سنوات من ذلك عاد الكاتب «ليو تولستوي» إلى هذه النظرية التي تقول إن العلاج الوحيد للكون المريض إنما يقوم على الإصلاح الروحي لكل فرد فيه. غير أن الإصلاح الروحي، بالنسبة لتولستوي، ينتهي برفض كل من الدولة والكنيسة سواء بسواء. وبعد ترسيخه مبدأ الكمال البشري فقد رفض كذلك القيصر، والمحاكم، والجيش ورجال الدين، والشرطة، وكل مظهر آخر من مظاهر سلطة عدد قليل من الأفراد على أكثريتهم. أما جوجول فقد كان راضياً تماماً بروسيا التي يراها أمام عينيه. فهدفه لم يكن خلق نظام جديد، بل تعليم أبناء وطنه كيفية خدمة النظام القائم على أكمل وجه. كان يستهدف، مستخدماً الكتاب المقدس، هداية المسؤولين الحكوميين، كبيرهم وصغيرهم للالتزام بالنزاهة، والأعضاء البارزين في المجتمع للقيام بالأعمال الخيرية، والفنانين لفهم فنهم بصدق، والفلاحين لمحبة الكدّ والعمل تحت الوصاية المستنيرة لسيدهم الذي يمتلكهم كأشخاص كما يمتلك الأرض التي يفلحونها. فكل شخص سيؤدي ماعليه من واجب بسرور في هذه الدولة الأرثوذكسية المثالية، وستفتح الفضيلة

في القلوب مهما كانت ذابلة، وستسير عجلة الإدارة وهي تستحم بالزيت. غير أن المفارقة هو أنه سيظل هناك شرطة، وقضاة، وسجون، وأغنياء وفقراء، وأقنان يباعون مع الأرض التي يقفون عليها. ولابدّ أن القيصر نيقولاس الأول شعر ببعض الراحة حين قرأ فقرات مثل هذه: -

«دولة دون ملك مستبد إنما هي فرقة أوركسترا بدون قائد أوركسترا». (مقاطع مختارة - الفصل العاشر).

أو: «على كل منا وهو ينقذ روحه دون أن يترك الدولة أن ينقذ نفسه داخل الدولة. وفي غضون عقود قليلة سترى أن أوروبا لا تأتي إلينا لتشتري القنب الهندي أو الشحم الحيواني بل لتأخذ الحكمة، وهي سلعة لم تعد موجودة في الأسواق الأوروبية. (الفصل السادس والعشرون).

وفي الفصل الثامن والعشرين يقول: «كلّما أمعن المرء النظر في تشكيل الإدارة ازداد إعجابه بحكمة مؤسسيها: إذ يشعر بأن الله نفسه الذي لا نراه إنما بناها بأيدي الملوك. كل شيء كامل، كل شيء كاف بحدود ذاته. لست أستطيع تخيّل إمكانية تحقيق أي منفعة من إضافة أي مسؤول آخر».

إجلال جوجول الذي يقارب درجة الانبهار بالإدارة الإمبراطورية إلى حدود القداسة إنما كان يعزز من الثقة التي كان يتولى بها إصدار التوجيهات لقرائه من مختلف أصنافهم في أمور الحياة العادية. فهو لا يكتفي بدور النبي الذي يبشر بحضارة دينية جديدة، بل يعمد أيضاً لحل المشكلات الشخصية لمواطني هذه الحضارة. وعلى الرغم من أنه عاش نصف حياته كبالغ خارج روسيا، وأنه أعزب وطفيلي متنقل يتسوّل أسباب معيشته من أصدقائه ومن الكونتات، ومن كونه لم يتعامل بشكل مباشر مع الفلاحين الموجيك أو مع الأرض، ومن أنه كان جاهلاً كل الجهل بمشكلات الإدارة المنزلية والإدارة الحكومية فإن كل هذا لم يمنعه من الاعتقاد بأنه اختير لتعليم قواعد السلوك لكل من الأزواج، وسيدات المجتمع، وحكام المدن، وملاك الأراضي، والفلاحين، والفنانين،

والقسس والقضاة. فسلطته هذه لم تأت، في نظره، من الخبرة بل من التأمل. إذ إن الإنسان الملهم من الله، شأنه، أنه يمكنه أن يعرف دون أن يتعلّم، وأن يعلّم دون أن يعرف. بل إن بقاءه خارج المجتمع إنما يضعه في الواقع في موقع أفضل لتوجيه هذا المجتمع.

كانت محصلة نصحه لمعاصريه أن من يغتني أخلاقياً إنما سيغتني بصورة شبه مؤكدة مادياً أيضاً. الملكية ليست سرقة، بل هي المدخل إلى الجنة. وهو يقول في الفصل الثاني والعشرين: «القرية التي يسود فيها النهج المسيحي في الحياة يصك فلاحوها النقود في الواقع صكّاً». وهو يأمر مَلاّك الأراضي بألا ينسى بأنه يمارس سلطته بتكليف من الله، ويقول في الفصل ذاته: «استدع فلاحيك وبلغهم من أنت ومن هم، وبأنك إن كنت مالكهم وفي موقع أعلى منهم فإن هذا لا يعود إلى أنك تريد إصدار الأوامر أو لكي تصبح ملاّكاً، بل لأنك في الواقع ملاّك للأرض، ولدت ملاّكاً وسيحاسبك الله إن بدّلت موقعك وانتقلت إلى موقع آخر. فعلى كل إنسان أن يخدم الله من موقعه نفسه وليس من موقع أي إنسان آخر، تماماً كما أنهم هم وقد ولدوا تحت سلطة سيّد، عليهم أن يخضعوا لتلك السلطة. ثم أخبرهم بأنك إن كنت تحملهم على العمل والكد فإنك لاتفعل ذلك لأنك تحتاج المال من أجل متعتك – وللبرهان على ذلك أحرق بعض الأوراق المالية على الفور أمام أعينهم لكي يمكنهم أن يروا بأن المال لا يعني شيئاً بالنسبة إليك – بل أنت تحملهم على العمل لأن الله نفسه يريد من الإنسان أن يكسب لقمة عيشه عن طريق عمله ومن عرق جبينه!».

وإذا كان أحد الأقنان كسولاً أو سكيراً فعلى سيده ألا يقوم بضربه بنفسه، بل يوكل أمر ذلك «لضابط الشرطة في المنطقة أو لكبير القرية». كما يجب تعنيف المذنب أمام الفلاحين المجتمعين بطريقة «تجعل منه أضحوكة لهم». وأفضل شيء يوصف به هو أنه «وجه لم يغسل». أما بالنسبة للتعليم الشامل فهو يصفه بأنه كلام فارغ حيث يقول: «من السخف أن تعلّم فلاحاً القراءة والكتابة

لكي يصبح قادراً على قراءة الكلام الفارغ الذي ينشره الأوروبيون المحبون للبشر لكي يقرأه عامة الناس» .

وأقل ما يقال في نصائحه للمرأة المتزوجة التي تعي واجباتها هو أنها نصائح غريبة. فهو ينصحها بأن تقسم مالها في «سبعة أكوام متساوية تقريباً». أولها لنفقات البيت وسابعها للفقراء. غير أن حب عمل الخير يجب ألا يتفوق على الدقة في تنظيم الحسابات: «إذ حتى لو كانت هناك ضرورة قصوى تدفعك لمساعدة إنسان فقير فعليك ألا تستخدمي مالاً يتجاوز ما وضعته جانباً لهذا الغرض بالذات. ولو حدث وشهدت مأساة مزقت قلبك ورأيت أن مساعدة مالية ستكون ذات عون فاحترسي من مد يدك للأكوام الأخرى من المال». (الفصل الرابع والعشرون) .

ومهمة زوجة الحاكم هي إنقاذ أرواح المسؤولين الذين يعفيهم زوجها من مهامهم: «لا تتركي قط مسؤولاً أعفي من مسؤولياته مهما كان سيئاً: فهو تعس. وعليه أن يخرج من وصاية زوجك ويصبح تحت وصايتك فهو يتبع لك (الفصل الحادي والعشرون) .

أطرى الكاتب بشكل عابر الأرستقراطية الروسية التي أظهرت مزاياها في عام (١٨١٢)، وأسرف في الثناء على القيصر باعتباره ممثل الله في الأرض، ووضع الكنيسة الأرثودكسية فوق كل الكنائس الأخرى، وأصر على أن بوشكين احترم السلطات دوماً، وسخر من صديقه بوجودين لأنه «مشغول مثل نملة»، وشتم دوريات الصحافة الكذوبة التي تنشر في أوروبا، ولعن الديسمبريين الذين تجرؤوا قبل عشرين عاماً على التمرد باسم ما يسمّى بالأفكار الليبيرالية (غير أن الوقت قد فات ولله الحمد حين كان بإمكان عدد قليل من المجانين أن يعكروا شؤون الدولة برمتها) (الفصل الثامن والعشرون). وهو ينسى كل ما عاناه هو نفسه على أيدي الرقابة، فيقول في رسالة تتعلق «بكارامزين» بأنه «كان أول من أعلن بأنه لا يمكن للرقابة اعتراض سبيل كاتب، وأن الكاتب، إن كانت تدفعه النوايا الصافية، لفعل الخير إلى درجة تجعل هذه الرغبة تسيطر على روحه برمتها

بحيث تصبح هذه الرغبة هي لبّ روحه وغذاؤها فإنه لا يمكن لأي رقيب أن يكون قاسياً معه ويصبح مطمئناً لا ينتابه القلق في أي مكان! وحينذاك ستكتشف مدى سخف أولئك الذين يدعون بأنه من المستحيل قول الحقيقة بكليتها وشمولها في روسيا، ويقولون بأنه لن تنشأ عن ذلك إلا المتاعب». (الفصل الثالث عشر).

كانت هناك أيضاً بعض الصفحات التي تدعو للإعجاب تتعلق بالأدب الروسي في «المقاطع المختارة» وتحليل يتسم بالتبصر لأعمال كل من جوكوفسكي، وباتيوشكوف، وجريبويدوف وبوشكين وليرمنتوف. غير أن المفتاح المسيطر في الكتاب هو وعظ أخلاقي يبعث على الملل. وقد حاول جوجول بكتابة هذا الكتاب أن يبدو صادقاً كلياً. إذ قَلَب هذا الإنسان المتكتم، المنطوي على نفسه، الكذاب المتظاهر، قَلَبَ جيوبه الخفية رأساً على عقب. وبعد أن قام بهذه المحاولة للانفتاح توصل إلى قناعة بأن معاصريه الذين تنوروا في نهاية المطاف فيما يتعلق به وبأنفسهم فلابد لهم من أن يشكروه لأنه تجشم هذا العناء في محاولة لتثقيفهم.

تسلّم في الواقع عدداً من الرسائل التي تشجعه بعد طبع «المقاطع المختارة». فكتب له بلتنييف (في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٧) يقول: «سيزيد هذا الكتاب من نفوذك فقط لدى النخبة. أما الباقون فلن يجدوا فيه عوناً لهم. غير أنه يمثل، في نظري، البداية الحقيقية للأدب الروسي. إذ إن كل ما سبقه هي مجرد مقالات لطالب مدرسة انتقاها من كتاب قواعد النحو والصرف. إنك أنت أول من استخلص أفكاراً من الأعماق وأخرجها إلى النور. تابع طريقك الخاص مهما قد يقوله الآخرون إذ ينظر إليك الآن ضمن المجموعة الصغيرة التي عشت في وسطها خلال السنوات الست الماضية على أنك عبقري في الفكر والفعل».

عمدت السيدة سيمرنوف التي غمرها شعور عارم بالنشوة لشراء عشرين نسخة من الكتاب كي توزعها على مساعدي زوجها، وكتبت للمؤلف (في ١١ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٧) تقول: «وصل كتابك إلى المكتبات في الوقت المناسب لحلول رأس السنة، وإني أهنئك على ظهوره كما أهنئ روسيا لهذا الكنز

الذي قدمته لها. إن كل ما كتبت من قبل، بما في ذلك «نفوس ميتة» إنما يشحب «أمام عيني وأنا أقرأ هذا الكتاب».

غير أن تراتيل المديح ما لبثت أن خبت وسط دويّ من الذم والقدح حيث جاء الهجوم على المقاطع المختارة من كل الجهات. فالليبراليون اتهموا جوجول بالدفاع عن نظام استبدادي عتيق، بينما اتهمه الرجعيون بالتجرؤ على من هم في موقع القيادة بمحاولة إملاء أسلوب إدارة الأمور عليهم، في حين اتهمه المعتدلون بالتذلل بهدف الحصول على راتب تقاعدي من الإمبراطور. وقد فزع أقرب أصدقائه وتساءلوا فيما إن كان ما فعله هو مظهر من مظاهر الجنون أم هو مناورة ريائية، أو حماقة محضة؟ والنكتة التي أخذت تنتشر في قاعات الاستقبال هي: «هل يجب أن يكون اسمه هو طرطوف فاسيلييفتش وليس نيقولاي فاسيلييفيتش». أما بيلنسكي فقد سماه «تاليران» أو الكاردينال فيش الذي خدع الله طوال حياته وخدع الشيطان لحظة موته («كما يشير بيلنسكي في رسالة إلى «بوتكين» في ٢٨ شباط/ فبراير ١٨٤٧). وكتب «أكساكوف لابنه وقد صعقته الدهشة: «واحسرتاه! هذا يتجاوز أقصى أحلام أعداء جوجول، كما يتجاوز أشد المخاوف إيلاماً لأصدقائه، وأفضل سبيل للتصرف الآن هو اعتباره مجنوناً».

ويتابع أكساكوف في رسالته هذه (والمؤرخة في ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٧) فيقول: «يعج الكتاب برمته بالخنوع والغرور المرعب الذي يتزين بزي التواضع. يطري النساء وجمالهن، ويمتدح جوكوفسكي كما يمتدح من هم في السلطة. ولا يخجل من القول بأنه لا يمكن للحقيقة أن تقال بحرية أكبر في اي بلد آخر كما يتم التعبير عنها هنا. هل يمكن أن يكون هناك غرور أكثر جنوناً من ذلك الذي دفعه لأن يطلب بأن تنشر وصيته في جميع الصحف فور موته، وألا يكرّس له تمثال، وأن على كل فرد أن يسعى لتحسين نفسه من أجل محبته؟».

لم يستطع أكساكوف أن يكبح جماح غيظه وغضبه وأسفه، ولذا كتب لجوجول مباشرة بعد عدة أيام يقول: «إن كان هدفك يا صديقي هو إثارة فضيحة

وأن تدفع أصدقاءك وأعداءك ليعلنوا مواقفهم منك فقد حققت ذلك وعلى نطاق واسع – علماً بأنهم تبادلوا المواقع الآن. أما إن كان هذا الكتاب هو واحد من طرائفك فقد نجحت بصورة تتجاوز كل الأحلام جموحاً: فالجميع في حيرة كليّه، ولكن، واحسرتاه! لا يمكنني أن أكون مخطئاً: لقد اعتقدت بصدق بأن مهمتك هي أن تعلن الحقائق الأخلاقية للبشرية في قناع تأملات وعظات. ولكنك كنت مخطئاً جداً وبدرجة تدعو للرثاء. لقد شوشت كل الأمور وغدوت مرتبكاً إلى درجة ميؤوس منها، وأنت تناقض نفسك من البداية إلى الختام، وأسأت لله وللناس سواء بسواء وأنت تظن بأنك تخدم السماء والأرض. لقد كان يوماً مظلماً وساعة مظلمة حين فكرت بالتوجه إلى الخارج، إلى تلك «الروما»، هلاك العقول والمواهب الروسية. على أصدقائك المتعصبين غير المبصرين أن يجيبوا أمام الله، آل مانيلوف المنتمين للطبقة العليا الذين لم يسمحوا لك فقط بأن تسير في الطريق الذي اخترته بل شجعوك لكي ترتمي في شرك ذهنك ذاته، وفي الغرور الشيطاني الذي تأخذه على أنه تواضع مسيحي. لا يمكنني أن أمرّ مرور الكرام على أمر يحزنني ويغيظني لأقصى حد: هجومك البشع على بوجودين. لم أستطيع أن أصدق عينيّ عندما رأيت كيف أنك استهزأت وأسأت لإنسان كنت تسميه صديقك، إنسان كان فعلاً صديقك، بطريقته الخاصة. لقد جرح بعمق في البداية، بل قيل لي إنه بكى».

أضاف شيفرييف صوته إلى جوقة التوبيخ حيث يقول: (في رسالة في ٢٢ آذار/ مارس ١٨٤٧): «لقد دلّلتك روسيا إلى درجة الإفساد. فبتقديمها الشهرة لك غذّتك بالغرور، وأظهر كتابك هذا أن غرورك كان هائلاً، بل شديد البشاعة في بعض المواقع، ولا يمكن للغرور أن يكون أكثر بشاعة مثلما يصبح حين يقترن بالإيمان، فمع الإيمان يعتبر الغرور شناعة هائلة».

بل إن الأب ماثيو كونستانتينوفسكي كبير الكهنة في «رجيف»، وهو كاهن اعتراف الكونت تولستوي الذي كان قد زكّى القس لجوجول، اتهم هذا الكاهن جوجول بكتابة كتاب مسيء من شأنه أن يبعد الناس عن الكنيسة

ليتجهوا إلى المسرّات الزائفة في المسرح والشعر. وغدا كل يوم يأتي للكاتب بعاصفة جديدة من السخط والاستغراب الذي يتسم بالحزن. وكالعادة، وكلما كانت الضربات التي تمطر رأسه أقوى وأشد أراد المزيد.

كتب لشيفرييف (في ٣٠ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٧): «لا تهمل إرسال أي رأي، سواء صدر عنك أو عن آخرين. استفسر من الآخرين أيضاً للتعرف على ما يقال حول كتابي في طبقات المجتمع المختلفة، ولا تستثني من ذلك طبقة الخدم. واطلب كذلك من أولئك الذين يحبون القيام بأعمال البرّ أن يشتروا نسخاً من الكتاب ويوزعوها على الناس البسطاء والمعوزين».

كان رد فعله إزاء النقد مزيجاً من الغرور والتواضع كما يفعل دائماً. اعترف بخطئه في البداية ولكنه ما لبث أن برره فيما بعد وعلى الفور: وهذا التذبذب بين الاعتراف الكليّ بالهزيمة والرد المتعالي كان من طبيعته بحيث أن الرسالة نفسها تبدأ بالتعبير عن الأسف، ولكنها ما تلبث أن تنتهي بموعظة.

فهو يقول في رسالة إلى جوكوفسكي (بتاريخ ٦ آذار/مارس ١٨٤٧): «ترددت أصداء صدور كتابي مثل صفعة على الوجه في وجه جمهور القراء، ووجوه أصدقائي، والأكثر إيلاماً في وجهي أنا نفسي. وعندما أصابتني أصبحت كمن يستيقظ من حلم، وشعرت وكأنني تلميذ مذنب وأنني تجاوزت فيما فعلت ما كنت استهدفه. إنني في هذا الكتاب أقاتل بضراوة بهراوتي مثل خليستاكوف (بطل المفتش العام). وهذا القتال عنيف بحيث أنني لا أمتلك الشجاعة لرؤية الكتاب بعد. لا بأس، سيبقى على طاولتي وكأنه مرآة أنظر فيها لأرى كل قذاراتي بحيث يتضاءل ما ارتكبه بعد من ذنوب».

غير أن السطر التالي ما يلبث أن يقول: «ولكنه كتاب مفيد، بيعت جميع نسخه خلال أسبوع واحد (ولقد طلبت طبعتين أخريين). الكتاب في حد ذاته ليس عملاً رئيسياً في أدبنا غير أنه قد يولّد أعمالاً رئيسية عديدة».

وفي اليوم نفسه أجاب على أكساكوف الذي كان قد وبّخه بعنف حيث يقول: «شكراً يا صديقي الحسن والصدوق لتأنيبك، فقد مكّنني من أن أعطس، ولكنني أعطس من أجل صحتي». ولكنه ما يلبث أن يضيف: «غير أن ما أريد أن أقوله لك هو أن الإنسان الذي يتوق لمعرفة نفسه يرحب بكل اجتهاد ويقدّر كل التقدير تعليقات الناس الأذكياء –حتى عندما تكون تلك التعليقات قاسية ووحشية – مثل هذا الشخص لا يمكن أن يكون غافلاً عن حقيقته كلياً وبكل مافي الكلمة من معنى».

تبنّى الموقف ذاته مع أنّا فايلجورسكي التي نقلت إليه على مضض بعض ردود الفعل في سانت بطرسبرج. وقد كتب لها في (١٦ آذار/ مارس ١٨٤٧) يقول: «أعرف أن أشياء بغيضة تقال عني في المجتمع: حول ازدواجيتي، ومبادئي القائمة على النفاق والمحاباة ودوافعي الخفية التي تستهدف المصلحة الشخصية. أحتاج لمعرفة ذلك كله، وكذلك عمّن يتكلم عني وبأية تعابير. صدقيني بأن كتبي المقبلة ستلقى ترحيباً شاملاً وعاماً، تماماً كما لاقى كتابي هذا من تفنيد. غير انني كنت بحاجة أولاً لأن أصبح أكثر ذكاءً، ولكي أكون أكثر ذكاءً كان عليّ دونما شك أن أنشر هذا العمل وأستمع إلى كل ما كان على الآخرين قوله، خاصة أولئك الذين اتخذوا موقفاً معادياً مني».

كتب له الأمير «فلاديمير فلاديميروفيتش لفوف» رسالة حزينة (في ٢٠ آذار/ مارس ١٨٤٧) أنّب فيها جوجول لخضوعه لروح الاعتداد بالنفس، فحاول جوجول تفسير جذور هذا الاعتداد والأسباب التي تجعله فخوراً وخجلاً في الوقت نفسه لنشره هذا الكتاب: «عندما أفكر في عدم ملاءمة الكثير من المقاطع في كتابي وتعبيرها عن الرضا عن الذات فإن الشعور بالعار يكاد يخنقني. ولكن هذا الشعور بالعار مفيد لي. فلو أن كتابي لم ينشر فإنني كنت سأجهل نصف جوانب حالتي، ولم أكن لأكتشف كل العيوب التي لديّ بكل وضوحها والتي كانت واضحة جليّة لديك إذ إن أحداً لم يكن ليدلّني عليها. الناس الذين أراهم في هذه الأيام مقتنعون جدياً بأنني كامل. من أين لي إذن أن أجد صوتاً يندّد بي؟ لو أن الكتاب لم ينشر لظللت أعمى عن حقيقتي».

وفي وقت لاحق قدّم رواية مختلفة عن منشأ عمله هذا للناقد «نيقولاي بافلوف»، إذ يقول في رسالة له في صيف عام ١٨٤٨: «لم يكن هنالك أي صديق إلى جانبي آنذاك ليمنعني. ولكنني أعتقد بأنه لو كان أقرب أصدقائي هناك لما كنت سأستمع إليه، إذ كنت أعتقد بأنني في ذروة تطوري وأنني أرى الأشياء بكل وضوح حتى أنني لم أعرض بعض الرسائل على جوكوفسكي الذي كان سيعترض عليها».

وهكذا، وعلى الرغم من أن جوجول استسلم أمام ذلك الفيض من النقد، غير أنه ظل مقتنعاً بثلاثة أمور: «أولها أن كتابه مفيد للآخرين، وله هو نفسه على الرغم من العيوب الموجودة فيه. وثانياً أنه إن كان قد كتبه فإن الله إنما أمره بذلك. وثالثاً أن تجربته السابقة وتأملاته الطويلة وميله لأصول التدريس إنما تؤهله كلها لتوجيه الناس الآخرين. أما ما كان لا يجرؤ على قوله لبعض مراسليه الآخرين المشمئزين فقد كتبه للسيدة سميرنوف التي كان إعجابها به لا تحدّه حدود، حيث يقول في رسالة لها (في ٢٠ نيسان/ إبريل ١٨٤٧): «الله رحيم. ألم يكن هو الذي منحني الرغبة لخدمته عن طريق عملي؟ من غيره كان يمكنه أن يفعل ذلك؟ هل يُمنع عليّ تمجيد اسمه في الوقت الذي يمجده فيه كل مخلوق آخر؟ ينتقدونني لأنني تجرأت للتحدث عن الله. يقال إنني لا أملك هذا الحق لأنني مصاب بلعنة حبّ الذات والغرور. كيف يمكنني أن أتجنب ذلك، على الرغم من هذه العيوب، إن كنت مازلت أريد أن أتكلم عن الله؟ كيف لي أن أصمت إن كانت الحجارة نفسها مستعدة للتسبيح باسم الله؟ لا يا سادتي الحكماء، لن تجعلوني أفقد عزيمتي بادعائكم بأنني جائر بأحكامي، وأن ليس لديّ الحق وأن لا شأن لي بهذا الأمر. كلٌّ منا، حتى أقلنا شأناً من حقه، بل من واجبه أن يعلّم الآخر بأن يبيّن له السبيل القويم طبقاً لإرادة المسيح والحواريين».

لم يكتف البريد بحمل الرسائل له من روسيا: بل كان جوجول يجد صحيفة أو دورية في انتظاره في مكتب بريد نابولي، وهي تحمل مقالاً يتعلق به وقد عَلّم بخطوط تحيط به بقلم الرصاص. وباستثناء ملاحظات ضئيلة متسامحة

كانت الصحف تصبّ عليه وعيدها. ولقد عنّفه يلنسكي، زعيم الحركة التي تتبنى المبادئ الأوروبية، وهاجمه بقسوة في مقال نشرته دورية «المعاصر» حيث يقول: «يوجه جوجول وينوّر ويقيّم ويوبخ بقوة ويغفر. فهو يظن نفسه نمطاً من قس في قرية، أو البابا في عالمه الكاثوليكي الصغير».

من الواضح أن حنق يلنسكي ازداد قوة لأنه طالما اعتبر جوجول كاتباً واقعياً عظيماً من واجبه أن يحتج على بؤس الفقراء. ولهذا فإن هذا الكتاب الطنّان، المتذلل الذي يعج بالمداهنة إنما يمثل، في رأيه، أكثر من مجرد إخفاق. إنه بمثابة خيانة. وقد اشتعل جوجول غضباً حين وجد أن من سبق له أن تغنّى بمديحه قد أساء فهمه، فكتب له (في ٢٠ حزيران/ يونيو ١٨٤٧) يقول: «حزنت لمقالك في العدد الثاني من «المعاصر» لا لأنني تألمت للشتائم التي صببتها عليّ علناً بل لأنني استشففت خلفها صوت رجلٍ غاضب مني. لم أكن أرغب في أي موقع من كتابي أن أسبب لك ألماً. ما السبب الذي يجعل الجميع في روسيا، وبدون استثناء، يغضبون مني؟ لم أستطع بعد أن أفهم ذلك: الشرقيون، الغربيون والمحايدون جميعهم ساخطون. إنك تقرأ كتابي بعيون تشتعل غضباً ولهذا فإنك تقف ضده إلى هذا الحد. صدقني بأنه ليس من السهل أن يُحكَم على كتاب مشرّب بدواخل حياة امرئ مختلف كلياً عن بقية العالم، شخص منعزل ظل علاوة على ذلك يعيش لفترة طويلة بعيداً عن المجتمع ويجد صعوبة في التعبير عن نفسه. اكتب أشد التوبيخ، واختر الكلمات التي تسبب أكبر الإذلال، واعمل على أن تجعل مني أضحوكة في أعين القراء، ولا توفر أكثر العروق حساسية في قلب من يتّصف بالوهن الواضح - سأتحمل كل ذلك، وإن كنت سأحتمله بألم. غير أن من الصعب علي جداً أن أعرف بأن لدى أحدهم مظلمة شخصية ضدي - حتى لو كان هذا الشخص شريراً، وكنت أعتقد أنك إنسان خيّر».

أرسل جوجول هذه الرسالة إلى يلنسكي في سانت بطرسبرج. غير أن الناقد استلمها في «سالزبرون» في سيليسيا حيث ذهب للاستشفاء. ونظراً لأن مرض يلنسكي بداء السل قد استهلكه وكان يدرك إدراكاً تاماً بأن الموت يقترب

منه[1] فقد أخذ يعلّق اهتماماً أكبر بالأفكار التي ظل يدافع عنها طوال حياته: مقته للحكم المطلق، وعدم ثقته بالكنيسة، وتوقه للتقدم الاجتماعي والعلمي والذي يصل إلى ذروته بقيام جمهورية مستنيرة يكون فيها جميع المواطنين متساوين. ومحاولة جوجول تبرير ما فعل أعادت إحياء غيظ الناقد المبدئي من الكتاب. كان الرقيب قد منع عنه قول عشر ما يعتقده في مقاله سالف الذكر، وهاهي فرصته قد حانت لاستدراك ذلك. وقد قال لانينكوف الذي كان يشاركه سكنه: جوجول لا يفهم إذن سبب غضب الناس منه، فلابد من شرح ذلك له وسأجيبه على هذا.

كان وجه بيلنسكي شاحباً وخداه غائرين وتعابيره تشتعل كراهية. لفّ نفسه بشالٍ وجلس إلى طاولته المستديرة وبدأ يدوّن أفكاره باختصار وعلى عجل بقلم رصاص على قصاصات من الورق. ثم بدأ يكتب مسودة رسالته، وأخذه ذلك ثلاثة أيام. وبعد أن انتهى قرأ الرسالة لأنينكوف الذي ذعر لعنف هذا النقد الساخر ورجاه ألا يرسل الرسالة. غير أن بيلنسكي ظلّ على عناده قائلاً (كما أورد أنينكوف في مذكراته): «لابدّ من القيام بكل ما من شأنه حماية الشعب من إنسان فقد عقله، حتى لو كان هذا الرجل هو «هوميروس» نفسه. . أما فيما يتعلق بالإساءة إلى جوجول فلا يمكن لي قط أن أسيء له بالعمق الذي أساء به لي بتدميره ثقتي به».

وهكذا أرسلت الرسالة: وكانت عبارة عن لفافة ثقيلة من الصفحات التي كتبت بخط دقيق. استلمها جوجول في «أوستند» التي ذهب إليها للاستحمام بالبحر. صعقته السطور الأولى وكانت الصفعة قوية بحيث اندفع الدم إلى رأسه. وتابع القراءة وسط ضباب الدموع التي غطت عينيه، وأخذ يتجاوز السطور بسرعة ليصل إلى النهاية: —

«أجل، لقد أحببتك بكل العاطفة التي يمكن لرجل يحب وطنه بعمق أن يكنّها لشخص يعتبر أمل، وشرف وكرامة هذا الوطن، شخص هو واحد ممن

(١) توفي بيلنسكي بعد سنة من ذلك التاريخ.

يقودون البلاد في طريق المعرفة والرقي والتقدم. لا يمكنني على الإطلاق أن أعطيك فكرة عن مدى الغضب الذي أثاره كتابك في كل قلب نبيل. إنك تعرف روسيا بتعمق كفنان فقط وليس كمفكر - وهو دور تدّعيه لنفسك بصورة كارثية في كتابك المعتوه. لقد تعودت أن تنظر إلى روسيا من موقعك البعيد المتعالي! يعرف الجميع بأن من السهل أن يرى المرء الأشياء مثلما يرغب بها، على البعد. وبذا فإنك لم تلاحظ بأن روسيا نفسها أبعد ما تكون عن النظر في أمور التأمل الصوفي والزهد والتقوى كسبل للخلاص، بل تنظر إلى المزيد من الحضارة والتعليم والفهم الإنساني. وهي لا تحتاج للعظات، فقد سمعت ما يكفيها منها، ولا لصلوات (إذ أدت ما يكفيها منها أيضاً)، بل هي تحتاج لأن يصبح الشعب مدركاً للكرامة الإنسانية وهو شعور غار في الوحل والروث لقرون عديدة. أما المشكلات الأكثر حدة، المشكلات الوطنية الأشد ضغطاً بالنسبة لروسيا فهي إلغاء نظام القنانة والعقوبة الجسدية، والتقيد الصارم بالقوانين التي لدينا على الأقل. وفي هذه اللحظة يختار كاتب عظيم إصدار كتاب يوجه فيه ملاك أراض بربري حول كيفية حصوله على المزيد من المال من الفلاحين، وكيف يمكنه إذلالهم ببراعة أكبر وذلك باسم المسيح والكنيسة. . لو أنك قمت بمحاولة لاغتيالي لما كرهتك مثلما أفعل لتلك السطور الخسيسة التي كررتها في ذلك الكتاب. ثم تقول بعد ذلك بأن كتاباً مثل ذاك هو نتاج كفاح داخلي شاق وتنوير سماوي للروح؟ هذا أمر مستحيل! فإما أنك مريض وتحتاج لعلاج أو - لست أجرؤ على قول ما أفكر به. واعظ السوط، رسول الجهل، بطل الظلامية، مادح الهمجية، ماذا تفعل؟ إنك تقف على حافة هاوية. كيف يمكنك، وأنت مؤلف «المفتش العام» و«نفوس ميتة» أن تنشد تراتيل التمجيد برجال الدين الروس الذين يبعثون على الاشمئزاز، وتضعهم في موضع أرفع حتى من رجال الدين الكاثوليك؟ أتذكّر الآن كيف تعرض فكرة أن التعليم ليس ضرورياً للشعب، بل يضر به معتبراً فكرتك هذه فكرة حقيقة عظيمة لا جدال فيها. ليت إلهك البيزنطي يغفر لك فكرتك البيزطية تلك! يمكن للمرء أن يرى خلف الاستعراضات التي تقوم بها لترويج كتابك قناعة ثابتة، وتراتيلك في

مديح السلطات تلائم الاحتياجات الدنيوية لمؤلفها التقي. ولهذا قيل في جميع أنحاء بطرسبرج بأنك كتبت الكتاب لأنك تأمل بتعيينك بمنصب مدرس خاص لولي العهد. فهل من المدهش إذن أن يكون كتابك قد قلل من شأنك في عيون الجمهور ككاتب، والأخطر من ذلك كإنسان؟ ليس هناك إلا في الأدب وحده حياة أو تقدم إلى الأمام بالنسبة لنا على الرغم من طغيان الرقيب. والناس يتطلعون إلى الكتّاب الروس باعتبارهم قادتهم والمدافعين عنهم ومخلّصيهم الوحيدين من الأوتوقراطية والأرثوذكسية الروسية. ولذا فإن هؤلاء الناس مستعدون أن يغفروا لكاتب ما إن كتب كتاباً سيئاً، ولكنهم لن يغفروا قط كتابة كتاب خبيث. فإن كنت تحب روسيا فإن عليك أن تفرح لإخفاق كتابك. والصلاة ممكنة في أي مكان، وأولئك الذين يبحثون عن المسيح في القدس هم أولئك الذين لم يجدوه في قلوبهم، أو أنهم ضيّعوه. . لا جديد أولاً في التواضع الذي تعظ به، وهو ينضح كذلك بالغرور المرعب وفيه تحقير شائن بكرامتك الإنسانية. ومن يصفع جاره على وجهه إنما يثير السخط، أما من يضرب نفسه فهو يثير الاحتقار. إن ما نجده في كتابك هو خوف حقيقي من الموت، من الشيطان ومن جهنم وليس ما نجده هو الحقيقة[1]».

ظلّ جوجول لأيام عديدة مذهولاً إلى درجة الدوار لهذا التقريع العنيف. هو الذي فكّر بخدمة قضية أقرانه من بني البشر بأن يفتح قلبه لهم – وهاهو يوضع موضع الظن ويتهم بأقذع الجرائم. حبه للقيصر، احترامه للكنيسة، عاطفته نحو الناس، إخلاصه لتقاليد الأجداد، حبه للأرض الروسية وللتاريخ الروسي، تعطشه لعمل الخير: لقد أسيئ فهم كل شيء. لم يعد يدري أي موقف يتخذ وقد

(١) أرسل بيلنسكي هذه الرسالة إلى جوجول في (١٥ تموز / يوليو ١٨٤٧)، وسرعان ما أخذت نسخ مكتوبة بخط اليد تتُداول بين الجمهور وتمرر خفية من شخص لآخر بحيث أصبحت بمثابة كتابة صلاة يومية بالنسبة لليبراليين. وحين أدركت السلطات وجودها منعت نشرها وتبادلها. ومرت خمس وعشرون سنة إلى أن سمح للدورية الروسية «يوروبيان مسنجر» بنشر مقاطع مختارة منها، ولم تنشر الوثيقة بكاملها إلى ما بعد عام (١٩٠٥). غير أن هيرزن نشر النص كاملاً عام ١٨٥٥ في مجلة «بولارستار» التي تطبع في لندن.

غمرته الشتائم. التواضع المسيحي يقتضي استسلامه أمام المحنة. غير أن احترامه لنفسه ككاتب تمرّد على هذا الظلم. كتب مسودات عدة رداً على بيلنسكي حيث فاضت من قلمه تعابير تنضح بالمرارة: «لم تحمل كل هذه الكراهية في داخلك؟» «ليست الحماقة المغرورة وسطحية الصحفي هي التي تحكم على مثل هذه الأمور». لا، مثل هذا الاحتجاج لا يليق بكاتب «مقاطع مختارة»، وفي النهاية سيطر على غضبه وكتب بهدوء حزين يليق بنبي تعرض للشتم حيث يقول في رسالة بتاريخ ١٠ آب/ أغسطس ١٨٤٧: -

«روحي منهكة وكل شيء يسحقني. قرأت رسالتك في حالة تقرب من الغيبوبة. بماذا أجيبك؟ قد تكون هنالك بعض الحقيقة فيما تقول، والله أعلم. أما ما يمكنني أن أقوله لك فقط هو أنني تلقيت حوالي خمسين رسالة حول كتابي ليس بينها اثنتان متشابهتان. ليس هناك شخصان يمكنهما الاتفاق حول الموضوع نفسه. فما ينكره أحدهم يؤكده الآخر. غير أن هنالك أناساً صادقين وأذكياء في الجانبين. وما يبدو أن لا جدال فيه هو أنني لا أعرف شيئاً عن روسيا، وأن الكثير قد تغيّر منذ أن بدأت أعيش في الخارج، وأن عليّ أن أتعلم ماذا يجري هناك مبتدئاً من الصفر. القرن القادم هو قرن اليقظة المنطقية. صدقني أننا كلانا، أنت وأنا مذنبان سواء بسواء بنظر هذا القرن. كلانا تجاوزنا الحدود. أنا على الأقل أعترف بذلك، ولكن هل تعترف بذلك أنت؟ وتماماً كما ركّزت أنا أكثر مما يجب على نفسي فقد شتّت أنت نفسك أكثر مما يجب. وتماماً كما أحتاج أنا لتعلم أشياء عديدة تعرفها أنت ولا أعرفها فإن عليك أنت أيضاً أن تتعلم جزءاً على أقل تقدير مما أعرفه وتحتقره أنت خطأً».

كان يأمل بأن تسترضي تبريراته هذه بيلنسكي ولكنها لم تكن كافية لتخفف عنه، إذ ظل الحزن والاشمئزاز ووهن العزيمة يثقلون على صدره. وقد علم بعد فترة وجيزة من نشر «مقاطع مختارة» بوفاة صديقه ياسيكوف (في ٧ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٧). لم يكن حزيناً لدرجة مبالغ فيها حينذاك غير أن نغمة جنائزية أضيفت إلى شعوره بخيبة الأمل الناجمة عن فشل كتابه، وكل

رسائله كانت تردد نفس العبارات على نحو موصول، تعابير رتيبة كأنها أنين إنسان جريح.

كتب لأكساكوف (في ١٠ تموز/ يوليو ١٨٤٧) يقول: «كيف أمكنني ألا أفقد عقلي كلياً، أليس من عجب أنني لم أصب بالجنون الكامل وسط هذه الجلبة؟ لست أفهم ذلك. ولو وضعت نفسك مكاني لوجدت أنني أكثر تعاسة من كل من أكون قد أسأت إليهم. ومن الصعب أن يجد المرء نفسه في وسط إعصار من سوء الفهم، وأرى بأن عليّ أن أتخلى عن القلم لفترة طويلة من الزمن وأبتعد عن كل شيء».

وبما أن أكساكوف كان قد كتب له: «لقد سدّدت لنفسك ضربة مريعة بكتابك هذا، ولذا هاجمتك بهذه الضراوة، تماماً كما كنت سأهاجم أي شخص يسدّد لك مثل تلك الضربة»، فقد كتب له جوجول بعد أن استعاد رشده رسالة (في ٢٨ آب/ أغسطس ١٨٤٧): «لم أكن صريحاً قط معك أنت بالذات، بل إنني نادراً ما حدثتك بما هو أقرب إلى روحي بحيث أنك قلّما عرفتني إلا فيما يتعلق بي ككاتب وليس كما أنا كإنسان. صحيح أن كتابي سدّد لي ضربة، ولكنه كان بإرادة من الله، إذ لولا تلك الضربة لما راجعت نفسي ولما رأيت بوضوح ما يعوزني. كيف لك أن تكرر الكلام الفارغ الذي يثرثر به قصيرو النظر بعد قراءتهم لكتابي؟ إن كتابي يتساوق كلياً مع تركيبتي الداخلية وهو ضروري لي إن كنت أريد أن أكون أكثر من كاتب سطحي فارغ، ضروري لي إن كنت سأصبح واعياً تماماً لقداسة مهنتي. أقولها ثانية: قد تكون مصيباً في تحليلك لكتابي، ولكنك بإصدارك حكماً نهائياً عليه فإنك إنما تخون كبرياءك ذاتها».

ولاحقاً، وبازدياد شعوره بالمرارة تجاه صديقه القاسي في متطلباته، والمبالغ في صدقه قرر أن يبلغه بحقيقة مشاعره نحوه. وكان عليه أن يعترف، حين راجع علاقاته مع بقية العالم بأن اهتمامه ينحصر فقط بأولئك الأشخاص الذين يمكنهم أن يقدموا له عوناً مادياً أو معنوياً. وهو لا يستطيع أن يتصور إمكانية تعامله مع شخص لا يفيده في حياته اليومية أو الأدبية. ومحبته للناس لا

تستند على ما هم عليه أنفسهم، بل فيما يخصه هو بهم من علاقة. إنه يراهم على أساس كونهم خدماً لقضيته بشكل رئيسي - وهي قضية يمكن خدمتها بأساليب متعددة: بعرضهم استضافته، باعترافهم له، بتزويدهم له بمادة لكتاباته، بتقديمهم أفضالاً له، بمديحهم لأعماله، بل حتى بانتقادها شريطة أن يفعلوا ذلك باحترام.

قال لأكساكوف بكل برود (في رسالة له في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٧): «مبالاتي بك كانت دون مبالاتك بي، ويبدو لي كذلك بأنني أحب الجميع دائماً، فأنا غير قادر على الكراهية. غير أن بإمكاني القول إنني أحن إلى شخص ما وأفضله على آخرين بحكم تأثيره عليّ. فإن استطاع أحدهم أن يدفعني إلى الأمام، وإذا أمكن لعقلي أن يغتني من خلاله، وإن استطاع حملي على رؤية شيء جديد لديه أو لدى آخرين، بكلمة واحدة، إن ازدادت معرفتي نتيجة لعلاقتي الشخصية به فإنني أميل إلى هذا الشخص حتى ولو كان أقل جدارة بهذا الحب من شخص آخر، وحتى لو كان أقل اكتراثاً بي. ماذا يمكنني أن أفعل إزاء ذلك؟ هل ترى مدى غرابة الإنسان كمخلوق؟ فأكثر ما يهمه هو ما يترك تأثيره عليه شخصياً. ماذا يمكن للمرء أن يقول؟ ربما كنت سأميل لك أكثر لو أنك منحت عقلي شيئاً ما، ولو حتى مجرد ملاحظات حول حياتك، شيئاً قد يرشدني لأي نوع من الناس عليّ ألا أصورهم في كتبي، وأي سمات للشخصية الروسية عليّ أن أخلّدها في الذاكرة العامة. . . ولكنك لم تفعل لي أي شيء من هذا القبيل، وما دام الأمر كذلك فكيف لي أن أتحكّم بنفسي إن لم أحبك كما كان يتوجب عليّ أن أفعل؟».

قطعت العلاقات بين الرجلين مؤقتاً نتيجة لهذه الرسائل المتبادلة دون أن يحدث هذا شعوراً بالمرارة لدى جوجول. كان غير قادر حقاً على الميل لأكساكوف على الرغم من إخلاص الرجل له وتعلقه به في الماضي. وقد تبيّن له عندما أعاد النظر في حياته أنه لم يعرف إلا ثلاث حالات من المحبة العميقة: بوشكين العنقاء الذي أعجب بشعره، وإيفانوف الزاهد الذي أعجب برسمه، وجوزيف فايلجورسكي، الولد الجميل الذي أعجب بشبابه والذي جمّده

الموت إلى الأبد. أما أكساكوف فلم يكتب حتى الآن شيئاً يثير الإعجاب[1]، ولايمكن بأي شكل مقارنته بهذه النجوم الثلاثة التي تلمع في السماء الزرقاء. كان بالنسبة لجوجول مجرد شخص لطيف، مضياف وعلى ثقافة عالية، صديق ميال للمساعدة، مغن مداح، مغنٍ انضم إلى معسكر الأعداء. لقد قامت حركة سجال غريبة في عالم الأدب أخذ فيها البعض ممن كانوا في وقت ما ينتقصون من قدره يرحبون بعودته إلى «الأفكار المعقولة»، ومعجبون سابقون يصبّون عليه مشاعر الاحتقار. وبعد أن دافع عن نفسه في إجابات فردية على «أعدائه» الجدد عقد العزم على تبرير موقفه أمام عامة الجمهور بكتابة «اعترافات مؤلف»[2]. وقد سعى في هذه المناقشة طويلة النفس لأن ينفي عن نفسه تهمة الاستسلام الذليل للسلطات واحتقاره للشعب.

كتب يقول: «هذا الكتاب (مقاطع مختارة) هو المرآة الصادقة للطبيعة الإنسانية، ويمكن أن يوجد فيه ما يوجد في كل إنسان. أولاً: الرغبة في الخير، ثم الوعي الصادق بأخطاء المرء ذاته، وإلى جانب ذلك تقويم عالٍ لمزاياه، ورغبة صادقة في التعلم، إلى جانب الثقة بإمكانية تعليم الآخرين، والتواضع، وإلى جانبه الكبرياء، بل ربما الكبرياء في ذلك التواضع نفسه. باختصار، هناك في هذا الكتاب ما يوجد لدى كل شخص منا، والفارق الوحيد هو أنه قيل بكليته في الكتاب دون اكتراث بالعادات المتبعة، أو بآداب المجتمع. كل ما يخفيه الناس يرى هنا عارياً وإن كان صارخاً وأكثر إثارة للصدمة لأن كاتباً هو الذي يظهره للعيان».

بعد أن خفف عن نفسه بعض الشيء في هذه المذكرة التفسيرية اكتفى بوضع المخطوطة في درجه. خشي أن يثير نشرها عراكاً مؤلماً وفكر بأن من الأفضل ترك هذه الجلبة إلى أن تتلاشى. وفي حوالي تلك الفترة كتب «تأملات في طقوس دينية مقدسة» والتي تصوّرها على أنها تساعد المؤمنين على فهم التعابير

(١) الجزء الأساسي لأعمال أكساكوف نشر في وقت متأخر من حياته، بعد وفاة جوجول.
(٢) «اعترافات مؤلف» عنوان لم يضعه جوجول، وجد بين أوراقه بعد وفاته.

المختلفة في الصلوات الدينية. غير أنه لم يستطع أن يحمل نفسه على نشر نصها أيضاً (ولم تنشر إلا بعد وفاته في عام ١٨٥٧). فقد كان لديه شعور غامض بأن عليه أن ينغمس، في الوقت الحاضر على الأقل، في المزيد من الإسراف في إلقاء المواعظ على الآخرين. فالقراء الروس ليسوا مهيئين بعد لأفكاره، وهم ينفرون من الأفكار المجردة إذ إنهم، شأن الأطفال، يريدون أمثلة ملموسة على هيئة قصة. والخير الذي لم يستطع الكاتب أن يقدمه في رسالة يمكنه أن يحققه في روايته التالية.

قال: «على الكاتب أن يستخدم لغة الصورة الحية بدلاً من التحدث إلى المجتمع بلغة الاستنتاج العاطفي!» غير أن على هذه «الصور الحية» بالنسبة لجوجول أن تتطابق مع الواقع الروسي. ولقد اعترف هو بتواضع بأنه لا يملك إلا فكرة غائمة عن هذا الواقع. وكان قد ناشد القراء بالفعل في مقدمة طبعة جديدة لنفوس ميتة بأن يمدوه بالملاحظات، والذكريات، وسمات الشخصيات، أو بوصف لحوادث روسية بحتة حيث يقول: «إنني أوجه هذه المناشدة العاجلة لجميع أولئك الذين يستطيعون، مشكورين، أن يعطوني عصارة أفكارهم. وأنا أتوسل إليهم ألا يفكروا بأنهم يكتبون لإنسان في مثل ثقافتهم العالية، أو أنه يملك ذوقاً وأفكاراً تماثل ما لديهم ويمكنه أن يفهم الكثير من الأشياء دون تفسير وإيضاح، بل أن يتصرفوا على العكس من ذلك وكأنهم يوجهون ما يقولون إلى شخص أقل منهم علماً، أو ربما غير متعلم على الإطلاق».

لدهشته الكبرى لم يجبه أحد، إذ رفض الجمهور مساعدته في مهمته. ولكنه كان يحتاج الآن، أكثر من أي وقت مضى لتلك التفاصيل والأمور الصغيرة التي تثبت بأن هذه الشخصية أو تلك وجدت فعلاً (كما يقول في اعترافات كاتب). وبما أنه قرر العودة لاستكمال «قصيدته» فقد أعاد فتح ملفات أبطاله. وكان على أصدقائه أن يوفروا المعلومات والحكايات» لا أعذار رجاءً. وعلى الجميع أن يشرعوا في العمل!.

كتب لأركادي روزيت (شقيق السيدة سميرنوف) في ١٥ نيسان/ إبريل ١٨٤٧ يقول: «لن يزعجك أن تبدأ بكتابة نوع من المذكرات بحيث تسجل ملاحظات يومية مثل: سمعت اليوم هذا الرأي أو ذاك، عبّر عنه فلان الفلاني. أسلوبه، حياته (باختصار، صورته في خطوط عريضة)! فإن كنت لا تعرفه أكتب (لا أعرف كيف يعيش، ولكنني أفترض الخ . . . الخ . . . . يبدو عليه أنه من نمط محترم (أو عكس ذلك). يمسك بيديه بهذه الطريقة، ينف أنفه، يتناول عطوسه الخ . . . . باختصار، لا تهمل شيئاً سواء من السمات الأساسية أو غير الهامة. لن يكون هذا عملاً مملاً، صدقني لست محتاجاً لأن ترسم مخططاً أو تتبع ترتيباً محدداً. سطور قليلة تخربشها على الورق قبل أن تذهب للاغتسال».

كانت توجيهاته لشقيقة أركادي روزيت، السيدة سميرنوف، أكثر تحديداً. عليها، إن كانت تثق بكلماته وبموهبته، أن تضع صورة شخصية من ضمن دائرتها في داخل كل رسالة حيث يقول لها في رسالته (المؤرخة في ٢٢ شباط/ فبراير ١٨٤٧): «قد تأخذين اليوم مثلاً عنوان: «لبؤه من الأقاليم» وتختاري امرأة تعتبرينها تمثل نموذجاً لهذا النمط. صفيها مع إعطاء تفاصيل حول طريقتها المميزة في الكلام والسلوك: كيف تجلس، كيف تتكلم، ماذا ترتدي، أي نوع من الرجال يدير رأسها إعجاباً . . . وقد تختارين غداً امرأة تقوم بأعمال خيرية. ثم امرأة تتصف بالمواربة الكلية، ثم شخصية عظيمة الشأن في المنطقة. باختصار، أي شخصية تبدو قادرة على أن تعطي فكرة دقيقة عن الطبقة التي تنتمي إليها. أعتقد أنك ستستمتعين بهذه المهمة لانك، إن فعلت ذلك ستتخيلينني إلى جانبك وتشعرين بأنك تفعلين هذا من أجلي».

بل إنه في لامبالاته تلك لم يتردد في إسناد المهمة نفسها لزوجة صديقه دانيلفسكي التي لم يكن قد رآها من قبل، حيث يقول في رسالة (تحمل تاريخ ١٨ آذار/ مارس ١٨٤٧): «أطلب منك، كلما توفرت لديك لحظة في البيت، أن ترسمي لي بيسر وباختصار قدر الإمكان صوراً صغيرة لناس عرفتهم من

قبل أو مازلت ترينهم. لا تظني بأن هذا سيكون صعباً، فكل ما عليك أن تفعلي هو أن تفكري بشخص ما وتتخيليه في ذهنك. لا تنزعجي مني لإلحاحي عليك بهذه الطريقة حتى قبل أن تتاح لي الفرصة لكي أحظى برؤيتك، غير أنني بحاجة ماسة لمعرفة الروسي، أينما كان ومهما كانت وضعيته في المجتمع. هذه الدراسات الحياتية ضرورية بالنسبة إلي، تماماً مثلما هي لرسام يوشك على رسم لوحة عظيمة. فهو لا يضم مثل هؤلاء في عمله النهائي ولكنهم يظلون جميعاً في ذهنه، وهو يرجع إليهم باستمرار لكي لا تختلط عليه الأمور، ولكي لا يعمد للغش أو يحيد عن الواقع. كما أنك، إن كان الله قد وهبك موهبة خاصة، وعندما تكونين ضمن مجموعة من الناس فإنك ستكونين قادرة على تبيّن النواحي الغريبة التي تصل إلى درجة إثارة الضحك، أو الجوانب غير الممتعة لدى من يحيطون بك. يمكنك في هذه الحالة خلق نماذج لي، أي شخصيات تمثل في حد ذاتها نمطاً معيناً من الناس مثل «أسد كييف» أو «سيدة من الأقاليم أسيء فهمها»، أو «موظف على الطراز الأوروبي»، أو «موظف عجوز مؤمن» الخ . . . وإن كانت لديك طبيعة عطوفة ويمسّك وضع الناس الآخرين فاشرحي لي الآلام والحيف الذي يلحق بمجتمعك. إنك بعملك هذا ستؤدين فعلاً مسيحياً إذ إنني، بمشيئة الله سأنتج عملاً جيداً من كل ذلك، إذ ستكون قصيدتي شيئاً مفيداً وضرورياً جداً. فأي موعظة لا يمكنها أن تؤثر في العقول بالقوة، التي يمكن لمعرض صور حية ينبع من الأرض ذاتها أن يفعل إن كان على نسق يتكون من بشر مثلنا من لحم ودم».

على الرغم من توسلاته الأسبوعية فلم يفلح أصدقاؤه في إرسال المعلومات المطلوبة، إما من باب الكسل أو بسبب الطيش، وكأنما لم يأخذ أحد طلبه مأخذ الجد. غير أنه لا يستطيع أن يبدأ العمل دون معلومات، أو أن هذا كان العذر الذي أعطاه لنفسه لكي لا يقوم بأي عمل. وبعد فترة من عودة الانتعاش إليه بدأ يرتاب من جديد بقدراته الإبداعية. كل الأمور غامضة جداً في عقله المنهك! هل ما يزال يمكنه تشكيل حبكة وتحريك الشخصيات؟ ألا يدل عجزه على أن

صبر الله قد نفد منه؟ أليس عليه، إن كان هذا هو الحال، أن يهجر الأدب كلياً؟ كتب للأب «ماثيو كونستانتينوفسكي» لكي يستعيد طمأنينته (في ٢٤ أيلول/ سبتمبر ١٨٤٧) يقول:

«يمكن لكاتب أيضاً أن يمتثل لشريعة المسيح. فإن كان هذا الكاتب قد منح موهبة فإنها لم تمنح له عبثاً بالتأكيد أو ليستخدمها من أجل الشر. ألا يمكن للكاتب أن يظهر في رواية آسرة أمثلة حيّة لأناس أفضل ممن يصورهم كتاب آخرون؟ فالقدوة أكثر فعالية من الحجة. على أن عليه أن يكون قد تعلّم كيف يكون هو نفسه خيّراً قبل أن يبدأ، وأن يرضي الله في حياته ولو قليلاً. وفيما يتعلق بي أنا نفسي فإنني أمتلك الموهبة وأعرف كيف أرسم صوراً مفعمة بالحيوية للناس وللطبيعة. ألا يلزمني ذلك، أخلاقياً، أن أصور الناس الأبرار الذين يؤمنون بالله ويعيشون وفقاً لشرائعه؟ إن هذا هو السبب الذي يجعل مني كاتباً وليس من أجل الشهرة أو الربح».

وكتب لجوكوفسكي (في ١٠ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٨) يقول: «على الكاتب، إن وهب القدرة الإبداعية التي تمكنه من خلق صور خيالية، أن يستكمل أولاً تعليمه كإنسان وكمواطن لبلده، وبعد ذلك يمسك بقلمه. إذ إن في كل عمل فني حقيقي ما يسترضي ويستميل النفس البشرية، وبقراءته تمتلئ الروح بالتقبل المتناغم وتجد الراحة فيه في النهاية.. فالفن يدخل النظام والانسجام إلى أعماق الروح وليس الاضطراب والفوضى. احتفظ بهذه الرسالة إن وجدتها جديرة بالتفكير، إذ يمكن وضعها كمقدمة «لمقاطع مختارة» عند صدور طبعة جديدة لها بدلاً من «الميثاق» على أن تحمل عنواناً مثل «الفن تصالح مع الحياة».

بما أن الكمال الفني أصبح جزءاً لا يتجزأ من الكمال الأخلاقي في نظره فقد أصبحت رحلته إلى الأراضي المقدسة تلح عليه بإصرار أشد من ذي قبل. كان قد فكّر بهذا الحج من قبل كتعبير عن الإقرار بفضل الله بعد إكمال الجزء الثاني من نفوس ميتة. غير أنه ما دام ذلك الجزء حبيساً فقد اعتبر توجهه إلى ضريح المسيح بمثابة مسعى للإلهام. فالاستسلام للإرادة الإلهية اتخذ في لاوعيه

هيئة توسل للعون. كان هذا ملجأه الأخير في وسط حالة المجهول التي تسيطر عليه حالياً. سيجد الخلاص إن وافق المسيح على مباركة عمله. وإلا . . . . التفكير في الفشل في حد ذاته كان يبعث القشعريرة في دمه. . . كان يتمزق فيما بين توقه للذهاب وفزعه من عودته فارغ اليدين. كما أنه لم يجد من يرافقه في هذه الرحلة. قيل إن العبور خطر. كان يخاف البحر ويخشى كل تلك البلدات الشرقية القذرة (!) التي يتوجب عليه أن ينام فيها، ويخاف أن يغادر كنيسة القبر المقدس بارداً تماماً كما جاء إليها. وكان قد كتب لأمه حين فكر بالذهاب إلى هناك من قبل حيث قال لها في رسالة في ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٤٦: «عليك ألا تتركي بيتك وأن تبقى في فاسيلييفكا طوال فترة سفري. أريدك أن تصلي من أجلي في فاسيلييفكا وليس في أي مكان آخر. يمكن لكل من يريد رؤيتك أن يأتي إليك هناك. قولي للجميع بأنك تعتقدين بأن من غير المناسب لك أن تذهبي إلى اي مكان أو تفكري بأي أمر آخر ما دام ابنك يقوم بالحج».

كان الآن أكثر قلقاً، ولكي يرجئ مغادرته لجأ لحجة ضعف حالته الصحية، وافتقاره للمال ولعمل غير واضح عليه أن ينجزه. هرب إلى باريس، ثم فرانكفورت وايمز، وأوستند ثم عاد إلى نابولي عن طريق مارسيليا ونيس وجنوة وفلورنسا وروما. ملأت هذه الرحلات المفاجئة العجلى سريعة التغييرات وقت التحضير للمغامرة الكبرى. كان من الأفضل له أن يشغله بالصلاة، ولكنه كان كلما تشدد في صلواته ازداد انزعاجاً. وعلى الرغم من تصميمه على التفوق فإن روحه، ببساطة، لم ترتفع عن الأرض.

كتب للسيدة سميرنوف (في ٢٠ ترشين الثاني/ نوفمبر ١٨٤٧) يقول: «لك يمكنني الاعتراف بأن صلواتي جافة. كنت من قبل أظن بأنني أجيد الصلاة وأنني أعرف كيف أصلي. ولكنني أرى الآن بأن الله الذي نصلّي له إن كان لايرغب بهذه الصلاة فإن الصلاة تصبح مستحيلة. ولكنني مع ذلك أتلفظ بكلماتي الواهنة العليلة مهما كانت روحي مجدبة، ومهما كان لساني ثقيلاً بليداً».

وكتب لشيفريف (في ٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٧) يقول: «كثيراً ما أتساءل ماذا سأفعل في القدس. لو أن حجي سيسر الله لاشتعلت شوقاً للذهاب، ولتطلعت بكلّيتي باتجاه ذلك الهدف، ولما باليت بصعوبات الرحلة. ولكن روحي تمتلئ لا مبالاة وجفافاً».

وكتب للسيدة سميرنوف ثانية في أواخر نوفمبر يقول: «إنني أجبن مما كنت أظن، وكل شيء يخيفني. ربما كان الأمر عائداً لأعصابي. عليّ أن أذهب بمفردي دون أن يكون معي أي رفيق يساندني في لحظات الأزمات. كما أن عليّ أن أذهب في الوقت الذي يكون فيه البحر هائجاً أيضاً، وأي رجة تبعث لديّ دوار البحر، وكل هذا يبعث الاضطراب في روحي، والأمر يعود بالطبع لأن حماسي واهن وإيماني ضعيف».

هل يتخلّى عن هذه الرحلة؟ كان يتراءى له أحياناً أن يفعل. ولكنه تحدث عنها كثيراً بحيث لا يمكنه أن يتراجع الآن. كما أن من المؤكد أن الله سيحتسبها ضده إن هو تخلّف. وبمرور الأيام أخذ يتشكك بما يربطه بالقوى السماوية وكأنما وقد فقد الله ثقته به فإنه هو أيضاً لم يعد يثق بالله، وكأنما النفور الذي قام بينه وبين أقرانه من بني البشر قد نشأ أيضاً بينه وبين الله. يريد إشارة، أخذ يتوسل إلى الله ليرسل له إشارة.

غدت عزلته كاملة، راسخة ومرعبة، وأصبح وحيداً في هذا العالم ووحيداً في الكنيسة. لقد نصّب نفسه كأب كاهن اعتراف دون أن يستشير سلطة روحية واحدة. مصادره الرئيسية، كإنسان علّم نفسه بنفسه، تعتمد كلياً على تأملاته الصامتة المجردة وقراءاته العشوائية. وهو يحتاج الآن إلى من يتكئ عليه ويطلب نصيحته. كان الكونت تولستوي قد نصحه برئيس أساقفة «رجيف»، الأب ماثيو كونستانتينوفسكي - وهو زاهد نصف جاهل وضيق الأفق، صارم في آرائه لا يتزحزح. ومعلومات جوجول عنه تقتصر على الرسائل ولكنه أعجب بالإيمان اليقيني الدقيق للأب ماثيو، ولذا، ووسط اكتوائه بالشك تحوّل إليه ثانية حيث قال له في رسالة (مؤرخة في ١٢ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٨):

«من الصعب أن أصلي، وكيف للمرء أن يصلّي إن كان الله لا يريد صلاته؟ آه يا صديقي، أيها الكاهن الذي كلفه الله باعترافي! العار يحرقني ولست أدري أين أختبئ وسط جوانب ضعفي وآثامي المتعددة والتي لم أحلم بوجودها. لم أعد واثقاً بعد بأنني مؤمن. فإذا كنت أرى الإنسان الذي خلقه الله في المسيح فعقلي وليس إيماني هو الذي يأمرني بأن أراه. لست مؤمناً ولكنني أريد أن أكون مؤمناً. وحتى في هذه الحالة فإنني أريد أن أتعبّد عند القبر المقدس (كنيسة القيامة)! صلّ من أجلي، صلّ لله لكي لا يعاقبني لأنني غير جدير به ولكي يتنازل ويسمح لي بالصلاة».

المفارقة أن العلامة التي أرادها أن تظهر له قبل شروعه في رحلته جاءته من المتمردين الإيطاليين، إذ اشتعلت الانتفاضات في معظم المدن الكبيرة وكأنما صدر لها أمر جميعها. فقد طالب ذلك الجزء من شبه الجزيرة الإيطالية الذي لم يكن تحت الحكم النمساوي المباشر بوضع دستور. وقف شعر رأس جوجول هلعاً من هذه الكلمة التي أصبحت على كل شفة ولسان. غدت الشوارع غير آمنة حتى في نابولي، وأدهشه إلى حد الرعب أنه حتى أولئك الذين لا يظهرون أي جدية على الإطلاق سمحوا لأنفسهم بالانجرار وراء الأمور السياسية، شأنهم في ذلك شأن الآخرين. وقال لنفسه بعد كل ما حدث وجرى بأن غليان الجماهير يبعث على الاشمئزاز أكثر من غليان البحر. تعجّل ترتيبات الرحيل خشية حدوث المزيد من الاضطرابات، وألّف صلاة قبل أن يغادر إيطاليا وأرسلها لأمه وأصدقائه طالباً منهم تلاوتها هم أنفسهم وتقديمها لقسٍ كي يتلوها في سلسلة صلوات تتم من أجله حيث تقول: «يا إلهي، دع رحلته تمضي بلا أخطار، وأن تكون إقامته في الأراضي المقدسة مفيدة، وعودته إلى وطنه سعيدة لا تكتنفها المتاعب. أعد للبحر هدوءه وخفف الزئير العاصف للريح. املأ روحه بالأفكار الرفيعة طوال

رحلته وساعده على مغادرة قبر المسيح وقد استعاد قوته وشجاعته وحماسه، وعلى العودة إلى عمله لمصلحة وطنه ولإعلاء قلوبنا جميعاً، نحن الذين نبارك اسمك المقدس».

بعد اتخاذه تلك الاحتياطات بدأ رحلته، والعذاب يضنيه، على متن السفينة التجارية «كابري» المتجهة إلى مالطا.

□ □ □

٣ _ القدس

كان البحر هادئاً نسبياً، غير أن تمايل السفينة الذي يجري على وتيرة واحدة تغلب في النهاية على جوجول الذي عقّدت معدته المضطربة جوفه في عقد عديدة، وأغرق وجهه عرق جليدي. وقد كتب للكونت تولستوي (في ٢٢ كانون الثاني/ يناير ١٨٤٨) بعد أن غادرت السفينة مالطا حيث يقول: «جميع الركاب ودونما استثناء أظهروا تعاطفاً معي قائلين إنهم لم يروا أحداً يعاني بهذه الدرجة من قبل». كانت ساقاه لا تكادان تحملانه في الشوارع. استلقى واهناً في غرفة في فندق قذر، أصغر وأقذر حتى من المقصورة على متن السفينة «كابري» في انتظار ركوب سفينة أخرى بعد خمسة أيام. كتب على عجل عدداً قليلاً من الرسائل إلى أصدقائه ليعلن لهم أنه يموت ويحثهم على انتقاء قسس أكثر حماسة لأداء الصلوات الاسترضائية اللازمة لرحلته.

غادر مالطا في ٢٧ كانون الثاني/ يناير متوجهاً إلى القسطنطينية حيث استقل سفينة ثانية، وهي نمساوية تتبع شركة «لويد» متوجهاً إلى «سميرنا» ومنها تحوّل إلى سفينة بخارية أخرى تتبع نفس الشركة، وهي «اسطنبول» والمتجهة إلى بيروت. كان البحر هذه المرة هادئاً بحيث أن جوجول نفسه لم يعانِ أية متاعب. وقد احتشد حجاج من مختلف الجنسيات على ظهرها، وكلهم يقصدون قبر السميح. وكان بين هؤلاء جنرال روسي اسمه «كروتوف» وهو يرتدي بزة بيضاء وطربوشاً قرمزي اللون، وأب خجول ملتح ضئيل الحجم هو الأب «بيترسولوفييف». كان جوجول يعتمر قبعة بيضاء عريضة الحافة ورداء يطرحه

على كتفيه على الطراز الإيطالي. وقد وصفه الأب بيتر في مقال في صحيفة «العصور الروسية القديمة» (راشان أنتيكويتي) (نشره في عام ١٨٨٣) يقول فيه: «كان ضئيل الحجم، ذا أنف طويل، وشارب أسود رفيع، وشعر طويل يربطه على طريقة الفنانين وينحني قليلاً موجهاً نظره دائماً إلى قدميه». وبعد أن أصبح على معرفة أكثر بالقس عرض عليه جوجول أيقونة صغيرة للقديس نيقولاس من مدينة «مايرا»[1] هي نسخة مطابقة، كما قال، لرسم صغير جداً للأسقف الشهيد المحفوظ في ميناء «باري» (في جنوب إيطاليا). وقال إن القديس نيقولاس هو حاميه، كما أنه حامي المسافرين براً وبحراً. كانت له هواجسه عندما كان في طريقه من نابولي إلى مالطا. ولكنه استعاد كل ثقته حين أصبحت بيروت على مرأى النظر.

لم يكن القنصل الروسي العام في بيروت إلا قسطنطين بازيلي الذي كان زميل جوجول في صفه في مدرسة «نييجن». وكان هذا دبلوماسياً حاذقاً وخبيراً لا يجارى بمنطقة الشرق الأدنى ومؤلفاً لكتب عن تركيا واليونان. وقد ظلّ وفياً لأصدقاء شبابه ورحب بسرور بالرجل الذي كان زملاؤه يطلقون عليه لقب «القزم الغامض». دعا جوجول للإقامة لديه، وهناك قضى الكاتب عدة أيام وهو يتماثل للشفاء من آثار رحلته، وبعد ذلك مضى برفقة بازيلي الذي آثر أن يكون دليله إلى القدس عبر الصحراء السورية.

مضت الرحلة ببطء وعلى وتيرة واحدة بحيث أصبح ذهن جوجول في حالة سبات، وأخذ فضوله يتضاءل يوماً بعد يوم. وقد كتب لجوكوفسكي (في ٢٨ شباط/ فبراير ١٨٥٠) (؟) يقول: «رأيت هذا البلد وكأنني في حلم». كانا يستيقظان عند الفجر ويركبان بغليهما، وكانت القافلة تمتد على طول الشاطئ بين أدلاء بعضهم راكب والآخر راجل. أمواج البحر الأبيض المتوسط على أحد الجانبين، وعلى الجانب الآخر رمال رمادية، وبعدها منحدرات الجبال. تتوقف القافلة وقت الظهيرة عند أحد الآبار التي تظللها أشجار الزيتون أو الجميز المغبرة.

(١) مدينة قديمة في جنوب آسيا الصغرى.

وبعد ذلك يستأنف ثانية المسير الذي يبعث على النعاس على ظهور البغال. الحر الجاف الذي يتدفق من السماء وأشعة الصحراء التي تبهر الأبصار، والخضرة الضئيلة للنباتات الشوكية، وثلاثة جمال هزيلة تركع أمام خيمة، وهكذا تمضي الرحلة «إلى أن تظهر عند الأفق خمس أو ست نخلات وهي تبدو مشتعلة كأنها النحاس في أشعة الشمس المائلة إلى الغروب، وقرية صغيرة تظهر من بين الظلال التي تتلون بلون قزحي حيث تبدو فاتنة عن بعد ولكنها قذرة عن قرب»، (كما يقول في رسالته سالفة الذكر إلى جوكوفسكي).

الأماكن التي ينزلون فيها لدى رؤساء القبائل كانت مريحة نسبياً بفضل بازيلي، ممثل عاهل روسيا والذي يتمتع باحترام لدى زعماء المناطق العرب. غير أن وسائد المتكآت في أحسن البيوت كانت تمتلئ بالبراغيث، وأسراب البعوض تحوم ورياح الصحراء تجفف الحلق وتحرق العيون. كل ذلك كان يحرم جوجول النوم فيظل ساهراً وهو يشتم ليلة بعد ليلة، وبازيلي يرجوه ألا يظهر غضبه. مروا بصيدا التي تحرقها الشمس، وصور التي تنام خلف أسوارها القائمة منذ العصور الوسطى، وعكا بأسواقها الخانقة، وعشرات من القرى الميتة عديمة الأسماء. ابتعد المسار عن البحر وأخذت الأرض المجدبة ترتفع، لا تغطيها غير الحجارة والأشعة التي تبهر البصر، مع رقع من الأرض يكسوها الطحلب. كانوا يقتربون من القدس، وأخذ جوجول الذي أنهكت ظهره هرولة البغال يهيىء نفسه لتلقي الإلهام. رأى المدينة المقدسة من أعلى تلة، متشظية يلونها لون أبيض باهت يعوزه البريق ويلفها ضباب شفاف. دخل المسافرون المدينة عن طريق باب يافا وتوقفوا عند بيت البطريرك الأرثودوكسي.

خرج في صباح اليوم التالي إلى الشوارع الضيقة الملتوية التي تحيط بها بيوت واطئة تتصل ببعضها البعض بواسطة قناطر. زار الأسواق التي يعمّها الضجيج واختلط بالجموع الكثيفة التي تتحرك ببطء حول الأكشاك التي تعرض البضائع المختلفة: جموع يهود وأتراك وأرمن وعرب ويونانيون. عاد من جولته وقد صعقته القذارة واللامبالاة والفوضى السائدة في هذا المكان الذي تقدسه ذكرى

المسيح. وبدا له أن من الإهانة لذكرى المسيح أن يكون هذا المكان تحت الهيمنة العثمانية(!).

بعد الصيام والصلاة توجه إلى كنيسة القيامة. كان هناك خمسة أو ستة من الحراس الأتراك! الذين يجلسون القرفصاء بين وسائد وضعت فوق منصة غطيت بالسجاد، وهم يدخنون ويلعبون الشطرنج ويراقبون المدخل في نفس الوقت، وكانت البوابات الضخمة مفتوحة على مصراعيها. رسم جوجول شارة الصليب ودخل، وكان أول ما رآه في ضوء الفوانيس والشموع الطويلة لوح من الرخام الوردي يسمّى «حجر المسح بالزيت» وتشير المعتقدات أن المسيح ضمَّخه بالعطر بعد أن أنزل عن الصليب. وتحت الجزء الناتئ الأوسط يوجد الحرم المقدس الذي يوقّر أكثر من أي موضع آخر: القبر المقدس المقسوم إلى قسمين، الجزء الأول هو عبارة عن حجرة تؤدي إلى الحجرة الرئيسية حيث كان قد وقف الملاك ليعلن البعث، والثانية حيث كان جسد المسيح قد سجي. سقف الغرفة الثانية واطئ بحيث لا يمكن للمرء أن يقف فيها مستقيماً، وهي صغيرة بحيث لا يمكن لأكثر من ثلاثة أشخاص أن يتواجدوا فيها معاً، وجدرانها مغطاة بالمرمر. وهنالك طاولة من المرمر فوق القبر تستخدم كمذبح. كم كان لسرداب الدفن أن يكون أكثر إثارة للمشاعر لو كان عارياً تماماً: الصخرة العارية، الحفرة المفتوحة، ودون كل هذه التزيينات اللامعة المترفة. دفع جوجول مالاً لكي يقيم قس أرثودوكسي صلاة. ويقول في رسالة كتبها لجوكوفسكي (في ٦ نيسان/ إبريل ١٨٤٨): كنت وحيداً وليس أمامي أحد سوى القس الذي يؤدي الصلاة، وخلفي الشمّاس الذي يدعو الناس للصلاة خارج جدران كنيسة القيامة. كنت أستطيع سماع صوته على البعد وصدى الأصوات التي ترد عليه وفرقة المنشدين يتردد على مسافة أبعد. الترتيل المختلط للروس وهم يرددون: «الهنا ارحمنا!» والتراتيل الدينية الأخرى كانت خافتة لا تكاد تسمع وكأنها آتية من عالم آخر، كل شيء كان رائعاً! ولكنني لا أذكر أنني كنت أصلي، بل أعتقد أنني كنت أشعر بالابتهاج لأنني في مكان يتلاءم تماماً مع الصلاة غير أنني، إن أردت الصدق،

لم أملك الوقت الكافي للصلاة. هذا ما أعتقده على الأقل. انقضت الطقوس بسرعة بحيث أن أكثر المصلين سرعة لم يكن لديهم أجنحة تمكنهم من الطيران خلفها. وقبل أن أتمكن من استجماع أفكاري وجدتني أواجه كأس القربان الذي جاء به القس ليقدمه إلى شخصي الحقير لكي أتناول العشاء الرباني».

أكّد هذا الانطباع المؤسف في رسالة إلى الكونت تولستوي: «لم تكن صلواتي غير قادرة على الارتقاء إلى السماء فحسب، بل إنني لم أستطع أن أطلقها من إسارها من صدري. لم أشعر كما شعرت الآن بتبلّد مشاعري بهذه الحدة، وبمدى جفافي وقسوتي وكأنني لوح من الخشب».

غادر كنيسة القيامة وهو يشعر بإنهاك جسدي شامل وقلبه مثقل بذلك الشعور بوجود سوء فهم مريع. فالشخص الذي قطع كل هذه المسافة لكي يلتقي به لم يأت للموعد المضروب بينهما. جرّ نفسه صامتاً مقشعرّاً إلى حديقة الجثمانية المسورة (الحديقة التي اعتقل فيها السيد المسيح خارج القدس). جاهد بتصميم، ولكنه لم يتخيّل المسيح أو الحواريين تحت ظل تلك الأوراق الصفراء التي ترتعش بفعل هبوب النسيم. وفي مكان آخر شاهد طبعة قدم المسيح على أحد الحجارة من حيث كان قد قفز إلى السماء، وقصر بيلاطس[1] الذي أصبح يستخدم الآن كثكنة، وبيت القديسة فيرونيكا[2]. بل إن المطران أعطاه قطعة خشب من بوابة كنيسة البعث التي احترقت في حريق عام ١٨٠٨. تقبّل هذا الأثر المقدس مفتعلاً الابتهاج. كان يتكلم ويصلي ويرسم شارة الصليب، ولكن الشعور بالعزلة كان معمّراً في داخله. ولم تستثر عواطفه إلا المشاهد الطبيعية مثل إعجابه بشواطئ البحر الميت.

قال جوجول، كما ينقل عنه آرنولدي: «لا شجرة، لا شجيرة واحدة، سهل واسع لا تغيير فيه. وفي أسفل هذا السهل، «أو قل هذا الجبل، هناك البحر

(١) الحاكم الروماني في أيام السيد والذي حاكمه وأمر بصلبه بضغط من اليهود (المورد).
(٢) القديسة التي يقال إنها قدمت للمسيح منديلاً ليمسح به عرقه لدى توجهه للصلب، وقد طبعت عليه صورة وجه المسيح.

الميت في الأسفل. لا يمكنني وصف جمال هذا البحر تحت أشعة الشمس المائلة للغروب. لم تكن مياهه زرقاء أو خضراء، أو بلون أزرق مائل للخضرة، بل هو اللون الأرجواني».

لم يبق هناك ما يتوقعه من رحلة الحج هذه، فالزمن قد محا كل آثار طبعات أقدام المسيح على هذه الأرض الحجرية التي تسفعها الشمس الحارقة. فحضور المسيح موجود في الكتب التي ألهم كتابتها وليس على الأرض التي داستها قدماه. القدس، بيت لحم، الناصرة، جبل الزيتون، الجمجمة (الموضع الذي صلب فيه السيد المسيح)، نهر الأردن، أسماء كثيرة من شأنها أن تداعب خيال المسافر قبل مجيئه. أما الآن وقد أفرغت من هذا السحر فلم تعد تمثل إلا مكاناً قذراً، مليئاً بالحشرات الطفيلية، مكاناً شرقياً كئيباً(!).

كتب لجوكوفسكي (في ٢٨ شباط/ فبراير ١٨٥٠) يقول: «ماذا يمكن لكل محطات صليب مخلّصنا تلك أن تقول لنا الآن: كنيسة القيامة، الجمجمة، المكان الذي أُظهر فيه المسيح أمام الناس من قبل بيلاطس النبطي، مقر القس الأكبر إلى حيث أُخذ السيد المسيح، موقع الصليب المقدس - متى جمعت كل الأماكن تحت سقف كنيسة واحدة؟ ماذا يمكن للفنان أو للشاعر أن يجد في المناظر الطبيعية ليهودا(!) بتلالها الرتيبة وكأنها أمواج رمادية لبحر تهب عليه ريح هوجاء. لا شك بأن هذا المشهد كان رائعاً إبان حياة «المخلّص» عندما كانت يهودا(!) حديقة يجلس كل يهودي فيها تحت ظل شجرة زرعها هو بنفسه. أما اليوم فإنك لا ترى إلا خمساً أو ستاً من أشجار الزيتون المبعثرة على منحدر الجبل، أشجار رمادية مغبرة شأن الصخور نفسها. لا ترى إلاّ غشاء رقيقاً من الطحلب، وأجمة ضئيلة من العشب الأخضر في وسط السهل القاحل الوعر الذي تتناثر فيه الحجارة، وبعد سفر يمتد لخمس أو ست ساعات ترى كوخاً عربياً ضئيل الحجم مزروعاً في مكان ما عند طرف تلة، يبدو أبعد ما يكون عن سكن لبني البشر بل مجرد وعاء من الفخار، أو فرن، أو مربطاً لحيوان ما - أين يمكنك أن ترى وسط كل هذه أرض السمن والعسل؟ تخيّل القدس وبيت

لحم ومدن الشرق، مجرّد أكوام من الحجارة والطوب المتداعي في وسط هذه الصحراء. تخيل نهر الأردن مجرد مجرى هزيل بين جبال جرداء تتناثر فيها هنا وهناك شجيرات وأشجار صفصاف قليلة. ووادي شعفاط تحت القدس، مع عدد من الصخور الكبيرة وكهف أو كهفان يقال بأنها قبور ملوك يهودا. ماذا يمكن لهذه الأماكن أن تقوله لك إلا إذا تخيلت في ذهنك فوق بيت لحم - النجمة فوق تموجات مياه نهر الأردن - الحمامة وهي تهبط من السماوات المنشقة؟ داخل جدران القدس - يوم الصلب المرعب ظلمات الأرض وقد هزها الزلزال، أو يوم البعث المثير، لمعانه لا يجاريه لمعان من قبل أومن بعد؟ لم تشهد روحي الناعسة شيئاً آخر. التقطت زهرة برية في مكان ما في سوماريا، وأخرى في مكان ما في طبريا، وفاجأني مطر غزير في الناصرة فمكثت ليومين لا أعرف إن كنت حقاً في الناصرة أم في إحدى محطات توقف العربات الروسية».

هل كان مسيحياً سيئاً؟ كان وضوح فكره يبدو شيطانياً في بعض الأحيان. فالمفسد الأكبر هو الذي يقود خطاه أحياناً. كان هو تشيشيكوف (بطل رواية نفوس ميتة) الذي أتى لزيارة السيد المسيح. أخذ يتعجل العودة وكأنما قبض عليه وهو متخفٍ بهوية زائفة محرجة. غير انه كان على بازيلي أن يبقى في القدس لأمور تتعلق بعمله. غادر جوجول بمفرده وتسنّى له أثناء رحلته الكثير من الوقت ليجترّ خيبات أمله، وعذّبه إدراكه لعدم جدارته طوال طريقه إلى بيروت حيث حاولت السيدة بازيلي، وقد أرعبتها تعابير الاكتئاب التي تبدو عليه، حاولت التسرية عنه بتعريفه على النبلاء المحليين، ولكنه رفض ذلك، إذ كيف يمكن للمرء أن يبدد نفسه في هراء اجتماعي بعد هذه التجربة الساحقة؟

ما لبث أن استقل سفينة متجهاً إلى القسطنطينية حيث كان مستشار البعثة الروسية يحتفظ له برسالة من الأب ماثيو. وفي إجابته على تلك الرسالة (في ٢١ نيسان/ إبريل ١٨٤٨) لم يورد أية أكاذيب حيث قال: «لم يكن اطمئناني لمشاعري القلبية في أدنى مستوياته كما كان عليه حين كنت في القدس وبعد انتهاء زيارتي لها. النتيجة الوحيدة التي حققتها كانت إدراكاً أكثر قوة لجفافي وأنانيتي».

أصبح واثقاً بأن الأب ماثيو يستحق أن يكون مرشده الروحي: إذ لم يظهر أي قس آخر، حتى من درجة أدنى، قدراً مماثلاً من العناية المفرطة به لدرجة أن يرسل له رسالة سلام إلى القسطنطينية، وعلى هذا كتب جوجول للكونت تولستوي وقد امتلأ عرفاناً بالجميل يقول (في رسالة في ٢٥ نيسان/ إبريل ١٨٤٨): «ماذا يمكنني أن أقول عنه (الأب ماثيو) إلا أنه أذكى إنسان عرفته في حياتي، وإذا كان هنالك ما سيخلصني فإنما سيتم ذلك بالتأكيد بفضل إدراكه الحسي».

كانت السفينة «شيرسونيسوس»، التي كانت قد ألقت مراسيها خارج القسطنطينية، ستغادر قريباً إلى أوديسا، فاستقلها جوجول وهو يشعر بأن الأرض المقدسة قد تكون هي روسيا في النهاية.

□ □ □

٤ ـ آخر الأسفار

كان استقبال وطنه له بارداً، وكان على جميع الركاب القادمين من القسطنطينية البقاء في الحجر الصحي لمدة أربعة عشر يوماً إثر وصولهم إلى أوديسا. لم يره أصدقاؤه في البداية إلا عبر نافذة ثبّتت عليها قضبان حديدية مزدوجة، وقد بدا لهم بصحة جيدة وابتسم لهم عبر النافذة وهو يسبّح بمسبحته. وما إن سمح له بالخروج حتى ذهب لرؤية عدد من معارفه – الأميرة «ريبينين»، «ستوردزا العجوز»، «ليو بوشكين (الشقيق الأصغر للشاعر)، أندريه تروشسنسكي – ثم غادر (في ٧ أيار/ مايو ١٨٤٨) على أمل الاحتفال بيوم عيده في ٩ أيار/ مايو في بيت العائلة في فاسيلييفكا.

كانت تحرك مشاعره فكرة رؤية تلك الأماكن التي كان قد حلم فيها أحلام العظمة في طفولته. لقد مضت عشرون سنة تقريباً منذ أن ترك أمه وشقيقاته متوجهاً إلى العاصمة وهو يشتعل طموحاً – عشرون سنة من الكفاح، وخيبات الأمل، والفقر، وعربات السفر. عشرون سنة وهو لا يعلم فيما إن كان قد أصبح أقرب أم أبعد عن هدفه. كان عشب المروج أخضر فاتحاً، والخيل تخب على الطريق، وإذا ما حالفه الحظ فسيصل إلى البيت في الوقت المناسب لتلقي التهاني التقليدية. كان قد أخبر عائلته بأنه سيحتفل بذلك العيد برفقتهم ولابدّ أن يكون كل شيء معداً: الحلوى والزهور والشمبانيا.

كانت الشمس تغرب عندما أصبح البيت على مرأى نظره، وطلب جوجول من السائق أن يتوقف. قفز من العربة ومشى المسافة الباقية. كان يحب السير في هذا الطريق الذي يدور حول الكنيسة ويختفي وسط الخضرة، وكانت بعض

الأشجار قد ازدادت طولاً بحيث أنه لم يتعرّف عليها، بينما قُطِع البعض الآخر. لا شك بأن العودة إلى مشاهد الماضي إنما تعني استدعاء أحزان تستحيل عودتها. وهو يقول في رسالة إلى دانييلفسكي (في ٦ أيار/ مايو ١٨٤٨): «تسألني عن الانطباعات التي تركتها في نفسي تلك المشاهد التي هجرتها منذ زمن بعيد فأقول إنها انطباعات تميل إلى الحزن، وهذا هو كل ما هنالك».

كانت أمه بانتظاره عند الباب. عانقته وهي تبكي. لقد تغيّر كثيراً منذ آخر لقاء لهما في موسكو: أصبح شديد الشحوب والهزال والجدية! أما هي فبدت أصغر سناً. لا شعرة بيضاء واحدة في رأسها، وخداها متوردان وملامحها حازمة ونظرتها حادة، مع ظل شارب فوق شفتها العليا السميكة. قال لها إنها تبدو وسيمة جداً. وبعد ذلك تحوّل ليتفرّس في شقيقاته: فتاتان طويلتان شديدتا الصلابة، تبدو عليهما السيماء الريفية وعيناهما سريعتا الحركة. تقدمتا بخجل وقبلتا يده. انتقل الجميع إلى غرفة الطعام، وكان عدد من الجوار قد دعوا أنفسهم، وأخذ الحديث يتعثر ويتوقف. أمطروا المسافر بالأسئلة حول القدس فأجاب عليها بإيجاز وكأنما دون إرادة منه. قال: «الكثيرون من مختلف أنماط الحجاج ذهبوا إلى الأراضي المقدسة في أزمان مختلفة، وكتب الكثير عما رأوه بحيث لا أستطيع أن أخبركم بالمزيد». وقد اتفق الجميع بأن الحفل لم يكن ناجحاً.

كتبت شقيقته إليزافيتا في مفكرتها في تلك الليلة تقول: «كم تغيّر! أصبح جدياً جداً، ولا يبدو أن شيئاً يدخل البهجة على نفسه بعد، كما أنه يبدو باردا غير مبالٍ بنا. كان هذا مؤلماً جداً بالنسبة لي».

وكتبت فيما بعد (في ١٠ أيار/ مايو): «لم نستطيع رؤية شقيقنا طوال الوقت هذا الصباح. هذا محزن. لم نرَ بعضنا لست سنوات وهو يتجنبنا».

١١ أيار/ مايو: «دعونا اليوم جميع الناس في القرية. قدمنا لهم الطعام، وشربوا نخب صحة شقيقي. وقد مستنا رؤية مدى سعادتهم لرؤيته. غنوا ورقصوا في الفناء وكان الجميع سكارى».

١٣ أيار/ مايو: «لدينا ضيوف كل يوم. أخي لا يزال بارداً وجدياً كما كان. نادراً ما يبتسم. تحدث اليوم أكثر من قبل».

انتقل جوجول إلى جناح صغير إلى اليمين من البيت الرئيسي، حرصاً على خصوصيته، وجهّزت الغرفة التي يعمل بها بسرير، وعدد قليل من الكراسي ومكتب طويل من الخشب الأسود كان يقف خلفه ليكتب، مثلما يفعل دائماً. وضعت مرآة بين النافذتين، وفوق طاولة للعب الورق أكداس من الكتب. كان يستيقظ باكراً، يعمل لفترة وجيزة، ثم يتمشى في الحديقة، وبعدها يجلس لتناول طعام الغداء تحت أنظار أمه وشقيقاته المليئة بالاحترام. بعد الطعام ينتقل إلى قاعة الاستقبال حيث يردد على مسامعهن أقوالاً دينية مأثورة ويلوّن صوراً من الإنجيل برفقة بقية أفراد العائلة. وقد كُلّفت أخته أولجا بتوزيع هذه الصور على الفلاحين مع تفسير المشاهد، مؤكدة على القيمة المعنوية لهذه الهدايا. يلي ذلك مشوار آخر لهضم الطعام، وبعض التأمل إلى أن يحين موعد شاي المساء. وبعدها ينسحب الأخ الغامض إلى مكتبه حيث ينتظره أبطال الجزء الثاني من «نفوس ميتة». كانت شقيقاته يحضّرن له كل الأكلات المفضلة لديه لإدخال السرور إلى نفسه. وقد كتبت أخته الصغرى أولجا تقول: «في كل مرة يلاحظ فيها أنني حضّرت شيئاً يحبه كان ينحني لي ويبتسم. كنت أفرح لتلك الابتسامة وكل ما أتوق إليه دائماً هو أن أفعل كل ما يمكنه أن يدخل السرور إلى نفسه».

عمّه بعض الاشمئزاز في النهاية لجو الهدوء والتوقير هذا فتوجه إلى كييف لقضاء بضعة أيام مع دانييلفسكي. غير أن لقاءهما كان مخيباً للآمال. كان هو يشعر بالحر الشديد ودانييلفسكي كان مشغولاً جداً. وقد تم الترتيب لحفل ساهر على شرف الكاتب الشهير في بيت نائب رئيس جامعة كييف. هناك جلس جميع أساتذة الجامعة الشبان وهم يرتدون بزات جديدة وينتظرون بتشوق وصول كاتب «نفوس ميتة». ظهر في النهاية مرتدياً معطفاً بلون أرجواني مزرّق (بلون الخوخ)، وصدرية مخملية بلون أخضر منقط بالأحمر والأصفر وكأنها جلد ضفدعة. جلس بأنفه المتدلي وشعره المنسدل وعينيه الكابيتين، وأخذ ينحني بملل طوال

فترة الحفل دون أن تحرّك مشاعره كلمات المديح التي كان الحاضرون يطلقونها على استحياء. كان يبدو عليه الضيق بسبب وهج الشمس المائلة للغروب، ولذا هبّ شاب بناءً على طلب من ربّ البيت ووقف على الشرفة لكي يعترض أشعة الشمس. ولكن جوجول لم يتنازل حتى لشكره. قدمت له مأكولاتٍ خفيفة ولكنه رفض التوجه إلى المائدة، وظل الجميع واقفين محرجين، لا يدرون ماذا يفعلون. وفجأة تحدث الكاتب الكبير إلى أحد الأساتذة وقد ثبّت عينيه على بقعة تحت أنف الرجل وقال له: «أعتقد أنني رأيتك في أحد المطاعم مرة وكنت تأكل حساء البصل». وبعد ذلك انحنى انحناءة دائرية واتجه نحو الباب. ويقول أحد الحاضرين: «شاهدنا الكاتب وهو يمضي محركاً ساقيه بطريقة غريبة وكأنه مصاب بشلل خفيف. غير أن سرواله الرمادي كان يقيد في الواقع حركة ساقيه، إذ كان ضيقاً جداً وفيه أربطة واسعة جداً للقدمين».

عاد جوجول إلى فاسيلييفكا ليجد العائلة في حالة اهتياج، إذ انتشر وباء الكوليرا في المقاطعة ومات خمسة من الفلاحين في القرية. وقد أمر بإقامة صلوات، وصبت السماء الزرقاء حرارة متقدة، بل إن الليالي كانت شديدة الحر كذلك. تشققت التربة ولم تنمُ مزروعات الحنطة مما يعني دمار المحاصيل الزراعية. عمّ العطش والقلق بني البشر والحيوانات على السواء فأخذوا يتنقلون من مكان لآخر وسط أشعة الشمس اللاهبة والجفاف.

كتب جوجول لبلتنييف (في ٧ تموز/ يوليو ١٨٤٨) يقول: «أكتب لك من سريري. لم أتعافَ بعد من نوبة إسهال منهكة استمرت ثلاثة أيام وتركتني مجرد شبح، غير أنها لم تكن الكوليرا ولله الحمد بل مجرد إسهال ناجم عن حرّ كان من الشدة بحيث قد لا تشهد أفريقيا أسوأ منه».

ولأكساكوف كتب (في ١٢ تموز/ يوليو ١٨٤٨) يقول: «طقس خطر على الحياة، فالهواء خانق إلى درجة ممرضة! انزعاج مستمر في المعدة، وصداع واعتلال عصبي. وبانتشار الكوليرا وكل أنماط الإسهالات فإنني لا أجد دقيقة

من السلام. وما يسبب لي تعاسة أكبر أن رأسي غير قادر على أي عمل فكري مهما كان ضئيلاً، وأبسط الكتب هو فوق طاقتي».

تراءى لجوجول حينذاك بأن توزيع الصور التنويرية التي تستهدف تشجيع الفلاحين على حب العمل في الحقول لم يعد كافياً، وقرر القيام بزيارتهم لتحرّي نمط معيشتهم. اصطحب شقيقته أولجا في جولة تفتيشية. وفي أول بيت من بيوت الفلاحين يدخلانه دعتهما فلاّحة بدينة للجلوس وأعدت لهما عجة البيض (أومليت) التي لم يستطيعا رفض تناولها. أعجب جوجول بحسن الضيافة هذه فهي تعبر، فيما فكر، عن العرفان التام بالجميل القائم على الطاعة، وهو ما يجب أن يشكل نمط العلاقات بين سيد خيّر وقن جيد. ولفتت نظره على بعد ياردات قليلة نظافة وترتيب بيت ريفي آخر. وقد هنأ الفلاح على ذلك قائلاً: «يمكن للمرء أن يرى بأن الناس الذين يعيشون هنا عاملون. غير أن البيت الثالث كان قذراً ومخرّباً فأعلن بحزم: «عليك أن تعمل وأن تتحمل عناء ذلك وبهذه الطريقة فقط تحصل على ما تحتاج. وحينذاك قرر بأن الوقت قد حان لعودته إلى البيت. وقد أعلنت شقيقته مندهشة «ثلاثة بيوت كانت كافية بالنسبة له للتعرف على ظروف معيشة الفلاحين».

توجه إلى الحقول في يوم آخر ترافقه شقيقته ليراقب الفلاحين وهم يعملون. كانت الحنطة قد تقزمت بفعل الجفاف بحيث لم يكن بالإمكان قصها بل استوجب اقتلاع كل نبتة قصيرة ضئيلة الحجم من جذورها. نزل جوجول من العربة وابتسم للرجال والنسوة الذين لوحتهم الشمس، وأعلن مازحاً: «انتزاعها أصعب من حصادها، أليس كذلك؟».

عرض عليهما الفلاحون أيديهم المسودة المليئة بالبثور مؤكدين صدق قوله بأن مهمتهم شاقة.

فأعلن لهم جوجول: «اعملوا بجهد لتبلغوا مملكة الجنة».

كان لديه الانطباع الذي بعث في نفسه البهجة هو أنه يعيش فعلاً ما ورد في الفصل الذي يحمل عنوان «ملاك أراضٍ روسي» في كتابه «مقاطع مختارة». أجل: فلاحة التربة، نظام القنانة، الكتاب المقدس، كلها تسير جنباً إلى جنب، وفي النهاية النجاح الاقتصادي للمالك وصالح للفلاحين. كان بود جوجول إقناع أمه، ولكنها لا تعرف كيف تدير إقطاعتها وتغرق في الدين أكثر فأكثر كل سنة ولا يمكنها تغيير أساليبها. إنه يحبّها ولكنه سئم نواحها. كما أن لديه إلى جانب ذلك أموراً أخرى لينجزها في حياته هي أفضل من ترتيب شؤون المزرعة. بل إن موضوع تعليم شقيقاته أصبح أقل إثارة لاهتمامه ما دمن يقمن فعلياً في المزرعة الآن. كن يخفن إثارة استيائه بحيث أنهن أصبحن حمقاوات فعلاً. جدل حول أمور تافهة، وتنانير تخشخش، قيل وقال قروي محلي التفكير والاهتمامات، وأحاديث متخشبة مع الجوار... كل هذا دفعه للتفكير بأصدقائه في موسكو وحنينه لهم – سواء منهم من لا يزال مخلصاً له مثل شيفرييف، أم أولئك الذين اختصم معهم شأن بوجودين وأكساكوف. مع هؤلاء سيستعيد رغبته في العمل. وعلى هذا أبلغ عائلته في نهاية شهر آب/ أغسطس بأنه لن يبقى بعد في فاسيلييفكا.

كتبت إليزافيتا في مذكرتها في ٢٢ آب تقول: «بكينا جميعاً. حزن مريع. أحبه جداً، وعلى الرغم من أنه كثيراً ما يكون بغيضاً فإنني أحبه كأب».

وصل جوجول إلى موسكو في ١٢ أيلول/ سبتمبر ١٨٤٨ وتوجه فوراً للإقامة لدى أكساكوف الذي كان قد تصالح معه من قبل عن طريق الرسائل. تعانقا مغتبطين بالصداقة التي عادت إلى سابق عهدها ونسيا الخلافات السابقة. وبعد فترة لاسترداد الأنفاس وتنفيض ثيابه وكتابة عدد قليل من الرسائل تابع ذلك المدمن على السفر طريقه إلى سانت بطرسبرج حيث أقام لدى آل فايلجورسكي وأسرع لرؤية بلتنييف الذي أعطاه بعض النقود من مبيعات «نفوس ميتة»، ومرّ على بعض الأصدقاء بمن فيهم أنينكوف الذي عاد لتوه من فرنسا. كان في باريس خلال ثورة عام ١٨٤٨ وروى بالتفصيل قصة القتال على المتاريس. فكر

جوجول: أي نفع جاءت لهم به هذه الجمهورية الفرنسية المخزية، بما أتت به من بارود ودماء ومستنقع! لقد اسكرت فكرة الحرية أوروبا برمتها وهاهم يطوفون حاملين البنادق والشعارات. إن المرء ليفخر بروسيا حين يرى الفساد الذي يحلّ بتلك الأمم الغربية.

كتب لدانييلفسكي (في ٢٤ أيلول/ سبتمبر ١٨٤٨) يقول: «كل مايرويه (أنينكوف) كشاهد عيان للأحداث في باريس مرعب فعلاً: تفسّخ كلّي للمجتمع. ومما يبعث على المزيد من الشعور بالأسى أن أحداً لا يرى سبيلاً للخروج من هذا الوضع، للوصول إلى أي حل. الناس يندفعون بجنون إلى المعركة لا ليحققوا شيئاً بل لكي يتلقوا ضربة على الرأس. لا سبيل لاحتمال الحزن الناشئ عن هذه الفترة الانتقالية والكل محاصر بالليل والظلمة، ولم يفكر أحد حتى الآن بالتلفظ بكلمة واحدة: الصلاة».

وكتب لجوكوفسكي (في ١٥ حزيران/ يونيو ١٨٤٨): «مهما كانت الأحداث التي تجري حولنا تبعث على التقزز، ومهما كان بإمكانها أن تحرمنا الأمان والصمت اللازمين لنا لإنجاز عملنا فإن علينا أن نبقى أمينين لمهمتنا الرئيسية، والله سيتكفل بالباقي».

كلما أخذ يشدد من انتقاده للاضطرابات التي تعم أوروبا ازداد تعطشه للتواصل مع الحياة الفكرية في بلده. لذا طلب من البروفسور «الكسندر كوماروف، وهو صديق لبلنسكي المتوفي بأن يجمع عدداً قليلاً من الكتاب الجدد الذين فكر بالالتقاء بهم. سر كوماروف ذلك ورتّب لمأدبة عشاء دعا لها زهرة الأدب الروسي الشبابي. اجتمع شملهم في الساعة التاسعة: «جونشاروف» البدين، بطيء الحركة مؤلف» قصة بسيطة»، والصحفي الأنيق «باناييف»، والشاعر الشاب نيكراسوف، وجريجوروفيتش الودود ذو الشعر المجعّد الذي أثار كتاباه «القرية» و «أنطون جوريمايكا» تعاطفاً واسعاً لدى القراء مع الأقنان، والناقد «دروجنين». بلغت الساعة العاشرة دون أن يحضر ضيف الشرف. قدّم المضيف الشاي، وبعد ثلاثين دقيقة أخرى ظهر جوجول. ومنذ اللحظة الأولى

كان متيبساً لا تبدو عليه علامات الارتياح إزاء زملائه الشبان، تماماً كما كان مع أساتذة جامعة كييف. رفض تناول قطرة واحدة من الشاي وغرق على أريكة بعيدة عن المائدة، فتجمّع الكتّاب حوله. أما هو فلم يستطع أن يفكر بشيء يقوله فأخذ المعجبون به ينظرون إليه صامتين يسيطر عليهم نوع من الفزع المتأدب. وبعد توقف طويل بذل جهداً واضحاً لكي يبدأ معهم حديثاً حول أعمالهم. «غير أنه كان من الواضح أنه لم يقرأ شيئاً منها» كما يقول بانييف في مذكراته. وبعد ذلك، وكأنما يخشى هجوماً على «مقاطع مختارة»، حاول أن يوقف هذا الهجوم بالإعلان بأنه كتب تلك الفصول وهو في حالة «مرض جزئي»، وأنه نادم حالياً على نشرها. ويقول بانييف: «كأنه كان يريد أن يبرر ما فعل أمامنا».

انتهز كوماروف فرصة توقف قصير في الحديث ليذكّر جوجول بأن العشاء قد قدّم. غير أنه، ولدهشة الجميع، رفض تناول أي شيء، ولا حتى قدراً قليلاً من النبيذ. ناح كوماروف قائلاً: «ولكن، ماذا يمكنني أن أقدم لك؟» بعد فترة تفكير أعلن ضيف الشرف: «حسناً، سأتناول كأساً من المالقية»[1]. كان هنالك كل نوع من الشراب يمكن تخيله في البيت باستثناء ذلك الذي طلبه وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل وكل الحوانيت مقفلة بالتأكيد. غدا شرف كوماروف على المحك فأرسل خدمه ليطوفوا بالمدينة بحثاً عن ذلك الشراب الثمين. غير أن جوجول أعلن في اللحظة التي انطلقوا فيها بأنه سيغادر أيضاً. قال كوماروف متمتماً: «دقيقتان فقط، ستأتي المالقية في غضون دقيقتين فحسب انتظر لدقيقتين فقط على الأقل!». أجابه: «كلا، لم أعد أريده فعلاً فقد تأخر الوقت جداً بالنسبة لي للبقاء مستيقظاً». غير أنه وافق على الانتظار حين رأى وجه مضيفه المكتئب. وما لبث خادم أن عاد وقد تقطعت أنفاسه وهو يحمل زجاجة. مدّ يده بها وصب كوماروف قدراً منها في كأس، فبلّل جوجول شفتيه وأمسك بقبعته ومشى بخطوات ثابتة باتجاه الباب. وقد كتب باناييف في مذكراته: «لست متأكداً من مشاعر الآخرين، ولكنني شخصياً تنفست الصعداء بعد أن غادر».

---

(١) المالقية: خمر منسوبة لمنطقة ملقا الإسبانية.

لاشك بأن جوجول تنفس بحرية أكبر بعد أن غادر زملاءه المذهولين. كيف له أن أراد الانضمام إلى هؤلاء الكتاب الذين لا تجمعه بهم أية أمور مشتركة؟. سبيله ليس سبيلهم، فهم يسعون للحصول على تهليل الجماهير بينما يسعى هو إلى رضا الله. إنهم يحلمون بزيادة عدد قرائهم بينما هو يسعى لتخليص الأرواح. ولكن كم من تلك الأرواح التي سعى لسنوات لتنويرها أخذت تنزلق الآن من شبكته وتنغمس من جديد في حياة اللهو الدنيوي! المثل الذي يسبب له أشد الحزن هو السيدة سميرنوف التي أخذت أيضاً بوظيفة زوجها وبدأت تتباعد عن تأثير جوجول.

أما اللطيفة «آنا فايلجورسكي» فقد استسلمت لتأثيره بثقة كاملة. وكانت مشاعره إزاء هذه الفتاة النقية، الصادقة، البسيطة والطبيعية هي مزيج معقد من المشاعر الرقيقة والابتهاج بالسيطرة عليها. ربما رأى فيها ذات السحر الذي كان يمتلكه شقيقها جوزيف عندما اعتنى به في لحظات موته في روما منذ وقت طويل. وكان حين ينظر في وجهها تتراءى له أحياناً الملامح المحببة للفتى المتوفى متجسدة في هذا الوجه. كان الآن يلقي سلاحه كلياً أمام هاتين العينين المتسائلتين اللطيفتين، تماماً كما كان يحصل له إلى جانب سرير ذلك الشاب المريض. أي سحر يطرحه عليه أفراد عائلة فايلجورسكي؟ سيطرت عليه كلياً الرغبة في توجيه هذه الطفلة سهلة الانقياد، ولترك بصمة على هذا الطين الطري. كانت صحة آنا فايلجورسكي الهشة، وشكوكها وحزنها تترك كلها حالة من الذهول لديه في لحظة ما، وفي اللحظة التالية يجد أن فكرة رغبتها، وهي في مثل هذا العمر، في الخروج والاستمتاع في المجتمع هي فكرة غير مقبولة. كان يودها أن تكون أكثر بساطة وأقل تكلفاً بحيث لا يقدم أحد على مغازلتها. ولكنه كان في الآن ذاته يذوب فرحاً لمرأى ملامحها الجميلة. كيف يمكنه إقناعها بألا تسعى لإرضاء أحد غيره؟

كتب لها بلهجة حازمة تعبّر عن القلق (في ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٤٨) يقول: «لا تجلسي في مكان واحد بحق الله لفترة تزيد عن ساعة ونصف

الساعة في كل مرة، ولا تنحني على الطاولات. عليك أن تعرفي بأن لديك صدراً ضعيفاً. حاولي أن تكوني في سريرك في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف. ولا ترقصي على الإطلاق، خاصة تلك الرقصات العنيفة! فهي تحرّك الدم ولكنها لا تسمح للجسم بالحركة المناسبة له، كما أن الرقص لا يلائمك. فقوامك ليس جيداً بما فيه الكفاية، إذ أنك لست خفيفة بالقدر الكافي للوقوف على قدميك. لست مليحة، وهل أنت واثقة تماماً بأنك تعرفين ذلك؟ أنت مليحة فقط حين يعبّر وجهك عن عاطفة رفيعة. من الجليّ أن ملامحك خلقت للتعبير عن نبل روحك، وما أن تفقدي هذا التعبير حتى تصبحي عادية. لذلك تخلّي عن كل المناسبات الاجتماعية مهما كانت متواضعة. عليك أن تعرفي بأن المجتمع لا يمكنه أن يعطيك شيئاً. حافظي على براءتك الطفولية، فهي أثمن من أي شيء آخر».

كان جوجول يصدر نصائحه لتلميذته المفضلة شفاهة وعن طريق الرسائل. وكانت هي ترتعش إعجاباً وخوفاً- حيث يدهشها عنف عظاته- أمام هذا الرجل العظيم الذي يتنازل للاهتمام بشخصها الذي لا يستحق هذا الاهتمام. كان يبدو بالنسبة لها واثقاً من نفسه، عنيفاً، تعيساً، حساساً، سريع التأثر، مريضاً، وحيداً، أنانياً، يفيض غضباً مقدساً وكانت تحترمه وتشفق عليه. إنه بالنسبة لها بمثابة طبيب وقس في آن معاً. وبناءً على أوامره أخذت تقرأ كتباً مقدسة مثل «تاريخ الكنيسة» و أعمال «فيلاريتوس من ريجا». وفي أحد الأيام قالت له إنها تود أن تنسى كل العلم الأوروبي الذي تلقته وأن تصبح روسية في أعماقها، «ليس روسية في قلبي فقط، بل في ثقافتي عن البلد وفي معرفتي للغة». قرر زوج أختها، الكونت سولوجوب، تعريفها بالثروات الثقافية لوطنها بأن يقرأ لها محاضرات حول الأدب المعاصر. كما تبرع جوجول بأن يفعل الشيء ذاته. غير أن هذا النوع من «الروسنة» يظل سطحياً في رأيه.

كتب لها (في ٣٠ آذار/ مارس ١٨٤٩) يقول: «من الأسهل أن تصبح روسياً بتعلم الأمور المتعلقة بالبلد واللغة بالمقارنة مع اكتسابك روحاً روسية!

ماذا يعني أن يكون المرء روسياً حقيقياً؟ أين هي مكامن الجاذبية في عرقنا والتي نواظب على صقلها بكل همّة ونبذ كل ماهو أجنبي وغير لائق وشاذ؟ ماهي خصوصياتنا الأساسية؟ إن المزية الأعظم للشعب الروسي هي أنه يفهم بعمق أكبر مما يفعل الآخرون الكلمات السامية للإنجيل، والتي تستطيع هي وحدها رفع الإنسان إلى درجة الكمال. لقد ألقى الباذر المقدس البذور في كل مكان وبالوفرة نفسها. ولكن بعضها وقع على الطريق والتهمتها الطيور، والبعض وقع بين الصخوروجفّ قبل الحصاد، وأخرى وقعت بين الأشواك وتبرعمت ولكن الأعشاب الضارة ما لبثت أن خنقتها، غير أن هناك منها ما وقعت على تربة خصبة فأتت أكلها. هذه التربة الخصبة هي طبيعتنا الروسية الدافئة المرحبة. بذور المسيح التي وجدت حماية جيدة في قلوبنا هي أفضل ملامح الشخصية الروسية. ولذا، ولكي تصبحي روسية عليك أن تتوجهي إلى المصدر».

من الواضح أن أفضل طريقة لإرشاد الفتاة للروح الروسية، كما قال في رسالة (في ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٤٨) هي أن يقرأ لها ما لديه حول الموضوع: «كنت أفضل أن أبدأ دروسي معك بالجزء الثاني من «نفوس ميتة». وبعد ذلك سيسهل عليّ أن أحدثك حول أمور عديدة».

أرعبت كل هذه الرسائل والأحاديث في النهاية والدي آنّا. وبدون التشكيك بنوايا جوجول النقية فقد اعتقدا بأن علاقته المستمرة مع ابنتهما قد تثير تعليقات غير مواتية – على الرغم من الفارق في السن بينهما. أصبحا أكثر بروداً إزاءه ولم يعودا يحثانه على إطالة أمد إقامته لديهم، وأخذت الأحاديث على المائدة وفي غرفة الاستقبال تذوي وتتضاءل. وكانت آنا تلزم غرفتها في كثير من الأحيان بناءً على طلب أمها. أغضب هذا جوجول الذي أخذ يتساءل عما فعله لكي يقابل بهذا البرود، ولكنه فضل ألا يطلب تفسيراً لذلك. وعلى هذا عاد إلى موسكو محبطاً.

ووجه هناك بمشكلة توفر مكان لإقامته، فمع من يقيم والشتاء يوشك على القدوم؟ فهو لم يستثنِ صديقه القديم، بوجودين، بالتأكيد من تهجماته. بل

أساء إليه وسخر منه وعاب على ضيافته التي وصفها بأنها «معاكسة للامبالاة». وقد جعل منه هدفاً لتهجماته في الفصل الرابع من كتابه «مقاطع مختارة». حيث كتب يقول: «دأب «بي» (بوجودين) طوال حياته على الإسراع والمبادرة لإبلاغ قرائه بكل ما يسمع دون أن يتحرّى ليرى ما إن كانت أفكاره هذه قد نضجت بما فيه الكفاية في ذهنه. فماذا كانت النتيجة؟ لم يجد القراء لديه سوى اللامبالاة وترديد النفايات».

بل إنه صدّر النسخة التي أرسلها لبوجودين من كتاب «مقاطع مختارة» بالإهداء التالي: «إلى بوجودين، إلى روح مهملة ومتغضنة، لا تتذكر شيئاً، لاتلاحظ شيئاً وتتسبب في الإيلام دون أن تدرك ذلك. إلى «توماس المتشكك أهدي هذا الكتاب لكي يتذكر دوماً ذنوبه، من قبل إنسان مذنب شأنه، وقد يكون أكثر إهمالاً منه». كان بوجودين قد قصّ هذا الإهداء وألصقه بدفتر مذكراته اليومية، وقد يظن المرء أن مثل هذا الحكم القاسي من شأنه أن يحسم القضية ويحكم بالقطيعة النهائية بينهما وإلى الأبد. غير أن هذا الأمر، في اعتقاد جوجول، كان جزءاً من الماضي، وذلك البيت في «فيرجنز فيلد» هو الأكثر توفيراً للراحة وعليه أن يعود إليه حتى لو استلزم ذلك إجراء مصالحة.

يحب الروسي أن يفتح أبوابه ويوسّع عائلته ويتشارك مع غيره في ممتلكاته، وأي إساءة لا تعتبر نهائية في عرفه ويمكن للمتهم أن يشتري العفو عن جريمته، وللقلب أن يتغلب على العقل. فعمل الخير يسير جنباً إلى جنب مع السذاجة. وبوجودين، «الأناني»، «الجلاد» لا يحمل ضغينة وحقداً. كان قد اتفق مع جوجول عن طريق الرسائل على عقد صلح بينهما، ولذا رحب به وخصص له غرفته السابقة المطلة على البهو في الطابق الثاني. غير أن افتقار الضيف لأي مراعاة لمشاعر الآخرين ما فتئ أن أعاد فتح جروح مضيفه، إذ أخذ جوجول الذي يستعصي بلا جدال على التقويم والإصلاح يتصرف كأنما العالم مدين له بكل شيء. فأصدقاؤه بالنسبة إليه هم خدم له وبيوتهم هي فنادقه.

كتب بوجودين في مفكرته اليومية (في ١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٤٨) يقول: «كنت أفكر بجوجول: ما يزال كما كان، ملابسه وحدها هي التي اختلفت، والناس لا يعنون شيئاً بالنسبة له».

وكتب في اليوم التالي: «لم يظهر جوجول خلال اليومين الماضيين، ولا يخطر بباله قط أن يسأل كيف أتدبر أمري لإطعام خمسة وعشرين شخصاً».

التقى الشاعر الشاب «بيرج» بجوجول في إحدى الأمسيات لدى آل شيفريف وكتب في مذكراته: «من الصعب أن تتصور رجل أدب مفسوداً ومدعياً مثل جوجول في تلك الأيام. أصدقاؤه المسكوفيون (أو قل معارفه إذ لم يكن لجوجول أصدقاء قط طوال حياته) كانوا يعاملونه بتبجيل لا يوصف. وكلما كان يأتي إلى موسكو فإنه يجد بيتاً أو آخر، وكل ما يحتاجه لحياة هادئة مريحة: طعامه المفضل، مكاناً هادئاً يهيئ له خصوصية لكي يعمل، خدماً جاهزين لتلبية أوامره في الحال. وكان على أصدقاء مضيفه أن يتعلموا على الفور كيف يتصرفون بحضوره. فقد تعلموا مثلاً بأن جوجول لا يتحمل أن يتحدث عن الأدب، خاصة فيما يتعلق بعمله. وعلى ذلك يجب ألا يلحّوا عليه بأسئلة مثل: «ماذا تكتب الآن؟» أو «إلى أين تخطط للسفر؟» أو «أين كنت؟» فهو لا يحب ذلك أيضاً. كما أن هذه الأسئلة، كما يقال، هي أسئلة غير مجدية في الحديث معه، إذ إنه إن كان ينوي الذهاب إلى أوكرانيا فإنه يقول: «إنني ذاهب إلى روما». وإذا كان في طريقه إلى روما فهو يجيب: «أنا ذاهب للإقامة مع فلان في الريف».

وقد أورد بيرج هذه الصورة الصادقة: «رجل قصير القامة يرتدي معطف سهرة أسود وسروالاً فضفاضاً. شعره ينسدل وكأنه فاصلتان على جانبي وجهه. له شارب صغير، وعينان سوداوان سريعتان نفاذتان وبشرة شاحبة. يتمشى في الغرفة من زاوية إلى أخرى واضعاً يديه في جيبيه وهو يتحدث. مشيته فريدة متشنجة وسلوكه يتسم بالتكلف والارتباك، متوتر كقبضة يد مشدودة.

لايحاول التواصل أو الانفتاح سواء في الإيماءات أو بالنطق. عيناه تنظران على العكس من الأسفل إلى الأعلى، تسترقان النظر بنظرة مائلة توحي بنوع من المكر ولا ينظر قط بوجه من يحدثه».

كان جوجول يبدو عادة في هذه الجلسات شبه الأدبية - الاجتماعية نعسانَ، صموتاً لا يتفوه إلا بعبارات عادية أو عبارات نشاز بحيث يشعر أصدقاؤه بالحرج من أجله. غير أنه يتخذ في سره وبشكل متزايد وضعية النبي الملهم من السماء. وفي (١٩ تشرين الثاني/ نوفمبر) أقام قداساً في غرفته وانتشرت رائحة البخور في طول البيت وعرضه. وقد كتب بوجودين في مفكرته اليومية وقد أزعجه هذا الورع المبالغ به: «دخلت الأرثودوكسية والأوتقراطية بيتي. فقد أقام جوجول لتوه قداساً، هل هو استعداد لاعتلائه العرش؟»

وبعد فترة وجيزة جاء قس آخر للزيارة. موجهه الروحي، الأب «ماثيو كونستانتينوفسكي» الذي كان مارا بموسكو. سعد جوجول أيما سعادة للالتقاء شخصياً بذلك الشخص الذي طالما أسرّ له بدواخل نفسه عن طريق الرسائل. أصبح الورق والحبر لحماً ودماً. رجل في الستين، معتدل الطول، منحنٍ قليلاً، له لحية تميل للاحمرار وشعر يخطه البياض، وأنف عريض وعينان رماديتان صغيرتان، والهيئة العامة لفلاح على الرغم من رداء الكاهن الذي يرتديه ومن الصليب اللامع الذي يزيّن صدره. سحرت جوجول أول كلمات نطق بها زائره ببلاغته الفجّة. لم يكن الأب ماثيو يحور ويدور في كلامه: كل ما لا ينتمي للديانة الأرثودكسية إنما ينتمي لعالم الشيطان. ومن الواجب اتباع خطى المسيح خطوة خطوة دون أن ينظر المرء يميناً أو يساراً. حتى الفن هو محل شبهة في نظره. كان يطارد كل أنماط الهرطقة في «رجيف» والمقاطعات المحيطة بها بحيث كان يخافه الفلاحون وملاّك الأراضي سواء بسواء. وهو يأتي إلى موسكو بين حين وآخر ليتلقى اعتراف أشد المعجبين به، الكونت تولستوي ولكي ينوّره. وقد أبلغه جوجول بأنه قرر وضع كل موهبته في خدمة الكنيسة، وأن الجزء الثاني من نفوس ميتة سيكون عبارة عن ترنيمة للأرثوذكسية الروسية، وأنه يرغب بتحسين

نفسه لكي يكون جديراً بالمهمة التي أوكلها الله له على الأرض. قبّل اليد القوية التي باركته، ووعد الأب ماثيو بالعودة.

ما إن غادر حتى أخذ جوجول يتساءل فيما إن كان عليه أن يبتهج أو يرتعش لهذا الحامي المنذر بالسوء والذي اتخذ منه مخلّصاً له. غير أنه حين التقى الارشمنديت ثيودور في نفس الفترة تقريباً ردّد قراره بأنه سيكرس فنّه للمتطلبات الدينية. وعندما سأله رجل الدين ماذا سيكون قدر أبطاله في القسم الثاني من «نفوس ميتة» أجاب بأن القصيدة ستنتهي بهداية تشيشيكوف وعودته إلى الفضيلة وأن «القيصر نفسه سيشارك في عملية الاحتفال بهدايته» كما يشير الأب ثيودور في ثلاث رسائل إلى جوجول.

آلم بوجودين أن يرى جوجول وهو يقع في قبضة القسس. وقد كان يصرح بذلك في بعض الأحيان، وبدأت سحب عاصفة جديدة تتجمع بين الرجلين. لم تحدث انفجارات غير أن التوتر أصبح منهكاً. ادعى جوجول أن التدفئة في البيت سيئة وأنه لا يستطيع احتمال ذلك بعد أن بدأ فصل الشتاء فعلاً، وكان الكونت تولستوي قد عرض عليه ضيافة دونما حدود مع كل وسائل الراحة، وفي جو من التقى المثالي. لا مجال للتردد. نقل جوجول ملابسه وأوراقه إلى منزل الكونت بحلول عيد الميلاد.

قال أكساكوف إن الجو في بيت تولستوي كان جو باباوات ورهبان، وتعصب أعمى، وخوف لا عقلاني من المجهول وغيبيات». صيام، صلاة، وقداديس تجري في البيت كل يوم سبت، وزيارات متكررة من قسس، وقراءات تقيّة مع الشروح على مائدة العشاء. وبعد أن كان مشتاقاً لحياة مغموسة بالدين أخذ جوجول يشعر بالاختناق والملل بالنظر لوفرة المظاهر الخارجية للإيمان إلى درجة مبالغ بها. لم تعد لديه على الأقل مشكلة مادية وقد تأمن له السكن والمأكل وغسيل ملابسه وكيّها، علاوة على إنفاق الكونت على كل مستلزماته الأخرى، ولذا كان يمكنه في النهاية أن ينسى أمر النقود، ولم يعد هناك عائق يحول دون تنفيذ خطته لتحويل كل عوائده التي يديرها كل من بلتنييف في

بطرسبرج وشيفرييف في موسكو إلى والدته وإلى صندوقه الخاص بالطلبة المعوزين. أخذ حلمه يتحقق، إذ أصبح كريماً بفضل كرم شخص آخر. ومع ذلك لم يشعر قط كما يشعر الآن بتضاؤل رغبته في العمل. وكضحية للبلادة الفكرية أخذ يكتفي بالتحديق بأوراقه الفارغة التي يضعها أمامه.

كتب لجوكوفسكي (في ٣ نيسان/ إبريل ١٨٤٩) يقول: «لست أفهم لماذا لا أستطيع أن أكتب ولماذا لا توجد لديّ رغبة في الكلام حول أي موضوع. نشاطاتي الثقافية متوقفة تماماً».

من الغريب أن هذا الارتداد في قدراته الإبداعية رافقه تحسّن واضح في صحته. أخذ ينام بصورة أفضل، وتضاءلت شكاواه من الإزعاجات في معدته. وقد لاحظ أكساكوف وهو يعانقه أن وزنه قد ازداد، وكتب يقول: «ابتهجت وحمدت الله».

أعدّ جوجول لحفلة عيده السنوية في (٩ أيار/ مايو ١٨٤٩) «حفلة الحديقة» التقليدية في بيت بوجودين. غير أن من دعاهم من الأصدقاء حيوا بعضهم بعضاً على مضض. فما كان يوحّد بينهم في الماضي كان يفرّقهم الآن. لقد تقدموا في السن جسمياً وروحياً، وأصبحوا مجرد نسخ كاريكاتورية عما كانوا عليه من قبل.

كتب أكساكوف للسيدة سميرنوف (في ١٦ أيار/ مايو ١٨٤٩) يقول: «حدث الكثير أثناء هذه السنوات. كان الجميع تقريباً قد اختصموا مع بعضهم البعض في تلك الأثناء، وهم ينتمون لمعسكرات متضاربة وعبروا عن آرائهم مرات عديدة. وعندما أصبح الجمع أكثر حيوية بعد أن شربوا النبيذ تبادل الضيوف الشتائم».

هذا الاجتماع مع أشباح شبابه عزز من إحساس جوجول بأن الزمن يمضي بسرعة كبيرة. كتب لدانييلفسكي (في ١ تموز/ يوليو ١٨٤٩) قائلاً: «تمضي الأيام بسرعة كبيرة بحيث لا أستطيع اللحاق بها ودون أن أحقق شيئاً تقريباً.

ومع أن ذهني أقل انشغالاً وأعيش في وحدة تتجاوز كل ما مررت به من قبل، فإن عملي أقل من أي وقت مضى».

تحوّل إلى علاجه القديم المجرّب وهو السفر. ولكنه لم ينجذب إلى أصقاع أجنبية بل أراد أن يستكشف روسيا. فمن الأفضل له أن يراها ويفهمها ويصورها. ولدى زيارة السيدة سميرنوف لموسكو عرّفته على أخيها غير الشقيق، الشاب «ليو آرنولدي» ودعتهما لزيارتها في إقطاعتها قرب «كالوجا» في شهر تموز/ يوليو. وقد فوجئ جوجول عندما تبين له بعد مغادرة صديقته بأنه لم يعد قادراً على التفكير بها إلا بشعور من الأسى. كم تقدمت في العمر! لقد أرهقتها الهموم وجفّت ولم يبقَ من شبابها إلا تلك العينان السوداوان الملتمعتان. أما أخوها غير الشقيق فهو شاب لطيف غارق بالإعجاب بمؤلف «نفوس ميتة»، غير أنه حرص على عدم مضايقته بالإطراء في غير موضعه، أو بالأسئلة الملتوية. اتخذا معاً استعدادهما للرحلة، وفي أحد الأيام، وبينما كان أرنولدي يرافق رفيق سفره إلى بيت تولستوي التقيا بعاهرات كنّ يتمشين وهن يهززن أوراكهن ويوجهن نظراتهن المثيرة في شارع «نيكتسكي». أمسك جوجول بذراع الشاب وتمتم (كما يورد أرنولدي في «علاقاتي مع جوجول»): «أتعرف ماذا حدث معي منذ فترة وجيزة؟ كنت أتمشى في وقت متأخر في إحدى الليالي في زقاق مهجور عندما سمعت ترتيلاً دينياً صادراً عن الطابق الأرضي لبيت تبدو عليه علائم القذارة. كانت النوافذ مفتوحة ولكنها مغطاة بستائر خفيفة من قماش الموسلين الذي نراه في ذلك النمط من البيوت. توقفت لألقي نظرة مختلسة عبر النافذة فرأيت منظراً مريعاً. ست أو سبع شابات ذاويات يمكن استنتاج مهنتهن المخزية من الأصبغة البيضاء والوردية على وجوههن، وعجوز شمطاء مخيفة معهن وهنّ يصلين أمام أيقونة منصوبة فوق طاولة متقلقلة في إحدى الزوايا. كانت الغرفة الصغيرة شديدة الإضاءة بشموع رفيعة، وهي مفروشة بأثاث يشابه ما تحويه الغرف المماثلة لمثل هذه الأماكن. وهناك قس يؤدي قداساً وهو يرتدي رداءه الكهنوتي، وشماس ينشد العبارات الجوابية على إنشاد القس. كانت

الخاطئات يسجدن بحماسة. بقيت واقفاً أمام النافذة لربع ساعة، ولم يكن هناك أحد في الشارع. صليت معهن حتى النهاية. كان الأمر مريعاً، مريعاً. تلك الغرفة التي تعمها الفوضى والمستخدمة لغرض معيّن ورائحتها الخاصة، وتلك الدمى المدهونة، وتلك المرأة العجوز البدينة، وفي ذلك المكان نفسه أيقونات، وقس وإنجيل وتراتيل».

تلك الصورة الكابوسية كانت روسيا بالطبع أيضاً. غير أنه لن يكون هنالك شيء من تلك الروسيا في الجزء الثاني من نفوس ميتة. فروسياه ستكون كلها فضيلة، وأمل، وعمل جدي وضبط للنفس وإيمان. يمكن لكتّاب آخرين أن ينقبوا في ذلك المنجم من الانغماس الوضيع في الأمور الحسية- والذي يتزاوج مع ذلك الاحتفال المفرط بعيد الميلاد - إذ إن من شأن دستويفسكي مثلاً أن يتقبل كلياً مشهداً مماثلاً لذلك الذي رآه جوجول. ولكن دستويفسكي كان قد اعتقل لسوء الحظ في شهر نيسان/ إبريل الفائت لدوره في مكيدة سياسية وسجن مع العشرات من المتآمرين الآخرين في قلعة «بيتر وبول». وكانت هنالك لجنة تحقيق تبحث في أمر هؤلاء البائسين الذين سمحوا لأنفسهم، بقيادة شخص اسمه «بيتراشيفسكي» بالإصابة بعدوى الثوريين الأوروبيين. كان الهمس دائراً بأنهم قد يرسلون إلى مناجم الملح، وقد رأى فيهم القيصر ورثة لأولئك «الديسمبريين» الذين قضى عليهم لدى اعتلائه العرش قبل خمسة وعشرين عاماً، وكان يأمل دون شك بأن يجعل من معاقبتهم رادعاً لكل أولئك الناس من ذوي العقول المنحرفة الذين يسعون للإطاحة بالنظام الإمبراطوري باسم الحرية، وهي عقوبة ما كان لجوجول أن يعارضها. كان يشعر بالأسف على هؤلاء الشبان الذين أصبحوا ضحية لأفكارهم، ومن بينهم كاتب واعد مثل دوستويفسكي. غير أن ضربة أبوية مدوية تصبح ضرورية في بعض الأحيان للحفاظ على وحدة وصحة العائلة الروسية العظيمة. كما أنه لم يكن هنالك الكثير من الحديث عن هذه القضية في الدوائر التي يتردد عليها: إذ كان المجتمع مقسماً إلى فئات مستقلة عن بعضها البعض بحيث أن الحياة كانت تمضي برفق بالنسبة للبعض بينما كان البعض الآخر يتلوون في أعماق اليأس على مبعدة عشرة أمتار عن أولئك.

بينما دستويفسكي يهترئ في زنزانته في سانت بطرسبرج، كان جوجول يتهيأ لمغادرة موسكو التي نهكها الحر. وصل إلى أمام باب بيت آرنولدي في (٦ تموز/ يوليو ١٨٤٩) حاملاً حقيبة ثيابه الصغيرة القابلة للتوسيع وحقيبة أوراقه الجلدية السميكة التي تحوي مخطوطة الجزء الثاني من «نفوس ميتة». وقد كتب آرنولدي في مذكراته يقول: «حقيبة الأوراق تلك لم تكن تفارقه طوال الرحلة. كان يحملها إلى غرفته في محطات التوقف ويضعها إلى جانبه في العربة ويغطيها بيده». مضت العربة وهي ترتج بخشونة وترتفع وتنخفض مع كل دورة دولاب. كان مزاج جوجول ممتازاً وأخذ يتحدث عن الأدب وعن ذكرياته عن أصدقائه، أو يروي حكايات غير محتشمة تضحك رفيقه إلى أن تنهمر دموعه. بل إنه لم ينزعج حين انكسرت العربة عندما وصلوا إلى «مالوياروسلافتس». كان رئيس البلدية ماراً لحسن الحظ فأمر بإصلاح العربة على الفور. وعندما علم بأن جوجول هو أحد الراكبين كان يمكنه أن يعبر عن استنكاره نيابة عن زملائه من رؤساء البلديات الذين تعرضوا للذم في شخص سكفوجنيك - دموخانوفسكي في «المفتش العام». ولكنه على العكس من ذلك هنأ الكاتب على كشفه الرائع للإساءات الإدارية وحياة الملل السائدة في البلدات الريفية. شجع هذا التفهم لدى مسؤول حكومي جوجول ولذا أخذ يستفسر منه حول زملائه المسؤولين والتجار وملاك الأراضي المحليين متوسلاً له إعطاءه بعض التفاصيل. ويقول أرنولدي أنه بينما كان يميل نحو رئيس البلدية بدا وكأنه «حشرة العلق» التي تلتصق بجلد المريض وتمتص دمه في جرعات صغيرة، وكان يمكنه البقاء هناك ساعات يمتص ما لدى رئيس البلدية من مادة. غير أن العربة ما لبثت أن أصلحت وكان عليهما أن يستأنفا السفر من جديد. وما لبث أن استعاد فضوله في المحطة التالية، وكما فعل مع رئيس البلدية بدأ يستجوب مدير المحطة والعاملين في النزل حول السكان المحليين، والمآكل التي يحبون تناولها، وعن علاقاتهم مع الإدارة وآخر الفضائح، وما هو حسن وماهو سيئ في المنطقة. كان دفتر ملاحظاته في يده يكتب فيه كل معلومة وهو يبدي كل دلائل الابتهاج. ومرحلة بعد مرحلة وصلا إلى «بيجيشيفو»، إقطاعة سميرنوف، وهي بناء من الحجر الأبيض مع

منتزه وبركة والسيدة سميرنوف الأنيسة. وبعد أربعة أيام من استكشاف الريف غادرت العائلة كلها إلى كالوجا. كان بيت الحاكم على طرف المدينة إلى جانب غابة صنوبر فوق نهر «ياشينكا». انتقل جوجول وآرنولدي إلى جناح منفصل حيث خصصت لهما غرفتان متصلتان.

كان جوجول ينسحب في الصباح ليكتب، ثم يتمشى في المنطقة وينضم إلى مضيفيه وقت الغداء وقد ارتدى بأناقة سروالاً أصفر اللون من قماش النانكين وصدرية قصيرة بلون فيروزي. يتحدث على المائدة بشغف حول أمور لا يعرف عنها شيئاً ويحسم كل موضوع بدوره برأي لا يقبل الجدل. فإن طرح موضوع الصيد، وهو رياضة لم يمارسها ولو مرة واحدة فإنه يناقض رأي سميرنوف الذي يمتلك كلاب صيد مشهورة في جميع أنحاء روسيا. وإن دار الحديث حول الزراعة فإنه هو الذي لا يمكن اعتباره أدار مزرعة صغيرة يعمد لتقديم نصائح لمضيفه الذي يمتلك خمسة آلاف من الأقنان وإقطاعات ضخمة في ست مناطق مختلفة.

يقول آرنولدي في مذكراته: «أسلوبه ديكتاتوري، لا يلتفت لأي اعتراض بحيث اعتقدت بأنه يصطبغ بالغرور كلياً، وبأنه واثق من نفسه بطريقة مبالغ بها. مختال، بل وأحمق. رأيت لدى جوجول ادعاءً بأنه يعرف عن كل شيء أكثر مما يعرف أي شخص آخر. كان يستجوب المختصين فعلاً في بعض الأحيان غير أنه ما يلبث أن يعمد دوماً إلى أن يحوّل معلوماتهم وتفسيراتهم إلى ما يؤكد الأفكار الخاصة التي يحملها من قبل حول الموضوع. لم يكن يحب أن يتعلم شيئاً من أي شخص آخر».

حتى السيدة سميرنوف، وعلى الرغم من إعجابها غير المحدود بجوجول فهي تقول: «عندما يقدّم إلى شخص ما يثير اهتمامه فإنه يستمع إليه بإمعان أو يبدأ بالإعلان عن حقائق خالدة. ويعلن أحياناً عن أمور عادية بصوت مرتفع بحيث يضيق به سامعوه. بل إن بعضهم لم يسامحوه قط لأنه كان يفرض عليهم دروساً دون أن يطلبوا منه ذلك».

كان يحب في أيام الأحد أن يرى كبار المسؤولين جميعاً متصلّبين بثيابهم المنشّاة وهم يتصرفون على النحو الأمثل على مائدة الحاكم. كان هذا يعطيه إحساساً بقوة الهرم الإداري وصلابة الإمبراطورية الروسية. ويبذل هو نفسه جهداً استثنائياً في المناسبة، حيث يرتدي معطف سهرة وقميصاً ناصع البياض ويعلق سلسلة ذهبية ثقيلة عبر صدريته. وكان يقول، كما تنقل عنه السيدة سميرنوف: «من الواجب أن تتجاوز كل الأشياء وضعها العادي في أيام الأعياد. يجب أن تكون الكريما الطازجة في القهوة سميكة بشكل غير عادي، والعشاء جيداً بصورة استثنائية، وأن يكون هناك رؤساء وقضاة، وكل أنماط الناس المهمّين حول المائدة، بل يجب أن تكون التعابير على وجوههم أكثر رزانة من المعتاد».

وافق في صباح أحد الأيام على قراءة الفصل الأول من الجزء الثاني لنفوس ميتة للسيدة سميرنوف وآرنولدي. وعندما انتهى أعلنا كلاهما عن اندهاشهما الشديد. غير أن أرنولدي قال (كما أورد في مذكراته عن جوجول) بأنه وجد شخصية أولينكا الشابة النقية شخصية تقليدية نوعاً ما. وهنا دمدم جوجول: «ربما، ولكنها ستصبح أكثر عمقاً في الفصول التالية».

كرّر للسيدة سيمرنوف القول بأن «نفوس ميتة» إنما تُكتب بأمر من الله. وقد نقلت عنه السيدة سميرنوف قوله: «إنني واثق بأنني سأموت بعد أن أنهي مهمتي وأستكمل العمل الذي فُرض عليّ إنجازه. ولكنني سأموت في وقت أسرع إن منحت العالم عملاً غير ناضج أو غير كامل لأنني لن أكون قد أنجزت المهمة التي وجدت على وجه البسيطة لإنجازها».

شعر أرنولدي وهو يستمع إليه بأنه يتجادل مع عشرة أشخاص في شخص واحد -فهو مرة متواضع، وأخرى متبجح، يعظ الآخرين في الوقت الذي يحتاج فيه لأن يتعلم الكثير، ويشتكي من ألف صعوبة وصعوبة وهو يعيش على حساب الآخرين، يعزو كل الأمور إلى الله ويتعامل مع نفسه على أنه مركز العالم، يقدّم أفكاراً متألقة وسفاسف لا معنى لها بالنَفَس ذاته. وقد كتب

آرنولدي في مذكراته: «أطلق أخي ملاحظة اعتبرتها صحيحة إلى حد كبير في ذلك الحين: قال إنه يعتقد بأن جوجول يشبه إلى حد كبير جان جاك روسو» «الكاتب والفيلسوف الفرنسي ١٧١٢-١٧٧٨».

بنهاية شهر تموز/يوليو كان جوجول قد بدأ يتململ من جديد. وعندما سمع بأن الأمير «ديمتري أوبولينسكي» الذي كان في كالوجا ينوي التوجه إلى موسكو قرر الانضمام إليه. وما إن دخل عربة النوم الخاصة بالأمير حتى أخذ يبحث عن مكان آمن يضع فيه حقيبة أوراقه الجلدية الثمينة التي تحوي مخطوطته. وفي النهاية وضعها تحت قدميه ولم يحوّل عينيه عنها، وظل يتحسّس وجودها بمقدمة حذائه وهو يغفو. توقفت العربة عند الفجر عند نُزُل لتناول الشاي، فحمل جوجول حقيبته معه، وكان في حالة نفسية متميزة ويتمتع بشهية جيدة. وفي إحدى محطات البريد التي توقفوا فيها عرض الأمير على جوجول ملاحظة لافتة للنظر سجلها شخص غريب في دفتر الشكاوى. ويقول الأمير أوبولينسكي في مقال لدى صدور الطبعة الأولى لأعمال جوجول بعد وفاته نشرتها دورية «رشان أنتيكويتي» في عام ١٨٧٦: «التمعت عينا جوجول بطريقة عابثة وتساءل: كيف تتصور شكل هذا الرجل؟ ماهي صفاته، شخصيته؟ أجبته: «لست أدري». قال: «حسناً، أنا سأقول لك إذن!» وتابع ليقدم وصفاً مضحكاً ومبتكراً إلى أقصى درجة يمكن تخيلها لشكل هذا الشخص غير المعروف. ثم قدم وصفاً شاملاً لعمله في السلك الوظيفي، ولأدق التفاصيل في حياته الخاصة. وقد ضحكت لهذا الوصف بشدة بينما كان جوجول يتابع عرضه بكل جدية».

قرر جوجول لدى وصوله إلى موسكو بأنه لا يمكنه المكوث بها خلال الشهر الأكثر حرارة في السنة. ولكن أي سقف سيحتمي به هذه المرة؟ فالعيش على حساب الآخرين أصبح عادة متأصلة لديه بحيث كتب لأنا فايلجورسكي حال وصوله (في ٣٠ تموز/ يوليو ١٨٤٩) يقول: «لست أدفع أي شيء لأحد مقابل إيوائي واحتياجاتي اليومية. أقضي هذا اليوم لدى هذا الشخص وغداً مع آخر. إن أتيت لرؤيتك فسأقيم لديكم دون أن أدفع كوبيكاً واحداً لقاء إقامتي».

ولكنه لم يذهب إلى بيت آل فايلجورسكي في النهاية، بل أقام أولاً لدى شيفرييف في «أبراميتسيفو»، ومن ثم ذهب إلى إقطاعة أكساكوف التي تبعد مسافة ستين فرسخاً عن موسكو. وكان «سيرجي تيموفييفتش أكساكوف» الذي أصبح نصف أعمى قد قرر العيش هناك بصفة دائمة ليتابع العمل في كتابه: «ذكريات صيّاد» ضمن جو الهدوء الريفي. رحبت العائلة كلها بكل سرور بالضيف واصطحبته إلى الغرفة الفسيحة المشمسة التي خصصت له في الطابق الثاني والتي تطل على الحديقة. مضى الوقت بسرعة في العمل، والمشاوير في الغابة مع العائلة، وجمع الفطر، وأحاديث مطولة على ضوء المصباح، أو قراءات من أعمال كتاب سابقين. هنأ جوجول نفسه على اختيار هذا السكن الصيفي. وفي (١٨ آب/ أغسطس) عرض أن يقرأ فصلاً من نفوس ميتة. ظن قسطنطين، الابن الأكبر لأكساكوف أنه يعني الجزء الأول فنهض لإحضار الكتاب من المكتبة. غير أن جوجول جذبه من كمّه ليعلن أنه يعني بداية الجزء الثاني. ويقول أكساكوف (كما روى لكوليش): «لا يمكنني تفسير ما شعرت به، إذ اعتراني شلل كلّي، أكثر مما اعتراني من الفرح. شعرت بالرعب من سماع شيء لا يليق بجوجول». سحب الكاتب كراساً سميكاً من جيبه، بينما سحب أفراد العائلة مقاعدهم ليحيطوا به، وظهر تشيشيكوف على المسرح من جديد. ومنذ الكلمات الأولى تلاشت هواجس أكساكوف، فالمرض الغامض للكاتب لم يخنق موهبته، بل تفجرت حيويته في بعض المقاطع الافتتاحية من الفصل مثلما كانت تتفجر في فترة شبابه المبدعة. وبعد أن تلقى التهنئة وسعد بها رفض متابعة القراءة قائلاً إن الجزء التالي ليس جاهزاً بعد. وفي اليوم التالي توجه إلى موسكو واعداً بالعودة.

التزم بهذا الوعد. ففي كانون الثاني/يناير ١٨٥٠ سمعت عائلة أكساكوف قراءة ثانية من الفصل الأول بعد مراجعته. وعلى الرغم من أن النص لم يحوِ شيئاً جديداً بالنسبة إليهم فقد نال إعجابهم أكثر من ذي قبل. أسعد رد فعلهم هذا جوجول فبادرهم بالقول (كما ينقل عنه أكساكوف): «هكذا رأيتم ما الذي

يحدث حين يضع الفنان لمساته النهائية على عمله. ربما تكون التعديلات غير ملحوظة تقريباً، كلمة حذفت من هنا وأخرى أضيفت هناك، وثالثة نقلت من موضع إلى آخر – وهكذا يبدو كل شيء مختلفاً. لن أسلّم كتابي إلى المطبعة إلى أن أكون قد أعدت النظر في كل فصل منه بالطريقة نفسها».

بعد مرور أيام قليلة طلب من أكساكوف أن يقرأ له قسماً من كتابه «ذكريات صياد». مسّ هذا الاهتمام المفاجئ الرجل الطيّب فطلب من ابنه أن يقرأ له. ولكن جوجول أخذ يتململ في مقعده دون أن يبدي قدرته على إخفاء نفاد صبره وقسطنطين يتابع القراءة بحيث أن انتباهه لم يكن يزيد على ما يمكن أن يكون عليه لو أن ما يقرأ عليه هو قائمة من قوائم مقاعد أحد المجالس الإقليمية الروسية. ظل يتحسس كراسه السميك في جيبه وقد بدت عليه علائم انشغال البال، وفي اللحظة التي توقف فيها قسطنطين عن القراءة هتف قائلاً: «والآن جاء دوري للقراءة!» فهم الجميع حيلته الصغيرة، فقد أراد أن يستمع «لذكريات صياد» لكي يهيىء مستمعيه لتتمة «نفوس ميتة». ولكن أكساكوف استطاع أن يتغاضى عن هذه الحيلة الصغيرة بحكم تقديره الكبير له، بحيث وجد الفصل الثاني أفضل حتى من الفصل الأول. وهو يقول في رسالة لابنه إيفان (في ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٨٥٠): «لم أستطع أن أحبس دموعي في ثلاثة مواضع. فالفن بهذا المستوى والذي يظهر إنسانية رفيعة لدى أكثر الأشخاص خشونة لايوجد إلا لدى هوميروس وحده. ولقد توصلت إلى قناعة نهائية الآن فقط بأن جوجول قادر على إنجاز المهمة التي يتحدث عنها بكل تلك الثقة والتفاخر في الجزء الأول».

ما إن تلقى جوجول تهاني صديقه القديم حتى اتخذ وضعاً ينم عن الإلهام وقال كأنه يتحدث عن إنسان آخر: «أجل، أجل! فليعط الله الصحة والقوة لخادمه. لابدّ أن خيراً عظيماً سينتج عن ذلك كله، إذ لا يمكن للإنسان أن يعرف نفسه دون مساعدة أقرانه من بني البشر». وكان يود قراءة الفصل الثالث الذي كان قد استكمله ولكنه غدا ضعيفاً وغاب صوته بحيث لم يتمكن من متابعة القراءة.

لم يحقق إلا القليل من التقدم في عمله على الرغم من التشجيع الذي لقيه من أصدقائه. وقد كتب لبلتنييف فور انتهاء قراءته الظافرة لأكساكوف (في ٢١ كانون الثاني/ يناير ١٨٥٠) يقول: «لست أدري ما الذي يجري في داخلي، هل بداية التقدم في السن هي التي تجعل منا ضعفاء كسالى، أم هي صحتي السيئة، أم هو الطقس؟ ببساطة، لا أستطيع أن أجد الوقت الكافي لإنجاز أي شيء. أستيقظ باكراً، وأتناول قلمي في الحال، ولا أسمح لأحد بالدخول وأرفض أي شيء لا يمثل أهمية أولية بالنسبة إلي، لست أكتب حتى رسائل لعائلتي وأصدقائي ومع ذلك فإنني لا أنتج إلا سطوراً قليلة. وأعتقد بأنني ما أكاد أعمل لساعة واحدة حين أنظر في ساعتي حتى أجد أن وقت العشاء قد حان. هذا يعني أن النهاية، نهاية نفوس ميتة ليست مرئية بعد. لست أفهم كيف يمكن التعجّل في إنجاز عمل فني».

وتابع بعد ذلك ليقدم التحليل التالي لوجهة نظره حول بطء عملية الإبداع حيث يقول: «عليك بداية أن تدوّن باختصار وعلى عجل أفكارك كما ترد لذهنك دون أن تهتم بالشكل، ولكن دون أن تحذف شيئاً. وانسَ بعد ذلك وجود دفتر الملاحظات هذا. وبعد مرور شهر أو اثنين (وربما لفترة أطول) تخرج هذا الدفتر وتعيد قراءة ملاحظاتك. ستدرك على الفور بأن هناك أموراً عديدة غير صحيحة، وأخرى غير ضرورية، وأخرى غير موجودة. صحح المعلومات في كراستك واكتب ملاحظات على الحواشي. ثم انسَ الكراس ثانية. ولدى قراءته قراءة جديدة بعد مرور بعض الوقت سجّل تصحيحات أخرى على الهوامش. وإن لم تكن هناك مسافة كافية ألصق قطعة ورق في أسفل الصفحة. وبعد أن يكون كل شيء قد كتب وأعيدت كتابته بهذه الطريقة أعد نسخ محتويات الكراس بنفسك. سيعطيك هذا أفكاراً جديدة وستحذف بعض الأشياء وتضيف أخرى وستنقّي أسلوبك. انس الكراس ثانية بعد ذلك، سافر، استمتع بوقتك، لا تفعل شيئاً أو اكتب شيئاً مختلفاً، وسيأتي اليوم الذي تتذكر فيه مخطوطتك فجأة. خذها واقرأها برمتها. صحح كما فعلت من قبل، وعندما يصبح الكراس

متسخاً تماماً كما كان الكراس الأول، انسخه ثانية. وعند ذلك سيتبين لك أن يدك وأسلوبك سيزدادان حزماً، وأصبحت جملك مصفّاة. يجب أن يتم ذلك ثماني مرات في رأيي، وفي النهاية سيصبح العمل في نسخته الثامنة. يجب أن يعاد نسخه بالتأكيد دائماً من قبل الكاتب نفسه، وسيصبح منتهياً فنياً وقريباً من الكمال، وأي تعديل آخر أو مراجعة قد يؤدي إلى إفساد العمل – وهو ما يسميه الرسامون باللمسات المفرطة – لا يمكن للمرء أن يتّبع هذه القواعد بدقة دائماً. ما أتحدث عنه هو حالة مثالية، فأحياناً يكتب المرء بسرعة أكبر فالإنسان ليس بآلة». (نقلاً عن مذكرات إن. في. بيرج).

ردد الجملة الأخيرة مرة بعد مرة لتبرير الركود في عمله هو نفسه. ربما كان يلوم ظروفه المادية. أما وهو يقيم في بيت الكونت تولستوي الذي عاد إليه لقضاء فصل الشتاء، وكأنما هيئ كل شيء عن عمد لتأمين الطمأنينة له ولتطهير روحه. جو من التقى، طبخ محترم، مواقد حارة ملعلعة، مكتب مريح، وفرة في الخدم – ما الذي يلزم بعد ليسمح للأفكار بأن تفرّخ؟ يقول «بيرج» في مذكراته: «كان جوجول مدللاً هنا كأنه الطفل، وفّرت له الحرية الكاملة بكل وجوهها. لم يكن هنالك ما يشغل باله، فالفطور والغداء والعشاء والشاي كلها تحمل إليه حيثما أمر بذلك. ملاءاته وملابسه تغسلها أيد غير مرئية وتضعها في الأدراج. أيادٍ غير مرئية أخرى تلبسه ملابسه. غرفه يظلّلها صمت لا يصدق، وجوجول يذرع المكان من زاوية إلى الزاوية الأخرى، ويكتب وأصابعه تكوّر قطعاً صغيرة من الخبز الأبيض ويجعل منها كرات صغيرة: ويؤكد أن هذا يساعده على حل أكثر المشكلات تعقيداً وقسوة. وعندما ينهكه العمل أو يبعث في نفسه الملل فإنه يصعد لرؤية رب البيت، أو يرتدي معطفاً ويتمشى على طول شارع نيكيتسكي بوليفار».

خطرت له فكرة غريبة في حوالي تلك الفترة. ربما كان إنتاجه سيكون أفضل لو أنه كان متزوجاً». وعلى الرغم من أن الفكرة أرعبته في البداية غير أنه حين أعاد النظر فيها لم يجدها سخيفة كلياً. زوجة محبّة، هدوء بيتي مسيحي،

الديمومة اللذيذة لروتين الحياة الزوجية، هذا هو ما كان يحتاجه طوال حياته ليكتب عملاً فنياً خالداً. لقد ظل يركض على طرق السفر، يلتهم المسافات، يقفز فوق الحدود، بينما قد يكون الحل موجوداً هنا، في وجهٍ حانٍ تضيئه شعلة نور يقظة.

كلا، ليس هنالك جانب جسدي في رغبته المفاجئة بالارتباط. قال لنفسه إن سنّه (فقد كان في الحادية والأربعين من عمره) من شأنه أن يعصمه عن الشهوة الجسدية التي تبعث على الاشمئزاز. وإذا كان له أن يفكر في ارتباط ما مع شخص من الجنس الآخر فهو إنما يفعل ذلك لأنه يتوق لتواصل الأرواح فحسب. وتماماً كما أحبّ جوزيف فايلجورسكي لأن الفتى المسكين كان قد توقف فعلاً عن أن يكون حيّاً، فهو يحب شقيقة جوزيف آنّا لأنه يعرف أنه لا يمكن أن يكون بينه وبين تلك الفتاة الصغيرة جداً أقل تماس جسدي، أو أدنى قدر من التلطيخ بالنجاسة. فبفضل كتابته لها كمرشد وناصح أصبح كأنه مسؤول عنها وكأنها رفيقة منحها الله له. وربما كان يجب لهذا الترابط الذي يوجد بينهما في السماء أن يظهر إلى الوجود على الأرض. صحيح أنه كان يمكن لها أن تكون ابنته وأنه لا يملك مالاً. كما أنه لا يحمل لقباً اجتماعياً بينما تنتمي عائلة فايلجورسكي لأعلى الطبقات الأرستقراطية الروسية، غير أن الزيجات السعيدة لا تؤسس على الاستنتاج من الوقائع والمقدمات بل يقررها الله لأسباب لا نملك أن نعرفها. لقاءات نقيةً لا عقلانية غير متوقعة، غير قابلة للتفسير ومدمرة شأن العوامل المحرِّضة في الطبيعة. تأمل جوجول خطته لبعض الوقت وقد غمره الحبور والرعب في آن معاً. وفي النهاية أفضى بما لديه «لفينيفيتنوف» زوج ابنة فايلجورسكي الكبرى. وبما أن هذا كان قد أخطر مقدماً منذ وقت طويل من قبل حمويه بميول الكاتب نحو ابنتهما الصغرى فقد رفض باسم حمويه بشكل قاطع هذا الارتباط السيء. والأسباب التي أوردها لهذا الرفض هي تلك التي أخرجها جوجول من فكره: وهي الفارق في السن، وأولاً وقبل كل شيء الفرق في الطبقة الاجتماعية. وقد تكلم باسم الكونت والكونتيسة فايلجورسكي طالباً من الخاطب أن يقلّص من زياراته وأن يتوقف عن الكتابة للفتاة بعد.

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الكونت والكونتيسة قالا نعم؟ كان يمكنه أن يهرب دون شك وقد أرعبته جرأته وأفزعه حسن حظه بأن يقفز من النافذة، كما فعل «بودكوليوسن» بطل قصته «زواج». غير أن السماء كانت تحميه. كان من الممكن له أن يشعر بتعاسة لا حدود لها بعد ذلك الرفض. يا لهذا العالم القبيح! كيف يمكن لمن اعتنوا به كل تلك العناية عندما كان في بيتهم أن يصفقوا الباب بوجهه لمجرد أنه أحبَّ ابنتهم؟ الاستعلاء الطبقي، كما اعتقد، يظل أقوى من الروح المسيحية لدى الأسر الروسية الكبيرة. وهكذا، وبمسعاه لاتخاذ آنّا زوجة له خسرها كمريدة وتائبة! وهل تكترث هي لهذا الانقطاع الإجباري؟ إنها صغيرة، حسّاسة، سريعة التأثر، ومطيعة بخشوع لوالديها! سوف تنساه. وفي خضم فزعه كتب لها رسالة وداع في صيف عام ١٨٥٠ تخيلها واضحة إلى حد كبير وإن كانت تكشف عن تشوش في عقله وقلبه:

«فكرت بأن من الضروري أن أكتب لك ولو جزءاً من اعترافي. صلّيت لله قبل أن أبدأ لكي يساعدني على التعبير عن الحقيقة الخالصة. كتبت، صحّحت وحذفت ثم بدأت ثانية ورأيت أن عليّ تمزيق كل ما كتبت. هل تحتاجين لاعترافي فعلاً؟ قد تنظرين ببرود إلى ما يعتمل في أعماق قلبي، وقد تكون لديك وجهة نظر أخرى، وعندئذ ستبدو كل القصة مختلفة، وما كتب لإصلاح الأمور لن يؤدي إلا إلى إرباكها. كل ما يمكنني أن أورده لك كاعتراف هو: لقد عانيت الكثير منذافتراقنا في سانت بطرسبرج. وهنت روحي كلياً وأصبحت في حالة تدعو للأسى. تألمت لدرجة لا أستطيع وصفها لك. وما زاد الأمر سوءاً أنه لم يكن هنالك من أستطيع أن أشرح له الموضوع. ليس هناك من يمكنني أن التجيء إليه طلباً للنصح أو للعطف. لم يكن باستطاعتي ائتمان أقرب أصدقائي على ما أقول لأن علاقاتي مع عائلتك كانت ستتأثر، وكل ما يتعلق ببيتك هو أمر مقدس بالنسبة إلي، وسترتكبين ذنباً إن تابعت الامتعاض من تطويقي لك بسحابة مزعجة من سوء الفهم. هنالك شيء غريب جداً حول هذا الموضوع وليس باستطاعتي الآن أن أقول لك كيف نشأ الأمر كله. أعتقد أن الخطأ هو أننا لم نعرف بعضنا

بعضاً بما فيه الكفاية وفكرنا بخفة في أمور هامة جداً، أو على الأقل بجدية أقل مما كان يتوجب علينا أن نفعل. كان بإمكانكم أن تتعرفوا عليّ بشكل أفضل لو أننا عشنا معاً لفترة طويلة في مكان ما، ليس في حالة كسل، بل ونحن نعمل. كنت عند ذلك ستدركين، بالوضوح الذي أفعل، ماذا يجب أن أكون بالنسبة إليك، إذ لابدّ لي أن أكون شيئاً ما لك! إن الله لا يجمع بين بني البشر وبهذه الصورة الإعجازية للاشيء. ربما كان عليّ ألا أكون بالنسبة لك أكثر من كلب يقبع في إحدى الزوايا ليحرس ممتلكات سيده، وعلاقتنا على أية حال لا تعني دفعك لأن تنظري إليّ كإنسان غريب».

علم جوجول في تلك الفترة في (١١ أيار) وقد تدنت معنوياته إلى أقصى حد، وأزعجه هذا الافتراق عن آل فايلجورسكي، علم بأن السيدة شيريميتييف قد ماتت. وما آلمه بشكل خاص في مسألة موتها هو أن السيدة العجوز التي كانت تسيطر عليها فكرة نهايتها القريبة قد مرّت به دون موعد مسبق في ذلك اليوم. ونظراً لأنه لم يكن موجوداً فقد عادت مرتين وقالت للخدم: «قولوا لنيقولاي فاسيلييفتش بأنني أتيت لوداعه». وما لبثت أن عادت إلى البيت واستلقت على سريرها وفارقت الحياة. وقد قال جوجول، كما نقلت عنه السيد سميرنوف: «عشت معها روحاً بروح وموتها يترك فجوة كبيرة في حياتي».

وهكذا تركته تباعاً وإلى الأبد اثنتان - إحداهما فتية جداً والأخرى طاعنة في السن. لماذا سدد الله إليه هذه الضربة المزدوجة؟ لم يكن للأمر تلك الأهمية لو أنه استعاد في الفن ما فقده في الحياة. غير أن الله الذي أقسم على تنفيذ إرادته لم يعد يساعده في العثور على كلماته. وفي وسط ارتباكه سعى إلى من يتوسط له لدى الله، والصوت الذي وجده هو الأب ماثيو على الرغم من عداء هذا لكل أنماط الأدب مهما كان وضعه كما يعرف جوجول. وبدلاً من أن يتجنب هذا الراهب المتعصب الذي يمثل الشعر بالنسبة إليه إغواءً شيطانياً، حاول أن يكسبه لتأييد قضيته. فكر بأنه، إن استطاع إقناعه فإن ينابيع إلهام ستنطلق لديه بصورة إعجازية وتتدفق من جديد في رأسه.

يقول في رسالة للأب ماثيو في عام ١٨٥٠: «لم أدرك من قبل قط مدى عجزي كما أدركه الآن. لديّ الكثير مما يمكنني قوله، غير أنني، ما إن أمسك بالقلم حتى يرتد ما أريد أن أقوله إلى الوراء. إنني أنتظر الندى الذي ينعشني من السماء، وكأنه المن، ويشهد الله أنني لا أريد أن أقول شيئاً لا يمجّد اسمه العليّ. أريد أن أظهر، وبطريقة حيّه، وبأمثلة حيّه لجميع إخوتي المجهولين الذين يسكنون هذا العالم بأن هذه الحياة التي يتعاملون معها وكأنها ألعوبة هي ليست مجرد هزل. أشعر بأنه تم التفكير في كل الأمور والاستعداد لها غير أن قلمي يأبى التحرك، وما أفتقر إليه هو نقاء الروح. لن أخفي عنك بأن هذا العجز أصبح نوعاً من العذاب السري بالنسبة إلي. إنه صليبي بطريقة ما. لقد كنت مريضاً طوال فصل الشتاء فمناخنا لا يتلاءم مع دمي البارد وأنا أحتاج إلى الجنوب».

بدأت تدور في رأسه من جديد خطط لرحلات جديدة: فاسيلييفكا، ومن ثم أوديسا، ثم اليونان وربما القسطنطينية. وقد فكر أن المسار الأفضل بالنسبة للقسم الروسي من الرحلة هو السير في الطرق الخلفية والإقامة في الأديرة. وهو يستطيع بهذه الطريقة أن يرى جانباً أكبر من البلد. وقد عرض مكسيموفيتش، وهو أخصائي في فقه اللغة وعلم الأعراق البشرية أن يرافقه في هذه الرحلة. انطلقا في (١٣ حزيران ١٨٥٠) بعد أن تناولا طعام الغداء لدى أكساكوف، وكان جوجول قد طلب الوجبة في رسالة له حيث يقول: «سنتوقف، أنا وماكسيموفيتش لديك في حوالي الساعة الثانية، أي في وقت الغداء لكي نأكل لقمة معك: طبق واحد لا أكثر. كفتة وربما زلابيا مختثرة مع نوع من المرق». وبعد أن توقفا في بودولسك وماليوياروسلافيتس، ولدى السيدة سميرنوف في «كالوجا». وصل المسافران إلى دير «أوبتينا» الشهير (في ١٩ حزيران/ يونيو).

ما إن وصلا إلى مقربة من هذا الموقع المقدس حتى نزل جوجول من العربة وقد تقلّص حلقه، وتبعه ماكسيموفيتش ليكملا الطريق سيراً على الأقدام. صادفا في طريقهما فتاة صغيرة تحمل وعاءً به ثمار الفراولة، أرادا شراءها منها ولكنها قدمت لهما الفاكهة وقالت وهي تبتسم: «لا يمكن للإنسان أن يأخذ نقوداً من مسافرين». وكان تعليق جوجول «ينشر هذا الدير الخير بين الناس».

بدا الدير وكأنه مملكة لدمية تستكين في الغابة بجدرانه البيضاء، ومراعيه التي تنتشر فيها الزهور والجداول، وبأجراسه الرنانة، ومواضع الصلاة والتأمل التي تعلوها قباب مطلية بالذهب. وفي اللحظة التي دخله فيها سقطت عن كتفي المسافر هموم الحياة الدنيوية وكف الزمن عن الوجود. وعلى مسافة قريبة من المبنى الرئيس كانت تتبعثر بين الأشجار صوامع المرشدين الروحيين، أحكم الحكماء الذين تتوجه إليهم الأرواح المعذبة طلباً للنصح والسلوى. وأكثر هؤلاء المرشدين الروحيين الاستثنائيين تميزاً هو المرشد «مكاريوس»، رجل رفيع التهذيب ينتمي لعائلة من النبلاء، يشع تواضعاً ولطفاً. كانت الصلوات ترتفع كأنها الدخان في الليل والنهار من هذه المجموعة المقيمة في الغابة في تلك الصوامع ذات الأوتاد الخشبية التي تعلوها الأيقونات. ولابدّ، حتى لأشد الزوار تصلباً من الاعتراف بأن جواً من سلام ما فوق الطبيعة يهيمن على المكان، وكأنما بقوة التأمل المحض فإن روح هؤلاء الرهبان أصبحت تسيطر على المادة. وقد توصل جوجول، نتيجةً لحديثه مع البعض من هؤلاء الرهبان، إلى قناعة بأن هؤلاء يعيشون في موقع وسط بين السماء والأرض.

كتب للكونت تولستوي (في ١٠ تموز/ يوليو ١٨٥٠) يقول: «توقفت في دير أوبتينا وحملت معي ذكرى لن تنمحي قط. لاشك بأن نعمةً سماوية تسكن هذا المكان، وأنت تشعر بذلك حتى من الظواهر الخارجية للعبادة. لم أر في أي مكان رهباناً مثل هؤلاء، ومن خلال كل منهم كنت كمن يتحدث مع السماء برمتها. لم أسألهم كيف يعيشون، فوجوههم كانت تقول لي كل شيء. بل حتى الخدم أنفسهم أذهلوني بتعابيرهم المشرقة، فهم ودودون وملائكيون، وأسلوب تصرفهم يشع بساطة، وهذا يشمل العاملين في الدير، والفلاحين والناس الذين يعيشون في المنطقة... وعلى بعد فراسخ من الدير يمكن للمرء أن يتشمم عطر فضائله التي تعطر الجو. كل شيء يغدو مضيافاً، والناس ينحنون باحترام والحب الأخوي يزداد قوةً».

قال لنفسه في ليلة زيارته للدير إنه إن قامت مجموعة رهبان الدير بالصلاة من أجله فإن صلاتهم جميعاً لابدّ لها من أن تصل في النهاية إلى أسماع الله. إذ لابدّ في حالة يائسة مثل حالته أن يتم تجنيد كل روح تقية وأن تقرع جميع الطبول وأن تجتمع كلها معاً. وبينما كان في بيت صديقه «كيريفسكي» المؤيد للاتجاهات السلافية حيث كان يقضي الليلة (في دولبينا التي لا تبعد كثيراً عن الدير) كتب للأب «فيلاريتوس» القس - الراهب في أوبتينا (في ١٩ حزيران/ يونيو ١٨٥٠) يقول: -

«أرجو بحق الله أن تصلي من أجلي أيها الأب فيلاريتوس. أطلب من رئيس الدير الطيب، ومن جميع أولئك الإخوة ومن كل من يصلون بخشوع لديكم ويحبون أن يصلوا، أن يصلوا من أجلي. سبيلي شاق، وعملي هو من نمط يجعل من قلمي غير قادر على التحرك إن لم أحصل على عون إلهي جليّ في كل ساعة وكل دقيقة. اعرض هذه الرسالة على الأب الأكبر وتوسل إليه بان يتوجه بصلواته من أجل هذا الخاطىء لكي يحتسبني الله جديراً على الرغم من عدم جدارتي بأن أمجّد اسمه. فهو بكرمه يمكنه أن يحصل على كل الأشياء، أن يبيّض صفحتي، أنا الأسود كالفحم، وأن يرفعني إلى مستوى النظافة التي يتوجب على الكاتب أن يحققها إن ملك من الجرأة ما يكفي لينطق بأمور مقدسة وسامية. صلوا من أجلي باسم المسيح! عليّ أن أكون دائماً فوق مستوى وضاعة هذا العالم وأن «أتمكن، مهما امتدت بي الأسفار، أن أعود بأفكاري إلى دير أوبتينا».

بعد أقل من أسبوعين وصل جوجول إلى فاسيلييفكا، وفي (١٨ تموز/ يوليو) كتب لراهب آخر في أوبتينا هو «بيتر جريجوروف» (واسمه في الكنيسة الأب «بورفايري») وضمّن رسالته عشرة روبلات فضية «من أجل تسهيل رحلتي المستقبلية والاستعداد للاستكمال الناجح لعملي».

بعودته إلى عائلته استأنف عاداته السابقة في العمل وأوقات الفراغ. في الصباح يكتب، يرسم، يعمل في الحديقة، يقرأ كتباً دينية، يحلم أحلام يقظة،

يغتسل أو يطلب من شقيقته أولجا أن تعزف له على البيانو ألحان أغانٍ أوكرانية. وفي أحد الأيام نادى مجموعة من المتسولين الذين كانوا يمرون بالمنطقة إلى غرفته وأخذ يستمع بسرور لهم وهم يغنون أغانيَ فولكلورية. كان يكتشف روسيا في مرحلة متأخرة من حياته وتصبح عزيزة على قلبه بشكل متزايد. أخذ يراها كبلد أثير لدى الله. وقد كتب إلى «ستوردزا» (في ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٨٥٠) يقول: «كأنما هذه الأرض هي الأقرب لوطننا السماوي». ولكنه أضاف على الفور: «غير أنني لسوء الحظ لا أستطيع أن أعيش هنا لأن هذا يسيء لصحتي». وبما أن فصل الخريف يقترب فقد أخذ يفكر ملياً بخططه للمغادرة إلى شواطئ تتمتع بالشمس. وبناءً على نصيحة السيدة سميرنوف أرسل رسالة إلى الكونت أورلوف، رئيس قوات الشرطة (في النصف الثاني من شهر تموز/ يوليو ١٨٥٠) طالباً جواز سفر وبعض النقود. تقول رسالته إن صحته وتقدم عمله يتطلبان قضاءه أشهر الشتاء في بلاد دافئة. وعمله ضروري لروسيا لأنه استكمال ل «نفوس ميتة» والذي «لن يظهر الجانب التافه من الشخصية الروسية وإنما العمق الكلي لطبيعة هذه الشخصية والغنى الهائل لثروتها الداخلية».

ويتابع جوجول فيقول: «لكل هذه الأسباب فإنه يبدو لي بأن من حقي أن أدخر قوتي وأن ينظر في وضعي المادي. ليست لديّ أي ثروة، ولا أتلقى أي راتب، والراتب التقاعدي الصغير الذي تكرم الإمبراطور بمنحي إياه عندما كنت أعيش في الخارج من أجل صحتي تم إيقافه لدى عودتي إلى روسيا. أستطيع بالطبع أن أحصل على النقود لو أنني نشرت عملي بصورة غير مكتملة وغير متكاملة. ولكنني لن أنزل قط إلى هذا المستوى. وكلما تقدمت بالعمر أشعر بشكل متزايد بأنني سأحاسب في الآخرة على كل كلمة أتفوه بها هنا».

وكبرهان حاسم في التماسه لتلك الشخصية المرموقة التي وجه لها رسالته يضيف جوجول بأنه، بالإضافة إلى الجزء الثاني من نفوس ميتة فإنه يفكر في كتابة جغرافيا لروسيا «بأسلوب عذب ومعبّر» الهدف منه أن يبيّن للأطفال، منذ

سنيّهم الأولى، السمات العظيمة لبلدهم و»المزايا والخاصيات المتعلقة بالشعب الروسي».

كتب خطابات مماثلة لولي العهد وللكونت «أولسوفييف». غير أنه لم يعرف ما إذا كان الخطابان قد وصلا إليهما. لم يتلق أيّ مال على أية حال، وجواز السفر الذي أصدر له كان صالحاً للمناطق الجنوبية من روسيا فقط، ولذا قرر أن يقضي فصل الشتاء في أوديسا التي ذهب إليها في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر.

كانت الرحلة بلا نهاية، تحت فيضان لا يرحم من المطر. وقد كتب لأمه (في ٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٥٠) يقول: «ركبت، أو بالأحرى أبحرت في طريقي إلى أوديسا يرافقني مطر عاتٍ طول الطريق الذي أصبح لا يحتمل. جرجرت طريقي على مدى أسبوع وأنا أمسك بباب العربة الملتوي بيد، وبمعطفي الذي مزقته الريح باليد الأخرى».

غير أن الطقس تحسّن بعد وقت قصير من وصوله إلى أوديسا. الشوارع العريضة، الجادة الواسعة التي تكتنفها الأشجار والتي تؤدي إلى الميناء الضاج، والشمس والبحر الأزرق كلها صالحته مع أوديسا. تمت تسوية مسألة السكن بسرعة، كما يحدث دائماً، وبصورة مرضية. وكأنما بحكم معجزة كان يجد دائماً مبيتاً يؤويه في كل مدينة على وجه الأرض. توجه هذه المرة إلى سكن أبناء عم بعيدين هم آل تروشنسكي على الجانب الأبعد من جسر سابانييف. صادف أن كان أصحاب البيت خارج المدينة في تلك الفترة، ولذا فقد سكن وحده في جناح وضعوه تحت تصرفه. اما فيما يتعلق بوجباته فقد كان يقوم بزيارات يومية للأمير «ريبينين». بل إن الأمير رتب له مكتباً - وكان تفكيره حصيفاً إذ وضع مكتباً عالياً يستطيع أن يكتب عليه وهو واقف. مزية أخرى: كان للأميرة العجوز ريبينين (والدة الأمير) كنيسة صغيرة كان جوجول يحب سماع القداس فيها. وقد وصف الخدم طريقة صلاته على أنها تماثل صلاة فلاح روسي (موجيك) حيث يسجد ووجهه على الأرض ويهز شعره عندما ينهض. كان يرتدي دوماً

سترة من اللون البني الغامق وصدرية بلون غامق تزينه الزهور. وحين يخرج يعقد على عنقه شالاً ذا رسوم صارخة أو وشاحاً (فولار) يصالب بين زاويتيه ويثبته بدبوس على صدره. ولمعطفه ذي اللون البني دائماً ياقة من المخمل، وهو يعتمر في الأيام الباردة قبعة من الفرو ويستكمل ملابسه بارتداء قبعة سوداء رسمية وقفازين سوداوين.

وصفه أحد طلبة مدرسة «رشليو» بعد أول اجتماع له معه بأنه «شاحب هزيل، أنفه الطويل يشابه منقار طائر، وهيئته الفريدة وسلوكه غريب الأطوار تعطي كلها انطباعاً يثير الفضول وكأنه البعبع». والأصدقاء الذين كان يراهم أكثر من غيرهم هم آل ريبينين وستوردزا الرجعي الذي ينتمي للحركة التقوية[١]، وليو شقيق بوشكين، وهو ضابط مرح، سطحي، يميل لملاحقة النساء، والأمير جاجارين والشقيقان أورلايف، وآل تيتوف وتروينيتسكي.

كما صادق عدداً من الممثلين من المجموعة المحلية وكثيراً ما كان يلتقي بهم للعشاء في مطعم «سيزر أوتومن» الفرنسي والذي كان يتردد عليه بوشكين من قبل. وكلما أتى إلى المطعم كان صاحب «سيزر أوتومن»، بكرشه البارز وقبعة الطباخ البيضاء التي يضعها على رأسه، يندفع نحوه محاولاً إغراءه بتناول طبق نادر لذيذ، غير أن جوجول كان يصرّ دائماً على وجبته - والتي تتكون من اللحم بشكل أساسي، وجبة عادية وبسيطة، مع كأس من الشري (خمرة إسبانية الأصل). يشرب كأساً واحدة من الفودكا قبل الوجبة، وكأساً من شراب الشري أثناءها وقطرة من الشمبانيا بعدها. ثم يطلب منه الممثلون أن يعدّ شراب «البنش» طبقاً لوصفته الخاصة، فيستجيب لطلبهم ويقوم بحركات وكأنه الساحر وهو ينحني فوق طبق التسخين، فيتنشط الحديث ويصبح أكثر حيوية بحكم حماس المجموعة الصغيرة، مما يدفع جوجول إلى الانفتاح والانطلاق في الحديث على الرغم من أنه لم تكن لديه الرغبة في التحدث عن الأدب الحديث.

---

(١) التقوية: حركة دينية نشأت في ألمانيا في القرن السابع عشر وأكدت على دراسة الكتاب المقدس والخبرة الدينية الشخصية (المورد).

غير أنه تنازل ليشير بأن كاتباً ما اسمه إيفان تورجنيف الذي نشرت له دورية المعاصر بعض القصص إنما يظهر بأنه كاتب واعد.

كما أنه أخذ يصدر نصائحه للممثلين حول كيفية تمثيل مسرحية ما بحيث تمتلئ بالحياة. وقد ترك حديثه أثره في نفوسهم فطلبوا منه أن يقرأ لهم الترجمة الروسية لمسرحية موليير «مدرسة الزوجات» والتي كان سيجري التدريب على عرضها بعد وقت قريب. وقد فعل ذلك بحيوية وبساطة بحيث أن أولئك الذين كانوا يظنون بأنهم فهموا أدوارهم أدركوا فجأة العمق الخفي لتلك الأدوار. وقد قال تولشينوف في مقال يحمل عنوان «جوجول في أوديسا»: «قراءته كانت تختلف اختلافاً كلياً عن العرف السائد في التمثيل المسرحي في تلك الأيام بخلوها من المؤثرات، أو أي ميل نحو استخدام الخطابية في الأداء. كان أداؤه مدهشاً في بساطته وفي خلوّه من الحيل المسرحية». ونزولا عند توسلات الممثلين وافق على مشاهدة التدريبات، وهنا قدم انتقاداته الفعالة وتشجيعه ونصائحه. غير أنه أصر على عدم حضور أي عرض - بحكم خوفه القديم من التجمعات.

ربما تألق بين الممثلين ولكنه كان يذبل في المجتمع. فتور همته وتفاهة مايقوله والتي تصل إلى درجة الغباء، كانت تؤلم سامعيه. وفي حديث بعد العشاء في أحد الأيام حول آخر المكتشفات العلمية عبّر عن استهجانه لاستخدام المصباح الذي يعمل باستعمال النفط.

إحدى المعجبات به في أوديسا والتي كانت تكتب كل كلمة ينطق بها تقول في «يوميات امرأة مجهولة» كما ورد في الأرشيف الروسي عام (١٩٠٢) «جرى الحديث عن الكثير من الإبداعات: الطرق العامة الواسعة، عربات المسافرين التي تسافر بين موسكو وبطرسبرج، الإستارين[١]، التصوير الدغري[٢]». تثاءب جوجول وقال: ما النفع من كل ذلك؟ هل تجعل الناس أفضل حالاً؟ لا بل أسوأ حالاً». وفي إجابة على سؤال للسيدة نفسها حول ذوقه الفني تنهد

(١) الإستارين: مادة تستخدم لصنع الشموع - المورد.
(٢) التصوير الدغري: طريقة قديمة في التصوير الفوتوغرافي على ألواح فضية - المورد.

ثم قال: «كنت فيما مضى مغرماً بالألوان عندما كنت ما أزال في سن مبكرة جداً». قالت: «أجل، كان يمكن لك أن تصبح رساماً. وقبل ذلك، ماذا كنت تحب؟»، «قبل ذلك، عندما كنت طفلاً كنت أحب لعبة الورق». ابتسمت السيدة ابتسامة متكلفة محاولة رفع وتيرة النقاش وقالت: «هذا يدل على أن لديك نشاطاً عقلياً». دمدم جوجول: «أي نشاط عقلي؟ نصف الناس في روسيا لايعرفون أن يؤدوا عملاً آخر. ليس هذا إلا كسلاً ثقافياً!». وما لبثت سيدة أخرى أن جازفت بسؤاله متى سيصدر الجزء الثاني من «نفوس ميتة». تثاءب ثانية فاغراً فمه على اتساعه وأجاب بصوت غير واضح: «في غضون عام، على ما أظن». «لم تحرقه إذن؟» «أجل، ولكن البداية فقط!». وقد لاحظت السيدة باستسلام: «يبدو أن العشاء والطعام الروسي قد جعله نعسانَ».

غير أن نعاسه لم يكن لأسباب تتعلق بالهضم، بل لأن الإلهام كان يهجره بصورة متزايدة، حتى عندما تكون معدته فارغة. لقد داهم الضباب عقله وأخذ يغرق كل شيء في غشاوته الرمادية. ضباب الملل، والتفاهة والكسل، ما الفائدة؟ مهما أدار رأسه يميناً أو شمالاً؟ ما الفائدة؟ فضوله تلاشى ولم تعد الكتابة سبيل تحرير له بل هي بمثابة التزام نتج عن وعد قطعه لله منذ وقت بعيد، وعليه، مهما حدث أن يقدم مقالته «للبروفسور» الذي ينتظر هذا المقال. أخذ يسوّد صفحات وهو متجهّم ويصل فصلاً بفصل. ليس هناك ما يشتكي منه من ناحية الكمية. أما النوعية؟ الشك يطعن قلبه، وفي اللحظة التالية، يتباهى ويتفاخر: فمخاوفه سخيفة، والله يقود يده فوق الورق، وسيمنح روسيا العمل الفني الفذ الذي تنتظره منه.

كتب لجوكوفسكي (في ١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٥٠) يقول: «قواي ليست تخونني، وعملي يتقدم بصورة منهجية شأن ما كان عليه من قبل. لم أنته ولكني قريب من النهاية. عندما يكون الكاتب شاباً فهو يكتب بسخاء، وبسرعة. فالتخيل ينخزه ويدفعه قدماً فيبدع ويبني قلاعاً رائعة في الهواء، أما عندما يصبح الصدق هو الهدف الوحيد لعمله ويحتاج لتصوير الحياة بأعلى

درجات كرامتها وبكل دقة فإن الخيال قلما يمس الكاتب وعليه أن يكافح لانتزاع كل سطر من داخله».

كتب للرسام إيفانوف (في ١٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٥٠) «ليت لوحتك المسيح» يخرج إلى الملأ» وقصيدتي يخرجان إلى العالم في الوقت ذاته».

وللسيدة سميرنوف كتب (في ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٥٠): «يمكنني القول فيما يتعلق بي بأن الله يحرسني ويعطيني القوة لكي أعمل. أقضي الصباح كل يوم في الكتابة، بغير تعجل، واصرف وقتاً لإعادة قراءة ما أكتب. فالإبداع الفني في الأدب هو نفس ما يتطلبه الرسم، إذ يجب على الكاتب أن يرتد أحياناً إلى الخلف، وأن يقترب من عمله في أحيان أخرى اقتراباً شديداً ويتفحصه طوال الوقت ليتبين ما إن كان هنالك ماهو ناتىء على نحو حاد جداً، وما إذا كان هناك خط متنافر يفسد الانسجام الكلي في العمل. فصل الشتاء هنا لطيف تقريباً هذه السنة. تشرق الشمس بتألق أحياناً مثلما تفعل في جنوب فرنسا ويمكنني أن أتذكر نيس في هذه الزاوية أو تلك».

عندما حلّ فصل الربيع قرر العودة إلى فاسيلييفكا لقضاء عيد الفصح مع عائلته. وقد أقام له أصدقاؤه حفل عشاء وداعي قبل مغادرته في مطعم «سيزر أوتومن» وآخر في مطعم «ماثيو». ورفعت أنخاب الشمبانيا لصحة الكاتب وللإنجاز الناجح لعمله، غير أن هذا التقدير الصاخب لم يكن من شأنه أن يبعث البهجة في نفسه. غادر آسفاً في ٢٧ آذار/ مارس، ١٨٥١، وكأنما هنالك قوة عليا أجبرته على الجلاء عن المدينة.

عمت الحيوية الأيام الأولى لإقامته في فاسيلييفكا نتيجة لوجود دانييلفسكي وزوجته الحامل فيها. عاش الضيف معه في الجناح نفسه، إلى اليمين من البيت الرئيسي. وقد استيقظ في إحدى الليالي على صرخات مرعبة، وظن أن أحدهم يذبح. ولكن الحقيقة هو أن السيدة دانييلفسكي كانت تلد وأنجبت ولداً سمي نيقولاي طبعاً وتم تعميده في كنيسة القرية. وخلال حفلة التعميد وجد القس

الذي كان ثملاً بعض الشيء صعوبة في التلفظ بالعبارات التي تتطلبها الطقوس، وهنا همست ماريا إيفانوفنا بسخط في أذن ابنها: «كيف يمكن أن يرأس قداساً وهو في هذه الحالة؟» أجابها جوجول وهو يبتسم: «من الغريب أن يطلب من قس أن يكون صاحياً في يوم أحد. عليك أن تعذريه...».

عاد إلى كآبته بعد مغادرة آل دانيلفسكي. أصبح يعاني من بعض الصعوبة في السمع، وكان كثيراً ما يتنهد وكأنه يكلم نفسه: «كل شيء سخيف وغير ذي معنى!» أصبح رفاقه يخيّبون آماله، وكان يجدر بأمه وشقيقاته، وقد تنوّروا بنصائحه، أن يشكلوا أسرة مسيحية مثالية. غير أنه تبين له أنه يعظ في صحراء وهو في فاسيلييفكا. كن ينصتن له باحترام ويوافقنه على ما يقول، ولكن ما إن يدير ظهره حتى يعدن إلى عاداتهن السابقة غير المجدية. كانت ماريا إيفانوفنا تشتكي منذ الفجر حتى الغروب، وتهمل إدارة المزرعة، وتستدين من الجيران دون أن تدري فيما إن كانت تستطيع ردّ ما استدانته منهم أم لا. أما بناتها فإنهن لا يفكرن إلا بالموضة والتقليعات سريعة الزوال. يتهامسن، يتشاحنّ ويحلمن بالأثواب و«اللقاءات». يحاصرن بائعاً جوالاً يأتي بعربة مليئة بالأقمشة التي يعلن بأنها «رائعة وأثمانها لا تذكر». حاول جوجول إثارة اهتمامهنّ بأشغال مفيدة مثل الزراعة أو صناعة السجاد، وكان هو نفسه يحضّر لهن رسوماً لكي يقمن بحياكتها على النول. كما طلب من شقيقاته أن يكتبن له كلمات أغنيات أوكرانية قد يسمعنها من الفلاحين. وقد سجلن بالفعل (٢٢٨) أغنية في كراس. وكانت هذه، كما قال «كوليش» هي «العلاقة الأدبية الوحيدة التي ربطتهن بشقيقهن».

كان يقضي معظم وقته في غرفته وهو يقف خلف مكتبه المرتفع تحت صورة «المخلّص» التي أحضرها من إيطاليا. وكان الذباب الذي أسكره الحر يطنّ عبر النافذة، والروائح المرة -الحلوة تتسلل إلى أنفه من الحديقة. مزاجه جيّد يمكنه من الكتابة، غير أن الجمل تتمنّع عن الخروج. ولذا أخذ يكتفي برسم أشكال بطريقة نصف واعية وهو يفكر، حيث يرسم على هامش مخطوطته أشكال كنائس

ترتفع منها أبراج أجراس. غير أن مدّاً من الأفكار قد يكتسحه بين حين وآخر فيكتب صفحات عديدة في الحال. وما يلبث أن يتوجه إلى غرفة الطعام، تبدو عليه دلائل مرح تفوق المعتاد فيبتسم لشقيقاته ويكلم أمه بلطف. غير أنه يبدو غائباً نوعاً ما حتى في هذه الأحيان. أخذ اهتمامه بالأمور المادية يتضاءل شيئاً فشيئاً. ووسط جمع تلك النسوة الأربع اللاتي يحطن به ولا تشغلهن إلا مشاكلهن اليومية الصغيرة فإنه أخذ يعتصم بسكون وكأنه أحد الحواريين على أساس أن لا وقت لديه إلا للأمور الضرورية. وقد كتبت شقيقته أولجا في مذكراتها في تلك الفترة: «حين كان أخي يأتي إلى القرية في السابق كان يحاول إدخال بعض التجديدات في طريقة إدارة الإقطاعة. قد يزرع بعض أشجار الفاكهة والبلوط والزان والبتولا، ويعدّل في كثير من الأحيان برنامج عمل الأقنان، أو يأكل معهم، أو يقدم لهم النصائح حول أساليب إدارة بيوتهم. كل ذلك أصبح من أمور الماضي ولم يعد يشارك في أي شأن من هذه الشؤون. وعندما كانت أمي تشتكي من أن ممتلكاتنا تنتج دخلاً ضئيلاً جداً كان يكتفي بإبداء أمارات الألم على وجهه، ويبدّل الموضوع ويشرع في الحديث بأمور الدين».

من المؤكد أنه لم يعد يحظى بشعور بالسلام في فاسيلييفكا، وقضاء فصل الصيف برمته هناك كان أمراً يفوق احتماله. لم يكن يحب سوى النساء اللاتي يوافقن على أن يكنّ تلميذاته. ولكن أمه وشقيقاته لم يكن تائبات صادقات. آه، كم يفتقد استسلام «آنّا فايلجورسكي العذب! قرر مرات عديدة أن يغادر ولكن دموع أمه كانت تتوسل إليه لتأخير موعد مغادرته. كانت تنشج قائلة: «ابق! من يدري متى سنرى بعضنا مرة أخرى؟» وما لبث في النهاية أن وجد القوة لحزم حقائبه في (٢٢ أيار/ مايو ١٨٥١). وقد رافقته أمه وأخته الصغرى أولجا حتى»بولتافا» حيث نزلوا لدى صديق اسمه «سكالون».

ما إن أنزلوا حقائبهم حتى وصلت ثلاث رسائل بالبريد السريع من فاسيلييفكا. كانت الأولى من شخص اسمه «فلاديمير إيفانوفيتش بايكوف»، وهو نقيب خبير بوضع الألغام ونزعها طالباً يد إليزافيتا، والثانية من إليزافيتا تعبر عن سعادتها بهذه الخطبة، والثالثة من آنّا تعلن فيها موافقتها على اختيار شقيقتها.

من الواضح أن نوايا بايكوف كانت معروفة لدى الشقيقات اللاتي أبقين الأمر سراً خلال وجود جوجول في فاسيليفكا خشية معارضته لهذا الزواج. حتى ماريا إيفانوفنا، التي تظاهرت بأنها فوجئت كلياً بهذا الأمر، ربما كانت تتابع كل خطوة من خطوات المفاوضات الخاصة بهذا الزواج. كنّ يخفنه في البيت إلى هذا الحد! إنه مجرد مفسد للمتعة لدى العائلة. من الواضح أنه لم يكن قادراً على منع هذا الزواج. كما أن إليزافيتا كانت في الثامنة والعشرين من عمرها. غير أن هذا النقيب - المفلس، المحارب والذي لا يبشر بأي مستقبل -سيجرجرها إلى حياة في معسكرات مؤقتة في العراء. لماذا يعمدن جميعهن لإلقاء أنفسهن بين ذراعي أي رجل؟ قرر بأن من الواجب أن يخاطب شقيقتيه فكتب لآنّا، المؤتمنة على الأسرار والتي كتب لها رسالة غاضبة يقول فيها: -

«لست أدري إن كنت وأختك مصيبتين في قراركما وقد رتبتما سراً لهذا الأمر برمته دون أن تبلّغا والدتكما، بل حتى أنا بالأمر. لست أرى أنا شخصياً سبباً لهذا الابتهاج، فكلاهما ليس لديهما مال. صحيح، كان يمكن للفقر ألا يشكل صعوبة لو أن شقيقتي إليزافيتا هيأت نفسها لحياة تتسم بالكدح والنشاط، ولو أنها قادرة على التكيّف والتقبّل. باختصار، لو أنها رصينة وذات طبيعة تتسم بالحب والثقة التي تمكن الإنسان من العيش والشعور بالسعادة أينما وضعته أيدي القدر. يمكنني أن أعزي نفسي بالطبع بأن أقول بأنني لست مسؤولاً عن سعادة شقيقتي ولا تعاستها حيث أن أحداً لم يطلب مني النصيحة. لا نكاد نعرف الرجل، وكل ما يمكنني قوله أنني في المناسبتين أو الثلاث التي رأيته فيها لم ألحظ فيه شراً، ولكنكما لستما نمطاً من القضاة الذين يمكنهم الحكم على الأمور. توجها إلى ديكانكا مشياً على الأقدام وصليا لله سائلتيه أن يجعل هذا الزواج سعيداً. لا تسمحا لشفاهكما بأن تتلفظ بأي كلمات غير الصلاة طوال الطريق ولا تتلفظا بأية أمور تافهة أو تتجادلا».

الرسالة الثانية كانت موجهة إلى بطلة المسرحية إليزافيتا حيث يقول لها: «الخطوة التي اتخذتها مرعبة: ستقودك إما إلى السعادة أو إلى الهاوية. اذهبي إلى

الكنيسة (في ديكانكا) مشياً على الأقدام، واركعي على ركبتيك أمام صورة «نيقولاس ثاوماتورج» وتضرعي للمسيح مخلصناً لكي يجعل هذا الزواج مفيداً على الرغم من حقيقة أنك خططت له حتى بدون طلب النصيحة من أمك، وبدون التفكير في المستقبل، بل حتى دون أن تكون لديك أدنى فكرة عن أهمية مثل هذا القرار. إن روحي لتمتلئ رعباً لمجرد تفكيري بالصعوبات التي ستواجهينها في محاولتك لأن تكوني زوجة جيدة -تجسيداً للطاعة واللطف السماوي -خاصة عندما أفكر بأنك لم تصغي إليّ قط على الرغم من أن النصيحة التي قدمتها لك كانت من أجل مصلحتك. صحيح أن شقيقاتك حاولن، بقدر إمكانهن، تنفيذ جانب من توجيهاتي. غير أن أي صلاة أو نصح لم يفلحا في دفعك لأخذ هذا الإجراء من تلقاء نفسك».

قرر بعد أسابيع أن من واجبه أن يوجه «بايكوف»، صهره المستقبلي، حول كيفية التعامل مع الزواج، حيث كتب له في (١٤ تموز/ يوليو ١٨٥١) يقول: «تكتب في رسالتك لوالدتي بأنك عرفت الفقر وأنك معتاد على الحياة البسيطة. لا تغيّر قط هذه الطريقة في الحياة بحق الله. أحبّ الفقر أكثر من أي وقت مضى ووجّه زوجتك باتجاه هذا المسار منذ الأيام الأولى لزواجكما. عليك أن تضرب الحديد وهو حار، فالزوجة في السنة الأولى من الزواج هي مثل الشمع، يمكنك أن تشكلها بيديك. أما إن انتظرت إلى ما بعد ذلك فإن الوقت سيكون قد فات!».

حسناً، قد يعرف هذا الرجل العسكري كيف يدرب إليزافيتا، وهذه الفكرة جعلت جوجول يتقبل في النهاية فكرة زواجها. ترك أمه وشقيقته أولجا لكي تعودا إلى فاسيليفكا، ومضى في طريقه إلى موسكو. المزيد من الدموع والقبلات وشارات الصليب عند الباب ولكنه كان يتعجل الهرب من هذه العواطف المتدفقة، فعائلته الحقيقية ستكون هنا إلى جانبه في عربة السفر، في حقيبته الجلدية.

□ □ □

٥ ـ نهاية نفوس ميتة

تلقى لدى وصوله إلى موسكو رسالة من إليزافيتا تدعوه فيها إلى حفل زواجها الذي كان سيتم في أواخر شهر أيلول أو أوائل تشرين الأول وتطلب منه أن يشتري لها عربة سفر تحتاجها حاجة ماسة، كما تقول، لكي تتبع زوجها من موقع إلى موقع. أدهشت جوجول جرأتها هذه، واتخذت هذه العربة في ذهنه مستوى خيالياً وكأنها عربة ملكة. كيف يمكن لها أن تطلب منه هذه الهدية دون أن تفكر بتكلفتها؟

أجابها (في ١٤ تموز/ يوليو ١٨٥١): «أرجو أن تقدري حالتي، وأقول لك إنني إن مت فلن أترك ما يكفي من المال للإنفاق على جنازتي. من الواضح أن إرادة الله اقتضت أن نبقى فقراء. وعليّ أن أعترف بأن الفقر المدقع أفضل من نصف رخاء. فعندما يكون لديك القليل فإن هوساً يصيبك إزاء مختلف أنماط الرغبات التي تتجاوز قدراتك على نسق عربة – سفر؟ نوبة انفعال إن تعذر شراؤها، ورغبة جديدة عند كل خطوة. أما إن كان الإنسان فقيراً حقاً فإنه يقول لنفسه: «ليس لديّ إمكانية لذلك، ثم يرضى هذا الإنسان بذلك. أختي العزيزة: أحبي الفقر، فمن يحب الفقر لا يعود فقيراً بل يصبح غنياً».

نصح في الوقت نفسه بأن يحتفل بالزواج بأسلوب بسيط وعدم دعوة أحد من خارج العائلة من باب التوفير. وليس هناك من داع لجهاز العروس، إذ إن على إليزافيتا كزوجة مقبلة لضابط أن ترفع عن اقتناء الملابس التي تتماشى مع آخر الأزياء الحديثة وأن تقلص ما تمتلكه إلى أدنى حد وأن تكون مستعدة

للعيش أينما كان. وهو يضيف في رسالته: «لقد رأيت كونتيسات ممن أخذن يتنقلن، بعد زواجهن من رجال في الجيش، وهن لا يحملن إلا صرّة وعلبة نقود». لن تحصل شقيقته على كوبيك واحد منه. ولكنه، وفي نفس اليوم الذي وجه فيه هذا الدرس شديد اللهجة في الاقتصاد إلى شقيقته ارسل خمسة وعشرين روبلاً فضياً (٢٥ , ٨٣ روبلاً عادياً) إلى «ارشمنديت دير» أوبتينا «طالباً بأن يستخدم لتأثيث سكن الرهبان قائلاً: «أتوسل إليكم بشدة أن تصلّوا من أجل هذا الخاطئ». فاستثمار النقود في جوانب تتعلق بالدين أفضل من استثمارها في عربة، والصلوات تنقلك مسافات أبعد مما تفعل العجلات.

كانت موسكو حارة يخنقها الغبار وكل من يمكنه كان يهرب إلى الريف سعياً للتمتع بهواء أكثر رطوبة. وقد قبل جوجول دعوة السيدة سميرنوف لزيارتها في إقطاعتها في «سباسكوي» التي تبعد مسافة سبعين فرسخاً عن المدينة على شاطئ نهر «موسكفا». وكان البيت الرئيسي يربض في أعلى تلة مثل قصر مصغّر. نوافذ مضيئة، صف من الأعمدة، أجنحة ملحقة ترتبط بالمبنى الرئيسي عن طريق بهو مغطى وسطيحة تزينها تماثيل من المرمر. وعلى اليمين حديقة فرنسية مشذبة ومزينة، وإلى اليسار حديقة إنجليزية هي عبارة عن مساحة بريّة فيها جداول وكهوف وآثار، وبعد ذلك حقول الحنطة وقرى صغيرة قليلة والعالم المسالم والكادح للفلاحين الموجيك.

كان هنالك شبح ينتظر جوجول في هذا المكان الذي يبعث على البهجة. إنها السيدة سميرنوف: منهكة، هزيلة، ومسحة من الاصفرار تغطي بشرتها وقلق يملأ عينيها، بحيث بدت في أدنى قواها. قالت له: «لقد تبددت. أعصاب، أرق، هموم». أجابها: «لا يمكننا أن نفعل شيئاً، فلديّ متاعبي وأعصابي كذلك!».

حدثته عن كل النكسات التي حلّت بزوجها وكيف أنه وقع ضحية تشويه شائن لسمعته، وكيف استدعي للمثول أمام لجنة تحقيق تابعة لمجلس الشيوخ بحيث أجبر الآن على الاستقالة من منصبه كحاكم لمنطقة «كالوجا». تظاهر

جوجول بالتعاطف مع المحن المختلفة التي تعرضت لها بينما كان يفكر بينه وبين نفسه بأن مشكلاته هي الأجدر بالاهتمام. كانت السيدة سميرنوف قد خصصت له غرفتين (غرفة نوم وغرفة مكتب في أحد الأجنحة). كما خصص خدم لتلبية طلباته. غير أنه لم يكن يسمح لهم بغسله أو إلباسه ملابسه. كان يستيقظ عند الفجر ويتوجه إلى الحديقة الإنجليزية ليتمشى وهو يحمل كتاب صلوات بيده. ثم يحتسي قهوته ويعمل حتى الساعة الحادية عشرة وهو واقف وراء مكتب رفعه فوق رفوف خشبية. وكلما كانت السيدة سميرنوف تأتي لرؤيته كان يضع منديلاً فوق مخطوطته لأنه يدرك مدى فضولها وهو لا يريد لأحد رؤية الكتاب إلى أن ينهي مراجعته الأخيرة له.

يقرأ عليها كل يوم بعض الصفحات من كتاب «حياة القديسين» بهدف تنويرها. وفي المساء يجلسان إلى جانب بعضهما بعضاً في عربة مكشوفة تخب بهدوء عبر الغابات وفوق المروج وهما يتبادلان الذكريات الحزينة حول: بوشكين، وروما، ونيس. كل ماهو غني في حياتهما يبدو جزءاً من الماضي، فهل يأملان بالمزيد من السعادة في المستقبل بعد كل تلك الساعات المضيئة؟ لم تكن السيدة سميرنوف تظن ذلك. وعلى الرغم من أن جوجول كان يناقضها، فإنه يوافقها في أعماق قلبه. يشعر في بعض الأحيان بأنه لم يعد قادراً على احتمال الحرارة فيطلب أن تتوقف العربة أمام أحد الحمامات عند حافة النهر وهناك يغطس في الماء ويقفز على ساق واحدة مقتنعاً بأن هذه التدريبات من شأنها أن تقوّي جسمه. وهو يحب في نهاية مشوارهما اليومي أن يتفرج على القطعان وهي تعود إلى مأواها عند غروب الشمس تحيط بها سحب الغبار. كل ذلك يذكره بأيام طفولته في أوكرانيا. أخذ يميل للنعاس أكثر وأكثر في هذه الفترة. وكانت السيدة سميرنوف تفاجئه أحياناً وهو مستلقٍ على أريكة وعيناه غائمتان في ضباب ذهنه وكتاب «حياة القديسين» مفتوح فوق ركبتيه، فتبادره بالقول (كما تشير في مذكراتها) «ماذا تفعل هنا يا نيقولاي فاسيلييفتش؟» فيجفل وكأنه يستيقظ فجأة من نوم عميق ويجيب: «لا شيء، لا شيء! كنت أقرأ حياة القديس كاموس والقديس دامين».

أراد في إحدى الأمسيات أن يقرأ لها فصولاً قليلة من «نفوس ميتة» ولكنها كانت تعبة بحيث لم تستطع الإصغاء إليه. وقد أغاظه ذلك ولكنه أخفى استياءه. جلسا ليتحدثا عن أمراضهما، وقد كتبت تقول: «اشتكى من أعصابه المرهقة، من نبضه الذي كان بطيئاً جداً، ومن معدته التي تعاني من الكسل الزائد. لم يعد في كلماته أي ظل للمرح أو الدعابة، بل كان مستغرقاً في نفسه كلياً». وفجأة سألها: «هل تفكرين بالموت؟» قالت: «إنها تفعل. سرّه ذلك وباركها بأيقونة. غير أن أي إيماءة تطهير مقدس لم تكن لتريحها. وسواء صلّت أو لم تصلِ فهي تشعر بأن قواها تخور يوماً بعد يوم. وقررت في نهاية تموز أن تتوجه إلى موسكو للعلاج.

لم يبق من مفر أمام جوجول إلا أن يغادر الريف أيضاً. غير أن هذا لم يستمر طويلاً، إذ كان آل شيفرييف يقضون فصل الصيف في فيلا على بعد عشرين فرسخاً عن موسكو. ولذا، وبدون سابق إنذار -إذ لا مجال للرسميات بين الأصدقاء- استأجر جوجول عربة وخيولاً ومضى. فوجئ الجميع بوصول هذا الضيف غير المتوقع والذي يعتمر قبعة رمادية ذات إطار عريض ويلقي رداءً فضفاضاً من طراز إسباني فوق كتفيه. وفي الحال طلب شيفرييف من الشاعر الشاب «بيرج» الذي كان يشغل جناحاً أن يتخلى عن هذا الجناح وينتقل إلى داخل البيت. وأعطيت تعليمات للخدم بالمحافظة على الهدوء والابتعاد عن الجناح. وسرعان ما تخلّى أفراد العائلة الذين فتحوا أعينهم احتراماً عن جو العطلة المتحرر من كل القيود وكيفوا حياتهم بما يتلاءم مع متطلبات الكاتب.

كان يعمل في كوخه الصغير الذي تحيط به أشجار صنوبر باسقة داكنة. وفي المساء يتسلل شيفرييف عبر الباب نصف المفتوح وكأنه الشبح. وبعد أن يتأكد جوجول بأن أحداً لا يتجسس عليهما يقرأ عليه بصوت عالٍ ما كتبه. ويقول بيرج في مذكراته: «كل شيء كان مغلّفاً بالغموض بحيث قد يظنهما المرء متآمرين يجتمعان لصنع قنابل من أجل الثورة». كشف جوجول لشيفرييف عن سبعة فصول طويلة، بعضها ما يزال مجرد مسودة. وبعد كل جلسة يقول لهذا

المنصت الفزع، كما ورد في رسالة له في أواخر تموز/ يوليو ١٨٥١): «أتوسل إليك ألا تخبر أحداً بما سمعت وألا تشير حتى لأصغر المشاهد، وألا تنطق بأسماء الشخصيات». وقد أسعدت هذه الثقة شيفرييف ووعد بأن يسمح بانتزاع لسانه قبل أن يكشف عن ذلك السر. كان الجزء الثاني، في رأيه، أفضل من الجزء الأول. لم يكن يتفهم مخاوف الكاتب وأخذ يحاول جره للحياة من جديد. غير أن جوجول ظل يبدي أمارات الفتور والتباعد عن الآخرين حتى وهو يجلس إلى المائدة مع مضيفيه. يكاد لا يأكل إلا القليل ويتناول كمية كبيرة من الحبوب ولا يشرب إلا الماء. وقد كتب بيرج في «ذكريات حول جوجول» «كانت معدته تزعجه، وكان مملاً وإيماءاته بطيئة. غير أن وجهه لم يكن هزيلاً وكان قليل الكلام، يتحدث بفتور ودونما رغبة وقلما يرسم ابتسامة على شفتيه. وقد فقدت عيناه اتقادهما وسرعتهما السابقتين. باختصار، لم يعد جوجول بل أثر من جوجول».

بينما كان يتابع عمله الشاق باستكمال «نفوس ميتة» أخذ يهيىء أيضاً لطبعة ثانية من «الأعمال الكاملة». ومن باب توفير الوقت أرسل كل مجلد منها إلى مطبعة مختلفة. وفي هذه الأثناء كانت المكتبات تنشر شائعات بأن العمل سيمنع وأخذوا يبيعون النسخ الباقية لديهم بأسعار السوق السوداء: بسعر مائة روبل للنسخة الواحدة، وفي الوقت نفسه كان رقيب موسكو يرجئ موافقته على الطبعة الجديدة وكأنما يتقصد ذلك. وقد توسل جوجول لبلتنييف بأن يضحي بنسخته من الأعمال الكاملة لكي يتم الحصول على تأشيرة رسمية في سانت بطرسبرج على الأقل.

يقول في رسالة لبلتنييف (في ١٥ تموز/ يوليو ١٨٥١): «كنت في البداية أود إضافة بعض المقاطع وإجراء بعض التغييرات غير أنني تخليت عن الفكرة. فلتبق كما كانت في الطبعة الأولى وإلا فإننا سندخل في مشكلات جديدة مع الرقيب».

كانت ضيافة شيفريف ممتازة. غير أن حاجة جوجول للترويح عن نفسه شديدة بحيث أنه لا يستطيع أن ينظر في الوجوه نفسها لفترة طويلة. وسرعان ما أخذ يتململ ثانية. فأين يتجه الآن ليجدد نظرته إلى العالم؟ الخيارات عديدة. بضعة أيام في فيلا شيشيبكين، وأيام قليلة في «أبرامتسيفو» لدى آل أكساكوف. ومع بداية أمطار الخريف العودة إلى بيت تولستوي.

وهناك تسلم رسالة من «إم. إس. سكوردين» وهو صديق له في سانت بطرسبرج يخبره فيها بالاتهامات التي وجهها له الكاتب السياسي المنفي هيرزن، في مطبوعته الفرنسية التي تحمل عنوان: «من أجل تطوير الأفكار الثورية في روسيا». وعلى الرغم من أنه اعتاد على إساءات الصحافة الليبرالية غير أن جوجول انزعج من اتهامه من قبل هذا الرجل الذي يتمتع بذكاء رفيع، بخيانة المبادئ السمحة التي كان يحملها في شبابه في كتابه «مقاطع مختارة». كان يعي على نحو غامض بأنه خسر بعض جمهوره في الوقت الذي يريد فيه أن يكسب العالم كله إلى جانبه. كيف يمكن له أن يكون موضع كراهية من جانب أحد في الوقت الذي يعظ فيه هو بالحب الشامل؟ غير أنه فكر بأن صدقه من شأنه أن يجرد جميع ناقديه من أسلحتهم.

أتى أنينكوف لرؤيته فوجده قلقاً من عواقب كتابه ولكنه يجهل الحقائق السياسية كلياً. وقد كتب أنينكوف في مقالة بعنوان: «آخر لقاء مع جوجول» يقول فيه: «لم يكن يعرف، أو لا يريد أن يعرف ما يدور حوله. كان يتحدث عن عمليات الإبعاد وإجراءات إدارية مشابهة وكأنها قرارات معتدلة تظهر الرحمة بالمحكومين. وحين ودعني وقف بالمدخل وقال بصوت تغمره العاطفة: «لا تظن بي شراً ودافع عني لدى أصدقائك (المجموعات الأوروبية والليبرالية) إذ إن آراءهم تهمني».

في فاسيلييفكا كانت ماريا إيفانوفنا وبناتها في تلك الأثناء يجاهدن لإنجاز ترتيبات العرس. وكان جوجول قد وعد بالحضور، غير أنه لم يستطع أن يحمل نفسه على الذهاب، فكل قرار كان يعني عذاباً ذهنياً بالنسبة إليه. ما يريحه

فقط هو التناقض والهرب والتقلب، كما أنه يخشى بأن لا يتمكن من احتمال الادعاءات الغبية لشقيقته إليزافيتا. وقد تحركت لديه مشاعر التحالف الرجولي مع صهره المستقبلي، ولذا كتب له رسالة تحذيرية في أوائل شهر أيلول/ سبتمبر ١٨٥١ يقول له فيها: -

«والدتي وشقيقاتي يتراكضن كالقطط المخبولة وهن يحاولن جمع أكبر كومة ممكنة من البياضات والملابس للخطيبة. سينفقن قدراً كبيراً من المال من أجل ذلك -إن استطعن تدبير هذا المال. كل هذه الخرق ستكون مصدر إزعاج. أتوسل إليك أن تحملهن على أن يتفهمن بأنك ستعيش حياة معسكر للجيش وأنه لا حاجة بك لكل هذه الأشياء وأن أمامك فسحة كبيرة من الوقت في المستقبل لمثل هذه الأمور».

تلقى جوجول حينذاك رسالة من أمه تقول له فيها أنها مريضة وتتوسل إليه أن يحضر إلى فاسيلييفكا لرؤيتها، وليبارك كذلك شقيقته وهي تقف على عتبة حياة جديدة. ولم يعد بإمكانه بعد أن يتردد.

وعلى هذا كتب لأمه (في ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٨٥١) يقول: «قررت المجيء، ولكن لا تؤجلوا العرس ولا تنتظروني للاحتفال به. لا أستطيع الإسراع بالسفر. كانت أعصابي متوترة بسبب ترددي حيث لم أكن أعرف إن كنت سأمضي لأكون معكم أم لا، كما أنه يلزمني بعض الوقت للوصول إليكم وأخشى أن هذا لن يؤدي إلا إلى الإساءة لصحتي. سأقوم على أية حال بزيارة قصيرة فقط وعليّ أن أسرع للذهاب إلى القرم، ولذا أرجو ألا تحاولن إبقائي لديكن. سيكون مؤلماً لي أن أبقى خلال فصل الشتاء في أوكرانيا أكثر مما لو كنت سأبقى في موسكو. سأقع ضحية للاكتئاب وتوهم المرض، وما أحتاجه هو مناخ أستطيع فيه الخروج والمشي يومياً. وفي موسكو هناك على الأقل بيوت فسيحة جيدة التدفئة وشوارع وأرصفة».

غادر موسكو في (٢٢) أيلول، وما لبثت أن انتابته حالة تردد أخرى لدى وصوله إلى كالوجا. هل يذهب أم يعود؟ فعواطفه كابن وشقيق كانت تتصارع

مع مقته للشؤون العائلية. يقول لنفسه حيناً أن هذه الرحلة ستدمر حتماً طمأنيته الذهنية، وفي اللحظة الأخرى يفكر بأمه وشقيقاته اللاتي ينتظرنه بفارغ الصبر في فاسيلييفكا ويشعر بأنه لا يستطيع أن يخيّب آمالهن.

هذه المعضلة كانت تسبب له المرض، ولذا ذهب إلى دير «أوبتينا» طلباً للنصح من المرشد الروحي. استمع إليه الأب مكاريوس بصبر ونصحه بمتابعة رحلته. عاد إليه جوجول في اليوم التالي وهو نصف مقتنع ليتلو عليه قائمة بالأسباب التي تحدوه للعودة إلى موسكو. وبعد أن وجه المرشد الروحي إليه نظرة حادة وافقه على أن هذا ربما كان الحل الأفضل. ولكن هذه التعابير الاسترضائية، بدلاً من أن تهدئ جوجول زادت من عذابه. زار رجل الدين مرة ثالثة ليبلغه بأن عائلته ستكون يائسة إن خيّب أملها ولم يذهب، وعلى هذا نفذ صبر مكاريوس منه وقال له بجفاء أن عليه، إن كان هذا هو الحال، أن يحضر حفل الزواج، ثم صرفه.

كتب جوجول في الحال ملاحظة يشرح فيها العذاب الذي يعاني منه لفكرة الرحلة حيث يقول في رسالة (في ٢٥ أيلول/ سبتمبر ١٨٥١): «أعصابي مشوشة. إنني خائف جداً من أن تقضي عليّ هذه الرحلة، وفكرة سقوطي مريضاً أثناءها ترعبني، خصوصاً وأنا أعلم أنني بعيد عن موسكو حيث لا يسمح لي بأن أقع صريع الاكتئاب. أخبرني، ألا يحدثك قلبك أنه كان من الأفضل لي أن أبقى في موسكو؟».

كتب الأب مكاريوس جوابه على ظهر هذه الرسالة حيث يقول: «أشعر بالعطف الشديد على حالة العذاب والتردد لديك. لو أنك كنت تعرف ما يخبأ لك لكان من الحكمة أن تبقى في موسكو بالطبع. وفي ضوء الواقع فإن عليك أنت أن تقرر ماذا ستفعل. فإن كانت فكرة العودة إلى موسكو هي التي ستعطيك الشعور بالاطمئنان فهذه هي إرادة الله».

أهداه أيقونة صغيرة للقديس سيرجيوس، وبعد صلاته لها نجح في إقناع نفسه بأن عليه أن يعود أدراجه. ولكنه ما إن أوشك أن يفعل ذلك حتى امتلأ رعبا

على نحو مفاجئ وأسرع لرؤية القس الذي أمره بغضب بأن يمتثل للإلهام الذي تلقاه من الله وأغلق الباب بوجهه.

عاد جوجول إلى موسكو وهو يشعر بالإذلال والارتياح في آن معاً، ولكنه ما لبث أن غادرها. ذهب إلى آل أكساكوف في «إبراميتسيفو» حيث جلس إلى جانب صديقه القديم ذي اللحية التي تميل إلى البياض، وإن ظل تأنيب الضمير يتآكله لأنه خيّب آمال عائلته. ولكي يخفف العبء عن قلبه توجه للصلاة في دير الثالوث المقدس، للقديس سيرجيوس في يوم عيد أمه وهو الأول من تشرين الأول/ أكتوبر، قدمه القس المسؤول عن المدرسة اللاهوتية إلى بعض الطلبة. وقف وقد انعقد لسانه جبناً أمام أولئك الشبان المرتدين الثياب الكهنوتية والذين كانوا يوجهون له نظرات الإعجاب. وقال في النهاية: أنتم وأنا نؤدي المهمة نفسها، لدينا نفس الهدف ونحن نخدم السيد ذاته».

عاد إلى بيت الكونت تولستوي في موسكو في (٣ تشرين الأول/ أكتوبر)، يوم زواج شقيقته. كتب لأمه ليشرح ظروف غيابه حيث يقول في رسالة في اليوم نفسه: «مرضت عندما وصلت إلى كالوجا مما أجبرني على العودة أدراجي. فأعصابي متهيجة بسبب مصادر القلق والتردد الناجمين عن السفر الذي كان يفيدني في الماضي، ولكنه أصبح يسبب لي الألم الآن. من الواضح أن الله يريدني أن أقضي فصل الشتاء في موسكو. إنني آسف لأن ظروفي منعتني حتى من إرسال هدية صغيرة للعريسين».

بعد أيام قليلة، وبالذات في يوم (١٠ تشرين الأول/ أكتوبر) أصدر مكتب الرقيب موافقته على طبعة جديدة للأعمال الكاملة دون أي تعديل. وقد ابتهج جوجول لدرجة أنه رافق أرنولدي في (١٣ تشرين الأول/ أكتوبر) لحضور عرض المفتش العام حيث كان تشومسكي يلعب دور خليستاكوف وشيشبكين دور رئيس البلدية. أخذ جوجول يتطاول بعنقه متوتراً وهو يتابع من مقصورته بقلق حركات الممثلين. وكان رأيه بأن تشومسكي يؤدي دور خليستاكوف بشكل مرضٍ على وجه الإجمال، غير أن الممثلين الآخرين لم يفهموا أدوارهم

بعد. كانت المسرحية تجرجر في مسارها والجمهور يضحك أكثر مما يجب وفي المواضع غير المناسبة. اغتاظ جوجول وأخذ يتململ، وقد تعرف عليه بعض الحضور وأخذوا يرفعون مناظيرهم باتجاهه. أخذ يخشى أن يصفقوا له أو أن يدعوه للصعود إلى المنصة لدى إسدال الستارة، ولذا تسلل عبر الباب. وقد وجده آرنولدي بعد ذلك لدى السيدة سميرنوف يشرب النبيذ المحلى المخفف بالماء الفاتر لكي يتغلب على مشاعره.

بعد أسبوع من العرض ذهب شيشيبكين لرؤية جوجول وأحضر معه كاتباً شاباً كان يتحرق بشدة للالتقاء به وهو إيفان سيرجييفتش تورجنيف.

يقول تورجنيف في كتابه «ذكريات في الأدب والحياة»: «وصلت وشيشيبكين في الساعة الواحدة واستقبلنا على الفور. غرفة جوجول على يمين المدخل. دخلنا ووجدناه يقف خلف مكتبه ممسكاً بقلمه. كان يرتدي معطفاً قاتم اللون وصدرية مخملية خضراء وسروالاً بنياً. صعقت للتغيير الذي رأيته فيه عما كان عليه في عام ١٨٤١ عندما التقيته مرتين في بيت «أفدوتيا بيتروفنا إيلاجين». كان حينذاك أوكرانياً قصيراً قوي الجسم. أما الآن فإن من يقف أمامي هو مخلوق هزيل يعلق لحمه على عظامه. يختلط بتعبيره المتيقظ ما لا أستطيع تحديده، قد يكون حزناً خفياً، أو انشغال بال، أو قلقاً مرضياً. اندفع لتحيتنا وهو بادي الانشراح وقال وهو يصافحني: «كان علينا أن نلتقي قبل الآن». جلست إلى جانبه على ديوان كبير بينما جلس ميخائيل سميرنوفيتش (شيشيبكين) على أريكة بقربنا. أخذت أدقق النظر بجوجول عن قرب. شعره الأشقر ينسدل نازلاً على النسق القوزاقي، وهو ما يزال على لونه كما كان في شبابه وإن أصبح خفيفاً. جبينه الشاحب المقبب ما يزال ينم عن الذكاء، أما عيناه البنيتان الصغيرتان فهما تلتمعان بالمرح أحياناً – واعني المرح وليس التهكم– غير أن تعابيره كانت توحي بالضجر معظم الوقت. أما أنفه الحاد فهو يمنح وجهه كله نظرة تنم عن المكر مما يذكّر بالثعلب، وتؤكد على هذا الانطباع غير المستحبّ شفتاه الغليظتان الناعمتان تحت شاربيه القصيرين حيث تكشف الشفتان في انحناءاتهما غير المحددة الجانب

المكفهر الخفي في طبيعته. وهما تنفرجان عندما يتكلم لتظهرا أسنانه السيئة. أما ذقنه فهو مدفون في ربطة عريضة من المخمل. هيئة جوجول وإيماءاته تدفع المرء إلى التفكير به وكأنه ليس بروفسوراً بل مدير مدرسة ريفية في قرية صغيرة. قلت لنفسي وأنا أراقبه «يا له من شخص ذكي غريب معتل الصحة!» أذكر أنني وشيشيبكين انطلقنا وكأننا سنزور شخصاً استثنائياً، نابغة أصبح مشوش الذهن نوعاً ما. كان هذا هو الرأي السائد عنه في موسكو. وكان شيشيبكين قد حذرني بأن جوجول لا يتكلم كثيراً، غير أنه كان مهذاراً في ذلك اليوم حيث أخذ يتحدث بحيوية ويلفظ كل كلمة بعناية. ولم يكن يبدو أن هذا السلوك مفتعل من جانبه بل يسبغ وزناً ومعنى خاصاً لكلماته. تحدث عن أهمية الأدب، ودور الكاتب ونظرة الكاتب لعمله، وما يمكن أن نسميه «فيزيولوجيا الخلق الفني» مستخدماً باستمرار تعابير وكلمات غير مألوفة».

غير أن حماس تورجنيف ما لبث أن خبا عندما بدأ جوجول، على أطراف حديثه البليغ، يدافع عن ضرورة الرقابة، قائلاً إن الرقابة تضطر المؤلف أن يصفي أفكاره ويزن كلماته، باختصار، بأن يعطي أفضل ما عنده فقط.

ويضيف تورجنيف: «بهذه التعليقات والحجج اتضح بجلاء تأثير تلك الشخصيات الرفيعة التي أهدى لها معظم «المقاطع المختارة»، وسرعان ما شعرت بأن هنالك هوة واسعة تفصل بين وجهة نظري ووجهة نظر جوجول حول العالم. لسنا نمقت الأشياء ذاتها ولسنا نحب الأشياء ذاتها. غير أن هذا لم يكن يهمني في ذلك الوقت بالذات، كنت في حضرة شاعر عظيم، فنان عظيم وقد أصغيت له باحترام حتى إن كنت لا أوافقه الرأي. ربما كان يعي علاقتي ببلينسكي واسكندر (الاسم المستعار لهيرزن). لم يشر قط إلى بيلنسكي أو إلى رسالته (وهي الرسالة شديدة اللهجة التي وجهها بيلنسكي إلى جوجول وأشرنا إليها في الفصل الثاني من الجزء الثالث من هذا الكتاب. فاسم بيلنسكي كان من شأنه أن يكوي شفتيه. أما اسكندر فكان قد نشر لتوه مقالاً في الخارج اتهم فيه جوجول، بالإشارة إلى مقاطع مختارة، بأنه خان ولاءاته السابقة. تحدث

جوجول عن هذا المقال، ونحن نعرف، من رسائل جوجول أنه أصيب بجرح عميق بسبب الإخفاق الكلي لكتابه «مقاطع مختارة». وقد لاحظت وشيشيكين كيف كان هذا الجرح ما يزال يؤلمه. تغيّر صوته وأخذ يلهث ويؤكد لنا بأنه لا يفهم ماذا يحملون ضده، إذ إنه ظل دائماً وفياً لمبادئه الدينية والمحافظة وأنه على استعداد لإثبات ذلك بأن يعرض علينا مقاطع من كتاباته المبكرة. قفز بسرعة طفولية راكضاً إلى الغرفة المجاورة وعاد يحمل نسخة من كتابه «أرابيسكس». قرأ بعض المقاطع من أحد المقالات ذات الطابع الصبياني المتكلف وبعض المقالات التافهة مرتفعة النبرة، أذكر أنها كانت تعالج موضوع الحاجة إلى الترتيب الصارم والطاعة غير المشروطة للسلطات الخ.... وقد كرر جوجول أترون: لقد كنت أقول دائماً الشيء ذاته ولم أتغيّر! كيف يمكن لهم أن يتهموني بالخيانة؟ كان من يتحدث هو مؤلف المفتش العام، مؤلف أكثر الأعمال على الإطلاق هدماً على خشبة المسرح».

يقول شيشيكين في مذكراته: «بعد هذا الانفجار وكأنما تعب من الدفاع عن نفسه دمدم جوجول: «لماذا يسمح هيرزن لنفسه بالتنديد بي في الصحف الأجنبية؟» وما لبث أن اعترف بأن مقاطع مختارة كانت خطأً وقال متلعثماً: «إنني مذنب بإنصاتي للأصدقاء الذين كنت أراهم في تلك الأيام. لو أنني أستطيع إعادة عقارب الساعة إلى الوراء وسحب ما قلته لدمرت كل مراسلاتي مع أصدقائي». جلس تورجنيف وشيشيكين صامتين صمتاً متوتراً. وبعد ذلك غيّر جوجول الموضوع وأخذ يتحدث عن إحيائه الأخير للمفتش العام وينتقد كيفية فهمها قائلاً إن الممثلين أخطأوا فهمها. وقد أقنعه شيشبكين بأن يقرأ المسرحية عليهم لتوضيح نفسية الشخصيات.

انعقدت القراءة بعد أسبوعين (في ٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٥١) وكان تورجنيف موجوداً. ولدهشته الكبيرة تبين له أن عدداً قليلاً من الممثلين الأكثر اهتياجاً والذين يرفضون أن يتلقوا دروساً من المؤلف لم يتقبلوا الدعوة ولم تتجشم أي من النساء في المجموعة عناء الحضور. جلس المستمعون حول طاولة مستديرة

بينما جلس جوجول على أريكة. كانت قسماته متخشبة وتنمّ تعابيره عن الكآبة. غير أنه ما إن قرأ السطور الأولى من المسرحية حتى بدأت عيناه تلتمعان ووجنتاه تتوهجان وكأنما كان يتناول مشروباً. ويقول تورجنيف في كتابه «ذكريات في الأدب والحياة»: «كان يقرأ بصورة تثير الإعجاب، وأذهلتني البساطة الشديدة لنبرته وكأنه ذاهل عن وجود مستمعيه وعن آرائهم. كان الوقع رائعاً خاصة فيما يتعلق بالمقاطع الساخرة إذ لم يكن من الممكن تجنب الانفجار في الضحك لمجرد الاستمتاع بذلك».

كاتب شاب آخر هو «جريجوري دانييلفسكي» قابل جوجول خلال تلك الفترة وتحدث عن شبهه المذهل بطيور اللقلق التي تُرى في أوكرانيا وهي تقف على ساق واحدة فوق سطح أحد المنازل» وتعبير لطيف ينمّ عن التفكير يكسو وجوهها». وقد اشتكى جوجول لدانييلفسكي من العناء الذي يواجهه في كتابة الجزء الثاني من «نفوس ميتة» حيث قال له وهو يتنهد: «كأنما عليّ أن أنتزع الكلمات من رأسي بكماشة!». وقال للسيدة أكساكوف بأنه يجد الآن أن الجزء الثاني من عمله أدنى في مستواه من الأول، وأن عليه أن يبدأ هذا العمل برمته من جديد، أو ربما يتخلّى عنه كلياً. غير أنه كان يقول للآخرين بأن عمله يتقدم–أكمل أحد عشر فصلاً– وأنه قد ينشر في صيف عام ١٨٥٢، «بل ربما في وقت مبكر من الربيع».

كان كثيراً ما يقرأ مخطوطته لنفسه بصوت عالٍ وهو في مكتبه. هل هذا هو حقاً الجزء الثاني من «نفوس ميتة»؟ كان يجد صعوبة كبيرة في متابعة شخصياته التي تتجسد من جديد بحيث أنه كان يرتاب في الأمر كله.

تشهد الشظايا التي بقيت من الجزء الثاني من الكتاب على محاولات جوجول اليائسة لاستثارة موهبته الأدبية بما يتوافق مع ما يمليه عليه ضميره. فهو يرى أن من واجبه أن يجنّد كل مصادره الفكرية من أجل تحقيق الانبعاث الروحي لبني البشر، وذلك بحكم إيمانه بأن العمل الفني يصبح ذا قوة معنوية إن استطاع الوصول إلى درجة معينة من الكمال. ولكي يكون جديراً بالمهمة التي أوكله

الله بها حين وُلد ووهب موهبة الكتابة فإنه يعتقد بأن عليه أن يظهر الخير عدلاً والرذيلة مقيتة في كتبه. غير أنه لا يتحرر من الارتباك إلا عندما يصور البشاعة الروحية والجسدية، ويهجره الوحي عندما يهمّ بابتداع وجه صاف. كان يملك قدرة مدهشة لالتقاط نقاط الضعف ولرسم القسمات التي تتحول إلى تكشيرات والإيماءات العادية إلى رقصات عجيبة. غير أن مهارته تنهار عندما يحاول تصوير الوجوه الجديدة للأشخاص المستقيمين النشطين الذين سيتم «إنقاذ روسيا» على أيديهم. خياله يتوقف فجأة حين يلاحق حلم التميّز، ويده التي خلقت لرسم الخطوط الكاريكاتورية السميكة السوداء تتشنج وتعجز عن رسم خطوط صورة جانبية لشخصية ذات قسمات رقيقة. كان يتلوى ويصارع ويدعو الله كي يساعده غير أنه لا يتدفق من قلمه إلا عبارات مبتذلة متملقة. كان يريد أن يكون «رافاييل»[(١)] ولكنه لم يكن أكثر من هيرونيموس بوش[(٢)].

صحيح أن هنالك عدداً قليلاً من الشخصيات الهزلية في الجزء الثاني من نفوس ميتة والتي تشبه إلى حد ما شخصيات الجزء الأول ولكنها شاحبة وضئيلة بالمقارنة. هنالك «تنتنيكوف» الكسول، الثقيل السطحي، ملاّك أراض سعيد لا يتحرك، له عقل لا يتجاوز عقل فراشه، والجنرال «بتريشيشيف» الذي يتصف بالطموح والمهابة، والمغرم «بالبخور والبذخ»، و»بايتوخ» المضياف الذي كرّس نفسه روحاً وقلباً للإفراط في الشراب، وكوشكاريف الأبله، ضخم الجثة والذي تنحصر فكرته الوحيدة في إعطاء الفلاحين الروس (الموجيك) سراويل أوروبية، وبعد ذلك ستزدهر المعرفة والتجارة وسيبدأ عهد ذهبي في روسيا، و«خلوبيوف» الذي يجسد الفوضى الروسية حيث يقيم حفلات عشاء وهو لايملك كوبيكاً واحداً للإنفاق عليها، ويصلي بدلاً من أن يعمل ويعيش سعيداً على حساب أصدقائه. يرسم إلى جانب هؤلاء الأشخاص من ذوي القدرة المحدودة شخصيات مستنيرة. والنزلاء المفترضون في المطهر[(٣)] (الجزء الثاني)

(١) الرسام الإيطالي المعروف (١٤٨٣-١٥٢٠).
(٢) رسام من نفس الفترة تقريباً (١٤٥٠-١٥١٦).
(٣) الموطن الذي تطهّر فيه النفوس بعد الموت بعذاب محدود الأجل.

هؤلاء لا يتمتعون بالفضيلة الكاملة شأن ما سيكون عليه نزلاء الجنة (الجزء الثالث) غير أنهم «مهمون». إنهم بتعبير آخر يمثلون بالنسبة لجوجول أفضل مزايا الشعب الروسي. يقف على رأس هذه المخلوقات السعيدة «كوستا نجوجلو»، وهو ملاّك أراض وصناعي يملك مقادير متساوية من الحس السليم والشعور بالواجب. وهو يعلّم تشيشيكوف كيف يصبح غنياً مع محافظته على المبادئ المسيحية.

باختصار، ما جسده المؤلف نظرياً في كتابه «مقاطع مختارة» يجسده الآن «بصورة حيّة في الجزء الثاني من «نفوس ميتة». وهو أن الصدق يؤدي إلى النجاح الاقتصادي، والإنجيل يولد الحساب في البنك. وكأنما لا يكفي كوستانجوجلو لإثبات ذلك فهو يقدم لنا شخصية أكثر رفعة وهو «مورازوف»، صناعي كريم يعمل بصناعة المشروبات الروحية والذي بدأ من لا شيء وأصبح يملك الملايين «دون أن يلجأ إلى أية أساليب ملتوية». ويصبح أكثر ثراءً يوماً بعد يوم لأنه يقوم بكل أعماله وأفكاره متجهة بثبات إلى الله. والبطل الثالث الذي يقدم كمثال لعامة الروس هو الحاكم العام والذي يكتسب لديه لقب «صاحب السعادة» معناه الكامل، هذا المسؤول الرفيع يتسم بالحزم وبعد النظر والاستقامة الكليّة. ويتوهج إلى جانبه الموظف الشريف، موظف يؤدي عمله بصورة روتينية، «لا يعرف الطموح أو الجشع، ولا يحاول تقليد الآخرين وهو يعمل للاسبب إلا لأنه يشعر بأن هذا هو مكانه ولا يمكنه أن يكون في موقع آخر، وأنه خلق لهذا الغرض فحسب». كما أن هنالك شخصية أخرى جديرة بالملاحظة وهي أولجا الساحرة: عذراء روسية مثالية، لديها نزواتها لكنها صادقة وصافية بحيث أنه بحضورها «يفقد الشرير ماء وجهه»، و«يصمت أكثر المتكلمين جرأة» و»يصبح بإمكان الخجول أن يتكلم في النهاية»[1].

ينبثق النور من هذه المخلوقات السامية ويكشف شيئاً فشيئاً وضاعة تشيشيكوف. وكلمات مورازوف وكوستانجوجلو، وأولاً وقبل الجميع الحاكم العام بحيث يقلب روح تشيشيكوف رأساً على عقب. وتمهد العقوبة المعلقة فوق

(١) يقال إنه اتخذ من آنّا ميخايلوفنا فايلجورسكي مثلاً له في هذه الشخصية.

رأسه السبيل لإعادة انبعاثه الأخلاقي ، وهو ما يجب أن يبرر ، في نظر الكاتب ، العمل برمته في عيني الله .

غير أن جوجول يبتدع هؤلاء «الأبطال الإيجابيين» ويرسمهم بطريقة تقليدية بحيث أننا ، بدلاً من أن نتوق للفضيلة فإنها إنما تدفعنا للحنين إلى الرذيلة . وعلى الرغم من النقائص البشرية العميقة لدى أبطال الجزء الأول فإنهم يبقون مليئين بالحياة بينما الدمى البشرية للجزء الثاني هي فعلاً نفوس ميتة .

لم يبق من العمل إلا شظايا قليلة . غير أن هذه النتف التي بقيت من ذلك المشروع برمته تشير إلى أن «المطهر» و»الجنة» من ذلك الثلاثي إنما هي تركيبة ضعيفة مقارنة بالجحيم السابق الذي يملأ القارئ إعجاباً .

كان جوجول يعي إخفاقه هذا ولكنه يرفض الاعتراف به . وكان الأصدقاء الذين يقرأ لهم أحد الفصول بين حين وآخر يشجعونه على متابعة كتابة الكتاب . وقد بدا لهم بالفعل أن هذه الشخصيات الصافية لا تنتمي إلى عالم تشيشيكوف الحاقد البشع ، وأن الملاّك المستقيم ، وصانع الخمور الذي يتدفق عاطفة ، والفتاة الملائكية والحاكم العام العادل مثلهم في ذلك مثل الله قد دخلوا كلهم الكتاب خطأً . غير «أنهم ، أي هؤلاء الأصدقاء ، كانوا يثقون بعبقرية الكاتب وقدرته على تصحيح هذه العيوب وإعطاء العمل التوابل التي يحتاجها . بل إن البعض منهم كانوا يعتقدون بأن الجزء الثاني سيكون ، لدى اكتماله ، أفضل من الأول .

كان يستكمل في الوقت نفسه كتابه «تأملات في الطقوس الدينية المقدسة» . ويصحح مسودات «الاعمال الكاملة» . وقد جاء لزيارته في أواخر شهر كانون الثاني/ يناير ١٨٥٢ أحد أصدقائه من أوكرانيا ، أستاذ التاريخ والأدب البروفسور بوديالسكي . وعندما وجده مستغرقاً في أوراقه تساءل: «ما الذي تعمل عليه يا نيقولاي فاسيلييفتش؟» .

«مجرد خربشات ، كما أنني أراجع «بروفات» كتبي القديمة والتي ستعاد طباعتها الآن؟» .

«هل سيعاد طبعها جميعاً الآن» .

«كلا ، بل قد أحذف البعض من أعمال المبكرة» .

«أيها بالضبط؟»

«أمسيات في المزرعة» .

هتف بوديانسكي: «ماذا تقول؟ تريد أن تتخلى عن واحد من أكثر أعمالك تأثيراً؟»

أجاب جوجول: «يحوي هذا العمل العديد من المقاطع غير الناضجة . وأنا أريد أن أقدم للجمهور مجموعة أرضى عنها الآن ، في هذه اللحظة بالذات . ويمكنهم بعد موتي أن يفعلوا ما يشاؤون» .

قال الكلمات الأخيرة بنوع من النبرة الجنائزية المتجردة ، وأضاف بعد ذلك وهو يهز رأسه: «كم هو موحش هذا العالم حينما تتمعّن فيه! أتعلم أن جوكوفسكي كتب لي بأنه أخذ يصاب بالعمى؟» بدت على وجه جوجول علائم الاكتئاب ، ولكنه ما لبث أن توهج ثانية وعرض على بوديانسكي أن يصطحبه إلى بيت أكساكوف لسماع أغانٍ أوكرانية ، .وبدا كأن أوكرانيا –بأغانيها ، وعاداتها ومآكلها هي الأمر الوحيدَ الذي كان يعيد إليه الحياة في تلك الأيام .

غير أن ذلك التجمع في بيت أكساكوف لم يتحقق بسبب الموت المفاجئ «لكاترينا ميخائيلوفنا خومياكوف» شقيقة الشاعر ياسيكوف في (٢٩ كانون الثاني /يناير ١٨٥٢) بعد فترة مرض قصيرة . كان جوجول مغرماً جداً بتلك المرأة الشابة ، الحيوية اللبقة . فقد كانت تذكره بياسيكوف ، صديقه وكاتم أسراره .والذي كان قد مات قبل ست سنوات من ذلك التاريخ . تغلغل موتها إلى داخل لحمه ، ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يشعر فيها بنخزة تدفعه نحو الهاوية . غير أن الدعوة لم تكن ملحّة من قبل كما هي هذه المرة . لم تكن تلك بمثابة تحذير ، بل عبارة عن دعوة . كانت بمثابة حس داخلي مسبق شلّ جسده

وخدّر عقله. وقد دمدم بعد أن رأى الشابة في نعشها: «لا شيء يماثل الموت في مهابته، والحياة ستفقد كل جمالها إن لم يكن هنالك موت». خانته شجاعته خلال الجزء الأول من الجنازة والذي جرى في بيت المتوفاة وقال: «لقد انتهى أمري». كما وجد صعوبة في البقاء حتى نهاية مراسم الجنازة نظراً لأنه أخذ يعاني من الدوار والإرهاق والحزن.

لم يذهب إلى الجنازة الرسمية في اليوم التالي. ولكنه أقام قداساً لراحة نفس المتوفاة في الدير الخاص بالكونت تولستوي. وكان في بيت آل أكساكوف في مساء ذلك اليوم حيث قال (كما نقلت عنه فيرا ابنة أكساكوف في يومياتها): «لحظة الموت رهيبة». تحداه أحدهم متسائلاً: «لماذا هي رهيبة؟ ما عليك إلا أن تؤمن برحمة الله لكل المخلوقات المعذبة، وعندئذ قد يتوقف الموت عن أن يصبح مخيفاً». ردّ على ذلك بحدة قائلاً «قد نحتاج لأن نسأل أولئك الذين رحلوا عن هذه القضية!».

كان من شأن هذا الحادث أن يزيد من قلقه على نفسه أكثر من ذي قبل، وأول فكرة خطرت له هو أن يلفّ نفسه بملاءة رطبة باردة كل صباح لكي يزيد من مقاومته. لم ينجح هذا العلاج وأصبح يبدو كل صباح وكأنه جثة تسير على قدمين. وبعد أن صادفه الطبيب المسكوفي الدكتور «ألكسندر سانوفيتش أوفر «في بيت أكساكوف» انتحى بفيرا سيرجييفنا أكساكوف جانباً وهمس في أذنها قائلاً: «المسكين!» تساءلت: «من تعني؟» أجابها «جوجول». «ولماذا تقول عنه أنه مسكين؟» «لأنه مصاب بتوهم المرض. أرجو الله ألا يأتيني كمريض! إنها حالة مرعبة!» قالت الفتاة: «هناك عزاء واحد، فهو مؤمن حقيقي». قال الدكتور أوفر وهو يتوجه إلى الباب مغادراً: «ولكن هذا لم ينجه من البؤس الذي يعاني منه». عندما عادت فيرا سيرجييفنا إلى جوجول في قاعة الاستقبال دعته للبقاء لتناول العشاء. ولكنه رفض، وكانت تعابيره ساكنة، وشمس الشتاء الباردة تملأ الغرفة.

قالت له فيرا سيرجييفنا: «لم تقم بأي عمل اليوم! وقد مشيت بما فيه الكفاية، وعليك أن تعود الآن لتعمل!».

أجابها وهو يتبسم: «أجل أصبت، هذا ما يجب عليّ أن أفعل. ولكنني لاأدري ما إن كنت سأتمكن من ذلك، فعملي هو من نوعية لا يمكنّني من القيام به لمجرد أنني أريد ذلك».

ارتدى معطفه وخرج إلى الشارع الأبيض الفارغ. خاض بتثاقل في الثلج، هزيلاً منحنياً ومشى في مسار متلوٍ وكأنه الغراب. وقد انقبض قلب فيرا سيراجييفنا وهي تراه يمضي في طريقه.

كتب لجوكوفسكي في اليوم التالي (٢ شباط /فبراير ١٨٥٢) يقول: «أطلب من الله أن أنجز عملي وفقاً لما يمليه عليّ ضميري وأن أجد في نفسي درجة ما من الجدارة مهما كانت ضئيلة لكي أنشد ترنيمة تتغنى بالجمال السماوي».

ولكي يسمو بنفسه إلى هذه الدرجة من «الجدارة» فقد عزز من قراءاته للكتب الدينية وأكثَر من الصلاة والصوم، وكان يحمل رسائل الأب ماثيو في جيب سري وكأنها تذكارات مقدسة.

كتب لهذا القس (في ٢٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٥١): «أشكرك مرة بعد مرة لأنك احتفظت بي في ذاكرتك. ومجرد فكرة أنك تصلي من أجلي يمنح روحي أملاً بأن الله سيجدني جديراً بخدمته بأفضل مما فعلت في الماضي بحكم عجزي وكسلي وضعفي. رسالتاك الأخيرتان لا تفارقانني، وكلما أعدت قراءتهما أجد ما ينير سبيلي من جديد، وأشكر الله الذي أعانك على كتابتهما. لا تنسني في صلواتك أيها الروح الطيبة».

على الرغم من أن رسائل الأب ماثيو إلى جوجول لم تبق إلا أنه يمكننا أن نتخيل أسلوبها من تلك التي أرسلها إلى تائبين آخرين حيث يقول في رسالة إلى أرمل أراد أن يتزوج من جديد: «لا تستبدل الله بالشيطان، ومملكة السماء بهذا

العالم. ستستمتع بلحظة واحدة الآن ولكنك ستبكي بعد ذلك إلى ما لا نهاية. لا تدخل في صراع مع الله ولا تتزوج ثانية. إنك تعلم أن المسيح نفسه يتطلب منك أن تكافح ضد ملذات الجسد. فكر بالموت وسيسهل عليك أن تعيش. أما إذا نسيت الموت فإنك ستنسى الله. وإن زيّنت روحك على هذه الأرض بالصيام والتقشف فإنها ستكون طاهرة عندما تنتقل إلى العالم الآخر. تعلم ماذا عليك أن تفعل لتهدئة عواطفك: كل قليلاً ونادراً، ما أمكنك ذلك. تجنب النهم. تخلّ عن شرب الشاي واشرب الماء البارد بدلاً منه ومعه قطعة خبز، وعندما تحتاج لذلك فقط. قلل من نومك ومن كلامك واعمل أكثر».

كان الأب ماثيو نفسه يمارس هذا النظام القاسي. لا نبيذ ولا لحم، لاقراءة إلا ماهو ضروري لدعم الإيمان، أقصى درجات الفقر المدقع، مقت كل أنماط المسرات. ويقال إنه أرهب المؤمنين في القرى الواقعة ضمن سلطته الكنسية بحيث أنهم لم يعودوا يجرؤون على إظهار ميلهم الطبيعي إلى المرح، لا ضحك بعد، ولا غناء بعد. حتى وجوه الأطفال غدت حزينة ولم يعد آباؤهم يسمحون لهم بالترويح عن أنفسهم باللعب إلا إذا كان يترنمون بالترانيم المقدسة وذلك تبعاً لتوصيات رئيس الأساقفة ذاك.

حاول ملاّك اسمه ماركوف يعرف الأب ماثيو معرفة جيدة أن يحذّر جوجول من تأثير رئيس أساقفة «رجيف» وكتب له يقول: «من المؤكد أنه يستحق الاحترام كرجل، وهو استثنائي كواعظ ولكنه ضعيف كعالم باللاهوت نظراً لأنه غير متعلم على الإطلاق. لست أعتقد بأنه قادر على حلّ مشكلاتك إن كانت تتعلق بأمور لاهوتية دقيقة. يمكن للأب ماثيو أن يتحدث في أمور مثل أهمية الصوم والحاجة للتوبة، وهي مواضيع أصبحت مهترئة، ولكنه سيحرص على تجنب مناقشة أمور لها علاقة بالفلسفة الدينية الخالصة».

ولكن جوجول تجاهل هذا الرأي النيّر ولم يكن مستعداً لقطع علاقاته بموجهه الروحي، وتراءى له أن بساطة الأب ماثيو وأسلوبه الخام هما نمط الصحة الروحية التي يحتاجها. فالفكرة التي تسيطر على ذهنه حالياً: هي أن يسمو بروحه

بحيث يصبح عمله الوليد جديراً، ليس بمن ابتدعه بل بالخالق نفسه، أي الله. سيسمو إلى هذه المرتبة إذن. إنس الجسد واكبح الشهوات بالصيام.

تدفق لديه الأمل عندما علم بأن الأب ماثيو وصل إلى موسكو بناءً على دعوة من الكونت تولستوي. يستطيع في النهاية، وبوجود رجل الله هذا أن يخفف عن روحه ويعزز من شجاعته.

قدم للأسقف فصولاً قليلة من الجزء الثاني من «نفوس ميتة». وبعد أن ألقى الأب عليها نظرة عجلى عبّر عن خيبة أمله ونصح الكاتب بحذف المقاطع التي تشير إلى «قسٍ أكثر قرباً للكاثوليكية منه للأرثودكسية في طريقة تصرفه»، وإلى «حاكم لم يشهد الزمان مثيلاً له». فمثل هذه الصور قد تتسبب في إثارة تتجاوز ما أحدثها كتابه «مقاطع مختارة». كيف يمكن لإنسان يدّعي بأنه تحول إلى الله أن يبذر وقته في مثل هذه الخربشات؟ عليه أن يفكر في تطهير قلبه لا بصف جمل علي الورق. وفي مواجهة ذهول جوجول صرخ ذلك القس ذو اللحية الحمراء والأنف الكبير والعينين الرماديتين الرصاصيتين وكأنه يتكلم من فوق منبر الوعظ في الكنيسة: «القانون السماوي كتب للجميع وعليهم جميعاً اتباعه دون أن ينبسوا بكلمة واحدة. وارتداد الجسد عن السبيل القويم لا يعفينا من الصيام. فأي عمل يجدر بنا أن نجهد من أجله؟ وما حاجتنا للقوة؟ الكثيرون يدعون ولكن من يتم اختيارهم قلة فقط».

حين حاول جوجول أن يشرح وجهة نظره بأن لا تعارض بين الفن والقداسة أمره القس، وهو ما يزال يرغي ويزبد، بأن يرتد عن محبوبه بوشكين. وصرخ قائلاً: «تبرأ من بوشكين. كان آثماً ووثنياً!» ثم وصف لذلك التائب الباكي الساجد أمامه المراسم المرعبة ليوم القيامة. تأثر جوجول تأثراً عميقاً حين وصفت له أمه عذابات جنهم منذ وقت طويل إبّان طفولته. أما الآن فهو يشعر بأن دماغه يكاد ينفجر فزعاً، دمدم وهو يئن (كما روى تاراسينكوف في «أيام جوجول الأخيرة»): «كفى! لا أستطيع سماع المزيد! هذا رهيب!» ورجا الأب ماثيو أن يدعه وشأنه.

انسحب القس غاضباً وعاد في اليوم التالي (٥ شباط/ فبراير ١٨٥٢) إلى «رجيف» ورافقه جوجول وهو منسحق الفؤاد لشعوره بالإثم إلى محطة القطار، ولكن فراقهما كان بارداً. أسرع جوجول إلى البيت يتآكله تأنيب الضمير وأسرع ليكتب لأبيه الروحي يقول: «كتبت لك بالأمس لأطلب منك أن تسامحني لأنني أسأت لك. ولكن البركة السماوية أنارت لي سبيلي فجأة بفضل صلوات أحدهم وبعد أن جف قلبي أيما جفاف، وعند ذلك أردت أن أشكرك بكل ما أوتيت من قوة. ولكن لمَ أتحدث عن ذلك؟ إنني مدين لك إلى الأبد على هذه الأرض وبعد أن يواريني القَبر. المخلص لك نيقولاي».

ما إن تلقى الأب ماثيو هذه الرسالة حتى أصبح بإمكانه أن يقول لنفسه بأن بلاغته انتصرت. قد تكون روسيا خسرت كاتباً عظيماً ولكن الله كسب روحاً جميلة. وبعد فترة وجيزة استفسر منه «فلييوف» الخبير في الشؤون العامة حول حديثه الأخير مع جوجول فقال له الأب ماثيو: «كان جوجول ينشد السلام والتطهير الداخلي». فتساءل فلييوف: «ولماذا التطهير الداخلي؟» «كان هنالك جانب غير نظيف لديه». «أي جانب غير نظيف؟» «أقول لك: جانب غير نظيف. كان يحاول التخلص منه دون أن يفلح في ذلك. ساعدته على تطهير نفسه، فما الخطأ في أن أساعد على أن أجعل من جوجول مسيحياً جيداً؟».

«إنك متهم، باعتبارك أباه الروحي، بأنك منعته من كتابة أعمال دنيوية».

«هذا غير صحيحَ فالله وحده هو الذي يهب الكاتب موهبته، وليس هناك من يمنع الهبة الإلهية. لقد نصحته فعلاً بأن يصف الناس الخيرين، أي أن يصوّر الشخصيات الإيجابية وليس السلبية كما فعل، وبنجاح في الماضي. وقد حاول ذلك ولكنه لم ينجح». وبعد ذلك أعلن القس بصوت هادر وقد أزعجه اتهام رجال الأدب المستمر له بأنه ينزع للظلامية وإعاقة التقدم: «إنك لا تلوم طبيباً حين ينصح بالجراحة بعد أن يشخص داءً خطيراً لدى المريض» (روى هذا الحديث الراهب أبرازتسوف الذي كان حاضراً لدى تبادل هذا الحديث).

لم يستطع جوجول في هذه الأثناء أن ينسى حديثه مع الأب ماثيو. فحين كان بصحة جيدة كان يعتبر الشيطان نوعاً من الدجال الخرافي، محتال من الدرجة الثالثة، مجرد خليستاكوف أوتشيشيكوف من الممكن نزع سلاحه عن طريق الضحك. أما الآن، بعد أن بدأت قواه تخور وأخذ نوع من الضباب يغمر دماغه فقد بدا له أن الشيطان لا يكتفي بإغواء الأرواح الضعيفة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها، بل هو قادر على القيام بأعمال تبدو ظاهرياً أعمالاً رفيعة مثل إنجاز أعمال فنية يغرسها الشيطان في عقول الكتاب. ربما كان مثل هذا الكاتب يظن أنه يعمل في خدمة الله بينما هو في الواقع يعمل في خدمة الشيطان، وهذا ما قد يعنيه الأب ماثيو عندما حثه على التخلّي عن قلمه وعلى نبذ بوشكين. ربما لم يبق أمامه إلا أيام معدودة عليه أن يصحح خلالها الخطأ الذي ظل يرتكبه طوال حياته.

توجه في صباح ثلاثاء المرافع (وهو الذي يسبق أول يوم في الصيام الكبير) لرؤية قسٍ في الطرف الآخر من المدينة، وسأل متى يمكنه أن يتناول العشاء الرباني. نصحه القس بالانتظار حتى الأسبوع الأول من الصيام، غير أنه حينما لاحظ حزن الكاتب الشديد وافق على تحديد موعد له في الكنيسة بعد يومين.

كان جوجول قد تخلى في هذه الأثناء عن أي نشاط أدبي. أحاط نفسه بالكتب الدينية وحاول أن يفرض على نفسه نظاماً أكثر قسوة من ذلك الذي تفرضه الكنيسة: أخذ يصوم حتى في أسبوع المرفع ويكافح المتطلبات المقيتة لمعدته ويقلل شيئاً فشيئاً مما يأكل. ملاعق قليلة من «الكاشا» أو «البورش» (حساء خضار روسي)، وقطعة من الخبز المقدس وكأساً من الماء. أصبحت ساقاه لا تكادان تحملانه، ومع ذلك أخذ يصف نفسه بأنه خنزير شره. وبدأ يحاول أن ينام لأقصر فترة ممكنة في الليل لكي يقاوم الإغواء الشيطاني لرؤية الأحلام. كتب لأمه متضرعاً لها لكي تصلّي من أجله حيث يقول لها (في رسالة في أوائل شهر

شباط/ فبراير ١٨٥٢): «أشعر بعاطفة شديدة في اللحظات التي تصلين فيها من أجلي. يا إلهي، كم يمكن لصلوات الأمهات أن تفعل من أجلنا».

توجه إلى الكنيسة في الصباح الباكر من يوم الخميس ٧ شباط / فبراير حيث اعترف وتناول العشاء الرباني، وسجد على الأرض وهو يبكي. يقول شيفرييف الذي جاء لرؤيته بعد وقت قصير من ذلك. بأنه وجده من الهزال وفتور الهمة بحيث أنه ركع على ركبتيه وتوسل إليه بأن يأكل. ادعى جوجول بأنه لم يكن جائعاً. وبعد ذلك، وكأنما جاءه إلهام مفاجئ طلب أن ينقل إلى مستشفى بريوبراجنسكي لزيارة أحد الأبرياء، «رجال المسيح المجانين» الذي كان في ذلك المستشفى. وهذا الشخص هو «إيفان كوريشا» وكان محبوباً من الناس. وعندما وصل جوجول إلى المستشفى لم يستطع أن يقرر الدخول. وأخذ يذرع المكان جيئة وذهاباً وسط الثلج. وبعد ذلك وقف دون حراك لعدة دقائق وسط الريح. ثم صعد إلى العربة من جديد وعاد إلى البيت. ماذا كان يأمل أن يسمعه من فم ذلك الحالم كثير الرؤى؟ تأكيداً لوصايا الأب ماثيو أو رأياً مختلفاً يحله من القيود التي يفرضها على نفسه ويعيده إلى الحياة والأدب؟

بدا من الإجهاد والتشوش لدى عودته بحيث أن الكونت تولستوي طلب إليه رؤية طبيب العائلة الدكتور «إنوزيميتسيف». أعلن الطبيب في النهاية وقد حار في أمره بأنه مصاب بنزلة معوية وطلب من المريض أن يفرك معدته بالكحول، وان يشرب ماء الكرز والغار، وأن يتناول حبوب الراوند الطبية لتخفيف الإمساك الذي عاني منه. غير أن جوجول الذي يحتقر مثل هذه العلاجات المسكّنة فضل أن يعالج نفسه بزيادة الركوع أمام الأيقونات التي يتوفر الكثير منها في بيت الكونت تولستوي.

في ليلة ٨-٩ شباط/ فبراير سمع صوتاً صادراً من القبر وهو يستلقي ناعساً مرهقاً على أريكته: حدّقت عيناه بالظلمة وشعر وكأنه مات بالفعل فصدرت عنه صرخة مريعة أيقظت خادمه وأرسله لإحضار قس. وعندما حضر رجل الدين متعثراً وهو نصف نائم أبلغه جوجول بأنه يعاني من نفس مرض والده،

وبأنه يشعر بأنه موشك على الموت، وطلب أن يتناول العشاء الربّاني ثانية نظراً لأن القربان المقدس الذي تناوله في اليوم السابق لم يحقق له الشعور بالسلام. ولكن القس الذي لاحظ بأن الرجل الذي يفترض فيه أنه يموت نهض لتحيته، ولذا أكد له بأن لا حاجة للذعر وأن الوقت لم يحن له بعد للقاء ربّه. بعد هذا اطمأن جوجول مؤقتاً ووافق على الاضطجاع والنوم. غير أنه استدعى الكونت تولستوي في (١٠ شباط/ فبراير) وطلب منه أن يسلم كل أعماله بعد موته إلى «فيلاريتوس» مطران موسكو لكي تحكم أعلى سلطة كنسية ماذا يمكن نشره على الملأ وما الذي يجب أن يظل طي النسيان من هذه الأعمال: «عليه أن يحذف دون رحمة كل ما يجده عديم الفائدة». وقد رفض الكونت تولستوي ذلك وحاول إقناع جوجول بأنه لا يعاني من مرض خطير.

كل ما تغذى عليه جوجول في اليوم التالي هو ماء أضيف إليه القليل من النبيذ. كانت حينذاك بداية الصوم الكبير ودخلت المدينة فترة امتناع عن المآكل والمسكرات وحرمان كلي. وقلما كانت أجراس الكنائس تقرع، وحين تفعل فإنها تبدو كأنها طنين أجراس الموت. وكان القسس يرأسون القداديس وهم يرتدون ثياب الحداد الكهنوتية. كما أغلقت المسارح الإمبراطورية وتصدّر أكشاك الباعة الفطر المجفف والمخلل المحفوظ في محلول ملحي والملفوف المر والسائل الملحي الذي ينقع فيه اللحم والسمك. وفي بعض البيوت التقية غطي الأثاث ونشرت الملاءات فوق الرسوم التي تنتهك حرمة المقدسات. كان جوجول يشعر بأجواء التوبة الشاملة السائدة ضمن جدران غرفته. أما أفكاره التي تركز دونما انقطاع على الظلال فقد كانت تتلاءم مع المزاج المسيحي المقدس.

جاء عدد من الأصدقاء القلقين عليه لرؤيته: بوجودين، شيفريف وشيشبكين. أعلن بأنه لا يريد رؤيتهم وهو يضطجع على أريكة ينصت لهم دون أن يجيب. وبعد لحظة يهمس «سامحوني، أنا نعسان».

كتب شيفريف بعد أن تركه: «عندما أفكر بحالته فإنني أعتقد بأن ما يعاني منه هو الحزن أكثر من المرض الفعلي».

عقد الكونت تولستوي في مساء يوم الاثنين الحادي عشر من شباط قداساً في منزله وجرّ جوجول من كرسي إلى آخر حتى وصل به إلى الصف الأمامي، وبجهد شديد استقام وظل واقفاً طوال فترة الصلاة وهو يتمتم بالصلوات ويرسم شارة الصليب على صدره ويتمايل يميناً وشمالاً وقد امتلأت عيناه بالدموع.

تابع الصلاة بمفرده ليلة ١١-١٢ شباط أمام الأيقونات. لم يكن قادراً على إغلاق عينيه. وفي الساعة الثالثة فجراً نادى الخادم الأوكراني الذي كان نائماً وقد التفّ على نفسه على الأرض خلف الحاجز الفاصل وتساءل ما إن كانت الغرف الأخرى في المنزل ما تزال دافئة.

أجابه الفتى: «لا، بل هي باردة».

إذن أعطني عباءتي لأنني أريد الذهاب إلى هناك لأمر ما».

تسلل منحنياً وبخطوات متعثرة وكأنه اللص إلى الغرفة المجاورة والعباءة على كتفيه وشمعة في يده. كان يرسم شارة الصليب مع كل خطوة وقد انعكس ظله المنحني على زوايا الجدار والسقف. عندما وصل إلى المدفأة طلب من الفتى أن يفتح الموقد بكل هدوء وأن يحضر له حقيبته الجلدية. سحب منها حزمة من الكراسات المربوطة بحبل: مخطوطة الجزء الثاني من «نفوس ميتة» وفصولاً من الجزء الثالث وبعض القطع الأخرى الأقل أهمية. كانت الحزمة ثقيلة على يديه، بثقل ذنب غير قابل للتفسير. عليه أن يتخلص من هذه بأسرع وقت ممكن لكي يقف أمام الله طاهراً. رمى كتلة الأوراق برمتها إلى داخل الموقد وقرّب الشمعة منها. قضمت النار زاوية إحدى الأوراق، وما لبثت أن قفزت عالية، متلألئة، مرحة متغطرسة.

صاح الفتى: «ماذا تفعل يا سيدي؟ توقف! مازلت تستطيع استخدام هذه الأوراق».

أجابه جوجول: «لا شأن لك بهذا. اكتفِ بالصلاة».

أحسّ الفتى بالمأساة فانفجر باكياً وظل يستعطف سيده لكي يستعيد الأوراق من النار، ولكن جوجول رفض أن يسمعه. هل كان يفكر في تلك اللحظة بذلك الوقت البعيد عندما أحرق جميع نسخ كتابه «هانز كوشيلجارتن». ليس هناك أفضل من النار لتغطي كل أثر لأي خطأ. ولكن الصفحات كانت متقاربة هذه المرة. انطفأت النار بعد أن التهمت هوامش الكراريس فسحب جوجول والغيظ يأكله الرزمة نصف المتفحمة والتي تتخللها بعض الشرارات، فكّ الحبل ونشر الصفحات لكي تشتعل بسهولة أكبر، ثم قرّب الشمعة إلى داخل الموقد وأشعل النار في كراساته مرة ثانية فاشتعلت في النهاية.

تراجع عن الوهج المفاجئ وواجه الوجار ليراقب عن بعد تلك السطور التي تتلوى وتضحمل. هاهو تشيشيكوف يعود إلى جهنم التي ما كان له أن يغادرها. عمل سنوات عدة يدمّر في دقائق معدودة! هذه إرادة الله، إلا إن كان الشيطان هو الذي شاء. تسمّر جوجول في مقعده غارقاً بأفكاره وهو يحدّق أمامه مسحوراً. أنفه يتدلى ويداه على ركبتيه وكأنه طير يطوي جناحيه إلى أن انتهت الكراسات ولم يبق منها إلا الرماد. وعند ذلك رسم شارة الصليب على صدره، وعانق الخادم الصغير وبدأ يبكي[1]. وبعد فترة وجيزة أرسل في طلب الكونت تولستوي وقال وهو يشير إلى كومة الرماد ويختنق بكلماته:

«إليك ما فعلت! لقد أردت إحراق أشياء أعددتها من قبل ولكنني أحرقت كل شيء. كم الشيطان قوي! أترى ماذا دفعني أن أفعل. انتهى كل شيء الآن!».

أجابه الكونت تولستوي بهدف تهدئته: «هذه علامة جيدة. لقد أحرقت مخطوطات ثلاث أو أربع مرات لكي تكتب أحسن منها فيما بعد. كما أنك تذكر ولاشك ما كتبت».

(١) هذا ما رواه بوجودين في دورية موسكوفيت، العدد ٥ في عام ١٨٥٢، ولا يعرف الجزء الثاني من «نفوس ميتة» إلا من خلال شظايا قليلة ومسودات ومخططات وجدها شيفريف بين أوراق جوجول، ومن خلال ما رواه بعض أصدقائه الذين كان قد قرأ عليهم مقتطفات من هذا الجزء قبل وفاته.

أجاب جوجول وهو يلمس جبينه بيده: «أجل، أجل، يمكنني، يمكنني. كله موجود في رأسي».

توقف عن البكاء وصفا وجهه. لماذا كذب على الكونت قائلاً أنه أحرق المخطوطة خطأ؟ كان يعرف معرفة تامة ماذا يوجد في الكراسات التي ألقى بها في المدفأة. ولكنه لم يكن في أي وقت قادراً على قول الحقيقة حول نواياه وأفعاله. وفي كل مرة كان يتفوه فيها بأمور زائفة كان يشعر بأنه يحمي نفسه من التهديد المدمر – ألا وهو الدليل.

غير أن هذه المحرقة لم تحلّ، على كل حال، المشكلة التي كانت تعذبه. كان يأمل بأن يكون قد قطع الصلات التي تربطه بأقرانه من بني البشر. غير أن الشكوك القديمة ظلت تحوم في رأسه: هل كان يطيع الله بتدميره حزمة غير مفيدة من الأوراق، أم يطيع الشيطان بحرمان البشرية من عمل كان بإمكان معاصريه – مهما كانت مثالب هذا العمل– أن يجدوا فيه ما يلهمهم لنبذ غرائزهم السيئة؟ ألا يوجّه إهانة إلى الخالق برفضه العالم كما خلقه الله بكل ما فيه من وحول وطين؟ وهل يحق لكاتب مسيحي خلق على وجه هذه الأرض لكي يشهد على ما فيها أن يتنكر لموهبته السماوية من باب النسك والزهد؟ من يستطيع الإجابة على أسئلته هذه؟ لا الأب ماثيو ولا المطران فيلاريتوس، ولا المرشد الروحي «لدير أورتينا» يمكنهم أن ينوروا جوجول حول هذا الأمر. لم يعد قادراً على العثور على أي سبب يدفعه للبقاء بين بني البشر بعد أن غدا معذباً، ممزقاً لا يستطيع معرفة مايريده الله منه. صار الموت يجذبه آناً ويرعبه آناً آخر، وأخذ يبدو له أحياناً وكأن صوتاً يدعوه من مكان قصيّ كما كان يحدث له إبان طفولته.

غرق في الأيام التالية في حالة نعاس، لا يبالي وهو يجلس في مقعد ويرفع ساقيه على مقعد آخر وقد أغمض عينيه، بالجلبة المتعاطفة معه والتي يثيرها أصدقاؤه حوله. وقد قال لخومياكوف في إحدى الأمسيات: «الكل ميّت في النهاية، وأنا مستعد. سوف أموت». وعندما حاول الكونت تولستوي أن يصرف نظره بالحديث عن أمه وشقيقاته دمدم قائلاً: «عمّ تتحدث؟ كيف يمكن

لك أن تتحدث بهذه الأمور في الوقت الذي أستعد فيه لمثل هذا الحدث المريع؟» وما لبث أن أفرغ جيوبه وطلب أن يوزع قسم من ذلك المال على الفقراء ويصرف الجزء الآخر على شراء الشموع.

كان الدكتور «أنوزميتسيف» مريضاً، ولذا استدعي الكونت تولستوي الدكتور «تاراسينكوف» بدلاً عنه – وهو رجل حسّاس ومهذب يراعي مشاعر الآخرين، وكان جوجول يكنّ له بعض العاطفة. ويقول تاراسينكوف في «آخر أيام جوجول»: «خفت عندما رأيته فقد نحل جسمه كله نحولاً شديداً، وكانت عيناه كليلتين وغارقتين في محجريهما. قسماته غائمة ووجنتاه مجوفتان وصوته ضعيف، بل كان من الصعب عليه تحريك لسانه في داخل فمه الجاف، والتعبير على وجهه غامض وغير قابل للتفسير. ظننت لأول وهلة بأنه ميت. كان يجلس وقد مدد ساقيه أمامه ورأسه ملقى إلى الخلف بعض الشيء ويتكئ به على ظهر المقعد. وعندما اقتربت منه رفع رأسه، غير أنه لم يستطع إبقاءه منتصباً على الرغم من الجهد الواضح الذي بذله من أجل ذلك. كانت نظرته نظرة مخلوق حُلّت مشاكله كلها وجميع مشاعره ميتة والكلمات فقدت جميعها معانيها بالنسبة إليه وإصراره لا يتزعزع».

غير أنه في لحظة صفاء للذهن وافق جوجول على الإجابة على بعض الأسئلة الشخصية التي وجهها الطبيب له: «لم تكن له علاقات بنساء منذ وقت طويل. كما قال هو نفسه «بأنه لا يشعر بأية دوافع في هذا الاتجاه، وأنه لا يجد متعة مهما كانت ضئيلة من ذلك، وأنه لم يمارس الاستمناء». ولكن إلى أي حد يمكن قبول هذا النوع من الاعتراف الذي يدلي به شخص مراوغ مثل جوجول؟ وافق في هذا الاستجواب على فحصه ففتح فمه ليظهر لسانه. واستمع إلى تاراسينكوف وهو يلحّ عليه بأن يتناول بعض الحليب لتعزيز قوته، واستسلم في النهاية للإرهاق الذي اعتراه وارتمى رأسه فوق صدره.

في هذه الأثناء أرسل المطران فيلاريتوس الذي كان هو نفسه مريضاً أيضاً، أرسل رسالة إلى جوجول قائلاً إن عليه أن يطيع توجيهات الأطباء لأن الخلاص

هو في الطاعة وليس في الصيام. وقد أجابه جوجول بأنه سيترك نفسه بين يدي الله. كان قد استسلم في الواقع، ويد مرتجفة خط وصيته:

«باسم الأب والابن والروح القدس أوصي بكل ما لديّ لوالدتي وشقيقاتي، وأنصحهن بأن يعشن معاً في القرية يربطهن الحب. ويجب مكافأة الخدم الذين خدموني. اعتقوا ياكيم، وكذلك سيمون، وأود لقريتنا بعد وفاتي أن تصبح ملاذاً للفتيات غير المتزوجات اللاتي يردن تربية أيتام، ويجب أن يكون تعليمهم بسيطاً. تعليماً شفهياً وعملاً في الهواء الطلق. وبمرور الوقت يجب أن يصبح بيتنا ديراً إن قررت شقيقاتي أن يترهبن. أود أن أدفن إما في الكنيسة، وإن لم يتيسر ذلك ففي ساحة الكنيسة وأن ترتل التراتيل هناك دون انقطاع. عليكن أن تكنّ أوراحاً حيّة وليس أرواحاً ميتة، وليس هناك باب غير ذلك الذي دلّنا عليه المسيح. وكل من يحاول الوصول إلى الجنة عن أي طريق آخر هو شخص وغد ولصّ».

ثم أضاف على قصاصات ورق طويلة: «إن لم تصبحوا مثل الأطفال الصغار فلن تدخلوا مملكة الجنة».

«يا إلهي قيّد الشيطان بالأغلال بقوة صليبك».

«ماذا يمكنني أن أفعل لكي أحتفظ في قلبي بذكرى الدرس الذي تلقيته وأنا معترف بالجميل؟»

كانت أنامله من الضعف بحيث لا يمكنه دفع الريشة. نحّى معدات الكتابة جانباً وأصبح واضحاً له بأنه لن يكتب بعد كلمة واحدة في الأدب. غير أن هذا لم يزعجه إذ لم يعد للعالم المرئي أي أهمية في نظره بعد. دمدم: «دعوني وشأني. إنني مرتاح فيما أنا عليه». ظل يلتف بعباءته، ولم يعد يغتسل أو يمشط شعره الطويل الذي كان ينسدل على جبهته، أو يشذب شاربيه. وبهدف تشجيعه على تناول الطعام كان قس الأبرشية يحضر يومياً حيث يمضغ بصوت طاحن

حبات الخوخ أمامه، أو يزدرد العصيدة بطريقة مغرية. أخذ المريض يقلده مرغماً ولكنه لا يلبث أن يدفع الطبق بيده الهزيلة بعد اللقمة الأولى. وقد تساءل القس: «أي صلاة تريدني أن أتلوها؟» فيجيبه جوجول لاهثاً: «كلها جيدة، اقرأ، اقرأ». وفي يوم الأحد أقنعه القس بابتلاع ملعقة من زيت الخروع. لوى وجهه بعد أن ابتلعها وأعلن أنه لن يتناول بعد أي قوت. وقد تولد لدى أصدقائه الذاهلين شعور بأن ما يشهدونه هو انتحار بطيء وليس موتاً طبيعياً. وهاهو المريض يقدم على الانتحار، وهي جريمة في نظر الدين، لكي يلبي ما يعتبره إرادة الله.

سأله القس في يوم الاثنين، في الأسبوع الثاني من الصوم الكبير إن كان يرغب بتناول العشاء الرباني ويتلقى المسح الأخير بالزيت. وافق جوجول بفرح وأنصت بشغف أثناء تلاوة الإنجيل. كان يحمل شمعة مضاءة في يديه ودموع غزيرة تنهمر من عينيه. حاولوا في المساء إعطاءه بعض الدواء ولكنه صاح: «دعوني وشأني! لماذا تعذبونني؟» حضر عدد قليل من الأصدقاء لرؤيته. ولكنه امتنع عن فتح عينيه لدى دخولهم، وإن كان يطلب منهم أن يساعدوه لكي يشرب أو يبدّل وضعيته وهو جالس على المقعد. وعلى الرغم من أنه كان يتوق للموت غير أنه كان يخاف الاستلقاء في سريره لأنه ما إن يستلقي، كما قال، حتى يعجز عن النهوض ثانية بعد. ولكن مع تزايد ضعفه وافق في النهاية على الاستلقاء فوق السرير. تنهد حين سقط رأسه على الوسادة وقال: «إن كان الله يريدني أن أعيش فسوف أعيش».

في يوم الثلاثاء ١٩ شباط/ فبراير قرر الكونت تولستوي بأن للأطباء الأولوية على القسس في هذه المعركة ضد علة جوجول الغامضة. وبذلك تم الانتقال من تعاويذ الكنيسة الأرثوذكسية إلى تعاويذ العلم الحديث، من المثالية إلى الإيجابية، ومن الصلوات إلى جرعات الدواء. وعندما استدعي الدكتور تاراسينكوف إلى بيت الكونت تولستوي وجد القاعة مكتظة بجمع من الوجوه الفزعة. تساءل: «كيف حال جوجول؟» أجابه الكونت «سيئة! اذهب لتراه. يمكنك الدخول إلى غرفته فوراً».

كان جوجول مستلقياً على أريكته وهو يرتدي «الروب دوشامبر» وينتعل حذاءه وقد أغلق عينيه وأدار أنفه إلى الجدار. وكانت مسبحة تتدلى من يده وهو يواجه أيقونة مضاءة للعذراء المقدسة. وعندما جسّ الدكتور تاراسينكوف نبض المريض دمدم جوجول: «لا تلمسني رجاءً!» كان نبضه خافتاً ومتسرعاً ويداه باردتان وتنفسه منتظماً. وسرعان ما انضم إلى الدكتور تاراسينكوف اثنان من زملائه هما الدكتور «ألفونسكي» والدكتور «أوفر». وقد وافق هذان على اللجوء إلى التنويم المغناطيسي كطريقة للتغلب على كره المريض للطعام. في ذلك اليوم وقف منوم مغناطيسي مرموق، وهو الدكتور «سوكولوجورسكي»، وهو يمتلئ ثقة وتركيزاً، إلى جانب الرجل المشرف على الموت. وضع يداً على جبهته، والأخرى على تجويف معدته. عبس وجهه ولكن السائل لم يتدفق. غير أن جوجول تلوّى وقد أزعجته حركات الطبيب ودمدم: «دعني وشأني!» ابتعد الدكتور سوكولوجورسكي على الفور وهو ينفخ غيظاً واستبدل بزميل معروف بتماسكه واسمه الدكتور «كليمنتوف» الذي كان يفضل أسلوباً أكثر هجومية وأخذ يصيح بجوجول وكأنه يخاطب إنساناً أصم:

«هل يؤلمك رأسك؟»

«لا»

«معدتك؟»

«لا».

لم يجدِ الاستجواب نفعاً. غير أن الأطباء تمكنوا من تمرير كأس من المرق في حلق المريض. وعلى الرغم من صراخه وضعوا له تحميلة من الصابون.

اجتمع حوالي ظهر اليوم التالي (٢٠ شباط/ فبراير) في استشارة طبية كل من الدكتور «أوفر»، والدكتور «أفنيوس» والدكتور «كليمنتوف»، والدكتور «سوكولوجورسكي»، والدكتور «تاراسينكوف» والدكتور «فورفنسكي».

وقد تناقش هؤلاء العلماء الأساطين الستة بعد النظر في أسباب حالة الانهيار الجسدي للمريض (جهد عقلي مطوّل وشديد، دون غذاء، ورفض الأدوية)»، وتوصلوا إلى استنتاج بأنه ربما لم يعد سليم العقل تماماً. وقد طرح الدكتور أوفر سؤالاً صريحاً: «هل يتوجب علينا أن نتخلى عن الحالة، أم نعالجه كإنسان غير قادر على تحمل المسؤولية ونمنعه من التسبب في موته؟» أجاب الدكتور أفينيوس دونما تردد: «أجل، علينا أن نطعمه بالقوة». وما لبثوا أن توجهوا إلى غرفة المريض وتناوبوا وهم ينحنون فوقه، جسّه وطرح الأسئلة عليه. وقد كتب تاراسينكوف: «كانت معدته فارغة وطرية بحيث يمكن جس فقرات ظهره من خلالها بسهولة». أخذ الرجل يتلوّى ويصرخ وهو مسجى على أريكته والأيدي تجسّه في جميع أنحاء جسمه، والأسئلة تهاجمه والعيون العالمة تخترقه: «كفّوا عن تعذيبي بحق الله!» وأخذت التَشخيصات الطبية المكتوبة بأحرف لاتينية تتقافز حوله: «هوس ديني، التهاب المعدة والأمعاء الناجم عن الجوع». بل ذكر أحدهم وباء التيفوس. قطب الأطباء جبينهم لفترة مطولة. رنين الكلمات العلمية جعل جوجول يحدق برعب بهذا الرقص المجنون للأطباء في غرفة موته وهو الذي كان في الماضي سيّد من يحوّل البشاعة إلى خيال جامح. هل يمكن أن يكون قد حلم في ذلك اليوم البعيد حين كتب قصته «مذكرات رجل مجنون» بأنه سيتعرض يوماً ما في نهاية حياته لنفس التعذيب الذي تعرض له بطله الجدير بالشفقة؟ كان قد كتب في تلك القصة حينذاك: «لا أستطيع أن أتحمل ذلك! ماذا يفعلون بي بحق الله. إنهم يصبّون ماءً بارداً على رأسي. إنهم لا ينصتون لي، لا يرونني، ماذا يريدون مني، أنا الإنسان البائس؟ ما الذي يمكنني أن أعطيهم؟ ليس لديّ شيء».

وصف الدكتور أوفر بعد التشاور مع زملائه، وكأنما يتبع توجيهات الكاتب على المسرح، وصف فصد دمه وحمامات ساخنة بالتناوب مع صب الماء البارد على رأسه. وما لبث الأطباء أن انسحبوا خافضي الرأس تاركين أكثرهم نشاطاً، الدكتور كليمنتوف للإشراف على تنفيذ أوامرهم. أمسك

بجوجول وألقى به في حوض من الماء الساخن بينما أخذ خادم ماءً مثلجاً وصبّه فوق رأسه. ثم ما لبثوا أن وضعوه في فراشه عارياً ووضع الدكتور كليمنتوف نصف دزينة من حشرات العلق على أنفه، وهكذا أصبح ذلك الأنف الذي كان دائماً موضوعاً للكثير من كتابات جوجول، أصبح مادة لكابوس آخر. كانت حشرات سمينة تتعلق على منخريه، تعبّ دماءه، تتلوى وتلف وتمس شفتيه فيصرخ: «توقفوا! أبعدوا العلقات! أخرجوا العلقات من فمي!» غير أن أحداً لم ينصت له. كانت يداه مغلولتين ولذا لم يستطع أن ينتزع عن أنفه جمع الديدان الشرهة التي تلتهمه.

عاد الدكتور أوفر في الساعة السابعة مساءً إلى جانب سرير جوجول وقرر بموافقة الدكتور كليمنتوف أن يضع لصقات على أطرافه وفتح قروح في مؤخرة عنقه ووضع ثلج على رأسه وإعطاءه خليطاً من جذور نبات الخطمي وماء ورق الغار لمعدته. وقد استاء الدكتور تاراسينكوف الذي شاهد ما فعلوا بالمريض واستنكر تعامل زميليه الخشن معه.

كتب كاراسينكوف في «آخر أيام جوجول» «كانا يعاملانه وكأنه رجل مجنون ويصرخان بحضوره وكأنه أصبح جثة هامدة. ولم يكن كليمنتوف ليتركه وشأنه ولو لثانية واحدة، ويظل يدلّكه ويقلّبه ويصب نوعاً من الكحول الأكال على رأسه، وعندما كان المريض يئن يسأله الطبيب دون أن يكفّ عن تغسيله: «حسناً، هل هذا مؤلم الآن يا نيقولاي فاسييلفتش، ها؟ قل شيئاً». ولكنه كان ينشج ولا يجيب».

غادر كل من الدكتور أوفر والدكتور كليمنتوف في النهاية تاركين تاراسينكوف وحده إلى جانب الرجل المشرف على الموت. أصبح نبضه أضعف وتنفسه مخيفاً. كان يستلقي على جانب واحد ولا يستطيع الحركة ويشتكي بوهن من أن اللصقات تحرقه. إدخال تحميلة أخرى انتزع منه أنيناً متألماً. ثم طلب أن يشرب شيئاً فابتلع بعض المرق. وعلى الفور تقريباً سقط رأسه إلى الوراء.

من الواضح أنه لم يعد واعياً. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة صرخ صرخة عالية:

«السلّم! بسرعة! احضروا لي السلّم!».

في الفصل الأخير من «مقاطع مختارة من مراسلاتي مع أصدقائي» كان جوجول قد كتب: «الله وحده يعلم، ولكن ربما بسبب هذه الرغبة الغريبة (حب الإنسان لأخيه الإنسان بواسطة الله) هناك سلّم يقف جاهزاً ليرمى إلينا من السماء، وهناك يد تمتد إلينا لتساعدنا على الصعود بوثبة واحدة».

كان يبحث يائساً عن ذلك السلّم وعن تلك اليد وسط النور المتذبذب للمصباح. غير أن كل ما كان يراه هو زوج من النظارات التي تنحني فوق كتفه، وأيقونة مذهّبة، وقوارير أدوية فوق طاولة. وبما أن السلّم لم يكن ينزل إليه كان عليه أن يتطاول ليصل إليه. قام بمحاولة واحدة للنهوض، ولكن ساقيه لم تستطيعا حمله. كان يعاني من الدوار، وقام الدكتور تاراسينكوف وأحد الخدم بإجلاسه على مقعد ولم يعد قادراً على إسناد رأسه فسقط «مثل رأس طفل وليد» كما كتب تاراسينكوف. نقلوه إلى السرير من جديد وألبسوه قميصاً. وما لبث أن فقد الوعي، ثم استعاده ولكن دون أن يفتح عينيه. كانت قدماه باردتين كالثلج فدسّ الدكتور تاراسينكوف قارورة ماء ساخن في فراشه ولكنها لم تؤثر فيه، فقد كان يرتعش وغطى وجهه المهزول عرق بارد، وظهرت دوائر زرقاء حول عينيه. وعند منتصف الليل جاء الدكتور كليمنتوف ليحل محل الدكتور تاراسينكوف. وليريح الرجل المشرف على الموت أعطاه جرعة من الذرور المسهّل للأمعاء ووضع أرغفة من الخبز الساخن حول جسمه. بدأ جوجول يئن من جديد وأخذ ذهنه يضلّ وهو يردد بهدوء طوال الليل ويهمس: «هيا!» ثم «قم، اهجم! اهجم على المطحنة». وما لبث أن ازداد ضعفاً وأصبح وجهه غائراً وكالحاً. وغدا تنفسه ضئيلاً غير ملحوظ وبدا كأنه يهدأ، أو على

الأقل لم يعد يعاني. وفي الساعة الثالثة من صباح يوم ٢١ شباط/ فبراير ١٨٥٢ زفر زفرته الأخيرة ولم يكن قد بلغ الثالثة والأربعين من عمره بعد[١].

عندما وصل أول المعزين كان جوجول ممدداً على طاولة مرتدياً معطف فراك قديماً وفي وجهه الذي غدا غائراً بسبب المرض بدا أنفه أطول من أي وقت مضى وحاداً كشفرة السكين،، وشارباه متدليين فوق فم ينم عن الهدوء ورباطة الجأش. وجفناه المقببان الداكنان كانا وكأنما يحرسان نوم مريض يتماثل للشفاء، وتاج من ورق الغار موضوع فوق خصلات شعره. كان هناك قس يتمتم بصلوات، ونحات يشكل قناع موت. وفيما بعد قام الرسام «مامونوف» برسم مخطط لذلك الجسد الضئيل المنكمش وهو يتمدد في تابوته.

كتب أكساكوف لأبنائه بعد رؤيته للجسد (في ٢٣ شباط/ فبراير ١٨٥٢):

«لم يكن جوجول بالنسبة إلي من بني البشر. ولذا، وعلى الرغم من أنني كنت في شبابي أخاف الموتى فإن هذا الشعور لم يصبني الليلة الماضية على الإطلاق».

كيف كان رد فعل الأب ماثيو على موت جوجول؟ هل شعر بالشفقة على ذلك الشهيد الممزق بين فنه وعقيدته الدينية؟ هل ندم لأنه نصحه بكل قوة بالإقلاع عن العمل الذي قضى حياته فيه؟ أم أنه شعر بالرضا عن نفسه لأنه قام بواجبه؟

يبدو كأنه كُتب في السماء بأن يسبب جوجول الشقاق بين أصدقائه حتى النهاية المريرة. ففي بيت الكونت تولستوي أصرّ المتمسكون بالمبادئ السلافية

(١) لتفسير موت نيقولاي جوجول تحدث الأطباء عن نزلة معوية، أو تيفوس، والتهاب المعدة والأمعاء، غير أنه كان مصاباً باستمرار بمرض عصبي، وصيامه المطول زاد من حدة إصابته بفقر الدم مما جعل مقاومته البدنية تتردى. ويقول الدكتور «باجينوف» إن علاجه كان يجب أن يقوم على العكس تماماً مما أجري له. كان يجب أن يتم إطعامه قسراً وأن يعطى حقن سائل ملحي تحت الجلد بدلاً من فصد دمه. (تاجينوف - مرض جوجول ووفاته - موسكو ١٩٠٢).

يقودهم أكساكوف بأن تجري مراسم الجنازة في كنيسة الأبرشية التي كان من دأب جوجول الصلاة فيها، بينما طالب البروفسور «جرانوفسكي» «ذو الميول الأوروبية» بأن تتم على العكس من ذلك في كنيسة الجامعة إذ إن المتوفى يتبع كنيسة الجامعة فهو ينتمي لسلك المربين. «لا يمكن ذلك» هذا ما أعلنه المتمسكون بالمبادئ السلافية «فهو لم يكن قط عضواً في الهيئة الجامعية، بل كان ينتمي للشعب ولذا يجب أن تتم الجنازة في كنيسة الأبرشية حيث يمكن لأي شخص أن يأتي، سواء أكان يسير على قدميه أم يركب عربة أو كان أي شخص يريد أن يعبر عن احترامه. أما في كنيسة الجامعة فلا يسمح بدخول الناس العاديين.

أخذ النزاع يزداد سخونة إلى جانب التابوت، ولذا كان الكونت زاكريفسكي هو الذي سوّى الأمر: أن يحمل التابوت إلى كنيسة الجامعة على أن تعلن الكنيسة مفتوحة للجميع بهذه المناسبة. وقد قرر ذوو الميول السلافية الغاضبون مقاطعة الجنازة. وفي (٢٢ شباط/ فبراير) حمل النعش وهو مفتوح، تبعاً للعادات المتبعة، إلى كنيسة الجامعة حيث حمله لفيف من الأدباء بمن فيهم «أوستروفسكي». وليومين ظلت الخيول والعربات تشق طريقها ذاهبة غادية في شارع «نيكيتسكايا» الذي كانت تحتشد فيه الجموع التي تنتظر للدخول والمرور أمام جثمان الكاتب. توجه الناس من مختلف الطبقات للانحناء أمام ذلك الرأس الشمعي الذي يزينه إكليل من الغار، ذلك الرأس الذي طالما أضحكهم. وقد وقف رجال الأمن الذين يرتدون ملابسهم الرسمية وأولئك الذين يلبسون ملابس مدنية، للتأكد من عدم حدوث أي اضطراب. إذ لا يمكن الوثوق من عدم وجود دوافع مريبة تكمن خلف إعجاب الناس بكاتب ما، مهما كان هذا الكاتب.

في يوم الأحد (٢٤ شباط/ فبراير) حضر الكونت زاكريفسكي الجنازة شخصياً وهو يرتدي ملابسه الرسمية، وقد غطي النعش بزهور الكاميليا وباقة من الزهور المجففة التي تحتفظ بشكلها لفترة طويلة موضوعة بين يدي الكاتب. لم يتسنّ الوقت الكافي لإبلاغ والدة الكاتب وشقيقاته في قريتهن الأوكرانية البعيدة، ولذا لم يحضرن الجنازة في موسكو. غير أن الكنيسة كانت مليئة،

وعندما حلّ وقت الوداع النهائي ازداد الحشد ضغطاً بحيث كادوا يقلبون النعش. الكل يريد أن يقبل يده أو ينتزع ورقة غار من إكليله. وبهدف الحد من هذا الإسراف في التعبير عن العواطف قام منظمو الجنازة بإغلاق غطاء النعش حاجبين وجه الميت الذي لم يعد يكترث لشيء عن أعين الجموع التي تحدّق فيه. قام كل من البروفسور جرانوفسكي، وكودريافتسيف، وأنكوي، ومورروشكين، وسولوفييف برفع النعش على أكتافهم إلى أن تناوله طلبتهم منهم. سار موكب الجنازة في غير نظام عبر الشارع الذي يغطيه الثلج والرجال يسيرون على الأقدام والنساء يتبعنهم في عرباتهن. تم الدفن في مقبرة دير القديس دانيال. كان يوماً بارداً صافياً والثلج يتلامع تحت ضوء الشمس، وكان القبر قد حفر غير بعيد عن قبر «ياسيكوف» وشقيقته، السيدة «خومياكوف» التي كانت قد توفيت قبل أسبوعين.

شملت قائمة ممتلكات المتوفى ساعة ذهبية كانت لبوشكين يوماً ما، ومعطفاً صوفياً اسود اللون له ياقة من المخمل وسترتي فراك سوداوين من قماش صوفي، وثلاثة سراويل مهترئة بعض الشيء من الكتان، وأربع ربطات عنق قديمة (اثنتين من التافتا واثنتين من الحرير)، وطقمين من الملابس الداخلية، وثلاثة مناديل. لانقود أو جواهر أو أوراق هامة، ملابس شخص معوز. ولكن هناك أعماله.

كيف نظرت السلطات لهذه الأعمال؟ لم يهاجمها جوجول كما لم يهاجم الكنيسة في كتاباته ولكنه هزئ من المسؤولين وملاك الأراضي، الخدم الكبار المتواضعين للنظام. ولكن حتى الأدب الذي يبدو ظاهرياً غير مؤذ على الإطلاق إنما هو الوسط المثالي الذي كثيراً ما تستنبت فيه جراثيم التدمير وترى سابحة فيه، كما يعرف الجميع. فالحصافة تقتضي في هذه الحالة التخفيف من تفجعات النخبة الأدبية. وقد نشرت دورية «المسكوفيت» نعياً له مؤطراً بالسواد مما أثار رداً فظّاً من بلجارين عميل الشرطة المأجور في مجلة «الشمال» حيث يقول: كل التفاصيل عن مرض هذا الرجل عرضت علينا وكأنه إنسان مرموق، وكأنه الشخص المحسن لبني البشر».

على الرغم من هذا التحذير فقد كتب تورجنيف مقالاً رثائياً مختصراً يعبر فيه عن حزنه، وعرضه على رقيب سانت بطرسبرج الذي رفض الموافقة عليه. غير أنه لم ينثن فأرسل مقالته إلى «موسكو نيوز» فوافق عليه الرقيب هناك دون تمحيص.

كتب تورجنيف: «جوجول مات، فأي روح روسية لم تصدمها هاتان الكلمتان. خسارتنا قاسية جداً ومفاجئة جداً بحيث أننا لا نستطيع تقبّلها بعد. لقد مات ذلك الرجل الذي لنا الحق بأن نصفه بمرارة بأنه رجل عظيم، الرجل الذي أطلق اسمه على هذه الحقبة من تاريخ أدبنا، رجل نفخر به كما نفخر ببطل قومي. وشأن أنبل أسلافه فقد سقط في ذروة حياته، وفي مرحلة اكتمال قدراته دون أن يستكمل العمل الذي كرس له عمره[١]».

أغضب نشر هذا المقال قائد الشرطة، خصوصاً وأنه ربط بين جوجول وكل من بوشكين وليرمنتوف وجروبويدوف مما جعله، أي جوجول، أكثر إثارة للشكوك لدى السلطات. وقد كتب موظف في القسم الثالث تقريراً حول تدبير المكائد من قبل عالم الأدب الذي وصفه بأنه «يعتبر اليوم العميل النشيط الذي يدبّر كل المكائد التي تشهدها الإمبراطورية». وقد اقترح استدعاء تورجنيف وتأنيبه ووضعه تحت مراقبة الشرطة. غير أن الإمبراطور «نيقولاس الثاني» اعتبر ذلك غير كافٍ. ألم يجرؤ تورجنيف ذاك على التعبير عن تعاطفه مع الأقنان في قصصه التي نشرتها دورية المعاصر (كونتمبوراري)؟ (جمعت هذه القصص ونشرت في السنة نفسها في مجلد حمل عنوان «قصص رياضي») إنه يستحق أن يتلقى درساً. كتب القيصر على هامش التقرير بيد حازمة: «اعتبر ذلك غير كاف. يجب أن يعاقب تورجنيف باعتقاله لمدة شهر ومن ثم ينفى إلى مقاطعته». هذا الحكم لم يكن قابلاً للاستئناف. ولذا سجن تورجنيف على الفور، ومن ثم أرسل إلى بيت عائلته في سباسكوي – لوتوفينوفو.

(١) يشير تورجنيف هنا إلى كل من بوشكين وليرمنتوف وجريبويدف وكلهم ماتوا موتاً عنيفاً في سن مبكرة من حياتهم.

كان على الإدارة الإمبراطورية التعامل بعد ذلك مع مشكلة أخرى: هل تسمح بطبع الأعمال الكاملة لهذا الكاتب التي يبدو أن الجمهور مغرم به إلى درجة كبيرة؟ كانت لدى المطبعة بالفعل. كلا، من الأفضل إرجاء مثل هذا التقدير لأعمال الكاتب. صدر أمر للرقابة برفض أية أسطر تحمل توقيع الكاتب المتوفى. أصبح هذا الكاتب الذي تملّق السلطات في حياته مشبوها لدى أولئك الذين تملّق لهم أنفسهم. وقد أعلن «دوبيليت» رئيس أركان دائرة الشرطة في تقرير كتبه: «وجدت الرقابة في أعمال جوجول التي سبق طبعها، وتلك التي ما تزال موجودة كمخطوطات، مقاطع مطولة في كل صفحة تقريباً يجب أن تكون موضع استنكار، لا لأنها تحوي أفكاراً ضارة، بل لأنه يمكن للقراء أن يفسروها على نحو خاطئ، ولذا فهي تستحق الشجب». وكان على أصدقاء جوجول أن يشنوا حرباً مع الرقابة طوال ثلاث سنوات ونصف السنة قبل التوصل إلى إذن بطباعتها[1].

ظلت الصحف ملتزمة بسياسة التحفظ هذه، غير أنه بمرور الأشهر، وبدلاً من أن يغرق اسم جوجول في غياهب النسيان فقد اكتسب شعبية فاقت ما يتوقعه أكثر أصدقائه حباً له. وفي حين كان جسده يتحلل في قبره أخذ اسمه وأعماله يتناميان أكثر فأكثر. وأحس معاصروه إحساساً غامضاً بأن هذا الرجل المريض المراوغ، المعذّب، المزهو، الكذوب، الفظيع ضئيل الحجم هو أكبر من مجرد مبدع استثنائي «للمفتش العام» و»نفوس ميتة»: بل إنه أطلق حركة لايمكن لأحد بعد أن يكبح جماحها في أدب بلاده. فقد بدأ التطور المذهل للرواية في روسيا في القرن التاسع عشر على جرسين: أحدهما وضّاء والآخر مظلم: بوشكين وجوجول، واقعية بوشكين مختصرة، شفافة، شاعرية،

(١) حيث قام ابن أخت جوجول تروشكوفسكي بإعادة طباعة أعماله الكاملة في عام ١٨٥٥ – ١٨٥٦، الأجزاء الأربعة الأولى ضمت الأعمال الكاملة التي كانت قد طبعت في عام ١٨٤٢ والجزءان الآخران ضما أعمال جوجول التالية.

وواقعية جوجول: محرّفة، خيالية، ساخرة، وكئيبة. اعتدال لدى بوشكين ومبالغة لدى جوجول.

جمع كل الكتّاب الروس الذين خلفوهما هذين العنصرين الأصيلين بنسب متفاوتة بحيث يمكن العثور على أجنة الإبداعات الأكثر جرأة لدى من جاء بعدهما لدى هذين السلفين العظيمين. وفي اللحظة التي ظن فيها هؤلاء الخلفاء أنهم إنما وجدوا شيئاً جديداً إنما كانوا في الواقع يغمسون أقلامهم دون وعي منهم في تينك الذخيرتين الهائلتين بما تضمّنانه من أفكار وشخصيات. فمن جوجول جاءت الشفقة على الطبقات الوضيعة والضعيفة التي تنساب في جميع أعمال دستويفسكي وتولستوي. ومن بوشكين جاء ذلك السرد الموضوعي المباشر والذي يبعث الحيوية في أفضل أجزاء «الحرب والسلام». فمن «تنتنيكوف» في الجزء الثاني من «نفوس ميتة» ولد «ليفين» في «أنا كارانينا». و«بودكوليوسين» في «قصة زواج» لجوجول يطلع علينا من جديد في شخصية «أبلوموف» «لجونشاروف». وأبطال «تورجنيف» و «سولتيكوف –شيشيدرين» و«ليسكوف» و «تشيخوف» و «جوركي» و «ريميزوف» وغيرهم كثيرون هم في الواقع نسل شخصيات «المفتش العام» و «المعطف». وحتى قبل ظهور كتب هؤلاء الكتاب قام هناك حدس غامض لدى القراء بأن جوجول هو من يجب أن يشكروه لتلك النهضة التي حققها الأدب الروسي. وذلك الأديب الذي ظل يشتكي طوال حياته لافتقاره للحب أصبح يتمتع بأهمية مضاعفة لدى أبناء وطنه بعد موته، بحكم ما كتبه هو نفسه وبما كتبه الآخرون بعده بفضل إلهامه لهم.

في شهر أيار ١٨٥٢، وبعد شهرين ونصف الشهر من موت جوجول قام الشاب «جريجوري دانييلفسكي» بالحج إلى فاسيلييفكا. وهو يقول في كتابه «علاقاتي مع جوجول» إنه على بعد عدة فراسخ من القرية طلب من السائق أن يتوقف لكي يستفسر من فلاحة تحمل طفلاً عن المكان. قالت له: «يقولون إن

جوجول مات. ولكن هذا غير صحيح، فقد دفن مرشد روحي تقي آخر عوضاً عنه. يبدو أنه ذهب إلى القدس ليصلي من أجلنا. ذهب ولكنه سيعود».

صعد دانييلفسكي إلى عربته من جديد وما لبثت أن ظهرت بين تلتين كنيسة صغيرة لها قبة خضراء، ثم بيوت مطلية بالجير الأبيض، وبعد ذلك بيت كاتب «نفوس ميتة»، بناء خشبي خفيض ذو سقف قرميدي أحمر. وإلى يمينه ملحق ومبنى إضافي متصل بالبيت، وإلى اليسار بعد ذلك حديقة وبرك حولها أشجار عتيقة، وتمتد خلفه السهوب الأوكرانية إلى ما لا نهاية.

وفجأة ظهرت أمام المسافر ثلاث نساء يرتدين السواد: أمه واثنتان من شقيقاته، هما أنّا وأولجا. أما الثالثة التي ما تزال على قيد الحياة: إليزافيتا (والتي كانت قد تزوجت بايكوف) فكانت تعيش في كييف. وقد أدهشت جريجوري دانييلفسكي نضارة الشباب اللافتة للنظر لدى ماريا إيفانوفنا جوجول: قوية، ثابتة، لا تجعيدة واحدة في وجهها الوردي المنسّق تحت قبعتها البيضاء، وظلٌّ من الحزن يظهر في ارتعاشة شفتيها الغليظتين. وبعد أن قادت الزائر إلى قاعة الاستقبال أخذت تتحدث عن ابنها بنبرة يعمّها التبجيل والاحترام. وقالت وهي تمسح الدموع التي تدفقت من جفنيها الثقيلين: «القيصر نفسه كان يعرف ابني وكان يعتبره عضواً في هيئة مساعديه بفضل كتاباته. كان يعطيه راتباً!».

«عاش ابنك سنوات عديدة في الخارج».

«أجل، حوالي عشر سنوات. غير أنه حتى هناك كان في خدمة وطنه بقلمه!»

أدخل جريجوري دانييلفسكي إلى مكتب الكاتب في الملحق، وفيه مكتبه الطويل المصنوع من خشب الكمثرى، وسريره، وأيقوناته، وكتبه المحفوظة في خزانة. كما خرج ليتمشى في الحديقة خلف الكنيسة وحول البركة حيث كان جوجول يحلم بأبطاله.

أخذت التنانير السوداء الثلاثة تعلق بالأعشاب الخشنة وصاحباتهن يمشين وماريا إيفانوفنا تتنهد وتبكي. غير أنها سعدت أيما سعادة للحديث عن ابنها لسيّد قدم من بعيد بحيث أن جريجوري دانيلفسكي وجد صعوبة في انتزاع نفسه من المكان بعد[1].

□ □ □

(١) توفيت والدة جوجول في فاسيلييفكا في عام ١٨٦٨ وكانت في السابعة والسبعين من عمرها. أما أخته أولجا (١٨٢٥-١٩٠٧) فقد تزوجت الرائد المتقاعد «جولوفنيا» وأنجبت ولدين وبنتاً. وأما آنا (١٨٢١-١٨٩٣) فلم تتزوج قط. تروشكوفسكي، ابن أخت جوجول الكبرى ماريا (التي توفيت عام ١٨٤٤) تولى مسؤولية تحرير أعمال خاله الكاملة (١٨٥٥-١٨٥٦) ومات مجنوناً عام ١٨٦٥. ومن باب المصادفة أن ابن أخته إليزافيتا، التي كانت قد تزوجت من بايكوف (والتي ترملت عام ١٨٥٦ وتوفيت عام ١٨٦٤)، تزوج من حفيدة بوشكين «ماريا أليكساندروفنا».

الفهرس

الصفحة

الجزء الأول

١– الطفولة ٥

٢– مدرسة نيبيجن ٢٢

٣– الخطوات الأولى في سانت بطرسبرج ٥٨

٤– الموظف ٧٧

٥– أمسيات في مزرعة قرب ديكانكا ١٠٢

٦– راوح مكانك ١١٦

٧– الأستاذ المساعد ١٤٤

٨– أرابيسكس وميرجورود ١٥٧

٩– المفتش العام ١٧٦

١٠– عرض المسرحية ١٩٣

الجزء الثاني

١– أثناء الرحلة ٢١٣

٢- باريس ٢٢٤
٣- روما ٢٣٩
٤- العودة إلى الوطن ٢٧٤
٥- الرحلة الثانية إلى روما ٣٠١
٦- الصراع حول نفوس ميتة ٣٢٩
٧- نفوس ميتة ٣٥٧

الجزء الثالث

١- تربيع الدائرة ٣٩٥
٢- مقاطع مختارة من مراسلاته مع أصدقائه ٤٥٨
٣- القدس ٤٩٥
٤- آخر الأسفار ٥٠٣
٥- نهاية نفوس ميتة ٥٤٥

المؤلف: هنري ترويا

(١٩١١- ٢٠٠٩)

- أديب فرنسي كبير من أصل روسي أرمني، ولد عام ١٩١١ لأسرة من التجار والمستثمرين في موسكو، وغادرها إلى فرنسا عام ١٩١٧، درس القانون، واتجه إلى الأدب، وحصل عام ١٩٣٨ على جائزة غونكور المشهورة على روايته «الشبكة» .
- صار عضواً في الأكاديمية الفرنسية أطول مدة عرفتها الأكاديمية لأحد أعضائها، حيث ظل في هذا المنصب لأكثر من أربعين عاماً.
- له أعمال كثيرة، فهو من أغزر المؤلفين عطاء، إذ كتب في الرواية والقصة والمسرحية والتاريخ، وحُوِّلت بعض رواياته إلى أفلام ، إلا أن المجال الذي عُرف به على نحو خاص كان كتابة السيَر، حيث وضع السير الذاتية لعدد من ألمع الكتاب الروس والفرنسيين مثل تولستوي وديستييفسكي وغوركي وباسترناك وليرمنتوف وتورجينيف وإميل زولا وبلزاك وفلوبير وغيرهم، والكتاب الذي نقدمه اليوم عن غوغول بكل تأكيد.
- ظل يكتب إلى ما قبل وفاته بعام، حيث نشر آخر أعماله رواية «الصيد» ووصف عند وفاته بــ«عملاق الأدب الفرنسي» وكتبت الفيجارو: «مات الكاتب المفضل عند الفرنسيين».

المترجمة : حصة منيف

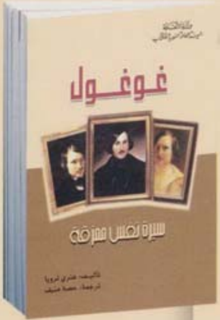
- مترجمة سعودية معروفة وأخت الروائي الكبير المرحوم عبد الرحمن منيف، تخرجت في قسم اللغة الإنكليزية - جامعة دمشق، وعملت في ميدان الإعلام والترجمة الإذاعية - إذاعة دمشق.
- عملت مديرة لخدمات الترجمة في مستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث في الرياض.
- وعملت محاضرة في قسم اللغة الإنكليزية في جامعة دمشق وجامعة الملك سعود في الرياض.
- ترجمت أكثر من عشرين كتاباً في القصة والدراسة الأدبية والفكر والسياسة والعلوم.
- من أبرز ترجماتها:

  ديمقراطية للقلة للكاتب الأمريكي مايكل آرلنتي.

  الرواية العربية لروجر آلن.

  أنطون تشيخوف لهنري ترويا.

الطبعة الأولى / ٢٠١٠
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



هذا الكتاب

«حتى الذي لا يخاف فهو يخاف من السخرية»

هذا ما قاله الكاتب الروسي العظيم **غوغول** ذات يوم، لهذا فعلى الرغم من كونه سعى على الدوام ليكون قريباً من القياصرة.. وساعياً لنيل أعطياتهم، لكن موهبته العظيمة منعته من أن يخون رسالته الأدبية فقدَّم أدباً ساخراً خالداً جرَّ عليه الغضب الرسمي، وتردَّد صداه في الإمبراطورية الروسية والعالم ضد الظلم بكل أشكاله، مما جعله يتشرد ويعيش حياته وهو يهذي حدَّ الجنون.. بسبب ما تركته أعماله من آثار مدويَّة في مجتمعه، لكن حفر اسمه في قلب شعبه إلى الأبد.

في هذا الكتاب الساحر يروي ترويا بأسلوبه السلس والطافح بالتشويق والدقة حياة شخصية لن ينساها الأدب العالمي، إنه أشبه برواية عذبة تقدم لنا حياة غوغول صاحب الروائع التي عرفها قارئنا العربي من قبل: **«المفتش العام» «المعطف» «الأنف» «خطوبة»** وغيرها.. وصاحب العمل الكبير الخالد **«نفوس ميتة»**.

غوغول أكبر من أي تعريف وأية إشادة، ويكفيه أن الناقد **بيلنسكي** قال عنه: **«غوغول يقف في المكان الذي خلَّفه بوشكين»** أما **ديستييفسكي** فقد توَّج كاتبنا بكلمته التي أضفت هالة معلم الأجيال عليه عندما قال: **«كلنا خرجنا من معطف غوغول»**!

حياة غنية ومضطربة وصلت إلى حافة الجنون، وعطاء متنوِّع قلما تعرف الآداب مثله في العمق والتعبير عن حركة الحياة والتاريخ، كل ذلك في إطار من أدب ساخر رفيع يزلزل الخطأ أينما وُجد، في سخرية تملأ قلبك بالمتعة، لكنها المتعة التي تقطر دماً ودموعاً بعد ذلك، فغوغول نفسه قال: **«السخرية أكثر الأشياء جدية»**.

لهذه المعاني جميعها تفخر الهيئة العامة السورية للكتاب بتقديم هذا العمل النفيس ضمن رسالة تطمح إلى ترسيخ قيم الأدب الخالد.. وتكريماً لواحد من الأدباء الذين صنعوا ضمير البشرية.

الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

www.syrbook.gov.sy

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٠

توزيع دار صفحات للدراسات والنشر